

خَلْقُ الْإِنْسَانِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

(دراسة وصفية تحليلية)

تأليف الدكتورة/

إلهام أحمد محمد علي البعداني

اعتنى به

د. محمد نعمان محمد علي البعداني

الطبعة الأولى

١٤٣٧هـ الموافق له ٢٠١٦م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلفة

أصل هذا الكتاب رسالة علمية نالت بها الباحثة درجة الدكتوراه بامتياز من شعبة التفسير
وعلوم القرآن بدائرة القرآن الكريم والدراسات الإسلامية في جامعة القرآن الكريم والعلوم
الإسلامية بالسودان هذبت حواشها وحذفت مقدمتها وفهارسها

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ

وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ

أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾

المقدمة

إن الحمد لله، نستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ، ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(١)، ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾^(٢)، ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾^(٣).

أما بعد: فقد أكمل الله ﷻ لنا الدين، وأتم علينا النعمة، ورضي لنا الإسلام ديناً، وختم بالشرعية الإسلامية الشرائع، وبمحمد ﷺ النبوات، وأيده بالمعجزات التي تدل على صدقه ﷺ، ومن أعظم معجزاته ﷺ القرآن الكريم، الذي جعله الله ﷻ دستوراً للبشرية، وتكفل الله ﷻ بحفظه، وضمنه علمه، كما قال الله تعالى: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾^(٤)، وإن من هذا العلم ما يظهر بوضوح وجلاء في

١- سورة آل عمران: الآية ١٠٢.

٢- سورة النساء: الآية ١.

٣- سورة الأحزاب: الآية ٧٠-٧١.

٤- سورة النساء: الآية ١٦٦. قال ابن كثير: «أي فيه علمه الذي أراد أن يطلع العباد عليه من البيئات والهدى والفرقان، وما يحبه الله ويرضاه، وما يكرهه ويأباه، وما فيه من العلم بالغيوب من الماضي والمستقبل، وما فيه من ذكر صفاته تعالى المقدسة التي لا يعلمها نبي مرسل ولا ملك مقرب إلا أن يعلمه الله به» تفسير القرآن العظيم ٧٢٦/١، وقال ابن عاشور: «ومعنى ذلك أنه معجز لفظاً ومعنى، فكما أعجز البلغاء من أهل اللسان أعجز العلماء من أهل الحقائق العالية» التحرير والتنوير ٣٢٦/٤، وهذا أحد وجوه إعجاز القرآن الكريم -أي ما أودعه الله ﷻ فيه من علوم ومعارف واسعة-.

هذا العصر، عصر العلم والاكتشافات العلمية، ليمثل بذلك إعجازاً علمياً لهذا الكتاب الكريم في عصر العلم، وإن هذا النوع من الإعجاز قد أذعن له كبار رواد العلم ومختصيه، ليطلق أحدهم كتاباً سماه (القرآن يسبق العلوم الحديثة)، ومن هذه المعجزات التي حواها هذا الكتاب الكريم معجزة خلق الإنسان، إذ تحدث عنها القرآن الكريم بدقة بالغة، تشهد أنه كتاب نزل من عند الله ﷻ؛ إذ يعجز البشر في عهد محمد ﷺ، وفي البيئة التي عاش فيها، أن تتحدث عن خلق الإنسان وتصفه بدقة متناهية، لم يقف البشر على الكثير من أسرار ذلك إلا في عصر الاكتشافات العلمية، بعد أن استطاعوا مشاهدة ما يدور داخل الأرحام، ودخل كل خلية في جسم الإنسان، وليس ذلك فحسب بل إنه معجز في ألفاظه بما تحويها من عبارات يسيره ومعان كثيرة، وإنه ومن خلال ممارسة التدريس والدعوة إلى الله ﷻ يجد الواحد منا أن الوقوف على تفسير كتاب الله ﷻ، مع ربط ذلك بحقائق ومكتشفات العلم، يؤثر أثراً بالغاً في النفوس، ورأيت أن موضوع خلق الإنسان في القرآن جدير بهذه الخدمة التي يظهر من خلالها معجزة القرآن في بيان خلق الإنسان، وزاد إصراري على ذلك عندما اطلعت على كتابات للطاعنين والمرجفين في حديث القرآن عن خلق الإنسان، ولا يدمغ هؤلاء الماديين إلا الأدلة المشاهدة الملموسة والتي امتن الله ﷻ ببيئتها في أرجاء الكون، وحث البشر على النظر والتأمل والتفكير فيها، وكشف ﷻ من خلال تقنية العلوم الحديثة كثيراً من الأسرار في موضوع خلق الإنسان، كشفاً يتطابق تطابقاً تاماً وعجيباً مع ما جاء في كتاب الله تعالى، لتتجلى المعجزة الشاهدة على صدق الرسول والرسالة وتقام الحجة، سائلة من الله التوفيق والسداد، والقبول والرضى، وأن يجعل هذا العمل نافعاً وخالصاً لوجهه الكريم.

المؤلفة/ إلهام أحمد محمد علي البعداني

الفصل الأول: أصل خلق الإنسان والرد على نظرية التطور

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الخلق من الأرض ومراحل خلق آدم ﷺ

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الخلق من الأرض ومراحل خلق آدم ﷺ في القرآن الكريم.

المطلب الثاني: الخلق من الأرض في ضوء المكتشفات العلمية.

المطلب الثالث: ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها.

المبحث الثاني: الخلق من نفس واحدة وخلق زوجها

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الخلق من نفس واحدة وخلق زوجها في القرآن الكريم.

المطلب الثاني: الخلق من نفس واحدة وخلق زوجها في ضوء المكتشفات العلمية.

المطلب الثالث: ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها.

المبحث الثالث: نظرية النشوء والتطور

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: التعريف بنظرية النشوء والتطور وآثارها.

المطلب الثاني: تنفيذ نظرية النشوء والتطور من الشرع.

المطلب الثالث: موقف علماء الغرب من نظرية النشوء والتطور.

المطلب الرابع: تنفيذ نظرية النشوء والتطور عقلياً وعلمياً.

المطلب الخامس: ملخص الدراسة وأثرها.

المبحث الأول

الخلق من الأرض ومراحل خلق آدم ﷺ

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول:

الخلق من الأرض ومراحل خلق آدم في القرآن الكريم.

المطلب الثاني:

الخلق من الأرض في ضوء المكتشفات العلمية الحديثة.

المطلب الثالث:

ملخص الدراسات القرآنية والعلمية وأثرها.

المطلب الأول: الخلق من الأرض ومراحل خلق آدم عليه الصلاة والسلام في القرآن الكريم

الآيات الواردة:

قال الله ﷻ: ﴿مِنَّا خَلَقْنٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرٰى﴾^(١).

وقال ﷻ: ﴿وَالِىٰ ثَمُوْدَ اٰخَاهُمْ صٰلِحًا قَالَ يٰقَوْمِ اَعْبُدُوا اللّٰهَ مَا لَكُمْ مِّنْ اِلٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ اَنْشَاَكُمْ

مِنَ الْاَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوْهُ ثُمَّ تُوْبُوْا اِلَيْهِ اِنَّ رَّبِّيْ قَرِيْبٌ مُّجِيْبٌ﴾^(٢).

وقال ﷻ: ﴿هُوَ اَعْلَمُ بِكُمْ اِذْ اَنْشَاَكُمْ مِّنَ الْاَرْضِ وَاِذْ اَنْتُمْ اَجْنَةٌ فِى بُطُوْنِ اُمَّهَاتِكُمْ﴾^(٣).

وقال ﷻ: ﴿وَاللّٰهُ اَنْبَتَكُمْ مِّنَ الْاَرْضِ نَبَاتًا﴾^(٤).

أقوال المفسرين:

قوله ﷻ: ﴿مِنَّا خَلَقْنٰكُمْ﴾ أي: من الأرض خلقناكم أيها الناس^(٥).

والخلق أصله الإيجاد على تقدير وتسوية، وأطلق في القرآن الكريم وكلام الشارع على إيجاد الأشياء المعدومة، وإخراجها إلى الوجود إخراجاً لا صنعة فيه للبشر؛ فإن إيجاد البشر بصنعتهم أشياء إنما هو تصويرها بتركيب متفرق أجزائها، وتقدير مقادير مطلوبة منها، كصانع الخزف، وخص اسم الخالق ﷻ به فلا يطلق على غيره، ولهذا كان من صفاته الكريمة الخالق، ولو أطلقه أحد على غير الله تعالى بناء على الحقيقة اللغوية لكان إطلاقه إقداماً في حمق وخرقاً وقلة مبالاة وضبط،

١- سورة طه: الآية ٥٥.

٢- سورة هود: الآية ٦١.

٣- سورة النجم: الآية ٣٢.

٤- سورة نوح: الآية ١٧.

٥- جامع البيان في تأويل القرآن المعروف بتفسير الطبري لمحمد بن جرير الطبري ٣٢١/١٨.

فيجب أن ينبه على تركه^(١)، فالخلق وإيجاد العوالم وأجناس الموجودات وأنواعها، وتولد بعضها عن بعض بما أودعت الخلقة الإلهية فيها من نظام الإيجاد، كتكوين الأجنة في الحيوان في بطونه وبيضه، وتكوين الزرع في حبوب الزريعة، وتكوين الماء في السحب، ذلك كله خلق، وهو من تكوين الله ﷻ، ولا عبرة بما قد يقارن بعض ذلك الإيجاد من علاج الناس، كالترويح، وإلقاء الحب والنوى في الأرض للإنبات^(٢)، فلفظ (الخلق) المذكور في القرآن يتضمن معنيين: الأول: الإبداع والإنشاء. والثاني: التقدير^(٣).

وقد اختلف المفسرون في المراد بقوله ﷻ: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ إلى أقوال:

القول الأول: أن معنى خلقه الناس من الأرض أنه خلق أباهم آدم ﷺ منها^(٤)؛ لأنه من ترابها^(٥)، لقوله ﷻ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٦)، فلما خلق أصلنا من التراب، ونحن أولاده منه -أي آدم ﷻ- وتبعاً له في الخلق، صدق عليهم أنهم خلقوا من تراب، فأطلق ذلك عليهم؛ لأنه

- ١- وذكر الغزالي بأنه لا حظ للعبد في اسم الله الخالق إلا بوجه من المجاز بعيد، فإذا بلغ في سياسة نفسه وسياسة الخلق مبلغاً ينفرد فيه باستنباط أمور لم يسبق إليها، ويقدر مع ذلك على فعلها، كان كالمخترع لما لم يكن له وجود من قبل، فيجوز إطلاق اسم الخالق عليه مجازاً، فجعل جواز إطلاق فعل الخلق على اختراع بعض العباد مشروطاً بهذه الحالة النادرة. المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى ص ٧٩.
- ٢- التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور ٣٢٢/١، والتفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب ١٢٣/٤.
- ٣- بغية المرئاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية لأحمد بن عبد الحلیم بن تيمية ٧٣/٢.
- ٤- انظر: مفاتيح الغيب (تفسير الرازي) ٦١/٢٢، وتفسير البحر المحیط لأبي حیان ٢٣٤/٦، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ١٩٠/٣، والمحزر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية ٦٠/٤، والتسهيل لعلوم التنزيل لابن جزىء ٩/٢، وبحر العلوم للسمرقندي ٤٠٢/٢، وفتح القدير للشوكاني ٤٣٧/٣.
- ٥- بيان المعاني [حسب ترتيب النزول] لعبد القادر ملاحويش ١٨١/١.
- ٦- سورة آل عمران: الآية ٥٩.

أصلهم وهم فروعهم^(١)، وكل فرد من أفراد البشر له حظ من خلقه **الكل**؛ إذ لم تكن فطرته البديعة مقصورة على نفسه **الكل**، بل كانت أنموذجاً منطوياً على فطرة سائر أفراد الجنس انطواءً إجمالياً مستتبعاً لجريان آثارها على الكل، فكان خلقه **الكل** منها خلقاً لكل منها^(٢).

القول الثاني: أنه **ﷻ** خلقنا من النطفة المتولدة من الأغذية المتولدة من الأرض بوسائط، فالغذاء إما حيواني أو نباتي، والحيواني ينتهي إلى النبات، والنبات إنما يحدث من امتزاج الماء والتراب، فصح أنه **ﷻ** خلقنا منها^(٣)، وذلك لا ينافي كوننا مخلوقين من النطفة، ويدل عليه أنه **ﷻ** بيّن في عدة آيات أنه خلقنا من تراب ثم من نطفة^(٤)، فيكون ذلك تنبيهاً على ما تولدت منها الأخلاط المتولد منها الإنسان^(٥).

القول الثالث: إن الملك الموكل بالرحم يأخذ من تربة المكان الذي يدفن فيه المولود، ويذره على النطفة ثم يدخلها في الرحم، فيخلق من التراب ومن النطفة^(٦)؛ لدلالة ظاهر القرآن عليه^(٧)، ولحديث: **"مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا وَقَدْرٌ عَلَيْهِ مِنْ تُرَابٍ حُمْرَتِهِ"**^(٨)، وحديث النبي **ﷺ** لما مر بقبر حبشي فقال: **"لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ! سَبَقَ مِنْ**

- ١- مفاتيح الغيب للرازي ٦١/٢٢، وفتح القدير ٤٣٧/٣، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٤٩٩/٧.
- ٢- روح المعاني للأوسى ٢٠٧/١٦، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم (تفسير أبي السعود) ٢٢/٦.
- ٣- انظر: مفاتيح الغيب للرازي ٦١/٢٢، وتفسير البحر المحيط ١٨٣/٦، وروح المعاني ٢٠٧/١٦، وتفسير أبي السعود ٢٢/٦، واللباب في علوم الكتاب لأبي حفص عمر بن علي بن عادل ٢٧٩/١٣.
- ٤- انظر: مفاتيح الغيب للرازي ٦١/٢٢.
- ٥- انظر: تفسير البحر المحيط ١٨٣/٦.
- ٦- انظر: تفسير البحر المحيط ١٨٣/٦، ومفاتيح الغيب ٦١/٢٢، وروح المعاني ٢٠٨/١٦، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢١٠/١١، ومعالم التنزيل ٢٦٥/٣، ولباب التأويل ٢٧٢/٤، وتفسير أبي السعود ٢٢/٦.
- ٧- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢١٠/١١.
- ٨- أخرجه أبو نعيم الأصبهاني في حلية الأولياء، باب ابن سيرين ٢٨٠/٢. وقال: «حديث غريب من حديث ابن عون عن محمد، لم نكتبه إلا من حديث أبي عاصم النبيل عنه، وهو أحد الثقات الأعلام من أهل =

أَرْضِهِ وَسَمَائِهِ إِلَى تَرْبِيَتِهِ الَّتِي خَلَقَ مِنْهَا»^(١)، ولخبر ابن مسعود رضي الله عنه: «إن الله يأمر ملك الأرحام أن يكتب الأجل والرزق والأرض التي يدفن فيها وأنه يأخذ من تراب تلك البقعة»^(٢)، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «يدفن كل إنسان في التربة التي خلق منها»^(٣)، ولهذين الأثرين حكم الرفع؛ لأنهما ليسا مما يقال بالرأي^(٤)، واستدلوا بقوله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾^(٥)؛ لأنها لا تدري من أي ذرات الأرض تكونت، ومن علم قدرة الله لا يستبعد هذا؛ والعقائد لم تقتصر على المحسوسات^(٦).

وقد أجيب عن القول الثالث بأن القرآن يدل على أن مرحلة النطفة بعد مرحلة التراب بمهلة، فهي غير مقارنة لها، بدليل الترتيب بينهما بـ(ثم)^(٧) في قوله صلى الله عليه وسلم:

=البصرة»، وقال الألباني معلقاً على كلامه: «قلت: نعم، ولكن يبقى النظر فيمن دونه، فمحمد بن نعيم لم أعرفه، وأما الأهوازي فقد أورده الذهبي في الميزان، وقال: لقبه سكرة، قال أبو بكر بن عبدان الشيرازي: أقر بالوضع، فالإسناد ساقط بمرة... وبالجملة فالحديث باطل من جميع طرقه، وأما الشواهد التي ذكرها له السيوطي؛ فهي مع كونها شواهد قاصرة؛ فهي ما بين موقوف ومقطوع»، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة ٣٨٩/١١.

١- أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب الصبر على المصائب واما تنزع إليه النفس من لذة وشهوة، فصل في ذكر ما في الأوجاع والأمراض والمصيبات من الكفارات ١٧٣/٧ برقم: ٩٨٩١، والحاكم في المستدرک، كتاب الجنائز ٥٢١/١ برقم: ١٣٥٦. ضعفه الهيتمي في مجمع الزوائد ٤٢/٣، وحكم عليه ابن حزم بالوضع في المحلى ٧/ ٢٨٦، وذكر الحاكم أن له شواهد، وذكر الألباني أنه يرتقي إلى مرتبة الحسن بمجموع طرقه. السلسلة الصحيحة مختصرة ٤٧٣/٤.

٢- ذكره الرازي في تفسيره مفاتيح الغيب ٦١/٢٢.

٣- أخرجه عبد الرزاق الصنعاني في المصنف ٥١٥/٣ برقم: ٦٥٣١.

٤- فتاوى الشبكة الإسلامية، انظر: مركز الفتوى بموقع الشبكة الإسلامية: (www.islamweb.net).

٥- سورة لقمان: الآية ٣٤.

٦- بيان المعاني ١٨١/١، ١٨٢.

٧- أضواء البيان ٢٥/٤.

﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ﴾^(١)،
 وقوله ﷺ: ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ
 نُطْفَةٍ ﴾^(٢)، وقوله ﷺ: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾^(٣)، وقوله: ﴿ هُوَ الَّذِي
 خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾^(٤)، وثم تفيد الترتيب مع التراخي، وبالتالي فظاهر
 القرآن يخالف هذا القول ولا يدل عليه كما قالوا، وليس بثابت في حديث مرفوع ما
 يدل على خلط التراب بالنطفة، والحديث الأول الذي ذكره ضعيف، بل قيل
 ببطلانه، وحديث الحبشي ضعيف في أصله، وإنما ذهب جماعة من المحدثين إلى
 تقوية مجموع طرقه، مع أن هناك من حكم عليه بالوضع كما سبق في تخريجه،
 وليس فيه خلط التراب بالنطفة، وأثر ابن مسعود المذكور ذكره بعض المفسرين ولا
 تعرف صحة نسبه إليه، وأثر ابن عباس في سنده راوٍ ضعيف^(٥)، ومثل هذا القول
 يتوقف الأخذ به على صحة الأحاديث والآثار الواردة فيه؛ لأنه من الغيب المتوقف
 على الدليل.

وللتذكير بالأرض هنا مناسبة في مشهد الحوار مع فرعون الطاغية المتكبر،
 الذي يتسامى إلى مقام الربوبية؛ وهو من هذه الأرض وإليها؛ وهو شيء من
 الأشياء التي خلقها الله في الأرض وهداها إلى وظيفتها^(٦).

١- سورة الكهف: الآية ٣٧.

٢- سورة الحج: الآية ٥.

٣- سورة ص: الآية ١١.

٤- سورة غافر: الآية ٦٧.

٥- هو عمر بن عطاء بن وراز، وضعفه يحيى بن معين والنسائي وأحمد بن حنبل. انظر: تاريخ ابن معين
 رواية الدوري ٩٨/٣، والضعفاء والمتروكين للنسائي ص ٨١، والعلل ومعرفة الرجال للإمام أحمد ٣١٦/٣.

٦- في ظلال القرآن لسيد قطب إبراهيم ٢٣٣٩/٤.

وقوله ﷻ: ﴿أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾، الإنشاء هو الإحداث والإيجاد وابتداء الخلق من غير شيء^(١)، أو إيجاد الشيء وتربيته^(٢)، والمقصود منه في الآية ابتداء خلقكم منها، وذلك بأن خلق منها أباكم آدم، وأنتم من صلبه، فإنشاؤه إنشاء لنسله؛ لأن خلقته ﷻ لم تكن مقصورة على نفسه؛ بل كانت أنموذجاً منطوياً على خلق جميع ذريته انطواءً إجمالياً^(٣).

وقيل: الكلام على حذف مضاف، أي: أنشأ أباكم^(٤).

وهناك وجه آخر هو أن خلق آدم ﷻ من التراب، وذريته مخلوقة من النطف المتولدة من الدم، المتولد من الأغذية، المتولدة من النبات^(٥)، بدليل الآية التالية.

وقوله ﷻ: ﴿أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾، أي: أنبت أباكم آدم ﷻ من الأرض بإنشائه من أديمها كلها^(٦)، ﴿بَنَاتًا﴾ أي: إنشاء^(٧)، وعبر بالجمع إما لأنه أصلهم^(٨)، أو

١- انظر: جامع البيان (تفسير الطبري) ٥٦٢/١١، والتحرير والتنوير ٢٣٦/٦، ولسان العرب لمحمد بن مكرم بن منظور ١٧٠/١، ومختار الصحاح لمحمد بن أبي بكر الرازي ص ٦٨٨.

٢- المفردات في غريب القرآن للحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني ص ٨٠٧.

٣- انظر: جامع البيان (تفسير الطبري) ٣٦٨/١٥، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥٤٨/٢، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٥٦/٩، والمحزر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ١٩٨/٣، وزاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ١٢٣/٤، ولباب التأويل في معاني التنزيل للخازن ٢٣٩/٣، وتفسير الجلالين لجلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي ص ٧٠٢، والتحرير والتنوير ٢٨٧/١١، وفتح القدير ٧٣٣/٢.

٤- روح المعاني للألوسي ٨٨/١٢.

٥- انظر: مفاتيح الغيب ١٤/١٨، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل ٢٤٢/٣، وتفسير أبي السعود ٢٢٠/٤.

٦- انظر: تفسير مقاتل بن سليمان الأزدي ٤٠٢/٣، ومفاتيح الغيب للرازي ١٢٥/٣٠، وجامع البيان للطبري ٦٣٧/٢٣، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣٠٥/١٨، والدر المنثور في التفسير بالمأثور لجلال الدين السيوطي ٢٩٣/٨، وزاد المسير ٣٧١/٨، وتفسير البغوي ١٥٧/٥، وفتح القدير ٤١٨/٥.

٧- التفسير الميسر لنخبة من أساتذة التفسير ص ٥٧١.

٨- معالم التنزيل في تفسير القرآن للبغوي ٢٣١/٨.

لأنهم كانوا في صلبه^(١)، واستعير الإنبات للإنشاء؛ لكونه أدل على الحدوث والتكون من الأرض^(٢)، وللمشابهة بين إنشاء الإنسان وإنبات النبات حيث إن كليهما تكوين^(٣).

١- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان المعروف بتفسير السعدي ص ٨٨٩.

فعن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِأَهْلِ النَّارِ عَذَابًا: لَوْ كَانَتْ لَكَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ؛ أَنْ لَا تُشْرِكَ - أَحْسَبُهُ قَالَ - وَلَا أَدْخِلَكَ النَّارَ، فَأَبَيْتَ إِلَّا الشَّرْكَ" [أخرجه البخاري، كتاب الأنبياء، باب قول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ ١٢١٣/٣ برقم: ٣١٥٦، ومسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب طلب الكافر الفداء... ٢١٦٠/٤ برقم: ٢٨٠٥]. وقوله صلى الله عليه وسلم: "وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ"، فيه إشارة إلى قوله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾، قال عمر رضي الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد سئل عنها يقول: "خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ بِيَمِينِهِ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً...". الحديث [أخرجه مالك في الموطأ، كتاب القدر، باب النهي عن القول بالقدر ٨٩٨/٢ رقم: ١٥٩٣، وأحمد في المسند، مسند الخلفاء الراشدين، مسند عمر رضي الله عنه ٣٩٩/١ رقم: ٣١٠، وأبو داود، كتاب السنة، باب في القدر ٦٣٩/٢ رقم: ٤٧٠٣، والترمذي، كتاب التفسير ٢٦٦/٥ رقم: ٣٠٧٥]. قال ابن عبد البر: «حديث ليس إسناده بالقائم... ولكن معنى هذا الحديث قد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم من وجوه كثيرة ثابتة يطول ذكرها من حديث عمر رضي الله عنه، وغيره جماعة يطول ذكرهم» [التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ٦/٦]. وعن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "أَخَذَ اللَّهُ الْمِيثَاقَ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ بِنِعْمَانَ - يَعْنِي عِرْفَةَ - فَأَخْرَجَ مِنْ صُلْبِهِ كُلَّ ذُرِّيَّةٍ ذَرَأَهَا، فَتَرَهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ كَالذَّرِّ، ثُمَّ كَلَّمَهُمْ قَبْلًا قَالَ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُنَبِّئُونَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾" [أخرجه أحمد، مسند عبد الله بن عباس ٢٦٧/٤ برقم: ٢٤٥٥، والحاكم، كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين، ذكر آدم عليه السلام ٥٩٣/٢ برقم: ٤٠٠٠]، قال الألباني: «وجملة القول إن الحديث صحيح، بل هو متواتر المعنى». [السلسلة الصحيحة ٣٦٧/٢].

٢- انظر: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري ٦٢١/٤، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ٣٩٤/٥، والبحر المديد لابن عجيبة ٢١٩/٨، وفتح القدير للشوكاني ٣٥٨/٥.

٣- انظر: التحرير والتنوير ١٨٩/٢٩.

وقيل: المراد أنه ﷺ أنبت كل الناس من الأرض؛ لأنه ﷺ إنما يخلقنا من النطف، وهي متولدة من الأغذية، المتولدة من النبات، المتولد من الأرض^(١)، وسمى إنشاءهم انباتاً لمشابهتهم النبات الذي ينمو بامتصاص غذائه من الأرض^(٢).
وقيل: معناها أن التراب أصل خلقة أول آبائكم، وأول مواد أبدانكم^(٣).
وقيل: أنبتهم في الأرض بالكبر بعد الصغر، وبالطول بعد القصر^(٤)، ﴿مَنْ﴾
بمعنى في، وجمع البعض بين هذا القول والأول بقوله: والله أوجد أباكم آدم من التراب، وجعله ينمو ويكبر كالنبات، وجعل نموكم معتمداً على غذاء الأرض^(٥).
وقيل: إن معنى الآية: أنبت لكم من الأرض النبات^(٦)، وجمع بعض المفسرين بين هذا القول والقول الأول بقوله: جعل أصلكم من الطين، وغذاكم بنباتها^(٧).
والقولان الأخيران بعيدان؛ لقوله ﷺ في الآية بعدها: ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾^(٨)، وهذا يدل على أنها تتحدث عن الخلق^(٩).

-
- ١- انظر: مفاتيح الغيب للرازي ١٢٥/٣٠، والنكت والعيون لأبي الحسن الماوردي البصري ١٠٢/٦، ومراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد لمحمد بن عمر نووي الجاوي ٥٦٧/٢.
 - ٢- انظر: صفوة التفاسير لمحمد علي الصابوني ٤٢٩/٣.
 - ٣- أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ٥٦/٤.
 - ٤- النكت والعيون (تفسير الماوردي) ١٠٢/٦، وفتح القدير للشوكاني ٣٥٨/٥.
 - ٥- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج للزحيلي ١٤٥/٢٩.
 - ٦- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٨ / ٣٠٥، وفتح القدير للشوكاني ٣٥٨/٥.
 - ٧- إيجاز البيان عن معاني القرآن للغزنوي ٨٤١/٢، وباهر البرهان في معاني مشكلات القرآن للغزنوي ١٥٥٦/٢.
 - ٨- سورة نوح: الآية ١٨.
 - ٩- قال ابن الجوزي: «وذكر أهل التفسير أن النبات في القرآن على أربعة أوجه: أحدها: النبات بعينه، ومنه قوله تعالى في المؤمنين: ﴿تَبَّتْ بِالدَّهْنِ﴾...، والثاني: الإخراج، ومنه قوله تعالى في البقرة: =

وأول الأقوال وإن كان أقواها، إلا أنه لا يبعد دخول الثاني والثالث في معناها، أي: خلق آدم من تراب الأرض، وجعل التراب من مركبات أبدانكم، وخلقكم من النطف المتولدة من الأغذية، المتولدة من النبات، المتولد من الأرض، ويقوي ذلك أن الجمع إن أمكن فهو أولى^(١)، وهو ممكن هنا.

مراحل خلق آدم عليه الصلاة والسلام

آدم عليه السلام أبو البشر، وأول من خلق الله من الناس، خلقه الله ليكون خليفة في الأرض ينفذ أوامره، ويخلف من سبقه من الجن، وليعمر الأرض هو وذريته ويخلف بعضهم بعضاً على عمرانها^(٢)، واسم آدم أعجمي لا اشتقاق فيه للعلمية والعجمة، ووزنه فاعل كآزر، وقيل: إنه مشتق من الأدمة^(٣)، وقيل: إنه مشتق من أديم الأرض وهو وجهها؛ لأنه خلق منه، ومنع من الصرف على هذين القولين للوزن والعلمية، وقيل: إنه عبري من الإدام وهو التراب، وقيل: إنه في الأصل فعل رباعي كأكرم وسمي به لغرض إظهار الشيء لتعرف جهته، وقيل: من أدمت بين الشيين إذا خلطت بينهما، وسمي آدم آدم؛ لأنه كان ماء وطيناً خلطاً جميعاً^(٤).

= ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾، والثالث: الخلق، ومنه قوله تعالى في سورة نوح: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾، الرابع: التربية، ومنه قوله تعالى في آل عمران: ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾... فان قيل: كيف قال [الله]: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾، ولم يقل: (إنباتاً)؟ فالجواب: أن المعنى: والله أنبتكم من الأرض فنبتم نباتاً، فيكون مصدراً لمحدوف مقدر. «نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي ص ٥٨١».

- ١- انظر: الإحكام في أصول الأحكام للآمدي ٣٥٣/٢.
- ٢- انظر: الموسوعة العربية العالمية ٤٠٧/١، وأضواء البيان ٢٠/١، وتفسير الجلالين ص ٧.
- ٣- السمره، والآدم من الناس: الأسمُر. انظر: لسان العرب ٨/١٢، ومختار الصحاح ١٠/١.
- ٤- الكشف والبيان عن تفسير القرآن للثعلبي ١٨٠/١، واللباب في علوم الكتاب ٥١٢/١، والزاهر في معاني كلمات الناس لمحمد بن القاسم الأنباري ٣٣٣/١.

وقد خلق الله ﷻ آدم ﷺ في مراحل عدة ذكرها في كتابه، وهذه المراحل هي:

أ- الخلق من تراب:

الخلق من تراب هو أول مرحلة في خلق أبينا آدم ﷺ، وقد ذكر الله ﷻ ذلك بقوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(١)، ﴿مَثَلَ عِيسَىٰ﴾ أي صفته كصفة آدم، و﴿خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ خبر مستأنف على جهة التفسير بحال آدم^(٢)، والضمير في ﴿خَلَقَهُ﴾ يرجع إلى آدم، أي خلقه دون أب ولا أم بل بكلمة (كن)^(٣)، والمقصود أن شأنه الغريب كشأن آدم ﷺ وهو أنه خلق بلا أب كما خلق آدم ﷺ من التراب بلا أب وأم، شبه حاله بما هو أغرب منه؛ إfachماً للخصم، وقطعاً لمواد الشبهة^(٤)، فالتشبيه واقع على أن عيسى ﷺ خلق من غير أب كآدم ﷺ، والشيء قد يشبه بالشيء وإن كان بينهما فرق كبير^(٥)، وقوله: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ وضع المضارع موضع الماضي؛ ليصور في نفوس المخاطبين أن الأمر كأنه حاضر دائم^(٦).

فأخبر ﷻ أن عيسى ﷺ نظير آدم ﷺ في التكوين، بجامع ما يشتركان فيه من المعنى الذي تعلق به وجود سائر المخلوقات، وهو مجيئها طوعاً لمشيئته وتكوينه، فكيف يستنكر وجود عيسى من غير أب من يقر بوجود آدم من غير أب ولا أم، فأدم وعيسى نظيران يجمعهما الذي يصح تعليق الإيجاد والخلق به^(٧).

١- سورة آل عمران: الآية ٥٩.

٢- مفاتيح الغيب للرازي ٦٦/٨.

٣- التحرير والتنوير لابن عاشور ١١٢/٣.

٤- أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ٤٦/٢.

٥- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٠٢/٤، وجامع البيان في تأويل القرآن للطبري ٤٦٧/٦.

٦- التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ١٥٥/١.

٧- أضواء البيان للشنقيطي ١٨٥/٤.

وعلى بعض أهل العلم لخلق آدم عليه السلام من تراب بوجوه:
 الأول: ليكون متواضعاً. الثاني: ليكون ستاراً.
 الثالث: ليكون أشد التصاقاً بالأرض؛ وذلك لأنه إنما خلق لخلافة أهل الأرض.
 الرابع: أراد إظهار القدرة، فهو يخلق ما يشاء كيفما شاء.
 الخامس: خلق الإنسان من تراب ليكون مطفئاً لنار الشهوة والغضب والحرص؛
 فإن هذه النيران لا تطفأ إلا بالتراب^(١).

وقد حمل جمهور المفسرين الآيات التي تتحدث عن خلق الإنسان من تراب على خلق آدم عليه السلام، لأن آدم عليه السلام هو أصل مادته أو مادة أصله، وخلق أصله سبب في خلقه، فكان خلقاً له^(٢)، وهذه الآيات هي: قوله ﷻ: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾^(٣)، وقوله ﷻ: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾^(٤)، وقوله ﷻ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾^(٥)، وقوله ﷻ: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾^(٦)، وقوله ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾^(٧).

١- مفاتيح الغيب للرازي ٦٧/٨.

٢- انظر: تفسير مقاتل ٨/٣، وجامع البيان ٢٣/١٨، ومعالم التنزيل ١٩٣/٣، وروح المعاني ٢٧٦/١٥، وتفسير القرآن العظيم ١٠٣/٣، ولباب التأويل للخازن ٢١٣/٤، وأنوار التنزيل للبيضاوي ٤٩٧/٣، وبحر العلوم ٣٤٧/٢، ومدارك التنزيل للنسفي ١٤/٣، والوجيز للواحي ص ٨٤٠، وتفسير الجلالين ص ٣٨٥، والدر المنثور ٤٩٠/٦، وفتح القدير ٤٠٩/٣، وأضواء البيان ٢٧٥/٣، وتيسير الكريم الرحمن ص ٦٣٩.

٣- سورة الكهف: الآية ٣٧.

٤- سورة الحج: الآية ٥.

٥- سورة الروم: الآية ٢٠.

٦- سورة ص: الآية ١١.

٧- سورة غافر: الآية ٦٧.

بينما حملها بعض المفسرين على النطفة التي يخلق منها الإنسان؛ فإنها تتكون من الغذاء المتكون من نبات الأرض المشتغل على الأجزاء الترابية التي أنبتته^(١).

ب- الطين:

ثم تأتي المرحلة الثانية بعد التراب وهي الطين، قال الله ﷻ: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ اِنِّيْ خَلِقُ بَشَرًا مِّنْ طِيْنٍ﴾^(٢)، وقال ﷻ: ﴿قَالَ اَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِيْ مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِيْنٍ﴾^(٣)، وقال ﷻ: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ اَلَّا تَسْجُدَ اِذْ اَمْرُكَ قَالَ اَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِيْ مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِيْنٍ﴾^(٤)، وقوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلٰٓئِكَةِ اسْجُدُوْا لِاٰدَمَ فَسَجَدُوْا اِلَّا اِبٰلِيْسَ قَالَ ؕ اَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيْنًا﴾^(٥)، وقال ﷻ: ﴿الَّذِيْ اَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْاِنْسٰنِ مِنْ طِيْنٍ﴾^(٦)، والطين هو تراب مخلوط بالماء^(٦)، أي أن هذا التراب عُجِنَ بالماء فصار طيناً^(٧)، فالماء هو المادة التي يتكون منها الطين، إذ لا وجود للطين إلا مع الماء وبالماء^(٨)، وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن هذا الماء الذي خلط به التراب وخمر به طينة آدم ﷻ هو المقصود من خلق البشر من ماء في قوله ﷻ: ﴿وَهُوَ الَّذِيْ خَلَقَ مِنَ الْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾^(٩)^(١٠).

١- التحرير والتنوير لابن عاشور ٦٨/١٥، ومحاسن التأويل (تفسير القاسمي) ٢٣٢ / ٧.

٢- سورة ص: الآية ٧١.

٣- سورة ص: الآية ٧٦.

٤- سورة الأعراف: الآية ١٢.

٥- سورة السجدة: الآية ٧.

٦- تفسير روح البيان لإسماعيل حقي ٣/٣، والتفسير المنير للزحيلي ٢٣٠/٢٣.

٧- أضواء البيان للشنقيطي ٤٩٩/٧.

٨- التفسير القرآني للقرآن للخطيب ٦٢/١. ثم يقو الدكتور عبد الكريم الخطيب: «ففي قوله تعالى: ﴿وَاللّٰهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّنْ مَّآءٍ﴾ [سورة النور: الآية ٤٥]، وقوله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٣٠]. دلالة قوية على أن الأحياء كلها -ومنها الإنسان- مخلقة من مادة واحدة.. هي الماء».

٩- سورة الفرقان: الآية ٥٤.

١٠- انظر: مفاتيح الغيب للرازي ٦٦/٨، وروح المعاني للألوسي ٣٥/١٩، وأنوار التنزيل البيضاوي ٢٢٤/٤، وتفسير أبي السعود ٢٢٦/٦، وتفسير روح البيان ١٦٧/٦. بينما كثير من المفسرين على أنه المنى. انظر: جامع البيان =

وكذلك قوله ﷺ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾^(١)، المراد آدم عليه السلام عند جمهور المفسرين^(٢)، والخلق نسله، والفرع يضاف إلى أصله، فلذلك قال: ﴿خَلَقَكُمْ﴾ بالجمع، فأخرجه مخرج الخطاب لهم؛ إذ كانوا ولده^(٣)، ويدل عليه قوله ﷺ: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾^(٤)، بعد قوله ﷺ: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ، وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾^(٥).

أما السلالة من طين المذكورة في قوله ﷺ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾^(٦)، فالسُّلُّ انتزاعُ الشيء وإخراجه في رفق^(٧)، والسلالة الخلاصة -فُعالة وهو بناء يدل على القلة كالفُلامة-؛ لأنها تسل من الشيء وتستخرج منه^(٨)، وقد اختلف المفسرون بالمراد بذلك هنا:

=٢٨٤/١٩، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٥٩/١٣، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣٩٢/٣، وزاد المسير لابن الجوزي ٩٧/٦، وتفسير الجلالين ص ٤٧٧، وفتح القدير ١١٨/٤، والتفسير الميسر ٣١٤/٦.
١- سورة الأنعام: الآية ٢.

٢- انظر: جامع البيان ٢٥٥/١١، ومفاتيح الغيب ١٥١/٢٥، وتفسير البحر المحيط ١٩٤/٧، وتفسير القرطبي ٣٨٧/٦، ومعالم التنزيل للبخاري ٥٩٥/٣، وتفسير ابن كثير ٥٥٣/٣، وأنوار التنزيل للبيضاوي ٣٥٥/٤، وتفسير الجلالين ص ٥٤٥. وقيل: إن الطين ماء وتراب مجتمعان، والإنسان أصله نطفة، أصلها من طين؛ لأنها من غذاء، والأغذية حيوانية ونباتية ترجع إلى النباتية، والنبات وجوده بالماء والتراب الذي هو الطين. [مفاتيح الغيب ١٥١/٢٥، واللباب في علوم الكتاب ٤٧٨/١٥، وتفسير السراج المنير ١٧٩/٣].

٣- انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣٨٧/٦.

٤- سورة السجدة: الآية ٨.

٥- سورة السجدة: الآية ٧.

٦- سورة المؤمنون: الآية ١٢.

٧- لسان العرب ٣٣٨/١١.

٨- انظر: مفاتيح الغيب ٧٤/٢٣، وغرائب القرآن و رغائب الفرقان ١١١/٥، والكشاف للزمخشري ١٨١/٣، واللباب لابن عادل ١٧٦/١٤، وتفسير روح البيان ٥٠/٦، والبحر المديد ٨/٥، وتفسير أبي السعود ١٢٦/٦.

فَقِيلَ: السلالة أجود ما في الشيء، وقد خلق الله ﷻ آدم ﷺ من أجود عناصر الطين وأنواعه، وهي زُبْد الطين وصفوته^(١)، أي أنه ﷻ خلق من صفوة سلت من الطين^(٢)، وعليه تكون السلالة من الطين بعد الطين، أي أنه لما خلط الماء بالتراب وصار طيناً أخذ منه خلاصته، وقد عدها الرازي أحد مراحل خلق آدم^(٣).

وقيل: خلق الله ﷻ آدم ﷺ من خلاصة سلت من جميع الأرض^(٤) ومن كل تربة^(٥)، وعليه (مِنْ) في قوله: ﴿مِنْ طِينٍ﴾ لبيان الجنس، أي أن السلالة هي الطين، والمعنى خلق الله ﷻ الإنسان من خلاصة، هذه الخلاصة هي الطين^(٦).

والأول قريب لظاهر الآية، فيكون خلق آدم فيه عدة استخلاصات واستلالات، الأول الاستلال من التربة، والذي بينه النبي ﷺ بقوله: **«إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبْضَتِهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ»**^(٧)، ثم الاستلال من الطين والذي ذكرته الآية^(٨).

١- انظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ١٤٨/٤، وتفسير الشعراوي ٩٩٧٧/١٦.

٢- انظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ١٤٨/٤.

٣- انظر: مفاتيح الغيب ٦٦/٨.

٤- انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ٥٤٨.

٥- انظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري ١٤/١٩.

٦- الكشاف للزمخشري ١٨١/٣، والدر المصون في علم الكتاب المكنون ٣٢١/٨.

٧- أخرجه أبو داود، كتاب السنة، باب في القدر ٦٣٤/٢ برقم: ٤٦٩٣، والترمذي، كتاب التفسير، باب ومن سورة البقرة ٢٠٤/٥ برقم: ٢٩٥٥، وأحمد في المسند، مسند الكوفيين، حديث أبي موسى الأشعري ﷺ برقم: ٣٥٣/٣٢، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

٨- وقيل: الإنسان ولد آدم، والطين آدم ﷻ خُلِقَ منه، والسلالة النطفة وصفوة الماء وهي الأجزاء الطينية المبتوثة في أعضائه التي لما اجتمعت وحصلت في أوعية المنى صارت منياً. ورجحه الطبري؛ لدلالة قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٣] عليه؛ لأنه معلوم أنه لم يصر في قرار مكين إلا بعد خلقه في صلب الفحل، ومن بعد تحوله من صلبه صار في قرار مكين؛ والعرب تسمي ولد الرجل ونطفته: سليله وسلالته؛ لأنهما مسلولان منه. وقووه بقوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ =

ج- الطين اللازب:

قال الله ﷻ: ﴿فَأَسْتَفِينَهُمْ أَمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾^(١).
 اللازِبُ: الثابت الشديد الثبوت، أو اللاصق، أو اللازق^(٢)، أو اللزج، أو الجيد الذي يلتصق ببعضه ببعض، أو الواجب واللازم؛ لأنه يلزم من جاوره ويلصق به^(٣)، وقيل: الخالص^(٤)، وقيل: الذي ينشف عنه الماء وتبقى رطوبته في باطنه فيلصق باليد كالشمع^(٥)، وقيل: اللزج الضعيف الذي لا قوة فيه^(٦).
 وإنما وصفه جل ثناؤه باللُّزوب؛ لأنه تراب مخلوط بماء، والتراب إذا خلط بماء صار طيناً لازباً^(٧).

= [تمهين] [السجدة: ٧، ٨]. جامع البيان للطبري ١٥/١٩، ومفاتيح الغيب ٧٤/٢٣. قلت: ولا يبعد أن تشمل الآية آدم وبنيه؛ فآدم خلق من خلصة استلت من طين، وبنيه خلقوا من المني الذي هو خلصة استلت من جسمه.

وقيل: الإنسان يتولد من النطفة، وهي تتولد من فضل الهضم، وذلك إنما يتولد من الأغذية، وهي تنتهي إلى النباتية، والنبات إنما يتولد من صفو الأرض والماء، فالإنسان بالحقيقة يكون متولداً من سلالة من طين، ثم إن تلك السلالة بعد أن تواردت على أطوار الخلقة وأدوار الفطرة صارت منياً. مفاتيح الغيب ٧٤/٢٣.

١- سورة الصافات: الآية ١١.

٢- قال الماوردي: «والفرق بين اللاصق واللازق: أن اللاصق هو الذي قد لصق ببعضه ببعض، واللازق هو الذي يلزق بما أصابه». تفسير الماوردي المسمى بالنكت والعيون ٤٠/٥.

٣- انظر: المفردات في غريب القرآن ص ٧٣٩، ومختار الصحاح ص ٦١٢، ولسان العرب ٧٣٨/١، والمصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي للفيومي ٥٥٢/٢، وجامع البيان للطبري ٢١/٢١، ومفاتيح الغيب للرازي ١١٠/٢٦، وروح المعاني للألوسي ٧٦/٢٣، والدر المنثور للسيوطي ٨١/٧، ومعالم التنزيل للبخاري ٢٧/٤، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٧/٤، وفتح القدير للشوكاني ٥٥٢/٤.

٤- انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٦٩/١٥.

٥- انظر: زاد المسير في علم التفسير ٤٩/٧.

٦- انظر: محاسن التأويل (تفسير القاسمي) ٢٠٥/٨.

٧- انظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري ٢٠/٢١.

والمقصود أنه بل ذلك التراب فصار طينا يعلق بالأيدي^(١)، ويرجع ذلك إلى أنه حسن العجن جيد التخمير^(٢).

د- الحمأ المسنون

قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾^(٣)، وقال ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾^(٤)، وقال ﷻ: ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾^(٥).

الحمأ جمع حمأة: وهو طين أسود منتن^(٦)، ومنه قوله ﷻ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْبٍ حَمِئٍ﴾^(٧)، ذات حمأ^(٨)، أي: كثيرة الحمأة وهي الطينة السوداء^(٩)، فهو طين تغير واسود من طول مجاورة الماء^(١٠).
وقيل: هو الطين المتغير إلى السواد^(١١).

١- انظر: أضواء البيان للشنقيطي ٢/٢٧٥.

٢- انظر: روح المعاني للألوسي ٢٣/٧٥.

٣- سورة الحجر: الآية ٢٦.

٤- سورة الحجر: الآية ٢٨.

٥- سورة الحجر: الآية ٣٣.

٦- انظر: مفردات القرآن للراغب الأصفهاني ص ٢٥٩، والتوقيف على مهمات التعاريف للمناوي ص ٢٩٥، والقاموس المحيط للفيروزآبادي ص ٣٨، وتاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي ١/٢٠٠، وكتاب العين للفراهيدي ٣/٣١٢، ولسان العرب ١/٦١، ومفاتيح الغيب للرازي ١٩/١٤٣، والكشاف للزمخشري ٢/٥٤٠، وغرائب القرآن ورغائب الفرقان ٤/٢١٩.

٧- سورة الكهف: الآية ٨٦.

٨- انظر: مفردات القرآن للراغب الأصفهاني ص ٢٥٩.

٩- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١١/٤٩، ومعالم التنزيل للبخاري ٣/٢١٣، ولباب التأويل للخازن ٤/٢٣٠.

١٠- انظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ٣/٣٦٧.

١١- انظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري ١٧/٩٧.

وقيل: هو الطين الأسود من غير تقييد بالمتغير^(١).

والمسنون: قيل المتغير، من قولهم قد تسنى الشيء إذا أنتن، وقولهم سن الماء فهو مسنون أي تغير، وليس من الآسن المتغير؛ لأنه من سنن مضاعف، ومن المسنون بمعنى المتغير قوله ﷺ: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهٖ﴾^(٢)، أي: لم يتغير، وإنما قيل له مسنون لتقادم السنين عليه^(٣).

وقيل: المسنون المصور، من سنن الوجه وهي صورته، وعن ابن عباس ؓ أنه لما سئل عن معنى المسنون، أجاب بأنه المصور، فقيل له: وهل تعرف العرب ذلك؟ فقال: نعم، أما سمعت قول حمزة ؓ وهو يمدح رسول الله ﷺ:

أَعْرَّ كَأَنَّ الْبَدْرَ سَنَّةٌ وَجْهَهُ جَلَا الْعَيْمُ عَنْهُ ضَوْؤُهُ فَنَبَدَّأ^(٤)

وقيل: المسنون المصبوب المفرغ على هيئة الإنسان - صور منها تمثال إنسان أجوف - كما يفرغ الصور من الجواهر المذابة في القوالب، ومنه سننت الماء وغيره على الوجه إذا صببته^(٥).

١- انظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري ٤٨/٢، والعياب الزاخر واللباب الفاخر للصغاني ص ٤٥، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢١/١٠، وبحر العلوم للسمرقندي ٢٥٥/٢، وفتح القدير ١٥٦/٣.
٢- سورة البقرة: الآية ٢٥٩.

٣- انظر: جامع البيان للطبري ٩٧/١٧، ومفاتيح الغيب للرازي ١٤٣/١٩، وزاد المسير لابن الجوزي ٣٩٨/٤، ومعالم التنزيل للبعوي ٥٧/٣، ولباب التأويل للخان ٦٤/٤، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢١/١٠، والنكت والعيون (تفسير الماوردي) ١٥٨/٣، والتسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ١/٤١٧.

٤- انظر: مفاتيح الغيب للرازي ١٤٣/١٩، وجامع البيان للطبري ٩٧/١٧، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢١/١٠، وروح المعاني للألوسي ٣٤/١٤، والكشاف للزمخشري ٥٤٠/٢، والدر المنثور للسيوطي ٧٧/٥، وغرائب القرآن وغرائب الفرقان للنيسابوري ٢١٩/٤، وتفسير أبي السعود ٧٣/٥، ومحاسن التأويل للقاسمي ٣٣٤/٦. وقالوا: ومنه قول ذي الرمة: تُرِيكَ سَنَّةٌ وَجْهٍ غَيْرِ مُقْرِفَةٍ *** مَلْسَاءَ لَيْسَ بِهَا خَالٌ وَلَا نَدْبُ

٥- انظر: الكشاف للزمخشري ٥٤٠/٢، وغرائب القرآن وغرائب الفرقان للنيسابوري ٢١٩/٤، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٢/١٠، وإعراب القرآن وبيانه لمحيي الدين أحمد ٢٣٥/٥.

وقيل: المسنون الرطب^(١)؛ لأنه يسيل وينبسط على الأرض فيكون كالماء المسنون المصبوب؛ وهذا يعود إلى القول بأن المسنون هو المصبوب^(٢).

وقيل: المسنون المنسوب القائم، من قولهم وجه مسنون إذا كان فيه طول^(٣).

وقيل: المحكوك الذي يحك بعضه بعضاً من سننت الحجر على الحجر إذا حككته به، والذي يخرج من بينهما يقال له السنن، ومنه سمي المسنّ؛ لأن الحديد يسن عليه، وهذا يرجع إلى الأول؛ لأنه لا يكون على هذا إلا متغيراً، ومننتاً^(٤).

وقيل: المنسوب، أي: ينسب إليه ذريته^(٥).

وقيل: الأملس^(٦). وقيل: المخلص، من قولهم سن سيفك، أي: اجله^(٧).

وقوله: ﴿مِنْ حَمَلٍ﴾ صفة لصلصال، أي: خلقه من صلصال كائن من حملاً^(٨)، فهو مفسر لجنس الصلصال، كقولك: أخذت هذا من رجل من العرب^(٩)، قال ابن عباس: «خلق آدم من صلصال من حمأ»^(١٠).

-
- ١- انظر: جامع البيان للطبري ٩٨/١٧، ومفاتيح الغيب للرازي ١٤٣/١٩، والنكت والعيون للماوردي ١٥٨/٣، وتفسير البحر المحيط ٤٤٠/٥، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٦٦٩/٢، وزاد المسير ٣٩٨/٤.
- ٢- انظر: مفاتيح الغيب للرازي ١٤٣/١٩.
- ٣- انظر: النكت والعيون للماوردي ١٥٨/٣، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٣/١٠، وفتح القدير ١٥٦/٣.
- ٤- انظر: جامع البيان للطبري ٩٧/١٧، وتفسير البحر المحيط ٤٤٠/٥، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ٣٦٨/٣، وروح المعاني ٣٤/١٤، ومعالم التنزيل للبخاري ٥٧/٣، وزاد المسير ٣٩٨/٤.
- ٥- انظر: النكت والعيون (تفسير الماوردي) ١٥٨/٣، وتفسير البحر المحيط لأبي حيان ٤٤٠/٥، وروح المعاني للأوسى ٣٤/١٤، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل ٤٥٣/١١.
- ٦- انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٦٦٩/٢.
- ومنه قول الشاعر: ثُمَّ خَاصِرْتُهَا إِلَى الْقُبَّةِ الْخَضْرَاءِ *** تَمْشِي فِي مَرْمَرٍ مَسْنُونٍ. أي: أملس صقيل
- ٧- انظر: النكت والعيون (تفسير الماوردي) ١٥٨/٣.
- ٨- أنوار التنزيل ٣٦٨/٣، وتفسير أبي السعود ٧٣/٥، ٧٤، وروح المعاني ٣٤/١٤، والكشاف للزمخشري ٥٤٠/٢.
- ٩- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٣/١٠.
- ١٠- أخرجه ابن جرير ٩٦/١٧، وسنده صحيح على شرط مسلم. الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور ١٥٥/٣.

وقيل: ولا يبعد أن يكون بدلاً، أي: خلقه من حمأ^(١).

وإنما كررت ﴿مِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنْ مَّصَلِّ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ﴾؛ لأن الأولى متعلقة بخلقنا، والثانية متعلقة بالصلصال، تقديره: ولقد خلقنا الإنسان من الصلصال الذي هو من حمأ^(٢).

وقوله ﴿مَّسْنُونٍ﴾: قيل صفة لحمأ، وقيل: يجوز أن يكون صفة لصلصال^(٣)، وقيل: حق ﴿مَّسْنُونٍ﴾ بمعنى مصور أو مصبوب، أن يكون صفة لصلصال، وإنما أخرج عن حمأ؛ تنبيهاً على أن ابتداء مسنونيته ليس في حال كونه صلصالاً، بل في حال كونه حمأً، كأنه ﴿مَّسْنُونٍ﴾ أفرغ الحمأ فصور من ذلك تمثال إنسان أجوف، فيبس حتى إذا نقر صوت، ثم غيره إلى جوهر آخر^(٤)، أو أخرج لمناسبة المقدم لما قبله في أن كلا منهما من جنس المادة^(٥).
أما على أنه المتغير فهو صفة لحمأ^(٦).

هـ- صلصال كالفخار:

قال الله ﴿مِنْ﴾: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾^(٧).

أصل الصلصال: تردد الصوت من الشيء اليابس، وسمي الطين الجاف صلصالاً^(٨)، والمراد بالصلصال في الآية: الطين اليابس الذي يصلصل - أي

١- غرائب القرآن و رغائب الفرقان ٢١٩/٤.

٢- زاد المسير لابن الجوزي ٣٩٨/٤.

٣- روح المعاني للألوسي ٣٤/١٤.

٤- انظر: الكشاف ٥٤٠/٢، وأنوار التنزيل ٣٦٨/٣، وتفسير أبي السعود ٧٣/٥، ٧٤، وروح المعاني ٣٤/١٤.

٥- روح المعاني للألوسي ٣٤/١٤.

٦- تفسير أبي السعود ٧٣/٥، ٧٤.

٧- سورة الرحمن: الآية ١٤.

٨- مفردات القرآن للراغب الأصفهاني ص ٤٨٨.

يصوت- من يبسه إذا ضربه شيء، وهو غير مطبوخ -لم تصبه النار-، فإذا طبخ فهو فخار^(١)، وأصل الصلصلة^(٢) والصليل واحد، والفرق بينهما أنك إذا توهمت في صوته مدأ فهو صليل، وإن توهمت فيه ترجيعاً فهو صلصلة^(٣).

وقيل: الصلصال الطين المنتن، مأخوذ من قولهم صل اللحم وأصل إذا أنتن وتغير^(٤).

وقيل: الصلصال طين خلط برمل فصار له صوت عند نقره^(٥).

والأول هو الصواب؛ لأن الله ﷻ شبهه بالفخار في يبسه، ولو كان معناه المنتن لم يشبهه بالفخار، لأن الفخار ليس بمنتن فيشبهه به في النتن غيره^(٦)، ولأنه ﷻ قال: ﴿مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾، وكونه حمأً مسنوناً يدل على النتن والتغير، وظاهر الآية يدل على أن هذا الصلصال إنما تولد من الحمأ المسنون فوجب أن يكون كونه صلصالاً مغايراً لكونه حمأً مسنوناً، ولو كان كونه صلصالاً عبارة عن النتن والتغير لم يبق بين كونه صلصالاً وبين كونه حمأً مسنوناً تفاوت^(٧)، وتفسير الآية بالآية أولى^(٨).

١- انظر: جامع البيان ٩٥/١٧، ومفاتيح الغيب ١٤٣/١٩، والكشاف للزمخشري ٥٤٠/٢، وغرائب القرآن ورغائب الفرقان ٢١٩/٤، وتفسير ابن أبي حاتم ٥٨/٩، ومعالم التنزيل للبعوي ٥٦/٣، وأنوار التنزيل للبيضاوي ٣٦٧/٣، وزاد المسير ٣٩٧/٤، وتفسير ابن كثير ٦٦٩/٢، والدر المنثور ٧٦/٥، وأضواء البيان ٢٧٤/٢.

٢- قال الماوردي: «الصلصة: الصوت الشديد المسموع من غير الحيوان، وهو مثل القعقة في الثوب» النكت والعيون ١٥٧/٣. وقال الراغب: «الصلصلة: بقیة ماء، سميت بذلك لحكاية صوت تحركه في المزادة» المفردات في غريب القرآن ص ٤٨٨.

٣- الكشاف للزمخشري ٥٤٠/٢، ومفاتيح الغيب ١٤٣/١٩، وتفسير أبي السعود ٧٣/٥، وأضواء البيان ٢٧٤/٢.

٤- انظر: جامع البيان للطبري ٩٧/١٧، ومفاتيح الغيب للرازي ١٤٣/١٩، والنكت والعيون ١٥٧/٣، ولباب التأويل في معاني التنزيل للخازن ٦٤/٤، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢١/١٠، وزاد المسير ٣٩٧/٤.

٥- انظر: النكت والعيون ١٥٧/٣، وزاد المسير ٣٩٧/٤، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢١/١٠.

٦- انظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري ٩٧/١٧.

٧- مفاتيح الغيب للرازي ١٤٣/١٩.

٨- انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٦٦٩/٢.

و(الفخار): الطين المطبوخ بالنار ويسمى الخزف^(١)، مستعمل على أصل الاشتقاق، وهو مبالغة الفاخر، وذلك أن التراب الذي من شأنه التفتت إذا صار بحيث يجعل ظرف الماء والمائعات ولا يفتت ولا ينقع فكأنه يفخر على أفراد جنسه^(٢)، وهو صفة لم **صَلْصَلِيٍّ**، وقيل حال من **أَلِإِنْسَنَ**، أي: خلقه من صلصال فصار الإنسان كالفخار في صورة خاصة وصلابة^(٣). والمعنى أنه طين ضربته الشمس والريح حتى صار يابساً له صلصلة إذا حرّك ونقر كما يصلصل الفخار^(٤).

التسوية ونفخ الروح:

يقول الله ﷻ: **﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُمْ وَنَفَخْتُ فِيهِمْ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُمْ سَاجِدِينَ﴾**^(٥)، ويقول ﷻ: **﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُمْ وَنَفَخْتُ فِيهِمْ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُمْ سَاجِدِينَ﴾**^(٦).

التسوية تطلق على التقويم، والتعديل، والإتقان، والإتمام، وإصلاح الشيء وتهيبته للمهمة التي تُراد له^(٧)، وقد اختلف المفسرون في المراد بالتسوية هنا:

- ١- انظر: الكشاف للزمخشري ٤/٤٤٤، ومفاتيح الغيب للرازي ٨٧/٢٩، ومدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي ٤/١٦٤، والتحرير والتنوير ٢٧/٢٢٩، وتفسير أبي السعود ٨/١٧٩، وإعراب القرآن وبيانه ٩/٤٠٢.
- ٢- انظر: مفاتيح الغيب للرازي ٨٧/٢٩.
- ٣- انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور ٢٧/٢٢٩، وإعراب القرآن وبيانه ٩/٤٠٢.
- ٤- انظر: جامع البيان للطبري ٢٢/٢٤، ولباب التأويل للخازن ٤/٦٤، والتحرير والتنوير ٢٧/٢٢٩، وزاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم ٤/١٦.
- ٥- سورة الحجر: الآية ٢٨، ٢٩.
- ٦- سورة ص: الآية ٧١، ٧٢.
- ٧- انظر: جامع البيان للطبري ١/٤٣١، وتفسير البحر المحيط ١/٩٧، و(٥/٣٦٩)، وتفسير ابن كثير ٣/٥٥٣، والكشاف للزمخشري ٢/٥٤١، وزاد المسير ٤/٤٠٠، والبحر المديد ١/٦٨، والتحرير والتنوير لابن=

القول الأول: المراد سويت شكله بالصورة الإنسانية والخلقة البشرية^(١).
القول الثاني: المراد سويت أجزاء بدنه باعتدال الطبائع وتناسب الأمشاج^(٢)،
 كما قال ﷺ: **﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾**^(٣)، فأطلقت التسوية هنا على
 اعتدال العناصر فيه واكتمالها بحيث صارت قابلة مستعدة لنفخ الروح^(٤).
 وقال بعض المفسرين المراد: «صورته بالصورة الإنسانية والخلقة البشرية، أو
 سويت أجزاء بدنه بتعديل طبائعه»^(٥)، ب(أو) العاطفة، وهذا يحتمل أن يكون منهم
 جمعاً بين هذين القولين، فيكون قولاً ثالثاً، وهذا على أن حرف العطف (أو)
 للإباحة التي يمكن فيها الجمع بين المتعاطفين^(٦)، أما إن كانت للتخيير أو الشك
 فلا؛ لامتناع الجمع بين المتعاطفين فيهما.

فعلى القول الأول -ومثله الثالث- فالتصوير أعقب الخلق الذي تم على المادة
 الترابية في مراحلها المختلفة، والتي استقرت إلى الصلصال، بدليل أن آخر مرحلة
 للطين أنه صار صلصالاً كالفخار، ويشده قوله ﷺ: **﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾**
ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾^(٧)، على أن المقصود خلق آدم ثم صورته، فالتصوير

-
- =عاشور ٣٥/١٣، و(٣١٦/٢٩)، ومراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد ٣٢٢/٢، وأضواء البيان ٥٠١/٨،
 وتيسير الكريم الرحمن ص ٧١٦، والتفسير المنير للزحيلي ٢٣٢/٢٣، وتفسير الشعراوي ٧٦٩٤/١٢.
 ١- انظر: جامع البيان للطبري ١٠١/١٧، ومفاتيح الغيب للرازي ١٤٤/١٩، وتفسير اللباب في علوم الكتاب
 ٤٥٥/١١، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٤/١٠.
 ٢- انظر: مفاتيح الغيب للرازي ١٤٤/١٩، وتفسير اللباب في علوم الكتاب ٤٥٥/١١.
 ٣- سورة الإنسان: الآية ٢.
 ٤- التحرير والتنوير لابن عاشور ٣٥/١٣.
 ٥- انظر: البحر المديد لابن عجيبة ٣٥٤/٦، وتفسير أبي السعود ٧٤/٥، وتفسير روح البيان ٤٢/٨.
 ٦- انظر: أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك لابن هشام ٣٧٧/٣.
 ٧- سورة الأعراف: الآية ١١.

جاء بعد مراحل الخلق والمنتھية بالصلصال من الحمأ المسنون؛ ونزل خلق آدم وتصويره منزلة خلق الكل وتصويرهم، بدليل الأمر بالسجود له الذي تأخر عن خلق آدم وتصويره لا عن خلقنا وتصويرنا، وآدم أصل البشر، ونظيرة قوله ﷺ مخاطباً ليهود زمان النبي ﷺ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾^(١)، وقوله: ﴿وَإِذْ بَعَثْنَا لَكُمْ مِنَ آلِ فِرْعَوْنَ﴾^(٢)، وقوله: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَآذَرْتُمْ فِيهَا﴾^(٣)، والمراد أسلافهم من بني إسرائيل في زمان موسى، ويقال: قتلت بنو أسد فلاناً، وإنما قتله أحدهم، فكذا ههنا^(٤)^(٥)، وعليه فالمسنون صفة لحمأ وهو بمعنى المتغير.

أما على القول إن المسنون صفة لحمأ وهو بمعنى المصور أو المصبوب^(٦)، فمعناه أن عملية التصوير قد تمت على الطين وهو حمأ، ويسند هذا القول الحديث المروي عن النبي ﷺ أنه قال: "إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ جَعَلَهُ طِينًا، ثُمَّ تَرَكَهُ حَتَّى إِذَا كَانَ حَمًّا مَسْنُونًا، خَلَقَهُ وَصَوَّرَهُ، ثُمَّ تَرَكَهُ حَتَّى إِذَا كَانَ صَلْصَالًا كَالْفَخَّارِ،

١- سورة البقرة: الآية ٦٣، ٩٣.

٢- سورة البقرة: الآية ٤٩، وسور الأعراف: الآية ١٤١.

٣- سورة البقرة: الآية ٧٢.

٤- انظر: جامع البيان للطبري ٣٢١/١٢، ومفاتيح الغيب للرازي ٢٦/١٤، والكشاف للزمخشري ٨٦/٢، وتفسير روح البيان ١٠٦/٣، والبحر المديد ٤٦٧/٢، والتفسير الميسر ٤٧٢/٢، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ٧/٣، وتفسير الجلالين ص ١٩٣، وتفسير أبي السعود ٢١٥/٣.

٥- من المعاصرين من قال: إن ﴿صَوَّرْتَكُمْ﴾ تدل على ثلاثة أنواع من التصوير الوراثي: الأول: تصوير آدم بتصوير الصفات الشكلية المرئية وغير المرئية لجسد آدم على الحامض النووي في الخلية الجسدية والجنسية بحيث لا توجد صغيره أو كبيره من صفاته الجسدية إلا ولها صورته طبق الأصل ممثله بعدد معين من الجينات، والثاني: تصوير حواء وقد تم كتصوير آدم، والثالث: تصوير الذرية في الأصلاب، لأنها تتضمن تصوير الخلايا الجنسية لآدم وحواء والتي تمثل الأصل في تصوير أمشاج الذرية في الأصلاب، فهي تشمل تصوير الذرية، وبالتالي فهو تصوير لآدم وذريته. حديث القرآن والسنة عن الحامض النووي في الأمشاج شكل توضيحي لجزيء (DNA) لمحمود عبد الله إبراهيم نجا.

٦- وذلك لأن التأسيس أولى من التأكيد، لأن الحمأ الطين الأسود المتغير، فالقول إن المسنون المتغير تأكيد.

قَالَ: فَكَانَ إِبْلِيسُ يَمُرُّ بِهِ فَيَقُولُ: لَقَدْ خُلِقْتَ لِأَمْرِ عَظِيمٍ، ثُمَّ نَفَخَ اللَّهُ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ" (١)، حيث قال: "حَتَّى إِذَا كَانَ حَمًا مَسْنُونًا، خَلَقَهُ وَصَوَّرَهُ"، فصحة هذا الحديث تدل على أن التصوير كان للحماً، وأن التسوية بمعنى القول الثاني، لكن في سند هذا الحديث راوٍ ضعفه قوم، وتركه آخرون، واتهم بقلب الأحاديث (٢)، ويخشى أن يكون هذا الحديث منها (٣).

أما قوله ﷺ: ﴿بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ (٤)، وقوله ﷺ: ﴿بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ (٥)، فلا اضطراب بينها؛ لأن التسوية للطين بعد أن صار هذا الطين صلصالاً من حملاً مسنوناً، والقرآن يفسر بعضه بعضاً.

- ١- أخرجه أبو يعلى، مسند أبي هريرة ﷺ ٤٥٣/١١ برقم: ٦٥٨٠، قال الهيثمي: «وفيه إسماعيل بن رافع، قال البخاري: ثقة مقارب الحديث، وضعفه الجمهور، وبقية رجاله رجال الصحيح» مجمع الزوائد ١٩٧/٨.
- ٢- هو إسماعيل بن رافع بن عويمر، وقيل: ابن أبي عويمر، قال عنه الدارقطني وغيره: «متروك الحديث»، وقال ابن عدي: «أحاديثه كلها مما فيه نظر»، وتعقبه السيوطي في اللآلئ بقوله: «قلت: إسماعيل روى له الترمذي، ونقل عن البخاري أنه قال: هو ثقة مقارب الحديث»، ورد الألباني على هذا التعقب بأنه تعقيب لا طائل تحته؛ لأن الرجل قد يكون في نفسه ثقة، ولكنه سيء الحفظ، وقد يسوء حفظه جداً حتى يكثر الخطأ في حديثه فيسقط الاحتجاج به، وإسماعيل من هذا القبيل؛ فقد قال فيه ابن حبان: كان رجلاً صالحاً إلا أنه كان يقلب الأخبار حتى صار الغالب على حديثه المناكير التي يسبق إلى القلب أنه كان المتعمد لها، ولهذا تركه جماعة وضعفه آخرون، والبخاري كأنه خفي عليه أمره، والجرح المفسر مقدم على التعديل كما هو معلوم، وذكر الذهبي أن المعتمد في إسماعيل الضعف. انظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة للألباني ٥٢٩/١، والكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة للذهبي ٣٩/١.
- ٣- ومما يزيد في احتمال الضعف أن الحديث أخرجه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب (٩٤) ٤٥٣/٥ برقم: ٣٣٦٨، وابن حبان في صحيحه، كتاب التاريخ، باب بدء الخلق ٤٠/١٤ برقم: ٦١٦٧، والنسائي في عمل اليوم والليلة، ما يقول إذا عطس ٢٣٧/١ برقم: ٢١٨. بإسناد ليس فيه إسماعيل بن رافع، ولفظه: قال رسول الله ﷺ: "لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ وَنَفَخَ فِيهِ الرُّوحَ عَطَسَ..." الحديث دون ذكر لمراحل خلق آدم ﷺ.
- ٤- سورة ص: الآية ٧١، ٧٢.
- ٥- سورة الحجر: الآية ٢٨، ٢٩.

أما قوله ﷺ: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾، سميت الروح روحاً؛ لأن بها حياة البدن^(١)، وأضيفت إلى الله ﷻ تكريماً وتشريفاً^(٢)، وفيه إيماء إلى أن حقائق العناصر عند الله ﷻ لا تتفاضل إلا بتفاضل آثارها وأعمالها^(٣)، قال القرطبي: «النفخ: إجراء الريح في الشيء، والروح: جسم لطيف^(٤)، أجرى الله العادة بأن يخلق الحياة في البدن مع ذلك الجسم، وحقيقته إضافة خلق إلى خالق، فالروح خلق من خلقه^(٥)، أضافه إلى نفسه؛ تشريفاً وتكريماً»^(٦).

- ١- الروح في الكلام على أرواح الأموات والأحياء بالدلائل من الكتاب والسنة لابن القيم ص ٢١٨.
- ٢- المضاف إلى الله ﷻ نوعان: الأول: صفات لا تقوم بأنفسها، كالعلم والقدرة والكلام والسمع والبصر، فهذه إضافة صفة إلى الموصوف بها، فعلمه وكلامه وإرادته وقدرته ووجهه وحياته صفات له غير مخلوقة. والثاني: إضافة أعيان منفصلة عنه، كالبيت والناقة والعبد والرسول والروح، فهذه إضافة مخلوق إلى خالقه ومصنوع إلى صانعه، لكنها إضافة تقتضي تخصيصاً وتشريفاً يتميز به المضاف عن غيره، كبيت الله وإن كانت البيوت كلها ملكا له، وكذلك ناقة الله والنوق كلها ملكه وخلقها، لكن هذه إضافة إلى إلهيته تقتضي محبته لها وتكريمه وتشريفه، بخلاف الإضافة العامة إلى ربوبيته حيث تقتضي خلقه وإيجاده، فالإضافة العامة تقتضي الإيجاد، والخاصة تقتضي الاختيار، والله يخلق ما يشاء ويختار مما خلقه، وإضافة الروح إليه من هذه الإضافة الخاصة لا من العامة، ولا من باب إضافة الصفات. انظر: الروح لابن القيم ص ١٥٤.
- ٣- التحرير والتنوير ٣٦/١٣. قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ». أخرجه مسلم، كتاب البر والصلوة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم و... ١٩٨٦/٤ برقم: ٢٥٦٤.
- ٤- جاء في الموسوعة الفقهية: «ذهب أهل السنة من المتكلمين والفقهاء والمحدثين إلى أن الروح جسم لطيف متخلل في البدن تذهب الحياة بذهابه، وعبارة بعض المحققين: هي جسم لطيف مشتبك بالبدن اشتباك الماء بالعود الأخضر... ذهب جمهور أهل السنة من فقهاء ومحدثين ومتكلمين إلى أن المراد بالروح «الروح» [الموسوعة الفقهية الكويتية ٢٥٠/٣٩]، وقال ابن تيمية: «الروح المدبرة للبدن التي تفارقه بالموت هي الروح المنفوخة فيه، وهي النفس التي تفارقه بالموت... لكن يسمى نفساً باعتبار تدبيره للبدن، ويسمى روحاً باعتبار لطفه». [مجموع الفتاوى لابن تيمية ٢٨٩/٩]، ودليلهم قوله ﷺ: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]، والأنفس هنا هي الأرواح قطعاً. الروح لابن القيم ص ١٤٨.
- ٥- انظر: الروح ص ١٤٥، وما بعدها.
- ٦- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٤/١٠.

في حين أمسك آخرون عن الحديث عن الروح، قال السيوطي: «الروح نمسك عنها، فلا نتكلم في حقيقتها؛ اعترافاً بالعجز عنها، مخالفين الأطباء حيث خاضوا في ذلك؛ لأن المصطفى ﷺ لم يتكلم عليها وقد سأل عنها؛ لعدم نزول الأمر ببيانها، قال تعالى: ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾^(١) أي: علمه فلا تعلمونه»^(٢)، وقال: «وكننت تبعته أولاً»^(٣)، فذكرت هذا الحد في سورة الحجر، ثم ضربت عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾، فهي صريحة أو كالصريحة في أن الروح من علم الله تعالى، لا نعلمه، فالإمساك عن تعريفها أولى»^(٤).

وقوله ﷺ: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾، فيه أن تخليق الإنسان لا يكتمل ويتم إلا بنفخ الروح فيه بعد تسويته؛ لأنه مركب من جسد وروح^(٥).

١- سورة الإسراء: الآية ٨٥.

٢- إتمام الدراية لقراء النقاية لجلال الدين السيوطي ص ١٤٥.

٣- يريد الشيخ جلال الدين المحلي في تعريفه للروح بجسم لطيف يحيا به الإنسان بنفوذ فيه.

٤- انظر: تفسير الجلالين ص ٣٧٨. ثم قال: «ولذا قال الشيخ تاج الدين ابن السبكي في جمع الجوامع: والروح لم يتكلم عليها محمد ﷺ، فتمسك عنها». قال ابن القيم: «وهذا بناء على أن المراد بالروح في الآية روح الإنسان، وفي ذلك خلاف بين السلف والخلف، وأكثر السلف بل كلهم على أن الروح المسئول عنها في الآية ليست أرواح بني آدم، بل هو الروح الذي أخبر الله عنه في كتابه أنه يقوم يوم القيامة مع الملائكة، وهو ملك عظيم». انظر: الروح ص ١٥١.

قلت: وكثير من المفسرين على أن المراد بالروح أرواح بني آدم. انظر: مفاتيح الغيب للرازي ٣٠/٢١، وتفسير البحر المحيط ٧٤/٦، والكشاف للزمخشري ٦٤٥/٢، ومعالم التنزيل في تفسير القرآن للبغوي ١٦٠/٣، ولباب التأويل في معاني التنزيل للخازن ١٨٢/٤، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣٢٤/١٠، وفتح القدير للشوكاني ٣٦٣/٣، والتحرير والتنوير لابن عاشور ١٥٦/١٤.

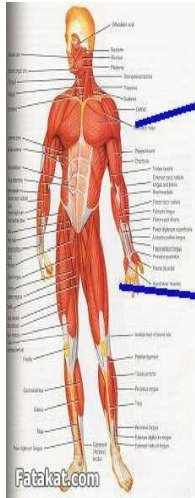
٥- انظر: مفاتيح الغيب للرازي ١٩٨/٢٦.

المطلب الثاني: الخلق من الأرض في ضوء المكتشفات العلمية الحديثة

منذ عقود مضت قام (ستانلي ميلر) حين كان طالباً في ذلك الوقت بإخضاع مزيج من بعض المواد الكيميائية (كربون-ماء-أمونيا-هيدروجين) لشرارة كهربائية لمدة أسبوع كامل، فحصل على كمية بسيطة من الحمض الأميني أساس مادة البروتين التي تعتبر من العناصر الرئيسية في تكوين أي كائن حي، وصارت هذه التجربة إحدى أهم المحاولات التي قام بها العلماء لتقصي أصل الكائنات الحية، ومعرفة الكيفية التي تكونت بها. وليس العالم (ميلر) بأول من قام بمثل هذه الأبحاث كما يعتقد البعض، فأحدى النشرات العلمية الصادرة سنة ١٩١٣م، عن الشركة الكيميائية الألمانية، احتوت بحثاً حول هذا الموضوع للكيميائي الألماني (ولتر لوب) الذي كان يعمل بقسم الكيمياء بمستشفى فيرشوف، وقد توصل في نهاية تجاربه إلى الحصول على حمض أميني يدعى الغليسين محتويه العديد من المواد البروتينية، كما حصل على مادة الفورمالدهايد. إن تجارب (ميلر) و(لوب) ومن قبلهما (لوزانيتش) و(جوفتشتش) تؤكد جميعها أن الحياة بدأت تكونها من اتحاد مواد مختلفة، بمقادير محددة سلفاً، وتحت ظروف خاصة، فكانت الكائنات الحية التي انتشرت على سطح الأرض، وهذا ما أكده عالما البيولوجيا الروسي (ألكندر أوبريان) والانجليزي (جون هولدين) من خلال التجارب التي أجريها عام ١٩٢٠م، إذ تبين لهما أن المواد العضوية يمكن تركيبها تحت الظروف البدائية للأرض، وافترضوا أن الطاقة اللازمة لهذه العملية قد استمدت من الشمس، إذ أن الأشعة فوق البنفسجية كانت تتمتع بإمكانية الدخول إلى جو الأرض في غياب طبقة الأوزون في ذلك الوقت، وفي غياب الأكسجين لم تحدث أكسدة للجزيئات العضوية التي تجمعت إلى بعضها البعض مكونة ما يعرف بالحساء الخلقي ليكون مصدراً تخرج منه الكائنات الحية^(١).

١- انظر: خلق الإنسان بين العلم والقرآن لحمد الرفعي ص ١٥، ١٦.

والعلم الحديث اليوم وإن كان لا يزال في طور البحث في جسم الإنسان، إلا أنه قد ظهرت نتائج لبعض تلك الأبحاث، منها ما أثبتته العلم الحديث في التحليل



- المواد الإنشائية (العناصر الإنشائية)
 - هيدروجين (H)
 - نيتروجين (N)
 - أكسجين (O)
 - كربون (C)
 - المعادن المستخدمة في نقل الطاقة و المنس
 - كالسيوم (Ca)
 - فوسفور (P)
 - بوتاسيوم (K)
 - كبريت (S)
 - صوديوم (Na)
 - كلور (Cl)
 - مغنسيوم (Mg)
 - يود (I)
 - حديد (Fe)
 - نحاس (Cu)
 - سيليكون
- تطابق كامل بين
لمواد و المعادن
الموجودة في
التراب و الموجودة
في جسم الإنسان

الكيميائي لجسم الإنسان أنه يحوي من العناصر ما تحتويه الأرض، فهو يتكون من: الكربون، والأكسجين، والأيدروجين، والفوسفور، والكبريت، والأزوت، والكالسيوم، والبوتاسيوم، والصوديوم، والمغنيسيوم، والكلور، والحديد، والمنجنيز والنحاس، واليود، والفلورين، والكوبالت، والسلكون، والزنك، والألمنيوم... وهذه العناصر نفسها هي المكونة

لترية الأرض، وإن اختلفت نسبتها بين الإنسان والتراب، أو في إنسان عن آخر^(١). فالتحليل المخبري يقول: لو أرجعنا الإنسان إلى عناصره الأولية، لوجدناه أشبه

بمنجم صغير، يشترك في تركيبه حوالي (٢٢) عنصراً، تتوزع بشكل رئيسي على:

- ١- أكسجين (O)، وهيدروجين (H)، على شكل ماء بنسبه ٦٥-٧٠% من وزن الجسم.
- ٢- كربون (C)، وهيدروجين (H)، وأوكسجين (O)، وتشكل أساس المركبات العضوية من سكريات، ودسم، وبروتينات، وفيتامينات، وهرمونات، أو خمائر.
- ٣- مواد جافة يمكن تقسيمها إلى:

- أ- سبع مواد هي: الكلور (Cl)، والكبريت (S)، والفوسفور (P)، والمغنسيوم (Mg)، والكلس (Ca)، والبوتاسيوم (K)، والصوديوم (Na)، وهي تشكل ٦٠-٨٠% من المواد الجافة.

١- انظر: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة لعبدالرحيم ماريديني ص ٢٣٩، والكون والإعجاز العلمي للقرآن الكريم لمنصور محمد ص ٣١٧، والفلك والطب أمام عظمة القرآن لأكرم أحمد ص ١٢٣، وموسوعة الإعجاز العلمي في سنة النبي الأمي لحمدي الصعيدي ص ٢٦٨.

ب- سبع مواد أخرى بنسبة أقل هي: الحديد (Fe)، والنحاس (Cu)، واليود (I) والمنغنيز (Mn)، والكوبالت (Co)، والتوتياء (Zn)، والمدلبيديوم (Mo).

ج- ستة عناصر بشكل زهيد هي: الفلور (F)، والألمنيوم (Al)، والبور (B)، والسيلينيوم (Se)، والكادميوم (Cd)، والكروم (Cr)^(١).

كما أن الإنسان يقتات على كل من النبات والمباح من منتجات وذبائح الحيوان، والنبات أعطاه الله القدرة على امتصاص ماء الأرض وما يحمله من عناصر ومركبات، وتحليله بواسطة الطاقة المستمدة من أشعة الشمس إلى عناصره الأولية وأهمها الأوكسجين الذي يطلقه إلى الجو، والأيدروجين وغيره من عناصر ماء الأرض (العصارة الغذائية للنبات) التي يحتفظ بها، كذلك يمتص النبات من الجو ثاني أكسيد الكربون ويحلله إلى الكربون الذي يحتفظ به، والأوكسجين الذي يطلقه إلى الجو، ثم يقوم النبات بربط ما احتفظ من كل من الأيدروجين والكربون وعناصر الأرض الأخرى التي أعطى الله ﷻ لكل نوع من أنواع النبات القدرة على اختيارها (بخصوصية وكفاءة عالية) بعدد من الروابط الكيميائية على هيئة سلاسل من الكربوهيدرات (من أمثال السكر بأنواعه المختلفة، والنشأ، والسيلولوز) التي تبني منها النباتات خلاياها المختلفة التي يحيا عليها الحيوان والإنسان، وبذلك تتبني مختلف خلاياهما من تراب الأرض، كذلك يتغذى كل من الإنسان والحيوان على بعض الحيوانات ومنتجاتها، وأجسادها مبنية أصلاً من تراب الأرض، ويتحول ذلك إلى خلايا أجساد كل من الحيوان والإنسان الحي وتعود مادتها أصلاً إلى تراب الأرض^(٢).

وأما عملية الخلق التي وجدت بعد ذلك لأبناء آدم ﷺ عن طريق اتحاد المنوي مع البويضة، حيث يقول الله ﷻ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ

١- انظر: مع الطب في القرآن الكريم، للطبيين عبد الحميد دياب وأحمد قرقوز ص ٧٢، ٧٣.

٢- خلق الإنسان في القرآن الكريم لزغلول النجار ص ٢٩١، ٢٩٢.

سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١﴾، فقد ذكر العلماء أن الحيوان المنوي والبويضة يتكونان من المادة اللبنية الناتجة من الكيلوس، وهو عبارة عن نواتج هضم الغذاء الذي هو نبات وحيوان وماء، وكلها مكونة من عناصر الطين والتراب^(٢).

ومن الأدلة المشاهدة والمحسوسة الدالة على الخلق من الأرض ما بينه النبي ﷺ في سنته أن آدم خُلِقَ من تراب الأرض، فقال ﷺ: **«إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةِ قَبْضَتِهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ مِنْهُمْ الْأَحْمَرُ وَالْأَبْيَضُ وَالْأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالسَّهْلُ وَالْحَزْنُ، وَالْخَبِيثُ الطَّيِّبُ»**^(٣)، وفي هذا الحديث يبين النبي ﷺ الاختلاف الواضح بين الناس في اللون، وفي الطباع والميول اختلافاً يشهده كل ذي عينين، ولا يحتاج إلى مزيد بيان، وقد أرجع رسول الله ﷺ هذا الاختلاف إلى أصل الإنسان، فلما كان أصل الإنسان من تراب، وكانت الأرض مختلفة في اللون والسهولة والوعورة، ومنها الطيب ومنها الخبيث كان الإنسان كذلك^(٤).

أما الخلق من الطين -وهي المرحلة الثانية من مراحل خلق أبينا آدم ﷺ- فقد تمَّ تحليل مكونات جسم الإنسان وعناصره الأساسية، فوجد إلى جانب العناصر الجافة -المذكورة سابقاً- أن الإنسان يتكون بشكل رئيسي من الماء، وبنسبة عالية، قد تصل إلى ثلثي جسم الإنسان! حتى إن الإنسان لا يستطيع أن يستمر حياً أكثر من أربعة أيام بدون ماء، رغم ما يمتلكه من إمكانيات التأقلم مع الجفاف، وينطبق

١- سورة الإنسان: الآية ٢.

٢- المبادئ التربوية المستنبطة من آيات خلق الإنسان في القرآن لآمنه إبراهيم شامي عسيري ص ١٩ اطروحة ماجستير، جامعة أم القرى بمكة المكرمة، ١٤٣١-١٤٣٢هـ.

٣- سبق تخريجه، وهو عند أبي داود، والترمذي، وأحمد، وقال الترمذي: «حسن صحيح».

٤- الإعجاز العلمي في السنة النبوية لصالح بن أحمد رضا ١/ ٤٥.

ذلك على جميع الكائنات الحية^(١)، فتبارك الله إذ يقول: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٢)، وبما أن الماء في جسم الإنسان يشكل بحدود الثلثين^(٣)، والثلث الباقي هو مواد جافة جميعها موجودة في التراب إذاً الإنسان قد تكوّن من خليط الطين -التراب والماء-.

وقد أثبتت دراسات وبحوث جديدة أن مواد موجودة في الطين لها دور رئيسي في بعض العمليات الأولية لتكوين الحياة^(٤)، مؤكدة بذلك حقيقة قرآنية بأن الإنسان خلق من طين، وقال فريق بمعهد هاوارد هيزور الطبي ومستشفى ماساتشوستس العام في بوسطن إنه تبين لهم أن أحد المعادن المكونة للطفل أو الطين الصلصالي ويطلق عليه (سليكات الألومنيوم)^(٥) المائية) يساعد الخلايا على استخدام مواد وراثية تسمى الحمض الريبسي النووي (RNA) التي تشكل بدورها أحد

١- الهندسة الوراثية في القرآن وأسرار الروح وخلق الإنسان لمحمد محمود عبدالله ص ١٩، والإعجاز العلمي في السنة النبوية لصالح بن أحمد رضا ٤٥/١، ٤٦.

٢- سورة الأنبياء: الآية ٣٠.

٣- وهي نسبة قريبة من نسبة الماء مقابل اليابسة على الكرة الأرضية.

٤- ذكر الدكتور علي منصور كيالي [في مقطع صوتي] أنه ثبت بالتجارب أن الماء إذا ضغط داخل الأنابيب يفقد كل الطاقة الحيوية التي فيه، وبالتالي فإنه يصل إلى البيوت ميتاً، وبذلك فنحن نشرب ماءً ميتاً، وأكثر من ٧٠% من جسم الإنسان هو ماء، وقد أجريت تجارب لمحاولة إعادة الطاقة إليه، وتم استخدام البلاستيك والفريزرات في تعبئة الماء، فلم تعد إليه الحياة، ووضعوه في جرة من الفخار بعد إنزاله من الصنبور المضغوط، وبعد نصف ساعة عادت إليه كل الطاقة الحيوية، وبالتالي وجدوا أن أقرب مادة للإنسان في الطبيعة هي الفخار.

٥- سليكات الألومنيوم (Feldspar) أو الفلسبار: واحدة من أكثر مجموعات المعادن وفرة على سطح الأرض، وتُشكّل حوالي ٦٠% من قشرة الأرض، وتحتوي جميع سليكات الألومنيوم على ألومينا وسليكا، وتقوم العوامل الجوية بتحليل سليكات الألومنيوم إلى معادن أخرى، هي بشكل رئيسي معادن الصلصال وبعض الأملاح. انظر الموسوعة العربية العالمية ٨٣/١٣، ٨٤.

العناصر الرئيسية للحياة، وإضافة إلى ذلك فإن الطين الصلصالي يساعد على تكوين أكياس صغيرة من الدهون والسوائل في الخلية الحية. واستند الباحثون (جاك شوستاك) و(مارتن هانزيتش) و(شيلي فوجيكاوا) إلى بحث سابق خلص إلى أن الطين قد يحفز التفاعل الكيميائي المطلوب لتكوين الحمض الريبي النووي من وحدات بنائية تعرف باسم النويدات، وتوصل الباحثون إلى أن الطين سرّع من عملية تكوين الأحماض الأمينية لتكوينات تشبه الأكياس الصغيرة تسمى الحويصلات، كما ينقل الطين أيضاً الحمض الريبي النووي إلى داخل هذه الحويصلات^{(١)(٢)}.

١- انظر: خلق الإنسان من طين، مقال منشور على صفحة نصف الإلحاد، على الرابط: http://antishobhat.blogspot.com/p/blog-page_10.html

٢- وجاء في نفس الموقع السابق شبهة، وهي: كيف خلق الإنسان من طين، والطين يتكون من سليكا؟ وأجيب عنها: بأن هناك فرقاً بين المركب الكيميائي والعنصر الكيميائي، فالمركب الكيميائي يتكون من عدة عناصر كيميائية مختلفة كالجلكوز يتكون من ست ذرات كربون، وأثني عشرة ذرة هيدروجين، وست ذرات أكسجين، أي أنه يتكون من ثلاثة عناصر، فمجموعة السليكات ليست عنصراً بل مركباً يتكون من السليكون والأكسجين، فالطين ليس مكوناً من سليكا، بل ربما لا يكون فيه سليكا أصلاً، والسليكا هي أكسيد السليكون، وهي المكون الرئيسي لرمال الصحراء والبحار، والسليكا مع الماء لا تصنع الطين؛ لأن حبات السليكا يمر منها الماء ولا تستطيع أن تمسكه بل ينفذ منها إلى التربة التي توجد تحته، ولذلك لا تصلح للزراعة إلا بشكل محدود، ولا تثبت فيها جذور النباتات ولا ماء الري. إن الطين هو عبارة عن أكاسيد معدنية لعناصر ترابية مختلفة أهم صفة لها هي أنها تحفظ الماء وتمنع تسربه من خلالها بتشكيل جزيئات كبيرة فيها نسبة عالية من جزيئات الماء الصغيرة -أشهر مثال على الطين هو الطين الصيني أو الكاؤولين الذي يصنع منه الخزف الصيني وهو عبارة عن سليكات الألمنيوم المائية، وهذا الطين يوجد بنقاوة عالية وبكميات محدودة ومناجم قليلة-، أما الطين الذي نعرفه جميعاً والذي هو المكون الرئيسي للأراضي الزراعية الخصبة فيتشكل من مكونات معدنية كثيرة ومتنوعة منها: سليكات الألمنيوم، وأكاسيد الحديد، ومركبات الكالسيوم، والمواد العضوية مثل: بقايا أوراق=

وليست كل مكونات التربة داخلة في تركيب جسم الإنسان، فهناك أكثر من مائة عنصر في الأرض بينما لم يُكتشف منها بالتحليل إلا ٢٢ أو ٢٣ عنصراً في تركيب جسم الإنسان^(١)، وقد أشار القرآن إلى ذلك في قوله ﷻ: ﴿مِنْ سُئَلَةَ مِنَ طِينٍ﴾^(٢). ومن الأدلة المحسوسة والمشاهدة على المراحل التي مر بها خلق أبينا آدم ﷺ والتي لم نشاهدها، وإنما أخبرنا الله ﷻ بها في كتابه الكريم الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَتَزِيلُ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾^(٣)، النظر إلى نقض بنية الإنسان بالموت؛ لأنها تتم على عكس بنائه، وذلك على ما هو معلوم عرفاً من أن هدم الشيء ونقصه يأتي على عكس البناء، فما بُني أولاً يُهدم آخرًا، والعكس، فعندما تكلم الخالق ﷻ عن الخلق الأول للإنسان ذكر أنه خلق من تراب، ومن طين، ومن

=النباتات، والبقايا الحيوانية، والأحياء المجهرية الصغيرة -وربما تتكون من التورب وهو من أنواع الفحم الحجري- وربما يوجد فيها القليل من رمل السليكا.

والطين الذي خلق منه الإنسان كما ذكر في القرآن هو الطين اللازب أي الملتصق، وبالتالي لا يحوي (السليكا*)^(١)، وكذلك الصلصال والحمأ المسنون؛ لأن الحمأة هي الطين الأسود الكريه الرائحة أي: الذي فيه مواد عضوية، والسليكا أو (الكاولين*)^(٢) لا رائحة لهما، وليس لونهما أسود، وليس بهما مواد عضوية. انظر: خلق الإنسان من طين، مقال منشور على صفحة نفس الإلحاد، على الرابط: <http://antishobhat.blogspot.com>.

* السليكا أو ثاني أكسيد السليكون: مركب كيميائي يتكون من السليكون والأكسجين، وصيغته الكيميائية هي (SiO₂)، وتوجد السليكا بشكل كبير في المعادن المتكونة في الصخور، وتسمى السليكات، وهي تشكل كثيراً من قشرة الأرض وغلاف الأرض. انظر الموسوعة العربية العالمية ٨٢/١٣.

* الكاولين (Kaolin): صلصال أبيض نقي مُصنَّع من الفلسبار (سليكات الألومنيوم) المحلل إلى عناصره الأساسية، يتكون من الكولنيت، يظهر الكاولين في شكل مسحوق ناعم من البلورات الرقيقة المسطحة، ويسمى الكاولين أيضاً الصلصال الصيني. الموسوعة العربية العالمية ١٠٠/١٩.

١- الهندسة الوراثية في القرآن وأسرار الروح وخلق الإنسان ص ١٩.

٢- سورة المؤمنون: الآية ١٢.

٣- سورة فصلت: الآية ٤٢.

حماً مسنون، ومن صلصال كالفخار، وهي أطوار للمادة الواحدة، ثم بعد ذلك سواه ونفخ فيه الروح، فدبت فيه الحياة، فإذا ما تأملنا الموت وجدنا ترتيب مراحل على عكس ترتيب مراحل الخلق، كالتالي:

يبدأ بنزع الروح التي وُضِعَتْ فيه آخراً، ثم يتصلب الجسد ويبيس كالصلصال، ويسمى التيبس الرمي، ويقصد به تصلب العضلات الإرادية واللاإرادية للجثة نتيجة تحلل كيميائي، ويبدأ التيبس بعد ساعتين من الوفاة في عضلات الفك الأسفل والجفنين، ثم ينتشر في الوجه والعنق والصدر والذراعين والجذع، وأخيراً في الرجلين، فينتشر تدريجياً من أعلى إلى أسفل، وبعد ١٢ ساعة يشمل عضلات الجسم كله، وبعد ٢٤ ساعة يبدأ في الزوال تدريجياً بنفس الترتيب الذي ظهر به^(١). ثم يرم ويُنْتِن كالحماً المسنون، وهو ما يسمى بالتعفن الرمي، وهو تحلل أنسجة الجسم بواسطة ميكروبات التعفن، وخاصة في الأحشاء، وينتهي بامتصاص جميع الأنسجة المتحللة بتأثير الديدان والبكتيريا والحشرات التي تتغذى على هذه الجثة، مما يؤدي إلى تدرج تحلل أنسجتها الرخوة والأحشاء، ويبدأ ظهوره كاخضرار خفيف في أسفل جدار البطن، وينتشر تدريجياً، ثم تظهر فقاعات تحت الجلد تسبب انتفاخ الجثة وتقوح منها رائحة كريهة^(٢).

ثم يتبخر ما فيه من ماء، وتتحلل باقي العناصر، فتصير إلى التراب^(٣). وهذا من حكمته ورحمته ﷻ أن أقام لنا شواهد توضح الغيب الذي لم نشاهده^(٤).

١- انظر: انظر: الطبيب أدبه وفقهه لمحمد البار وزهير السباعي ص١٩٣، وموسوعة الفقه والقضاء في الطب الشرعي لأحمد جلال وشريف الطباخ ١/١٧٣.

٢- انظر: الطبيب أدبه وفقهه ص١٩٤، وموسوعة الفقه والقضاء في الطب الشرعي ١/١٧٩، والطب الشرعي وأدلته الفنية للمنشاوي ص١٩، والطب الشرعي والبوليس الفني الجنائي ليحيى شريف وآخرين ص٢٨٢.

٣- انظر: تفسير الشعراوي ١٥/٩٢٩٨، ٩٢٩٩، ومعجزة القرآن لمحمد متولي الشعراوي ص٣٢.

٤- انظر: تفسير الشعراوي ١٨/١١٣٥٣.

المطلب الثالث: ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها

من خلال الدراسة التفسيرية والعلمية يتلخص ما يلي:

* الخلق أصله الإيجاد على تقدير وتسوية، وأطلق في القرآن الكريم وكلام الشارع على إيجاد الأشياء المعدومة، وإخراجها إلى الوجود إخراجاً لا صنعة فيه للبشر، والإنشاء هو الإحداث والإيجاد وابتداء الخلق من غير شيء.

* جمهور المفسرين على أن المراد بقوله ﷻ: ﴿مِنَّا خَلَقْنَاكُمْ﴾ خلق آدم ﷺ، وقيل كل بنيه؛ لأنهم خلقوا من المني المتولد من التراب، وقيل ذلك الملك الموكل بالرحم يأخذ من تربة المكان الذي يدفن فيه المولود ويذره على النطفة، فيخلق منهما؛ وأجيب عنه بدلاله القرآن على أن النطفة بعد التراب بمهلة لا مقارنة لها، وليس ذلك بثابت في حديث مرفوع، وما استدلوا به باطل أو ضعيف.

* المقصود من الإنشاء من الأرض والإنبات منها خلق آدم ﷺ، ولا يبعد أن يشمل ذلك ذريته ﷺ؛ لأن التراب من مركبات أبدانهم، وقد خلقوا من النطف المتولدة من الدم، المتولد من الأغذية، المتولدة من النبات، المتولد من الأرض.

* خلق الله ﷻ آدم ﷺ في مراحل عدة هي: الخلق من تراب، ثم من طين وهو التراب المخلوط بالماء، وذلك بأن عجن هذا التراب بالماء فصار طيناً، ثم سل من هذا الطين أجوده، ثم صار هذا الطين لاصقاً يعلق بالأيدي من حسن العجن وجودة التخمير، ثم تغير هذا الطين واسود وانتن، ثم يبس بفعل الشمس والريح حتى صار يابساً له صلصلة إذا حرّك ونقر كما يصلصل الفخار، ثم بعد هذه المراحل سواه ﷻ ونفخ فيه الروح^(١)، والحكمة من خلق الله ﷻ لآدم ﷺ كذلك هي الدلالة على كمال قدرته ﷻ على أن يخلق ما شاء كيفما شاء ﷻ.

١- انظر: تهذيب الأسماء واللغات للنووي ١/١١٠، ومفاتيح الغيب للرازي ٨/٦٦، وتفسير القرطبي ١٠/٢١، ولباب التأويل للخازن ٤/٦٤، ودفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب للشنقيطي ص ١٣١.

* أثبت التحليل الكيميائي لجسم الإنسان أنه يحوي من العناصر ما تحتويه الأرض، وإن اختلفت نسبتها بين الإنسان والتراب، أو في إنسان عن آخر، وتوجد عادة على هيئة مركبات باستثناء مقادير صغيرة تظل على هيئة عناصر.

* الحيوان المنوي والبويضة يتكونان من نواتج هضم الغذاء الذي هو نبات وحيوان وماء، وكلها مكونة من عناصر الطين والتراب.

* من الأدلة المشاهدة والمحسوسة على الخلق من الأرض ما بينه النبي ﷺ في أن الاختلاف الواضح بين الناس في اللون والطباع والميول راجع إلى أصل الإنسان المخلوق من تراب الأرض المختلفة في اللون والسهولة والوعورة.

* يتكون الجسم بشكل رئيسي من الماء، وأثبتت دراسات وبحوث جديدة أن مواد موجودة في الطين لها دور رئيسي في بعض العمليات الأولية لتكوين الحياة.

* هناك أكثر من مائة عنصر في الأرض بينما لم يُكتشف منها إلا ٢٢ أو ٢٣ عنصراً في تركيب جسم الإنسان، وذلك يشير إلى السلالة من الطين .

* الموت دليل مشاهد على مراحل خلق آدم؛ إذ يبدأ بنزع الروح، ثم يتصلب الجسد ويبيس، ثم يُنتن، ثم يتبخر ماؤه وتتحلل باقي العناصر فتصير إلى التراب.

ومن خلال الدراسة التفسيرية والعلمية تظهر لنا الآثار التالية:

* دمع الشبهة: ذلك أن الطاعنين في القرآن الكريم والمشككين فيه يقولون: إنه عندما تحدث عن خلق آدم تجده مرة يذكر التراب، وأخرى الماء، وثالثة الطين، وغيرها الطين اللازب، والسلالة من طين، والصلصال من الحمأ المسنون، والصلصال كالفخار، مما جعل المستشرقين يعترضون على أسلوب القرآن، ويقولون: من أيّ هذه الأشياء خُلِقْتُمْ؟ مع أنها في الحقيقة ألفاظ راجعة إلى أصل واحد، وهو التراب، الذي هو أصل الطين، فأعلمنا الله ﷻ أنه خلقه من تراب،

جُعِل طِيناً بخلطه بالماء، ثم استل منه خلاصته، ثم انتقل فصار لازباً، ثم تغير واسود فكان حمأ، ثم صار يابساً له صلصلة إذا حرك ونقر كالفخار، فهذه العناصر لا تعارض بينها، ويجوز القول: إن الإنسان خُلِق من ماء، أو من تراب، أو من طين، أو من طين لازب، أو من حمأ مسنون، أو من صلصال كالفخار، فهي مراحل متعددة لشيء واحد، ومرور الشيء بمراحل مختلفة لا يُغيِّره^(١).

ولو أمعنا النظر لوجدنا أن هذا الاعتراض ناشئ من عدم فهم لغة القرآن، فكفار قريش وهم من العرب، وأصحاب اللسان العربي المبين، والذي نزل القرآن بلغتهم، مع حرصهم على تكذيب النبي ﷺ والطعن فيه وفي رسالته وفيما نزل عليه، لم يعترضوا على النبي ﷺ باضطراب القرآن في حديثه عن خلق الإنسان؛ وما ذلك إلا لفهمهم بلغة القرآن، لكن لما ضاع اللسان العربي المبين الذي نزل به القرآن الكريم سهل تسلل هذه الشبهة إلى قائلها ومنه إلى غيره.

* تكذيب المبطلين، وبالتالي فإن جاء من يقول في مسألة الخلق بغير ما ذكره الله في كتابه فلا تُصدِّقه؛ لأن الذي خلق الإنسان أخبرنا كيف خلقه، أما هؤلاء فلم يشهدوا من خلق الإنسان شيئاً، وهم في نظر الدين مُضللون، يجب الحذر من أفكارهم؛ لأن الله تعالى يقول في شأنهم: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ مَخَذَ الْمُضِلِّينَ عَصَدًا﴾^(٢)(٣).

* إظهار المعجزة: وهذه المعجزة بيانية وتاريخية وعلمية، فالبيانية هي إعجاز القرآن الكريم في بيانه بعرضه لقصة خلق الإنسان بألفاظ عدة وهي في الحقيقة تتحدث عن مراحل مرت بها المادة الواحدة.

١- انظر: تفسير الشعراوي (٩٧٠٣/١٦)، و(١١٨٠٢/١٩).

٢- سورة الكهف: الآية ٥١.

٣- انظر: تفسير الشعراوي ١١٣٥٢/١٨.

والإعجاز الغيبي والتاريخي حيث أخبر القرآن الكريم عن خلق آدم عليه السلام، ومعلوم أن النبي ﷺ كان نبياً آمياً، وقد عاش في بيئة أمية، وقد مر زمن طويل على خلق آدم، فسرد القرآن لهذه القصة يشهد بأنه كلام الله، أنزله على محمد ﷺ شاهد بصدق رسالته، وذلك مصداقاً لقوله ﷺ: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُنْقِذِينَ﴾^(١).

والإعجاز العلمي، وذلك حين نرى العلم الحديث وعلماء العصر يُثبتون صدق ما أخبر به القرآن عن أصل الإنسان، والذي وصلوا إليه بالبحث والدراسة لفترة زمنية، وعن طريق وسائل العلم الحديثة المتطورة، التي استطاع المختصون أن ينظروا من خلالها إلى أدق تفاصيل جسم الإنسان، بينما أخبر بها القرآن الذي نزل على محمد ﷺ قبل أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان، وأخبر بذلك النبي ﷺ في ذلك الزمان الذي لم يكن فيه وجود لأي من هذه الوسائل العلمية، ليدل ذلك دلالة واضحة على أن العلم الذي في القرآن هو علم الله، جعله معجزة لرسوله ﷺ، مصداقاً لقوله ﷺ: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾^(٢)، أي فيه علمه الذي أراد أن يطلع العباد عليه^(٣)، والعجيب أن هذا الإثبات من غير المؤمنين، وكأن الحق سبحانه يجند من يُثبت صدق آياته ولو من الكفار^(٤)، بل إثبات ذلك منهم أقوى؛ لأنهم أهل اختصاص في هذه العلوم، بالإضافة إلى أن ذلك يدفع شبهة تحايل المسلمين في هذه المكتشفات، وهذا مصداقاً لقوله ﷺ:

١- سورة هود: الآية ٤٩.

٢- سورة النساء: الآية ١٦٦.

٣- تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٧٢٦/١.

٤- تفسير الشعراوي ١١٣٥٤/١٨.

﴿ سَتْرِيهِمْ أَئِيتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (١).

* سعة دلالة ألفاظ القرآن الكريم؛ إذ إن الخلق من تراب الأرض انطبق على خلق أبينا آدم عليه السلام، كما أنه ينطبق على خلق نسله من بعده؛ لأن جميع بنيه كانوا في صلبه، وكل واحد منهم عناصر جسمه من عناصر الأرض، ولنمو الإنسان وهو في بطن أمه على دمها المستمد من الغذاء الذي تأكله، وهو مستمد أصلاً من تراب الأرض، ثم نموه من بعد ميلاده على لبن أمه المستمد من غذائها وهو مستمد كذلك من تراب الأرض، ثم نموه من بعد فطامه إلى وفاته على ما يتناوله من طعام، والطعام مستمد أصلاً من تراب الأرض (٢)، وبالتالي فكل ما قاله المفسرون هو من اختلاف التنوع الذي تسعه ألفاظ القرآن الكريم المعجزة بشهادة الكشوف العلمية الحديثة، ولهذا نجد من المفسرين من جمع شيء من ذلك بقوله: «إن التراب أصل خلقة أول آبائكم، وأول مواد أبدانكم» (٣).

١- سورة فصلت: الآية ٥٣.

٢- انظر: خلق الإنسان في القرآن الكريم لزغلول النجار ص ٢٩٠.

٣- أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ٥٦/٤.

المبحث الثاني

الخلق من نفس واحدة وخلق زوجها

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول:

الخلق من نفس واحدة وخلق زوجها في القرآن الكريم.

المطلب الثاني:

الخلق من نفس واحدة وخلق زوجها في ضوء المكتشفات العلمية.

المطلب الثالث:

ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها.

المطلب الأول: الخلق من نفس واحدة وخلق زوجها في القرآن الكريم

الآيات الواردة:

- قال الله ﷻ: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُوا رَبِّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾^(١).
- وقال ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَوْعِدٌ وَمُسْتَوْدِعٌ﴾^(٢).
- وقال ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾^(٣).
- وقال ﷻ: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾^(٤).

أقوال المفسرين:

قوله ﷻ: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ﴾، ذهب الأصوليون من المفسرين إلى أن الخطاب بـ ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ عام لجميع المكلفين^(٥)؛ لأن لفظ الناس جمع دخله الألف واللام فيفيد الاستغراق، ولأنه تعالى علل الأمر بالاتقاء بكونه تعالى خالقاً لهم من نفس واحدة، وهي علة عامة في حق جميع المكلفين بأنهم خلقوا بأسرهم من آدم عليه السلام، وإذا كانت العلة عامة كان الحكم عاماً، بالإضافة إلى أن التكليف بالتقوى غير

١- سورة النساء: الآية ١.

٢- سورة الأنعام: الآية ٩٨.

٣- سورة الأعراف: الآية ١٨٩.

٤- سورة الزمر: الآية ٦.

٥- انظر: جامع البيان في تأويل القرآن لابن جرير الطبري ٥١٢/٧، ومفاتيح الغيب للرازي ١٢٨/٩، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢/٥، ولباب التأويل في معاني التنزيل للخازن ٤٧٢/١، وتفسير البحر المحيط لأبي حيان ١٦٢/٣، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير لابن كثير ٥٥٣/١، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل ١٣٩/٦، وروح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي ١١٠/١٧، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ١٦٣، والتحرير والتنوير لابن عاشور ٨/٤.

مختص بأهل مكة، بل هو عام في حق جميع العالمين، وإذا كان لفظ الناس عاماً في الكل، وكان الأمر بالتقوى كذلك، وكانت علة هذا التكليف -وهي كونهم خلقوا من النفس الواحدة- عامة في حق الكل، كان القول بالتخصيص في غاية البعد^(١).

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره أن الخطاب بـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ لأهل مكة^(٢)؛ لأن قوله ﷺ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ مختص بالعرب؛ لأن المناشدة بالله وبالرحم عادة مختصة بهم، فيقولون: أسألك بالله وبالرحم، وأنشدك الله والرحم، وإذا كان كذلك كان قوله ﷺ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ مختصاً بالعرب، فكان أول الآية مختصاً بهم؛ لأن قوله ﷺ في أول الآية: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾، وقوله بعد ذلك ﷺ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ وردا متوجهين إلى مخاطب واحد^(٣).

أجاب الآخرون: بأن خصوص آخر الآية لا يمنع من عموم أولها، فيكون أولها عاماً في الكل، وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ خاصاً بالعرب^(٤)، هذا إن سلم بأنها مكية، والصحيح بأن السورة مدنية؛ بدليل حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها قالت: "وَمَا نَزَلَتْ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَالنِّسَاءِ إِلَّا وَأَنَا عِنْدَهُ"^(٥)، تعني قد بنى بها، ولا خلاف بين العلماء أن النبي ﷺ إنما بنى بعائشة رضي الله عنها

١- مفاتيح الغيب للرازي ١٢٨/٩، وتفسير البحر المحيط لأبي حيان ١٦٢/٣.

٢- انظر: مفاتيح الغيب للرازي ١٢٩/٩، والجامع لأحكام القرآن القرطبي ٢/٥، واللباب في علوم الكتاب ١٣٩/٦، وتفسير السراج المنير لمحمد الشربيني ٢٢٥/١، وروح المعاني للألوسي ١١٠/١٧، وأسباب نزول القرآن لعلي بن أحمد الواحدي ص ٢٦.

٣- انظر: مفاتيح الغيب للرازي ١٢٩/٩، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل ١٣٩/٦، وتفسير السراج المنير للشربيني ٢٢٥/١.

٤- مفاتيح الغيب للرازي ١٢٩/٩، وتفسير السراج المنير للشربيني ٢٢٥/١.

٥- أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن ٤/١٩١٠ برقم: ٤٧٠٧.

بالمدينة، ومن تبين أحكامها علم أنها مدنية لا شك فيها، وكذلك سورة البقرة مدنية وفيها قوله: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ في موضعين^(١).

والأول هو الراجح؛ لقوة دليلة، هذا إن سلم لنا صحة النقل إلى ابن عباس. قوله ﷺ: ﴿خَلَقَكُمْ﴾، الخلق أصله الإيجاد على تقدير وتسوية، وأطلق في القرآن الكريم وكلام الشارع على إيجاد الأشياء المعدومة، وإخراجها إلى الوجود إخراجاً لا صنعة فيه للبشر^(٢)، ولفظ (الخلق) المذكور في القرآن يتضمن معنيين: المعنى الأول: الإبداع والإنشاء. والمعنى الثاني: التقدير^(٣).

قوله ﷺ: ﴿أَنْشَأَكُمْ﴾، الإنشاء: الإحداث والإيجاد وابتداء الخلق من غير شيء^(٤)، أو إيجاد الشيء وتربيته^(٥)، وقد استعمل في القرآن الكريم في خلق الإنسان بجملته وخلق أعضائه ومشاعره، وإيجاد الأقسام والقرون من أمم بعضها في إثر بعض، وفي البعث، وفي خلق الشجر والجنات، وفي إحداث السحاب^(٦). والضمير في قوله ﷺ: ﴿خَلَقَكُمْ﴾، وفي قوله ﷺ: ﴿أَنْشَأَكُمْ﴾، يراد به البشر كلهم^(٧).

١- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢/٥.

٢- التحرير والتنوير لابن عاشور ٣٢٢/١، والتفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب ٤/١٢٣.

٣- بغية المرئاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية لابن تيمية ٢/٧٣.

٤- انظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري ١١/٥٦٢، والتحرير والتنوير لابن عاشور ٦/٢٣٦، ولسان

العرب لابن منظور ١/١٧٠، ومختار الصحاح للرازي ص ٦٨٨.

٥- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص ٨٠٧.

٦- المصدر نفسه.

٧- التحرير والتنوير لابن عاشور ٦/٢٣٦.

قوله ﷻ: ﴿وَجَعَلَ﴾؛ الجَعَلَ الإنشاء والإبداع كالخلق، غير أن الفرق بينهما أن الخلق فيه معنى التقدير، وهو مختص بالإنشاء التكويني-البدء من لا شيء-، والجعل فيه معنى التضمين، كأنشاء شيء من شيء، أو تصيير شيء شيئاً، أو تحويله من شيء إلى شيء، أو نقله من مكان إلى مكان آخر^(١).
قال ابن جني: «فإن العرب قد تتسع فتوقع أحد الحرفين موقع صاحبه إيذاناً بأن هذا الفعل في معنى ذلك الآخر»^(٢).

قوله ﷻ: ﴿مِن نَفْسٍ وَجِدَةٍ﴾ المراد بالنفس الواحدة آدم عليه الصلاة والسلام^(٣)، وقد نقل كل من الإمام الرازي والإمام النيسابوري -رحمهما الله- إجماع المفسرين على ذلك^(٤)، وتأنيث الوصف بقوله: ﴿وَجِدَةٍ﴾ مع أن الموصوف به مذكر -وهو آدم عليه السلام-؛ نظراً لتأنيث لفظ النفس، وإن كان المراد بها مذكراً وهو آدم عليه السلام^(٥).

ويعضده القراءة المروية عن ابن أبي عتبة ﴿وَإِحْدٍ﴾ بدون (هاء)^(٦).

-
- ١- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود ١٠٤/٣، والجدول في إعراب القرآن لمحمود صافي ٧٩/٧، وإعراب القرآن وبيانه لمحيي الدين أحمد ٦٠/٣.
 - ٢- الخصائص لأبي الفتح عثمان بن جني ٣٠٨/٢، عالم الكتب، بيروت، ت: محمد علي النجار.
 - ٣- انظر: تفسير مجاهد بن جبر ١٤٣/١، وتفسير مقاتل بن سليمان ٢١٣/١، وجامع البيان في تأويل القرآن للطبري ٥١٤/٧، والجامع في أحكام القرآن للقرطبي ٢/٥، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥٥٣/١، وتفسير الجلالين لجلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي ص ٩٧، ولباب التأويل في معاني التنزيل للخازن ٤٧٢/١، وزاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ١/٢، والتحرير والتنوير لابن عاشور ٩/٤.
 - ٤- مفاتيح الغيب الرازي ١٣١/٩، وغرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري ٣٤٠/٢.
 - ٥- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢/٥، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي ٣٥٤/٦.
 - ٦- تفسير القرطبي ٢/٥.

وقيل: ليس المراد آدم؛ لأن من المفسرين من يقول إن كل نداء مثل هذا - ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ﴾ - يراد به أهل مكة أو قريش فيفهم منه بنو قريش أن النفس الواحدة هي قريش أو عدنان، وإذا كان الخطاب للعرب عامة جاز أن يفهموا منه أن المراد بالنفس الواحدة يعرب أو قحطان، وإذا قلنا: إن الخطاب لجميع أهل الدعوة، فكل أمة تفهم منه ما تعتقده، والقريظة على ذلك قوله: ﴿وَبَيْتٌ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ بالتكثير، ولم يقل: (جميع الرجال والنساء)، وكيف ينص على نفس معهودة والخطاب لجميع الشعوب! وهذا العهد ليس معروفاً عند جميعهم، وقد وجد قبل آدم نوع من هذا الجنس أفسدوا فيها، والنسب المشهور عن ذرية نوح مأخوذ عن العبرانيين الذين جعلوا للبشر تاريخاً متصلاً بآدم، ولا ثقة بأنه من التوراة التي جاء بها موسى، بالإضافة إلى معارضة المباحث العلمية والتاريخية له^(١).

وهذا القول مرجوح، بل قد عد من شوائب التفسير، وأجيب عن استدلاله: بأن تفسير النفس الواحدة بقريش أو عدنان، أو يعرب وقحطان، وأن كل أمة لها أن تعتقد الأصل الذي تنتسب إليه، هي احتمالات لا يعتد بها؛ لأنها تعارض الصحيح الثابت؛ ولأنها لم تقم على أصول التفسير، ولم تتضببط بضوابطه^(٢)، وقد سبق بيان أن النفس الواحدة آدم عليه الصلاة والسلام، والقول إن آدم ليس أول الصنف العاقل من الحيوان على هذه الأرض قول يتعارض ويتناقض مع ظواهر الآيات القطعية في القرآن الكريم، ومنها: قوله ﷻ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۗ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾^(٣)، وقوله ﷻ:

١- انظر: تفسير القرآن الحكيم المعروف بتفسير المنار لمحمد رشيد رضا ٤/٢٦٥-٢٦٧.

٢- شوائب التفسير في القرن الرابع عشر الهجري لعبد الرحيم فارس أبو علبه ص ٢٠٢، ٢٠٣.

٣- سورة آل عمران: الآيات ٥٩، ٦٠.

﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي ﴾^(١)، ويتعارض مع نصوص السنة النبوية كذلك، كقول النبي ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةِ قَبْضِهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الْأَرْضِ، جَاءَ مِنْهُمْ الْأَحْمَرُ وَالْأَبْيَضُ وَالْأَسْوَدُ، وَبَيَّنَ ذَلِكَ، وَالسَّهْلُ وَالْحَزْنُ، وَالْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ"^(٢)، وقوله ﷺ: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ آبَاءَكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدٍ، وَلَا لِأَسْوَدٍ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى"^(٣)، وقوله ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُيْبَةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَفَخَّرَهَا بِالْآبَاءِ، مُؤْمِنٌ تَقِيٍّ، وَفَاجِرٌ شَقِيٍّ، أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ، وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ، لِيَدَعَنَّ رِجَالَ فَخْرَهُمْ بِأَقْوَامٍ، إِنَّمَا هُمْ فَحْمٌ مِنْ فَحْمِ جَهَنَّمَ، أَوْ لِيَكُونَنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللَّهِ مِنَ الْجِعْلَانِ -الَّتِي تَدْفَعُ بِأَنْفِهَا النَّتْنَ -"^(٤)، وفي رواية: "وَأَدَمُ خُلِقَ مِنْ تُرَابٍ"^(٥).

١- سورة ص: الآية ٧٥.

٢- أخرجه أبو داود، كتاب السنة، باب في القدر ٦٣٤/٢ برقم: ٤٦٩٣، والترمذي، كتاب التفسير، باب ومن سورة البقرة ٢٠٤/٥ برقم: ٢٩٥٥، وأحمد في المسند، مسند الكوفيين، حديث أبي موسى الأشعري ﷺ برقم: ٣٥٣/٣٢، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

٣- أخرجه أحمد، تنمة مسند الأنصار، حديث رجل من أصحاب النبي ﷺ ٤٧٤/٣٨ برقم: ٢٣٤٨٩، والبيهقي في شعب الإيمان، حفظ اللسان عما لا يحتاج إليه ١٣٢/٧ برقم: ٤٧٧٤، قال الألباني: «صحيح لغيره»، صحيح الترغيب والترهيب ٧٩/٣ برقم: ٢٩٦٣.

٤- أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب في التفاخر بالأحساب ٧٥٢/٢ برقم: ٥١١٦، وأحمد بن حنبل، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة ﷺ ٣٤٩/١٤ برقم: ٨٧٣٦، حسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ٧٩/٣ برقم: ٢٩٦٥، قوله: "عُيْبَةُ الْجَاهِلِيَّةِ" بضم العين المهملة وكسرها وكسر الموحدة وفتح التحتية المشددين أي: نخوتها وكبرها، "وَفَخَّرَهَا" أي: تفاخرها وتعاضمها، انظر: تحفة الأحوزي بشرح جامع الترمذي لمحمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري ١١٠/٩.

٥- أخرجه الترمذي، كتاب المناقب، باب في فضل الشام واليمن ٧٣٤/٥ برقم: ٣٩٥٥، وحسنه الألباني في غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام لمحمد ناصر الدين الألباني ص ١٩٠.

بالإضافة إلى أنه قول يذهب بقائله إلى ما لا نهاية، والقرآن دل على أن الإنس لهم والد هو والدهم الأول وهو آدم ﷺ^(١).

والقول بمعارضته المباحث العلمية والتاريخية، قول لم يخرج عن نظرية النشوء والتطور-الآتي ذكرها في مطلب آخر- قيد شعرة، مما يجعل تفاصيل خلق الإنسان والكائنات الحية متروكة لرجال الفكر والبحث، بغض النظر عن عقائدهم، وجعل المسلم يبحث ويتابع هذه القضية الغيبية من خارج النصوص، بل يلهث وراء من لا يؤمنون بالغيب ليعرف منهم قضية غيبية^(٢).

وأما أن النسب المشهور عن ذرية نوح مأخوذ عن العبرانيين فإن صح هذا فإنه لا يعارض كون آدم أبو البشر، لأن نصوص القرآن والسنة قد دلت على أن آدم عليه الصلاة والسلام هو أبو البشر.

وأما قوله: ﴿رَجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ بالتكثير، فلا يمنع العموم لجميع الرجال والنساء. وفي قوله ﷺ: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَتْفُوا رَبِّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ﴾، أمرنا تعالى بالتقوى وذكر بعده أنه تعالى خلقنا من نفس واحدة، والمناسبة في ذلك، أن خلقه تعالى لنا من نفس واحدة، مشتمل على قندين: الأول: أنه خلقنا، والثاني: كيفية ذلك الخلق، وأنه من نفس واحدة، ولكل واحد من هذين القندين أثر في وجوب التقوى.

أما الأول: وهو أنه تعالى خلقنا، فلا شك أن ذلك يوجب علينا الانقياد لتكاليفه والخضوع لأوامره ونواهيه؛ لأنه لما كان خالقنا لنا وموجداً لذواتنا وصفاتنا، فنحن عبيده وهو مولى لنا، والربوبية توجب نفاذ أوامره على عبيده والانقياد للرب والموجد

١- انظر: شوائب التفسير في القرن الرابع عشر الهجري ص ٢٠٢، والتفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج لوهبة الزحيلي ٢٣٣/٤.

٢- انظر: شوائب التفسير في القرن الرابع عشر الهجري ص ٢١٩.

والخالق، ثم إن الإيجاد غاية الإنعام ونهاية الإحسان، فإنك كنت معدوماً فأوجدك، وميتاً فأحياك، وعاجزاً فأقدرك، وجاهلاً فعلمك، فلما كانت النعم بأسرها من الله ﷻ وجب على العبد أن يقابل تلك النعم بإظهار الخضوع والانقياد، وترك التمرد والعناد، فلما ثبت كونه موجداً وخالقاً وإلهاً ورباً لنا، وجب علينا أن نشتغل بعبوديته، وأن نتقي كل ما نهى عنه وزجر عنه.

وأما القيد الثاني: وهو أن خصوص كونه خالقاً لنا من نفس واحدة يوجب علينا الطاعة والاحتراز عن المعصية؛ لأن خلق جميع الأشخاص الإنسانية -الأبيض والأسود والأحمر والأسمر والحسن والقبیح والطويل والقصير- من الإنسان الواحد أدل على كمال القدرة، وعلى أن مدبرها وخالقها فاعل مختار، فحينئذ يجب الانقياد لتكاليفه وأوامره ونواهيه، أيضاً ذكر الله تعالى الأمر بالتقوى وذكر عَقِيْبِهِ الأمر بالإحسان إلى اليتامى والنساء والضعفاء، وكون الخلق بأسرهم مخلوقين من نفس واحدة له أثر في هذا المعنى، وذلك لأن الأقارب لا بد وأن يكون بينهم نوع مواصلة ومخالطة توجب مزيد المحبة، ولذلك الإنسان يفرح بمدح أقاربه وأسلافه، ويحزن بذمهم والطعن فيهم، فتكون الفائدة في ذكر هذا المعنى أن يصير ذلك سبباً لزيادة شفقة الخلق بعضهم على البعض، كذلك الناس إذا عرفوا كون الكل من شخص واحد تركوا المفاخرة والتكبر وأظهروا التواضع وحسن الخلق، كما أن هذا يدل على المعاد؛ لأنه تعالى لما كان قادراً على أن يخرج من صلب شخص واحد أشخاصاً مختلفين، وأن يخلق من النطفة شخصاً عجيب التركيب لطيف الصورة، فكيف يستبعد إحياء الأموات وبعثهم ونشورهم، فتكون الآية دالة على المعاد^(١).

١- مفاتيح الغيب للرازي ١٢٩/٩، ١٣٠، وتفسير البحر المحيط ١٦٣/٣، وغرائب القرآن وغرائب الفرقان ٣٤٠/٢، والتفسير المنير في العقيدة والشريعة ٣٢٠/٧.

قوله ﷻ: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي: حواء، وهي الأنثى الأولى التي تتاسل منها البشر، وأطلق عليها اسم الزوج؛ لأن الرجل يكون منفرداً، فإذا اتخذ امرأة فقد صاراً زوجاً في بيت، فكل واحد منهما زوج للآخر بهذا الاعتبار^(١)، وسميت حواء بذلك؛ لأنها خلقت من حي^(٢)، ولأنها أم كل حي^(٣)، وقيل لأنه كان على شفيتها حُوَّة^(٤)، وقيل لأن لونها كان يضرب إلى السمرة، فسميت حواء، من قولك أحوى^(٥)، ولم يرد ذكرها باسمها في القرآن الكريم وإنما ذكرت في السنة النبوية المطهرة^(٦)، وفي كون حواء مخلوقة من آدم ﷻ قولان للمفسرين:

القول الأول: أن الله تعالى خلق حواء من آدم عليه الصلاة والسلام، فتكون ﴿مِنْ﴾ في ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا﴾، تبعيضية، ومعناه أن حواء خلقت من جزء من آدم، وذلك الجزء هو ضلع من أضلاع آدم ﷻ، وهو قول كثير من المفسرين^(٧)،

١- التحرير والتنوير لابن عاشور ٢١٧/٤.

٢- معالم التنزيل في تفسير القرآن للبيهقي ١٠٥/١.

٣- الدر المنثور للسيوطي ١٢٨/١.

٤- الحُوَّة: لون يخالطه الكُمُتة مثل صدأ الحديد، والحُوَّة سُمرة الشفة، وقيل حمرة تضرب إلى السواد. انظر: لسان العرب ٢٠٦/١٤، ومختار الصحاح ص ١٦٧.

٥- بحر العلوم لسمرقندي ٣٠٣/١.

٦- في حديث أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ: **لَوْلَا حَوَاءُ لَمْ تَخُنْ أَنْثَى زَوْجَهَا الدَّهْرُ**، أخرجه البخاري، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ ١٢١٢/٣ برقم: ٣١٥٢، ومسلم، كتاب الرضاع، باب لولا حواء لم تخن أنثى زوجها الدهر ١٠٩٢/٢ برقم: ١٤٧٠.

ومعنى الحديث: أنها أم بنات آدم، فأشبهتها ونزع العرق؛ لما جرى لها في قصة الشجرة مع إبليس، فزين لها أكل الشجرة، فأغواها، فأخبرت آدم بالشجرة، فأكل منها. شرح صحيح مسلم للنووي ٥٩/١٠.

٧- انظر: تفسير مجاهد ١٤٣/١، وتفسير مقاتل بن سليمان ٢١٣/١، وتفسير ابن أبي حاتم لعبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي ٨٥٢/٣، وغرائب القرآن ورغائب الفرقان ٣٤٠/٢، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥٥٣/١، والدر المنثور للسيوطي ٢١٠/٤، وتفسير الجلالين ص ٩٧، والتحرير والتنوير ٢١٥/٤.

واحتجوا عليه بقول النبي ﷺ: "اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ؛ فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلْعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلْعِ أَعْلَاهُ، فَإِنْ ذَهَبَتْ تُقِيمُهُ كَمَسْرَتِهِ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ"^(١)، ولكي يصح قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ

وَاحِدَةٍ﴾^(٢)؛ إذ لو كانت حواء مخلوقة ابتداء لكان الناس مخلوقين من نفسين لا من نفس واحدة^(٣)، وبناء عليه يكون خلق نوع الإنسان على أربعة أنواع مختلفة:

النوع الأول: خلقه لا من أنثى ولا من ذكر وهو آدم ﷺ.

النوع الثاني: خلقه من ذكر بدون أنثى وهو حواء.

النوع الثالث: خلقه من أنثى بدون ذكر وهو عيسى ﷺ.

النوع الرابع: خلقه من ذكر وأنثى وهو سائر الادميين^(٤).

وقيل: إن الضمير في ﴿مِنْهَا﴾ يعود على الطينة التي فصلت عن طينة آدم ﷺ، فتكون حواء مخلوقة من بقية الطينة التي خلق منها آدم ﷺ، وبالتالي فإنها خلقت من جزء من الطينة التي خلق منها آدم ﷺ^(٥)، ولم يدللوا على ذلك بشيء.

القول الثاني: أن المراد من جنسها في الإنسانية، فخلقها من نوع آدم ﷺ وجنسه^(٦)، وهو كقوله ﷺ: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾^(٧)، وقوله ﷺ:

١- أخرجه البخاري، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾
١٢١٢/٣ برقم: ٣١٥٣، ومسلم، كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء ١٠٩٠/٢ برقم: ١٤٦٨.
٢- سورة الزمر: الآية ٦.

٣- تفسير البحر المحيط لأبي حيان ١٦٣/٣، وغرائب القرآن و رغائب الفرقان ٣٤٠/٢.

٤- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٤١٤/٧.

٥- تفسير البحر المحيط لابن أبي حاتم ١٦٣/٣، والتحرير والتنوير لابن عاشور ٩/٤.

٦- غرائب القرآن و رغائب الفرقان (تفسير النيسابوري) ٣٤٠/٢، وتفسير البحر المحيط ١٦٣/٣.

٧- سورة النحل: الآية ٧٢.

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾^(١)، فيكون على تقدير حذف مضاف، والتقدير: وخلق من جنسها زوجها، وحكمة ذلك أن الجنس أميل إلى الجنس، والجنسية علة الضم واللقاء والألفة بين الرجل والمرأة^(٢).

الناقشة

استشكل الفريق الثاني بأن الله ﷻ قادر على خلق حواء من التراب، فأبي فائدة في خلقها من ضلع من أضلاع آدم ﷺ^(٣). فأجاب الأولون بأنه لو كان الأمر كذلك لكان الناس مخلوقين من نفسين لا من نفس واحدة، وهو خلاف النص، وخلاف ما روي عن النبي ﷺ.

رد أصحاب القول الثاني بأن (مِنْ) في ﴿وَمِنْهَا﴾ لا ابتداء الغاية، فلما كان ابتداء الخلق وقع بآدم، صح أن يقال خلقكم من نفس واحدة، ولما كان قادراً على خلق آدم من التراب كان قادراً على خلق حواء منه أيضاً^(٤)، وحملوا الحديث باحتمال أن يكون ذلك على جهة التمثيل^(٥)؛ لاضطراب أخلاقهن، وكونهن لا يثبتن على حالة

١- سورة التوبة: الآية ١٢٨.

٢- مفاتيح الغيب للرازي ١/٢١٠٦، ومحاسن التأويل للقاسمي ٥/١٠٩٥، والتفسير المنير للزحيلي ٩/٢٠٦.

٣- غرائب القرآن و رغائب الفرقان (تفسير النيسابوري) ٢/٣٤٠.

٤- تفسير البحر المحيط ٣/١٦٣.

٥- وكون الحديث على التمثيل والتشبيه هو ما صرح به بعض المعاصرين، وقواه بالرواية الأخرى: "المرأة كالمضلع"؛ أخرجه البخاري، كتاب النكاح، باب المداراة مع النساء وقول النبي ﷺ: "إنما المرأة كالمضلع"

١٩٨٧/٥ برقم: ٤٨٨٩، ومسلم، كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء ٢/١٠٩٠ برقم: ١٤٦٨.

وقد أجاب عنه الآخرون: بأن هذه الرواية لا تخالف الأخرى، بل يستفاد من الرواية الأخرى نكتة التشبيه بالمضلع، وهي أنها عوجاء مثله، لكون أصلها منه، والمعنى: أن المرأة خلقت من ضلع أعوج، فلا ينكر اعوجاجها، فإن أراد الزوج إقامتها على الجادة وعدم اعوجاجها أدى إلى الشقاق والفرق وهو كسرهما، وإن صبر على ذلك دام الأمر واستمرت العشرة، وبهذا يتبين أن إنكار خلق حواء من ضلع آدم غير صحيح. انظر: فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء ١٧/١٠.

واحدة، أي: صعبات المراس، ويؤيده قوله: "إِنَّ الْمَرْأَةَ"، فأتى بالجنس، ولم يقل: "إن حواء"^(١).

رد الأولون: بأن من في ﴿مِنْهَا﴾ وإن كانت للابتداء، فإن المعنى أخرج خلق حواء من ضلع آدم^(٢).

ويناقد حملهم للحديث على التمثيل بأنه صرف له عن ظاهره، مع أن الاحتمال المذكور لا يمنع من إبقاء الحديث على الظاهر، وأما الإتيان بالجنس "إِنَّ الْمَرْأَةَ"؛ فالمراد أصلها أو جنسها أو أمها^(٣)، والمرأة بنت حواء، فلما أشبهتها في الخلقة، وكانت متفرعة منها، نزع العرق فيها.

الترجيح:

القول الأول هو الراجح؛ لظاهر الآيات، وظاهر حديث النبي ﷺ، والعمل بالظاهر واجب حتى يرد دليل شرعي صارف عنه إلى المحتمل المرجوح^(٤).

والفائدة من خلق حواء من ضلع آدم ﷺ هي الدلالة على كمال قدرته جل وعلا على أن يخلق حياً من حي لا على سبيل التوالد، كما أنه قادر على أن يخلق حياً من جماد كذلك، ولو كانت القدرة على الخلق من التراب مانعة عن الخلق من غيره لعدم الفائدة لخلق الجميع من التراب بلا واسطة؛ لأنه ﷺ كما أنه قادر على خلق آدم ﷺ من التراب، هو قادر على خلق سائر أفراد الإنسان منه

١- تفسير البحر المحيط ١٦٣/٣.

٢- التحرير والتنوير ٢١٦/٤.

٣- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح لملا علي القاري ٣٥٦/٦.

٤- انظر: الرسالة للشافعي ٣١٤/١، وأصول السرخسي ١٦٣/١، وجامع البيان للطبري ١٥/١، ومفاتيح الغيب للرازي ٣٧١/١، وأضواء البيان ٢٦٩/٧، ومباحث في علوم القرآن لصبحي الصالح، والأصول من علم الأصول لابن عثيمين ص ٤٩، وتيسير التحرير لمحمد أمين المعروف بأمير بادشاه ١٠٢/٣.

أيضاً، فما هو جواب القائل عن خلق الناس بعضهم من بعض مع القدرة على خلقهم كخلق آدم، وجوابه هو الجواب عن خلق حواء من آدم ﷺ مع القدرة على خلقها من تراب^(١).

قال ابن عاشور: «ومن قال: إن المعنى ﴿وَعَلَّقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾: من نوعها، لم يأت بطائل؛ لأن ذلك لا يختص بنوع الإنسان؛ فإن أنثى كل نوع هي من نوعه»^(٢).

وقوله ﷻ: ﴿وَبَيْتٌ﴾ أي فرق ونشر وأظهر في الأرض^(٣)، ومنه ﴿وَزَوَّاجٍ مَبْنُوتَةٍ﴾^(٤)، وهي البُسُطُ المفرقة والمنشورة ههنا وههنا^(٥).

وقوله ﷻ: ﴿مِنْهَا﴾ يعني آدم وحواء.

وقوله ﷻ: ﴿رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ فقد خلق الله ﷻ آدم ﷺ من تراب، ثم خلق منه زوجه حواء، ومنها خلقت الذكور والإناث عن طريق التناسل الذي قد ملأت به الأرض، وهذا تفصيل وبيان لكيفية إنشائهم وخلقهم من نفس واحدة^(٦) والذي أجمل في قوله: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾^(٧)، وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾^(٨).

١- روح المعاني للأوسى ٤/١٨٢، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٧/٤١٤.

٢- التحرير والتنوير ٤/٩.

٣- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٥/٢، وتفسير روح البيان لحقي ١/٢١٥، ومعالم التنزيل في تفسير القرآن للبخاري ١/٥٦١، وتفسير الجلالين ص ٩٧.

٤- سورة الغاشية: الآية ١٦.

٥- تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/٦١١.

٦- انظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ٢/١٣٨، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/٥٥٤، الكريم الرحمن للسعدي ص ٢٦٥، وأضواء البيان ٦/٣٥٤، والتفسير الواضح لمحمد حجازي ١/٣٣٢.

٧- سورة الزمر: الآية ٦.

٨- سورة الأنعام: الآية ٩٨.

وقد دلت الآيات القرآنية المذكورة على أن المرأة الأولى كان وجودها الأول مستنداً إلى وجود الرجل وفرعاً عنه، وهذا أمر كوني قدري من الله، أنشأ المرأة في إيجادها الأول عليه، وقد جاء الشرع الكريم المنزل من الله ليعمل به في أرضه بمراعاة هذا الأمر الكوني القدري في حياة المرأة في جميع النواحي، فجعل الرجل قائماً عليها، وجعلها مستندة إليه في جميع شئونها^(١).

١- انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٧/٤١٤، ٤١٥.

المطلب الثاني: الخلق من نفس واحدة وخلق زوجها في ضوء

المكتشفات العلمية الحديثة

يعد علم الوراثة أحد فروع علم الحياة؛ لما له من ارتباط وثيق بحياة الإنسان، وهو يعني بدراسة الطرق والوسائل التي يتم فيها انتقال الصفات البيولوجية من الكائنات إلى سلالاتها، وتفسير الظواهر المتعلقة بطريقة هذا الانتقال، وقد قام النمساوي (مندل) عام ١٨٦٥م باكتشاف القوانين التي تفسر كيفية انتقال هذه الصفات عبر الأجيال المختلفة، وذكر أن كل صفة يتحكم في إظهارها زوج من العوامل الوراثية الإليالات (ALLELES) والتي تتعزل أثناء تكوين الأمشاج ثم يعاد اتحادها عند تكوين الجنين، ومعروف الآن أن الإليالات تقع على الكروموسومات، إذ قام (مندل) بتجارب رأى من خلالها أن الخصائص المتوارثة تتحدد بواسطة وحدات من مادة التوارث تمر عادة دون تغيير عبر الأجيال، ويعد بذلك أول من توصل إلى فهم الثبات في توارث الصفات عند الكائنات الحية وأن الصفات الوراثية تنتقل من الآباء إلى الأبناء في الكائنات الحية التي تتكاثر بالتزاوج عبر عدد من العوامل المتناهية في ضآلة الحجم، والتي عرفت فيما بعد باسم المورثات، وبذلك تمكن الإنسان في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي من اكتشاف قوانين الوراثة، ومن ثم توالت التجارب والاكتشافات للتعرف على المورث، وكيفية انتقاله من جيل لآخر، وفي عام ١٩٠٩م أطلق (جوهانسون) على العامل الوراثي المسؤول عن نقل الصفات الوراثية اسم الجين، ليثبت العلماء من بعدهم أن المادة الوراثية لمعظم صور الحياة هي مادة الدنا الوراثية (D.N.A)، وفي عام ١٩٥٣م استطاع الأمريكي (واطسن)، والإنجليزي (كريك) وضع نموذج توضيحي لتكوين شريط الدنا الوراثي (D.N.A)، بعد أن توصلوا إلى أنه يوجد داخل كل

كروموسوم سلسلتان من الحامض النووي الريبوزي منقوص الأكسجين، وتلتف كل سلسلة منهما على الأخرى مكونتين شكلاً يشبه سلماً ملتويًا، سماه بعضهم الحلزون المزدوج^(١)، والصفات الوراثية الموجودة على الحمض النووي (D.N.A) والمورثة من كلا الزوجين مناصفة، يبدأ الحمض النووي بنقلها بكل دقة إلى الأبناء، لييرث كل شخص نصف صفاته الوراثية من الأب، والنصف الآخر من الأم^(٢).

وأدت الاكتشافات الحديثة إلى معرفة أن أصل خلق الإنسان من خلية واحدة، وأن أنسجة جسمه مكونة من خلايا، والتي هي بناء غاية في الإحكام والتعقيد، وكل خلية تحتوي على نواة، وتعتبر النواة أعقد ما في الخلية؛ وما تحمله من شفرة وراثية بمثابة العقل المفكر للخلية الحية، وتوجه كل أنشطتها الحيوية، وتحمل كل الصفات الوراثية للإنسان -ابتداء من الصفات التي يشترك فيها جميع البشر وانتهاء بالصفات التي تختص بالفرد دون غيره-، وتوجد المادة الوراثية داخل النواة كأجسام خيطية صغيرة جداً متناهية الدقة يسميها العلماء الصبغيات؛ لأن من خواصها أنها تلون عند الصبغ بلون الصبغة التي تصبغ بها الخلية الحية أكثر من بقية أجزاء تلك الخلية، ويطلق عليها أيضاً (الحمض النووي)؛ لأنها تسكن في نواة الخلية، وهي موجودة في (الكروموسومات)، وهذه المادة الوراثية المعبأة في نواة الخلية تتكون من ٤٦ كروموسوماً، وهي على صورة ٢٣ زوجاً من الكروموزومات داخل نواة كل خلية، نصفها من الأب، والنصف الآخر من الأم، منها ٢٢ زوجاً

١- ويجعل هذا الشكل الحلزوني المزدوج الحمض النووي قادراً على حمل المعلومات الوراثية على هيئة شفرة.
٢- انظر: النسب ومدى تأثير المستجدات العلمية في إثباته (دراسة فقهية تحليلية) لسفيان بورقعة ص ٣١٢-٣٢٤، وخلق الإنسان في القرآن الكريم للنجار ص ٩٧، وأثر التقنية الحديثة في الخلاف الفقهي لهشام آل الشيخ ص ٧٠٩، والبصمة الوراثية (مفهومها وحجبتها ومجالات الاستفادة منها والحالات التي يمنع عملها فيها والاعتراضات الواردة عليها) للخطيب، منشور بمجلة العدل، عدد (٤١)، محرم، ١٤٣٠هـ، ص ١٧٣، والبصمة الوراثية وأثرها في النسب للسويلم، منشور بمجلة العدل، عدد (٣٧)، محرم، ١٤٢٩هـ، ص ٩٢.

أي ٤٤ كروموسوما متماثلة في كل من الذكر والأنثى، أما الزوج الـ ٢٣ فيسمى بالكروموسومات الجنسية -الخلايا البيضية وخلايا النطاف- التي تحتوي على كروموزوم واحد من كل زوج، يتقاسم الوالدان أضافتها إلى جنينهما، فيرث كروموزوماً واحداً من كل زوج من أمه، ويرث الآخر من أبيه^(١).

ومن خلال دراسة الصبغيات تم اكتشاف الصبغي المختص بالتكاثر، واقترحت عملية التخطيط الوراثي للكائنات الحية، وباكتشاف دور الصبغي الخاص بالتكاثر في تكوين الأجنة بعملية الإخصاب، وباحتواء خلايا التكاثر على نصف عدد الصبغيات التي تحملها الخلايا الجسدية، وبانقسام خلايا التكاثر على ملايين الخلايا في حياة الفرد الواحد من بني آدم، وبالعودة بهذا الانقسام إلى الوراء مع الزمن؛ فإن الناس الذين يملؤون الأرض اليوم، والذين عاشوا من قبل وماتوا، والذين يأتون إلى قيام الساعة، يلتقون جميعاً في شفرة وراثية واحدة كانت في صلب أبينا آدم عليه الصلاة والسلام، وهذه الشيفرة يُطلق عليها علماء الأجنة اسم (بِرْكَة الوراثة)، وهذه البرْكَة الوراثة الأولى توزعت بمشيئة الله تعالى وقدرته بين أبونا آدم وحواء عليهما السلام، ثم بين أبنائهما إلى يوم الدين، ويؤكد ذلك تشابه التركيب الكيميائي للحمض النووي الريبي منزوع الأكسجين الذي تتبني منه الصبغيات وتكتب به الشيفرة الوراثة بنسبة ٩٩,٩% في جميع البشر، واختلافهم في نسبة ٠,١% فقط، وهذا الحمض الذي تكتب به الشيفرة الوراثة -والذي يُكوّن الصبغيات- أعطاه الخالق جل وعلا القدرة على الانقسام لتكرار ذاته، ولوعدنا بهذا الانقسام إلى الوراء مع الزمن؛ فلا بد من التقاء جميع الشيفرات الوراثة لبني آدم

١- انظر: فقه القضايا الطبية المعاصرة دراسة فقهية طبية مقارنة لعلى القره داغي وعلي المحمدي ص ٣٠٥، وخلق الإنسان في القرآن الكريم لزغلول النجار ص ٩٧، وأحكام الهندسة الوراثة لسعد عبد العزيز الشويرخ ص ٢٦-٣١، والبصمة الوراثة وأثرها على الأحكام الفقهية لخليفة علي الكعبي ص ١٢-١٧.

قاطبة إلى قيام الساعة في شيفرة وراثية واحدة، هي التي كانت في صلب أبينا آدم عليه السلام لحظة خلقه، ثم وزعها الله تعالى بينه وبين زوجه حواء، وتوزعت الشيفرة الوراثية بعد ذلك بين بني آدم إلى يوم الدين^(١).

وفي التأكيد على حقيقة الأم الأولى للجنس البشري تذكر الدراسات الحديثة في علم الأحياء الجزيئي أنه يمكن تتبع السلالات الأحيائية بواسطة الحمض النووي الريبي المنقوص الأكسجين في بعض عضيات خلية البيضة والمعروفة باسم المتقدرات، وهي عضيات غشائية التكوين، شديدة الضآلة، عظيمة الفائدة، تسبح في سائل الخلية، وتقوم بتحويل سائل الخلية إلى غذاء تحتاجه كل مكونات الخلية في أنشطتها المختلفة، ومحتوى المتقدرات من الحمض النووي والمعروف باسم (The Mitochondrial DNA) لا يورث إلا من الأم فقط، وبطريقة مباشرة حيث لا يدخل في عملية اختلاط مورثات الأبوين أثناء تكوين النطفة الأمشاج، وبذلك يمكن تتبع نسب جميع الإناث في الماضي والحاضر والمستقبل إلى أم واحدة -هي أمنا حواء عليها السلام- من خلال قطيرات الحمض النووي المتقدري الموجود في خلاياهن^(٢).

ومن الأدلة المشاهدة والمحسوسة الدالة على توارث الصفات الوراثية الشبه، إذ يشاهد أن المولود الذي يخرج من الرحم قد يشبه أحد أبويه، أو قد يمتد الشبه إلى بعض أقاربه من جهة الأم أو من جهة الأب، وقد قررت السنة النبوية أن النطفة عندما تدخل إلى الرحم يحضرها الله ﷻ كل نسب كان بينها وبين آدم عليه الصلاة والسلام أبي البشرية، وذلك في قول النبي ﷺ لأحد أصحابه: **«مَا وُلِدَ لَكَ؟ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا عَسَى أَنْ يُوَلَدَ لِي؟ إِمَّا غُلَامٌ وَإِمَّا جَارِيَةٌ، قَالَ: فَمَنْ**

١- خلق الإنسان في القرآن الكريم للنجار ص ٩٨، ودلائل الإعجاز العلمي لسيف الدين الكاتب ص ١٠٠.

٢- خلق الإنسان في القرآن الكريم للنجار ص ١٤٣.

يُشْبِهُهُ؟ قَالَ: مَا عَسَى أَنْ يُشْبِهَهُ؟ إِمَّا أُمُّهُ وَإِمَّا أَبَاهُ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هَامَهُ لَا تَقُولَنَّ كَذَلِكَ، إِنَّ النُّطْفَةَ إِذَا اسْتَقَرَّتْ فِي الرَّحِمِ أَحْضَرَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ كُلَّ نَسَبٍ بَيْنَهَا وَبَيْنَ آدَمَ، أَمَا قَرَأْتَ هَذِهِ آيَةَ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فِي آيَةِ سُورَةِ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾^(١) أَيِ شَكْلِكَ^(٢)، والحقيقة في هذا الحديث هي حقيقة توارث الصفات إلى الأب الأول للإنسانية^(٣)، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل من فزاره إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إن امرأتي ولدت غلاماً أسود، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «هَلْ لَكَ مِنْ إِبْلِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَمَا أَلْوَانُهَا؟ قَالَ: حُمْرٌ، قَالَ: هَلْ فِيهَا مِنْ أَوْرَقٍ؟ قَالَ: إِنَّ فِيهَا لَوْرَقًا، قَالَ: فَأَنَّى أَتَاهَا ذَلِكَ؟ قَالَ: عَسَى أَنْ يَكُونَ نَزَعُهُ عِرْقٌ»^(٤)، فأشار

١- سورة الانفطار: آية ٨.

٢- أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، كتاب الرءاء، باب رباح اللخمي جد موسى بن علي، ٧٤/٥، برقم: ٤٦٢٤، وهو حديث ضعيف؛ لأن في إسناده مطهر بن الهيثم وهو متروك. انظر: مجمع الزوائد ١٣٥/٧، وله شاهد أخرجه الطبراني في المعجم الصغير، باب الألف، من اسمه أحمد ٨٢/١ برقم: ١٠٦، وفي المعجم الأوسط ١٧٠/٢ برقم: ١٦١٣، عن مالك بن الحويرث قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ جَلَّ نِكَرُهُ أَنْ يَخْلُقَ النَّسْمَةَ، فَجَامَعَ الرَّجُلُ الْمَرْأَةَ؛ طَارَ مَاؤُهُ فِي كُلِّ عِرْقٍ وَعَصَبٍ مِنْهَا، فَإِذَا كَانَ يَوْمَ السَّابِعِ أَحْضَرَ اللَّهُ لَهُ كُلَّ عِرْقٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ آدَمَ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فِي آيَةِ سُورَةِ مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾»، قال ابن منده: «وهذا إسناد متصل مشهور على رسم أبي عيسى والنسائي وغيرهما»، التوحيد ومعرفة أسماء الله صلى الله عليه وسلم وصفاته على الاتفاق التفرّد لمحمد بن إسحاق ابن منده ٢٣٢/١ برقم: ٨٩، قال الألباني معلقاً على كلامه: «قلت: يشير إلى أنه حسن على شرط أبي عيسى الترمذي وسائر أصحاب السنن، وهو كما قال إن شاء الله تعالى؛ فإن أنيس بن سوار وأباه ترجمهما البخاري وابن أبي حاتم، ولم يذكرهما فيهما جرحاً ولا تعديلاً، وذكرهما ابن حبان في "الثقات" السلسلة الصحيحة ١٣/١٣٣.

٣- انظر: الإعجاز العلمي في السنن النبوية لصالح بن أحمد رضا ٦١/١، ودلائل الإعجاز العلمي لسيف الدين الكاتب ص ٩٩، وخلق الإنسان في القرآن الكريم لزغلول النجار ص ١٣٧.

٤- أخرجه البخاري، كتاب الطلاق، باب إذا عرض بنفي الولد ٢٠٣٢/٥ برقم: ٤٩٩٩، ومسلم، كتاب اللعان ١١٣٧/٢ برقم ١٥٠٠. والأورق: الذي فيه سواد ليس بصاف، والمراد بالعرق هنا الأصل من النسب، ونزعه: أشبهه واجتنبه إليه وأظهر لونه عليه. انظر: شرح النووي على مسلم ١٣٣/١٠.

النبى ﷺ في هذا الحديث إلى قوانين الوراثة التي اكتشفت حديثاً، والتي هي شرح للصفات الكامنة المحمولة على المورثات التي لم توضع موضع التنفيذ لكونها قد سبقت أو غلبت بمورثات أخرى، فقد يرث الإنسان صفه من جد أو جدة بينه وبين أحدهما مئات السنين، بل والوف السنين، وهذه الظاهرة معروفة ومشار إليها في علم الوراثة، والرسول الكريم ﷺ أشار إليها في هذا الحديث وشرح قوانينها بالصفات السابقة والمسبوقة، وبحضور الأنساب حتى آدم عليه السلام (١).

وقد أشار النبي ﷺ في قوله: **"تَخَيَّرُوا لِنُطْفِكُمْ"** (٢) إلى ما أكدته وأثبتته كذلك الأبحاث الحديثة في علم الوراثة من أن انتقال الصفات الوراثية يتم من خلال الأمشاج في عملية الاندماج المشيجي بين المادة الذكورية (الحيوان المنوي)، والمادة الأنثوية (البويضة)، وقد أشار القرآن الكريم في قوله تعالى: **﴿ كَمَا أَنْشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةٍ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴾** (٣) إلى عملية الانتقال للصفات الوراثية عبر الأجيال المتتابة، مؤكدة ما أثبتته العلم الحديث من أن الانتقال ليس مقصوراً على جيل واحد فحسب، بل يتم في عدد من الأجيال، ومن ثم فإننا نحمل في مادتنا الوراثية تراث آبائنا الوراثي منذ أن نزل الإنسان إلى الأرض (٤).

١- انظر: الأربعون العلمية صور الإعجاز العلمي في السنة النبوية لعبدالحاميد محمود طهماز ص ٣٨، ٣٩، والإعجاز العلمي في الإسلام لمحمد كامل عبدالصمد ص ١٠٧، والإعجاز العلمي في القرآن والسنة لنايف منير فارس ص ٣٨٦، ٣٨٥، والإعجاز الإلهي في خلق الإنسان لمحمد نبيل النشواني ص ١٠٤، وموسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة ليويسف الحاج أحمد ص ١٣١.

٢- أخرجه ابن ماجه، كتاب النكاح، باب الأكفاء ٦٣٣/١ برقم: ١٩٦٨، حسنه ابن حجر في التلخيص الحبير ٣/٣٠٩، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٣/١٤١ برقم: ١٠٦٧.

٣- سورة الأنعام: آية ١٣٣.

٤- موسوعة الإعجاز العلمي في سنة النبي الأمي لحمدي عبدالله عبدالعظيم الصعيدي ص ٣١٧، ٣١٨.

المطلب الثالث: ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها

من خلال الدراسة التفسيرية والعلمية يتلخص ما يلي:

- * الخطاب في قوله ﷺ: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ﴾، عام لجميع المكلفين.
- * لفظ (الخلق) المذكور في القرآن يتضمن معنيين: الأول: الإبداع والإنشاء، والثاني: التقدير.
- * المراد بالنفس الواحدة في قوله ﷺ: ﴿مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ آدم عليه الصلاة والسلام، وقد نقل كل من الرازي والنيسابوري إجماع المفسرين على ذلك.
- * قوله ﷺ: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي: حواء عليها السلام، خلقها الله ﷻ من ضلع من أضلاع آدم عليه الصلاة والسلام، ومنهما -آدم وحواء- خلقت الذكور والإناث عن طريق التناسل الذي قد ملأت به الأرض، وهذا تفصيل وبيان لكيفية إنشائهم وخلقهم من نفس واحدة.
- * أن خلق جميع البشر من نفس واحدة يدل على قدرة الله تعالى وعلمه وحكمته ووحدانيته، كما يوجب شكر النعمة والطاعة والاحتراز عن المعصية، ويُرشد إلى وحدة الأصل والنوع الإنساني، مما يقتضي وجوب التعارف والتعاون بين الناس وإظهار التواضع وحسن الخلق، وترك المفاخرة والتكبر؛ لأنهم إخوة، وما على الإخوة إلا التآلف، لا التناحر والتقاتل، كما أنه يدل على المعاد.
- * علم الوراثة أحد فروع علم الحياة؛ لارتباطه الوثيق بحياة الإنسان، وهو يعني بدراسة طرق ووسائل انتقال الصفات الوراثية من الكائنات إلى سلالاتها.
- * تمكن الإنسان في نهاية القرن التاسع عشر من اكتشاف قوانين الوراثة، عندما توصل (مندل) إلى أن الصفات الوراثية تنتقل من الآباء إلى الأبناء.

* أدت الاكتشافات الحديثة إلى معرفة أن أصل خلق الإنسان من خلية واحدة، وأن أنسجة جسمه مكونة من خلايا، وكل خلية تحتوي على نواة، وتوجد المادة الوراثية داخل النواة في الكروموسومات كأجسام صغيرة جداً تسمى الصبغيات أو الحمض النووي، ويرث الإنسان نصفها من أمه، والنصف الآخر من أبيه.

* الناس جميعاً يلتقون في شفرة وراثية واحدة كانت في صلب أبينا آدم عليه الصلاة والسلام، وهذه الشيفرة يُطلق عليها علماء الأجنة اسم (بِرْكَة الوراثة).

* ذكرت دراسات علم الأحياء الجزيئي إمكان تتبع نسب جميع الإناث إلى أم واحدة -حواء- من خلال قطيرات الحمض النووي المتقدري الموجود في خلاياهن.

* من الأدلة المشاهدة والمحسوسة على توارث الصفات الوراثية الشبه الذي يكون بين المولود وبين أحد أبويه، أو بعض أقاربه من جهة الأم أو من جهة الأب.

ومن خلال الدراسة التفسيرية والعلمية يظهر لي الآثار التالية:

* الجوانب العلمية لها أثرها في تأييد القول بعموم الخطاب في قوله تعالى:

﴿بَنَاتِنَا أُنثَى﴾، وأن المراد بالنفس الواحدة في قوله تعالى: **﴿مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾** آدم عليه الصلاة والسلام، الذي هو أصل الإنسان، والمراد بقوله: **﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾** حواء.

* الدلالة على نبوة النبي ﷺ، وعلى أن القرآن من عند الله، معجزة للنبي ﷺ، وشاهد على نبوته، حيث أخبر القرآن الكريم -وكذلك السنة النبوية- عن خلق البشر من نفس واحدة هو آدم عليه الصلاة والسلام، وهذا من الغيب الذي ما كان النبي ﷺ ولا قومه الذين بعث فيهم يعلمون شيئاً عن ذلك، فضلاً عن أنه ﷺ كان نبياً أمياً، فلما أخبر النبي ﷺ بذلك الغيب علم أنه من إخبار الله له، وهذا الأمر تقطن له الإمام الرازي حيث قال: «إن العقل لا دليل فيه على أن الخلق يجب أن يكونوا مخلوقين من نفس واحدة، بل ذلك إنما يعرف بالدلائل السمعية، وكان النبي

ﷺ أمياً ما قرأ كتاباً ولا تلمذ لأستاذ، فلما أخبر عن هذا المعنى، كان إخباراً عن الغيب، فكان معجزاً»^(١)، وكذلك النيسابوري^(٢)، فالإخبار بغيب الماضي نوع من إعجاز القرآن الكريم، وذلك دليل نبوته ﷺ، يقول تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُنْفِقِينَ﴾^(٣).

* بيان الإعجاز العلمي لنصوص القرآن الكريم والسنة النبوية، حيث أشارت هذه النصوص بكلمات معجزة إلى ما أكدته وأثبتته الأبحاث الحديثة في علم الوراثة من انتقال الصفات الوراثية من الآباء إلى الأبناء، وأنه يتم من خلال الأمشاج في عملية الاندماج المشيحي بين المادة الذكورية (الحيوان المنوي)، والمادة الأنثوية (البويضة)، مع أنه لم تبدأ العلوم المكتسبة في إدراك شيء من قوانين الوراثة إلا في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، بعد كشف مندل لقانون الوراثة، وبقيت هذه المورثات رموز غامضة إلى أوائل القرن العشرين حتى ثبت أن لها وجود حقيقي على جسيمات خيطية دقيقة متناهية في الصغر^(٤)، وهذا يدل على سبق القرآن والسنة النبوية للعلوم الحديثة، ولا غرابة في ذلك؛ لأن العلم الذي في القرآن هو علم الله، جعله معجزة لرسوله ﷺ، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾، أي فيه علمه الذي أراد أن يطلع العباد عليه^(٥)، والله در ابن عاشور حين قال: «﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ أي: متلبساً بعلمه، أي بالغاً

١- مفاتيح الغيب ١٣٠/٩.

٢- غرائب القرآن و رغائب الفرقان ٣٤٠/٢.

٣- سورة هود: الآية ٤٩.

٤- انظر: خلق الإنسان في القرآن للنجار ص ١٣٧، والإعجاز العلمي لسيف الدين الكاتب ص ٩٩.

٥- انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/٧٢٦.

الغاية في باب الكتب السماوية، شأن ما يكون بعلم من الله تعالى، ومعنى ذلك أنه معجز لفظاً ومعنى، فكما أعجز البلغاء من أهل اللسان، أعجز العلماء من أهل الحقائق العالية»^(١).

* بيان بطلان نظرية النشوء والتطور التي تعتبر أصل الإنسان تطور من حيوانات -وسياتي الحديث عنها في مطلب لاحق إن شاء الله تعالى-؛ ذلك أن إرجاع الناس جميعاً إلى أب واحد -آدم عليه السلام- وأم واحدة -حواء عليها السلام- من حقائق الخلق التي ذكرتها نصوص القرآن والسنة قبل أربعة عشر قرناً من الزمان، وأثبتتها علوم الوراثة مؤخراً بما لا يدع مجالاً للشك^(٢).

والله ﷻ أعلم

١- التحرير والتنوير لابن عاشور ٤/٣٢٦.

٢- انظر: دلائل الإعجاز العلمي لسيف الدين الكاتب ص ١٠٤.

المبحث الثالث

نظرية النشوء والتطور

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول:

التعريف بنظرية النشوء والتطور وأثارها.

المطلب الثاني:

تفنيد نظرية النشوء والتطور من الشرع.

المطلب الثالث:

موقف علماء الغرب من نظرية النشوء والتطور.

المطلب الرابع:

تفنيد نظرية النشوء والتطور عقلياً وعلمياً.

المطلب الخامس:

ملخص الدراسة وأثرها.

المطلب الأول: التعريف بنظرية النشوء والتطور وأثارها

إن كل الأديان القديمة والحديثة وإن اختلفت في كثير من الأمور، إلا أنها متفقة على وجود خالق لهذا الكون، وقد استقرت هذه الحقيقة في نفوس الناس حتى لم يكن ليخطر في بال أحد أن يدعي غير ذلك، ولكن الذي حدث هو أن أصابت بعض العلماء نكبة، فذهبوا ينكرون وجود الخالق، ولكي يفسروا وجود هذا الكون اخترعوا النظريات التي تثبت لهم ذلك، منها هذه النظرية المسماة (نظرية النشوء والتطور)، والتي وجدت لها أنصاراً من العلماء، آمنوا بها، ونشروها، ودافعوا عنها، وعقبوا عليها، وسعوا إلى تدعيمها؛ لكن إلى جانب ذلك كان لها مناهضون من العلماء، نبذوها واستنكروها، وفندوها، وكان أول من ناهضها علماء الأديان؛ إذ رأوا في هذه النظرية ما يخالف الكتب السماوية التي تُلزم المؤمنين بها الاعتقاد بكل ما جاء فيها، وهي تنكر هذه النظرية بصراحة^(١).

تاريخ النظرية:

على الرغم من أن نظرية النشوء والتطور ارتبطت في شهرتها وذيوعها بـ(تشارلز داروين)، إلا أنه لم يكن أول من بحث في أصول الكائنات وما يوجد بين أشكالها من ترابط؛ فمنذ عصر فلاسفة اليونان نجد أن (أناكسيمندر المالمطي) يناقش مشكلة التطور في مملكة الحيوان، و(أمبودوقليس) يتعرض للتطور في مفهومه العام، ويقدم (لوكريتس) أفكاراً مؤيدة لمفهوم عملية الانتخاب الطبيعي الذي يعمل على حفظ الأقوى والتخلص من الأضعف^(٢)، فمبدأ هذه النظرية ناشئ من التصور والتخيل المعروف عند الفلاسفة.

١- خلق لا تطور لفريق من العلماء ص ٦.

٢- الموسوعة العربية العالمية ٣٥٣/٢٥، وخلق لا تطور ص ٢٣، وشوائب التفسير في القرن الرابع عشر ص ١٩٨.

وفي القرون المتأخرة ظهر في الغرب الكثير من العلماء الذين أخذوا بفكرة التطور، واهتموا بدراسة أنواع الأحياء بصورة عامة وتطورها، ولاحظ بعضهم التقارب بين الإنسان والحيوانات العليا، وأن هناك انتقالاً من البسيط إلى المركب في تدرج المخلوقات، وقد ظهرت هذه الدراسات في ظل الجو العدائي الذي ساد العلاقة بين الكنيسة والعلم، أو بين رجال الدين النصارى والعلماء، ومن أهم هؤلاء العلماء عالم الطبيعة الإنجليزي (أرسموس داروين ١٧٣١-١٨٠٢م) جد (تشارلز داروين) الذي تحدث عن تأثير البيئة في الارتقاء، والعالم الفرنسي (كومت دي بوفون ١٧٠٧-١٧٨٨م) الذي أشار إلى أن الأنواع قد تتغير عبر الزمن، كما ظهر بعض علماء الجيولوجيا من أمثال (ليل ١٧٤٤-١٨٢٩م) الذي أثبت أن تطور الأرض سبق تطور الكائنات الحية (الأحياء)، ومن بين النظريات العامة التي شكلت الخلفية التاريخية لنظرية النشوء والتطور، نظرية الكوارث التي ألمح إليها (ليوناردو دافينشي)، ودراسة المتحجرات والحفريات القديمة التي أثبتتها كل من (كوفيه ١٧٦٩-١٨٢٣م) و(وليم سميث) وغيرهما، واتخذت فكرة التطور بعد ذلك منحى جديداً على يد العالم الفرنسي (جان بابتيست لامارك ١٧٤٤-١٨٢٩م)^(١)، ومن بعده (تشارلز داروين ١٨٠٩-١٨٨٢م)، إذ ارتبطت النظرية على أيديهما عند من جاءوا بعدهما من التطوريين الجدد بالتفسير المادي لتطور الكائنات، مع استبعاد القول بوجود قوة خارجية خالقة للكون ومدبرة للأحياء^(٢).

١- وقد ذهب (لامارك) إلى أن البيئة هي المؤثر والمحرك في التطور الذي يتم في ببطء واستمرار ويؤدي إلى ظهور صفات جديدة تُورث من جيل إلى جيل، وقد يبلغ التغير غايته فينتج عنه ظهور أنواع أو سلالات جديدة، ولم تحظ آراءه بالقبول العلمي؛ إذ فشلت التجارب في إثباتها، كما أن العلماء أثبتوا أن الصفات التي يكتسبها الفرد أثناء حياته لا تُورث، والصفات الوراثية تنتقل إلى الأجيال عبر الخلايا الوراثية التي لا تخضع للمؤثرات والظروف البيئية. انظر: الموسوعة العربية العالمية ٢٥/٣٥٤ .

٢- انظر: الموسوعة العربية العالمية ٢٥/٣٥٣-٣٥٥، وكتاب خلق لا تطور لفريق من العلماء ص ٢٣.

(داروين) ونظرية النشوء والتطور

لما ظهر الإنجليزي تشارلز داروين (١٨٠٩-١٨٨٢م)، استفاد من كل النظريات السابقة عن التطور، كما قام برحلة إلى جزر (كيب فيرد) وسواحل أمريكا الجنوبية، ودرس خلالها الحيوانات والنباتات والتكونات الجيولوجية للشواطئ والأراضي القريبة منها، وجمع فيها العديد من العينات، ودوّن ملاحظاته عليها، ثم بدأ يفكر في أصل هذه الأنواع المتباينة والمختلفة، وفي هذه الأثناء اطّلع على رأي لعالم الاقتصاد الإنجليزي مالتوس (١٧٦٦-١٨٣٤م) حول مشكلة تزايد السكان مع محدودية الموارد، ورأى أن حل هذه المشكلة يقوم على أن الحياة صراع، وأن عدد السكان يتزايد أكثر من تزايد الموارد الغذائية، لكن الحروب والأمراض والمجاعات تحد وتقلل من هذه الزيادة، وأنه لهذه الأسباب يوجد نوع من التوازن بين عدد السكان والغذاء، فأعجب (داروين) بهذه الأفكار، وتوصل عن طريقها إلى فكرة الانتخاب الطبيعي التي تُعتبر أساس نظريته عن التطور، وقد لخص (داروين) في مقدمة كتابه (أصل الأنواع ١٨٥٩م) نظريته بقوله: «إنني مقتنع تمام الاقتناع بأن الأنواع ليست ثابتة، وبأن الأنواع التي تنتمي إلى فصيلة واحدة أو جنس واحد قد انحدرت مباشرة من أنواع أقدم منها، وغالباً ما تكون قد انقرضت، وقد حدث هذا بنفس الطريقة التي تخرج بها سلالات مختلفة من نوع واحد، وفوق هذا فإني مقتنع بأن الانتخاب الطبيعي كان أهم عامل في حدوث هذه التغيرات التي طرأت على الأنواع، وإن لم يكن العامل الوحيد»، وقد اعتبر أصل الحياة خلية كانت في مستنقع آسن قبل ملايين السنين، وقد تطورت هذه الخلية ومرت بمراحل، منها مرحلة القرد، انتهاءً بالإنسان، وهو بذلك ينسف الحقيقة التي تجعل الإنسان منتسباً إلى آدم وحواء عليهما السلام ابتداءً^(١).

١- انظر: الموسوعة العربية العالمية ٣٥٤/٢٥، ٣٥٥، والموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة للندوة العالمية للشباب الإسلامي ٩٢٥/٢، وكتاب خلق لا تطور لفريق من العلماء ص ٢٦.

ومما سبق يظهر لنا أن إسناد نظرية النشوء والارتقاء إلى (داروين) مما هو مبالغ فيه، كما بولغ في إبداعه لها، مع أنه من حيث الواقع يعد مطوراً لها فحسب، وربما كانت المبالغة لأغراض سياسية؛ حيث كانت بريطانيا تعد الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس، وتعمل لتمزيق دولة الخلافة، والسيطرة عليها، فتعد برنامجاً ثقافياً ليحل محل تعاليم الإسلام^(١).

زعم النظرية:

تزعم نظرية النشوء والارتقاء أن أصل المخلوقات حيوان صغير نشأ من الماء، ثم أخذت البيئة تفرض عليه من التغيرات في تكوينه مما أدى إلى نشوء صفات جديدة في هذا الكائن، أخذت هذه الصفات المكتسبة تورث في الأبناء حتى تحولت مجموعة هذه الصفات الصغيرة الناشئة من البيئة عبر ملايين السنين إلى نشوء صفات كبيرة راقية جعلت ذلك المخلوق البدائي مخلوقاً أرقى، واستمر ذلك النشوء للصفات بفعل البيئة والارتقاء في المخلوقات حتى وصل إلى هذه المخلوقات التي انتهت بالإنسان^(٢). فهذه النظرية تقول بأن أشكال الحياة المختلفة تعود إلى أصل واحد مشترك، وأنها بدأت من خلايا حية بسيطة تكونت -في زعمهم- عن طريق المصادفة عبر عمليات كيميائية مركبة، ثم تطورت إلى كائنات كبيرة معقدة، وفي بداية النظرية وعصر (داروين)، كان الفكر السائد هو أن هذا التطور تم بسبب تأثير عوامل طبيعية كالبيئة، والمناخ، وموارد الغذاء، وطرق الحصول عليه، أما في الوقت الحالي فإن التطورية والداروينية الجديدة تركز على أن التطور تم بسبب الطفرات أو التغيرات المفاجئة في التراكيب الجزيئية المسؤولة عن الوراثة^(٣).

١- انظر: شوائب التفسير في القرن الرابع عشر الهجري ص ٢٠٠.

٢- انظر: توحيد الخالق لعبدالمجيد عزيز الزنداني ص ٢٦٨، العقيدة في الله لعمر سليمان الأشقر ص ٨٤.

٣- انظر: الموسوعة العربية العالمية ٢٥/٣٥٣، والسلوك الواعي لدى الخلية لهارون يحيى ص ٩٩.

أسس النظرية وافتراضاتها:

- اعتمدت نظرية النشوء والتطور على عدة أسس وافتراضات، وهي:
- ١- ما شوهد من الحفريات الأرضية، فقد وجدوا أن الطبقات القديمة تحتوي على كائنات أولية، وأن الطبقات التي تليها تحتوي على كائنات أرقى فأرقى، فقال (داروين): «إن تلك الحيوانات الراقية قد جاءت نتيجة للنشوء والارتقاء من الحيوانات والكائنات الأولى»، ومعنى ذلك أن هناك سلماً للتطور.
 - ٢- ما كان معروفاً من تشابه جميع أجنة الحيوانات في أواخرها الأولى، مما يوحي بأن أصل الكائنات واحد كما أن الجنين واحد، وحدث التطور على الأرض كما يحدث في أرحام الكائنات الحية، فالمراحل التي يمر بها الجنين أثناء تطوره وتكوّن أعضائه المختلفة تحكي قصة التطور التي يمر بها الفرد في تطوره عن أسلافه، وعملية تكون الجنين في الإنسان ماهي إلا استعادة لأطوار الجنين في عالم الحيوانات التي تعتبر أقل مرتبة منه.
 - ٣- وجود الزائدة الدودية في الإنسان، التي هي المساعد في هضم النباتات، وليس لها عمل في الإنسان، مما يوحي بأنها أثر بقي من القروود لم يتوار؛ لأن لها دورها في حياة القروود الآن^(١).
 - ٤- وجود الشبه بين جميع الحيوانات في تركيب أجسامها من خلايا متشابهة وأنسجة وأعضاء متماثلة، فأنسجة الكبد والمعدة لا تختلف جوهرياً في الأرنب عنها في الإنسان، والشبه بين الهيكل العظمي والجهاز الهضمي والعضلي والعصبي وتركيب الدماغ وأجزائه عند الإنسان وبين مثيلاتها عند بعض الحيوانات، يدل على الارتباط التطوري بين تلك الحيوانات والإنسان.

١- انظر: توحيد الخالق للزندان ص ٢٦٨، ٢٦٩، والموسوعة العربية العالمية ٣٥٥/٢٥.

٥- ملاحظة ميل الكائنات الحية للازدياد المطرد في العدد؛ فهي في أطوارها المبكرة تكون دائماً أكثر بكثير من جيل آبائها، مع ملاحظة أنه بالرغم من هذا الميل للزيادة المتدرجة فإن عدد كل نوع من الحيوانات يظل في الحقيقة ثابتاً تقريباً؛ لأن عدداً كبيراً يفنى بواسطة الأعداء أو الأمراض أو التنافس أو المناخ، ومن هاتين الملاحظتين استنتج داروين (قانون الصراع أو التنافس على البقاء)، فعدد الصغار أكثر بكثير من أن تظل على قيد الحياة، وبما أن هناك كمية محدودة من الغذاء والمأوى وأماكن التكاثر، فإن الأفراد تتنافس من أجل هذه الاحتياجات.

٦- ملاحظة أن الكائنات لها صفات متفاوتة، وأنها في صراع مع الطبيعة من أجل البقاء، فاستنتج داروين (قانون الانتخاب الطبيعي)، فحيثما يوجد تنافس على البقاء بين الأفراد، واختلاف بينها وتمايز في الصفات، فإن هذا سيؤدي إلى أن الأفراد التي تتمتع بالصفات المميزة -كسرعة الحركة، أو قوة العضلات، أو طول الرقبة كالزرافة- ستكون لها الفرصة الأفضل للبقاء وإنتاج أفراد جديدة، في الوقت الذي تفنى فيه خصومها وتزول، وقد أشار داروين إلى هذا بتعبير (البقاء للأصلح) بمعنى: أن التنافس على البقاء له تأثير انتخابي في إزالة غير الصالح من الأفراد، وفي الاحتفاظ بالصالح منها، وبينما يبقى الصالح حياً ويتكاثر، يهلك الضعيف^(١).

٧- الانتخاب الجنسي: وذلك بواسطة ميل الذكر والأنثى إلى التزوج بالأقوى والأصلح والأفضل، فتورث بهذا صفات الأصلح والأفضل، وتتعدم صفات الحيوان الضعيف؛ لعدم الميل إلى التزوج بينه وبين غيره.

٨- كلما تكونت صفة جديدة، ورثت في النسل^(٢).

١- انظر: الموسوعة العربية العالمية ٢٥/٣٥٥.

٢- انظر: كتاب توحيد الخالق للزنداني ص ٢٦٩.

٩- افترضت أن الحياة قد نشأت على الأرض وتطورت مصادفة، والطبيعة تعطي وتحرم بدون خطة مرسومة، بل خبط عشواء، وخط التطور ذاته متعرج ومضطرب لا يسير على قاعدة مطردة منطقية^(١).

الانتشار ومواقع النفوذ:

انتشرت هذه النظرية في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين انتشاراً واسعاً، فقد انتشرت في أوروبا، وانتقلت بعدها إلى جميع بقاع العالم، وكان لها أنصار من العلماء الغربيين آمنوا بها، ونشروها، ودافعوا عنها، وعقبوا عليها، وسعوا إلى تدعيمها، حتى أصبح القول: إننا من نسل القردة حديث كل إنسان، بل أصبحت طبقة من المتعلمين ترى في هذا القول حقيقة، وترى من متممات العلم أن يقول الإنسان بهذه النظرية حتى من غير أن يدرك أكثر القائلين بها معنى التطور. واليوم لا تزال هذه النظرية تُدرّس في كثير من الجامعات العالمية، كما أنها قد وجدت أتباعاً لها في العالم الإسلامي بين الذين تربوا تربية غربية، ودرسوا في جامعات أوروبية وأمريكية.

ومن خلال النظر في الواقع فإن تأثير هذه النظرية قد شمل معظم بلدان العالم، كما شمل معظم فروع المعرفة الإنسانية من علمية وأدبية وغيرها، ولم يوجد في التاريخ البشري نظرية باطلة صبغت مناحي الفكر الغربي كما فعلت نظرية النشوء والارتقاء^(٢).

١- انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ٩٢٦/٢، وكتاب خلق لا تطور لمجموعة من العلماء ص٩، والخلق بين الحقائق القرآنية والنظريات البشرية لعبدالحالق السباعي، منشور في مجلة الإعجاز العلمي الصادرة عن الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، العدد ٢١، ١٤٢٦هـ.
٢- انظر: خلق لا تطور لفريق من العلماء ص٦، ٧، والموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ٩٣٠/٢.

سبب انتشار النظرية:

* مجيئها في وقت أذن الله فيه أن يظهر باطل ذلك الدين المحرف الباطل (النصرانية) على أيدي جماعة من أبنائه، فكان لتقدم العلوم أثر كبير في كشف باطل ذلك الدين الزائف، مما أدى إلى نشوب معركة ضارية ذهب ضحيتها آلاف من علماء الطبيعة، وفي هذا المعترك الشديد أخذ كل فريق في استخدام كل سلاح ضد خصمه، فانتشرت هذه النظرية كسلاح شهره علماء الطبيعة في وجه دينهم، ثم في وجه كل دين وطئت أقدامهم المستعمرة أرضه؛ لاعتقادهم بصدق هذه النظرية، وانتقاماً من ذلك الدين الباطل (النصرانية المحرفة) الذي وقف حجر عثرة أمام البحث في ميادين العلوم الطبيعية، ثم وسيلة لتحطيم أديان الأمم المستعمرة، حتى يسهل على المستعمرين السيطرة على هذه الشعوب بعد أن تحطم دينها، وهكذا فرض التعليم الاستعماري هذه النظرية في مناهج التدريس، وقدمها في ثوب علمي؛ ليستطيع أن يقنع الطلاب بصدق هذه النظرية؛ ليحدث ما رسم له في أذهان الطلاب من خلاف بين العلم الذي زيفوه والدين، فيشك الناس في دينهم؛ ويكفي أن نعرف أنه بواسطة هذه النظرية انحرف كثير من أبناء الإسلام عن دينهم في شتى الأقطار الإسلامية؛ والقانون الأمريكي يحرم تعليم هذه النظرية في المدارس منذ سنة ١٩٣٥م، ولكن أوروبا بعد أن قضت على خصمها (الدين الباطل المحرف) عادت لتعلن أن نظرية (داروين) التي استخدمها في المعركة لدعم موقفها ليست حقيقة علمية، وإنما هي مجرد نظرية تكشف العلوم كل يوم باطلها^(١).

* دور اليهود والقوى الهدامة في نشر هذه النظرية؛ إذ وجدوا فيها ضالتهم المنشودة، فعملوا على استغلالها؛ لتحطيم القيم في حياة الناس؛ إذ تقول بروتوكولات

١- انظر: توحيد الخالق للزنداني ص ٢٧٧، والعقيدة في الله لعمر الأشقر ص ٩٢، ٩٣.

حكماء صهيون: «لا تتصوروا أن تصريحاتنا كلمات جوفاء، ولاحظوا هنا أن نجاح داروين وماركس ونيثشه قد رتبناه من قبل، والأثر غير الأخلاقي لاتجاهات هذه العلوم في الفكر الأممي سيكون واضحاً لنا على التأكيد»^(١).

وربما كان من أسباب انتشار هذه النظرية الأغراض السياسية، حيث كانت بريطانيا تعد الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس، وتعمل لتمزيق دولة الخلافة والسيطرة عليها، فتعد برنامجاً ثقافياً ليحل محل تعاليم الإسلام^(٢).

الآثار التي تركتها النظرية:

هناك عدة آثار سيئة تركتها نظرية النشوء والتطور والارتقاء في واقع البشرية عموماً، وواقع الأمة الإسلامية والعربية على وجه الخصوص، ومنها:

* عبادة الطبيعة، فقد قال داروين: «الطبيعة تخلق كل شيء، ولا حد لقدرتها على الخلق»؛ ولكن لم يبين ما هي الطبيعة؟ وما هو الفرق بين الاعتقاد بوجود الله الخالق ووجود الطبيعة؟، وقال أيضاً: «إن تفسير النشوء والارتقاء بتدخل الله هو بمثابة إدخال عنصر خارق للطبيعة في وضع ميكانيكي بحت».

* لم يعد هناك أي معنى لمدلول كلمة: آدم، وحواء، الجنة، الشجرة التي أكل منها آدم وحواء، الخطيئة (حسب اعتقاد النصارى بأن المسيح قد صلب ليخلص البشرية من أغلال الخطيئة الموروثة التي ظلت ترزح تحتها من وقت آدم إلى حين صلبه).

* قبل ظهور النظرية كان الناس يدعون إلى حرية الاعتقاد بسبب الثورة الفرنسية، ولكنهم بعدها أعلنوا إلحادهم الذي انتشر بطريقة عجيبة، وانتقل من

١- انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ٢/٩٢٨.

٢- انظر: شوائب التفسير في القرن الرابع عشر الهجري ص ٢٠٠.

أوروبا إلى بقاع العالم، وتخلت جموع غفيرة من الناس عن إيمانها بالله تخلياً تاماً أو شبه تام، وانحرف كثير من أبناء الإسلام عن دينهم في شتى الأقطار الإسلامية، لتأثرهم بأفكار هذه النظرية.

* لم يعد هناك جدوى من البحث في الغاية والهدف من وجود الإنسان؛ لأن النظرية قد جعلت بين الإنسان والقرود نسباً، بل زعمت أن الجد الحقيقي للإنسان هو خلية صغيرة عاشت في مستنقع راكد قبل ملايين السنين.

* طغت على الحياة فوضى عقائدية، وأصبح هذا العصر عصر قلق وضياع، واستبد بالناس شعور باليأس والقنوط والضياع، وظهرت أجيال حائرة مضطربة ذات خواء روحي، حتى أن القرود -جدهم المزعوم- أسعد حالاً من كثير منهم.

* كانت النظرية إيذاناً لميلاد نظرية (فرويد) في التحليل النفسي، ونظرية (برجسون) في الروحية الحديثة، ونظرية (سارتر) في الوجودية، ونظرية (ماركس) في المادية، وقد استفادت هذه النظريات جميعاً من الأساس الذي وضعته نظرية النشوء والتطور واعتمدت عليه في منطلقاتها وتفسيراتها للإنسان والحياة والسلوك، إذ استمد منها (فرويد) حيوانية الإنسان، فجعله حيواناً جنسياً لا يملك إلا الانصياع لأوامر الغريزة، وإلا وقع فريسة الكبت المدمر للأعصاب، فتعتبر الأساس في الإباحية الجنسية الحديثة بمسمياتها المختلفة، والشذوذ الجنسي الحديث بمختلف أشكاله، واعتباره نوعاً من السلوك الغريزي الجنسي البديل، وجعل (ماركس) مطلبه في الحياة ينحصر في الحصول على (الغذاء والسكن والجنس) مهمللاً بذلك جميع العوامل الروحية، فسيطرة الأفكار المادية على عقول الطبقة المثقفة، وأوحت كذلك بمادية الإنسان وخضوعه لقوانين المادة.

* فكرة التطور أوحى بحيوانية الإنسان، وتفسير عملية التطور أوحى بماديته، لذلك استمد (كايم) منها حيوانية الإنسان وماديته، وجمع بينهما بنظرية العقل الجمعي.

* نظرية التطور البيولوجية انتقلت لتكون فكرة فلسفية داعية إلى التطور المطلق في كل شيء، تطور لا غاية له ولا حدود، وانعكس ذلك على الدين والقيم والتقاليد، وساد الاعتقاد بأن كل عقيدة أو نظام أو خلق هو أفضل وأكمل من غيره مادام تالياً له في الوجود الزمني.

* أدت هذه النظرية إلى اعتناق سياسة التمييز العنصري لدى الدول الغربية ضد غيرها من الأجناس، مثل السود والهنود والعرب وبقية الآسيويين، في كل مناحي الحياة من تعليم واقتصاد وسياسة واجتماع وغيرها، فبررت لهم استعمار الشعوب الأخرى، وتحقيرها، ومحاربتها، بل إبادةها.

* النظرية في حقيقتها تأصيل للإلحاد، وإصباح الصبغة العلمية المزيفة عليه؛ إذ لم يكن همها في قضية الكائنات الأولى (نباتات وحيوانات) إلا إنكار وجود خالق، وتفوق الجنس الأوروبي، خلافاً لما يروجه أنصارها من علماء الأحياء الطبيعية^(١).

١- انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ٩٢٧/٢، والنظرية الداروينية (تعريفها-تأسيسها-آثارها-بطلانها) منشور في منتدى حراس العقيدة، على الرابط: <http://www.hurras.org/vb/showthread.php>.

المطلب الثاني: تنفيذ نظرية النشوء والتطور في الشرع

إن الدين الإسلامي عقيدة وشريعة ومنهج حياة، يهتم بالعلم وبأهله، ويجعلهم في مقدمة الركب، ويوجه بالعودة إلى أهل الاختصاص في كل فن، ولا يحارب أي علم نافع، ومن ذلك تجارب ونظريات العلوم التجريبية المفيدة، ولو كانت لا تزال تحت البحث والدراسة، لكن حين تأتي أي نظرية في أي فرع من فروع العلوم تخالف كلام الخالق ﷺ، وتضاد أمره وشرعه، هنا تسقط، ويجب الوقوف لها بالمرصاد، وتنفيذ باطلها وبيانه؛ لأن الانصياع إلى أمر الله وشرعه ورد ما يخالفه ليس لأحد فيه الخيار، والمسلم لا يتحقق إسلامه إلا بتمام التسليم لما جاء من عند الله ﷻ والإيمان به، وبالتالي فأى نظرية تنافي الأدلة الواضحة من كتاب الله ﷻ أو من سنة نبيه ﷺ باطلة مردودة، ولا يجوز لمسلم تصديق ما ينافي الأدلة الواضحة من كتاب الله ﷻ أو من سنة نبيه ﷺ، وإلا كان ذلك قادحاً في إيمانه واتباعه، وهذا ما لا يرضاه أي متبع لهذا الدين^(١)، ولهذا تصدّر مجموعة من أهل العلم لتنفيذ هذه النظرية، وبيان معارضتها لما هو مقرر في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وأشاروا إلى خطرها وفسادها وآثارها المدمرة على الحياة الفكرية والخلقية والاجتماعية، ولذلك جعلت هذا المطلب لتنفيذ هذه النظرية من الناحية الشرعية، وسأبدأ فيه بتنفيذها من دستور هذه الأمة ألا وهو كلام الله ﷻ، ثم من سنة خير البرية وسيد البشرية ﷺ، ثم موقف المفسرين، واختمه بموقف العلماء المعاصرين.

١- انظر: الأدلة الشرعية الواضحة والصريحة على نقض نظرية التطور، موقع منتدى التوحيد، على الرابط: <http://www.eltwhed.com/vb/showthread.php?19645>.

أولاً: تفنيد نظرية النشوء والتطور من القرآن الكريم

إن القرآن الكريم هو كلام الله ﷻ جعله منهجاً ودستوراً لهذه الأمة، وهو مصدرها الأول في التشريع والهداية، وقد امتلئ بالآيات الواضحات الدالة على بطلان نظرية النشوء والتطور، فقد سبق وأن ذكرت في المبحثين السابقين (الخلق من الأرض، والخلق من نفس واحدة) آيات دالة على أن الله جل وعلا خلقنا من الأرض بخلقه لأبينا آدم ﷺ منها، وخلقنا من نفس واحدة - آدم ﷺ - فهو أصل الخلق، خلقه الله ﷻ بيده كما قال ﷻ: ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي ۗ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكٰٓفِرِيْنَ ﴾^(١)، وبين ﷻ أنه أخبر ملائكته بخلقه له قبل أن يخلقه: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِى الْاَرْضِ خَلِيفَةً ﴾^(٢)، وبين ﷻ المادة التي خلقت منها، وبين ﷻ أن خلقه ﷻ قد مر بمراحل، وبين ﷻ أنه سواه: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن طِيْنٍ * فَاِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيْهِ مِنْ رُّوْحِي فَقَعُوْا لَهٗٓ سٰٓجِدِيْنَ ﴾^(٣)، فخلق الله ﷻ أبا البشر وأصلهم - آدم ﷻ - خلقاً تاماً مكتملاً مستويماً، وهذا خلافاً لما تقوله نظرية الارتقاء والتطور.

وبين ﷻ أنه خلق من هذه النفس الواحدة - آدم ﷻ - زوجها - حواء -، وخلق ذريتهما من بعدهما بسنة عظيمة هي سنة التزاوج؛ للحفاظ على النسل، وهذا كذلك خلافاً لما تقوله نظرية الارتقاء والتطور.

فجميع الآيات التي ذكرتها في المبحثين السابقين تُبطل نظرية النشوء والتطور والارتقاء، بل تبين زيفها وزعمها الكاذب عن خلق الإنسان وأصله^(٤).

١ - سورة ص: الآية ٧٥

٢ - سورة البقرة: الآية ٣٠.

٣ - سورة ص: الآية ٧١، ٧٢.

٤ - انظر: فتاوى اللجنة الدائمة للإفتاء ١٦/٢٧.

أما قوله ﷻ: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا﴾^(١)، وقوله ﷻ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٢)، وقوله ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾^(٣)، وقوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ وَيَحْنُ اقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾^(٤)، وقوله ﷻ: ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾^(٥)، وقوله ﷻ: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا * إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾^(٦)، وقوله ﷻ: ﴿قَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مَا أَكْفَرُهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ﴾^(٧)، وقوله ﷻ: ﴿بَيَّأْنَهَا الْإِنْسَانَ مَا عَرَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾^(٨)، وقوله ﷻ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾^(٩)، وقوله ﷻ: ﴿أَقْرَأَ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾^(١٠)، وغيرها من الآيات التي ذكر الله ﷻ فيها خلقه للإنسان، جميعها تبين زيف نظرية النشوء والتطور التي تزعم «أن أشكال الحياة المختلفة بدأت من خلايا حية تكونت عن طريق المصادفة، وأن الحياة

١- سورة مريم: الآية ٦٧.

٢- سورة يس: الآية ٣٦.

٣- سورة يس: الآية ٧٧.

٤- سورة ق: الآية ١٦.

٥- سورة الرحمن: الآيات ١، ٢، ٣.

٦- سورة الإنسان: الآيات ١، ٢.

٧- سورة عبس: الآيات ١٧، ١٨، ١٩.

٨- سورة الانفطار: الآيات ٦، ٧.

٩- سورة البلد: الآية ٤.

١٠- سورة التين: الآية ٤.

١١- سورة العلق: الآيات ١، ٢.

الأولى وجدت مصادفة»، ذلك أن المصادفة أكذوبة لا يقبلها العقل، فإنه لا يمكن أن تحدث المصادفة كل هذه الدقة المدهشة في الخلق عموماً، وفي خلق الإنسان خصوصاً، فهي مرفوضة من وجهة النظر الدينية والعلمية^(١)؛ وبالتالي تسقط الصدفة والطبيعة، ففاقد الشيء لا يعطيه، ولم يبق إلا أن يكون هناك خالق حكيم عليم خبير هو الله ﷻ، وبالتالي تسقط نظرية النشوء والارتقاء والتطور.

وأما قوله ﷻ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾^(٢)، فتبطل قولهم إن الأشياء تولدت تولد ذاتياً؛ إذ لا بد لكل مخلوق من خالق، مصداقاً لقول ﷻ: ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهْرُ﴾^(٣)، وقوله ﷻ: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾^(٤)، وقوله ﷻ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾^(٥).

وفي قوله ﷻ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾، استدلال عليهم بأمر لا يمكنهم فيه إلا التسليم للحق، أو الخروج عن موجب العقل والدين، ذلك أنه قد تقرر في الشرع والعقل، أن الأمر لا يخلو من أحد ثلاثة أمور: إما أنهم خلقوا من غير شيء أي: لا خالق خلقهم، بل وجدوا من غير إيجاد ولا موجد، وهذا عين المحال^(٦)، وإما أن يكونوا هم الخالقون لأنفسهم، وهذا أيضاً محال، فإنه لا يتصور أن يوجدوا أنفسهم، فإذا بطل هذان الأمران، وبان استحالتهما، تعين القسم الثالث

١- الموسوعة العربية العالمية ٢٥/٣٥٩.

٢- سورة الطور: الآية ٣٥.

٣- سورة الرعد: الآية ١٦.

٤- سورة الزمر: الآية ٦٢.

٥- سورة القمر: الآية ٤٩.

٦- أما استحالة ذلك شرعاً فقد بينته الآيات الكريمة كقوله ﷻ: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢]، وأما استحالته عقلاً فإنه قد تقرر عقلاً أنه لا بد لكل فعل من فاعل.

وهو أن الله ﷻ هو الذي خلقهم، وإذا تعين ذلك، علم أن الله ﷻ هو المعبود وحده، الذي لا تكون العبادة ولا تصلح إلا له ﷻ^(١).

وقوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَيْدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾^(٢)، تبين هذه الآية تكريم الله ﷻ لبني آدم، ومن هذا التكريم أن خلق أباهم بيده ﷻ، ومن الطين، وليس كما زعموا من ردّ أصل الإنسان إلى قرد أو تسلسله من كائن آخر غير مكرم مما ينافي هذا التكريم.

وقوله ﷻ: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ مُتَخَذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾^(٣)، هذه الآية ترد على ادعائهم معرفة كيفية نشأة الأحياء على الأرض.

وقوله ﷻ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبَلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾، هذه الآية ترد على قولهم بأن البقاء للأقوى والأصلح، والكوارث هي سبب هلاك المخلوقات الضعيفة، إذ بينت الآية أن الموت سنة إلهية تمضي على الأقوياء والضعفاء على حد سواء، كما قال ﷻ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾^(٤)^(٥).

وقوله ﷻ: ﴿وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾^(٦)، وهذه الآية الكريمة تصدق على حال اتباع هذه النظرية القائمة على

١- انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ٨١٦، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢٩٤/٤.

٢- سورة الإسراء: الآية ٧٠.

٣- سورة الكهف: الآية ٥١.

٤- سورة العنكبوت: الآية ٥٧.

٥- انظر: الأدلة الشرعية الواضحة والصريحة على نقض نظرية التطور، موقع منتدى التوحيد، على الرابط: (<http://www.eltwhed.com/vb/showthread.php?19645>)

٦- سورة يونس: الآية ٣٦.

مجرد فرضيات ظنية أثبتت المكتشفات العلمية الحديثة خطأها، وبالتالي فهم متبعون لها من غير تحقيق، بل هو اتباع قائم على ظن لا يستند إلى برهان صحيح، ومثله لا يغني من الحق شيئاً في الاعتقادات؛ إذ المطلوب فيها اليقين^(١)، والظن في اصطلاح القرآن الكريم هو الاعتقاد المخطئ عن غير دليل، الذي يحسبه صاحبه حقاً وصحيحاً، ومنه قول النبي ﷺ: **"إِيَاكُمْ وَالظَّنَّ؛ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ"**^{(٢)(٣)}.

ثانياً: تفنيد نظرية النشوء والتطور من السنة النبوية:

إن السنة النبوية المطهرة الصادرة عن النبي ﷺ قولاً وفعلاً وتقريراً هي المصدر الثاني للتشريع والهداية، وقد جاء فيها عن النبي الكريم ﷺ أحاديث تنكر وتدحض ما جاء في نظرية النشوء والتطور، منها قول النبي ﷺ: **"إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةِ قَبْضِهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ مِنْهُمْ الْأَحْمَرُ وَالْأَبْيَضُ وَالْأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالسَّهْلُ وَالْحَزْنُ وَالْحَبِيثُ الطَّيِّبُ"**^(٤)،

١- انظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزيء ٣٥٦/١.

٢- أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابير ٢٢٥٣/٥ برقم: ٥٧١٧، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظن والتجسس والتنافس والتناجش ونحوها ١٩٨٥/٤ برقم: ٢٥٦٣.

٣- التحرير والتنوير لابن عاشور ٢١/٧.

ثم يقول ابن عاشور: «وليس هو الظن الذي اصطلح عليه فقهاؤنا في الأمور التشريعية؛ فإنهم أرادوا به العلم الراجح في النظر، مع احتمال الخطأ احتمالاً مرجوحاً؛ لتعسر اليقين في الأدلة التكميلية؛ لأن اليقين فيها إن كان اليقين المراد للحكاماء، فهو متوقف على الدليل المنتهي إلى الضرورة أو البرهان، وهما لا يجريان إلا في أصول مسائل التوحيد، وإن كان بمعنى الإيقان بأن الله أمر أو نهى، فذلك نادر في معظم مسائل التشريع، عدا ما علم من الدين بالضرورة أو حصل لصاحبه بالحس، وهو خاص بما تلقاه بعض الصحابة عن رسول الله ﷺ مباشرة، أو حصل بالتواتر، وهو عزيز الحصول بعد عصر الصحابة والتابعين، كما علم من أصول الفقه».

٤- سبق تخريجه، وهو عند أبي داود، والترمذي، وأحمد، وقال الترمذي: «حسن صحيح».

هذا الحديث بين فيه النبي ﷺ خلق أصل البشر آدم عليه السلام خلقاً مستقلاً مكتملاً، وبين المادة التي خلق منها، وبين سبب اختلاف ألوان البشر، وهذا يبطل قولهم إن أصل المخلوقات حيوان صغير نشأ من الماء ثم أخذت البيئة تفرض عليه من التغيرات في تكوينه مما أدى إلى نشوء صفات جديدة في هذا الكائن، وتطورت هذه الصفات حتى انتهت بالإنسان.

وحديث أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ قال: "خَلَقَ اللَّهُ ﷻ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ، طُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا، فَلَمَّا خَلَقَهُ قَالَ: أَذْهَبَ فَسَلِّمْ عَلَى أَوْلِيكَ النَّفْرِ، وَهُمْ نَفَرٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ جُلُوسٌ، فَاسْتَمِعَ مَا يُجِيبُونَكَ؛ فَإِنَّهَا تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ، قَالَ: فَذَهَبَ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَقَالُوا: السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ - قَالَ - فَرَادُوهُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، - قَالَ - فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ آدَمَ وَطُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا، فَلَمْ يَزَلِ الْخَلْقُ يَنْقُصُ بَعْدَهُ حَتَّى الْآنَ"^(١)، والشاهد فيه قول النبي ﷺ: "لَمْ يَزَلِ الْخَلْقُ يَنْقُصُ بَعْدَهُ حَتَّى الْآنَ"، أي أن الإنسان خلق خلقاً تاماً مكتملاً، وهذا خلاف ما تذكره نظرية النشوء والتطور، وأما النقص بعده فقد بين المراد منه ابن حجر بقوله: «أي أن كل قرن يكون نشأته في الطول أقصر من القرن الذي قبله، فانتهى تناقص الطول إلى هذه الأمة، واستقر الأمر على ذلك... أي كما يزيد الشخص شيئاً فشيئاً، ولا يتبين ذلك فيما بين الساعتين ولا اليومين حتى إذا كثرت الأيام تبين، فكذلك هذا الحكم في النقص»^(٢)، ومثله كذلك قول رسول الله ﷺ: "لَمَّا صَوَّرَ اللَّهُ آدَمَ فِي الْجَنَّةِ تَرَكَهُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَتْرُكَهُ، فَجَعَلَ إِبْلِيسُ يُطِيفُ بِهِ؛ يَنْظُرُ مَا هُوَ،

١- أخرجه البخاري، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ

خَلِيفَةً﴾ ١٢١٠/٣ برقم: ٣١٤٨، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب يدخل الجنة أقوام أفندتهم

مثل أفندة الطير ٢١٨٣/٤ برقم: ٢٨٤١.

٢- فتح الباري شرح صحيح البخاري ٣٦٧/٦.

فَلَمَّا رَأَهُ أَجُوفًا، عَرَفَ أَنَّهُ خُلِقَ خَلْقًا لَا يَتَمَالَكُ^(١)، إذ كمل خلقه وسواه ثم نفخ فيه الروح مصوراً تام الخلقة الأدمية، خلافاً لما يدعيه التطوريون.

وقد ذكرت في مبحث الخلق من نفس واحدة أحاديث تبين حقيقة توارث الصفات إلى الأب الأول للإنسانية، وأحاديث بينت قوانين الوراثة التي اكتشفت حديثاً كقوله ﷺ: **"إِنَّ النُّطْفَةَ إِذَا اسْتَقَرَّتْ فِي الرَّحِمِ أَحْضَرَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ كُلَّ نَسَبٍ بَيْنَهَا وَبَيْنَ آدَمَ^(٢)"**، وحديث أبي هريرة ؓ قال: جاء رجل من فزاره إلى النبي ﷺ فقال: إن امرأتي ولدت غلاماً أسود، فقال النبي ﷺ: **"هَلْ لَكَ مِنْ إِبْلِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَمَا أَلْوَانُهَا؟ قَالَ: حُمْرٌ، قَالَ: هَلْ فِيهَا مِنْ أَوْرَقٍ؟ قَالَ: إِنَّ فِيهَا لُورِقًا، قَالَ: فَأَتَى أَتَاهَا ذَلِكَ؟ قَالَ: عَسَى أَنْ يَكُونَ نَزَعُهُ عِرْقٌ^(٣)"**، وهذه الأحاديث تبطل ما جاء في نظرية التطور من أن جميع الكائنات الحية من حيوان ونبات مرتبط ببعض الآخر ارتباط صلة وقرابة، وكلها تجتمع عند الجد الأعلى للكائنات كلها، فالمورثات هي عوامل وراثية كامنة في خلية كل نوع تحتفظ له بخصائص نوعه؛ وتحتم أن يظل في دائرة النوع الذي نشأ منه، ولا يخرج قط عن نوعه ولا يتطور إلى نوع جديد^(٤).

-
- ١- أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب خلق الإنسان خلقاً لا يتمالك ٢٠١٦/٤ برقم: ٢٦١١.
- الأجوف: صاحب الجوف، وقيل هو الذي داخله خال، ومعنى **"لَا يَتَمَالَكُ"**: لا يملك نفسه ويحبسها عن الشهوات، وقيل: لا يملك دفع الوسواس عنه، وقيل: لا يملك نفسه عند الغضب، أو لا يتقوى بعضه ببعض ولا يكون له قوة وثبات بل يكون متزلزل الأمر متغير الحال مضطرب القال معرضاً للآفات.
- انظر: شرح النووي على صحيح مسلم ١٦/١٦٤، وفيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي ٥/٢٩٧.
- ٢- سبق تخريجه ص ٦٨.
- ٣- سبق تخريجه ص ٦٨.
- ٤- في ظلال القرآن لسيد قطب ٥/٢٨٠٩.

ثالثاً: تفنيد النظرية من كلام المفسرين

* ذكر الإمام الرازي في تفسيره كلاماً يبطل ما جاء في هذه النظرية، فقال: «اعلم أن العقل دل على أنه لا بد للناس من والد أول، وإلا لزم أن يكون كل ولد مسبوق بوالد لا إلى أول وهو محال، والقرآن دل على أن ذلك الوالد الأول هو آدم عليه السلام»^(١)، وقد سبق بيان خلقه في القرآن، وأنه نفخ فيه الروح مصوراً تام الخلقة الآدمية، خلافاً لما يدعيه التطوريون.

وهناك من المفسرين المعاصرين من ذكر نظرية النشوء والارتقاء والتطور في تفسيره للقرآن الكريم، وبين بطلانها برده عليها، ومنهم:

* سيد قطب حيث يقول في الظلال: «غير أنه يحسن بهذه المناسبة تقرير أن نظرية النشوء والارتقاء (لدارون) القائلة: بأن الأنواع تسلسلت من الخلية الواحدة إلى الإنسان في أطوار متوالية؛ وأن هناك حلقات نشوء وارتقاء متصلة تجعل أصل الإنسان المباشر حيواناً فوق القردة العليا ودون الإنسان، أن هذه النظرية غير صحيحة في هذه النقطة، وأن كشف عوامل الوراثة التي لم يكن دارون قد عرفها تجعل هذا التطور من نوع إلى نوع ضرباً من المستحيل، فهناك عوامل وراثية كامنة في خلية كل نوع تحتفظ له بخصائص نوعه؛ وتحتم أن يظل في دائرة النوع الذي نشأ منه، ولا يخرج قط عن نوعه، ولا يتطور إلى نوع جديد، فالقط أصله قط، وسيظل قطاً على توالي القرون، والكلب كذلك، والثور، والحصان، والقرد، والإنسان... وهذا يبطل القسم الرئيسي في نظرية دارون التي فهم ناس من المخدوعين باسم العلم أنها حقيقة غير قابلة للنقض في يوم من الأيام!»^(٢).

١- مفاتيح الغيب للرازي ٦٦/٨.

٢- في ظلال القرآن لسيد قطب ٥ / ٢٨٠٩.

* الشيخ محمد متولي الشعراوي حيث يقول في تفسيره: «إن كيفية خلقك ليس لك شأن بها، فالذي خلقك هو الذي يقول لك، فاسمع كلامه؛ لأن هذه مسألة لا تتعلق بعلم تجريبي؛ ولذلك عندما جاء (دارون) وأراد أن يتكبر ويتكلم، جاءت النظرية الحديثة لتهدم كلامه، قالت النظرية الحديثة لدارون: إن الأمور التي أثرت في القرد الأول ليكون إنساناً، لماذا لم تؤثر في بقية القرود ليكونوا أناساً وينعدم جنس القرود؟! وهذا سؤال لا يجيب عليه (دارون)؛ لذلك نقول: هذا أمر لم نشهده، فيجب أن نستمع ممن فعل، والحق ﷺ يقول: ﴿وَمَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ مُتَّخَذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾^(١)، وما دام لم يُشهدهم، فهل يستطيع أحد منهم أن يأتي بعلم فيها؟ إن أحداً لا يأتي بعلم فيها، وبعد ذلك يرد على من يجيء بادعاء علم فيقول: ﴿وَمَا كُنْتُمْ مُتَّخَذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ معنى مضلين أنهم سيضلونكم في الخلق، كأن الله أعطانا مناعة في الأقوال الزائفة التي يمكن أن تنشأ من هذا عندما قال: ﴿وَمَا كُنْتُمْ مُتَّخَذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾، فقد أوضح لنا طبيعة من يضلون في أصل الخلق، وفي كيفية الخلق، فهم لم يكونوا مع الله ليعاونوه ساعة الخلق حتى يخبروا البشر بكيفية الخلق، فإن أردتم أن تعرفوا فاعلموا أنه ﷺ الذي يقول كيف خلقتم، وعلى أي صورة كنتم، ولكن من يقول كذا وكذا، هم المضللون، و(المضللون) هم الذين يلفتونكم عن الحق إلى الباطل»^(٢).

* الدكتور وهبة الزحيلي حيث يقول في تفسيره: «وكان آدم وحواء أصل النوع الإنساني كما أخبر القرآن، وقد أثبت العلماء زيف نظرية (دارون) التي تجعل القرد أصلاً وأباً للإنسان»^(٣).

١- سورة الكهف: الآية ٥١.

٢- تفسير الشعراوي ٤/١٩٨٧، ١٩٨٨.

٣- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج ١/١٤٥.

وهناك من المعاصرين من ظهر تأثره بهذه النظرية، كالدكتور الخطيب في كتابه التفسير القرآني للقرآن^(١)، فقد ذكر في تفسير قوله ﷻ: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾^(٢)، قوله: «ولنا أن نذكر هنا، أن تحول هؤلاء الممسوخين من الإنسان إلى القرد يمكن أن يُستأنس به في بحثنا الذي عرضناه من قبل، في خلق الإنسان وفي تطوره في الخلق، وأن الإنسان كما انتقل صاعداً من قرد إلى إنسان، كذلك رُدّ نازلاً من إنسان إلى قرد!». ولعلّ في قوله تعالى: ﴿خَاسِئِينَ﴾ ما يقوّى هذا الرأي الذي ذهبنا إليه، إذ يقال في اللغة: خساً الكلب يخسأه خساً: طرده، وخساً البصر، يخساً خسوءاً: كلّ وأعياء، وخسئ الكلب يخسأ وانخساً: انزجر وبعد، والخاسئ من الخنازير والكلاب: المبعد المطرود، ومعنى ﴿خَاسِئِينَ﴾: مبعدين مطرودين من عالم الإنسان، مردودين إلى عالم الحيوان، وإلى فصيلة القردة منه، التي هي أعلى مراتب الحيوان وأول مراتب الإنسان الحيوان!^(٣).

الرد عليه بالقول: إن قول الخطيب هذا يُنبئ عن نفي المعجزة في المسخ الإلهي لليهود على عصيانهم، وكأن القضية تحولات طبيعية من قرد إلى إنسان وبالعكس، فيكون المسخ الذي تحدث عنه من الخيال، ولا يمكن فهمه من لغة العرب التي

١- وممن تأثر بهذه النظرية من المعاصرين أيضاً محمد فريد وجدي حيث قال: «إني أصرح بأعلى صوتي أن النشوء والارتقاء، وإن كنت لا أقول به لأن، هو أقرب المذاهب إلى العقل، وأدناها شبيهاً بفعل النواميس الظاهرة، أشبهها بسنة الخالق في تدرج الخلق في عالم التكوين»، ومن يعن النظر في كل ما صدر عنه يجده بعيداً، ولا يمت للتفسير بصلة، فهو مما لم تحتمله نصوص القرآن، بل مما يعارضه، والعلم الحديث يبطل دعواه، بل عدم جزمه بها صادر عن تردد واضعيتها وثورة المسلمين العارمة عليها، وكذلك من المتأثرين بها مصطفى محمود في تفسير قصة الخلق. انظر: شوائب التفسير في القرن الرابع عشر ص ٢٠٦، ٢١٧.

٢- سورة البقرة: الآية ٦٥.

٣- التفسير القرآني للقرآن ١/٩٤.

وردت في القرآن الكريم^(١)، وهذا غير صحيح كما ذكرنا؛ لأن الله ﷻ خلق أبانا آدم خلقاً تاماً مستقلاً، وكرمه بخلقه بيده ﷻ، وفضله على كثير من المخلوقات منها القرود؛ فكيف يمكن أن يقع مثل هذا التحول الطبيعي كما ذكر، فسلالة القرود لا علاقة لها بسلالة الإنسان كما بين ذلك القرآن وأثبتته العلم الحديث.

موقف العلماء المعاصرين من نظرية النشوء والتطور:

إن علماء المسلمين المعاصرين الذين درسوا هذه النظرية دراسة متعمقة أنكروا هذه النظرية، وأشاروا إلى خطرها وفسادها من الناحية الفكرية، واستدلوا على ذلك بأقوال طائفة كبيرة من علماء الغرب، وأشاروا إلى آثارها المدمرة التي ألحقت أعظم الأخطار على الحياة الفكرية والخلقية والاجتماعية، وإلى معارضتها لما هو مقرر شرعاً^(٢)^(٣)، وقد أفتى جماعة من العلماء بعدم جواز تعلم هذه النظرية؛ لخطرها على المسلم في دينه ودنياه، ولما فيها من فتنة، ومضرة، ومضيعة وقت^(٤).

١- انظر: شوائب التفسير في القرن الرابع عشر الهجري ص ٢١١.

٢- انظر: الموسوعة العربية العالمية ٣٥٨/٢٥، ٣٥٩. ويمكن الرجوع إلى الكتب التي ألفت في نقد هذه النظرية، ومنها: (توحيد الخالق لعبد المجيد الزنداني)، (العقيدة في الله لعمر سليمان الأشقر)، و(الإسلام في عصر العلم لمحمد فريد وجدي)، و(مجلة الأزهر، المجلد الثاني، السنة ٤٨، ص (١٣٤١-١٣٤٨)).

٣- وصدرت الفتاوى المبينة لبطالانها ومناقضتها لما ورد شرعاً، ففي فتاوى اللجنة الدائمة: «نظرية التطور المعروفة بنظرية (داروين) مخالفة لكتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، ولإجماع أهل العلم والإيمان»، وفي فتاوى الشبكة الإسلامية: «نظرية التطور أو النشوء والارتقاء نظرية باطلة من أصلها، وتتناقض الشرع الحنيف، كما تباين العقل الصحيح، وقد فندها علماء المسلمين وغيرهم بالأدلة العقلية فضلاً عن الأدلة النقلية»، وفي فتاوى محمود شلتوت: «نظرية لم يرفضها رجال الدين ترمناً أو تعسفاً، وإنما رفضوها على أساس من الدين ونصوصه الواضحة، وعلى أساس مما قرره الدين في رفض ما لم يدل عليه برهان، أو يشهد بصحته حس أو تجربة... فلو كان خلق الإنسان بطريق الارتقاء عن نوع آخر، لكان الحديث الذي ساقه القرآن عن خلقه حديثاً لا يطابق الحقيقة ولا يتفق والواقع، وهو حديثٌ صريح لا يحتمل غير مدلوله المفهوم من عباراته وألفاظه».

٤- انظر: فتاوى اللجنة الدائمة للإفتاء ٨٨/١٢.

المطلب الثالث: موقف علماء الغرب من نظرية النشوء والتطور

اختلف موقف علماء الغرب من نظرية النشوء والتطور ما بين مؤيدٍ وناقِدٍ لها.

الفريق المؤيد للنظرية:

إن هذه النظرية لما ظهرت وجدت لها أنصاراً من العلماء، آمنوا بها، ونشروها، ودافعوا عنها، وعقبوا عليها، وسعوا إلى تدعيمها، وسأكتفي فقط بذكر أبرزهم، وهم: * (جليان هكسلي): ظهر في القرن العشرين، وهو الذي يقول عن النظرية: «هكذا يضع علم الحياة الإنسان في مركز مماثل لما أنعم به عليه كسيد للمخلوقات كما تقول الأديان»، ويقول: «من المسلم به أن الإنسان في الوقت الحاضر سيد المخلوقات؛ ولكن قد تحل محله القطة أو الفأر»، ويزعم أن الإنسان قد اختلق فكرة الله إبان عصر عجزه وجهله، أما الآن فقد تعلم وسيطر على الطبيعة بنفسه، ولم يعد بحاجة إليه، فهو العابد والمعبود في آنٍ واحد، ويقول: «بعد نظرية (داروين) لم يعد الإنسان يستطيع تجنب اعتبار نفسه حيواناً».

* (د.ه. سكوت): وهو شديد التعصب لهذه النظرية، يقول: «إن نظرية النشوء جاءت لتبقى، ولا يمكن أن نتخلى عنها حتى لو أصبحت عملاً من أعمال الاعتقاد».

* الفيلسوف (برتراند راسل): إذ يشيد بالأثر الدارويني مركزاً على الناحية الميكانيكية في النظرية، فيقول: «إن الذي فعله (جاليليو) و(نيوتن) من أجل الفلك فعله (داروين) من أجل علم الحياة».

* (ليكونت دي نوى): وهو من أشهر التطوريين المحدثين، وهو في الحقيقة صاحب نظرية تطورية مستقلة.

* (جان روستان): إذ يقول: «إن قضية التطور أصبحت بالنسبة إلى أنصارها محلولة بالتمام والكمال وبصورة نهائية، إننا نملك الآن تفسيراً كاملاً لها عن طريق الاصطفاء الطبيعي والانتقال»^(١).

ومن الجدير بالذكر هنا بيان أن مجموعة من أنصار هذه النظرية ومؤيديها لم يقبلوها لأنها صحيحة في ذاتها، أو لأنه يمكن البرهان على صحتها بطرق صحيحة سليمة ومنطقية وعلمية، بل لأن عدم الإيمان بها يقود إلى خيار آخر لا يرتضونه، ألا وهو القول بأن الله ﷻ هو الذي خلق الخلق، وهم يفرون من هذا؛ لأنهم يُضمرون في أنفسهم الإلحاد أو يعلنونه، يقول (آرثر كيت): «إن نظرية النشوء والارتقاء لا زالت بدون براهين، وستظل كذلك، والسبب الوحيد في أننا نؤمن بها هو أن البديل الوحيد الممكن لها هو الإيمان بالخلق المباشر، وهذا غير وارد على الإطلاق»، وهو تطوري متعصب، يعترف بأن هذه النظرية لا تزال حتى الآن بدون براهين فيضطر إلى كتابتها من جديد.

وختم (بيريل) كتابه بقوله: «قد يمكن ألا توجد الدلائل قط، وهذا لا يهمننا أبداً؛ لأننا في هذا البحث نعوص في عالم الأحلام»^(٢).

بل إن مجلة العلوم الأمريكية قد كتبت في عددها الصادر في يناير ١٩٦٥م تقول: «إن جميع علماء التطور لا يتورعون عن اللجوء إلى أي حيلة لينسجوا أدلة وهمية لإثبات ما ليس لديهم عليه من دليل»^(٣).

١- انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ٩٢٥/٢، وكتاب خلق لا تطور لمجموعة من العلماء ص ٢٩، ٥٨.

٢- انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ٩٢٥/٢، والموسوعة العربية العالمية ٣٥٨/٢٥، وكتاب خلق لا تطور لمجموعة من العلماء ص ٥٩.

٣- انظر: كتاب خلق لا تطور لمجموعة من العلماء ص ١١٤.

الفريق الناقد للنظرية

أما الناقدون فقد ظهر منهم الكثير ممن أبطلوا زيف هذه النظرية، إما بأقوالهم، وإما بما اكتشفوه مؤخراً، ومنهم المطالبون بدليل محسوس على (الانتخاب الطبيعي) في تحويل الأنواع لا سيما الإنسان، وهذا عرض لمجموعة منهم:

* الفرنسي (مونييه) عندما أراد أن يرد على الخرافات التي يقولونها في أصل الإنسان، قال: «أنا أعجب ممن يفكرون هذا التفكير، هل توجد المصادفة ما نسميه ذكراً؟! ثم توجد المصادفة شخصاً نسميه أنثى؟! ويكون من جنسه لكنه مختلف معه في النوع بحيث إذا التقيا معا جاءا بذكر كالأول أو بأنثى كالثاني؟ كيف تفعل المصادفة هذه العملية؟ أي مصادفة هذه؟ وهل هي عاقلة وحكيمة؟ سموها مصادفة، ونحن نسميها الله^(١).

* (دالاس) الذي قال: «إن الارتقاء بالانتخاب الطبيعي لا يصدق على الإنسان، ولا بد من القول بخلقه رأساً».

* (فرخو) الذي قال: «إنه يتبين لنا من الواقع أن بين الإنسان والقرود فرقاً بعيداً، فلا يمكننا أن نحكم بأن الإنسان سلالة قرد أو غيره من البهائم، ولا يحسن أن نتفوه بذلك».

* (ميفرت) القائل بعد أن نظر في حقائق كثير من الأحياء: «إن مذهب (داروين) لا يمكن تأييده، وإنه رأي من آراء الصبيان».

* البروفيسور (واطسون) من جامعة لندن يقول: «إن علماء الحيوان يؤمنون بالنشوء لا كنتيجة للملاحظة أو الاختيار أو الاستدلال المنطقي؛ ولكن لأن فكرة الخلق المباشر فكرة بعيدة عن التصور»، أي أنها بعيدة عن أذهان النصارى الذين يزعمون أن الله مكون من ثلاثة وهو واحد، وأن ٣=١.

١- تفسير الشعراوي ٤/١٩٨٨.

* (فون بسكون) فبعد أن درس هو و(فرخو) تشريح المقابلة بين الإنسان والقرد قال: «إن الفرق بين الاثنين أصلي وبعيد جداً».

* (أغاسير) الذي قال في رسالة في أصل الإنسان تليت في ندوة العلم الفيتكورية ما خلاصته: «إن مذهب (دارون) خطأ علمي باطل في الواقع، وأسلوبه ليس من العلم في شيء، ولا طائل تحته».

* (هكسلي) وهو صديق (داروين) قال: «إنه بموجب ما لنا من البيانات لم يتبرهن قط أن نوعاً من النبات أو الحيوان نشأ بالانتخاب الطبيعي أو الانتخاب الصناعي».

* (تندل) وهو مثل (هيكل) قال: «إنه لا ريب في أن الذين يعتقدون بالارتقاء يجهلون أنه نتيجة مقدمات لم يعلم بها، ومن المحقق عندي أنه لا بد من تغيير مذهب (دارون)».

* (فيالتون) عميد كلية الطب بجامعة مونتبلييه، وأستاذ علم الأجنة فيها.

* (كاترفاج) مدير متحف التاريخ الطبيعي بباريس، وهو القائل: «إننا لا نعلم كيف تكونت الأنواع الحية، إننا نعلم فقط أنها غير قابلة للتحول، وإننا على يقين بأن (دارون) و(لامارك) لم يكتشفا الناموس الحقيقي لطريقة تكوينها»^(١).

* الفسيولوجي (تهميسيان) العالم الملحق باللجنة المركزية للطاقة النووية يقول: «إن العلماء الذين يؤكدون على أن التطور واقع علمي هم منافقون، و إنما يروونه من أحداث إنما هو من الشعوذات التي ابتدعت ولا تحتوي على نقطة واحدة من الحقيقة»، وقد وصف هذه النظرية بأنها (خليطة مضطربة من الأحاجي وشعوذة الأرقام).

١- انظر: توحيد الخالق للزنداني ص ٢٧٦، ٢٧٧.

- * (كلو تز) رئيس فرع العلوم في إحدى الجامعات إذ يقول: «إن الاعتقاد بالتطور يحتاج إلى كثير من السذاجة»^(١).
- * (آغاسيرز) في إنجلترا، وأوين في أمريكا: «إن الأفكار الداروينية مجرد خُرافة علمية، وأنها سوف تنسى بسرعة».
- * (كريسي موريسون) بقوله: «إن القائلين بنظرية التطور لم يكونوا يعلمون شيئاً عن وحدات الوراثة (الجينات)، وقد وقفوا في مكانهم حيث يبدأ التطور حقاً، أعني عند الخلية».
- * (أنتوني ستاندين) صاحب كتاب (العلم بقرة مقدسة) يناقش الحلقة المفقودة وهي ثغرة عجز الداروينيون عن سدها فيقول: «إنه لأقرب من الحقيقة أن تقول: إن جزءاً كبيراً من السلسلة مفقودة وليس حلقة واحدة، بل إننا لنشك في وجود السلسلة ذاتها».
- * (ستيوارت تشيس) الذي يقول: «أيد علماء الأحياء جزئياً قصة آدم وحواء كما ترويبها الأديان، وأن الفكرة صحيحة في مجملها».
- * (أوستن كلارك): «لا توجد علامة واحدة تحمل على الاعتقاد بأن أيّاً من المراتب الحيوانية الكبرى ينحدر من غيرها، إن كل مرحلة لها وجودها المتميز الناتج عن عملية خلق خاصة متميزة، لقد ظهر الإنسان على الأرض فجأة، وفي نفس الشكل الذي تراه عليه الآن».
- * العالم الفلكي (هرشل) ومعظم أساتذة الجامعات في القرن الماضي.
- * (باستور) إذ أبطل أسطورة التوالد الذاتي، وكانت أبحاثه ضربة قاسية لنظرية التطور^(٢).

١- كتاب خلق لا تطور لفريق من العلماء ص ١٩، ٢٠.

٢- انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ٢/٩٢٩.

* (جوستاف جوليه): إذ يقول مبيناً العقبات التي يرتطم بها مذهب النشوء والارتقاء: «تتحصر في خمسة أمور:

أ- أن العوامل التي يقوم عليها هذا المذهب قد ظهر عجزها في تعليل أصل الأنواع.

ب- تبين عدم كفايتها لتعليل وجود الحشرات.

ج- تبين عدم غنائها في تفسير التحولات الفجائية المولدة لأنواع جديدة.

د- اتضح قصورها عن تعليل تولد طبائع الأنواع الجديدة وثبوتها نهائياً، وقد ثبت أنها متى تولدت فيها بسرعة تبقى ثابتة لا تتغير.

هـ- ثبت عجزها عن تفسير عوامل التطور الذي تدخل فيه الكائنات فتحولها من حالة ساذجة إلى حالة مركبة، وتدفعها من النقص إلى الكمال»^(١).

* نقل الدكتور (موريس بوكاي) في كتابه (ما أصل الإنسان) عن (جراسيه) الذي كتب كتاباً عنوانه (الإنسان متهماً) قال في هذا الكتاب: «تعد الداروينية أكثر المبادئ عداء للدين، وأكثر المذاهب إيغالاً في المادية، ومردُّ ذلك إلى التوجيهات الأساسية التي قامت عليها، وإلى الاستنتاجات النهائية التي وصلت إليها»^(٢).

* الأمريكي (Maxwell)، فقد ذكر في كتابه (العلم يعود إلى الله) ١٩٧٠م أن نظرية دارون قد استنفدت أغراضها في زمن إعلانها، حيث كان يسود فكر العصر الفيكتوري في إنجلترا، ولما كانت شتى العلوم قد استحدثت فيها الكثير من الإضافات العلمية التي تميزت معالمها تقف عندما كان معروفاً في أوائل القرن التاسع عشر، وقياساً على ذلك فإنه لا بد من مراجعة مدى سريان نظرية التطور؛ لأنها قد أصبحت لا تتلاءم مع مستحدثات العلم في القرن العشرين، فضلاً عن مطلع القرن الواحد والعشرين.

١- انظر: دارون وأصل الإنسان، لعطية صقر، فتوى منشورة على موقع وزارة الأوقاف المصرية: <http://www.islamic-council.com>.

٢- الموسوعة العربية العالمية ٢٥/٣٥٩.

* عالم الطبيعة البيولوجية الأميركي (Morowitz) عام ١٩٧٩م، فقد كتب أنه أمرٌ مخزٍ للإنسان أن يسرح بذهنه ليتصور أنه من سلالة قرد عريان غير عاقل، ويضيف إنه لذلك كان طبيعياً أن القس البريطاني (Wiberforce) حين اشترك في مناظرة عن نظرية دارون للتطور أمام (جوليان هكسلي) الكاتب والفيلسوف البريطاني الملحد، كان طبيعياً أن يستطرد القس في مناقشته فيسأل (هاكسلي)، ترى هل كان عن طريق جده لأمه أم جده لأبيه ما اتصل بنظرية (دارون) من أن أصله من نسل قرد؟ ويعلق (مورفيتز) أنه من المؤلم أن يظل الإنسان الذي أقام الحضارة وأضاف العديد من المبتكرات والتكنولوجيا تحت وطأة أنه من سلالة قرد أبله، ويضيف أن الإنسان المادي والذي لم يسعده عالمه المادي في حاجة الآن إلى أن يعود ويقرن عالم الروح بالمادة ليصبح إنساناً غير حيوان.

* (البرت أينشتين ١٨٧٩-١٩٥٥م)، صاحب قوانين النسبية منذ عام ١٩٠٥م، وما ارتبط بها من تحديث قوانين الطاقة وميكانيكا الكم الدقيق والطبيعة النووية، وتلك القوانين تؤكد على أن صور ومقدار الطاقة في الكون محكومة بقوانين كمية ثابتة يمتنع معها حدوث أي تفاعل تلقائي أو مصادفة، ولذلك فقد كان (أينشتين) العالم الألماني -الذي هاجر إلى الولايات المتحدة هرباً من النازية- دائماً حريصاً على الإيمان بالأديان والكتب السماوية، وقال: «إن تعاليم التوراة والإنجيل هي الملاذ الذي يجب أن يلجأ إليه الإنسان حتى لا يضل طريقه وهدفه في الحياة»، وكلامه هذا فيه تعارض مع نظرية النشوء والتطور^(١).

١- انظر: الخلق بين الحقائق القرآنية والنظريات البشرية لعبدالخالق السباعي، منشور في مجلة الإعجاز العلمي الصادرة عن الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، العدد ٢١، ١٤٢٦هـ.

المطلب الرابع: تنفيذ نظرية النشوء والتطور عقلياً وعلمياً

نظرية لا حقيقة:

لقد أُطلق على ما قالوه بشأن النشوء والارتقاء (نظرية التطور)، وهناك فرق كبير بين النظرية والحقيقة، فالنظرية تحتمل التصديق والتكذيب، أما الحقيقة أو القانون فلا يحتمل وجهاً من أوجه الباطل^(١).

والعجيب ممن يصف هذه النظرية المهترئة بالحقيقة مع أن (داروين) المطور لهذه النظرية والذي بولغ في نسبة النظرية إليه يقول في الفصل السادس من كتابه (أصل الأنواع): «إني لا أشك بأن اعتراضات كثيرة قد خطرت ببال القارئ قبل أن يصل إلى هذا الفصل من كتابي، وبعض هذه الاعتراضات خطير إلى حد أنني حتى اليوم لا أفكر بها إلا وتعتريني هزة»، فهل يكون التطور حقيقة واقعة بينما (داروين) نفسه يهتز للاعتراضات الواردة على هذه النظرية التي لا تستند إلى اكتشاف علمي، بل تستند مثلما صرح (داروين) نفسه إلى تسلسل منطقي، واعترف أن النظرية تواجه مشكلات كثيرة بخصوص أسئلة مهمة لا تستطيع الإجابة عليها، بل كان يعتقد أن تقدم العلم كفيل بحل هذه المشكلات، وأن العلم سيؤيد نظريته ويسندها، كما كرر هذا القول عدة مرات في كتابه، غير أن التقدم العلمي خلافاً لتوقعاته قد سحب البساط من تحتها، وسيأتي بيان ذلك في تنفيذ أسسها^(٢).

١- انظر: كتاب توحيد الخالق للزنداني ص ٢٧٧.

٢- انظر: كتاب خلق لا تطور لمجموعة من العلماء ص ١٦، ومعجزة خلق الإنسان لهارون يحيى ص ١٦٢.

النظرية لا يؤيدها الواقع المشاهد

* لو كانت النظرية حقاً لشاهدنا كثيراً من الحيوانات والإنسان تأتي إلى الوجود عن طريق التطور، لا عن طريق التناسل فقط، وإذا كان التطور يحتاج إلى زمن طويل فذلك لا يمنع من مشاهدة قرود تتحول إلى آدميين في صورة دفعات متوالية كل سنة، أو كل عشر سنوات، أو كل مائة سنة!!

* لو سلمنا أن الظروف الطبيعية والانتخاب الطبيعي قد طورت قرداً إلى رجل مثلاً، فإننا لن نسلم أبداً بأن هذه الظروف قد قررت أيضاً أن تكون امرأة لذلك الرجل ليستمر في التناسل والبقاء مع الموازنة بينهما.

* إن القدرة على التكيف التي نشاهدها في المخلوقات كالحرباء مثلاً التي تتلون بحسب المكان هي مقدرة كامنة في تكوين المخلوقات تولدت معها، وهي عند بعضها وافرة، وعند البعض الآخر تكاد تكون معدومة، وهي عند جميع المخلوقات محدودة لا تتجاوز حدودها، فالقدرة على التكيف صفة متطورة تكونها البيئة كما يزعم أصحاب النظرية، وإلا كانت البيئة فرضت التكيف على الأحجار والأتربة وغيرها من الجمادات.

* تمتاز الضفادع على الإنسان بمقدرة على الحياة في البر والماء، كما تمتاز الطيور عليه بمقدرة على الطيران المباشر والانتقال السريع وذلك بدون آلة، كما أن أنف الكلب أشد حساسية من أنف الإنسان، فهل أنف الكلب أكثر رقياً من أنف الإنسان؟ وهل الضفادع والطيور أرقى من الإنسان في بعض الجوانب؟

* كما أن عين الجمل أو الخيل أو الحمار ترى في النهار وفي المساء على السواء في حين تعجز عين الإنسان عن الرؤية في الظلام، كما أن عين الصقر أشد من عين الإنسان، فهل الصقر أو الحمار أرقى من الإنسان؟ وإذا أخذنا

الاكتفاء الذاتي أساساً للرقى كما هو بالنسبة لحال الدول فإن النبات عندئذ يفوق الإنسان وجميع الحيوانات؛ لأنه يصنع طعامه وطعام غيره دون أن يحتاج لغذاء من غيره.

وإذا أخذنا الضخامة أساساً للرقى، عندئذ يجب أن يكون الجمل والفيل وحيوانات ما قبل التاريخ الضخمة أرقى من الإنسان^(١)!!

* أيضاً يقال لأصحاب التطور: إن الأمور التي أثرت في القرد الأول ليكون إنساناً، لماذا لم تؤثر في بقية القردة ليكونوا أناساً، وينعدم جنس القردة؟! وهذا سؤال لا يجيبون عليه^(٢).

تفنيد أسس وفرضيات النظرية:

* أما علم الحفريات فلا يزال ناقصاً، فلا يدعي أحد أنه قد أكمل التنقيب في جميع طبقات الأرض وتحت الجبال والبحار، فلم يجد شيئاً جديداً ينقض المقررات السابقة، وعلى فرض ثبات مقررات هذا العلم فإن وجود الكائنات الأولى البدائية أولاً ثم الأرقى ليس دليلاً على تطور الكائنات الراقية من الكائنات الأدنى، وليس هناك دليل على أن الظروف الطبيعية تنشئ صفات جديدة متسقة محكمة، كما أن علم الحفريات -على افتراض صحة وثبات الترتيب الذي فيه- فإنه يعطي نتيجة واحدة هي: أن الحيوان الأرقى جاء من الحيوان الأدنى، فمثلاً لو أن باحثين في طبقات الأرض جاءوا بعدنا بعد مليون عام، فعثروا في الطبقات الأولى على بقايا عربة يد، وفي الثانية بقايا عربة خيل، وفي الثالثة بقايا سيارة حديثة، وفي الخامسة بقايا طائرة حديثة، وفي السابعة بقايا صاروخ، وفي الثامنة بقايا سفينة فضائية،

١- انظر: كتاب توحيد الخالق للزنداني ص ٢٧٤، ومعجزة خلق الإنسان لهارون يحيى ص ١٧٠، ١٧٢.

٢- انظر: تفسير الشعراوي ٤/١٩٨٧.

فهل يدل هذا الترتيب الزمني في الظهور على أن عربة اليد قد تطورت بفعل الظروف الطبيعية إلى سفينة فضاء؟ أم أن هذا الترتيب الزمني يدل فقط على أن عربة الخيل جاءت بعد عربة اليد، وليس منها، وكذلك الترتيب الزمني لوجود الكائنات الأرقى بعد الأدنى لا يدل على أن الأرقى جاء بعد الأدنى، ولا يدل على أنه تطور منه، يقول البروفيسور (كيث): «إننا لا نستطيع أن ننسب الإنسان إلى أي من هذه الأنواع»، ويقول البروفيسور (و.برانكو): «إن علم (الباليونتولوجيا) لا يعرف للإنسان أسلافاً»^(١).

بل إنه قد تبين بعد التدقيق في تلك الحفريات أن الوثائق التي جمعت في هذا المجال لم تكن كافية ولا دقيقة، وبهذا يعترف داروين نفسه حين يقول: «على الرغم من أهمية الأحافير دليلاً على حدوث التطور، فإن السجل الجيولوجي أشبه ما يكون بكتاب فقدت بعض صفحاته ولم يبق منه سوى صفحات قليلة متناثرة، وفي تلك الصفحات الباقية لم يبق إلا كلمات قليلة في كل صفحة».

ويقول هويل من قيمة أدلة الأحافير على التطور مشككاً في صلة الشواهد بالنظرية، فيقول: «إن الأدلة والشواهد التي أُعطيت لدعم النظرية من الأحافير مثل توالي ازدياد حجم جسم الحصان، صلتها ضعيفة بالنظرية؛ ذلك لأنها تخص حيوانات ذات تركيب وراثي واحد متشابه، فضلاً عن أن هذا التوالي قد يكون حدث بسبب خارجي كالتغذية مثلاً»^(٢).

والواقع أن ما يدعى أنه السلف المباشر للإنسان لا يزال مجهولاً، إذ أنه لم يعثر أحد حتى الآن على بقايا السلف المباشر للإنسان، أي على الكائن البشري البدائي الأكثر شبيهاً بالقرود، والذي يفترض أنه انحدر منه، كما أننا لم نجد حتى الآن، كما

١- انظر: كتاب توحيد الخالق للزنداني ص ٢٦٩.

٢- الموسوعة العربية العالمية ٢٥/٣٥٦.

يقول (لانجر) آثاراً مؤكدة للحيوان الذي انحدر منه الإنسان والقرود الشبيهة بالإنسان كما يزعمون، وهو ما يشتهر باسم الحلقة المفقودة^(١).

أما ما يسمى بإنسان جاوه الذي اكتشفه (دبوا ١٨٩١م) ليس الذي يدندن حوله النشويون، وليس كما يصفونه، فلقد أثبت (البروفيسور فيرشو) في المؤتمر الثالث الذي انعقد في (ليد) بأن عظمة الجمجمة التي تنسب إلى إنسان جاوه ما هي إلا قطعة من جمجمة شمانزي وأن عظمة الفخذ هي الرجل.

وأما إنسان (بيلتون) فقد جُمع من شظايا جمجمة إنسان، وفك من بقايا شمانزي كما أثبت ذلك التقرير الذي وضعه البروفيسور (هرديكا).

أما (أرثر كيث) فقد أكد أن ضم هذه الشظايا يفترض أنها لمخلوق لا يستطيع أن يتنفس أو يأكل، ويؤكد (البروفيسور فيرشو) أن فكرة القرود الإنسان هي محض خرافة، ويقول الدكتور (سوريل) في كتابه (تصدع مذهب دارون): «إن الحلقات المفقودة ناقصة بين طبقات الأحياء، وليست بالناقصة بين الإنسان وما دونه فحسب، فلا توجد حلقات بين الحيوانات الأولية ذات الخلية الوحيدة والحيوانات ذوات الخلايا المتعددة، ولا بين الحيوانات الرخوة ولا بين المفصليّة، ولا بين الحيوانات اللافقرية والفقريّة، ولا بين الأسماك والحيوانات البرمائية، ولا بين الأخيرة والزحارف، والطيور، ولا بين الزحافات والحيوانات الأديمية، وقد ذكرتها على ترتيب ظهورها في العصور الجيولوجية»، ويقول (الكونت دي نوي): «كل مجموعة، كل فصيلة تبدو وكأنها جاءت إلى الوجود فجأة؛ إننا لم نعثر على أي شكل انتقالي، ومن المستحيل أن ننسب أي مجموعة حديثة إلى أخرى أقدم»^(٢).

١- انظر: الموسوعة العربية العالمية ٢٥/٣٥٦، ٣٥٧، ومعجزة خلق الإنسان لهارون يحيى ص ١٧٤.

٢- انظر: كتاب توحيد الخالق للزنداني ص ٢٧٠.

لقد اقتصر اهتمام دعاة التطور على الأحافير وأهملوا أو تجاهلوا كثيراً من الكشوف التي تهدم نظريتهم في التطور، فهناك في الواقع كثير من الكشوف لهياكل حيوانات راقية تعود إلى حقب قديمة، ولم يهتم بها دعاة التطور؛ لأنها تتناقض نظريتهم، فقد أعلن (جوهانس ووكر) عام ١٩٥٦م عن اكتشاف قطعة فحم حجري بها فك إنسان يرجع إلى عشرة ملايين عام، وهي أقدم قطعة من بقايا الإنسان في العالم، وتوجد بمتحف بال بسويسرا، وصرح (ووكر) أنه لا يوجد أدنى دليل على أن الإنسان من سلالة القردة، كما أعلن (ريتشارد ليكي) مدير المتحف الوطني بكينيا في نوفمبر عام ١٩٧٢م أمام الجمعية الجغرافية الوطنية في واشنطن، عن اكتشاف بقايا جمجمة بشرية يعود تاريخها إلى مليونين ونصف مليون سنة مضت، وعلى هذا فإن هذه الجمجمة تعد أقدم بنحو مليون ونصف مليون عام من أقدم أثر أمكن العثور عليه حتى ذلك الحين، وقد تم اكتشاف عظام ساق ترجع إلى تلك الفترة التاريخية ذاتها في جبل حجري بإحدى الصحاري شرقي بحيرة رودلف بكينيا^(١).

ونشر فريق علماء الأنثروبولوجي المكون من عشرة مختصين بقيادة Tim White الأستاذ في جامعة كاليفورنيا بيركلي العام ١٩٨٧م، نتائج دراساتهم المضنية لفحص ٣٠٢ من هياكل وعظام الحفريات Fossils لما سُمِّي ببقايا إنسان ما قبل التاريخ الذي يفترض أنه عاش في جنوب شرق أفريقيا منذ أكثر من ١.٥ مليون عام، والذي يسمَّى Homo habilis والذي كان يعتقد أن له صلة النسب في التطور بين الإنسان الحالي كما نعرفه وبين أجداده المزعومة من القرد أو الغوريلا أو الشمبانزي، وقد أثبتت نتائج دراسة الفريق الأميركي أن ما سُمِّي

١- انظر: الموسوعة العربية العالمية ٢٥/٣٥٧.

بإنسان ما قبل التاريخ يختلف تماماً عن الإنسان الحالي لأن العظام قد أثبتت أنه يتحرك على أربع وأنه ليس منتصب القوام كالإنسان، كما أن طوله أقصر بشكل واضح، كما أن عظام الرأس وتجويف المخ تختلف تماماً عن الإنسان الحقيقي، وقد اختتم فريق علماء الانثروبولوجي الأميركي تقريرهم العلمي في العام ١٩٨٧م بأن هناك فرقاً شاسعاً يعكس فراغاً واضحاً زمنياً وتشريحياً من ناحية التطور بين ما سُمي بإنسان ما قبل التاريخ والإنسان الحقيقي، وأنه من المقطوع به أن هناك تغييراً درامياً ضخماً قد حدث نتج منه ظهور الإنسان على الأرض بحيث يصعب تصور ارتباط الإنسان الحقيقي بما يفترض أنه نشأ من نسلهم، حيث إن الإنسان الحالي متميز تماماً ظاهرياً وتشريحياً وسلوكياً وعقلاً وقدرة وملكات عن أي كائن آخر^(١).

والواقع أن هذه الاكتشافات العلمية تدل على أن الإنسان لم يتطور عن كائن أكثر بدائية أو أنه انحدر من سلالة الادميات الشبيهة بالقرود^(٢)، وتدل على أن علم الحفريات متغير لا يُبنى عليه دليل قطعي، وأنه قد يكشف في الغد من الحقائق عكس ما كنا نؤمل؟.

* أما تشابه أجنة الحيوانات، فذلك خطأ كبير وقع فيه نتيجة لعدم تقدم الآلات المكبرة التي تبين التفاصيل الدقيقة التي تختلف بها أجنة الحيوانات بعضها عن بعض في التكوين والتركيب والترتيب، إلى جانب التزييف الذي قام به واضع صور الأجنة المتشابهة العالم الألماني (أرنست هيكل)، فإنه أعلن بعد انتقاد علماء الأجنة له أنه اضطر إلى تكلمة الشبه في نحو ثمانية في المائة من صور الأجنة لنقص الرسم المنقول، وقال: «عدداً من رسومي كانت تزويراً محضاً، وإن

١- انظر: الخلق بين الحقائق القرآنية والنظريات البشرية للسباعي، منشور في مجلة الإعجاز العلمي، في العدد الحادي والعشرين، ١٤٢٦هـ.

٢- انظر: الموسوعة العربية العالمية ٣٥٧/٢٥.

مئات من علماء الحيوان قد ارتكبوا نفس الخطيئة» جاء هذا في مجلة (الجمالين زيتونج . ميونخ)^(١).

والتطور في علم الأجنة كشف عن ضعف الحجة التي استند إليها دعاة التطور من أن التشابه في الأجنة دليل على تحول الأنواع من عالم الحيوان أو عالم النبات، وقد نفت وسائل الكشف العلمي الحديث هذا الشبه، وأوضحت أن هناك اختلافاً في أجنة الحيوان في تفاصيلها التكوينية الدقيقة، كما كشف علماء الأجنة والأحياء أن كل جنس من أجناس الكائنات الحية يتكون من مجموعة خلايا، وأن نواة كل خلية من خلايا الإنسان تتكون من ٤٦ كروموزوماً (صبغياً)، وهو عدد ثابت في كل خلية من خلايا الإنسان؛ فإن زاد العدد أو نقص تعرض الإنسان لخلل عقلي أو اضطراب خَلقي، وبفحص خلايا القرد وجد هؤلاء العلماء أن نوى خلاياه تتكون من ٤٤ كروموزوماً، وهو عدد ثابت في نوى خلايا القرد لا يزيد ولا ينقص، وهذه الكروموزومات أو الصبغيات هي التي تحدد النوع، وهي العامل الرئيسي الذي يُحدّد صفات كل كائن حي، كما أثبت علم الأجنة أن عوامل الوراثة تجعل من المستحيل تطور نوع إلى نوع آخر؛ لأن هناك عوامل وراثية كامنة في خلية كل نوع تحتفظ له بخصائص نوعه، وتحتّم أن يظل في دائرة النوع الذي نشأ منه، ولا يخرج قط عن نوعه ولا يتطور إلى نوع جديد، فالقط أصله قط، وسيظل قطاً على الدوام بمشيئة الله ﷻ، وكذلك الكلب والثور والحصان والقرد والإنسان، وكل ما يمكن أن يقع حسب نظريات الوراثة فهو الارتقاء في حدود النوع الواحد دون الانتقال إلى نوع آخر^(٢).

١- انظر: كتاب توحيد الخالق للزنداني ص ٢٧١.

٢- انظر: الموسوعة العربية العالمية ٢٥/٣٥٦.

وفي مارس ١٩٨٩م، نشرت مجلة (Science) الأميركية تقريراً عن مشروع قومي ممول من وزارة الصحة الأميركية بميزانية قدرها ثلاثة بلايين من الدولارات ولفترة زمنية مقدرة بخمسة عشر عاماً، ويهدف المشروع إلى وضع خريطة توضح مكنون التركيب الجزيئي للحامض النووي في جينات جسم الإنسان والمسؤولة عن نقل صفاته الوراثية، وقد ذكر التقرير أن جسم الإنسان يحتوي على مائة تريليون خلية (10×10^{14}) من الخلايا الحية يحوي كل منها (DNA) في جينات كروموزومات النواة فيما عدا خلايا الدم الحمراء والتي لا تحتوي نواة منها، ومن العجب أن يتماثل DNA في الفرد نفسه من الإنسان في هذه الآلاف من البلايين من الخلايا؛ ولكنها تختلف تماماً عن أي إنسان آخر، و (DNA) مع البروتينات والإنزيمات المتخصصة تكوّن الجينات التي بدورها تكون الكروموزومات الثابتة العدد في كل نواة تحتوي ٤٦ كروموزوماً.

ورغم تماثل الكروموزومات في الشكل، إلا أنها تتفاوت في وظائفها ودورها في توريث مختلف الصفات، وكل كروموزوم يمكن تمثيله بخيط طوله خمسة أقدام وقطره (10×10^{-7}) بوصة هل يمكن أن يحدث كل ذلك مصادفة وتلقائياً؟

ويستطرد التقرير ليوضح أن خلية بكتريا (E.Coli) يحوي جزيء (DNA) فيها ٤,٥ مليون وحدة من الأحماض الأمينية المرتبطة بنسق ثابت، بينما في خلية الخميرة نجد أن جزيء (DNA) فيها يحوي ١٥ مليون وحدة من الأحماض الأمينية، أما جينات الإنسان فتحوي كل منها ٣ بليون وحدة، وعدد الجينات في الإنسان تبلغ مائة ألف من الجينات لكل كروموزوم، ولم يتيسر حتى الآن التعرف إلى أكثر من ٤٥٠٠ من تلك الجينات، ومن بينها أمكن تحديد موقع ١٥٠٠ جين فقط على الكروموسومات المختلفة، أي أننا أمامنا أمد طويل لفهم مجرد تركيب

خلايا الإنسان ورسم خريطة كاملة لها، أليس ذلك أدعى لأهل العلم أن يتواضعوا لقدرة الله الخالق البارئ المصور ﷻ، وهم بحكم علمهم أكثر الناس معرفة بتلك القدرة الفائقة، وصدق الله العظيم القائل: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾^(١)، فإذا كنا لا نستطيع أن نزعم أن مصنعا للتكنولوجيا الحيوية قد ظهر مصادفة وبصورة تلقائية في مكان ما، وأصبح مستمرا في إنتاجه من دون العقل المدبر أو قوة الطاقة القادرة، فكيف نركن إلى القول: إن الحياة والإنسان كانا وليدي المصادفة؟!^(٢).
 لقد أثبت علم الجينات والكروموسومات وعلم الخلايا والهندسة الوراثية، أن الإنسان ظهر على وجه الأرض إنسانا سوياً به الصفات الكاملة المتميزة بالخلق عن غيره من المخلوقات^(٣).

* أما وجود الزائدة الدودية في الإنسان كعضو أثري للتطور القردي، فليس دليلاً قاطعاً على تطور الإنسان من القرد، بل يكون سبب وجودها هو وراثتها من الإنسان الجد الذي كان اعتماده على النباتات، فخلقت لمساعدته في هضم تلك النباتات، ولقد عُرف أخيراً أن الزائدة تقوم بوظيفة صمام أمن ضد العفونات في الأمعاء، كما أن العلم قد يكشف أن لها حكمة أخرى لا تزال غائبة عنا حتى اليوم، فالعلم كل يوم إلى ازدياد، وإذا كانت الخنوثة صفة من صفات الكائنات الأولية الدنيا، والزوجية من خصائص الكائنات الراقية، فإن الثدي من أمارات الأنوثة، ونجد الفيل الذكر له ثدي كما للإنسان، في حين ذكور ونوات الحافز كالحصان

١- سورة الذاريات: الآية ٢١.

٢- انظر: الخلق بين الحقائق القرآنية والنظريات البشرية للسباعي، منشور في مجلة الإعجاز العلمي الصادرة عن الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، العدد ٢١، ١٤٢٦هـ.

٣- انظر: من الذرة إلى المجرة نظرة في الكون والإنسان والحياة دراسة فلكية من وحي القرآن لحمادة أحمد العائدي ص ٥٠.

والحمار لا ثدي لها إلا ما يشبه أمهاتها، فكيف بقي أثر الخنوثة في الإنسان، و لم يبقَ فيما هو أدنى منه؟ مع أن (داروين) يزعم أن الإنسان تطور مما هو أدنى منه، يقول البروفيسور (أ.س. جودريتش) من جامعة أوكسفورد: «من حماقة القول بأن أي جزء من جسم الإنسان لا فائدة له»^(١).

وقد حاول بعض علماء الأجنّة مجازاة نظرية التطور فزعموا أن جنين الإنسان مزود بفتحات خياشيمية زائدة، وأنها تمثل مرحلة تطور الإنسان من الحيوانات المائية مثل الأسماك؛ إلا أنه أخيراً في العام ١٩٥٩م استطاع العالم (راندل شورت) الذي قضى حياته في دراسة تشريح جسم الإنسان أن يثبت خطأ هذا التفسير، وأثبت أن ما يسمى بفتحات خياشيمية ليست زائدة بل هي عبارة عن ثنيات في الأنسجة لازمة لتثبيت الأوعية الدموية في جنين الإنسان، وقد كان هذا التقنيد قاطعاً حتى إن (جوليان هاكسلي) في كتابه عن التطور في صورته الجديدة قد اضطر للتسليم بما أثبتته عالم التشريح (راندل شورت)^(٢).

* وأما وجود الشبه بين الحيوانات في تركيب أجسامها، فإنه يمكن تفسير ظاهرة التشابه بأن هذه المخلوقات خلق كل منها خلقاً مستقلاً، وهو ما يدل على وحدانية الخالق ودقة صنعه، كما أن تشابه الحيوانات في الإطار الأساسي لتكوينها يدل على وجود أسلوب واحد للخلق يبدعه خالق واحد أحد، وما زعمته النظرية من أوجه التشابه بين الإنسان والحيوان غير مسلم به؛ إذ أن علم التشريح المعاصر أثبت فروقاً هائلة بين الإنسان وبين القردة التي هي أقرب الحيوانات شكلاً إليه، تتمثل في: انتصاب القامة عند الإنسان، ودقة حاسة اللمس، والمهارة اليدوية،

١- انظر: كتاب توحيد الخالق للزنداني ص ٢٧١، ٢٧٢.

٢- انظر: الخلق بين الحقائق القرآنية والنظريات البشرية لعبدالخالق السباعي، منشور في مجلة الإعجاز العلمي الصادرة عن الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، العدد ٢١، ١٤٢٦هـ.

ونمو الدماغ، وحجم الجمجمة، والتعبير بالنطق عن الأفكار، وفوق هذا كله يتميز الإنسان بقواه العقلية والقدرة على التصور وتكوين الأفكار والتعبير عن الفكرة المعنوية المجددة، والإنسان وحده دون سائر المخلوقات يستطيع أن ينمي معلوماته، أما الحيوانات، فإنها تستطيع أن تتعلم بعض الأشياء ولكنها لا تستطيع أن تتخطى حداً معيناً، فالطيور تستطيع أن تصنع الأعشاش، والنحل يصنع الخلايا، ولكن كل هذه الحيوانات لا تستطيع أن تُدخِل أي تحسين على صنعتها، ولا يوجد حيوان استطاع أن يفيد من معلومات أجداده فهذه من مزايا الإنسان وحده، وهذه الفوارق الكبيرة بين الإنسان والحيوانات تثبت أنه لا يمكن أن تكون هناك صلة سلفية بين الإنسان الحالي وبين أي حيوان، وهذا ما جعل بعض التطوريين ينفون اندراج الإنسان تحت قانون الانتخاب الطبيعي، فيقول (والدس): «إن الارتقاء بالانتخاب الطبيعي لا يصدق على الإنسان، ولا بد من القول بخلقه خلقاً مستقلاً»، وقال (فرخو): «إنه يتبين لنا من الواقع أن بين الإنسان والقرود فرقاً كبيراً، فلا يمكننا أن نحكم بأن الإنسان من سلالة قرد أو غيره من البهائم، ولا يحسن أن نتفوه بذلك»^(١).

* أما القول إن هناك ناموساً أو قانوناً يعمل على إفناء الكائنات الحية فلا يبقى إلا الأصلح، الذي يورث صفاته لأبنائه فتتراكم الصفات القوية حتى تكوّن حيواناً جديداً، فحقاً هناك نظام وناموس وقانون يعمل على إهلاك الكائنات الحية جميعها قوياً وضعيفها؛ لأن الله قدر الموت على كل حي، إلا أن نظاماً وناموساً يعمل بمقابلة هذا النظام، ذلك هو قانون التكافل على الحياة بين البيئتين والكائن؛ لأن الله قدر الحياة فهياً أسبابها، فنجد الشمس والبحار والرياح والأمطار والنبات والجاذبية

١- انظر: الموسوعة العربية العالمية ٢٥/٣٥٥، ٣٥٦.

كل هذه وغيرها تتعاون للإبقاء على حياة الإنسان وغيره من الحيوانات، فالنظر إلى عوامل الفناء وغيض النظر عن عوامل البقاء يحدث خللاً في التفكير، فإذا كان هناك سنة للهلاك، فهناك سنة للحياة، ولكل دور في هذه الحياة، وإذا كانت الظروف الطبيعية: من رياح ورعد وحرارة وماء وعواصف وغيرها قادرة على تشويه الخلق أو تدمير صنعه، كطمس عين أو تهديم بناء، فإنه من غير المعقول أن تقدر هذه الظروف الطبيعية أن تتشئ عيناً لمن لا يملك عيناً، أو تصلح بناء فيه نقص، إن العقل يقبل أن تكون الظروف الطبيعية صالحة لإحداث الخراب والهلاك؛ لكنه من غير المعقول أن تكون هذه الظروف صالحة لتفسير الخلق البديع والتصوير والتكوين المنظم المتقن، إن أي عضو من أعضاء الكائنات الحية قد رسم بإتقان، وكوّن بنظام، ورُتبت أجزاؤه بحكمة بالغة، ونُسق عمله مع غيره في غاية الإبداع، ومن المحال أن يُنسب ذلك الإتقان والنظام البديع إلى خبط الظروف الطبيعية العشوائية، يقول البروفيسور (لوك) من جامعة (كمبردج): «إن الاختيار سواء كان طبيعياً أو صناعياً لا يمكن أن يخلق شيئاً جديداً».

إن هذا مبدأ (البقاء للأصلح) يدمر الحياة البشرية؛ لأنه يعطي المبرر لكل ظالم أن يمارس ظلمه وحره ومكره مع اعتقاد أنه لا يمارس رذائل خلقية إنما يمارس قانوناً من قوانين الفطرة كما زعم التطوريون، وهذا الزعم هو الذي أعطى حركة (الاستعمار كل بشاعته)^(١).

* أما الانتخاب الطبيعي الذي يكون به الميل في التنازل بين الأفراد القوية مما سبب اندثار الأفراد الضعاف، وبقاء الأقوى، فليس ذلك دليلاً على حدوث تطور في النوع، بل يفهم منه بقاء النوع من نفس النوع لا اندثار النوع الضعيف،

١- انظر: كتاب توحيد الخالق للزنداني ص ٢٧٢.

أما إذا قيل: بأن تطوراً يحدث على كائن ما فإنه يحدث فيه فتوراً جنسياً؛ لأن الألفة بين الذكور والإناث تنقص بقدر التباعد والاختلاف بينهما في الشكل ذلك ما يقوله (دوبرزانسكي) أشهر المختصين بالبيولوجية النوعية عام ١٩٥٨م بعد قرن من (داروين): «المخالفة في الشكل تُضعف الميل التناسلي منه، فالميل إلى التناسل يَضعف بين الأشكال والأنواع المختلفة بقدر ذلك الاختلاف، وليس صحيحاً أن الصفات الحسنة في فرد من الأفراد تُنقل بواسطة الوراثة، فمثلاً هذا الحداد قوي العضلات لا تنتقل قوة عضلاته إلى ذريته، كما أن العالم الغزير العلم لا ينتقل علمه بالوراثة إلى أبنائه».

* أما القول بحدوث نشوء لبعض الخصائص والصفات العارضة، ثم توريثها في النسل، فذلك ما يرفضه علم الوراثة الحديث، فكل صفة لا تكمن في الناسلة ولا تحتويها صبغة من صبغاتها، فهي صفة عارضة لا تنتقل إلى الذرية بالوراثة، فها هم المسلمون يختنون أبناءهم؛ وذلك لم يسبب أن ولد أطفالهم بعد مرور السنين مختونين، وقد اتفقت أبحاث (مولر) ودراسات (دونالدسون) على أن (التحولات الصغيرة تضعف والتحولات الكبيرة تقتل)، وتقول مجلة (ساينس ليدر) في عددها الصادر في نوفمبر ١٩٥٠م: «ليس من قبيل المبالغة أن تقول أن ٩٩% من الجينات الناتجة عن التحولات جينات ضارة»، وهكذا كلما تقدم العلم أثبت بطلان نظرية التطور^(١).

١- انظر: توحيد الخالق لعبد المجيد الزنداني ص ٢٧٣، ٢٧٤، والشرك في القديم والحديث لأبي بكر زكريا ٧٦٨/٢، ٧٦٩.

* أما فكرة الصدفة والطبيعة، فباطلة بقوله ﷺ: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾^(١)، وبقوله ﷺ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾^(٢)، وبالتأمل في إبداع الرحمن في خلق الإنسان، ولقد أفرزت التقنية العلمية الحديثة شواهد كثيرة دالة على إبداع الخالق ﷻ في خلق جسم الإنسان، ودالة كذلك على بطلان فكرة الصدفة والطبيعة الخالقة، من ذلك أنه ﷻ جعل كل إنسان متميز عن أبناء جنسه بأشياء تخصه لا يشاركها فيه غيره، كآثار البصمات التي توجد في أصابع اليدين والقدمين وراحة اليدين وباطن القدمين، وقد أثبتت نجاحاً باهراً في مجال التحقيق الجنائي؛ لأنها من أهم وسائل الاستعراف، وأقوى الدعائم التي بني عليها تحقيق الشخصية؛ لأن احتمال تطابق بصمات يد أي شخص مع آخر من سكان العالم يعتبر بعيداً، بل لا تتشابه حتى بصمة الإصبع الواحدة مع باقي أصابع اليد الواحدة، ونظراً لخاصية عدم تغيرها وبقاءها على حالتها، فقد اعتبرت وسيلة ثابتة مؤكدة لتحقيق الشخصية، وتميز أي فرد من غيره، إذ لم يعثر على بصمتين متطابقتين منذ سنة ١٨٢٣م، وقد أثبت علماء البصمة بطرق علمية استحالة تطابق بصمتين لشخصين، أو لأصبعين مختلفين لشخص واحد، وذلك لأن احتمال التطابق عندهم لا يحصل إلا في ملايين أضعاف عدد سكان الكرة الأرضية.

وكذلك البصمة الوراثية التي أصبحت أحد وسائل الأدلة الجنائية فقد بين البريطاني (أليك جفيري) أن كل إنسان ينفرد بصمات أو مميزات جينية خاصة به، لا تتكرر إلا عند التوائم السيامية المتطابقة، والتي تتكون من بويضة واحدة ومنوي واحد، ذلك أن الصفات الوراثية الموجودة على الحمض النووي (D.N.A) والمورثة

١- سورة الزمر: الآية ٦٢.

٢- سورة القمر: الآية ٤٩.

من كلا الزوجين مناصفة، يبدأ الحمض النووي بنقلها بكل دقة إلى الأبناء، ليرث كل شخص نصف صفاته الوراثية من الأب، والنصف الآخر من الأم، وأطلق عليها (لاندر) محقق الهوية الأخير^(١).

بالإضافة إلى تركيبة المنى والشعر ومجموعة الدم ونوع أجسام المناعة، وبصمة العين والصوت والرائحة والشفاه واللحاجب، وهي كلها مما يختص به الفرد دون غيره من أبناء جنسه، وهذا يقطع بأن الإنسان من خلق الله الذي خلقه وجعل كل إنسان متميز عن غيره من أفراد جنسه، فكيف يأتي بعد ذلك من يقول بخلقه صدفة، أو بتطوره من حيوان؟! ولو نظرنا بتأمل من الذرة إلى المجرة لرأينا من عجيب صنع الخالق ﷻ ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ. وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِن طِينٍ﴾^(٢)، ما يدل عليه ويرشد إليه، ولعمري إن ذلك الأعرابي الذي اهتدى إلى الخالق ﷻ ببديع صنعه لهو أهدى سبيلاً من التطوريين والمفتونين بهم، إذ يقول وقد سأل عن الله: «البعرة تدل على البعير، والروث على الحمير، وآثار الأقدام على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، أما تدل على الصانع الحليم العليم القدير»^(٣).

بعد هذا التقنيد للأسس والافتراضات التي اعتمدت عليها نظرية النشوء والتطور يظهر لنا سقوط هذه الأسس والافتراضات، وبسقوطها تسقط نظرية النشوء والتطور القائمة عليها؛ لأن ما بني على باطل فهو باطل.

١- انظر: أثر الطب الشرعي في إثبات الحقوق والجرائم ص ١٦٦-١٦٩، والطب الشرعي وأدلته الفنية ص ٥٠، والنسب ومدى تأثير المستجدات العلمية في إثباته ص ٣١٢-٣٢٤.

٢- سورة السجدة: الآية ٧.

٣- مفاتيح الغيب للرازي ٩١/٢.

التطورية الحديثة

اضطرب أصحاب التطورية الحديثة أمام النقد العلمي الذي وجه إلى النظرية، ولم يستطيعوا أمام ضعفها إلا أن يخرجوا بأفكار جديدة؛ تدعيماً لها، وتدليلاً على تعصبهم الشديد حيالها، فأجروا سلسلة من التبديلات منها: إقرارهم بأن قانون الارتقاء الطبيعي قاصر عن تفسير عملية التطور، واستبدلوا به قانوناً جديداً أسموه قانون التحولات المفاجئة أو الطفرات، وخرجوا بفكرة المصادفة.

وأرغموا على الاعتراف بأن هناك أصولاً عدة تفرعت عنها كل الأنواع، وليس أصلاً واحداً كما كان سائداً في الاعتقاد.

أجبروا على الإقرار بتفرد الإنسان بيولوجياً رغم التشابه الظاهري بينه وبين القرد، وهي النقطة التي سقط منها داروين ومعاصروه.

إن كل ما جاء به أصحاب التطورية الحديثة ما هو إلا أفكار ونظريات هزيلة أعجز من أن نستطيع تفسير النظام الحياتي والكوني الذي يسير بدقة متناهية بتدبير الحكيم ﷻ القائل: ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ (١)(٢).

وأخيراً يتضح مما سبق: «أن نظرية النشوء والتطور دخلت متحف النسيان بعد كشف النقاب عن قانون مندل للوراثة، واكتشاف وحدات الوراثة (الجينات) باعتباره الشفرة السرية للخلق، واعتبار أن الكروموسومات تحمل صفات الإنسان الكاملة وتحفظ الشبه الكامل للنوع، ولذا يرى المنصفون من العلماء أن وجود تشابه بين الكائنات الحية دليل واضح ضد النظرية؛ لأنه يوحي بأن الخالق واحد ولا يوحي

١- سورة طه: الآية ٥٠.

٢- انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ٢/٩٢٩.

بوحدة الأصل، ويقرر بأن مادة الخلق الأولى للكائنات هي الماء قال ﷺ: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ﴾^(١)، وقال ﷺ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٢)، وقد أثبت العلم القائم على التجربة بطلان النظرية بأدلة قاطعة، وإنها ليست نظرية علمية على الإطلاق، والإسلام وكافة الأديان السماوية تؤمن بوجود الله، الخالق، البارئ، المدبر، المصور، الذي أحسن صنع كل شيء خلقه، وبدأ خلق الإنسان من سلالة من طين، ثم خلقه من نطفة في قرار مكين، والإنسان يبقى إنساناً بشكله وصفاته وعقله لا يتطور ولا يتحول»^(٣).

١- سورة النور: الآية ٤٥.

٢- سورة الأنبياء: الآية ٣٠.

٣- الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ٢/٩٣٠، ٩٣١.

المطلب الخامس: ملخص الدراسة وأثرها

من الدراسة السابقة لنظرية النشوء والارتقاء يتلخص ما يلي:

* تزعم نظرية التطور أن أصل المخلوقات حيوان صغير نشأ من الماء، وبالتغيرات البيئية المفروضة عليه نشأت صفات جديدة ورثت في الأبناء، وتحولت مع ملايين السنين إلى صفات راقية، جعلته مخلوقاً أرقى، واستمر نشوء الصفات بفعل البيئة والارتقاء حتى وصل إلى هذه المخلوقات التي انتهت بالإنسان.

* اعتمدت النظرية على عدة أسس وافترضات، كالحفريات، وتشابه أجنة الحيوانات في أدوارها الأولى، ووجود الزائدة الدودية في الإنسان، والشبه بين الحيوانات في تركيب أجسامها، وقانون الصراع على البقاء، والانتخاب الطبيعي والبقاء للأصلح، وتوارث الصفات الجديدة، وأن الحياة نشأت وتطورت مصادفة.

* انتشرت النظرية كسلاح شهرة علماء الطبيعة في وجه دينهم المحرف الذي وقف ضد البحث في ميادين العلوم الطبيعية، ثم في وجه كل دين وطئت أقدامهم المستعمرة أرضه لتحطيمه، وقد لعب اليهود والقوى الهدامة دوراً في نشرها.

* تركت هذه النظرية أثراً سيئاً في واقع البشرية والأمة الإسلامية، كعبادة الطبيعة، وتضييع المسلمات العقائدية المنصوص عليها في الشرائع، ونشر الإلحاد، والانحراف عن الدين، مع قلق وضياح وبأس وقنوط، وظهرت أجيال حائرة مضطربة ذات خواء روحي، وأسست لعدة نظريات باطلة استندت عليها، وكونت فكرة فلسفية داعية إلى التطور المطلق بلا غاية ولا حدود.

* الإسلام يهتم بالعلم ولا يحارب أي علم نافع، ولا التجارب والنظريات ولو كانت لا تزال تحت الدراسة، ما لم تخالف كلام الخالق ﷻ وأمره وشرعه.

* في القرآن الكريم آيات كثيرة واضحة دالة على بطلان نظرية النشوء والتطور، ومثل ذلك جاءت أحاديث في السنة النبوية المطهرة عن النبي الكريم ﷺ.

* تصدّر مجموعة من أهل العلم لدراسة هذه النظرية وتفنيدها، وبيان معارضتها لما هو مقرر في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وأشاروا إلى خطرها وفسادها وآثارها المدمرة على الحياة الفكرية والخلقية والاجتماعية.

* اختلف موقف علماء الغرب تجاه هذه النظرية ما بين مناصر وناقد لها.

* دلت الشواهد العقلية على بطلان النشوء والتطور، وقد أُطلق على ما قاله بشأن النشوء والارتقاء (نظرية التطور)، وهناك فرق كبير بين النظرية والحقيقة، بالإضافة إلى أن الواقع المشاهد لا يؤيد هذه النظرية.

* أثبتت المكتشفات العلمية الحديثة بطلان أسس وفرضيات نظرية التطور، فعلم الحفريات لا يزال ناقصاً، وقد تبين بعد التدقيق في تلك الحفريات أن الوثائق التي جمعت في هذا المجال لم تكن كافية ولا دقيقة، وتشابه أجنة الحيوانات خطأ كبير وقع فيه نتيجة عدم تقدم الآلات المكبرة التي تبين التفاصيل الدقيقة التي تختلف بها أجنة الحيوانات بعضها عن بعض، إلى جانب التزييف الذي قام به واضع صور الأجنة المتشابهة، وقد عُرف أخيراً أن الزائدة تقوم بوظيفة صمام أمن ضد العفونات في الأمعاء، وما زعمته النظرية من أوجه التشابه بين الإنسان والحيوان غير مسلم به؛ إذ إن علم التشريح المعاصر أثبت فروقاً هائلة بين الإنسان وبين القردة التي هي أقرب الحيوانات شكلاً إليه، وفكرة الصدفة والطبيعة باطلة بالتأمل فيما كشفه العلم الحديث عن إبداع الرحمن في خلق الإنسان، وبعد كشف النقاب عن قانون مندل للوراثة، واكتشاف وحدات الوراثة (الجينات) باعتباره الشفرة السرية للخلق، دخلت نظرية النشوء والتطور متحف النسيان.

ويظهر من خلال الدراسة السابقة لنظرية النشوء والارتقاء الآثار التالية:

- * بطلان هذه النظرية بالأدلة القاطعة من الشرع والعلوم الحديثة.
- * موضوع الخلق إنما يعرف بالدلائل السمعية من الكتاب والسنة النبوية.
- * قصور العقل البشري عن إدراك ما يغيب عنه، وأن المرجع في هذه الأمور إلى علام الغيوب ﷺ، ومن رام الوصول بغير اتباع منهج الخالق ﷺ ضل وأضل، كما هو حال التطوريين، وأصدق ما ينطبق عليهم هو قول القائل^(١):
 نَهَائِيَةُ إِفْدَامِ الْعُقُولِ عِقَالُ وَغَايَةُ سَعْيِ الْعَالَمِينَ ضَلَالُ
 وَأَرْوَاحُنَا فِي وَحْشَةٍ مِنْ جُسُومِنَا وَحَاصِلُ دُنْيَانَا أَدَى وَوَبَالُ
 وَلَمْ نَسْتَفِدْ مِنْ بَحْثِنَا طَوْلَ عُمُرِنَا سِوَى أَنْ جَمَعْنَا فِيهِ: قِيلَ وَقَالُوا
- * أن ما يظهر من خلال الكشوف العلمية ما هو إلا من إنفاذ الوعد، وإظهار الحق بالبراهين المحسوسة على الإيمان، وإقامة الحجة، ودمغ الباطل وأهله، مصداقاً لقوله ﷺ: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾^(٢)، بلى كفى بالله الذي يعلم السر وأخفى شهيداً.
- * أن الحق ﷺ يجند من يُثبت صدق آياته ولو من الكفار، ولعل الحكمة في ذلك دفع شبهة تحايل المسلمين -في ذلك- لإثبات عقيدة القرآن والسنة.
- * دمع الشبهة وتكذيب المبطلين القائلين في الخلق بغير ما ذكره الله ورسوله.
- * إظهار المعجزة، حيث أخبر القرآن الكريم وكذلك السنة النبوية المطهرة عن خلق آدم ﷺ وبنيه، في حين حارت عقول علماء الغرب في هذا الخلق، وذهبوا يتخبطون يمناً ويسرة، وخرجوا بالتطور الذي جعل أصلهم قرداً، وما هي إلا أن

١- قالها الفخر الرازي، انظر: طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين بن علي بن عبد الكافي السبكي ٩٦/٨.

٢- سورة فصلت: الآية ٥٣.

جاءت التقنية العلمية الحديثة التي مكنت البشر من الغوص في أعماق الإنسان والحيوان والأرض ليجدوا بطلان فرية التطور -والذي صرح به علماء الغرب قبل المسلمين- وصدق ما أخبر به القرآن عن خلق الإنسان، مما يشهد بأنه كلام الله، أنزله على محمد ﷺ شاهداً بصدق رسالته؛ إذ أنه من الغيب الذي ما كان النبي ﷺ ولا قومه الذين بعث فيهم يعلمون شيئاً عن ذلك، فضلاً عن أنه ﷺ كان نبياً أمياً، وعاش في بيئة أمية عليه أزكى الصلاة والسلام.

والله ﷻ أعلم

الفصل الثاني: خلق بني آدم

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: الخلق من ذكر وأنثى، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الخلق من ذكر وأنثى في القرآن الكريم.
المطلب الثاني: الخلق من ذكر وأنثى في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة.
المطلب الثالث: ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها.

المبحث الثاني: الفرق بين خلق الذكر وخلق الأنثى، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الفرق بين خلق الذكر وخلق الأنثى في القرآن الكريم.
المطلب الثاني: الفرق بين خلق الذكر والأنثى في ضوء الاكتشافات العلمية.
المطلب الثالث: ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها.

المبحث الثالث: الصلب والترائب، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الصلب والترائب في القرآن الكريم.
المطلب الثاني: الصلب والترائب في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة.
المطلب الثالث: ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها.

المبحث الرابع: صفة الماء الذي يخلق منه الإنسان، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: صفة الماء الذي يخلق منه الإنسان في القرآن الكريم.
المطلب الثاني: صفة الماء الذي يخلق منه الإنسان في ضوء الاكتشافات العلمية.
المطلب الثالث: ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها.

المبحث الأول

الخلق من ذكر وأنثى

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول:

الخلق من ذكر وأنثى في القرآن الكريم.

المطلب الثاني:

الخلق من ذكر وأنثى في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة.

المطلب الثالث:

ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها.

المطلب الأول: الخلق من ذكر وأنثى في القرآن الكريم

الآيات الواردة:

قال ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (١).

وقال ﷻ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (٢).

وقال ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ﴾ (٣).

أقوال المفسرين

اختلف المفسرون في المراد بالذكر والأنثى في قوله ﷻ: ﴿مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ﴾: القول الأول: المراد بالذكر والأنثى آدم وحواء (٤)، واستدلوا على ذلك بقريضة قوله ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾، وقول النبي ﷺ: "النَّاسُ بَنُو آدَمَ، وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ" (٥)، فيكون تتوين ذكر وأنثى؛ لأنهما وصفان لموصوف فقَرَّرَ، أي من أب ذكر ومن أم أنثى (٦).

١- سورة الحجرات: الآية ١٣.

٢- سورة الإنسان: الآية ٢.

٣- سورة الليل: الآية ٣.

٤- انظر: لطائف الإشارات للقسيري ٤٤٣/٣، والوجيز للواحدي ص ١٠١٩، ومعالم التنزيل للبغوي ٢٦٥/٤، وزاد المسير لابن الجوزي ٤٧٣/٧، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣٤٠/١٦، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢٦١/٤، واللباب لابن عادل ٥٥٣/١٧، وتفسير الجلالين ص ٦٨٧، والسراج المنير للشربيني ٤٢/٤.

٥- أخرجه أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة ربه، ١٦ / ٤٥٦، برقم: ١٠٧٨٢، وأبو داود، كتاب الأدب، باب في التفاخر بالأحساب ٤/٤٩٢، برقم: ٥١١٨، والترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الحجرات، ٥ / ٣٨٨ برقم: ٣٢٦٨. وهو حديث حسن، انظر: صحيح الترغيب والترهيب ٧٩/٣.

٦- التحرير والتنوير لابن عاشور ٢٦/٢١٥.

القول الثاني: المراد به جنس الذكر والأنثى، أي خلق الله الولد من ماء الرجل وماء المرأة^(١)، ودليل هذا القول تكبير الذكر والأنثى فيعم.

القول الثالث: ذهب بعض المفسرين إلى الجمع بين القولين الأول والثاني^(٢)، ومن قال من المفسرين: «من آدم وحواء، أو خلقنا كل واحد منكم من أب وأم»^(٣)، يدخل في هذا القول، وهذا على أن حرف العطف (أو) للإباحة التي يمكن فيها الجمع بين المتعاطفين^{(٤)(٥)}.

والراجع هو القول الثالث؛ لأنه يجمع بين القولين الأول والثاني، والجمع أولى من الإهمال إن أمكن، وهو هنا ممكن، ويمكن أن نستدل إلى جانب الأدلة السابقة بقول الله ﷻ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾^(٦) إذ أن المراد بقوله: ﴿أَمْشَاجٍ﴾ أي: أخلط من ماء الذكر وماء الأنثى.

و(ما) في قوله ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾^(٧) مصدرية، فأقسم الله ﷻ بأثر من آثار قدرته، وهو خلق الزوجين، وما يقتضيه من التماسل، والذكر والأنثى صنفا أنواع

١- انظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري ٣٠٩/٢٢، والكشاف للزمخشري ٣٧٧/٤، ومفاتيح الغيب

للرازي ١١٧/٢٨، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣٤٢/١٦، والتسهيل لعلوم التنزيل لابن جزيء ٢٩٨/٢.

٢- قال الجزائري: «من آدم وحواء باعتبار الأصل، كما أن كل آدمي مخلوق من أبوين أحدهما ذكر والآخر أنثى» أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير لجابر بن موسى الجزائري ١٣١/٥.

٣- انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي ٢١٩/٥، ومدارك التنزيل للنسفي ١٦٧/٤، والبحر المحيط لأبي حيان ١١٥/٨، وإرشاد العقل السليم لأبي السعود ١٢٣/٨، وروح البيان لحقي ٧٣/٩، وتفسير المظهر ٥٦/٩.

٤- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ٣٧٧/٣.

٥- قال إسماعيل حقي: «قال في التأويلات النجمية: يشير بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ إلى خلق القلوب؛ إنها خلقت من ذكر وهو الروح وأنثى وهي النفس» [روح البيان ٧٥/٩] وهذا بعيد، ولضعفه لم يذكره المفسرون غيره، فأعرضت عن ذكره كقول هنا في المسألة.

٦- سورة الإنسان: الآية ٢.

٧- سورة الليل: الآية ٣.

الحيوان، والمراد: خصوص خلق الإنسان وتكونه من ذكر وأنثى، كما قال ﷺ: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾^(١)؛ لأنه هو المخلوق الأرفع في عالم الماديات، وهو الذي يدرك المخاطبون أكثر دقائقه؛ لتكرره على أنفسهم ذكورهم وإناثهم، بخلاف تكون نسل الحيوان؛ فإن الإنسان يدرك بعض أحواله ولا يحصي كثيراً منها^(٢).
 لقد جعل الله ﷻ ارتباط الذكر والأنثى وسيلة إلى استبقاء النوع الانساني وحفظه على الأرض إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وجعل مجال الالتقاء بطريق محدد مشروع هو النكاح لتحفظ بذلك الأنساب، ثم جعل ثمرة ذلك النكاح الولد والنسل الذي حُبب فيه ورغب إليه، وجعل حبه مركزاً في فطرة الانسان، كما جعل ميل الرجل إلى المرأة وميل المرأة إلى الرجل غريزة وفطرة^(٣).

* إن الخلق من ذكر وأنثى يدل على استواء الناس في الأصل، فهم متساوون في النسب إلى أب واحد وأم واحدة، وكذلك متساوون في الخلق من ماء ذكر وماء أنثى، وعليه لا تفاخر لبعضهم على بعض؛ لكونهم أبناء رجل واحد -آدم- وامرأة واحدة -حواء-، ومتساوون في الخلق من ماء رجل وماء امرأة، فكان في ذلك أكبر زاجر لهم عن التفاخر بالأنساب، وتطاول بعض الناس على بعض، وبين تعالى أنه جعلهم شعوباً وقبائل لأجل أن يتعارفوا، أي: يعرف بعضهم بعضاً، ويتميز بعضهم عن بعض، لا لأجل أن يفتخر بعضهم على بعض ويتطاول عليه، وقد بين الله ﷻ أن ميزان التفاضل إنما يكون بسبب آخر غير الأنساب، بينه الله ﷻ بقوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَى﴾^(٤)، فبتقوى الله لا بغيره من الانتساب إلى

١- سورة الحجرات: الآية ١٣.

٢- انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور ٣٠/٣٣٥.

٣- خلق الإنسان بين الطب والقرآن لمحمد علي البار ص ١٤.

٤- سورة الحجرات: الآية ١٣.

القبائل يصل المرء إلى الفضل، والتقي هو الأكثر طاعةً وانكفافاً عن المعاصي،
ولقد صدق من قال:

فقد رفع الإسلام سلمان فارس وقد وضع الكفر الشريف أبا لهب^(١).

نسبة الماء الذي يخلق منه الولد

ومما له علاقة بالخلق من ذكر وأنثى، مسألة إلى من ينتسب الماء الذي يخلق
منه الولد، أي من ماء أي من الزوجين يخلق، وهذه مسألة فيها ثلاثة أقوال:

القول الأول: ذهب القائلون به إلى أن الولد يخلق من ماء الرجل فقط^(٢).

قال الإمام القرطبي: «ذهب قوم من الأوائل إلى أن الجنين إنما يكون من ماء
الرجل وحده، ويتربى في رحم الأم، ويستمد من الدم الذي يكون فيه»^(٣).

واستدلوا على قولهم بقوله ﷺ: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ * فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾^(٤)،

وقوله ﷺ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا نَسْلَهُمْ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾^(٥)، وقوله ﷺ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ نُفَخِّنَا مِنْ مَيِّ

يْمَنِي﴾^(٦)، فدل على أن الخلق من ماء واحد^(٧).

١- انظر: مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي ١٦٧/٤، ولباب التأويل في معاني التنزيل للخازن ٢٣٠/٦،

وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ٨٠٢، وأضواء البيان للشنقيطي ٤١٧/٧.

٢- ذكر بعض الأطباء والباحثين أن أصل الفكرة قديمة ظهرت في القرن الرابع قبل الميلاد، ويزعم أصحاب هذه الفكرة أن الجنين يكون جاهزاً في ماء الرجل، فإذا دخل ماء الرجل الرحم انعقد، ثم ينمو كما تنمو البذرة في الأرض، ويستمد غذاءه من الرحم، فالأم كالحاضن والمغذي، ولا دور لمائها. انظر: إعجاز آيات القرآن في بيان خلق الإنسان لمحمد فياض ص ٢٨.

٣- الجامع لأحكام القرآن ٣٤٣/١٦.

٤- سورة المرسلات: الآية ٢٠، ٢١.

٥- سورة السجدة: الآية ٨.

٦- سورة القيامة: الآية ٣٧.

٧- انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣٤٣/١٦.

وقوله ﷺ: ﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾^(١)، والذي يوصف بذلك هو ماء الرجل، ثم عطف عليه بأن وصفه بأنه يخرج من بين الصلب والترائب، وذلك يدل على أن الولد مخلوق من ماء الرجل فقط^(٢).

حتى قال البعض: إنه لا ماء للمرأة أصلاً^(٣)، كما نقل ذلك الآلوسي.

القول الثاني: أن الجنين يتخلق من ماء المرأة^(٤)^(٥).

القول الثالث: أن الجنين يتخلق من مائهما معاً^(٦)، قال مجاهد: «ما خلق الله

الولد إلا من نطفة الرجل والمرأة جميعاً؛ لأن الله ﷻ يقول: ﴿خَلَقْتُمْ مِنْ ذَكَرٍ

وَأُنثَى﴾^(٧)، فالآية صريحة في أن الخلق من ذكر وأنثى، واستدلوا بقوله ﷻ: ﴿إِنَّا

خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾^(٨) أي: اخلاط، ولأن النبي ﷺ ذكر ذلك، ففي

الحديث: أن يهودياً قال للنبي ﷺ: «وَجِئْتُ أَسْأَلُكَ عَنْ شَيْءٍ، لَا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ مِنْ

أَهْلِ الْأَرْضِ، إِلَّا نَبِيٌّ، أَوْ رَجُلٌ، أَوْ رَجُلَانِ، قَالَ: يَنْفَعُكَ إِنْ حَدَّثْتُكَ؟ قَالَ: أَسْمَعُ

١- سورة الطارق: الآيات ٦، ٧.

٢- انظر: مفاتيح الغيب للرازي ١١٨/٣١، وغرائب القرآن وغرائب الفرقان للنيسابوري ٤٨٠/٦.

٣- انظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ٩٨/٣٠.

٤- انظر: تفسير ابن عرفة لمحمد بن محمد ابن عرفة الورع ٢٨٣/٣.

٥- بعد اكتشاف البويضة الأنثوية رأى فريق من العلماء أن الإنسان يخلق خلقاً تاماً في ببيضة المرأة، وأن الحيوان المنوي ليس له دور سوى تنشيط البويضة. انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن ص ١٨٦، وعلم الأجنة في ضوء القرآن والسنة لعبد المجيد الزنداني (وكيث إل مور) وآخرين (من أبحاث المؤتمر العالمي الأول للإعجاز العلمي في القرآن والسنة) ص ٢١.

٦- جامع البيان في تأويل القرآن للطبري ٣٠٩/٢٢، والهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب القيسي

٧٠١٠/١١، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣٤٣/١٦، وتفسير البحر المحيط لأبي حيان ٣٩٧/٨،

وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٤١٤/٧، وأيسر التفاسير للجزائري ١٣١/٥.

٧- أخرجه ابن جرير في جامع البيان في تأويل القرآن ٣٠٩/٢٢.

٨- سورة الإنسان: الآية ٢.

بِأَذْنِي، قَالَ: جِئْتُ أَسْأَلُكَ عَنِ الْوَلَدِ، قَالَ: مَاءُ الرَّجُلِ أَبْيَضُ، وَمَاءُ الْمَرْأَةِ أَصْفَرُ، فَإِذَا اجْتَمَعَا فَعَلَا مَنِي الرَّجُلِ مَنِي الْمَرْأَةِ أَذْكَرًا بِإِذْنِ اللَّهِ، وَإِذَا عَلَا مَنِي الْمَرْأَةِ مَنِي الرَّجُلِ، آتْنَا بِإِذْنِ اللَّهِ^(١).

المنافسة

إن ما احتج به أصحاب القول الأول ليس فيه أكثر من أن الله ﷻ ذكر خلق الإنسان من الماء والسلالة والنطفة، ولم يضيفها إلى أحد الأبوين دون الآخر، ومقتضى قولهم إضافتهما إلى الرجل، وهذا غير صحيح؛ لأن الآيات تدل على أن الماء والسلالة لهما، والنطفة منهما جميعاً، بالإضافة إلى أن المرأة تمنى كما يمني الرجل^(٢)، وقد جاء في القرآن الكريم في قصة نوح قوله ﷻ: ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدَرٍ﴾^(٣)، وإنما أراد ماء السماء وماء الأرض؛ لأن الالتقاء لا يكون إلا من اثنين، فلا ينكر أن يكون قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾^(٤) يريد ماءي الرجل والمرأة، وربما اقتضت الآيات على ما هو مشهور بين الناس؛ لأنهم لا يعلمون أكثر من ذلك، وقد بين النبي ﷺ تكوين الجنين من ماء المرأة وماء الرجل^(٥)، وأما خروج هذا الماء من بين الصلب والترائب فيجوز أن يقال للشيين المتباينين أنه يخرج من بين هذين خير كثير، ولأن الرجل والمرأة عند اجتماعهما يصيران كالشيء الواحد، فحسن هذا اللفظ هناك، وأما كون الماء دافقاً فهو من

١- أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحيض، باب بيان صفة مني الرجل والمرأة، وأن الولد مخلوق من مائهما، ١/ ٢٥٢، برقم: ٣١٥.

٢- انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٦/ ٣٤٣.

٣- سورة القمر: الآية ١٢.

٤- سورة السجدة: الآية ٨.

٥- انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور ٢٩/ ٣٩٨.

باب إطلاق اسم البعض على الكل، فلما كان أحد قسمي المنى دافقاً أطلق هذا الاسم على المجموع^(١).

أما من قال إنه لا ماء للمرأة أصلاً، فرد عليه الإمام الألويسي بقوله: «القول بأن المرأة لا ماء لها تكذبه الشريعة وغيرها»^(٢).

أما القول الثاني، فلم أجد لهم دليلاً ولا حجة، والرد عليهم بأن الآيات والأحاديث نصت على أن خلق الإنسان يكون من ماء الرجل وماء المرأة، وهو ما أثبتته العلم الحديث كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

والراجع هو القول الثالث؛ للأدلة الصريحة التي استدلوها بها من كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، والدالة على أن الإنسان يخلق من ماء الذكر وماء الأنثى، ومن أدلة السنة بالإضافة إلى ما ذكره حديث: «مَرَّ يَهُودِيٌّ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ يُحَدِّثُ أَصْحَابَهُ قَالَ: فَقَالَتْ قُرَيْشٌ: يَا يَهُودِيٌّ، إِنَّ هَذَا يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ فَقَالَ: لَأَسْأَلَنَّ عَنْ شَيْءٍ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا نَبِيٌّ، قَالَ: فَجَاءَ حَتَّى جَلَسَ ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، مِمَّ يُخْلَقُ الْإِنْسَانُ؟ قَالَ: "يَا يَهُودِيٌّ، مِنْ كُلِّ يُخْلَقُ: مِنْ نُطْفَةِ الرَّجُلِ، وَمِنْ نُطْفَةِ الْمَرْأَةِ...»^(٣)، وحديث الشبه الذي فيه أن رجلاً أتى إلى النبي ﷺ فسأله عن أمور منها: "وَمِنْ أَيِّ شَيْءٍ يَنْزَعُ الْوَلَدُ إِلَى أَبِيهِ، وَمِنْ أَيِّ شَيْءٍ يَنْزَعُ إِلَى أَخْوَالِهِ، فَقَالَ

١- انظر: مفاتيح الغيب للرازي ١١٨/٣١.

٢- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ٩٨/٣٠.

٣- أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن مسعود ﷺ ٤٣٧/٧ برقم ٤٤٣٨، النسائي في السنن الكبرى، كتاب عشرة النساء، باب صفة ماء الرجل وصفة ماء المرأة ٣٣٩/٥، برقم: ٩٠٧٥، وقال الهيثمي: «رواه أحمد، والطبراني، والبزار بإسنادين، وفي أحد إسناديه عامر بن مدرك، وثقه ابن حبان، وضعفه غيره، وبقية رجاله ثقات، وفي إسناد الجماعة عطاء بن السائب وقد اختلط»، انظر: مجمع الزوائد ٨ / ٢٤١، والحديث يتقوى بغيره.

﴿وَأَمَّا الشَّبَبُ فِي الْوَلَدِ، فَإِنَّ الرَّجُلَ إِذَا عَشِيَ الْمَرْأَةَ فَسَبَقَهَا مَاؤُهُ كَانَ الشَّبَبُ لَهُ، وَإِذَا سَبَقَ مَاؤُهَا كَانَ الشَّبَبُ لَهَا، قَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ﴾^(١)، وهي أحاديث صريحة في أن كلاً من المائتين يشترك في الخلق، وما أظهرته اليوم الاكتشافات العلمية أيضاً يبرجح هذا القول.

فما سبق يظهر أن إهمال دور ماء المرأة أو ماء الرجل في خلق الجنين ينافي ما جاءت به نصوص القرآن وصرحت به أحاديث النبي ﷺ.

خلق عيسى عليه السلام

إن سنة الله الجارية في خلق بني آدم أن يخلقهم من أب وأم، وقد خرج عن هذه السنة في الخلق، ما قصه الله علينا من خلق عبده ورسوله عيسى ابن مريم ﷺ، إذ خلقه الله ﷻ من أم دون أب، ولهذا لما غلى أهل الكتاب فيه وتجاوزوا الحد حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاه الله إياها، فنقلوه من حيز النبوة، إلى أن اتخذوه إلهاً من دون الله يعبدونه، وما هو إلا عبد خلقه الله، ورسول أرسله إلى خلقه، بل قد غلوا في أتباعه وأشياعه ممن زعم أنه على دينه، فادعوا فيهم العصمة، واتبعوهم في كل ما قالوه سواء كان حقاً أو باطلاً، أو ضلالاً أو رشاداً، فنهاهم الله ﷻ عن هذا الغلو والإطراء^(٢).

قال ﷻ: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكَتَبِ لَا تَعْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾^(٣).
﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾^(٣).

١- أخرجه البخاري، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ

خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] ٣/ ١٢١١، برقم: ٣١٥١.

٢- تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٧٢٧/١.

٣- سورة النساء: الآية ١٧١.

فآية بينت أن الله ﷻ خلق عيسى بأمرين: كلمة منه، وروح منه، واختلف المفسرون في معنى الكلمة في قوله تعالى: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا﴾.

فقيل: هي كلمة كن^(١)، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٢).

وقيل: الكلمة هي رسالة الله التي أمر بها ملائكته أن تأتي بها مريم، وبشارة من عنده بأنها ستلد^(٣)، بدليل قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾^(٤).

واختلفوا في قوله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾، على أقوال:

القول الأول: أنه جرت عادة الناس أنهم إذا وصفوا شيئاً بغاية الطهارة والنظافة قالوا: إنه روح، فلما كان عيسى لم يتكون من نطفة الأب وإنما تكون من نفخة جبريل عليه السلام لا جرم وصف بأنه روح، والمراد من قوله: ﴿مِنْهُ﴾ التشريف والتفضيل كما يقال: هذه نعمة من الله، والمراد كون تلك النعمة كاملة شريفة.

القول الثاني: أنه كان سبباً لحياة الخلق في أديانهم، ومن كان كذلك وصف بأنه روح، قال تعالى في صفة القرآن: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾^(٥).

١- انظر: بحر العلوم للسمرقندي ١/٣٨٥، والوجيز في تفسير الكتاب العزيز للواحي ص ٣٠٣، ومعالم

التنزيل في تفسير القرآن للبخوي ١/٧٢٤.

٢- سورة آل عمران: الآية ٥٩.

٣- انظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري ٩/٤١٩.

٤- سورة آل عمران: الآية ٤٥.

٥- سورة الشورى: الآية ٥٢.

القول الثالث: روح منه أي رحمة منه، قيل في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾^(١) أي برحمة منه، فلما كان عيسى رحمة من الله على الخلق من حيث أنه كان يرشدهم إلى مصالحهم في دينهم ودنياهم لا جرم سمي روحاً، والنفخ يُسَمَّى في اللغة روحاً، فكان عن النفخ فسمي به.

القول الرابع: وحياة منه، بمعنى إحياء الله إياه بتكوينه^(٢).

يقول الطبري: «ولكل هذه الأقوال وجه ومذهب غير بعيدٍ من الصواب»^(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَهُ﴾ ليست لفظة (من) في هذه الآية للتبعيض، كما يزعمه النصارى افتراء على الله، ولكن (من) هنا لابتداء الغاية، يعني: أن مبدأ ذلك الروح الذي ولد به عيسى حيا من الله تعالى؛ لأنه هو الذي أحياه به، وبدل على أن من هنا لابتداء الغاية قوله ﷺ: ﴿وَسَخَّرْ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٤)، وهذه الإضافة للتفضيل؛ لأن جميع الأرواح من خلقه جل وعلا، كقوله تعالى: ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ﴾^(٥)^(٦).

والحكمة من خلق عيسى ﷺ من غير أب نجدها في قوله ﷺ: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾^(٧).

١- سورة المجادلة: الآية ٢٢.

٢- انظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري ٤١٩/٩ - ٣٢٢، والنكت والعيون للماوردي ٥٤٦/١، ومفاتيح الغيب الرازي ٩٢/١١.

٣- جامع البيان في تأويل القرآن للطبري ٤٢٢/٩.

٤- سورة الجاثية: الآية ١٣.

٥- سورة الحج: الآية ٢٦.

٦- انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي ٣٢٣/١.

٧- سورة مريم: الآية ٢١.

١- دلالة وعلامة للناس على قدرة بارئهم وخالقهم الذي نوع في خلقهم، فخلق أباهم آدم من غير ذكر ولا أنثى وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق بقية الذرية من ذكر وأنثى إلا عيسى، فإنه أوجده من أنثى بلا ذكر، فتمت القسمة الرباعية الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه فلا إله غيره ولا رب سواه.

وعلى أن الأسباب جميعها لا تستقل بالتأثير وإنما تأثيرها بتقدير الله فيري عباده خرق العوائد في بعض الأسباب العادية لئلا يقفوا مع الأسباب ويقطعوا النظر عن مقدرها ومسببها جل وعلا.

٢- وقوله ﷺ: ﴿وَرَحْمَةٌ مِّنَّا﴾ أي ونجعل هذا الغلام رحمة من الله ونبياً من الأنبياء، يدعو إلى عبادة الله تعالى وتوحيده، ونعمة لمن تبعه على دينه إلى بعثة محمد ﷺ^(١).

١- انظر: لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن ٢٤١/٤، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ١٤٢/٣، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ٤٩١.

المطلب الثاني: الخلق من ذكر وأنثى في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة

إن التخلق البشري كان دائماً مثار اهتمام كبير، وقد اقتصرَت الدراسات الأولى على استخدام الوصف التخيلي؛ نظراً لقلّة الوسائل التقنية المتقدمة حينئذ^(١)، وبعد اختراع المجهر في وقت لاحق اتسمت الدراسات بدقة أكبر، وظلت تستخدم الوصف إلى جانب الأساليب التقنية التجريبية، بيد أن كثيراً من هذه الملاحظات الوصفية كان على قدر كبير من التخيل والبعد عن الدقة؛ فقد كان يعتقد خلال هذه الحقبة أن الإنسان يتولد من دم الحيض، وظلت هذه الفكرة عند جميع الأطباء إلى ما بعد اكتشاف المجهر، وكان علماء المسلمين يرفضون هذه الفكرة؛ لتعارضها مع الآيات والأحاديث، فاستمرت هذه الفكرة حتى نشط البحث العلمي في القرن السادس عشر، وخاصة في القرنين السابع عشر والثامن عشر^(٢)، وقد

١- وتعرف هذه المرحلة بمرحلة علم الأجنة الوصفي، وتعود إلى أكثر من ستة قرون قبل الميلاد، وتستمر حتى القرن التاسع عشر، وتم خلال هذه الفترة وصف الملاحظات الخاصة بظاهرة تطور الجنين وتفسيرها بأساليب مختلفة، ووجدت بعض السجلات المدونة من فترة السلالات الفرعونية الرابعة والخامسة والسادسة في مصر القديمة، وقد حمل ما لا يقل عن عشرة أشخاص متعاقبين اللقب الرسمي (فاتح مشيمة الملك)، واقتضت المراسيم فيما بعد أن تحمل راية تمثل (مشيمة الملك) أمام موكب الفراعنة، وكانت تعزى إلى خواص المشيمة قوى سحرية خفية، ودام ذلك الاعتقاد حتى عهد اليونانيين القدماء وبعدهم، وارتبط السحر بالعلم، أما اليونان القدماء فهم أول من ربط العلم بالمنطق بفضل تعليههم للملاحظات بالمنطق لا بالقوى السحرية الغامضة، وقد هيمنت كتابات (أرسطو طاليس) و(جالينوس) على الجزء الأول من السجل التاريخي (لاسيما من حيث النفوذ والتأثير) وإن لم تكن الوحيدة في هذا المجال، ولم تسجل منذ عام ٢٠٠ بعد الميلاد حتى القرن السادس عشر أية معلومات تذكر عن علم الأجنة في المؤلفات العلمية في الغرب، ولولا الكتاب المسلمون لفقد الكثير من مؤلفات اليونانيين. انظر: علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة ص ١٠-١٢.

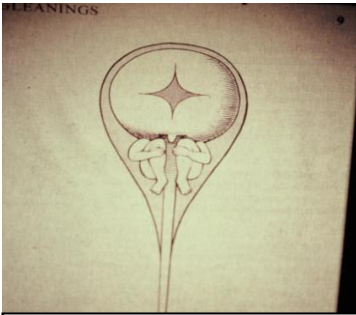
٢- ومهدت أعمال (فيساليوس) و(فابريسيوس) و(هارفي) لبدء عصر الفحص المجهرى، ونشطت المناظرات العلمية، واكتشف الحوين المنوي، وكانت مواضيع التكوين السابق والخلق الذاتي التلقائي والبيضة والقول بوحدة البيضة، ومذهب النطفة الذكرية محل نقاش دائم، فظهرت بعض الرسوم في كتب القبالة خلال القرن السادس عشر كيف يتطور الجنين من كتلة دموية وبذرة، وهذا المفهوم الخاطئ قال به أرسطو طاليس،=

أدى هذا التطور في القرن السابع عشر إلى إعلان كلاً من (هام) و(فان لوفين هوك) اكتشاف الحوين المنوي في مني الإنسان، فقاما برسمه، كما قام العالم (جراف) بوصف حويصلة البويضة التي تدعى باسمه إلى اليوم (حويصلة جراف)^(١) وذلك عام ١٦٧٢م، وللأسف لم يدرك أي منهما دور الحيوان المنوي والبويضة في الإنجاب، أما الرسم الذي قدمه (هارتسوكر) عام ١٦٩٤م للحوين المنوي بعد اكتشاف الميكروسكوب بفترة فيدل على أن المجهر يومئذ لم يكن كافياً لبيان تفاصيل تكوين الحوين المنوي، فأكملت الصورة من خيال العلماء، وقد سيطرت في هذا القرن - السابع عشر - فكرة أن الجنين موجود بصورة مصغرة في الحيوان المنوي، وأنه ليس للمرأة من دور سوى دور الرعاية والتغذية، وأن الجنين جاهز التركيب بصورة دقيقة في هذا الحيوان المنوي في صورة قزم، ويمثل ذلك أصدق تمثيل للرسم الذي قدمه (هارتسوكر) عام ١٦٩٤، وفيه يتمثل الجنين الإنساني في رأس الحيوان المنوي، وقد

=وانتقل على مر القرون، وكان يعتقد خلال هذه الحقبة أن الجنين يتولد من دم الحيض، كما ظهرت رسوم من كتاب (جاكوب رويف) ١٥٥٤ تبين الكتلة الدموية والبذرة في الرحم وفقاً لمفهوم ارسطو طاليس، وبيئت أعمال (فابريسيوس-١٦٠٤) رسماً ممتازاً لتطور جنين دجاجة، وقد اشتهر (ويليام هارفي) -أحد تلاميذ (فابريسيوس في بادوا)- بدراسته عن دوران الدم، ثم ظهر بعد ذلك بقليل (مارسيللو مالبيجي) الذي نشر في عام ١٦٧٢ رسومات لجنين الدجاجة المتخلق يظهر الفلقات بوضوح تام، ونعرف اليوم أن هذه الفلقات تحتوي على خلايا، تولد الجزء الأكبر من الهيكل العظمي للجسم وعضلاته، وتظهر أيضاً بعض صور أجنة الدجاج في نفس المرحلة للمقارنة، ونشرت في الوقت ذاته تقريباً مجموعة أخرى من الرسومات، تظهر تخلق الجنين البشري، وتعبّر كلها عن رسم واحد، ولكن بقياس مختلف (ولم يشر إلى ذلك ناشروا ومحكموا الملكية للفلسفة عندئذ) فقد كانوا يعتقدون إلى هذا الوقت أن التخلق الإنساني ليس إلا زيادة في الحجم لصورة واحدة تتسع أبعادها بمرور وقت الحمل، لسيطرة فكرة الخلق التام للإنسان من أول مراحلها على أذهان العلماء انظر: علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة لعبد ص ١٤، وخلق الإنسان بين الطب والقرآن للبار ص ١٨٤.

١- وعندما تخرج البويضة من حويصلة جراف تبقى حويصلة جراف صفراء باهتة وتسمى بالجسم الأصفر. خلق الإنسان بين الطب والقرآن ص ٥١، ١٧٩.

ثار جدل كبير في هذه الفترة حول هذه الملاحظات التي اكتشفت، فبينما كان فريق من العلماء يرى أن الإنسان يخلق خلقاً تاماً في بيضة المرأة، كان فريق آخر يقرر أن الإنسان يخلق خلقاً تاماً في الحوين المنوي، ولم ينته الجدل بين الفريقين إلا حوالي عام (١١٨٦هـ-١٧٧٥م) عندما أثبت (سبالا نزاني) أهمية كل من الحوين المنوي والبيضة في عملية التخلق البشري، وأنهما يساهمان جميعاً في تكوين الجنين^(١). وفي عام ١٨٥٩م عرف العلماء أن كلاً من الحيوان المنوي والبويضة ليسا إلا خلية حية، وفي عام ١٨٧٥م تمكن (هيرتويج) من ملاحظة كيف يلحق الحيوان المنوي البويضة، وأثبت بذلك أن كلاً من الحيوان المنوي والبويضة يسهمان في



رسم يوضح فكرة وجود الجنين القزم بصورة مصغرة في الحيوان المنوي (علم الأجنة: ٢٠)

تكوين البويضة الملقحة (الزيجوت)، وكان بذلك أول إنسان يشاهد عملية التلقيح هذه ويصفها، وفي عام ١٨٨٣م تمكن (فان بندن) من إثبات أن كلاً من البويضة والحيوان المنوي يساهمان بالتساوي في تكوين البويضة الملقحة، وأثبت (بوفري) عام ١٨٨٨م، وعام ١٩٠٩م بأن الكروموسومات تنقسم وتحمل خصائص

وراثية مختلفة، واستطاع (مورجان) عام ١٩١٢م أن يحدد دور الجينات في الوراثة، وأنها -الجينات- موجودة في مناطق محددة من الكروموسومات.

وهكذا يبدو بوضوح أن الإنسانية لم تعرف بواسطة علومها التجريبية أن الجنين الإنساني يتكون بامتشاج واختلاط نطفة الذكر ونطفة الأنثى إلا في القرن التاسع عشر، ولم يتأكد لها ذلك إلا في القرن العشرين^(٢).

١- انظر: علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة ص ٢٠، ٢١، وخلق الإنسان بين الطب والقرآن للبار ص ١٨٥، والإعجاز في القرآن الكريم لصالح صواب، ص ٩٤، ٩٥.

٢- انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن ص ١٨٨، والمعجزة القرآنية (الإعجاز العلمي والغيبي) لهيثو ص ٢٧٧.

ماء الرجل: ويطلق على الماء الذي يفرزه الرجل المنوي، ويتكون من شقين:

الأول: الحيوانات المنوية التي تتكون من القنوات المنوية في الخصية، وهي ذاتها المسماة بالنطفة.

الثاني: السائل المنوي الذي يحمل هذه الحيوانات ويغذيها والتي تسبح فيه لتصل إلى الرحم^(١).

ماء المرأة: ذكر الطبيب محمد علي البار أن للمرأة نوعين من الماء:

الأول: ماء لزج يسيل ولا يتدفق، وهو ماء المهبل، ويعمل على ترطيب المهبل وتنظيفه من الجراثيم والميكروبات، والمساعدة على الايلاج، وليس له علاقة في تكوين الجنين.

الثاني: ماء يتدفق ويخرج مرة واحدة في الشهر من حويصلة جراف بالمبيض عند اقتراب هذه الحويصلة المليئة بالماء الأصفر من حافة المبيض، فتتفجر عند تمام نموها وكماله، فتندلق المياه على أقتاب البطن، ويتلقف البوق -وهو نهاية قناة الرحم- وتدعى أيضاً قناة فالوب- البويضة فيدفعها دفعاً رقيقاً حتى تلتقي بالحيوان المنوي الذي يلحقها في الثلث الوحشي من قناة الرحم، وهذا الماء يحمل البويضة تماماً كما يحمل ماء الرجل الحيوانات المنوية^(٢).

الإخصاب

أولاً: من مكونات الجهاز التناسلي للمرأة: قناة فالوب، والمبيض.

أما قناة فالوب أو قناة الرحم: فهي إحدى قناتين في الجهاز التناسلي للمرأة، وتنتهي بانتفاخ يعرف باسم البوق والذي يحيط بالمبيض بمجموعة من الأهداب،

١- انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن للبار ص ١١٠.

٢- انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن لمحمد البار ص ١٢٣.

تتلقف البويضة التي يفرزها المبيض وتحملها برفق وتدفعها إلى مجموعة من الشعيرات الدقيقة المبطنه لغشائه حتى تصل إلى الثلث الأخير منه، وتبقى هناك بانتظار الحيوان المنوي الذي يلحقها، فيحدث فيهما إخصاب البيضة بنطفة الرجل. وأما المبيض: فهو عضو بيضي الشكل، وحجمه في حجم بندقة الجوز المنزوعة القشرة، وهما مبيضان، يقع كل مبيض على جانبي الرحم، أسفل البطن، ينتجان ويختزان ويطلقان البويضات، ويفرز المبيضان أيضاً الأستروجينات والبروجسترون وهي هرمونات جنسية أنثوية، ويتم إفراز البويضات خلال سنوات الحمل فقط، وخلال النصف الأول من كل دورة شهرية يكتمل نمو إحدى البويضات المخزنة في المبايض، وتنطلق بيضة واحدة من أحد المبايض عند المرأة مرة كل أربعة أسابيع، وتقوم المبايض في هذه الفترة بإفراز الأستروجينات التي تجعل بطانة الرحم سميكة؛ استعداداً للحمل، وتصل بطانة الرحم إلى أقصى سمك لها في وقت الإباضة تقريباً، وتحدث الإباضة -إفراز البيضة الناضجة- في منتصف فترة الدورة الشهرية، وبعد الإباضة يطلق المبيض الذي أفرز البيضة هرمون البروجسترون - وهو الهرمون الذي يسند بطانة الرحم- وكذلك يطلق الأستروجينات، ويبدأ الحمل في حالة تخصيب البيضة^(١).

ثانياً: من مكونات الجهاز التناسلي في الذكور الخصية: وهي غدة بيضية في الجهاز التنكاثري الذكري، وهما خصيتان، يبلغ طول كل خصية في الذكر البالغ حوالي ٤سم، وعرضها حوالي ٣سم، بينما تزن الخصية العادية للرجل البالغ حوالي ٢٠جم، وتُغطى الخصية عادة بمادة ليفية كثيفة، وتدخل هذه المادة الليفية من

١- انظر: الأساسيات في تشريح الإنسان، لمحمود بدر عقل ص ٤٣٣-٤٣٩، وموسوعة جسم الإنسان الشاملة (موسوعة تعريفية مصورة لتراكيب الجسم ووظائفه وصيانتته) لأحمد الخطيب ويوسف سليمان ص ١٨٦، وخلق الإنسان بين الطب والقرآن ص ٣٦-٤٣، والموسوعة العربية العالمية ٢٢/٢١٣.

الطرف الخلفي للغدة، ثم تنفرق إلى صفائح تقسم الخصية إلى حوالي ٢٥٠ قسماً، ويحتوي كل قسم على واحد إلى أربعة أنابيب مفتولة تسمى النبيبات ناقلة المنى، يتم فيها إنتاج السائل المنوي، وأما الأنابيب الكبيرة داخل الخصية فتنتقل السائل المنوي إلى أنبوب شديد الالتفاف يسمى البربخ، يقع في مؤخرة كل خصية، وتتطور الحيوانات المنوية في البربخ قبل تحريرها من الجسم خلال الاستثارة الجنسية، وتحاط الخصيتان بالصفن، وهو كيس يقع خلف القضيب، وتتعلق الخصيتان فيه، ويحافظ موقع الصفن (كيس الخصى) على الخصيتين بإبقائهما باردتين بدرجة حرارة تقل عن درجة حرارة الجسم العادية البالغة ٣٧ درجة بحوالي ٢,٢-٢,٨ درجة مئوية، وخلافاً لخلايا الجسم الأخرى، فلا يمكن لخلايا النطاف أن تتطور على نحو ملائم في درجة حرارة الجسم العادية^(١).

والخصيتين وظيفتان رئيستان هما:

١- إنتاج النطاف، والتي تتطور في الخصيتين داخل جهاز معقد من القنوات يُدعى القنوات المنوية، وتحتوي قنوات الطفل الذكر عند الولادة على خلايا مستديرة بسيطة، ولكن بعد البلوغ، تبدأ الخصيتان في إنتاج هرمون التستوسترون وهرمونات أخرى تجعل الخلايا المدورة تنقسم وتخضع لتغيرات لتصبح خلايا رفيعة بذيل، وتستخدم خلية النطفة ذيلها، ويطلق عليه السوط، لتدفع نفسها إلى الأمام، وتمر النطفة من الخصيتين إلى البربخ، حيث يكتمل نموها خلال ١٢ يوماً، وتخزن بنفس البربخ، ومن البربخ تتحرك النطفة إلى قناة طويلة يطلق عليها الأسهر (الوعاء الناقل)- ويسمى البربخ والأسهر بجهاز المسالك- إلى غدة البروستاتا -

١- انظر: الموسوعة العربية العالمية ٧٨/١٠، ٧٩، وتشريح جسم الإنسان لحكمت فريحان ص ٢٨، والأساسيات في تشريح الإنسان لمحمود بدر عقل ص ٤٢٤، وخلق الإنسان بين الطب والقرآن للبار ص ٢٧.

والتي تتكون من نسيج عضلي وغددي ووسط ليفي خشن-حيث يلتقي الأسهر بالحوصلات المنوية، وتنتج الحوصلات المنوية وغدة البروستاتا سائلاً كثيفاً يميل إلى البياض يسمى السائل المنوي يعمل على تغذية النطاف بعد أن يختلط بها ليشكل المنى، كما يساعد على نقلها إلى خارج الجسم بقذفها عبر القضيب الذي تمتلئ أنسجة خاصة فيه بالدم ليصبح صلباً ومنتصباً عندما يثار الذكر جنسياً، وعند إثارة القضيب تنقبض العضلات المحيطة بالأعضاء التناسلية، ويرغم هذا الانقباض تحريك السائل من الغدد، ويدفع المنى عبر جهاز المسالك والإحليل، ويطلق على هذه العملية الإنزال، وتتفاوت كمية المنى المنزلة من ٢-٦ مليلتر، ويحتوي كل مليلتر من المنى على حوالي ١٠٠ مليون نطفة، وينتج الذكر البالغ الصحيح عادة حوالي ٢٠٠ مليون نطفة يومياً، وعلى الرغم من أن إنتاج النطاف يبدأ تدريجياً بالانخفاض تقريباً بعد سن ٤٥، إلا أن الإنتاج يستمر طوال الحياة.

٢- إفراز الهرمونات الذكرية، وبخاصة التستوسترون الذي ينتجه النسيج الواقع بين النبيتات ناقلة المنى، ويتحكم التستوسترون في نمو بعض صفات الذكورة أثناء فترة البلوغ، كاللحية، وتضخم العضلات، وخشونة الصوت، وازدياد حجم الأعضاء التناسلية، كما يقوي هذا الهرمون السلوك الجنسي لدى الذكور^(١).

وفي ضوء علم الطب الحديث، وعلم وظائف الأعضاء (الفسيلوجي)، وعلم التشريح (الهستولوجي)، ثبت أن تركيب الخصيتين واحد، ولا اختلاف بينهما في التركيب العضوي، وأن وظائفهما أيضاً واحدة ومتفقة تماماً، فكلتاها تقوم بإنتاج

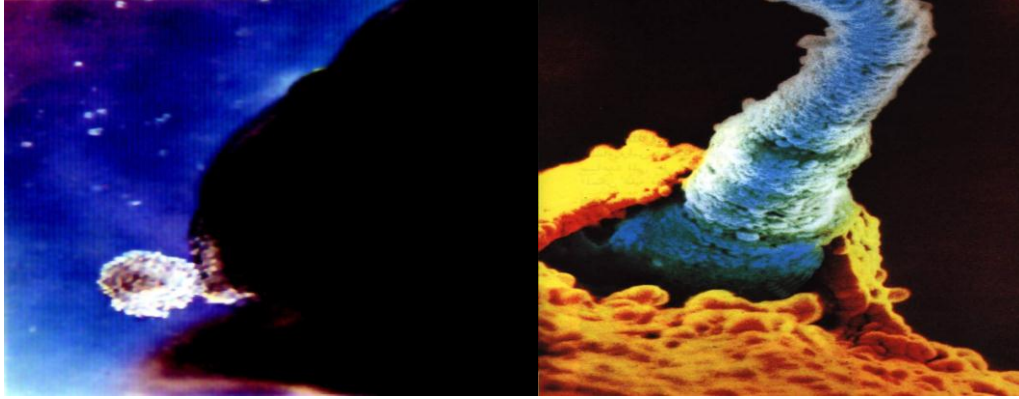
١- انظر: الموسوعة العربية العالمية (٦/٢٩١)، (١٠/٧٩)، وخلق الإنسان بين الطب والقرآن للبار ص ٢٧، وزراعة الأعضاء التناسلية والغدد التناسلية للمرأة والرجل، منشور في مجلة المجمع، دورة ٦، عدد ٦، جزء ٣، ص ٢٠٥٢.

الحيوانات المنوية وهرمون الذكورة بنسب وكفاءة متساوية في الأحوال الطبيعية، ولا يختلف ذلك إلا لعارض مرضي يقوم بإحداهما^(١).

ثالثاً: تبدأ عملية الإخصاب بالتلامس بين الحيوان المنوي والبيضة، وتنتهي باتحاد النواتين الذكرية والأنثوية واختلاط الصبغيات من الأب والأم، وترافقها استعداداً لانقسام البيضة المخصبة، أو اللاقحة، ويتم إخصاب البيضة خلال حوالي ٢٤ ساعة من حدوث الإباضة في الثلث البراني، أو أمبورة القناة الرحمية وهي أطول جزء من القناة وأكثرها اتساعاً، وتقوم الحيوانات المنوية التي نجحت في الوصول بالدوران حول البيضة في محاولة لاختراقها، وتتدفع بذبولها مما يؤدي إلى دوران البيضة حول نفسها باتجاه عكس عقارب الساعة، ويفلح حيوان منوي واحد فقط في دخول البيضة حيث يخترق رأسه أغشيتها لتمرير نواته الحاملة للعد النصف من الصبغيات الأبوية إلى داخل البيضة، ويكون النواة البدائية الذكرية، وتكمل البيضة حينئذ الرحلة الثانية من الانقسام المنصف لتنتج البيضة الناضجة وبها النواة البدائية الأنثوية والتي تحتوي بدورها على العدد النصف للصبغيات من الأم، وتندمج النواتان داخل خلية واحدة تعرف بالبيضة المخصبة أو اللاقحة وهي ثنائية المجموعة الصبغية، حيث يكتمل عدد الصبغيات إلى حده المعلوم وهو ٤٦ صبغياً (٢٣ صبغياً من الأب و٢٣ صبغياً من الأم)، ولا يسمح باختراق أي حيوان منوي للبيضة المخصبة التي تخلع عنها تاجها المشع وتبدأ في الانقسام، فعند تكون النطفة الأمشاج يكتمل عدد الكروموسومات الحاملة للصفات الوراثية من الأب والأم بالتساوي، وعبر هذه الكروموسومات تنتقل

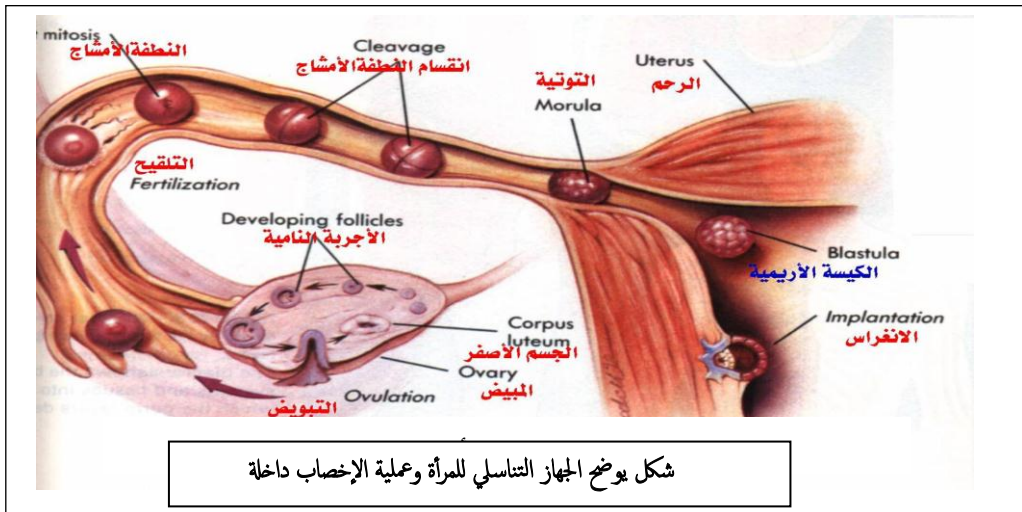
١- انظر: تطور العلوم الطبية في تقدير مدة الحمل وأثره في القضاء الشرعي للسيد محمود عبدالرحيم مهران، ضمن بحوث ندوة القضاء الشرعي في العصر الحاضر ١٣/٢٨.

الصفات الوراثية من الآباء والأجداد، وبوجود الخلية التي تحمل هذا العدد من الصبغيات -٤٦- يتحقق الوجود الإنساني، ويتقرر به خلق إنسان جديد؛ لأن جميع الخطوات التالية ترتكز على هذه الخطوة، وتتبع منها^(١).



لحظة خروج بويضة المرأة من المبيض (علم الأجنة: ٣٧)

لحظة اختراق الحيوان المنوي لجدار البويضة (علم الأجنة: ٤١)



شكل يوضح الجهاز التناسلي للمرأة وعملية الإخصاب داخلة

١- انظر: دورة حياة الإنسان بين العلم والقرآن، لكریم حسنین ص ٥٤-٥٧، والآيات العجائب في رحلة الإنجاب لحامد أحمد حامد ص ٨٤، ٨٥، وخلق الإنسان بين الطب والقرآن للبار ص ١٩٧-١٩٩، وعلم الأجنة في ضوء القرآن والسنة ص ٤٤-٤٦، وموسوعة المرأة الطبية لسبيرو فاخوري ص ١٠١، وصحة المرأة من جديد ليسلي سوسان كليرينسون ص ١٩٨.

المطلب الثالث: ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها

من خلال الدراسة التفسيرية والعلمية يتلخص ما يلي:

* قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْتَنَّهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾^(١) يشمل آدم وحواء، ويشمل جنس الذكر والأنثى.

* الجنين يتخلق من ماء الرجل وماء المرأة، وإهمال دور أي منهما في خلق الجنين ينافي ما جاءت به نصوص القرآن وصرحت به أحاديث النبي ﷺ.

* جعل الله ﷻ ارتباط الذكر والأنثى وسيلة إلى استبقاء النوع الانساني وحفظه، بطريق محدد مشروع هو النكاح؛ لتحفظ بذلك الأنساب.

* الخلق من ذكر وأنثى يدل على استواء الناس في الأصل.

* ظلت فكرة تولد الإنسان من دم الحيض عند الأطباء إلى ما بعد اكتشاف المجهر، وبعد اكتشاف الحيوان المنوي سيطرت فكرة أن الجنين موجود بصورة مصغرة دقيقة في هذا الحيوان المنوي في صورة قزم وليس للمرأة من دور سوى الرعاية والتغذية، وبعد اكتشاف البويضة رأى فريق آخر من العلماء أن الإنسان يخلق خلقاً تاماً في ببيضة المرأة وأن الحيوان المنوي ليس له أي دور سوى تنشيط البويضة، واستمر الجدل بين الفريقين حتى ظهر (سبالا نزاني) و(ولف) اللذان أظهر أن الذكر والأنثى يساهمان جميعاً في تكوين الجنين.

* ماء الرجل هو المنى، ويتكون من الحيوانات المنوية، والسائل المنوي، وذكر الأطباء نوعين من الماء للمرأة: الأول ماء المهبل، وليس له علاقة في تكوين الجنين، والآخر ماء يخرج من حويصلة جراف عند اقترابها من حافة المبيض يحمل البويضة كما يحمل ماء الرجل الحيوانات المنوية.

١- سورة الحجرات: الآية ١٣.

* أصبح من الثابت علمياً أهمية كل من الحيوان المنوي والبويضة في عملية التخلق البشري، حيث ثبت علمياً تخلق الجنين من نطفة الرجل وببيضة المرأة على حدٍ سواء، عن طريق الإخصاب الذي يبدأ بتلامس الحيوان المنوي والببيضة، وينتهي باتحاد النواتين الذكرية والأنثوية واختلاط الصبغيات من الأب والأم.

ومن خلال الدراسة التفسيرية والعلمية يظهر لي الآثار التالية:

* أثبتت المكتشفات العلمية صحة ما ذهب إليه من قال من المفسرين إن الجنين يتخلق من ماء الرجل وماء المرأة جميعاً، وهو ما يتوافق مع ظاهر القرآن وصحيح السنة النبوية، وعليه يظهر عدم صحة القول بخلق الجنين من ماء الرجل وحده، أو ماء المرأة وحدها.

* أثبتت المكتشفات العلمية أن الحيوان المنوي جزء من ماء الرجل الذي يتكون من السائل المنوي والحيوانات المنوية، والقرآن الكريم قد ميز بين النطفة والمنى، وجعلها جزءاً منه^(١) في قوله ﷺ: ﴿الزَيْكُ نُطْفَةٌ مِنْ مَنِيِّ يَمَنِ﴾^(٢)، وعليه يمكن أن يكون المراد بالنطفة هذا الحيوان المنوي^(٣)، وقد ثبت علمياً أن ماء الرجل يحتوي على مئات الملايين من النطف، لكن التخصيب يحصل بواحدٍ منها فقط^(٤)، وذلك هو ما بينه النبي ﷺ بقوله: «مَا مِنْ كُلِّ الْمَاءِ يَكُونُ الْوَلَدُ»^(٥).

* ذكر الأطباء نوعين من الماء للمرأة: ماء المهبل، والآخر ماء البويضة الذي يخرج من حويصلة جراف، إلا أن النبي ﷺ لما سئل عن غسل المرأة إذا

١- انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن للبار، ص ١١١.

٢- سورة القيامة: الآية ٣٧.

٣- انظر: الإعجاز الطبي في القرآن الكريم للفيومي ص ٧.

٤- خلق الإنسان بين الطب والقرآن للبار، ص ١١١، ١٩٨.

٥- أخرجه مسلم، كتاب النكاح، باب حكم العزل ١٠٦١/٢ برقم: ١٤٣٨.

احتلمت^(١) قال: **"تَعَمُّ، إِذَا رَأَتْ الْمَاءَ"**^(٢)، وفي الرواية الأخرى لما أجاب بما في الرواية الأولى سألته أم سلمة رضي الله عنها: وتحتلم المرأة؟ **فقال ﷺ: "تَرَبَّتْ يَدَاكَ؛ فَبِمَ يُشَبِّهُهَا وَلَدُهَا"**^(٣)، وفي رواية: **"وَهَلْ يَكُونُ الشَّبَهُ إِلَّا مِنْ قَبْلِ! ذَلِكَ إِذَا عَلَا مَآؤُهَا مَاءَ الرَّجُلِ أَشْبَهَ الْوَلَدُ أَخْوَالَهُ، وَإِذَا عَلَا مَاءَ الرَّجُلِ مَاءَهَا أَشْبَهَ أَعْمَامَهُ"**^(٤).

فهل هذا الماء الذي في هذا الحديث هو من هذين النوعين؟

أما النوع الأول وهو ماء المهبل فقد ذكر الطبيب البار أنه ليس له علاقة في تكوين الجنين، إلا أنه حمل الحديث عليه^(٥)، وذلك يتعارض مع ما دل عليه الحديث من أن ماء الاحتلام له أثر على الجنين في الشبه بأحد أبويه، ويتعارض مع مفهوم الحديث في أن ماء الاحتلام يخرج بالإنزال الذي تنقضي به الشهوة، خلافاً لما ذكره من دور هذا الماء في الترطيب والتعقيم، ذلك أن نزوله عند بلوغ المرأة غاية شهوتها لا يجعل له فائدة في الترطيب أو التعقيم أثناء الجماع، خصوصاً أن المرأة قد يتأخر إنزالها أو لا يكون عندها شهوة والرطوبة موجودة.

وبالتالي فحمل ماء الاحتلام على ماء المهبل فيه نظر، والقول إن ماء المهبل لا علاقة له بتكوين الجنين فيه نظر كذلك؛ حيث يمتاز الإفراز المهبلية بخاصية حامضية؛ لوجود حمض اللاكتيك الذي يوفر نوعاً من الحماية والتطهير من البكتريا لهذا الجزء من الجسم، لكن زيادة درجة الحمضية للمهبل تمثل ضرراً للخلايا المنوية، حيث تصل إلى درجة موتها بأعداد كبيرة داخل المهبل، لا سيما الذكرية

١- الاحتلام: اسم لما يراه النائم من المباشرة، فيحدث معه إنزال المنى غالباً. المجموع للنووي ١٥٨/٢.

٢- أخرجه البخاري، كتاب الغسل، باب إذا احتلمت المرأة ١/١٠٨، برقم: ٢٧٨.

٣- أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب الحياء في العلم ١/٦٠، برقم: ١٣٠، ومسلم، كتاب الحيض، باب وجوب الغسل على المرأة بخروج المنى منها ١/٢٥١، برقم: ٣١٣، واللفظ لمسلم.

٤- أخرجه مسلم، كتاب الحيض، باب وجوب الغسل على المرأة بخروج المنى منها ١/٢٥١، برقم: ٣١٤.

٥- انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن للبار، ص ١٢٢.

(Y)؛ لكونها ضعيفة في المقاومة، وصغيرة الحجم مقارنة بالأنثوية (X) والتي تستطيع مقاومة هذه الحموضة في الغالب، وقد اعتبرت الدكتوراة (بلوم) عام ١٩٢٤م أن حموضة الوسط المهبطي عامل هام في عملية تحديد جنس الجنين، وقدم الألماني (انتربرجر) برهاناً على ذلك، حيث لاحظ أن النساء المصابات بالعقم واللواتي عالجهن بمحاليل من بيكربونات الصوديوم -القلوي- أنجبن ذكوراً أكثر من الإناث، فاستنتج أن الوسط القلوي يساعد على إنجاب الذكور بخلاف الوسط الحامضي فهو يساعد على إنجاب الإناث، ثم قدم عددٌ من الأطباء دراسات تؤكد ذلك، لذا أصبح تغيير حالة القناة التناسلية عند المرأة من الطرق المساعدة في اختيار جنس الجنين^(١).

وأما النوع الثاني وهو ماء البويضة، فمع أنه أقرب لما دل عليه الحديث^(٢)؛ لأن البويضة هي التي يتخلق منها الولد وهذا ماؤها وهي خلاصته وجزء منه، إلا أن الكلام في الحديث يدور حول الماء الذي يُرى أثناء الاحتلام، لا الماء الذي ينزل مرة في الشهر، ولا تراه المرأة، ولا تشعر به، ولا علاقة له بالجماع والشهوة، وعليه فإن قصر ماء المرأة على البويضة وما يخرج معها من ماء أثناء عملية التبويض، وتفسير النصوص بهذا الماء دون غيره، أمر فيه نظر^(٣).

فضلاً عن أن الأطباء حاولوا تفسير حدوث الشبه من الناحية العلمية، فاختلقت آراؤهم في ذلك، فمنهم من يفسر الماء الذي في الحديث بماء البويضة، ويفسره آخرون بالماء الذي تنزله المرأة عند وصولها إلى ذروتها كما ينزل الرجل^(٤).

١- انظر: اختيار جنس الجنين دراسة فقهية طبية لعبد الرشيد قاسم ص ١٤.

٢- حيث دل الحديث على أن هناك علاقة بين الماء الذي تنزله المرأة وبين شبه الولد بأحد أبويه

٣- أثر الحقائق العلمية في ترجيح أقوال المفسرين من خلال الثلث الأخير للقرآن الكريم لرياض عيروس ص ١١٦.

٤- انظر: اختيار جنس الجنين دراسة فقهية طبية ص ٥٥.

ومن التفسير الأخير يظهر لنا رأي طبي آخر، وهو أن للمرأة ماء ثالثاً ينزل عند وصولها إلى ذروتها، كما ينزل الرجل عند وصوله إلى ذروته، وهذا الماء له تأثير في شبه الجنين بأحد أبويه كما صرح به الحديث، وقد يكون له تأثير في جنس الجنين، وحمل ماء المرأة على هذا الماء هو الأقرب لفهم الأحاديث النبوية^(١).

* بيان سبق القرآن والسنة للعلوم الحديثة؛ إذ قرر القرآن والسنة حقائق كثيرة في خلق الإنسان لم تتأكد إلا في القرون الأخيرة عندما تطورت التقنية الحديثة.

* إظهار المعجزة العلمية لنصوص القرآن الكريم والسنة النبوية؛ ذلك أن البشر لم يعرفوا بواسطة العلوم التجريبية أن الجنين الإنساني يتكون بامتشاج واختلاط نطفة الذكر ونطفة الأنثى إلا في القرن التاسع عشر، ولم يتأكد لها ذلك إلا في القرن العشرين، بينما نجد في القرآن الكريم والسنة النبوية أن هذه القضايا قد حسمت قبل ألف وأربع مائة عام بأن عملية التخلق مشتركة بين الذكر والأنثى، ووصفت هذه النصوص في القرن السابع الميلادي وبأسلوب رفيع وبكلمات معجزة وصريحة ما أكدته وأثبتته المكتشفات العلمية الحديثة بأجهزتها وأساليب بحثها الدقيقة والمختلفة، وذلك دليل على أن العلم الذي في القرآن هو علم الله، جعله معجزة لرسوله ﷺ، مصداقاً لقوله ﷻ: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ،

يَعْلَمُهُ﴾^(٢)، أي فيه علمه الذي أراد أن يطلع العباد عليه^(٣).

والله ﷻ أعلم

١- انظر: أثر الحقائق العلمية في ترجيح أقوال المفسرين لرياض عيروس ص ١١٥.

٢- سورة النساء: الآية ١٦٦.

٣- تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/٧٢٦.

المبحث الثاني

الفرق بين الذكر والأنثى

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول:

الفرق بين الذكر والأنثى في القرآن الكريم.

المطلب الثاني:

الفرق بين الذكر والأنثى في ضوء الاكتشافات العلمية.

المطلب الثالث:

ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها.

المطلب الأول: الفرق بين الذكر والأنثى في القرآن الكريم

الآيات الواردة

- قال الله ﷻ: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(١).
- وقال ﷻ: ﴿وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ رَضَوْنَ مِنَ الشَّهَادَةِ أَنْ تَضَلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾^(٢).
- وقال ﷻ: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾^(٣).
- وقال ﷻ: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾^(٤).
- وقال ﷻ: ﴿أَوْ مَن يُنَشَأُ فِي هُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرَ مُبِينٍ﴾^(٥).

أقوال المفسرين:

- قوله ﷻ: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ﴾، هذا جاء ذكره في قصة امرأة عمران^(٦) - حنة بنت فاقودا- لما حبست ما في بطنها على خدمة الله وخدمة بيته المقدس، عتيقة

١- سورة البقرة: الآية ٢٢٨.

٢- سورة البقرة: الآية ٢٨٢.

٣- سورة آل عمران: الآية ٣٦.

٤- سورة النساء: الآية ٣٤.

٥- سورة الزخرف: الآية ١٨.

٦- هو عمران بن ماثان، وقيل: ابن أشيم، أو ياشم، من نسل داود عليه السلام، وليس عمران أبي موسى عليه السلام؛ لأن بينهما ألفاً وثمانمائة سنة، وبدليل كفالة زكريا، فإنه كان معاصراً لابن ماثان، وكان بنو ماثان رؤوس بني إسرائيل وأحبارهم وملوكهم في ذلك الزمن، انظر: تفسير مقاتل بن سليمان ١/١٦٦، ومعالم=

من خدمة كل شيء سواه، مفرغة له خاصة، وكانوا يندرون ذلك إذا كان المولود ذكراً، وكان ذلك جائزاً في شريعتهم، وكان على الولد الطاعة^(١)، فلما كان المولود أنثى قالت: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرَ كَالْأُنْثَىٰ﴾؛ وللمفسرين في مرادها بقولها: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرَ كَالْأُنْثَىٰ﴾ قولان:

القول الأول: مرادها تفضيل الولد الذكر على الأنثى، وسبب التفضيل وجوه: أحدها: أنه لا يجوز في شرعهم تحرير الذكور دون الإناث. الثاني: أن الذكر يصح أن يستمر على خدمة موضع العبادة، ولا يصح ذلك في الأنثى؛ لمكان الحيض، وسائر عوارض النساء. والثالث: الذكر يصلح لقوة خلقته وشدته للخدمة دون الأنثى؛ فإنها ضعيفة في خلقتها، ولينة لا تقوى على الخدمة. والرابع: أن الذكر لا يلحقه عيب في الخدمة والاختلاط بالناس، بخلاف الأنثى، فلا تصلح لصحبة الرهبان والعُباد في الكنيسة. والخامس: أن الذكر لا يلحقه من التهمة عند الاختلاط ما يلحق الأنثى^(٢).

=التنزيل في تفسير القرآن للبغوي ٤٣١/١، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ٣٠/٢، ولباب التأويل في معاني التنزيل للخازن ٣٣٩/١، وتفسير السراج المنير للشرييني ١٧٢/١.

١- انظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري ٣٢٨/٦، ٣٢٩، والمحرم الوجيز لابن عطية ٤٣٠/١، ومفاتيح الغيب للرازي ٢٢/٨، ٢٣، ولباب التأويل للخازن ٣٣٩/١، والبحر المحيط في التفسير لأبي حيان ٤٥٥/٢، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤٤١/١، وتفسير الجلالين ص ٦٨، وتفسير السعدي ص ١٢٨، والتحرير والتنوير لابن عاشور ٨٥/٣، والتفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج للزحيلي ٢١٢/٣.

٢- انظر: تفسير الطبري ٣٣٤/٦، ٣٣٥، والكشف والبيان للثعلبي ٥٥/٣، والنكت والعيون للماوردي ٣٨٧/١، ومعالم التنزيل للبغوي ٤٣٢/١، والمحرم الوجيز لابن عطية ٤٣٢/١، وزاد المسير لابن الجوزي ٣٧٧/١، ومفاتيح الغيب للرازي ٢٤/٨، ولباب التأويل للخازن ٣٤٠/١، وتفسير ابن كثير ٤٤١/١، وغرائب القرآن ورغائب الفرقان ١٤٩/٢، والدر المنثور للسيوطي ١٨١/٢، ومحاسن التأويل للقاسمي ٣١١/٢.

القول الثاني: أن المقصود من هذا الكلام ترجيح هذه الأنثى على الذكر، كأنها قالت: الذكر مطلوب، وهذه الأنثى موهوبة الله تعالى، وليس الذكر الذي يكون مطلوباً كالأنثى التي هي موهوبة لله^(١).

والقول الأول هو الأقرب لظاهر الآية وسياق القصة، فخلقة الذكر ليست كخلقة الأنثى، فالرجل خلقتة قويه شديدة صلابة، خلافاً للين المرأة ورقتها وضعفها، وبسبب ذلك كان الذكر بخلقتة وتكوينه وطبيعته صالحاً لتلك الخدمة دون الأنثى، ولهذا لما كان نقص المرأة وضعفها خلقي طبيعي اختص الله ﷻ الرجال بالنبوة بقوله: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾^(٢)، ولم يبعث الله ﷻ رسولاً إلى الخلق من النساء^(٣)؛ لأن نقصهن وضعفهن الخلقين يحولان دون القيام بمهام وأعباء الرسالة.

وقد أشار الله ﷻ إلى نقص المرأة وضعفها الخلقين الطبيعيين بقوله: ﴿ أَوْ مَنْ يُنشَأُ فِي الْحَلِيَّةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾^(٤)؛ لأن نشأتها في الحلية - من الحلبي والحلل وأنواع الزينة - دليل على نقصها المراد جبره والتغطية عليه بذلك، فالذي يربى في الحلية يكون ناقص الذات؛ لأنه لولا نقصان في ذاتها لما احتاجت إلى تزيين نفسها بالحلية، أما الرجل فإنه لكمال خلقتة وطبيعته فلا يحتاج معها إلى التزيين بالحلية التي تحتاج إليها الأنثى، فكمال الرجل بذكورته ونقص المرأة بأنوثتها، ثم بيّن الله ﷻ نقصان حالها بطريق آخر، وهو قوله ﷻ: ﴿ وَهُوَ فِي ﴾

١- انظر: مفاتيح الغيب للرازي ٢٤/٨، ولباب التأويل في معاني التنزيل للخازن ٣٤٠/١، ودرجات القرآن

ورغائب الفرقان للنيسابوري ١٤٩/٢، ومراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد للتتاري ١٢٣/١.

٢- سورة يوسف: الآية ١٠٩.

٣- انظر: اللباب في علوم الكتاب لابن عادل ٢٢٥/١١، والتحرير والتنوير لابن عاشور ١٢/١٢٧.

٤- سورة الزخرف: الآية ١٨.

الْخَصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿﴾ يعني أنها إذا احتاجت المخاصمة والمنازعة عجزت وكانت غير مبينة، فعدم إبانته في الخصام إذا ظلمت دليل على الضعف الخلقى، ولا عبرة بنوادر النساء؛ لأن النادر لا حكم له^(١).

والآية الكريمة مع ما قبلها^(٢) فيها إنكار شديد، وتقريع عظيم للمشركين؛ لأنهم افتروا على الله ﷻ الولد زوراً وبهتاناً، وزادوا في الافتراء بأن جعلوا له أنقص الولدين وأضعفهما خلقة وجبلة، والذي لنقصه الخلقى ينشأ في الحلية من صغره إلى كبره؛ ليجبر بها نقصه الخلقى الطبيعي^(٣)(٤).

١- انظر: جامع البيان للطبري ٥٧٩/٢١، وبحر العلوم للسمرقندي ٢٤١/٣، والهداية إلى بلوغ النهاية لمكي ٦٦٤٢/١٠، ومعالم التنزيل للبعوي ١٥٦/٤، والكشاف للزمخشري ٢٤٥/٤، وزاد المسير لابن الجوزي ٣٠٦/٧، ومفاتيح الغيب للرازي ١٧٤/٢٧، وأنوار التنزيل للبيضاوي ١٤٢/٥، ومدارك التنزيل للنسفي ١١١/٤، والتسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ٢٥٦/٢، وتفسير ابن كثير ١٥٢/٤، وغرائب القرآن للنيسابوري ٨٨/٦، وتفسير الجلالين ص ٦٤٨، وتفسير روح البيان لحقي ٢٧٥/٨، والبحر المديد لابن عجيبة ١٢/٧، وفتح القدير للشوكاني ٦٢٩/٤، ومراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد للتتاري ٣٨١/٢، وتفسير السعدي ٧٦٣/١، والتحرير والتنوير لابن عاشور ٢٢٨/٢٥، وأضواء البيان للشنقيطي (١٠٣/١)، (٤١٧/٧).

٢- قوله ﷻ: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ * أَمْ اتَّخَذَ مِنْهَا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنَاتِ * وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [سورة الزخرف: الآيات ١٥، ١٦، ١٧].

٣- أضواء البيان للشنقيطي (٢٥/٣)، (٩١/٧)، (٤١٦/٧). وانظر: الهداية إلى بلوغ النهاية ٦٦٤٢/١٠، والتسهيل لعلوم التنزيل ٢٥٦/٢، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ١٥٢/٤، وروح البيان ٢٧٥/٨.

٤- وقال آخرون: إن المقصود أوثان المشركين التي كانوا يعبدونها من دون الله، ويضربونها من فضة وذهب ويعبدونها، فهم الذين أنشؤوها وضربوها من تلك الحلية، أو يجعلون الحلي على كثير منها، ثم عبدوها، وهي لا تتكلم ولا تبين عن نفسها شيئاً، وهو ضعيف؛ لأن ذلك جاء عقيب خبر الله عن إضافة المشركين إليه ما يكرهونه لأنفسهم من البنات، وقلة معرفتهم بحقه، وتحليتهم إياه من الصفات والبخل - وهو خالقهم ومالكهم ورازقهم والمنعم عليهم النعم التي عددها في أول السورة- ما لا يرضونه لأنفسهم، وبقرينة قوله ﷻ: ﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾. انظر: جامع البيان للطبري ٥٨٠/٢١، ٥٨٠، والهداية إلى بلوغ النهاية ٦٦٤٣/١٠، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٧٢/١٦، والبحر المحيط في التفسير ١٠/٨.

هذا وإن الفرق بين الرجل والمرأة في الخلقة من الأمور المحسوسة والمشاهدة، فالذكر يختلف عن الأنثى في الشكل الظاهري اختلافاً كبيراً، بحيث يتبين الإنسان الذكر وتعرف الأنثى من النظرة العابرة السريعة، ولا يقف هذا الاختلاف على الشكل الخارجي فقط، بل أثبتت الدراسات العلمية اختلاف الرجل عن المرأة اختلافاً كبيراً في كثير من النواحي^(١)، وسنقف على ذلك إن شاء الله تعالى في المطلب الثاني.

وأما قوله ﷺ: ﴿وَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْنَ بِالْمَعْرُوفِ وَاللرِّجَالِ عَلَيْنَ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، ففي هذه الآية الكريمة إثبات للتفريق الشرعي بين الرجل والمرأة، وذلك بتفضيل الأزواج في الحقوق على نسائهم؛ إذ قوله ﷺ: ﴿وَاللرِّجَالِ﴾ خبر عن ﴿دَرَجَةٌ﴾، قدم للاهتمام بما تفيده اللام من معنى استحقاقهم تلك الدرجة، كما أشير إلى ذلك الاستحقاق في قوله ﷺ: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾، ولهذا الاهتمام مقصدان: أولهما: دفع توهم المساواة بين الرجال والنساء في كل الحقوق؛ والذي قد يفهم من المساواة المشروعة بقوله: ﴿وَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْنَ بِالْمَعْرُوفِ﴾، ولزيادة بيان المراد من قوله: ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾.

وثانيهما: تحديد إيثار الرجال على النساء بمقدار مخصوص؛ لإبطال إيثارهم المطلق، الذي كان متبعاً في الجاهلية^(٢).

فالإسلام وسط بين جاهليتين: الجاهلية الأولى التي سلبت المرأة حقوقها وجعلت الرجال يستأثرون بالحقوق مطلقاً، حتى جعلوها كالممتاع الذي يورثه الرجل لمن بعده، والجاهلية المعاصرة التي تدعوا للمساواة المطلقة بين الرجل والمرأة في كافة

١- انظر: جامع لطائف التفسير لعبد الرحمن القماش ٤٠/١٣.

٢- انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور ٣٨١/٢.

الحقوق، متغافلة حتى عن الفروق الخلقية الظاهرة، فهو -الإسلام- وسط بين الإفراط والتفريط، والوسط هو الخيار والأعلى من الشيء، والوسط من كل شيء أعدل، وأصل هذا أن خير الأشياء أوسطها، وأن الغلو والتقصير مذمومان، لذا قال الله ﷻ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾^(١) أي: عدولاً خياراً^(٢).

وقوله ﷻ: ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: متلبساً بالمعروف، والمراد ما جاء به الشرع نصاً، أو قياساً، أو اقتضته المقاصد الشرعية، أو المصلحة العامة التي ليس في الشرع ما يعارضها، وما تعرفه العقول السالمة المجردة من الانحياز إلى الأهواء أو العادات أو التعاليم الضالة، والعرب تطلق المعروف على ما قابل المنكر، أي: وللنساء من الحقوق مثل ما عليهن ملابساً ذلك دائماً للوجه غير المنكر شرعاً وعقلاً^(٣).

وقوله ﷻ: ﴿دَرَجَةً﴾ أصل الدَّرَجَةُ المَنْزِلَةُ، والجمع دَرَجٌ، ومنه دَرَجُ البِنَاءِ؛ لأنها مَرَاتِبٌ بعضها فوق بعض^(٤)، ومعناها هنا الزيادة في الحق والفضيلة^(٥)، وهذه الدرجة اقتضاها ما أودعه الله في صنف الرجال من زيادة القوة الخلقية العقلية، والبدنية، فلذلك كانت أحكام الشريعة الإسلامية جارية على وفق النظم التكوينية؛ لأن واضح الأمرين واحد^(٦)، فهي زيادة في الحق والفضيلة يقابلها كثرة في

١- سورة البقرة: الآية ١٤٣.

٢- انظر: المحرر الوجيز لابن عطية ٢٠٥/١، وزاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ١٥٤/١، وغرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري ٤٢١/١، والجواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي ١١٤/١.

٣- انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور ٣٨٠/٢.

٤- انظر: المخصص لابن سيده ٥١١/١.

٥- انظر: الكشاف للزمخشري ٣٠٠/١، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ٥١٦/١، وتفسير البحر المحيط لأبي حيان ٢٠٠/٢، وغرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري ٦٢٨/١، وتفسير الجلالين ص ٤٦، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود ٢٢٥/١، ومحاسن التأويل للقاسمي ٢٧٢/١.

٦- انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور ٣٨٢/٢.

الواجبات، والتعبير بدرجة يعنى أن هذا التفاوت لا يمسّ جوهر الاعتبارات الإنسانية فيهما، فهما إنسانان متساويان في الإنسانية، ولكن اختلافهما النوعي أدى إلى الاختلاف الوظيفي في الحياة بينهما، وليس هذا بالذي يدخل الضيم على أي منهما، ما دام يحيا حياته على النحو الذي يلائم طبيعة خلقته، فهو اختلاف اختصاص لا اختلاف انتقاص، وما بينهما من التفاضل وإنما هو لتكامل الحياة فوق الأرض، فتتوازن المتطلبات والاختصاصات، وتعمر الأرض وترتقي الأمة^(١). وقد ذكر المفسرون أن زيادة درجة الرجل: بخلقته، وبعقله، وصلاحه للقوامة على البيت، والإمامة، والإمارة، وبدينه، وشهادته، ومنصب النبوة، والقضاء، والجهاد، وبالدية، والميراث، وكونه يعقل في الدية بخلافها، ونصيبه في سهم الغنيمة أكثر من نصيبها، وبالصدّاق، وبالتزوج عليها والتسري، وبملك العصمة إذ الطلاق بيده، وبملك الرجعة، وجواز ملاعنته إن قذف، وحدها إن قذفت، وبالسّلامة من أذى الحيض والولادة والنفاس، وبوجوب طاعتها إياه والوقوف عند رضاه، وباختصاصه بأنواع من الكلفة كالالتزام المهر والنفقة -لقوته على ذلك- والذب عنها والقيام بمصالحها، ويكون المرأة خلقت من الرجل^(٢).

١- انظر: التفسير القرآني للقرآن ١/٢٦١، والإعجاز العلمي في السنة النبوية لصالح أحمد ٢/١١٧٨.
 ٢- انظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري ٤/٥٣٣-٥٣٨، وتفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ٢/١٤٤، والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية ١/٢٩٤، ومفاتيح الغيب للرازي ٦/٨٢، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣/١٢٥، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ١/٥١٧، ولباب التأويل في معاني التنزيل للخازن ١/٢٢٧، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/٣٣٦، وغرائب القرآن و رغائب الفرقان للنيسابوري ١/٦٢٨، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل ٤/١٢٥، والدر المنثور للسيوطي ١/٦٦٢، وتفسير الجلالين ص ٤٦، وفتح القدير للشوكاني ١/٢٧٢، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ١٠١، وبيان المعاني لملا حويش ٥/١٨٩، والتفسير المنير للزحيلي ٢/٣٤٥.

ورأى ابن جرير الطبري -بعد أن ذكر ما تقدم من التفسيرات- أن الأولى بتأويل الآية: أن الدرجة هي الصفح من الرجل لامرأته عن بعض الواجب عليها، وإغضاؤه لها عنه، وأداء كل الواجب لها عليه؛ لأن الله ﷻ قال: ﴿وَالرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ﴾، عقيب قوله: ﴿وَمَنْ مِثْلَ الَّذِي عَلَيْنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾، فأخبر أن على الرجل من ترك ضرارها في مراجعته إياها في أقرائها الثلاثة وفي غير ذلك من أمورها وحقوقها، مثل الذي له عليها من ترك ضراره في كتمانها إياه ما خلق الله في أرحامهنّ وغير ذلك من حقوقه، ثم ندب الرجال إلى الأخذ عليهن بالفضل إذا تركن أداء بعض ما أوجب الله لهم عليهن، فقال ﷻ: ﴿وَالرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ بتفضلهم عليهن، وصفحهم لهن عن بعض الواجب لهم عليهن، فالآية وإن كان ظاهرها الخبر، فمعناه معنى ندب الرجال إلى الأخذ على النساء بالفضل، بحسن العشرة، والتوسع في المال والخلق، وأن الأفضل أن يتحامل على نفسه، ليكون لهم عليهن فضل درجة^(١)، وذكر الطبري أن هذا هو ما قصده ابن عباس بقوله: «ما أحب أن أستتظف جميع حقي عليها؛ لأن الله تعالى ذكره يقول: ﴿وَالرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾»^(٢).

وما قاله استحسنة غيره^(٣)، إلا أن حمل الآية على ما سبق نقله عن غيرهما من المفسرين أرجح^(٤)، بدليل أن الله ﷻ بيّن في عدة مواضع في كتابة الكريم،

١- تفسير الطبري ٥٣٥/٤، ٥٣٦.

٢- أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه الكوفي في الأحاديث والآثار، كتاب الطلاق، ما قالوا في قوله وللرجال عليهن درجة ١٩٦/٤ برقم: ١٩٢٦٣.

٣- ابن عطية بقوله: «هذا قول حسن بارع». المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٢٩٤/١.

٤- نُقل عن ابن مسعود أن الدرجة: اللحية، واعتبره الماوردي قولاً حميداً، بينما اعتبره ابن عرفة من بدع التفاسير، وقال القرطبي: «وهذا إن صح عنه فهو ضعيف؛ لا يقتضيه لفظ الآية ولا معناها». انظر: النكت والعيون للماوردي ٢٩٣/١، وتفسير ابن عرفة ٦٥٦/٢، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٢٥/٣.

وكذلك رسوله ﷺ في سنته الفرق بين الرجل المرأة بزيادته في الحق والفضيلة، كقوله ﷺ: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾^(١)، وهذه القوامة مسئولية لتنظيم الحركة في الحياة وليست تسلطاً؛ إذ كل اجتماع لا بد له من قيّم، أمين عليه، يتولى أمره، ويصلح حاله^(٢)، وسبب هذه القوامة أن الرجل كامل في وصفه وقوته وخلقه ودينه وعقله وتدريبه وبما أنفق من ماله من المهور والنفقات والكف التي أوجبها الله عليه لها في كتابه وسنة نبيه ﷺ، فناسب حاله أن يكون قائماً على الضعيف الناقص خلقة^(٣)، وهذا هو نفس ما قاله المفسرون في سبب زيادة الرجل عليها في الحق والفضيلة، أي الدرجة، وهذه الولاية وهي ولاية الأسرة هي أصغر الولايات، وإذ منع الله المرأة من توليها، فمنعها من تولي ما هو أكبر منها أولى، كالقضاء والوزارة^(٤).

وفرق الله ﷻ بينهما في الميراث بقوله: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾^(٥)، وجعل الطلاق والرجعة بيد الرجل بقوله ﷻ: ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا تَبَيَّنَّ فَأَمْسَكُوهُنَّ أَوْ سَرَّوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾^(٦)، وقوله ﷻ: ﴿بِتَأْيِيدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ﴾^(٧)، إذ جعل الطلاق لمن نكح؛ لأن له الإمساك وهو الرجعة، وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال:

١- سورة النساء: الآية ٣٤.

٢- انظر: تفسير الشعراوي ٦١٧/١.

٣- انظر: أحكام القرآن لابن العربي ٥٣١/١، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٦٩/٥، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/٦٠٨، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي ١/١٠٣.

٤- انظر: حكم تولي المرأة القضاء والوزارة، مركز الفتوى بموقع الشبكة الإسلامية: (<http://www.islamweb.net>).

٥- سورة النساء: الآية ١١.

٦- سورة البقرة: الآية ٢٣١.

٧- سورة الأحزاب: الآية ٤٩.

"إِنَّمَا الطَّلَاقُ لِمَنْ أَخَذَ بِالسَّاقِ"^(١)، والحديث وإن كان في إسناده ما فيه^(٢) فالقرآن يعضده، وعليه العمل^(٣)، ومنعت المرأة من السفر بدون محرم في قوله ﷺ: "لَا تُسَافِرِ الْمَرْأَةُ إِلَّا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ"^(٤)، وقد نقل كل من ابن المنذر، وابن عبد البر، وابن حزم الإجماع على أن دية المرأة نصف دية الرجل^(٥)، وفضل الرجل على المرأة بالجهاد ففي حديث عائشة رضي الله عنها قالت: استأذنت النبي ﷺ في الجهاد فقال: "جِهَادُكُنَّ الْحَجُّ"^(٦)، واختص الرجل دونها بالولايات ففي الحديث: "لَمَّا بَلَغَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنَّ أَهْلَ فَارِسَ قَدْ مَكَّوْا عَلَيْهِمْ بِنْتَ كِسْرَى، قَالَ: لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَوْ أَمَرَهُمْ امْرَأَةٌ"^(٧)، والقضاء فرع عن الإمامة العظمى، وبين النبي ﷺ نقصان دينها لما خرج في عيد إلى المصلى، فمر على النساء، فقال: "يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ،

- ١- أخرجه ابن ماجه، كتاب الطلاق، باب طلاق العبد ٦٧٢/١ برقم: ٢٠٨١، والدار قطني في سننه، كتاب الطلاق والخلع والإيلاء وغيره ٣٧/٤ برقم: ١٠٢، وأخرجه كذلك الدار قطني من طريق آخر (٣٧/٤) برقم: ١٠٣). ومعنى الحديث: أن الطلاق حق الزوج الذي له أن يأخذ بساق المرأة، وهو كناية عن الجماع. انظر: حاشية السندي على ابن ماجه ٦٤١/١، وشرح سنن ابن ماجه للسيوطي وعبد الغني وفخر الحسن ص ١٥١.
- ٢- الحديث أعله جماعة؛ لأن في سنده ابن لهيعة، والطريق الآخر عند الدار قطني في سنده الفضل بن المختار، قال ابن عدي: «أحاديثه منكرة، وعمامة أحاديثه لا يتابع عليها»، وقال أبو حاتم الرازي: «مجهول، وأحاديثه منكرة، يحدث بالأباطيل»، وقال الأزدي: «منكر الحديث جدا»، وقال البيهقي: «هذا حديث ضعيف، وقال ابن الجوزي في علله: «إنه حديث لا يصح». انظر: البدر المنير لابن الملقن ١٣٨/٨، والحديث حسنه الألباني بمجموع طريقه في إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل.
- ٣- زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم ٢٥٤/٥.
- ٤- أخرجه البخاري، كتاب الحج، باب حج النساء ٦٥٨/٢ برقم: ١٧٦٣، ومسلم، كتاب الحج، باب سفر المرأة مع محرم إلى حج وغيره ٩٧٨/٢ برقم: ١٣٤١.
- ٥- انظر: الإشراف على مذاهب أهل العلم لابن المنذر ١٣٩/٢، والتمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ٣٥٨/١٧، ومراتب الإجماع في العبادات والمعاملات والاعتقادات لابن حزم ص ١٤٣.
- ٦- أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب جهاد النساء، ٣/ ١٠٥٤، برقم: ٢٧٢٠.
- ٧- أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب كتاب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر، ٤/ ١٦١٠، برقم: ٤١٦٣.

تَصَدَّقْنَ فَإِنِّي أُرِيْتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ، فَقُلْنَ: وَبِمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: تَكْثُرْنَ اللَّعْنَ وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ، مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلِ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلْبَّ الرَّجُلِ الْحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ، قُلْنَ وَمَا نُقْصَانُ دِينِنَا وَعَقْلِنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: أَلَيْسَ شَهَادَةُ الْمَرْأَةِ مِثْلَ نِصْفِ شَهَادَةِ الرَّجُلِ؟ قُلْنَ بَلَى: قَالَ فَذَلِكَ مِنْ نُقْصَانِ عَقْلِهَا، أَلَيْسَ إِذَا حَاضَتْ لَمْ تُصَلِّ وَلَمْ تَصُمْ؟ قُلْنَ بَلَى: قَالَ فَذَلِكَ مِنْ نُقْصَانِ دِينِهَا^(١).

أما قوله ﷺ: ﴿وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدِينَ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَأَمْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾^(٢)، الضلال هنا بمعنى النسيان، وفي وجه أنه من ضل في الطريق إذا لم يهتد له، والوجهان متقاربان^(٣)، وقال القرطبي: «والضلال عن الشهادة إنما هو نسيان جزء منها وذكر جزء، ويبقى المرء حيران بين ذلك ضالاً، ومن نسى الشهادة جملة فليس يقال: ضل فيها»^(٤)، وعامة المفسرين على أن هذا التذكير والإذكار من النسيان، والمعنى أن النسيان غالب على طباع النساء، واجتماع المرأتين على النسيان أبعد من صدور النسيان عن المرأة الواحدة، والعلة في الحقيقة التذكير ولكن لما كان الضلال سبباً له نزل منزلته، وكأنه قيل إرادة أن تذكر إحداهما الأخرى إن ضلت، وفيه إشعار بنقصان عقلهن وقلة ضبطهن^(٥).

١- أخرجه البخاري، كتاب الحيض، باب ترك الحائض الصوم ١ / ١١٦، برقم: ٢٩٨، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات... ١ / ٨٦، برقم: ٧٩، واللفظ للبخاري.

٢- سورة البقرة: الآية ٢٨٢.

٣- انظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري ٦/٦٥، ومفاتيح الغيب للرازي ٧/١٠٠.

٤- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣/٣٩٧.

٥- انظر: جامع البيان للطبري ٦/٦٥، والهداية إلى بلوغ النهاية لمكي ابن أبي طالب ١/٩٢٠، والكشاف للزمخشري ١/٣٥٣، والمحرم الوجيز لابن عطية ١/٣٨١، ومفاتيح الغيب للرازي ٧/٩٩، ١٠٠، وأنوار =

وروي أن المراد جعلها ذكراً يعني أن مجموع شهادة المرأتين كشهادة الرجل الواحد؛ لأنهما يقومان مقام رجل واحد، فكأن كل واحدة منهما صيرت صاحبته معها ذكراً^(١)، وقد بين الطبري والرازي وغيرهما^(٢) ضعفه وبطلانه؛ لوجوه: أحدها: أنه خلاف لقول جميع أهل التأويل.

الثاني: أن النساء لو بلغن ما بلغن ولم يكن معهن رجل لم تجز شهادتهن، فإذا كان كذلك فالمرأة الثانية ما ذكرت الأولى.

الثالث: المحفوظ من جهة اللغة أن هذا الفعل لا يتعدى، تقول: أذكرت المرأة فهي مذكر إذا ولدت الذكور، وأما أذكرت المرأة: صيرتها كالذكر، فغير محفوظ.

الرابع: أن قوله ﷻ: ﴿فَتَذَكَّرَ﴾ مقابل لما قبله من قوله ﷻ: ﴿أَنْ تَضِلَّ﴾

إحداً منهما، فلما فسر الضلال بالنسيان كان الإنكار مفسراً بما يقابل النسيان. الخامس: أنه معلوم أن ضلال إحدى المرأتين في الشهادة التي شهدت عليها، إنما هو ذهابها عنها ونسيانها إياها، وإذا صارت إحداها بهذه الصفة، فكيف

=التنزيل للبيضاوي ٥٧٩/١، ولباب التأويل للخازن ٣٠٧/١، والبحر المحيط في التفسير لأبي حيان ٣٦٦/٢، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤١٣/١، والسراج المنير للشرييني ١٥٥/١، والبحر المديد لابن عجيبة ٣٦٦/١، وفتح القدير للشوكاني ٣٤٦/١، وتيسير الكريم الرحمن للسعدي ص ١١٨، وفي ضلال القرآن لسيد قطب ٣٣٦/١، والتحرير والتنوير لابن عاشور ٥٧٤/٢، وأضواء البيان للشنقيطي ٨٩/٦، وتفسير المظهري ٤٢٩/١، وأيسر التفاسير للجزائري ٢٧٤/١، وبيان المعاني لملاحويش ٢٦٠/٥.

١- انظر: جامع البيان للطبري ٦٣/٦، والهداية إلى بلوغ النهاية لمكي ابن أبي طالب ٩٢٠/١، ومفاتيح الغيب للرازي ١٠٠/٧، ولباب التأويل في معاني التنزيل للخازن ٣٠٧/١.

٢- واعتبره الزمخشري من بدع التفاسير [الكشاف عن حقائق التنزيل ٣٥٣/١]، وقال ابن عطية: «وهذا تأويل بعيد، غير فصيح، ولا يحسن في مقابلة الضلال إلا الذكر»، [المحرر الوجيز ٣٨١/١]، وقال أبو حيان بعد أن ذكر ما قاله -الزمخشري وابن عطية-: «وما قالاه صحيح». [البحر المحيط في التفسير ٣٦٦/٢].

يجوز أن تصير الأخرى ذكراً معها، مع نسيانها شهادتها وضلالها فيها؟ وللضالة منهما في شهادتها حينئذ، لا شك أنها إلى التذكير أحوجُّ منها إلى الإذكار^(١).
وقد نقل محمد رشيد رضا عن محمد عبده أن السبب في تفضيل الرجل على المرأة بالشهادة أن المرأة ليس من شأنها الاشتغال بالمعاملات المالية ونحوها من المعاوزات، فلذلك تكون ذاكرتها فيها ضعيفة، وطبع البشر ذكراً وإناً أن يقوى تذكرهم للأمور التي تهمهم ويكثر اشتغالهم بها، وعلل الشعراوي لذلك بأن الشهادة احتكاك بمجتمع لتشهد فيه وتعرف ما يحدث، والمرأة بعيدة عن كل ذلك غالباً^(٢).
ويفهم من كلامهما أن التفضيل بالشهادة لا يرجع إلى طبيعة خلقة المرأة، وهذا مع مخالفته لما قاله المفسرون، فإن الجوانب العلمية - التي يأتي ذكرها - ترد قولهما.

ومما سبق يتضح أن الفوارق بين الذكر والأنثى هي فوارق كونية وقدرية أولاً، وفوارق شرعية منزلة ثانياً، وهذا يمنع منعاً باتاً من المساواة الكاملة بين الرجل والمرأة، ومحاولة ذلك في جميع نواحي الحياة لا يمكن أن يتحقق، ولهذا ثبت عن النبي ﷺ أنه لعن المتشبه من النوعين بالآخر، فعن ابن عباس قال: **لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ وَالمُتَشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ**^(٣)، فلو كانت الفوارق بين الذكر والأنثى يمكن تحطيمها وإزالتها لم يستوجب من أراد ذلك اللعن من الله ورسوله، ومما لا نزاع فيه بين العقلاء أن الذكر والأنثى إذا تعاشرا معاشرته البشرية الطبيعية التي لا بقاء للبشر دونها، فإن المرأة تتأثر بذلك تأثراً طبعياً كونياً قديماً مانعاً لها من مزاوله الأعمال كالحمل والنفاس وما ينشأ عن ذلك

١- انظر: جامع البيان للطبري ٦/٦٦، ومفاتيح الغيب للرازي ٧/١٠٠، والبحر المحيط لأبي حيان ٢/٢٦٥.

٢- انظر: تفسير القرآن الحكيم المعروف بتفسير المنار ٣/١٠٤، وتفسير الشعراوي ٢/١٢١٦.

٣- أخرجه البخاري، كتاب اللباس، باب المتشبهين بالنساء والمتشبهات بالرجال ٥/٢٢٠٧، برقم: ٥٥٤٦.

من الضعف والمرض والألم، بخلاف الرجل فإنه لا يتأثر بشيء من ذلك، ومع هذه الفوارق لا يتجرأ على القول بمساواتهما في جميع الميادين إلا مكابر في المحسوس، فلا يدعو إلى المساواة بينهما إلا من أعمى الله بصيرته^(١).

فيا دعاة المساواة ويا من فقدتم الثقة بدينكم وشريعة ربكم؛ إليكم شهادة (سامويل سمايلس) وهو أحد أركان النهضة الإنجليزية إذ يقول: «إن النظام الذي يقضي بتشغيل المرأة في المعامل-مهما نشأ عنه من الثروة للبلاد- فإن النتيجة كانت هادمة لبناء الحياة المنزلية؛ لأنه هاجم هيكل المنزل، وقوض أركان الأسرة، ومزق الروابط الاجتماعية»^(٢)، وها هي سلمى الحفار الكزبري -إحدى زعيمات الحركة النسائية المعاصرة- تقول: «عُدْتُ من رحلتي للولايات المتحدة منذ خمسة أعوام وأنا أرثي لحال المرأة التي جرفها تيار المساواة الأعمى، فأصْبَحْتُ شَقِيَّةً في كفاحها لكسب العيش، وفَقَدْتُ حتى حُرِّيَّتها»^(٣).

إن الإسلام يهدف إلى بناء مجتمع يكون فيه لكل من الرجل والمرأة دور متكامل في عملية البناء والتنمية، وقد أعطى الإسلام المرأة حقوقها كاملة على أساس ينسجم مع شخصيتها وقدراتها وكفاءتها وتطلعها ودورها الرئيس في الحياة^(٤). وقد جاء في نص قرارات مجمع الفقه الإسلامي الدولي المنبثق عن منظمة التعاون الإسلامي: «يجب الحذر من اتخاذ شعار المساواة بين الرجل والمرأة مبرراً

١- انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٧/٤١٤-٤١٧.

٢- انظر: أسباب وعلاج التمزق في ميزان الشريعة الإسلامية لمحمد البعداني ص ٤٧.

٣- المصدر نفسه ص ٤٤.

٤- انظر: الإعلان الإسلامي لدور المرأة في تنمية المجتمع المسلم، ضمن قرارات مجمع الفقه الإسلامي الدولي المنبثق عن منظمة التعاون الإسلامي، انظر: تبويب قرارات مجعي الفقه (الدولي والرابطة) إلى الدورة العشرين لمحمد البعداني ص ٤٦٤.

لأمور وممارسات مخالفة للإسلام»، وجاء فيها أيضاً: «رفض ما يخالف نصوص الشريعة الإسلامية في الاتفاقيات والمواثيق الدولية، والتي تدعو إلى إلغاء الفوارق الفطرية بين دور الرجل والمرأة في المجتمع، والدعوة إلى المساواة التامة بين الذكر والأنثى في كل درجات الميراث، والإساءة إلى نظام الطلاق في الشريعة الإسلامية، وتدعو إلى إلغاء قوامة الرجل في الأسرة، وغير ذلك مما هو ثابت في الشريعة الإسلامية»^(١).

فعلى الرجل والمرأة أن يطلبوا عزمهما فيما شرعه الله؛ فهو الملجأ والملاذ لكل ذي حق مهضوم، وعليهما كذلك أن يتمسكا بما كلفهما الله ﷻ به؛ لأنه ما كلفهما إلا بما تقتضيه الحكمة، ويؤيده العقل السليم^(٢)؛ لأنه ﷻ خالق الإنسان، العالم بطبيعته وخلقه وفطرته، لذا جاءت تشريعاته متناسبة مع هذه الطبائع وهذا الخلق؛ فالخالق أعلم بما يصلح مخلوقه، لذا قال الله ﷻ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾^(٣)، وقال ﷻ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ بَقَدِيرٍ﴾^(٤)، فقد خلق الرجل تقديراً يتناسب مع دوره في الحياة، وقد خلق المرأة بتركيب يناسب مع دورها في الحياة، فالعجيب من دعاة التسوية هؤلاء كيف يقحمون المرأة فيما لا يناسب فطرتها وخلقتها!

فمن رام التسوية بين الرجل والمرأة في كل شيء فهو ينازع الله الحكيم الذي يضع الأمور في مواضعها ﷻ، ولهذا لما قال الله ﷻ: ﴿وَالرِّجَالُ عَلَىٰ نِجْمٍ دَرَجَةٌ﴾، اتبعها بقوله ﷻ: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، فهو ﷻ ﴿عَزِيزٌ﴾ والعزة: القهر والغلبة والقوة،

١- انظر: تبويب قرارات مجمعي الفقه (الدولي والرابطة) إلى الدورة العشرين للبعثاني ص ٤٧٣، ٤٨١.

٢- انظر: التفسير الوسيط للقرآن الكريم لطنطاوي ١/٥١٣.

٣- سورة القمر: الآية ٤٩.

٤- سورة الفرقان: الآية ٢.

أي: غالب في انتقامه ممن عصاه وخالف أمره وتعدّى حدوده، منيع السلطان، قادر على الانتقام، لا معترض عليه في أموره، فلا يعجزه عقاب من خالف أمره، لكنه يمهل ولا يُهمل، وهو **﴿حَكِيمٌ﴾** والحكمة إتقان الأشياء ووضعها في مواضعها على ما ينبغي، فهو حكيم في أمره وشرعه وقدره وتدبيره وسائر ما كلف به عباده، تنطوي شرائعه على الحكم والمصالح سواء ظاهرة كانت أو خفية، عالم لا يأمر إلا بما هو صواب وفيه حكمه^(١).

فعرزته تؤيد حكمته، فينفذ ما اقتضته الحكمة بالتشريع والأمر الواجب امتثاله، ويحمل الناس على ذلك وإن كرهوا^(٢).

فأتبع قوله: **﴿وَلِلرَّجَالِ عَلَىٰ نَاصِيَتِهِمْ دَرَجَةٌ﴾**، بقوله: **﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾** للوعيد المشعر بقوة الله الذي فرض الأحكام لحكمته؛ ليزدجر أولو النُّهى، وليذكر أولو الحجى^(٣)، فيتقوا عقابه، ويحذروا عذابه، وهذا فيه ما يرد القلوب عن الزيغ والانحراف تحت شتى المؤثرات والملابسات^(٤).

١- انظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري ٤/٥٣٧، ٥٣٨، وتفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ٢/٤١٨، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣/١٢٥، وأنوار التنزيل للبيضاوي ١/٥١٧، ومدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي ١/١١٠، والبحر المحيط في التفسير لأبي حيان ٢/٢٠١، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/٣٣٦، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل ١/٧٤٧، وتفسير الجلالين ص ٤٦، والسراج المنير للشربيني ١/١٢٥، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود ١/٢٢٦، والبحر المديد لابن عجيبة ١/٢٩١، والتحرير والتنوير لابن عاشور ٢/٣٨٣، والتفسير الوسيط لطنطاوي ١/٥١٣.

٢- التحرير والتنوير ٢/٣٨٣.

٣- النُّهى: العقل؛ سمي بذلك؛ لأنه ينهى عن القبيح، والحجى: العقل والفتنة. انظر: لسان العرب (١٤/١٦٥)، (١٥/٣٤٣).

٤- انظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري ٤/٥٣٨، وفي ظلال القرآن لسيد قطب ١/٢٤٧.

المطلب الثاني: الفرق بين خلق الذكر والأنثى في ضوء الاكتشافات العلمية

أثبتت الدراسات العلمية الحديثة اختلاف الرجل عن المرأة اختلافاً كبيراً في كثير من النواحي، وأن الفروق الفسيولوجية (الوظيفية) والتشريحية بين الذكر والأنثى أكثر من أن تحصى وتعد، وذلك بالرغم من أن النطفة التي يتكون منها جنين الذكر تشابه وتمائل النطفة التي يتكون منها جنين الأنثى في عدد الكروموسومات أو الصبغيات، ولا تختلف النطفتان إلا في كروموسوم أو صبغي واحد، فهذا الجزء الوحيد الذي يختلف فيه الذكر عن الأنثى يسبب اختلافاً كبيراً وشاسعاً وعميقاً بين الذكر والأنثى في الشكل الظاهري والتركييب الداخلي^(١).

الفروق في المورثات: تبتدئ هذه الفروق على مستوى الصبغيات (الجسيمات الملونة أو الكروموسومات) الموجودة في كل خلية وتتحكم في الوراثة، وهي صغيرة جداً حتى أن ثخانتها تقاس بالأنجستروم (على بليون من المليمتر)، وهي موجودة على هيئة أزواج، منها زوج واحد مسؤول عن الذكورة والأنوثة، ففي خلية الذكر نجد هذا الزوج على هيئة (XY)، بينما هو في خلية المرأة على هيئة (XX)، وصبغي الذكورة قصير سميك بالنسبة لصبغ الأنوثة، ومع ذلك فهو يجعل الخلية الذكرية أكثر نشاطاً وأقوى شكيمة وأكثر إقداماً من شقيقتها الأنثوية، فصبغي الذكورة يختلف في شكله وحقيقته عن صبغ الأنوثة^(٢).

وكانت النظرية السائدة بين العلماء هي أن النسخة الثانية من الكروموسوم الأنثوي (X) معطلة تماماً؛ لتجنب الآثار الفتاكة والمميتة لوجود نسختين فاعلتين

١- انظر: وليس الذكر كالأنثى بحث علمي لعبد الرزاق نوفل، منشور على موقع نداء الإيمان على الرابط: www.al-eman.com، والموسوعة العلمية الشاملة في الطب النبوي النبوية (الطب والجنين) لسمير عبد الحلیم ص ١٠٠.

٢- انظر: عمل المرأة في الميزان للبار ص ٥٤، ٥٩.

في خلايا جسم المرأة؛ لكنّ الدراسات التي أجريت خلال العقدين الماضيين أوضحت خطأ هذا الاعتقاد، فقد بينت البحوث أنّ ١٥% من مورثات (جينات) كروموسوم (X) الثاني (المعطل) نشيطة، وتترك بصماتها على تراكيب جسم المرأة ووظائفها، وبلغت الأرقام فقرابة ٢٠٠ مورثة لها نسختان فاعلتان في جسم المرأة، لا يقابلها مورثات فاعلة في جسم الرجال، ليس هذا فحسب، بل إنّ عدد المورثات الفاعلة في كروموسوم (X) من خلايا جسم النساء، يزيد ١٤ ضعفاً عن تلك الموجودة في كروموسوم (Y) الذكري، وأنه لو قُدِّرَ لهذه المورثات أن تكون فاعلة في خلايا الرجال، لتسبب ذلك في هلاك الذكور وانقراض الرجال من المجتمعات البشرية، وبالمجمل فنسبة اختلاف المورثات بين الجنسين تبلغ ٢-٣% من مجموع ٣٠ ألف مورثة، هو مجمل عدد المورثات في جسم الإنسان، وبالتالي، فنحن أمام كائنين مختلفين وراثياً، أكثر بكثير مما اعتقده العلماء سابقاً^(١).

الفروق في الخلايا: وترتفع الفروق إلى مستوى الخلايا، فكل خلية في جسم الإنسان توضح لك تلك الحقيقة الفاصلة بين الذكورة والأنوثة، فخلايا جسم المرأة تختلف في خصائصها وتركيبها عن خلايا جسم الرجل، وإذا دققنا النظر في المجهر لوجدنا الفروق واضحة بين خلية الرجل وخلية المرأة، مع أن عدد خلايا جسم الإنسان يصل إلى ستين مليون مليون خلية، وبنظرة فاحصة في المجهر تعرف خلية الرجل من خلية المرأة، كل خلية فيها موسومة بميسم الذكورة أو مطبوعة بطابع الأنوثة^(٢).

١- انظر: الفرق بين الرجل والمرأة لنورhana إبراهيم عبدالله، بحث منشور في مجلة الإعجاز العلمي الصادرة عن الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، ص٢٧، عدد٤٣، ربيع الثاني، ١٤٤٣هـ، ومنشور ضمن بحوث المؤتمر العالمي الثامن للإعجاز في الكويت، العلوم الطبية، ٢٥٧/١، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٧م.
٢- انظر: عمل المرأة في الميزان للبار ص٥٣، والإعجاز العلمي في السنة النبوية لصالح أحمد ١١٧٨/٢.

الفروق في النطفة: وتتجلى الفروق أكثر في نطفة الذكر (الحيوانات المنوية) ونطفة المرأة (البويضة)، إذ نجد الفرق شاسعاً بين الحيوانات المنوية وبين البويضة من ناحية العدد، فالخصية تفرز مئات الملايين من الحيوانات المنوية في كل قذفة مني، بينما يفرز المبيض بويضة واحدة في الشهر، وينظرة فاحصة لخصائص الحيوان المنوي الذي يقاس بالميكرون تجعلنا نوقن بأنه يجسد خصائص الرجولة، بينما نرى البويضة تجسد خصائص الأنوثة، فالحيوان المنوي له رأس مدبب وعليه قلنسوة مصفحة وله ذيل طويل وهو سريع الحركة قوي الشكيمة لا يقر له قرار حتى يصل إلى هدفه أو يموت، بينما البويضة كبيرة الحجم (١/٥ ميليمتر) وتعتبر أكبر خلية في جسم المرأة، وهي هادئة ساكنة تسير وتتهادى باختيار، وعليها تاج مشع في مكانها لا تبرحه ولا تفارقه^(١).

الفروق في الأنسجة والأعضاء والأجهزة: ثم ترتفع الفروق بعد ذلك في الأنسجة والأعضاء وأجهزة الجسم المختلفة من العظام إلى العضلات، فتركيب العظام يختلف في الرجل عن المرأة في القوة والمتانة، وفي الضيق والسعة، وفي الشكل والزاوية، وعضلات الرجل مشدودة قوية، وهو عريض المنكبين، واسع الصدر، ضيق البطن، صغير الحوض نسبياً، لا أرداف له، ولا عجز كبير، يتوزع الدهن في جسمه توزيعاً عادلاً، وطبقة الدهن في الغالب الأعم محدودة بسيطة، بينما نجد عضلات المرأة رقيقة، ومكسوة بطبقة دهنية تكسب الجسم استدارة وامتلاء مرغوب فيه، خالياً من الحفر والنتوءات الواضحة المتعاقبة.

والقلب عند المرأة أصغر وأخف منه عند الرجل بمقدار ٦٠ غراماً في المتوسط، فمعدل وزن القلب في الرجال يتراوح بين ٢٥٠ و ٢٩٠ غرام، وفي النساء يتراوح بين

١- انظر: عمل المرأة في الميزان للبار ص ٥٤، ٥٥.

١٩٤ و ٢٣٤ غرام، ودقات قلب الرجل ٧٢ ضربة في الدقيقة، بينما دقات قلب المرأة تزيد عن هذا المقدار بواحد، وتكون أسرع، وصدر المرأة ورثتها أقل سعة من صدر الرجل ورثتيه، أما الجمجمة فيتراوح وزنها في المرأة بين ١١٠٠ و ١٣٠٠ غرام، وفي الرجل يتراوح بين ١٢٠٠ و ١٤٠٠ غرام؛ أي: الفرق ١٠٠ غرام، ويتبع عادة حجم الجمجمة حجم المخ، فإنه أصغر في المرأة وأخف وزناً، وهناك فرق أيضاً في شكل المخ وتلافيفه، التي هي مراكز القوى العقلية، والتعاريج الموجودة على سطح مخ الرجل أكثر تعقيداً وأكثر عدداً عن مخ المرأة وسيأتي بيانه إن شاء الله تعالى^(١).

يقول أحد علماء الطب بعد دراسة طويلة أثبتتها في كتب معتمدة: «إن قامة المرأة في جميع الأجناس أقصر من قامة الرجل، بل إن معدل الفرق عند تمام النمو عشرة سنتيمترات، وكذلك الوزن، فهيكل المرأة العظمي أخف من هيكل الرجل العظمي، وتركيب هيكلها يجعلها أقل قدرة على الحركة والانتقال، وعضلاتها أضعف من عضلات الرجل بمقدار الثلث؛ لكنها تفضله بنسيجها الخلوي الذي يحتوي على كثير من الأوعية الدموية، والأعصاب الحساسة، ونسيجها الخلوي يسمح لها باختزان طبقة دهنية، وبفضل هذه الطبقة الدهنية تكون استدارة الشكل»^(٢).

١- انظر: عمل المرأة في الميزان للبار ص ٥٦، ٥٧، وموسوعة الإعجاز العلمي للنايلسي ص ٥٤، وموسوعة عجائب جسم الإنسان في العلم والقرآن لمحمد كمال عبد العزيز ص ٧٧، والفوارق بين الرجل والمرأة لبليل عبدالكريم، بحث منشور على شبكة الألوكة على رابط الموضوع: (<http://www.alukah.net>)، وحقيقة الاختلاف العقلي بين الرجل والمرأة لحمد الراشدي الرابط: (<http://www.alzakera.eu/music/vetenskap/Biologia/bio-0004.htm>).

٢- موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة آيات الله في الإنسان لمحمد راتب النايلسي ص ٥٣، ٥٤.

وجهاز الغدد الصماء الذي هو عبارة عن مجموعة غدد لا قنوات لها منتشرة في أرجاء الجسم المختلفة^(١)، هو أحد الأجهزة التي تتجلى فيه الفروق كأوضح ما يكون، فهرمونات^(٢) الذكورة تختلف عن هرمونات الأنوثة في تأثيرها اختلافاً كبيراً رغم أن الفرق الكيماوي بسيط، ويتمثل في زيادة ذرة من الكربون وثلاثة ذرات من الهيدروجين (CH3) إلى التركيب الجزيئي (Molecular Structure) في هرمون الأنوثة، فهرمون الذكورة يساوي هرمون الأنوثة + (مجموعة مثيلية)، وفي أثناء تكوين الجنين في مراحله الأولى يكون جنين الذكر مشابهاً في أول الأمر لجنين الأنثى ويصعب التفريق بينهما إلا على مستوى الصبغيات (الكروموسومات)، ولكن سرعان ما تتميز منطقة في المخ تدعى تحت المهاد لدى الجنين الذكر عن مثيله جنين الأنثى، وهذه الإضافة والزيادة في مخ جنين الذكر تؤدي إلى الفروق الهائلة فيما بعد بين الجهاز التناسلي للذكر والجهاز التناسلي للأنثى، كما يؤدي إلى الفروق الهائلة بين غدد الذكر الصماء وغدد الأنثى، وتؤثر هذه الغدد على مختلف أنشطة الجسم وعلى هيكله أيضاً، ومن ثم يختلف بناء هيكل الذكر عن بناء هيكل الأنثى كما تختلف الوظائف تبعاً لذلك^(٣).

١- وسميت بالصماء؛ لأنها تفرز وتفرغ المواد التي تفرزها في الدورة الدموية مباشرة (في الأوردة الدموية)، والمواد الفعالة التي تنتجها تدعى الهرمونات التي تنتقل بواسطة الدم لتؤثر على خلايا خاصة بعيدة عنها. انظر: أساسيات علم وظائف الأعضاء لعبد المجيد الشاعر وآخرين ص ٣٢٩.

٢- الهرمونات: هي عبارة عن المواد الفعالة التي تنتجها الغدد الصماء، والتي تنتقل بواسطة الدم لتؤثر على خلايا خاصة بعيدة عنها. انظر: أساسيات علم وظائف الأعضاء ص ٣٢٩.

٣- والسبب في تمايز منطقة تحت المهاد من المخ بين جنين الذكر وجنين الأنثى هو هرمون (التستسترون) الذي تفرزه مشيمة الجنين الذكر، ثم تنمو الغدة التناسلية وتؤثر بالتالي على المنطقة المخية تحت المهاد، ومن الغريب حقاً أن هيكل البناء يصمم أساساً على هيكل الأنثى؛ فإذا وجد كروموسوم الذكورة فإنه يضيف إلى ذلك الكيان إضافات تجعل النهاية ذكراً، أما إذا اختفى هذا=

وخلاصة القول هنا: إن الفروق بين الذكر والأنثى تشمل جميع أجهزة الجسم، ولكنها تدق في بعض الأجهزة وتتضح في أخرى، وتتجلى الفروق بوضوح في اختلاف الأجهزة التناسلية^(١).

الفروق العقلية والذهنية:

إن الكتب والأبحاث والأصوات في السبعينيات من القرن العشرين كانت تدعو وتوهم الناس أن دماغ المرأة مثل دماغ الرجل، بل إنه لعدة عقود خلت كان من الممتع فكرياً الإصرار على اعتبار الفروق السلوكية بين الجنسين هي فروق طفيفة ناجمة عن اختلاف الخبرات بينهما، قبل سن البلوغ وبعده، ولكن الأبحاث الجديدة اليوم والتي تتم بواسطة أجهزة المسح بالرنين المغناطيسي الوظيفي تبين اختلافات جذرية واضحة بين دماغ المرأة ودماغ الرجل، وربما نتذكر كذلك تلك النظرية التي كانت تؤكد أن الاختلاف بين الطفل والطفلة يكون بسبب أسلوب التربية فقط، ولكن تبين فيما بعد أن هذه النظرية خاطئة؛ لأن الإنسان يولد وفي دماغه برنامج خاص يختلف في الذكر عن الأنثى، والأدلة العلمية المتراكمة عزت هذه الاختلافات إلى تأثير الهرمونات الجنسية على دماغ الجنين أثناء الأسبوع الثالث عشر من الحمل، حين ترتفع تراكيز الهرمونات الذكرية ارتفاعاً كبيراً في الأجنة الذكور، فتصوغ الأدمغة

= الكروموسوم الهام من تركيب البويضة الملقحة كما يحصل في بعض الحالات النادرة التي ترينا قدرة المولى ﷺ فإن النتيجة هي جسم امرأة، وإن كانت ناقصة التكوين ففي حالة (ترنر) فإن البويضة الملقحة تحتوي فقط على كروموسوم (X) فلا هي أنثى محتوية على (XX)، ولا ذكر محتوية على (XY)، بل تكون النتيجة أنثى غير أنها لا تحيض ولا تحبل ولا تلد، أما إذا كانت نتيجة التلقيح مثلاً (XXY) كما يحصل في حالة (كلينفلتر) فإن الطفل المولود يكون ذكراً رغم وجود صبغيات الأنوثة بصورة كاملة، وإن كان ذكراً ضعيف الهمة بارد الشهوة خائر العزيمة، وذلك لتراكم صبغ الأنوثة فيه، أما إذا زاد صبغ الذكورة في البويضة الملقحة وصار حاصلها (XYY) أي أن بها صبغين كاملين من أصباغ الذكورة، فإن النتيجة تكون ذكراً قوي الشكيمة شديد البأس كثير العدوان. انظر: عمل المرأة في الميزان للبار ص ٥٩-٦١.

١- انظر: عمل المرأة في الميزان لمحمد علي البار ص ٦٠.

بطريقة مختلفة تماماً عن أدمغة الأجنة الإناث، هذه الفروق تتعاضد مع مرور الأيام، لتصل تراكيز هرمون التستوستيرون الذكري ٢٠ ضعفاً في البالغين عنه في البالغات^(١). تقول الباحثة الأمريكية (سالي ويتز): «مع أن النظريات المتعلقة بالفروق في استخدام الرجال والنساء لأدمغتهم ليست جديدة، إلا أن الأدلة التي تثبت وجود فروق بين أدمغتهم وأدمغتهن كانت حتى الآن أدلة غير مباشرة، أما الآن فقد أصبح بوسع العلماء دراسة أنشطة الدماغ بصورة مباشرة»^(٢).

وقد عمل مجموعة من الباحثين - أطباء وفسانيين واجتماعيين - على تقديم نتائج مترابطة لافتة النظر عن اللاتماثل بين الجنسين من حيث بنية الدماغ، فأبرزت بحوثهم أدلة قوية على الاختلاف الحاصل بين بنية دماغ المرأة والرجل من ناحية، وبين عمليات تفاعل الهرمونات مع دماغ المرأة ودماغ الرجل من ناحية أخرى، حيث يأخذ هذا الاختلاف مأخذه من بداية حياة الإنسان وهو جنين، إذ تبين أن دماغ الرجل مصمم للتعامل مع معلومات بصرية ومكانية وللتعليل في الرياضيات أي في التحليل والتنظير، ويتميز بالتركيز في وقت ما على أمر واحد؛ أما دماغ المرأة فمصمم للتعامل مع مهارات متضمنة تفاصيل، ويتميز بالتفكير في وقت ما على عدة أمور، أي التشتت في التفكير^(٣).

لقد وجد العلماء فروقاً كبيرة وظيفية وتشريحية بين أدمغة الرجال والنساء، فدماغ الرجل أكبر من دماغ المرأة بمعدل يصل إلى ١٥%، كما أن عدد خلايا قشرة

١- انظر: وليس الذكر كالأنتى (رؤية علمية جديدة) لعبد الدائم كحيل، منشور على موقعه: (www.kaheel7.com)، وعمل المرأة في الميزان للبار ص ٦٢، والفرق بين الرجل والمرأة لنورهانا، بحث في

مجلة الإعجاز العلمي الصادرة عن الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، عدد ٤٣، ص ٢٨.

٢- انظر: الإعجاز العلمي في السنة النبوية لصالح أحمد رضا ١١٨١/٢.

٣- انظر: المعجزة العلمية في (وليس الذكر كالأنتى) عبد الوهاب الراوي، من أبحاث المؤتمر العالمي السابع للإعجاز العلمي في القرآن والسنة بدولة الإمارات-دبي، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م، العلوم الطبية ص ٢.

الدماغ في الذكور أكثر بـ ١٥%، وكثافة الخلايا العصبية يزيد بنسبة ١٣% في الذكور، وحجم خلايا دماغ الرجل يزيد بمقدار ٣٠% عن حجم خلايا دماغ المرأة، وأنَّ استهلاك الناقل العصبي دوبامين (dopamine) -وهو ضروري لصفو الدماغ وتحسين المزاج- مختلف بشكل واضح بين الجنسين، وحجم خلايا تحت المهاد -وهي المسؤولة عن الوظائف الحيوية الأساسية- في الرجال ضعف حجمها في النساء، أما أنوية فوق التصالب البصري^(١) -المسؤولة عن تنظيم الدورات الجسمية- فشكلها مختلف في الرجال عما هي عليه في النساء، ومن جهة أخرى فالشق الأيمن من قشرة دماغ الذكور أكثر سماكة من الشق الأيسر، في حين لم يجد الباحثون فروقاً تذكر بين شقي دماغ الإناث^(٢).

وثبت ما يؤكد وجود فروق في الذكاء بين الجنسين؛ إذ أظهر فحص الفص الصدغي السفلي (inferior parietal lobule)، وهو الجزء المتعلق بالانتباه والإدراك والقدرات الذهنية الحسابية، أنه أضخم في الرجال، وأن الجزء الأيسر منه أكثر ضخامة من الأيمن، أما النساء فالشق الأيمن منه أكبر قليلاً من الأيسر، ويذكر أن هذا الجزء من الدماغ مضمحل بشكل ملحوظ في الرجال الذين يعانون من مرض انفصام الشخصية، بينما لا يظهر فرق كبير في حجمه بين النساء طبيعيات ومن يعانين من انفصام الشخصية^(٣).

١- التصالب البصري: ملتقى العصبين البصريين للعينين في قاعدة الدماغ. الموسوعة العربية العالمية ٧٤١/١٦.

٢- انظر: من أسرار القرآن وليس الذكر كالأنثى لزغلول النجار، جريدة الأهرام، قضايا وآراء: ٢٤ جماد الآخر ١٤٢٨هـ- ٩ يوليو ٢٠٠٧م، السنة ١٣١، العدد: ٤٤٠٤٤، والفرق بين الرجل والمرأة لنورهانا، بحث منشور في مجلة الإعجاز العلمي الصادرة عن الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، العدد ٤٣، ص ٢٨، ٢٩.

٣- الفرق بين الرجل والمرأة لنورهانا، مجلة الإعجاز، ص ٢٨، ٢٩، عدد ٤٣.

كما بينت الدراسات العلمية الحديثة أن دماغ الرجل يحتوي ستة أضعاف ونصف الضعف من المادة الرمادية (gray matter)^(١) المتعلقة بمعالجة الذكاء أكثر من النساء، في حين تحتوي أدمغة النساء على عشرة أمثال الرجال من المادة البيضاء (white matter) المسؤولة عن التواصل بين أجزاء الدماغ المختلفة، وبالإضافة إلى ما ذكر فإن الفص الأمامي (frontal lobe) للإناث هو المسؤول عن الذكاء، بينما تتوزع خلايا الذكاء في الرجال على مساحة واسعة من أدمغة الذكور، ومن جهة أخرى وجد باحثون في الولايات المتحدة وكندا بأن عدد خلايا الدماغ في الرجال أكبر من النساء، في حين تزيد المساحات البينية بين خلايا الدماغ، وهي مهمة للتواصل بين هذه الخلايا في النساء عنها في الرجال^(٢).

كما تعددت الدراسات في مجال البحث عن الفروق بين المتفوقين والموهوبين من الجنسين في الخصائص والسمات العقلية حيث أكدت دراسة (ماكوبي) و(جاكلين) ودراسة (بلوك)، أن هناك فروقاً بين الذكور والإناث في الخصائص والسمات العقلية والانفعالية والاجتماعية والميول والاهتمامات، والتي تم إثباتها من خلال مراجعة (١٦٠٠) دراسة تتعلق بمقارنة الخصائص والسمات لكل من الذكور والإناث، وأظهرت المراجعة لهذه الدراسات: تفوق الإناث على الذكور في القدرة اللغوية، كمعرفة المعاني والمفردات، والفهم للقراءة والطلاقة في التعبير، والطلاقة في فهم المعاني للكلمات، وأن هذا التفوق يظهر في سن مبكرة، وفي أعمار صغيرة أكثر

١- نسيج عصبي يتألف من خلايا عصبية ذات محاور غير مغطاة بمادة النخاعين (myelin) خلافاً للمادة البيضاء، ولها وظيفة متعلقة بالإحساس والحركة واللغة، وتكون الأجزاء السطحية من المخ والعميقة من الحبل الشوكي، وتعتبر محطة تجميع وتوجيه للإشارات العصبية من المخ إلى المادة البيضاء التي بدورها توجهها إلى أهدافها. انظر: التشريع الإلهي الحكيم وإعجازه في مراعاة الفروق البيولوجية بين الجنسين، على الرابط: (<http://forum.ashefaa.com/showthread>).

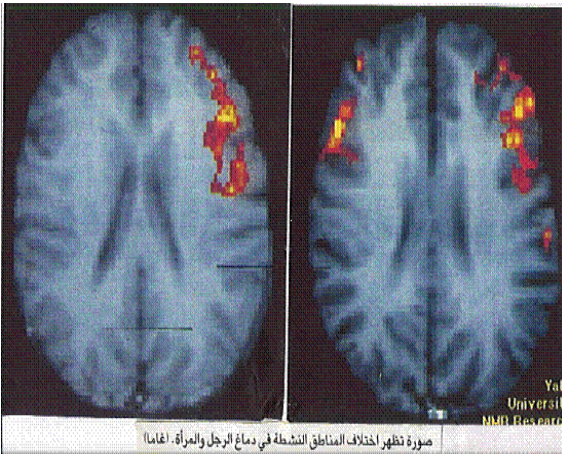
٢- انظر: الفرق بين الرجل والمرأة لنورهانا، في مجلة الإعجاز العلمي ص ٢٨، عدد ٤٣.

من الذكور، ويحافظن على الاستمرارية في التفوق الدراسي في جميع المواد إلى مرحلة ما قبل المراهقة، بالإضافة إلى تفوقهن في الأعمال التي تتطلب الدقة وإيجاد التفاصيل والتعرف على الاختلافات الدقيقة.

كما أظهرت تفوق الذكور في القدرة الميكانيكية والتعامل مع الآلات والرسومات والأجهزة، وفي القدرة الرياضية الحسابية والتعامل مع الأعداد والأرقام، والقيام بالعمليات الحسابية المعقدة، وحل المشكلات، وفي القدرة الحركية الجسدية، وممارسة ألعاب القوى، وسرعة الركض والقفز والرمي^(١).

فدماغ الرجل أكبر وتلافيف مخه أكثر، وتقول الأبحاث إن المقدرة العقلية والذكاء تعتمدان إلى حد كبير على حجم ووزن المخ وعدد التلافيف الموجودة فيه^(٢).

أما القدرات الذهنية والتفكير: فقد وجد العلماء أن كلا جانبي دماغ المرأة يُستخدمان في معالجة اللغة، أما دماغ الرجل فإنه أكثر تخصصاً، فالرجل يستخدم



صورة تظهر اختلاف المناطق النشطة في دماغ الرجل والمرأة. أغانا

جانباً واحداً من دماغه لذلك، والصورة المقابلة تبين أن المرأة تشغل جزئين من أقصى المخ عند الكلام، فيتم تنشيط الجانبين الأيسر والأيمن الأماميين، بينما يستعمل الرجل فصاً واحداً هو الجانب الأيسر الأمامي

١- انظر: الموسوعة العلمية الشاملة في الطب النبوي ص ٩٧، والتشريع الإلهي الحكيم وإعجازه في مراعاة الفروق البيولوجية بين الجنسين على الرابط: (<http://forum.ashefaa.com/showthread>)، وبعض الفروق بين الجنسين في الخصائص والسمات، على الرابط: (<http://www.moudir.com/vb/attachment.php?attachmentid>).

٢- انظر: عمل المرأة في الميزان للبار ص ٦٤.

للمخ فقط، مما يجعله أكثر تخصصاً ودقة في ضبط الكلام؛ لأن الجزء الآخر قد تخصص عند الرجل لوظيفة الذاكرة، فلا يحدث لديه التشويش في الذاكرة عند الكلام، وهذا ما يمكن أن يفسر به أن تعلم اللغات والكلام عند المرأة أسرع وأكفاً منه عند الرجل، كما يبين عدم الدقة عند المرأة حال الكلام والتذكر.

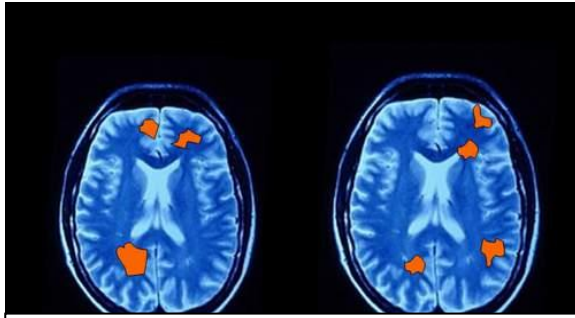
ففي الدراسة التي قامت بها مجلة (الريدرز دايجست) الواسعة الانتشار في ١٩٧٩م تحت عنوان: (لماذا يفكر الأولاد تفكيراً مختلفاً عن البنات؟) ذكرت الاختلافات الهائلة العميقة الجذور على حد تعبير الدراسة بين الجنسين، ومما جاء فيها: أن تخزين المعلومات والقدرات في الدماغ يختلف في الرجل عنه في المرأة، ففي الرجل تتجمع القدرات الكلامية في مكان مختلف عن القدرات الهندسية والفراغية، بينما هي موجودة في كلٍ من فصي المخ لدى المرأة، ومعنى ذلك أن دماغ الرجل أكثر تخصصاً من مخ المرأة، وهذا ما يفسر أن أغلب المهندسين المعماريين ذكور، وقالت الدراسة: وإمكان أن يشذ فرد من هذا الجنس أو ذاك عن القاعدة أمر لا يلغي القاعدة في ذاتها، فعلينا ألا نتجاهل الحقائق العلمية ونحاول أن نجعل دور الذكر في الحياة مماثلاً لدور الأنثى؛ لأن ذلك يصادم الحقائق العلمية^(١).

إن كبر حجم الجسم الجاسي (corpus callosum) -كتلة ألياف عصبية- والأخدود الدماغية الأمامية (anterior commissure) في النساء، وهما يربطان نصفي الدماغ، ويقومان بتوصيل الوصلات الكهربائية بينهما، جعل دماغ المرأة أقل تخصصاً من دماغ الرجل، فالمعلومات والعمليات التي تخزن في الذاكرة تصل إلى نصفي المخ في وقت واحد في دماغ المرأة، وبذلك يتحكم نصف المخ في النشاطات العقلية

١- انظر: المساواة بين الرجل والمرأة أكنوبة بيولوجية لعنايات عثمان، بحث منشور ضمن أبحاث المؤتمر العالمي الثامن للإعجاز العلمي في القرآن والسنة المنعقد في الكويت، العلوم الطبية، ٣٤٦/١، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٧م، وعمل المرأة في الميزان للبار ص ٦١-٦٤، والمرأة وحقوقها السياسية في الإسلام للزنداني.

للمرأة، أما دماغ الرجل فإن النشاطات الذهنية تتركز في نصف واحد فقط، وهذا يمكن أن يفسر النسيان والتشتت في المرأة بصورة أكبر نسبياً، فكبر حجم الجسم الجاسئ يعمل على نقل وتبادل المعلومات بكميات أكبر في المرأة، مما يجعلها أكثر طلاقة ووضوحاً في التعبير الملفوظ، ويساعدها في أعمال تتطلب التقريب بين يديها والتنسيق بينهما، ويعزز قابليتها على الربط الذهني بين الأشياء والأفكار، وعلى الإدراك والتواصل بصيغ ملفوظة ممزوجة بانفعالات ومشاعر، مما يفسر تفوقها في البديهة، في حين ينقصها القدرة على التركيز في الأداء الذي يُعزى إلى الانتشار والتشتت في أفكارها، ويعيقها من التركيز على تأدية عمل واحد في آن واحد^(١).

وظاهرة الاختلاف هذه قد أثارت اهتمام العلماء فقاموا بدراسة الحالات المختلفة للدماغ عندما يفكر وعندما يغضب وعندما يحزن وغير ذلك من الانفعالات



تظهر الصور الناتجة عن جهاز المسح بالرنين المغناطيسي الوظيفي fMRI أن الرجل والمرأة عندما يقومان بنفس العمل فإن مناطق مختلفة من الدماغ تنشط، بما يؤكد بوضوح كامل أن طريقة عمل الدماغ لدى الرجل تختلف عن طريقة عمل الدماغ لدى المرأة.

النفسية، ووجدوا أن الدماغ لدى الرجل يعمل بطريقة مختلفة عن دماغ المرأة، ووجد باحثون من جامعة كاليفورنيا أن دماغ المرأة يتصرف بشكل مختلف عن دماغ الرجل حتى في حالة الراحة أو السكون ولو لم

يفكر بشيء، وكذلك المرأة، فإن التصوير بالرنين المغناطيسي أظهر أن النشاط في مناطق الدماغ للرجل يختلف عن دماغها بشكل واضح، وكشف الدكتور Larry Cahill أن دماغ الرجل يعالج المعلومات بطريقة مختلفة عن دماغ المرأة، حتى

١- الموسوعة العلمية الشاملة في الطب النبوي ص ٩٧، والفرق بين الرجل والمرأة لنورهانا، مجلة الإعجاز ص ٢٩، العدد ٤٣، والمساواة بين الرجل والمرأة أكنوية بيولوجية، أبحاث المؤتمر الثامن للإعجاز ١/٣٤٧، والمعجزة العلمية في (وليس الذكر كالأُنثى) للراوي، من أبحاث المؤتمر السابع للإعجاز، العلوم الطبية.

في حالة الراحة، وقد استخدم الباحث إشعاع PET، في تجربة تشمل ٣٦ رجلاً و٣٦ امرأة، وذلك لدراسة نشاط الدماغ أثناء الراحة دون التفكير بشيء، وأظهرت الصور أن المناطق التي تنشط في دماغ المرأة تختلف عن المناطق التي تنشط في دماغ الرجل، ويقول الباحثون: إن تصميم دماغ المرأة جاء مناسباً لتحمل الألم والإجهادات (مثل آلام الولادة) أكثر من الرجل حيث إن دماغه لا يوجد فيه مثل هذه الميزة^(١). ولدى النساء قدرة كبيرة على استعادة الذكريات المرتبطة بأحداث عاطفية، بينما يتذكر الرجال الأحداث التي لها علاقة بعناصر متعددة معقدة، وتشير البحوث إلى وجود أسس تركيبية وكيميائية لاختلاف طبيعة الذاكرة بين الجنسين، فعندما يتعرض (فُرين آمون) المسؤول عن الذاكرة لهرمونات ذكورية وأخرى أنثوية، فإنه يستجيب بطريقة مختلفة في الرجال عن استجابته في النساء^(٢).

وهناك عدة أمور تؤثر على ذاكرة المرأة:

فقد أثبتت دراسة حديثة في أستراليا أن المرأة الحامل تصاب ذاكرتها بالضعف والاضطراب؛ لتسبب الحمل في تناقص طفيف في عدد خلايا الذاكرة لدماغ الحامل، وهذه الحالة ربما تستمر لمدة عام كامل بعد الولادة، وربما أكثر. وتوصل فريق طبي في أمريكا عقب تجارب أن نقصان الحديد المعتدل يبطل من تفكير المرأة وذاكرتها، فكيف بالنقصان الحاد، بل إن النساء قيد التجربة احتجنَ إلى جرعات من الحديد لمدة أربعة أشهر يومياً لتحسن ذاكرتهن، أيضاً فإن ٢٠% من نساء العالم المتقدم، و ٤٠% من نساء العالم الثالث لديهنَّ نقص شديد في الحديد، فكيف بمن يعانين نقصاً معتدلاً.

١- وليس الذكر كالأنثى، رؤية علمية جديدة لعبد الدائم كحيل، على موقعه: (www.kaheel7.com).

٢- الفرق بين الرجل والمرأة لنورهانا، مجلة الإعجاز، العدد ٤٣، ص ٢٩.

والقلق من العوامل التي لها تأثير سلبي على الذاكرة، والمرأة معرضة للقلق ثلاث أضعاف الرجل، وعند القلق يتم إفراز هرمون القلق (cortisol) الذي أثبتت الدراسات أنه يؤدي الذاكرة في حالة القلق والاضطراب، كما ثبت أن القلق قد يؤدي مركز الذاكرة، بالإضافة إلى أن المرأة تقوم بعدة مهام في نفس الوقت بفعل استعمالها للمخين، وأظهرت الدراسات أن ذلك يجعل الإنسان يعمل أكثر وينتج أقل، وفي النهاية نحصل على مستوى عال من القلق والجهد والضغط^(١).

أما العاطفة: فإن الجهاز الطرفي في الدماغ (limbic system) -الذي يعتبر مركز العاطفة- في النساء أضخم وأكثر حساسية وتجاوباً منه في الرجال، كما أن الذكريات المحزنة تضاعف من وصول الدم إليه أكثر بثماني مرات من الدم الذي يغذي الجهاز الطرفي للرجال، لذا فإن النشاط الزائد لهذا الجهاز آثار سلبية على الجنسين، لكن وجود مركب السيروتونين^(٢) بتراكيز عالية في الرجال يقلل من تلك

١- انظر: الرد على العلمانيين المشككين في شهادة المرأة في القرآن الكريم لهشام طلبه، منشور على موقع موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة على الرابط: (www.quran-m.com)، والعلم اليقين في شرح حديث ناقصات عقل ودين للطبيب سمير بوراس منشور على موقع موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة على الرابط: (www.quran-m.com)، وأن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى لفراس نور الدين مدير موقع الإعجاز العلمي في القرآن والسنة: (www.quranmiracles@gmail.com) على الرابط: (http://www.hurras.org/vb/showthread).

٢- مادة كيميائية تتفاعل في الدماغ وغيره للتأثير على كثير من الأحاسيس والسلوكيات والأساليب، وينظم السيروتونين بعض الوظائف المهمة كالشهوة والنوم والمزاج والسلوك العدواني والجنس، ويعمل في الدماغ وبقية الجهاز العصبي بوصفه ناقلاً عصبياً، وقد وجد الباحثون ارتباطاً وثيقاً بين نقصه وحالات الاكتئاب والتوتر والسلوك العدواني والنهم الغذائي، وبما أن الدورة الشهرية تسبب الاكتئاب عند أغلب النساء، فقد طور الأطباء عقاراً يحسن من كفاءة هذا الناقل العصبي لأدمغة النساء، فخفف كثيراً من أعراض الدورة الشهرية لديهن. انظر: الموسوعة العربية العالمية ٣٩٢/١٦، والفرق بين الرجل والمرأة لنورهانا، مجلة الإعجاز ص ٢٩، عدد ٤٣.

الآثار السلبية، ويذكر أن الباحثين في جامعة (ماجيل) وجدوا بأن دماغ الرجل ينتج السيروتونين بنسبة ٥٣% أكثر من النساء، كما وجد باحثو مركز مونتريال للأعصاب أن دماغ الرجل أسرع في إنتاجه بـ ٥٢% من دماغ المرأة^(١).

ونجد الفروق بين الجنسين حول التصنيع العاطفي قد وجدت لها دعماً في دراسة أجريت في جامعة بنسلفانيا، وبينت أن دماغ المرأة أثناء راحته لديه نشاط استقلابي أكبر في المناطق الدماغية المسؤولة عن التعبيرات الرمزية للعواطف، أما دماغ الرجل فعلى النقيض من ذلك، يكون أكثر نشاطاً في المنطقة الدماغية المتحكمة في التعبيرات العاطفية الحركية، كما أظهرت دراسات أخرى الفروق في الأنشطة الدماغية بين الرجل والمرأة عند قراءة التعبيرات العاطفية^(٢)، فقد قام فريق من الأطباء النفسانيين وأجروا تجربة على رجال ونساء بإعطائهم صور ذات مواضيع متعددة، ثم بعد مدة أقاموا اختبارات لهم مع عمل تصوير رنين مغناطيسي لرؤية تأثير الصور واسترجاعها على نشاط المخ، فوجدوا أن استجابة المرأة للصور ذات الطابع العاطفي أكثر، فمخ المرأة أكثر تنظيمياً لتذكر واستقبال العواطف^(٣).

يقول زغلول النجار: «ثبت علمياً أن هناك فروقاً نفسية كبيرة بين كل من الأنثى والذكر من بني آدم، فالتكوين النفسي للأنثى يميل إلى تقديم العاطفة على العقل، وبالتميز بالحساسية المفرطة، ورقّة المشاعر، واتساع الخيال، وقوة الحدس، والبداهة الفطرية، وحب التملك، والغيرة الشديدة، وغلبة الخوف، والوهم، والتشاؤم،

١- انظر: الفرق بين الرجل والمرأة لنورهانا، مجلة الإعجاز ص ٢٩، العدد ٤٣، والمساواة بين الرجل والمرأة

أكذوبة بيولوجية لعنايات عثمان، ضمن أبحاث المؤتمر العالمي الثامن للإعجاز، العلوم الطبية، ١/٣٤٧.

٢- انظر: الإعجاز العلمي في السنة النبوية لصالح أحمد رضا ١١٨١/٢.

٣- انظر: العلم اليقين في شرح حديث ناقصات عقل ودين للطبيب سمير بوراس، منشور على موقع موسوعة

الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، على الرابط: (www.quran-m.com).

وعدم القدرة على الانسلاخ عن الذات والصفات الشخصية، فإذا أضيف ذلك إلى ضعف البنية الجسدية مقارنة بالرجل، وإلى غير ذلك من صفات الأنوثة، فإننا نجد الأنثى في مواقف الشدة والخصومة أو الخطر تعجز عن البيان، وبتلعثم منها اللسان، وترتباك ارتباكاً شديداً، حتى ولو كانت من الفصيحات المبدعات، ولذلك وصفها الله تعالى هذا الوصف المعجز بقوله العزيز: ﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾^(١).

١- انظر: التفسير العلمي لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ موقع زغول النجار على الرابط:
(http://www.elnaggarzr.com/index.php?itm=44476a1e440fd679fa769b2ccbed765)

المطلب الثالث: ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها

من خلال الدراسة التفسيرية والعلمية يتلخص ما يلي:

* الفوارق بين الذكر والأنثى على نوعين: الأول: فوارق كونية وقدرية، ذكرها الله ﷻ في قوله: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى﴾^(١)؛ أي: خلقة الذكر ليست كخلقة الأنثى، وأشار الله ﷻ إلى نقص المرأة وضعفها الخلقين الطبيعيين ونقصان حالها بقوله ﷻ: ﴿أَوْ مَن يُنْسَوُا فِي الْحَيَاةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرَ مُبِينٍ﴾^(٢).

النوع الثاني: فوارق شرعية منزلة، بينها الله ﷻ في قوله: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾^(٣)، لأنهم كاملون في وصفهم وقوتهم وخلقتهم ودينهم وعقولهم وتدابيرهم وبما أنفقوا من أموالهم، وفي قوله ﷻ: ﴿وَالرِّجَالُ عَلَيْهِنَ دَرَجَةٌ﴾^(٤)، ذكر المفسرون أن زيادة درجة الرجل: بخلقه، وبعقله، وصلاحه للقوامة على البيت، والإمامة، والإمارة، ودينه، وشهادته، ومنصب النبوة، والقضاء، والجهاد، وبالدية، والميراث، وكونه يعقل في الدية بخلافها، ونصيبه في سهم الغنيمة أكثر من نصيبها، وبالصدق، وبالتزوج عليها والتسري، ويملك العصمة إذ الطلاق بيده، ويملك الرجعة، وجواز ملاعنته إن قذف، وحدها إن قذفت، وبالسلامة من أذى الحيض والولادة والنفاس، وبوجوب طاعتها إياه والوقوف عند رضاه، وباختصاصه بأنواع من الكلفة كالتزام المهر والنفقة والذب عنها والقيام بمصالحها، ويكون المرأة خلقت من الرجل.

١- سورة آل عمران: الآية ٣٦.

٢- سورة الزخرف: الآية ١٨.

٣- سورة النساء: الآية ٣٤.

٤- سورة البقرة: الآية ٢٢٨.

* وجود الفوارق الكونية القدرية والشرعية بين الرجل والمرأة، يمنع من المساواة الكاملة بينهما، ومحاولة ذلك في جميع نواحي الحياة لا يمكن أن يتحقق.

* عامة المفسرين على أن التذكير والإذكار في قوله ﷻ: ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا﴾

فَتَذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى ﴿١﴾، من النسيان، والمعنى أن النسيان غالب على طباعهن، واجتماع المرأتين عليه أبعد، وفيه إشعار بنقصان عقلهن وقلة ضبطهن.

* الإسلام يهدف إلى بناء مجتمع يكون فيه لكل من الرجل والمرأة دور متكامل في عملية البناء والتنمية، وقد أعطى الإسلام المرأة حقوقها كاملة على أساس ينسجم مع شخصيتها وقدراتها وكفاءتها وتطلعها ودورها الرئيس في الحياة.

* أثبتت الدراسات العلمية الحديثة اختلاف الرجل عن المرأة اختلافاً كبيراً في كثير من النواحي، وأن الفروق الفسيولوجية (الوظيفية) والتشريحية بين الذكر والأنثى أكثر من أن تحصى وتعد، تبتدئ هذه الفروق على مستوى الصبغيات، وترتفع الفروق إلى مستوى الخلايا، وتتجلى الفروق أكثر في نطفة الذكر (الحيوانات المنوية) ونطفة المرأة (البويضة)، ثم ترتفع الفروق بعد ذلك في الأنسجة والأعضاء وأجهزة الجسم المختلفة، ولكنها تدق في بعض الأجهزة وتتضح في أخرى، وتتجلى الفروق بوضوح في اختلاف الأجهزة التناسلية.

* بينت الأبحاث الجديدة بواسطة أجهزة المسح بالرنين المغناطيسي اختلافات جذرية واضحة وظيفية وتشريحية بين دماغيهما، وثبت ما يؤكد وجود فروق في الذكاء بين الجنسين؛ وأن دماغ الرجل أكثر تخصصاً، ويعمل بطريقة مختلفة عن دماغها حتى في حالة السكون، وأن تخزين المعلومات والقدرات في الدماغ يختلف بينهما، وتشير البحوث إلى وجود أسس تركيبية وكيميائية لاختلاف طبيعة الذاكرة

بين الجنسين، وهناك عدة أمور تؤثر على ذاكرة المرأة: كالحمل ونقصان الحديد والقلق، وثبت أن دماغ المرأة أكثر تنظيماً لتذكر واستقبال العواطف.

ومن خلال الدراسة التفسيرية والعلمية يظهر لي الآثار التالية:

* الجوانب العلمية تقوي ما ذكره المفسرون من أن زيادة الدرجة هو تفضيل للرجل على المرأة في مجموعة من الأحكام الشرعية، وتدل على أن المقصود بالضلال في قوله ﷺ: ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا﴾^(١)، النسيان، وذلك لقلة ضبطهن.

* ظهور المعجزة، وهي معجزة تشريعية بيانية علمية: فأما المعجزة التشريعية فبممايزة التشريع الإلهي الحكيم بين الذكر والأنثى في مجموعة من الأحكام، مراعية للفوارق الخلقية الطبيعية بين الجنسين، بينما القوانين الوضعية البشرية رامت المساواة المطلقة بين الذكر والأنثى غافلة عن هذه الفروق أو متغافلة عنها، والمتأمل لحال المرأة في التشريع الوضعي الجاهلي أو في التشريعات القديمة أو البشرية المعاصرة يرى المعجزة التشريعية تتجلى حكمتها بوضوح في عصر العلم والتقنية الحديثة، حيث ثبت من الفروق الخلقية الكثيرة الظاهرة والباطنة بين الجنسين ما يبين ظهور كمال الشريعة الإسلامية وتامها وسموها، ذلك أنها شريعة إلهية سماوية، من عند الخالق ﷻ الذي خلق وهو يعلم حقيقة مخلوقه وطبيعة تركيبه، فشرع له من الأحكام ما يناسب طبيعته وفطرته، ومن ذلك أن مايز بين الذكر والأنثى في مجموعة من الأحكام الشرعية، وكونها -الشريعة الإسلامية- كذلك -من عند الله- فهي صالحة لكل زمان ومكان، ولا تضيق بحاجة المخلوق الإنسان. وأما المعجزة البيانية فبذكر القرآن للفوارق الجوهرية بين الذكر والأنثى بآيات وألفاظ قليلة لكنها ذات دلالات كثيرة، مما يدل على بلاغة هذا الكتاب الكريم.

١- سورة البقرة: الآية ٢٨٢.

وأما المعجزة العلمية، ففيما أثبتته العلم الحديث من اختلاف الذكر عن الأنثى طبيعة وخلقة اختلافاً جوهرياً في كثير من النواحي، خصوصاً الاختلافات الجذرية بين دماغ المرأة ودماغ الرجل وظيفية وتشريحية، وذلك بالبحث والدراسة واستخدام وسائل العلم الحديثة المتطورة والتي مكنتهم من النظر إلى أدق تفاصيل جسم الإنسان، بينما أخبر القرآن الكريم الذي نزل على محمد ﷺ قبل أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان عن هذه الفروق بينهما، وأنها فروق اقتضت التمايز بينهما في مجموعة من الأحكام، ويتجلى هذا الإعجاز في الفرق بينهما في الشهادة التي نصت عليها آية الدين، وذلك في زمان لم يكن فيه وجود لأي من هذه الوسائل العلمية، ليدل ذلك دلالة واضحة على أن العلم الذي في القرآن هو علم الله، جعله معجزة لرسوله ﷺ، وبذلك على سبق القرآن الكريم للعلوم الحديثة.

* المساواة المطلقة بين الذكر والأنثى مفسدة عظيمة؛ لأنها تتنافى الفروق بينهما فيما ثبت من الأحكام الشرعية، وتتنافى مع طبيعة الخلقة البشرية، ويترتب عليها تحميل المرأة من الأعباء ما يلحق الضرر بها، وشغلها بأعباء تخرجها عن وظيفتها الأساسية، مما يعود على الأسرة بالضياع والتمزق، لينعكس ذلك سلباً على المجتمع والأمة.

والله ﷻ أعلم

المبحث الثالث

صفة الماء الذي يخلق منه الإنسان

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول:

صفة الماء الذي يخلق منه الإنسان في القرآن الكريم.

المطلب الثاني:

صفة الماء الذي يخلق منه الإنسان في ضوء الاكتشافات العلمية.

المطلب الثالث:

ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها.

المطلب الأول: صفة الماء الذي يخلق منه الإنسان في القرآن الكريم

الآيات الواردة:

يقول الله ﷻ: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾^(١).

أقوال المفسرين

أولاً: وصف الله ﷻ الماء الذي يخلق منه الإنسان بأنه ﴿دَافِقٍ﴾، والدَّفَقُ: الصب، من دَفَقَ الماءَ والدمعَ يَدْفِقُ وَيَدْفُقُ دَفْقًا وَدُفُوقًا وَانْدَفَقَ وَتَدَفَّقَ وَاسْتَدَفَّقَ: انْصَبَّ، وقيل انصبَّ بمرّةٍ، فهو دافق أي مدفوق، كسرٍ كاتِمٍ، أي مكتوم، والدَّفَقُ في كلام العرب صَبُّ الماءِ، وهو متعد، يقال: دَفَقْتُ الكوزَ فاندفق وهو مدفوق، ودفقت الماء أدفقه دفقاً، أي صببته، ودَفَقَ الماءَ دَفْقًا: انصبَّ بشدة، والاندِفَاقُ: الانصباب، والتَدَفُّقُ: التصبيب.

والدَّفَقُ: الدفَع، قال ابن فارس: «(دَفَق) الدال والفاء والقاف أصلٌ واحد مطرّدٌ قياسه، وهو دَفَع الشَّيْءَ فُدُمًا، من ذلك: دَفَقَ الماءُ، وهو ماءٌ دافقٌ»^(٢). وقال ابن جزي: «وسمى المني ماء دافقاً من الدفق بمعنى الدفع»^(٣). ويقال: سير أدفق: أي سريع، ويقال: فلان يتدقق في الباطل تدققاً إذا كان يُسارع إليه^(٤)، قال الراغب الأصفهاني: «قال الله تعالى: ﴿مَلَأَ دَافِقٍ﴾: سائل بسرعة، ومنه استعير: جاءوا دُفْقَةً، وبغير أدفق: سريع، ومثى الدفقي، أي:

١- سورة الطارق: الآيتان ٥، ٦.

٢- انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٢٨٦/٢.

٣- التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ٣٠٧/٣.

٤- انظر: كتاب العين للخليل بن أحمد ١٢٠/٥، والصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية) للجوهري ١٦١/٥، ومختار الصحاح للرازي ص ٢١٨، ولسان العرب ٩٩/١٠، والمصباح المنير للفيومي ١٩٧/١، وتاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي ٢٩٢/٢٥.

يتصَّب في عدوه كتصَّب الماء المتدفِّق، ومشوا دفقا»^(١)، وقال ابن عاشور: «ومعنى ﴿دَافِقٍ﴾: خارج بقوة وسرعة»^(٢).

وقال جماعة من المفسرين: الدفق صب فيه دفع^(٣)، أو صب فيه دفع وسيلان بسرعة^(٤).

ثانياً: اختلف المفسرون في المراد بقوله ﴿دَافِقٍ﴾، ولهم في ذلك قولان: القول الأول: ذهب جمهور المفسرين إلى أن المراد بالداقيق المدفوق^(٥)، والدفق في الحقيقة لصاحبه^(٦)، ولما كان هذا الماء مدفوقاً، اختلف هؤلاء -الجمهور- في سبب وصفه بالداقيق على وجوه:

الوجه الأول: أنه من تسمية المفعول باسم الفاعل، وأهل الحجاز أفعل لهذا من غيرهم، يجعلون المفعول فاعلاً إذا كان في مذهب النعت، كقولهم: سِرُّ كاتم أي مكتوم، وهم ناصب أي منصوب، وليل نائم، ونحو ذلك^(٧)، وأعان على ذلك أنها

١- انظر: المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص ٣١٦.

٢- انظر: التحرير والتنوير ٢٣٣/٣٠.

٣- انظر: الكشاف للزمخشري ٧٣٦/٤، ومدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي ٢٦٨/٤، وغرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري ٤٨٠/٦، ونظم الدرر للبقاعي ٥٧٩/٨، ومحاسن التأويل للقاسمي ٤٥٠/٩.

٤- انظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود ١٤١/٩، وروح البيان لحقي ٣٠٩/١٠، والبحر المديد لابن عجيبة ٤٣٢/٨، روح المعاني للآلوسي ٩٧/٣٠.

٥- انظر: جامع البيان للطبري ٣٥٤/٢٤، والكشف والبيان للثعلبي ١٧٩/١٠، والهداية إلى بلوغ النهاية ٨١٩٣/١٢، ومعالم التنزيل للبعوي ٢٣٩/٥، والكشاف للزمخشري ٧٣٦/٤، وزاد المسير لابن الجوزي ٨٢/٩، ومفاتيح الغيب للرازي ١١٧/٣١، وتفسير القرطبي ٤/٢٠، والتسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ٤٧١/٢، والبحر المحيط لأبي حيان ٤٤٩/٨، واللباب لابن عادل ٢٦٢/٢٠، وفتح القدير للشوكاني ٥٠٨/٥.

٦- انظر: الكشاف للزمخشري ٧٣٦/٤، ومدارك التنزيل للنسفي ٢٦٨/٤، والبحر المديد لابن عجيبة ٤٣٢/٨.

٧- انظر: جامع البيان ٣٥٤/٢٤، والكشف والبيان ١٧٩/١٠، وزاد المسير ٨٢/٩، ومفاتيح الغيب ١١٧/١، وتفسير القرطبي ٤/٢٠، واللباب لابن عادل ٢٦٢/٢٠، وفتح القدير للشوكاني ٥٠٨/٥، ٥٠٩.

توافق رعوس الآيات التي هي معهن^(١)، ومنه في القرآن الكريم قوله ﷻ: ﴿قَالَ لَا

عَاصِمَ أَيُّومٍ مِّنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّجِمَ﴾^(٢)، أي لا معصوم، وقوله ﷻ: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ

رَاضِيَةٍ﴾^(٣) أي مرضية، وبديل أنك تقول: دُفِقَ الماء ولا تقول: دَفَقَ^(٤).

الوجه الثاني: لأنه ذو اندفاق، كما يقال: دراع، وفارس، ونابل، ولاين، وتامر،

أي: ذو درع، وذو فرس، وذو نبل، وذو لبن، وذو تمر، فيكون على النسب^(٥).

الوجه الثالث: أن صاحب الماء لما كان دافقاً أطلق ذلك على الماء مجاز

مبالغة^(٦).

الوجه الرابع: أو أنه لقوة دفق الطبيعة له كأنه يدفق بنفسه فهو إسناد مجازي،

والدفق لصاحبه^(٧)، أو لأنه لتتابع قطراته كأنه يدفق بعضه بعضاً أي يدفعه^(٨).

الوجه الخامس: بمعنى منصب من غير تأويل^(٩).

١- انظر: معاني القرآن لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء ٢٥٥/٣.

٢- سورة هود: الآية ٤٣.

٣- سورة الحاقة: الآية ٢١، وسورة القارعة: الآية ٧.

٤- انظر: معاني القرآن للفراء ١٥/٢، ١٦. وذكر الفراء من ذلك قول الحطيئة:

دع المكارم لا ترحل لِيُغِيَّتْهَا *** واقعد فإِنَّكَ أنت الطاعم الكاسي. أي: المكسوّ.

٥- انظر: الكشف للزمخشري ٧٣٦/٤، وزاد المسير لابن الجوزي ٨٢/٩، ومفاتيح الغيب للرازي ١١٧/٣١، والتسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ٤٧١/٢، والبحر المحيط لأبي حيان ٤٤٩/٨، وغرائب القرآن ورجائب الفرقان ٤٨٠/٦، واللباب لابن عادل ٢٦٢/٢٠، وفتح القدير للشوكاني ٥٠٩/٥، ومحاسن التأويل للقاسمي ٤٥١/٩.

٦- انظر: مفاتيح الغيب للرازي ١١٧/٣١، ومحاسن التأويل للقاسمي ٤٥/٩.

٧- انظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والصور للبقاعي ٥٧٩/٨.

٨- انظر: محاسن التأويل للقاسمي ٤٥/٩.

٩- انظر: مفاتيح الغيب للرازي ١١٧/٣١، ومحاسن التأويل للقاسمي ٤٥/٩.

القول الثاني: ذهب الإمام ابن عطية الأندلسي إلى أنه يصح أن يكون الماء دافقاً؛ لأن بعضه يدفع بعضاً، فمنه دافق، ومنه مدفوق، ففسر الدفق بالدفع، كدفق الماء بعضه إلى بعض، يقال تدفق الوادي والسييل إذا جاء يركب بعضه بعضاً^(١). غير أن أبا حيان الأندلسي قد تعقبه بأن الدفق بمعنى الدفع غير محفوظ في اللغة، بل المحفوظ أنه الصب^(٢)، لكن ما ذكره أبو حيان قد يعترض عليه بذكر ابن فارس له، ويقول ابن جزي.

والراجح - والله أعلم -: أنه لا مانع من حمل اللفظ على القولين؛ جمعاً بينهما، وهو هنا ممكن، فيكون الماء مدفوقاً بالنظر إلى صاحبه، ودافقاً بالنظر إلى ذاته، فهو دافق ومدفوق.

ثالثاً: اختلف المفسرون في المقصود بالماء الذي يوصف بأنه (دافق)، على قولين، وهما:

القول الأول: المقصود ماء الرجل؛ لأن الإنسان مخلوق من ماء دافق، والذي يوصف بذلك هو ماء الرجل وحده؛ إذ هو الذي يحس به ويشاهد دفته، ثم عطف عليه بأن وصفه بأنه يخرج من بين صلبه وترائبه؛ لأن الترائب تستعمل في الرجل، وهي منه بمنزلة الثديين للأنثى^(٣)، أو أنه وصف الماء الممتزج بالدافق من قبيل توصيف المجموع بوصف بعض أجزائه أو أحد جزئيه وهو مني الرجل^(٤).

القول الثاني: ذهب كثير من المفسرين إلى أن المقصود ماء الرجل وماء المرأة؛ قالوا؛ لأن الإنسان مخلوق منهما - ماء الرجل وماء المرأة -، لكن جعلهما ماءً

١- انظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية ٤٣٧/٥.

٢- انظر: البحر المحيط في التفسير لأبي حيان ٤٤٩/٨، وروح المعاني للآلوسي ٩٧/٣٠.

٣- انظر: مفاتيح الغيب للرازي ١١٨/٣١، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ٩١٩.

٤- انظر: روح البيان لحقي ٣٠٩/١٠، وروح المعاني للآلوسي ٩٧/٣٠.

واحدًا، لاتحادهما حين ابتدئ في خلقه، وامتزاجهما في الرحم أشد امتزاج، بحيث يصيران ماءً واحدًا^(١).

وعليه فوصفه بالدفق باعتبار كليهما -ماء الرجل وماء المرأة-، إذ مني المرأة دافق أيضاً إلى الرحم^(٢).

قال ابن كثير: «يعني المنى يخرج دفقاً من الرجل والمرأة، فيتولد منهما الولد»^(٣).

وفي تفسير الجلالين: «ذي اندفاق من الرجل والمرأة في رحمها»^(٤).

والراجح: هو القول الثاني كما سيأتي في الجوانب العلمية، وكون ماء الرجل هو المشاهد دفته فإنه لا يمنع من أن يكون ماء المرأة كذلك، وأما أنه عطف عليه بأن وصفه بأنه يخرج من بين صلبه وترائبه -أي الرجل-، فهو استدلال بما هو محل نزاع، وذلك لا يقوى، وسيأتي بيان ذلك في المبحث التالي إن شاء الله تعالى.

١- انظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن للثعلبي ١٠/١٧٩، ومعالم التنزيل في تفسير القرآن للبغوي ٥/٢٣٩، والكشاف للزمخشري ٤/٧٣٦، ومدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي ٤/٢٦٨، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٠/٤، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ٥/٤٧٦، ولباب التأويل في معاني التنزيل للخازن ٧/٢٣٣، والبحر المحيط لأبي حيان ٨/٤٤٩، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/٦٠٤، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل ٢٠/٢٦٢، ونظم الدرر للبقاعي ٨/٥٧٩، وتفسير الجلالين ص ٨٠٢، والسراج المنير للشربيني ٤/٣٧٧، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود ٩/١٤١، وفتح القدير للشوكاني ٥/٥٠٩، وروح المعاني للآلوسي ٣٠/٩٧.

٢- انظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ٣٠/٩٧.

٣- انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/٦٠٤.

٤- انظر: تفسير الجلالين لجلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي ص ٨٠٢.

المطلب الثاني: صفة الماء الذي يخلق منه الإنسان في الاكتشافات العلمية

تتكون الحيوانات المنوية في الخصيتين، ثم تمر إلى البربخ، ومنه إلى قناة طويلة يطلق عليها الأسهر، إلى غدة البروستاتا حيث يلتقي الأسهر بالحوصلات المنوية، وتنتج الحوصلات المنوية وغدة البروستاتا سائلاً كثيفاً يميل إلى البياض يسمى السائل المنوي، ويعمل السائل المنوي على تغذية النطف بعد أن يختلط بها ليشكل المنى، كما يساعد على نقلها إلى خارج الجسم بقذفها عبر القضيب الذي تمتلئ أنسجة خاصة فيه بالدم ليصبح صلباً ومنتصباً عندما يثار الرجل، وعند إثارة القضيب تنقبض العضلات المحيطة بالأعضاء التناسلية، ويرغم هذا الانقباض تحريك السائل من الغدد، بسبب تقلصات في جدار الحويصلة المنوية، مع تقلصات القناة القاذفة للمني، وتقلصات عضلات العجان، مما يسبب تدفق المنى^(١).

وفي كل دفقة منى ما بين مائتين إلى ثلاثمائة مليون حيوان منوي، وإذا دققنا النظر في كل حيوان منوي وجدنا له رأساً مصفحاً مديباً، وله عنق صغير، وله ذيل طويل، بواسطته يتحرك وينطلق ويساعده على السباحة في خضم بحر المنى وأمواجه المتلاطمة، فيضرب الحيوان المنوي بسوطه عبر هذه الإفرازات المتعاقبة حتى يصل إلى بغيته أو يموت^(٢).

١- انظر: الموسوعة العربية العالمية (٦/٢٩١)، (١٠/٧٨، ٧٩)، وخلق الإنسان بين الطب والقرآن ص ٢٧، ١١٤، وزراعة الأعضاء التناسلية والغدد التناسلية للمرأة والرجل لصديقة العوضي-وكمال محمد، بحث منشور ضمن مجلة مجمع الفقه الإسلامي الدولي، دورة ٦، عدد ٦، جزء ٣، ص ٢٠٥٢، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.
٢- انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن للبار ص ١٥٩، ١٦٠، وخلق الإنسان بين العلم والقرآن لحمد الرقعي ص ٥٣، ٥٤.

وقد وضع العلماء شروطاً للإخصاب من ماء الرجل، هي: (التدفق، والاندفاع بسرعة، ووجود عدد كبير من الحيوانات المنوية، وحيوية الحيوانات المنوية بأن تكون حية مع سلامتها شكلاً ووظيفة)^(١).

فالثابت علمياً أن المنويات التي يحتويها ماء الرجل لا بد أن تكون حيوية متدفقة متحركة كشرط للإخصاب^(٢).

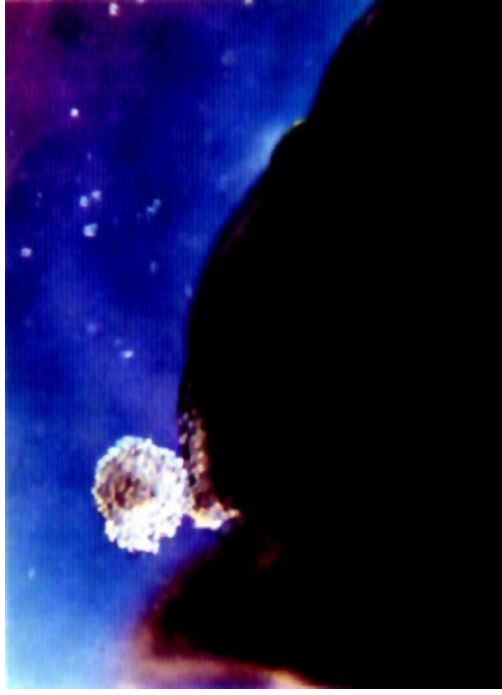
وثبت علمياً أن بويضة المرأة تكون في المبيض داخل جراب ترشح إليه السوائل، حتى إذا امتلأ انفجر وتدفق وفيه البويضة، فيتلقفه البوق - هو نهاية قناة الرحم - وفيه البويضة، لتسير في سائل القناة حتى تصل إلى المكان الذي تلتقي فيه بالحيوان المنوي، فطريقة انطلاق ماء المرأة تتم بالتدفق، وهذا الماء يحمل البويضة تماماً كما يحمل ماء الرجل الحيوانات المنوية^(٣)، وبالتالي فمن الثابت علمياً أن ماء المرأة الذي يحمل البويضة يخرج متدفقاً إلى قناة الرحم، وثبت علمياً أن البويضة لا بد أن تكون حيوية متدفقة متحركة حتى يتم الإخصاب^(٤).

١- انظر: إعجاز القرآن في إنباب الذرية لمجاهد أبو المجد، وسامي عبد الفتاح، منشور ضمن بحوث المؤتمر العالمي العاشر للإعجاز العلمي في القرآن والسنة بتركيا، الطب وعلوم الحياة، ١٥٠/٢، دار حيا، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.

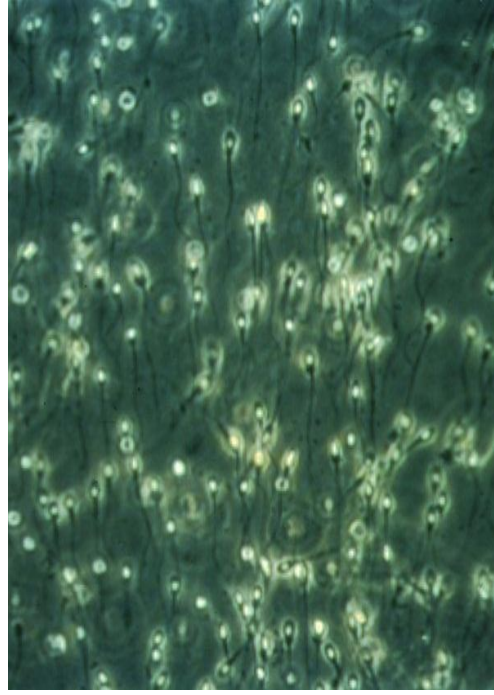
٢- انظر: علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة ص ٣٥.

٣- انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن للبار ص ١٢٣، ودليل الأنفس بين القرآن الكريم والعلم الحديث لمحمد عز الدين ص ٣٤٩، وخلق الإنسان في القرآن للنجار ص ٣٧٠.

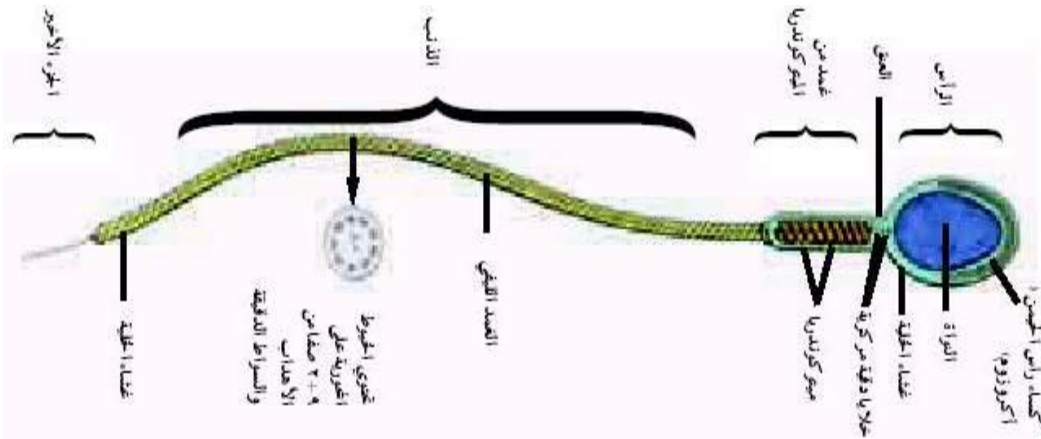
٤- انظر: علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة ص ٣٥.



بويضة مع طبقتها من الخلايا الجريبة، وماء المرأة، مكبرة (١٠٠) مرة، يتم سحب البويضة داخل ... المبيض بواسطة ملايين الأهداب الصغيرة تدفعها إلى داخل القناة



صور مكبرة تحت المجهر لملي الرجل، وتظهر الحيوانات المنوية كل واحد منها له رأس وذيل يسبح في هذا السائل.



صورة تشريحية لحيوان منوي

المطلب الثالث: ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها

من خلال الدراسة التفسيرية والعلمية يتلخص ما يلي:

* وصف الله ﷻ الماء الذي يخلق منه الإنسان بأنه **﴿مَاءٌ دَافِقٌ﴾**، والدفق الصب، والدفع، ويقال: سير أدفقُ أي سريع، والدافق: السائل بسرعة، أو الخارج بقوة وسرعة، وذكر جماعة من المفسرين أن الدفق: صب فيه دفع، أو صب فيه دفع، وسيلان بسرعة.

* جمهور المفسرين على أن المراد بالدافق المدفوق، والدفق في الحقيقة لصاحبه، وسبب وصفه بالدافق إما أنه من تسمية المفعول باسم الفاعل، أو لأنه ذو اندفاق فيكون على النسب، أو أن صاحب الماء لما كان دافقاً أطلق ذلك على الماء على سبيل المجاز، أو أنه لقوة دفق الطبيعة له كأنه يدفق بنفسه فهو إسناد مجازي، أو أنه من دفق الماء دققاً ودفوقاً إذا انصب.

وذهب ابن عطية الأندلسي إلى أنه يصح أن يكون الماء دافقاً؛ لأن بعضه يدفع بعضاً، فمنه دافق، ومنه مدفوق.

والصواب شمول اللفظ لكلا المعنيين الدافق والمدفوق، فهو دافق بذاته ومدفوق بصاحبه.

* اختلف المفسرون في الماء الذي يوصف بأنه (دافق)، على قولين:

القول الأول: المقصود ماء الرجل؛ لأنه الذي يوصف بذلك.

القول الثاني: كثير من المفسرين على أن المقصود ماء الرجل وماء المرأة؛ لأن الإنسان مخلوق منهما، وجعلهما ماءً واحداً، لاتحادهما وامتزاجهما بحيث يصيران ماءً واحداً، وعليه فوصفه بالدفق باعتبار كليهما.

والصواب شمول اللفظ لكلا المائين -ماء الرجل وماء المرأة-.

* مني الرجل يخرج من الجسم متدفقاً بفعل التقلصات في جدار الحويصلة المنوية، مع تقلصات في القناة القاذفة للمني، وتقلصات عضلات العجان، فهو بذلك مدفوق، والدفق في الحقيقة صاحبه، وبالتالي عبر باسم الفاعل (دافق) عن اسم المفعول (مدفوق)، ثم إنه بعد دفقه من الجسم يستقل بحركته الذاتية ويصبح دافقاً على الحقيقة، باعتبار حركة مكوناته؛ فهو سائل زوده الله تعالى بالقدرة الذاتية على الحركة والتدفق، وفي كل دفقة مني ما بين مائتين إلى ثلاثمائة مليون حيوان منوي، وكل حيوان منوي له رأس مصفح مدبب وعنق صغير وذيل طويل بواسطته يتحرك وينطلق، وهو بشكله أشبه بقذيفة، كما تؤكد ذلك المكتشفات العلمية^(١).

* كذلك ماء المرأة الذي يحمل البويضة هو أيضاً ماء دافق، يخرج متدفقاً إلى قناة الرحم، والبويضة لا بد أن تكون حيوية متدفقة متحركة حتى يتم الإخصاب، وعلى هذا فكلا الماعين دافق^(٢).

ومن خلال الدراسة التفسيرية والعلمية يظهر لي الآثار التالية:

* المكتشفات العلمية تدل على صحة ما ذكره كل من الجمهور وابن جزي، إذ أثبتت أن الماء يكون مدفوقاً بالنظر إلى صاحبه، ودافقاً بالنظر إلى ذاته، فهو دافق ومدفوق.

* المكتشفات العلمية تدل على رجحان القول الثاني الذي عليه كثير من المفسرين من أن المقصود بالماء الدافق ماء الرجل وماء المرأة.

١- انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن للبار ص ١٥٩، ١٦٠، ١٦٥، وخلق الإنسان بين العلم والقرآن ص ٥٣، ٥٤، و أثر الحقائق العلمية في ترجيح أقوال المفسرين لرياض عيروس ص ١٢١، ١٢٢.

٢- انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن للبار ص ١٢٣، والإنسان هذا الكائن العجيب أطوار خلقه وتصويره في الطب والقرآن ١/٧٨.

* إعجاز القرآن الكريم وهو هنا إعجاز بياني وعلمي:

أما الإعجاز البياني ففي لفظ (دافق) الذي هو أدق وصف للماء الذي يتخلق منه الإنسان، فهو لفظ جامع لكل الشروط التي ذكرها العلماء لماء الرجل كي يكون ذا فاعلية في الإخصاب، وهو لفظ جامع لكلا المائين، ماء الرجل، وماء المرأة، فهو لفظ معبر جامع لكل الحقائق التي اكتشفها العلم الحديث، ومن إعجاز هذا الكتاب الكريم سعة دلالة ألفاظه، فلفظ واحد يجمع من المعاني والدلالات الشيء الكثير، فسبحان الله الملك العلي الكبير.

وأما الإعجاز العلمي ففي وصف القرآن الكريم للماء الذي يخلق منه الإنسان بأنه (ماء دافق) مما يشير إلى أن للماء قوة دفع ذاتية^(١)، وهذا هو ما كشفه العلم الحديث، مع أن جمهور المفسرين ذهبوا إلى خلافه، مما يدل دلالة واضحة على أن هذا الكتاب الكريم هو كلام رب العالمين، كما جعل منه عقيدة وشريعة ومنهج حياة، جعل منه معجزة دالة على صدق الرسول محمد ﷺ، والرسالة التي جاء بها هداية ورحمة للبشرية جمعاء، ويدل على سبق القرآن الكريم كلام رب العالمين للعلوم الحديثة، ولا غرابة في ذلك؛ لأن العلم الذي فيه هو علم الله مصداقاً لقوله ﷻ: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾، أي أنزله وفيه علمه الذي أراد أن يطلع العباد عليه^(٢).

والله ﷻ أعلم

١- انظر: علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة ص ٣٥.

٢- تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/٧٢٦.

المبحث الرابع الصلب والترائب

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول:

الصلب والترائب في القرآن الكريم.

المطلب الثاني:

الصلب والترائب في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة

وأقوال المعاصرين.

المطلب الثالث:

ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها.

المطلب الأول: الصلب والترائب في القرآن الكريم

الآيات الواردة:

قال الله ﷻ: ﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾^(١).

أقوال المفسرين:

أولاً: المقصود بالصلب عند المفسرين الظهر، أو عظامه ذو الفقرات^(٢)، وبالتالي فهم لم يخرجوا به عن معناه اللغوي^(٣)، وإنما سمي الظهر صلباً؛ لصلابته وشدته وقوته^(٤).

أما الترائب فاختلف في المراد بها على أقوال كثيرة، وهي:
* الصدر.

-
- ١- سورة الطارق: الآيات ٦، ٧.
 - ٢- انظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري ٣٥٤/٢٤، ولباب التأويل في معاني التنزيل للخازن ٢٣٣/٧، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل ٢٦٣/٢٠، ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ٥٨٠/٨، والفواتح الإلهية والمفاتيح الغيبية لنعمة الله بن محمود النخجواني ٥٠١/٢، والسراج المنير للشربيني ٣٧٨/٤، وروح البيان لحقي ٣٠٩/١٠، وفتح القدير للشوكاني ٥٠٩/٥، ومحاسن التأويل للقاسمي ٤٥١/٩، والتفسير القرآني للقرآن للخطيب ٥/٣، والتحرير والتنوير لابن عاشور ٢٣٤/٣٠، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي ٣٣١/٢، وتفسير المظهري ٧٠١٥/١، والتفسير الوسيط لمحمد سيد طنطاوي ٣٥٤/١٥، وأيسر التفاسير للجزائري ٥٥٢/٥، والتفسير المنير للزحيلي ١٧٧/٣٠، والتفسير الواضح لحجازي ٨٥٠/٣.
 - ٣- قال الخليل بن أحمد الفراهيدي: «والصُّلْبُ: الظَّهْر، وَهُوَ عَظْمُ الْفَقَارِ الْمُتَّصِلِ فِي وَسَطِ الظَّهْرِ» [العين ١٢٧/٧]، وقال ابن منظور: «الصُّلْبُ والصُّلْبُ: عَظْمٌ مِنْ لَدُنِ الْكَاهِلِ إِلَى الْعَجَبِ، وَالْجَمْعُ أَصْلَابٌ، وَأَصْلَابٌ، وَصَلْبَةٌ... وَالصُّلْبُ مِنَ الظَّهْرِ وَكُلُّ شَيْءٍ مِنَ الظَّهْرِ فِيهِ فَقَارٌ فَذَلِكَ الصُّلْبُ» [لسان العرب ٥٢٦/١].
 - ٤- انظر: معجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس بن زكريا ٣٠١/٣، والمفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص ٤٨٩، والتوقيف على مهمات التعاريف للمناوي ص ٤٥٩، وروح البيان لحقي ٣٠٩/١٠، وتفسير المظهري ٧٠١٥/١.

- * ضلوع الصدر وعظامه.
- * موضع القلادة من الصدر^(١).
- * فوق الثديين.
- * أسفل من التراق.
- * ما بين الثدي المرأة.
- * ما بين المنكبين إلى الصدر.
- * أربعة أضلاع من يمين الصدر وأربعة أضلاع من يساره.
- * أربعة أضلاع من الجانب الأسفل.
- * الأضلاع التي أسفل الصلب.
- * اليدين والرجلان.
- * أطراف الرجل: رجلاه ويداه وعيناه، أو بين اليدين والرجلين والعينين.
- * عصابة القلب.
- * العظم والعصب من الرجل، واللحم والدم من المرأة^(٢).
- وكل هذه الأقوال نقلها المفسرون عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره^(٣).

١- قال الزمخشري: «وهي عظام الصدر حيث تكون القلادة» الكشاف ٧٣٦/٤، وقال الرازي: «ترائب المرأة: عظام صدرها حيث تكون القلادة، وكل عظم من ذلك تربية» مفاتيح الغيب ١١٧/٣١.

٢- انظر: تفسير القرآن لعبد الرزاق الصنعاني ٣/٣٦٥، وجامع البيان للطبري ٢٤/٣٥٤-٣٥٦، والكشف والبيان للثعلبي ١٠/١٧٩، والهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب ١٢/٨١٩٤، والنكت والعيون للماوردي ٦/٢٤٧، ومعالم التنزيل للبخاري ٥/٢٣٩، والكشاف للزمخشري ٤/٧٣٦، وزاد المسير في علم التفسير ٩/٨٣، والمحرم الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية ٥/٤٣٨، والبحر المحيط لأبي حيان ٨/٤٤٩، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/٦٠٤، والدر المنثور للسيوطي ٨/٤٧٥.

٣- كعكرمة، ومجاهد، والضحاك، وسعيد بن جبير، وسفيان الثوري، ومعمربن أبي حبيبة، وعطية، وأبي عياض. انظر: نفس المصادر السابقة.

وبالتأمل في هذه الأقوال نجد أن أكثرها لا تخرج عن الصدر، أو عظامه، وموضع القلادة منه، بالإضافة إلى أن اختيارات المفسرين لم تخرج عنها^(١) - أي عن الصدر، أو عظامه، وموضع القلادة منه-؛ وذلك مراعاة منهم لما هو معروف في لغة العرب^(٢)، ولما جاءت به أشعارهم^(٣).

١- انظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري ٣٥٦/٢٤، وبحر العلوم للسمرقندي ٥٤٧/٣، والكشف والبيان عن تفسير القرآن للثعلبي ١٧٩/١٠، والهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب ٨١٩٦/١٢، ومعالم التنزيل في تفسير القرآن للبعوي ٢٣٩/٥، والكشاف للزمخشري ٧٣٦/٤، ومفاتيح الغيب للرازي ١١٧/٣١، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٥/٢٠، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ٤٧٦/٥، والتسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ٤٧٢/٢، ولباب التأويل في معاني التنزيل للخازن ٢٣٣/٧، والبحر المحيط لأبي حيان ٤٤٧/٨، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٦٠٤/٤، وغرائب القرآن و رغائب الفرقان للنيسابوري ٤٨٠/٦، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل ٢٦٣/٢٠، ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ٥٨٠/٨، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود ١٤١/٩، وروح البيان لحقي ٣٠٩/١٠، وفتح القدير للشوكاني ٥٠٩/٥، وروح المعاني للألوسي ٩٧/٣٠، ومحاسن التأويل للقاسمي ٤٥١/٩، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ٩١٩، والتحرير والتتوير لابن عاشور ٢٣٤/٣٠، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي ٣٣١/٢، وأيسر التفاسير للجزائري ٥٥٢/٥، والتفسير الميسر لنخبة من أساتذة التفسير ٤٤٤/١٠.

٢- قال ابن منظور والأزهري: «وقال أهل اللغة أجمعون: الترائب موضع القلادة من الصدر» لسان العرب ٢٢٧/١، وتهذيب اللغة لمحمد الأزهري ١٩٦/١٤، وقال الراغب الأصفهاني: «والترائب: ضلوع الصدر، الواحدة تَريبَة» مفردات القرآن ص ١٦٥. وفي المعجم الوسيط: «عظام الصدر مما يلي الترقوتين وموضع القلادة الواحدة تريبة» ٨٣/١.

٣- يقول الإمام ابن جرير الطبري بعد أن نقل مجموع من الأقوال في الترائب: «والصواب من القول في ذلك عندنا، قول من قال: هو موضع القلادة من المرأة، حيث تقع عليه من صدرها؛ لأن ذلك هو المعروف في كلام العرب، وبه جاءت أشعارهم» جامع البيان في تأويل القرآن ٣٥٦/٢٤. ويقول الإمام ابن عاشور: «والترائب: جمع تريبة، ويقال: تريب، ومحرر أقوال اللغويين فيها أنها عظام الصدر التي بين الترقوتين والثديين، ووسمه بأنه موضع القلادة من المرأة» التحرير والتتوير ٢٣٤/٣٠.

ثانياً: اختلف المفسرون في المراد بقوله ﷺ: ﴿مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾^(١)، ولهم في ذلك ثلاثة أقوال:

القول الأول: من بين صلب الرجل وترائبه^(٢)؛ لأن الماء الدافق يختص بالرجل، والذي يُحس به، ويشاهد دفعه، هو مني الرجل، ولا يقال نضحت المرأة الماء ولا دفقته، ثم عطف عليه بأن وصفه بأنه يخرج -يعني هذا الدافق- من بين الصلب والترائب، وذلك يدل على أن الولد مخلوق من ماء الرجل فقط، وكذلك لفظ الترائب فإنها تستعمل في الرجل، فإن الترائب للرجل، بمنزلة الثديين للأنثى، فلو أريدت الأنثى لقال: (من بين الصلب والثديين) ونحو ذلك^(٣).

ولأن الله ﷻ قال: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾، ولم يقل (يخرج من الصلب والترائب)، إذ ماء الرجل خارج من الصلب فقط، وماء المرأة خارج من الترائب، وعلى هذا التقدير لا يحصل هناك ماء خارج من بين الصلب والترائب، وذلك على خلاف الآية^(٤)، وعليه لا بد أن يكون ماء الرجل خارجاً من بين هذين المختلفين. وأيضاً فإنه ﷻ أخبر أنه خلق الإنسان من نطفة في مواضع، وهي ماء الرجل كما قال أهل اللغة^(٥).

١- سورة الطارق: الآيات ٦، ٧.

٢- انظر: النكت والعيون للماوردي ٢٤٦/٦، ومفاتيح الغيب للرازي ١١٨/٣١، ومحاسن التأويل للقاسمي ٤٥١/٩، والتحرير والتنوير لابن عاشور ٢٦٣/٣٠، وتيسير الكريم الرحمن للسعدي ص ٩١٩، والتفسير الثمين لمحمد بن صالح العثيمين ٤٤٩/١٤.

٣- انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ٩١٩.

٤- انظر: مفاتيح الغيب للرازي ١١٨/٣١.

٥- انظر: إعلام الموقعين عن رب العالمين لمحمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية ١٦٨/١، ١٦٩.

القول الثاني: من صلب الرجل وترائب المرأة^(١)؛ ومثل هذا يأتي عن العرب^(٢)، أي يأتي (من بين) بمعنى (من)، كما يقال: سيخرج من بين هذين الشئيين خير كثير، بمعنى: يخرج منهما^(٣)، والولد لا يكون إلا منهما -أي الرجل والمرأة^(٤).

القول الثالث: من بين صلب كل واحد منهما وترائبه -أي الرجل والمرأة^(٥)؛ لأن مقر النطفة عروق مُلتف بعضها على بعض عند البيضتين، والدماغ أعظم معونة في توليدها، وله خليفة هو النخاع، وهو في الصلب، وفيه شُعب كثيرة نازلة إلى الترائب، وهما أقرب إلى أوعية المني، لذا حُصِّصا -الصلب والترائب- بالذكر^(٦).

الناقشة:

أما قول الفريق الأول: إن الماء الدافق يختص بالرجل، فأجاب عنه الآخرون بأن هذا من باب إطلاق اسم البعض على الكل، فلما كان أحد قسمي المني دافقاً

١- انظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري ٣٥٤/٢٤، وتفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ٣٨٩/١٢، وبحر العلوم للسمرقندي ٥٤٧/٣، والكشف والبيان عن تفسير القرآن للثعلبي ١٧٩/١٠، والنكت والعيون للماوردي ٢٤٧/٦، ومعالم التنزيل في تفسير القرآن للبعوي ٢٣٩/٥، والكشاف للزمخشري ٧٣٦/٤، ومفاتيح الغيب للرازي ١١٧/٣١، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٥ / ٢٠، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ٤٧٦/٥، ولباب التأويل في معاني التنزيل للخازن ٢٣٣/٧، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٦٠٤/٤، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود ١٤١/٩، وفتح القدير للشوكاني ٥٠٩/٥.

٢- انظر: فتح القدير للشوكاني ٥٠٩/٥.

٣- انظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري ٣٥٤/٢٤.

٤- انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٦٠٥/٤.

٥- انظر: المحرر الوجيز لابن عطية ٤٣٧/٥، والتسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ٤٧٢/٢، والبحر المحيط في التفسير لأبي حيان ٤٤٩/٨، والجواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي ٤٠٢/٤، والبحر المديد لابن عجيبة ٤٣٢/٨، وتفسير المراغي لأحمد بن مصطفى المراغي ١١٢/٣٠، والتفسير الوسيط للقرآن الكريم للغزالي ٣٥٥/١٥.

٦- انظر: البحر المديد لابن عجيبة ٤٣٢/٨.

أطلق هذا الاسم على المجموع، والإنسان مخلوق من مجموع ماءي الرجل والمرأة^(١)، وقد يعلو أو يسبق أحدهما كما بينت السنة النبوية، وإنما قال ﷺ: **مِنْ** **مَاءِ دَافِقٍ** ولم يقل (من ماءين)؛ لاختلاطهما في الرحم واتحادهما عند ابتداء خلق الجنين^(٢)، ويضاف إلى ذلك ما ذكره الأطباء من أن هذا الوصف -الدافق- ليس مختصاً بماء الرجل دون ماء المرأة؛ لأن لها ماء يخرج أيضاً متدفقاً من المبيض مرة واحدة في الشهر من حويصلة جراف^(٣).

وأما أن ماء الرجل خارج من الصلب، وماء المرأة خارج من الترائب، وعلى هذا التقدير لا يحصل هناك ماء خارج من بين الصلب والترائب، وذلك على خلاف ظاهر الآية، فأجاب عنه الآخرون: بأنه يجوز أن يقال للشيين المتباينين أنه يخرج من بين هذين خير كثير، ولأن الرجل والمرأة عند اجتماعهما يصيران كالشيء الواحد، فحسن هذا اللفظ هناك^(٤).

أما خلق الإنسان من نطفة، والنطفة هي ماء الرجل، فإن ماء المرأة نطفة كذلك، وإطلاق النطفة عليه جاء في الحديث، لما قال النبي ﷺ لليهودي الذي سأله مِمَّ يُخْلَقُ الْإِنْسَانُ: **"مِنْ كُلِّ يُخْلَقُ: مِنْ نُطْفَةِ الرَّجُلِ، وَمِنْ نُطْفَةِ الْمَرْأَةِ..."**^(٥).

١- مفاتيح الغيب للرازي ٣١/١١٨.

٢- الكشف والبيان عن تفسير القرآن للثعلبي ١٠/١٧٩، ومعالم التنزيل في تفسير القرآن للبغوي ٥/٢٣٩، والكشاف للزمخشري ٤/٧٣٦، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٠/٤، وغرائب القرآن ورجائب الفرقان للنيسابوري ٦/٤٨٠، والسراج المنير للشربيني ٤/٣٧٧.

٣- انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن ص ١٢٤، وعلم الأجنة في ضوء القرآن والسنة ص ٣٣، والإنسان هذا الكائن العجيب (أطوار خلقه وتصويره في الطب والقرآن) للجاعوني ١/٧٨.

٤- مفاتيح الغيب للرازي ٣١/١١٨.

٥- أخرجه أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن مسعود ٧/٤٣٧ رقم ٤٤٣٨، والنسائي في السنن الكبرى، كتاب عشرة النساء، باب صفة ماء الرجل وصفة ماء المرأة ٥/٣٣٩، رقم: ٩٠٧٥. قال =

أما نسبة الترائب إلى المرأة فلا يدل على اختصاصها بها، بل تطلق على الرجل وعلى المرأة^(١)، ولكن أكثر وقوعها في كلام العرب في أوصاف النساء؛ لعدم احتياجهم إلى وصفها في الرجال^(٢)، وعليه فمعنى الصلب والترائب يشمل الذكر والأنثى على حد سواء، كذلك الصلب يشمل الذكر والأنثى على حد سواء.

ثالثاً: من خلال ما ذكره المفسرون في معنى خروج الماء الدافق من بين الصلب والترائب يظهر لذلك ثلاثة احتمالات:

الاحتمال الأول: أنه يخرج من مكان وممر موجود بين الصلب والترائب، وذلك أن المني باعتبار أصله وهو الدم، يخرج من شيء ممتد بين فقرات الظهر وعظام الصدر، وذلك الشيء الممتد بينهما هو الأبره الأورطي، وهو أكبر شريان في الجسم يخرج من القلب خلف الترائب، ويمتد إلى آخر الصلب تقريباً، ومنه تخرج عدة شرايين عظيمة، ومنها شريانان طويلان يخرجان منه بعد شرياني الكليتين، وينزلان إلى أسفل البطن حتى يصلا إلى الخصيتين، أو الشريانين المنويين^(٣).

الاحتمال الثاني: أنه يخرج مستخلصاً من بين أجزاء الصلب والترائب^(٤) كما يخرج مستخلصاً من جميع أعضاء الإنسان، وإنما خصا بالذكر؛ لأن أكثره ينفصل

=الهيثمي: «رواه أحمد، والطبراني، والبزار بإسنادين، وفي أحد إسناديه عامر بن مدرك، وثقه ابن حبان، وضعفه غيره، وبقية رجاله ثقات، وفي إسناد الجماعة عطاء بن السائب وقد اختلط»، مجمع الزوائد ٨/ ٢٤١، والحديث يتقوى بغيره.

١- انظر: إعلام الموقعين لابن القيم ١/٤٦١.

٢- انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور ٣٠/٢٣٤.

٣- انظر: محاسن التأويل للقاسمي ٩/٤٥١.

٤- قال الألويسي: «يخرج من بين الصلب أي من بين أجزاء صلب كل رجل أي: ظهره، والترائب، أي: ومن بين ترائب كل امرأة أي عظام صدرها». [روح المعاني ٣٠/٩٧]، وقال البقاعي: «وقال الملوي: فالذي أخرجه من ظروف عظام الصلب والترائب إلى أن صيره في محله من الأنثيين...» [نظم الدرر ٨/٥٨٠].

من الصلب والترائب؛ لإحاطتهما بسور البدن، فأعطى للأكثر حكم الكل^(١)، أو لأن المنفصل من غير الصلب والترائب يمر عليهما؛ وذلك أن الدماغ الذي هو أعظم الأعضاء معونة في توليد المنى، له قناه هي النخاع، والنخاع في الصلب، وله شعب كثيرة نازلة إلى مقدم البدن وهو التريبة، وهما أقرب إلى أوعية المنى، فخصا بالذكر^(٢)، قال ابن عاشور: «أي يمر ذلك الماء بعد أن يفرز من بين صلب الرجل وترائبه... أي أن أصل تكوّن ذلك الماء وتنقله من بين الصلب والترائب، وليس المعنى أنه يمر بين الصلب والترائب؛ إذ لا يتصور ممر بين الصلب والترائب؛ لأن الذي بينهما هو ما يحويه باطن الصدر والضلع من قلب وريّتين»^(٣).

١- انظر: غرائب القرآن و رغائب الفرقان للنيسابوري ٤٨٠/٦.

٢- انظر: مفاتيح الغيب للرازي ١١٨/٣١، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ٤٧٧/٥، ولباب التأويل في معاني التنزيل للخازن ٢٣٣/٧.

قال الزحيلي: «والماء في الحقيقة يشترك في تكوينه جميع أجزاء البدن، ويتبلور في الخصية والمبيض في بدء التكوين، وكلاهما يجاور الكلى، ويقع بين الصلب، والترائب، أي ما بين منتصف العمود الفقري تقريباً ومقابل أسفل الضلع، وكل ذلك آثار عضوية مولدة من الدماغ، والنخاع قناة الدماغ، وهو في الصلب، وله شعب كثيرة نازلة إلى مقدم البدن، وهو الترائب جمع تريبة». التفسير المنير ١٧٧/٣٠.

٣- التحرير والتنوير ٢٣٤/٣٠. وقال: «وأصل مادة كلا الماعين مادة دموية، تتفصل عن الدماغ، وتنزل في عرقين خلف الأذنين، فأما في الرجل فيتصل العرقان بالنخاع وهو الصلب، ثم ينتهي إلى عرق ما يسمى الحبل المنوي مؤلف من شرايين وأوردة وأعصاب، وينتهي إلى الانثيين وهما الغدتان اللتان تفرزان المنى، فيتكون هنالك بكيفية دهنية، وتبقى منتشرة في الانثيين إلى أن تفرزها الأنثيان مادة دهنية شحمية... وأما بالنسبة إلى المرأة فالعرقان اللذان خلف الأذنين يمران بأعلى صدر المرأة وهو الترائب؛ لأن فيه الثديين وهما من الأعضاء المتصلة بالعروق التي يسير فيها دم الحيض الحامل للبيضات التي منها النسل» ٢٣٥/٣٠.

ولا يستبعد على هذا الاحتمال أن يكون تكوّن الماء الدافق شبيها بتكون اللبن المستخلص من بين الفرث والدم أو قريباً منه^(١)، حيث إن اللبن كان مختلطاً بالفرث أولاً، ثم استخلص إلى الدم ثانياً، ثم استخلصته الغدد اللبنية إلى الثدي في المرحلة الثالثة، كما بينت ذلك الدراسات العلمية الحديثة^(٢)، ولذا نجد الإمام ابن القيم قد شبه خروج الماء الدافق من بين الصلب والترائب، بخروج اللبن من بين فرث ودم^(٣)، وخروج اللبن لا يكون من موضع متوسط بين الفرث والدم، وإنما هو خروج واستخلاص من بين أجزائهما، بعد أن كان مختلطاً فيهما^(٤).

ويقوي احتمال تكون الماء الدافق في أجزاء الصلب والترائب ورود نصوص في القرآن والسنة تشير إلى أن الأصلاب أصل الذرية ومصدرها^(٥)، كقول الله ﷻ: ﴿وَحَلَلْنَا لِبَنِي إِدْرِيسَ آلَ إِدْرِيسَ الَّذِينَ كَانُوا لِغَدَاةٍ مُّشْرِكَةٍ وَلَكِنْ لَمْ نُجِبْ لَهَا إِذْ ظَاهَرَهُمْ كُفْرُهَا إِذْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾^(٦)، وقوله ﷻ: ﴿وَلِإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾^(٧)، وقول رسول الله ﷺ: «بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ

- ١- فكأنه يتكون فيهما، أو مرت عليه مرحلة من المراحل كان من ضمن محتوياتهما. انظر: أثر الحقائق العلمية في ترجيح أقوال المفسرين من خلال الثلث الأخير للقرآن الكريم لرياض عيروس عبدالله ص ١٩٤.
- ٢- انظر: إشارات إعجازية في تكوين لبن الأنعام لحامد عطية محمد ص ٢٩، ٣١، ٣٢، ٤١، بحث قدم للمؤتمر العالمي العاشر للإعجاز العلمي في القرآن والسنة بتركيا، ومنشور ضمن بحوث المؤتمر، محور الطب وعلوم الحياة، الجزء الأول، دار جيا، ٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م.
- ٣- انظر: إعلام الموقعين عن رب العالمين ١/١٦٨.
- ٤- قال ابن الجوزي: «والمعنى أن اللبن كان طعاماً، فخلص من ذلك الطعام دم، وبقي منه فرث في الكرش، وخلص من ذلك الدم ﴿بَنِي خَالِصًا سَابِغًا لِلسَّارِبِينَ﴾ [سورة النحل: الآية ٦٦]». زاد المسير في علم التفسير ٤/٤٦٣.
- ٥- انظر: من أسرار القرآن والكون والإنسان (أسرار خلق الإنسان (العجائب في الصلب والترائب)) لداود السعدي ص ٢٦.
- ٦- سورة النساء: الآية ٢٣.
- ٧- سورة الأعراف: الآية ١٧٢.

أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا^(١)، وقوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ لِلْجَنَّةِ أَهْلًا، خَلَقَهُمْ لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ، وَخَلَقَ لِلنَّارِ أَهْلًا، خَلَقَهُمْ لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ»^(٢)، وكذلك قول النبي ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِأَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: لَوْ أَنَّ لَكَ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ أَكُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ، أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا، فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ بِي»^(٣).

الاحتمال الثالث: أن قول الله ﷻ: ﴿مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ كناية عن البدن كله^(٤)، وإنما خصا -الصلب والترائب- بالذكر؛ لأنهما كالوعاء للقلب الذي هو المضغعة العظمى فيه^(٥)، قال الإمام الألويسي: «وأمر هذه الكناية على ما حكى مكي^(٦) عن ابن عباس في الترائب أظهر»^(٧)، والذي حكاه مكي عن ابن عباس أن الترائب أطراف الرجل: اليدان، والرجلان، والعينان^(٨).

- ١- أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه ١١٨٠/٣ برقم: ٣٠٥٩، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين ١٤٢٠/٣ برقم: ١٧٩٥.
- ٢- أخرجه مسلم، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة... ٢٠٥٠/٤، برقم: ٢٦٦٢.
- ٣- أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار ٢٣٩٩/٥ برقم: ٦١٨٩، ومسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب طلب الكافر الفداء بملء الأرض ذهباً ٢١٦٠/٤ برقم: ٢٨٠٥.
- ٤- انظر: حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي المسماة (عناية القاضي وكفاية الراضي) للخفاجي ٣٤٧/٨.
- ٥- انظر: روح المعاني للألويسي ٩٨/٣٠.
- ٦- يريد مكي بن أبي طالب حموش بن محمد بن مختار الأندلسي القيسي، صاحب تفسير الهداية إلى بلوغ النهاية)، و(حموش): تصغير محمد عند المغاربة. انظر: مقدمة كتابه الهداية إلى بلوغ النهاية ١٠/١.
- ٧- انظر: روح المعاني للألويسي ٩٨/٣٠.
- ٨- الهداية إلى بلوغ النهاية ٨١٩٥/١٢، وحكام عنه الطبري كذلك في جامع البيان ٣٥٥/٢٤، وذكره ابن عطية في تفسيره وتعقبه بقوله: «وفي هذه الأقوال تحكم على اللغة» المحرر الوجيز ٤٣٨/٥.

رابعاً: كثيرٌ من المفسرين أعادوا الضمير في قوله ﷻ: ﴿يَخْرُجُ﴾ إلى الماء الدافق^(١)؛ لأنه المتبادر^(٢)، والضمير يعود إلى أقرب مذكور^(٣).
 وذهب آخرون إلى احتمال عودة الضمير على الإنسان، وهؤلاء ممن جعلوا الخروج من بين صلب الرجل وترائب المرأة^(٤).
 ولم يوقف لهذا الاحتمال على دليل أو تعليل، ولعلمهم قصدوا -والله أعلم- إعادة الضمير إلى المُحَدَّث عنه في أول السياق وهو الإنسان في قوله ﷻ: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾، على أن ذلك أرجح ولا يلتفت إلى القرب^(٥)^(٦)، بالإضافة إلى أن

١- انظر: تفسير مقاتل بن سليمان ٤٧٣/٣، وبحر العلوم للسمرقندي ٥٤٦/٣، والوجيز في تفسير الكتاب العزيز للواحي ص ١١٩٢، والهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب ٨١٩٦/١٢، ومفاتيح الغيب للرازي ٤٧١٨/١، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٥/٢٠، والتسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ٤٧١/٢، ولباب التأويل في معاني التنزيل للخازن ٢٣٣/٧، وغرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري ٤٨٠/٦، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل ٢٦٣/٢٠، والبحر المديد في تفسير القرآن المجيد لابن عجيبة ٤٣٢/٨، وفتح القدير للشوكاني ٥٠٩/٥، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ٩١٩/١، والتفسير القرآني للقرآن للخطيب ٥/٣، والتحرير والتنوير لابن عاشور ٢٣٤/٣٠، وبيان المعاني لملاحويش ٢٧٥/١، والتفسير الوسيط للقرآن الكريم ٣٥٤/١٥، وأيسر التفاسير للجزائري ٥٥٣/٥.

٢- التحرير والتنوير لابن عاشور ٢٣٤/٣٠.

٣- انظر: الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم، ٤٣٥/٤.

٤- انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب ٨١٩٤/١٢، والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية ٤٣٧/٥، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٧/٢٠، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل ٢٦٥/٢٠. ونقل كل من القرطبي وابن عادل قول المهدي: «من جعل المنى يخرج من بين صلب الرجل

وترائب، فالضمير في ﴿يَخْرُجُ﴾ للماء، ومن جعله من بين صلب الرجل وترائب المرأة، فالضمير للإنسان».

٥- انظر: البحر المحيط في التفسير لأبي حيان ٢٢٦/٦.

٦- وذلك كما في قوله ﷻ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]، فضمير

﴿ذُرِّيَّتِهِ﴾ عائد على إبراهيم، وهو غير الأقرب؛ لأنه المحدث عنه من أول القصة، انظر: همع الهوامع في

شرح جمع الجوامع لجلال الدين السيوطي ٢٦٣/١.

إرجاع الضمير إلى الإنسان يؤدي إلى عود الضمائر على واحد، وحيث أمكن عودها لواحد فهو أولى وأحسن من عودها لمختلف^(١)، وتناسق الضمائر لشيء واحد أوضح^(٢).

غير أن ابن جزيّ الكلبّي لما ذكر هذا الاحتمال عقب عليه بقوله: «وهذا بعيد جداً»^(٣).

بالإضافة إلى أن هناك من المفسرين من عمل بالقواعد المذكورة -إعادة الضمير إلى المُحدّث عنه في أول السياق، وإرجاع الضمير إلى واحد أولى- في غير هذا الموطن، أما في هذا الموطن فقد أهملوا العمل بها، مما يدل على أنهم رأوا عدم صلاحيتها للإعمال في هذا الموطن؛ ولأن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور إلا بدليل صارف عن ذلك يجب الرجوع إليه^(٤)، ولا صارف يوجب الرجوع هنا.

١- البرهان في علوم القرآن للزركشي ٤/ ٣٥.

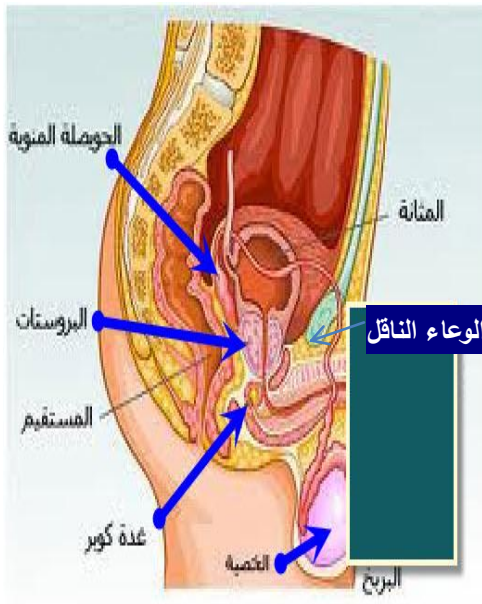
٢- البحر المحيط في التفسير لأبي حيان ٧/ ٣٨.

٣- التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ٢/ ٤٧١.

٤- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٣/ ٣٩٤.

المطلب الثاني: الصلب والترائب في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة

أولاً: تعتبر الخصية هي الغدة التناسلية للذكر، وهي مزدوجة الوظيفة والتكوين، أما التكوين فهما خصيتان، محاطتان بكيس جلدي مرن هو كيس الصفن، خارج الجسم؛ لتبقى الخصيتان في درجة حرارة أقل؛ تساعد على توليد النطاف، وأما الوظيفة فإفراز هرمونات الذكورة، وإنتاج الحيوانات المنوية التي تمر بعدها إلى البربخ؛ حيث يكتمل نموها فيه، ومن البربخ تتحرك إلى قناة طويلة يطلق عليها الأسهر (الوعاء الناقل) الذي يعود من الخصية إلى البطن وينتهي بمحاذاة المثانة ليعود فيتصل بالقناة البولية التناسلية والتي تخرج من البطن عبر القضيب إلى

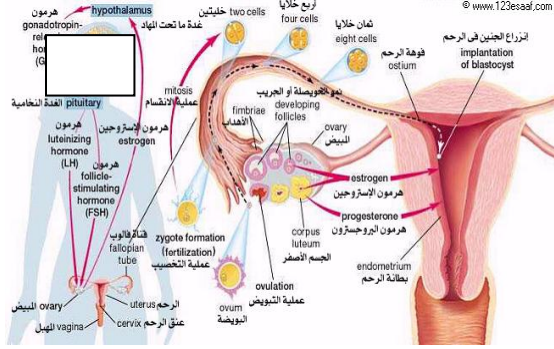


الخارج، وقبل اتصال الوعاء الناقل بالقناة البولية التناسلية يزداد حجمها قليلاً، وتكون انتفاخاً، وتصب في الوعاء الناقل غدد تفرز سائلاً منوياً يكون الحجم الأكبر من المنى بالإضافة إلى الحيوانات المنوية التي أفرزتها الخصيتان، وهي الحويصلات المنوية والبروستاتا، وغدتا كوبر، وتعمل إفرازات هذه الغدد على حفظ الحيوانات المنوية من أي تغيير من الحموضة أو القلوية، وتعمل على تغذيتها أيضاً في فترة اختزانها، كما تساعد

على نقل الحيوانات المنوية إلى خارج الجسم بقذفها عبر القضيب.

ويتكون الجهاز التناسلي للمرأة من أعضاء باطنة، ومنها المبيض، وهو مزدوج الوظيفة والتكوين، أما التكوين فهما مبيضان متقابلان، وأما الوظيفة فإفراز

هرمونات الأنوثة، وصنع البويضات، ويمسك بالمبيض في مكانه مجموعة من الأربطة، منها مساريقا المبيض^(١) وبواسطته تدخل الأوعية الدموية واللمفاوية



والأعصاب من وإلى المبيض، ويقع المبيضان في الحفرة المبيضية من الحوض، في الجزء الظهري من تجويف البطن على جانبي العمود الفقري، وتتم الإباضة بإفراز الببيضة

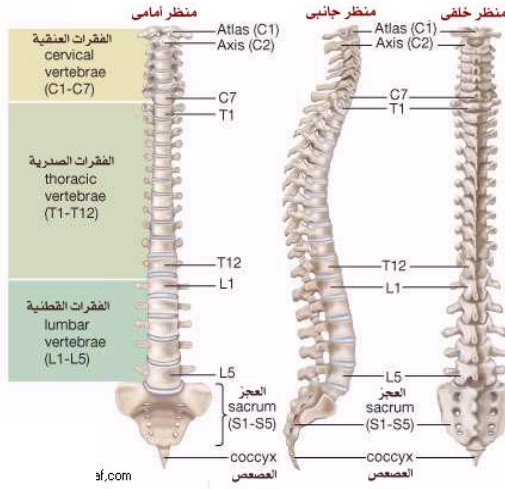
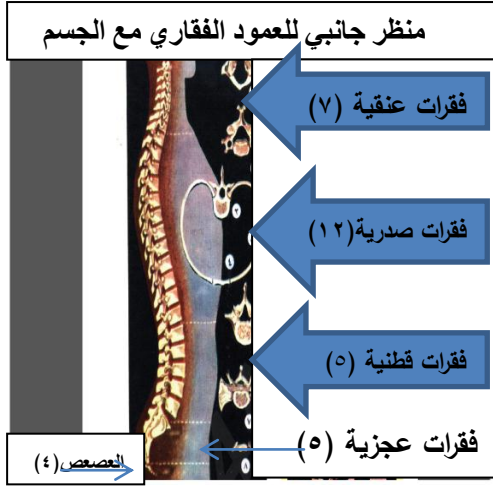
الناضجة من المبيض، حيث يطلق أحد المبيضين بويضة واحدة كل شهر بالتناوب بينهما، وتتلقفها الأهداب (الموجودة بالبوق المحيط بالمبيض والمتصل بقناة فالوب التي تتصل بالرحم) وتحملها برفق وتدفعها إلى مجموعة من الشعيرات الدقيقة المبطنة لغشائه حتى تصل إلى الثلث الأخير منه حيث يتم التلقيح^(٢).

* يتكون العمود الفقري من عدد من العظام تسمى فقرات، ويوجد بينها أقراص ليفية، وتتوزع عظام وفقرات العمود الفقري كالتالي:

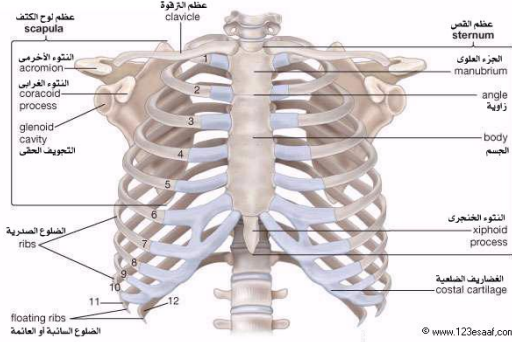
- الفقرات العنقية وتتكون من سبعة عظام (عظام العنق).
- اثنتا عشرة فقرة صدرية موجودة خلف الصدر، وتتصل بضلع الصدر.
- خمس فقرات قطنية في الجزء السفلي من الظهر.

١- المساريقا: طبقتين من البريتون تغطيان سطح المبيض الا من جانب واحد فقط حيث تدخل منه الأوعية الدموية واللمفاوية والأعصاب والأمعاء كذلك مساريقا خاصة بها. خلق الإنسان بين الطب والقرآن ص ٣٦.
٢- انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن للبار ص ٢٧، ٣٦، وموسوعة جسم الإنسان الشاملة لأحمد الخطيب ويوسف سليمان ص ١٨٤-١٨٦، والأساسيات في تشريح الإنسان لمحمود بدر ص ٤٢٤، ٤٣٣-٤٣٩، والأطلس العلمي (فيزيولوجيا جسم الإنسان) لزهير الكرمي وآخرين ص ٩٢-٩٦، وموسوعة المشاهدة العيانية (جسم الإنسان) للخطيب ص ٥٦، ودليل الأنفس بين القرآن الكريم والعلم الحديث ص ٧٧-٨٤.

- خمس فقرات عجزية ملتحمة، يتصل بها الحرقف بالمفاصل العجزية الحرقفية.
- أربع فقرات عصبية ملتحمة يندمج آخر ثلاث منها مكونة عظمة تشبه المنقار.



* يوجد في القفص الصدري اثنا عشر زوجاً من الأضلاع، تتصل العشرة



الأزواج الأولى العليا منها بالقص بواسطة غضاريف تمكنها من الحركة، أما الزوجان الباقيان من الضلوع فلا يتصلان بالقص، ويسميان بالضلوع السائبة، وتتصل هذه الضلوع من الخلف بالفقرات الظهرية^(١).

ثالثاً: مع ما سبق ذكره من حقائق تشريحيه في جسم الإنسان في كل من الذكر

والأنثى إلا أن الأطباء لم تتفق كلمتهم في تفسير كيفية خروج الماء الدافق من بين الصلب والترائب، ويتتبع كلامهم نخلص إلى أقوال خمسة، وهي:

القول الأول: على أن الصلب هو عظام العمود الفقري في كل من الرجل والمرأة، والترائب هي أضلاع الصدر في كل منهما، ذهب الطبيبان: عبد الحميد

١- انظر: الأطلس العلمي (فيزيولوجيا جسم الإنسان) ص ٧١.

العَرَّابِي بك، ومحمد علي البار إلى أن المقصود بخروج الماء الدافق من بينهما - الصلب والترائب- هو أن منشأ الخصية والمبيض، وتغذيتهما، وترويتهما الدموية إنما يكون كل ذلك من بين العمود الفقري وأضلاع الصدر^(١)، وبيان ذلك كما يلي: أ- من ناحية تخلق الأعضاء التناسلية في كل من الذكر والأنثى: فإن الخصية والمبيض، إنما يتكونان من الحدبة التناسلية^(٢) الواقعة بين العمود الفقري وأضلاع الصدر للجنين، وذلك في الأسبوع الثامن من تخلق الجنين، ثم تنزل خصية الذكر تدريجياً حتى تصل إلى كيس الصفن (خارج الجسم) في أواخر أشهر الحمل، بينما ينزل مبيض الأنثى إلى حوض المرأة ولا ينزل أسفل من ذلك، فكل من الخصية والمبيض في بدء تكوينهما يجاور الكلى، ويقع بين منتصف العمود الفقري تقريباً ومقابل أسفل الضلع^(٣).

ب- من ناحية تغذية الخصية والمبيض: فإن الأوعية الدموية التي تغذيها بالدماء تبقى من حيث أصلها، فشريان الخصية أو المبيض يأتي من الشريان الأبهري^(٤) (الأورطي البطني) من بين العمود الفقري وأضلاع الصدر، كما أن وريد

-
- ١- انظر: تفسير المراغي نقلاً عنه ١١٢/٣٠، ١١٣، وخلق الإنسان بين الطب والقرآن للبار ص ١١٦.
 - ٢- بروز في تجويف البطن، يمتد من الظهر، ويتكون من ثلاث مناطق، في الأمامية تنشأ الغدة الجار كلوية، وفي الخلفية تنشأ الكلية، وفي الوسطى تنشأ الغدة التناسلية، ولذا تسمى الحدبة التناسلية. انظر: نشأة الذرية معجزة علمية لمحمد دودح ص ٣٧، من إصدارات الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة.
 - ٣- قال الطبيب عبد الحميد العرَّابِي: «في الأسبوع السادس والسابع من حياة الجنين في الرحم ينشأ فيه ما يسمى (جسم وولف وقناته) على كل جانب من جانبي العمود الفقري، ومن جزء من هذا تنشأ الكلى وبعض الجهاز البولي، ومن جزء آخر تنشأ الخصية في الرجل والمبيض في المرأة». انظر: تفسير المراغي ١١٢/٣٠. و(جسم وولف وقناته) نسبة إلى مكتشفها (ولف Wolff) ١٧٩٤م. انظر: من علم الطب القرآني الثوابت العلمية في القرآن الكريم لعدنان الشريف ص ٣٣.
 - ٤- وهو الشريان الرئيسي في الجسم، إذ عن طريقه يتم تغذية جميع أعضاء الجسم، يبلغ قطره ٢,٥ سم. أساسيات علم وظائف الأعضاء للشاعر وآخرين ص ١٢٧.

الخصية يصب في نفس المنطقة، يصب الوريد الأيسر في الوريد الكلوي الأيسر، بينما يصب وريد الخصية الأيمن في الوريد الأجوف السفلي، وكذلك أوردة المبيض وشرانها تصب في نفس المنطقة، كما أن الأعصاب المغذية للخصية أو للمبيض تأتي من المجموعة العصبية الموجودة تحت المعدة من بين العمود الفقري وأضلاع الصدر، وكذلك الأوعية اللمفاوية تصب في نفس المنطقة.

ج- ومن الناحية الوظيفية: فإن مصدر الأوامر العصبية التي تتحكم بالانتصاب النفسي وعملية القذف عند الرجل، أعصاب خاصة موجودة في النخاع الشوكي الظهري، وهو الموجود داخل عظام العمود الفقري وأضلاع الصدر، وبواسطتها تمتلئ الأوردة الدموية الكثيفة في القضيب، فتسبب الانتصاب.

د- أي إصابة أو تلف في الأوعية الدموية أو المراكز العصبية التي تمد الأعضاء الجنسية بالإحساس والتغذية تعيق أو تمنع عملية القذف عند الرجل، والإباضة عند المرأة؛ لأن الأعصاب والأوعية الدموية الخاصة بالأعضاء الجنسية لها دور رئيسي في عملية قذف المنى عند الرجل والمرأة على حدٍ سواء، أما مصدر هذه الأعصاب والأوعية الدموية فهو من بين العمود الفقري وأضلاع الصدر^(١).

وما ذكره العَرَّابي والبار أخذ به أكثر المعاصرين^(٢).

١- انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن للبار ص ١١٦، وتفسير المراغي ١١٣/٣٠، ومن علم الطب القرآني الثوابت العلمية في القرآن الكريم ص ٧٧-٨٠.

٢- انظر: تفسير المراغي ١١٥/٣٠، وأيسر التفاسير للجزائري ٥٥٤/٥، وخلق الإنسان في القرآن الكريم للنجار ص ٣٧٢، والإعجاز الطبي في القرآن والسنة لمحمد داوود ص ٩١، والإعجاز العلمي في القرآن والسنة لنايف منير ص ٢٣٤، والإنسان (وجوده وخلافته في الأرض في ضوء القرآن الكريم) للمطرودي ص ٤٥، والمعجزة القرآنية (الإعجاز العلمي والغيبى) لمحمد هيتو ص ٢٧٤، وعجائب النظر والتأمل في عظمة الله ﷻ (آيات الله في الكون والإنسان) لأسامة الناعسة ص ١٧٦، ومباحث في إعجاز القرآن لمصطفى مسلم ص ٢٢٧، ومعجزة القرآن لنعمت صدقي ص ١٢٧، والبراهين العلمية على صحة العقيدة الإسلامية للعرجاوي ص ١٣١، ١٣٠، والإعجاز الطبي في القرآن الكريم لسعيد الفيومي ص ١٣.

قالا -العَرَّابِي والبار-: وعليه فالآية الكريمة إعجاز كامل يعطي الدقة العلمية المتناهية، ومنه استبان صدق ما نطق به القرآن الكريم، وجاء به رب العالمين، ولم يكشفه العلم إلا حديثاً بعد ثلاثة عشر قرناً من نزول ذلك الكتاب^(١).

غير أنه قد نوقش ما ذهبوا إليه: بأن الخصية والمبيض إنما يأخذان تغذيتهما ودمائهما وأعصابهما من بين الصلب والترائب، ولا يدل هذا على أن الماء الدافق يتكون في هذه المنطقة، ولا على خروجه من هذا المكان، وإلا لصح أن ننسب خروج الماء الدافق إلى القلب؛ باعتباره هو المورد الرئيسي للدم الذي يغذي هذين العضوين، أو الدماغ الذي هو مصدر الأوامر^(٢)، فيكون من قال بأن الترائب عسارة القلب، أو من قال بأن المني ينزل من الدماغ له وجه من الصحة على هذا التقدير، بالإضافة إلى أن هذا التأويل لا يوافق ظاهر الآية الدال على أن الماء نفسه هو الذي يخرج من بين الصلب والترائب^(٣).

والقول: إن تغذية الماء الدافق من هذا المكان يُعدّ جزءاً من تكوينه، فكأنه قد خرج منه، يرده أن مواده الأولية لم تتكون في هذا المكان بحيث يُعرف أن بعض أجزاءه قد تكونت في نفس المنطقة، بل المقصود إمداده بما يلزم من غذاء لتكوينه، وهذا أمر يحصل لكثير من أعضاء الجسم التي تشارك في فقدان الكثير من طاقتها أثناء الإنزال كالرجلين واليدين، والذي يسبب لهما الفتور والتعب، فكأنهما تشاركان في تكوين هذا الماء الدافق، وعلى هذا يكون من قال إن المقصود بالترائب ما بين اليدين والرجلين والعينين له وجه من الصحة على هذا التقدير.

١- انظر: تفسير المراغي ١١٣/٣٠، ١١٤، وخلق الإنسان بين الطب والقرآن للبار ص ١١٦.

٢- انظر: الأطلس العلمي (فيزيولوجيا جسم الإنسان) لكرمي وصباريني والعقاد ص ٣١-٣٣، ٥٢، ٥٣.

٣- انظر: دليل الأنفس بين القرآن الكريم والعلم الحديث لمحمد عز الدين ص ٣٥٠، وأثر الحقائق العلمية في ترجيح أقوال المفسرين من خلال الثلث الأخير للقرآن الكريم لرياض عيدروس ص ١٩٢.

بالإضافة إلى أن مني الرجل يكون تكوينه في الخصية، وخروجه عبر جهاز المسالك - البربخ والأسهر - الإحليل، وبويضة المرأة تخرج من المبيض حتى تستقر في قناة الرحم، ومعلوم لدى هؤلاء الأطباء أن هذا الخروج لا يكون من بين الصلب والترائب وإلا لكان هذا هو التفسير الأوضح^(١).

القول الثاني: يرى الطبيب محمد كاظم النسيمي أن كلاً من ماء الرجل وبويضة المرأة يخرج من بين الصلب والترائب على الحقيقة؛ وذلك لأن الحويصلين المنويين والقناة الدافعة في الذكر تقع خلف أسفل المثانة في الحوض الصغير بين العمود العجزي العصصي (قسم من الصلب)، ومنشأ الطرفين السفليين (أحد معاني الترائب)، وكذلك البويضة تخرج من المبيض الواقع بين الصلب والترائب^(٢).

ويؤخذ عليه: أن ما قاله بناه على تحديده للترائب بما لا دليل له عليه، ومعلوم لدى الكثير بالتشريح - خصوصاً الأطباء - كيفية وموضع خروج بويضة المرأة، ومع هذا لم يعتبروا ذلك خروجاً من بين الصلب والترائب.

القول الثالث: يرى الطبيب حسن هويدي أن الصلب: يشمل العمود الفقري الظهرى والقطني وعظم العجز، ويشتمل من الناحية العصبية على المركز التناسلي الأمر بالانتعاض^(٣) ودَفَقِ المنى، كما أن الجهاز التناسلي تعصبه ضفائر عصبية عدة ناشئة من الصلب، تشتمل مع الضفائر المسئولة عن انقباض الأوعية الدموية وتوسعها، وعن الانتعاض والاسترخاء، وناحية الصلب المسئولة عن هذا تحاذي القطعة الظهرية لفقرات أسفل العمود، والترائب هي أصول الأرجل، أو العظام الواقعة ما بين الرجلين.

١- انظر: أثر الحقائق العلمية في ترجيح أقوال المفسرين من خلال الثلث الأخير للقرآن الكريم ص ١٩٣.

٢- الطب النبوي والعلم الحديث لمحمد كاظم ٣/٣٢٥.

٣- الانتعاض والانتصاب. انظر لسان العرب ٧/٤٦٤. مادة: نعظ.

والمراد ماء الرجل يخرج من بين صلبه وتزائبه؛ لأن معظم الأمكنة والممرات التي يخرج منها السائل المنوي تقع من الناحية التشريحية بين الصلب والترائب، كالحويصلان المنويان الذي يشكل إفرازهما قسماً من السائل المنوي، كما أن لهما أثراً إيجابياً في عملية قذف السائل المنوي إلى الخارج على شكل دفقات، بسبب تقلص العضلات الموجودة فيهما، بالإضافة إلى وقوعهما خلف غدة البروستات والتي يشكل إفرازها قسماً من السائل المنوي، وكلها تقع بين الصلب والترائب.

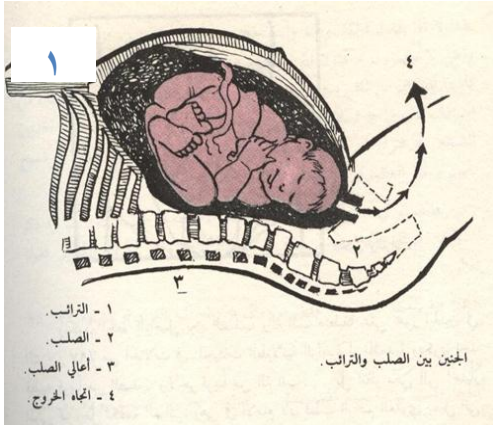
ومن الناحية العصبية فالوصف الوارد في الآية الكريمة يمكن أن ينطبق عليها فتتسجم الصورة العصبية مع الصورة التشريحية تمام الانسجام، فحين تقول: خرج الأمر من بين زيد وعمرو، تريد بذلك أنهما اشتركا وتعاونوا على إخراجها، وبهذا يصح القول: إنه خرج من بين صلب الرجل والمركز العصبي التناسلي الأمر وتزائبه؛ من حيث هي مناطق للضفائر العصبية المأمورة بالتنفيذ، حيث يتم بهذا التناسق بين الأمر والمأمور خروج المنى إلى القناتين الدافقتين، وهو ثابت من الناحية العلمية، وموضح لمهمة الجملة العصبية^(١).

ونوقش هذا القول: بأن تفسير الصلب بفقرات أسفل الظهر، والترائب بعظام ما بين الرجلين، لا دليل عليه، وأما القول بأنه يوافق الحقيقة العلمية، فهي دعوى يدعيها كل مخالف، وأما دعم الأوعية المذكورة للجهاز التناسلي، أو دعم المركز العصبي الذي يأمر بالانتعاض، فلا يدل على خروج المنى منها، وتخصيص خروج الماء الدافق بالرجل لا دليل عليه، وقد سبق أن ماء المرأة يخرج متدفقاً كماء

١- انظر: مع الطب في القرآن الكريم لعبد الحميد دياب وأحمد قرقوز ص ٣٢-٣٤، والهندسة الوراثية في ضوء القرآن وأسرار الروح وخلق الإنسان لمحمد محمود ص ٢٣-٢٥، والطب القرآني بين الغذاء والدواء لمحمد محمود ص ٢٤٠، والموسوعة العلمية في إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية لهاني القليني ومجدي السيد ص ١٣٨.

الرجل، ومع هذا فإن هذا القول قد يعطي جزءاً من الحقيقة إن صحّ اعتبار ما بين الرجلين -منطقة الحوض- هي الترائب، إذ المني يتكون ويخرج من بينها^(١).

القول الرابع: ذهب الطبيب مأمون شقفة إلى أن الصلب العمود الفقري القطني -فقراته القطنية- مع الحرقفتين من الخلف^(٢)، والترائب: هي الأضلاع السفلى وأسفل عظم القص^(٣)، والمقصود بذلك صلب المرأة وترائبها، والمراد من الآية



خروج الإنسان من بين الصلب والترائب، فالجنين يكون أثناء الحمل، وفي تمامه، وحين يخرج أثناء الولادة بالضبط بين الصلب والترائب، ويكون الخط الواصل بين الصلب والترائب منطبق على محور الجنين في أكثر من ٩٧% من الحالات في

المجيبات الطولانية الرأسية أو المقعدية، ويكون أحد قطبيه قريباً من الصلب والآخر قريباً من الترائب، وعلى هذا لم يعد هناك شك في أن ضمير (يخرج) عائد إلى الإنسان، وأن الله تعالى يلفت نظرنا إلى عملية الولادة المعقدة، وقواه برجع

الضمير في ﴿رَجِعْهُ﴾ وفي ﴿فَالَهُ﴾ للإنسان الذي ورد ذكره قبل الماء، فذلك الضمير في يخرج يرجع إليه؛ لتتحد الضمائر، وقواه كذلك بورود فعل (خرج) في مواطن أخرى في القرآن الكريم دالاً على الولادة، كقوله ﷻ: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ

١- انظر: أثر الحقائق العلمية في ترجيح أقوال المفسرين من خلال الثلث الأخير للقرآن ص ٢٠٢، ٢٠٣.
٢- أي: فقرات أسفل الظهر، مع عظام الحوض. انظر: الأطلس العلمي (فيزيولوجيا جسم الإنسان) ص ٦٨.
٣- عظم الصدر المغروز فيه أطراف الأضلاع من الجانبين. انظر: المعجم الوسيط ٧٤٠/٢، لإبراهيم مصطفى وحامد عبد القادر والزيات والنجار، والأطلس العلمي ص ٦٨.

﴿طِفْلاً﴾^(١)، وقوله ﷻ: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾^(٢)، وقوله ﷻ: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً﴾^(٣)، ولم يرد الفعل (خرج) مع المنى أو مع حركة النطف أو الماء التناسلي أبداً، أيضاً قوله ﷻ: ﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾^(٤)، أي في ماضيه قبل أن يصبح إنساناً، وفي الآية الأخرى يقول ﷻ: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾^(٥)، أي في حاضره وعند خروجه يكون إنساناً كاملاً^(٦).

نوقش: بأنه وإن كان له ما يؤيده من كلام المفسرين، مما يجعله أحد المعاني المحتملة للآية، إلا أن تحديده للصلب بفقرات أسفل الظهر مع عظام الحوض الخلفية، وللترائب بالأضلاع السفلى من الصدر وأصل عظم القص، هو تحديد لا دليل عليه، وخاصة أنه يتعارض مع قول أهل اللغة، والأكثرين من أهل التفسير. وأما تفسيره لموقع الجنين أثناء الولادة بين أسفل العمود الفقري وعظام الأضلاع السفلية فإن الأضلاع السفلية من أمام، لا يصح اعتبارها مبدأ لخط محور يقع فيه الجنين؛ لأن الأضلاع السفلى ترتفع إلى أعلى لتتصل بالأضلاع التي فوقها بدلاً من أن تمتد مستمرة في مسار أفقي إلى الأمام، كما أن الضلعين الأخيرين من أسفل لا يمتدان لأبعد من جانبي الصدر، ويرد على هذا الاعتراض بأن إحاطة الأضلاع بالجنين ولو من جوانبه تجعله بينها.

١- سورة الحج: الآية ٥.

٢- سورة غافر: الآية ٦٧.

٣- سورة النحل: الآية ٧٨.

٤- سورة الطارق: الآية ٦.

٥- سورة الطارق: الآية ٧.

٦- انظر: القرار المكين لمأمون شقفة ص ٢٧٩-٢٨٦.

ثم أي معجزة خاصة هي في ولادة الإنسان من بين أضلاع وظهر، من بعد خلقه العظيم المعجز؟ ولو جارينا هذا المنطق لحق لنا أن نعجب لقبلة ذرية أو (كمبيوتر) عظيم وهما يخرجان من المصنع بين جدار وأعمدة! إذ إن المعجزة ليست هاهنا، مع أن هذا الاعتراض محل نظر؛ لأن تيسير السبيل معجزة أخرى سوى معجزة تخلق الجنين^(١)، وإنما أرجع المفسرون ضمير ﴿يَخْرُجُ﴾ على الماء الدافق؛ لأنه المتبادر^(٢)، والضمير يعود إلى أقرب مذكور^(٣)، وقد قال ابن جُزَيٍّ في إرجاع الضمير إلى الإنسان: «وهذا بعيد جداً»^(٤).

القول الخامس: ذهب الطبيب داوود سلمان السعدي إلى أن للصلب والترائب معنى لغوي وآخر اصطلاحى: أما المعنى اللغوي: فإن الصلب: هو الفقرات الصدرية والقطنية والعجزية من فقرات العمود، وعددها ٢٢ فقرة^(٥)، والترائب: أربعة أضلاع من يمينة الصدر وأربعة أضلاع من يسرته، في أعلى الصدر وهي موضع القلادة. وأما المعنى الاصطلاحى -والذي هو مراد الآية الكريمة-: فإن الصلب كناية عن الكروموسومات الجسدية، والترائب كناية عن الكروموسومات الجنسية، وإنما ذكر الله ﷻ هذه الأشياء بالكناية؛ لأن مراحل الخلق هذه لم تعرف في ذلك الزمن، واستدل على ذلك بما يلي:

- ١- انظر: من أسرار القرآن والكون والإنسان (أسرار خلق الإنسان (العجائب في الصلب)) ص ٤١، ٤٨، وأثر الحقائق العلمية في ترجيح أقوال المفسرين من خلال الثلث الأخير للقرآن الكريم ص ٢٠١، ٢٠٢.
- ٢- التحرير والتنوير لابن عاشور ٣٠/٢٣٤.
- ٣- انظر: الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم ٤/٤٣٥.
- ٤- التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ٢/٤٧١.
- ٥- وهذا استناداً منه لتعريف القاموس للصلب بأنه: «عظم من لدن الكاهل إلى العَجَبِ» القاموس المحيط ص ١٠٥.

أ- بأن الصلب: هو الأصل واللّب والجوهر في الاستعمالات الشائعة على السنة الناس، ومن ذلك قولهم: (صلب الموضوع)، أي أصله، أو لُبّه وجوهره، وفقرات الظهر داخلة تحت هذا التعريف أيضاً، فهي أصل للإنسان، وهي أساسه الذي يقوم عليه، والمعنى الآخر للصلب: الأصل والنسب، كقولهم: هو من صُلْبِه، أي: من نسله وذريته، وهو بهذا يدلّ أبلغ دلالة على الكروموسومات التي هي أصل الإنسان.

ب- بقراءة (الصُّلْب) بضم الصاد واللام^(١)؛ إذ إن معناها اللغوي ما كان على شكل خطين متقاطعين من خشب أو معدن أو نقش، أو غير ذلك وهو ما يماثله حرف (x)، وهذا الشكل يشبه فقرات الظهر التي يبلغ عددها ٢٢ فقرة، وعددها نفس عدد الكروموسومات الجسدية في نطفة الإنسان، فالعمود يعطينا بشكله الخارجي ٢٢ تصالِباً، وهي متصالبة كشكل حرف (x)، وهو نفس شكل الكروموسومات. ج- أن (الصلب) و(الصبغيات) في مصدريهما المجردين هما (صَلَب) و(صَبَغ) متقاربان من حيث الأحرف والوزن، ويشتركان في حرفين من حروفهما الثلاثة، وكذلك هي العلاقة مع كلمة (التُّرْب) وهي مصدر التريبة مما يجمع على ترائب.

وخلاصة ما توصل إليه أنّ الآية تتحدث عن علم الوراثة الذي يُخْتَزَل في شيء واحد هو الكروموسومات، التي تتناقل عبرها الصفات الوراثية^(٢).

وقد نوقش هذا القول: بأن تأويل الصلب بالكروموسومات الجسدية والترائب بالكروموسومات الجنسية مخالف لما هو معروف عن السلف والمفسرين قاطبة

١- قرأ بها ابن مسعود، وابن سيرين، وإسماعيل عن أهل مكة، وابن أبي عبلّة، وابن مقسم، وعيسى بن عمر النخعي، وابن السميع، انظر: المحرر الوجيز لابن عطية ٤٣٧/٥، وزاد المسير لابن الجوزي ٨٢/٩، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٧/٢٠، والبحر المحيط في التفسير لأبي حيان ٤٤٩/٨، واللباب لابن عادل ٢٦٣/٢٠، وروح المعاني للألوسي ٩٨/٣٠، ومعجم القراءات لعبد اللطيف الخطيب ٣٨٠/١٠.

٢- من أسرار القرآن والكون والإنسان (أسرار خلق الإنسان) (العجائب في الصلب والترائب) للسعدي ص ٣٣-٧٦.

وأهل اللغة، ومخالف لضوابط التفسير العلمي؛ إذ إنه لا يصح تفسير القرآن بمعنى لم تعهده العرب، ولو كان شائعاً للناس، إلا أن يكون المقصود بالتعبير عن العمود الفقري بالصلب باعتباره الهيكل والأساس والأصل^(١) الذي يرتكز عليه جسم الإنسان، فإن صحَّ هذا المعنى فلا مسوغ لإنزاله على الكروموسومات وجعلها أصل الإنسان، كذلك لو صح هذا المعنى في اللغة، فحمل المعنى عليه فيه نظر؛ لأن الكلام يحمل على المعروف المشهور دون الضعيف أو النادر أو الشاذ^(٢).

بالإضافة إلى أن استدلاله بقراءة (الصُّلب) على أنه جمع صليب، هو استدلال غير مسلم به في توجيه القراءة؛ لأن ضم اللام اتباعاً لضم ما قبلها^(٣).

كذلك الأصل في كلام الله ﷻ أن يحمل على الحقيقة، ولا يُعدل عنها إلى المجاز إلا بدليل^(٤)، وعدوله عنها لاعتقاده بأن الحقيقة العلمية قد وصلت إلى معرفة مسالك الماء في الرجل والمرأة، وأنها لا تخرج من مكان يقع بين الصلب والترائب، وخروجاً من التعارض الذي لا يمكن أن يقع بين العلم والقرآن حاول

١- جاء في الصحيحين من حديث أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إِنَّ مِنْ ضِئْضِي هَذَا قَوْمًا يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَقْتُلُونَ أَهْلَ الْإِسْلَامِ، وَيَدْعُونَ أَهْلَ الْأَوْثَانِ، يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، لَنْ أَدْرِكْتَهُمْ لِأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ". أخرجه البخاري، كتاب الأنبياء، باب قول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَأَمَّا عَادُ فَآمَلِكُوا بِرِيحِ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ ١٢١٩/٣ رقم: ٣١٦٦، ومسلم، كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم ٧٤١/٢ رقم: ١٠٦٤، والضئضي: الأصل، والمراد: يخرج من صلبه ونسله. انظر: جامع الأصول في أحاديث لابن الأثير ٨٨/١٠.

٢- انظر: جامع البيان للطبري ٥٠٩/٧، وروضة الناظر وجنة المناظر لابن قدامة المقدسي ٧٠/٢-٧٤، وإيثار الحق على الخلق في رد الخلافات إلى المذهب الحق من أصول التوحيد لابن الوزير ص ١٥٤.

٣- انظر: معجم القراءات للخطيب ٣٨٠/١٠.

٤- انظر: مفاتيح الغيب للرازي ٢٥/١٢، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١١١/٢٠، ولباب التأويل في معاني التنزيل للخازن ٥٣٣/١، والتمهيد لابن عبد البر ١٦/٥، وأحكام القرآن، لمحمد بن عبد الله أبي بكر بن العربي ٤/٤١٤.

إيجاد معنى آخر للصلب والترائب، وفعله هذا يخالف ضوابط التفسير العلمي؛ إذ ليس هذا مبرراً لأن يلجأ إلى المجاز؛ فالقرآن الكريم كلام الله، وحقائقه هي الأصل، وإن حدث إشكال في فهم معانيه، فالخلل يكون إما في فهمنا للمعنى، أو في العلم البشري؛ إذ الحقائق التي توصل إليها الأطباء قد لا تكون العلم الكامل والمحيط بكل تفاصيل الماء الدافق، وإن كانت حقائق علمية، إلا أنها قد تكون كشفت جزءاً من الحقيقة وغاب عنها جزء أو أجزاء أخرى خفية، قد يكشفها العلم مستقبلاً. كذلك اختياره للصلب أنه من الكاهل إلى العجب، وللترائب أنها العظام الأربعة العلوية من الصدر، وتخصيصه لها دون غيرها لا دليل عليه.

وأما تحديده لفقرات الصلب بـ ٢٢ فقرة، ثم جعلها مساوية لعدد الكروموسومات الجسدية، هو من العمل بالإعجاز العددي، الذي يبني المعاني على الأرقام والأعداد، وهو علم حديث لم يكتمل تأصيله، وقد يتكلف الباحث ويتحمل في البحث والاستنتاج حتى يصل إلى النتيجة المقررة في ذهنه سلفاً^(١)، وهذا المنهج لا يليق الأخذ به في كتاب الله، إلا بضوابط وشروط يتفق عليها العلماء المتخصصون في ذلك، والتي لم توجد بعد^(٢).

١- انظر: الإعجاز العددي في القرآن الكريم لثناء السعداوي، شبكة القراءات القرآنية، على الرابط: (<http://www.qiraatt.com/qiraatt-new>).

٢- انظر: أثر الحقائق العلمية في ترجيح أقوال المفسرين من خلال الثلث الأخير للقرآن ص ١٩٧-٢٠٠.

المطلب الثالث: ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها

من خلال الدراسة التفسيرية والعلمية يتلخص ما يلي:

* المقصود بالصلب عند المفسرين الظهر، أو عظامه ذو الفقرات.

* بالتأمل في الأقوال المذكورة في معنى الترائب نجد أن أكثرها لا تخرج عن الصدر، أو عظامه، وموضع القلادة منه، بالإضافة إلى أن اختيارات المفسرين لم تخرج عنها؛ وذلك مراعاة منهم لما هو معروف في لغة العرب.

* اختلف المفسرون في المراد بقوله ﷻ: ﴿مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾، فقال فريق منهم من بين صلب الرجل وترائب، وقال آخر: من صلب الرجل وترائب المرأة، وقال ثالث: من بين صلب كل واحد منهما وترائب، ولكل فريق مستند وعليه اعتراض.

* هناك احتمالات ثلاثة للمفسرين في المقصود بخروج الماء الدافق من بين الصلب والترائب: الأول: أنه يخرج من مكان وممر موجود بين الصلب والترائب، والثاني: أنه يخرج مستخلصاً من بين أجزاء الصلب والترائب كما يخرج مستخلصاً من جميع أعضاء الإنسان، كاللين، وإنما خصا بالذكر؛ لأن أكثره ينفصل منهما أو لأن المنفصل من غيرهما يمر عليهما، والثالث: أن ذلك كناية عن البدن كله، وخصا بالذكر؛ لأنهما كالوعاء للقلب الذي هو المضغة العظمى فيه.

* كثير من المفسرين أعادوا الضمير في قوله ﷻ: ﴿يَخْرُجُ﴾ إلى الماء الدافق، وذهب آخرون إلى احتمال عودة الضمير إلى الإنسان.

* تنتج الخصيتان وهما غدتان جنسيتان النطاف، وتنتقل النطاف عبر جهاز المسالك الذي يشتمل على البربخ والأسهر (الوعاء الناقل) إلى غدة البروستاتا حيث يلتقي الأسهر بالحوصلات المنوية، وتنتج الحويصلات المنوية وغدة البروستاتا سائلاً كثيفاً يميل إلى البياض يسمى السائل المنوي، ويعمل السائل

المنوي على تغذية النطاف بعد أن يختلط بها ليشكل المنى، كما يساعد على نقلها إلى خارج الجسم بقذفها عبر القضيب نتيجة انقباض العضلات المحيطة^(١).

* تتكون البويضات في المبيض، الواقع في الحفرة المبيضية من الحوض، في الجزء الظهرى من تجويف البطن على جانبي العمود الفقري، وبخروجها تتلقفها الأهداب الموجودة بالبوق المحيط بالمبيض (والمتمصل بقناة فالوب التي تتصل بالرحم)، وتحملها إلى الثلث الأخير منه حيث يتم التلقيح.

* تتوزع عظام فقرات العمودي الفقاري كالتالي: (٧) فقرات عنقية، و(١٢) فقرة صدرية، و(٥) فقرات قطنية، و(٥) عجزية ملتحمة، و(٤) عصبية ملتحمة.

* يوجد في القفص الصدري (١٢) زوجاً من الأضلاع، تتصل العشرة الأولى العليا منها بالقص، أما الزوجان الباقيان فلا يتصلان به ويسميان بالضلوع السائبة.

* لم تتفق كلمة الأطباء والباحثين المعاصرين في تفسير كيفية خروج الماء الدافق من بين الصلب والترائب، ولهم أقوال خمسة، لكل مستند، وعليه معترض، وهي في أصلها أقوال قديمة ذكرها المفسرون أو وافقت أقوالهم جزء منها، وإنما زاد في كلام المعاصرين بعض التفاصيل العلمية الموضحة لها، والذي عليه أكثر المعاصرين أن المقصود منشأ الخصية والمبيض، وتغذيتهما، وترويتهما الدموية.

* اختلاف المعاصرين في تفسير خروج الماء الدافق من الناحية العلمية بالرغم من تقدم علوم الطب، وتوفر الوسائل العلمية، يدل على أن هذه المكتشفات العلمية لم تعط فهماً قاطعاً يصر إليه، وقد يدل ذلك على أن حقائق هذه المكتشفات غير مكتملة، وهي بحاجة إلى استكمال لجوانبها وتفاصيلها؛ حتى تتضح الصورة أكثر، أو أن هذه الحقائق المذكورة بعيدة الارتباط بتفسير الآية الكريمة^(٢).

١- انظر: الموسوعة العربية العالمية ٦/٢٩١، وخلق الإنسان بين الطب والقرآن للبار ص ٢٧.

٢- انظر: أثر الحقائق العلمية في ترجيح أقوال المفسرين من خلال الثلث الأخير للقرآن الكريم ص ٢٠٣.

ومن خلال الدراسة التفسيرية والعلمية يظهر لي الآثار التالية:

* أن تخطئة بعض المعاصرين^(١) لفهم العلماء المتقدمين، خطأ من فاعله؛ لأن المكتشفات العلمية المذكورة قد اختلف في فهمها وتفسيرها حتى المعاصرين، مما يدل على أنها ظنية الدلالة، بالإضافة إلى أن كثيراً من أقوال المفسرين المتقدمين أصابت جزءاً من الحقيقة، وكلام بعضهم قريب مما ذهب إليه بعض المعاصرين.

* إعجاز القرآن الكريم، والذي جعل من آية تتكون من ست كلمات - ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ﴾

الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ - تحتوي على كثير من الأسرار، وتشمل ألفاظها معانٍ كثيرة، ودلالاتٍ متعددة، نتج عنها معانٍ محتملة، وأقوالٍ مختلفة، مما يجعل الخلاف في معنى الآية تفسيرياً وعلمياً محتملاً، والجزم بمعنى واحداً بعينه دون غيره في غاية الصعوبة، وإن لم تكن في نفس الدرجة من الاحتمال.

* احتمال معنى الآية الكريمة لأكثر من وجه في تفسيرها العلمي جعل من تصنيف هذه الآية ضمن آيات الإعجاز العلمي محلاً للخلاف، فحين اعتبرها فريق إعجازاً كاملاً يعطي الدقة العلمية المتناهية لما نطق به القرآن الكريم ولم يكشفه العلم إلا حديثاً بعد ثلاثة عشر قرناً^(٢)، اعتبر بعض الباحثين تصنيفها ضمن آيات الإعجاز العلمي غير صحيح؛ كون المعنى يحتمل أكثر من وجه، حتى يثبت علمياً معنى واحداً - لا يحتمل غيره - وجديداً لم يكن معلوماً للسابقين^(٣)، إلا أنه طالما أن المعاني العلمية محتملة، فذلك تصنيفها - الآية -.

١- انظر: القرار المكين لمأمون شقفه ص ٢٨٢، وخلق الإنسان بين الطب والقرآن للبار ص ١١٨، و(أسرار خلق الإنسان (العجائب في الصلب والترائب)) ص ٨٩.

٢- انظر: تفسير المراغي ١١٣/٣٠، ١١٤، وخلق الإنسان بين الطب والقرآن للبار ص ١١٦، ومن أسرار القرآن والكون والإنسان (أسرار خلق الإنسان (العجائب في الصلب والترائب) لداود السعدي ص ٨٠.

٣- انظر: أثر الحقائق العلمية في ترجيح أقوال المفسرين من خلال الثلث الأخير للقرآن الكريم ص ٢٠٤.

* دمع الشبهة، وقد سبق للإمام الرازي بيان طعن الملحدين في هذه الآية؛ لشبهة تعارض الآية مع الحس والعلم، ثم بعد أن اجتهد الرازي في الرد عليهم، بين أن كلامهم مبني على الوهم والظن الضعيف، وأن كلام الله ﷻ هو المقبول^(١)؛ وما ذلك إلا لاستحالة تعارض قطعي من الشرع مع قطعي من العلم، ذلك أن العلم الذي في القرآن هو علم الله، جعله معجزة لرسوله ﷺ، مصداقاً لقوله ﷻ: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾^(٢)، أي فيه علمه الذي أراد أن يطلع العباد عليه^(٣)، مصداقاً لقوله ﷻ: ﴿سَتْرِيَهُمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمُ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾^(٤)، والشرع شرع الله، ويستحيل أن يتعارضوا وهما من عند الله، وبالتالي فأى خطأ أو إشكال إنما هو ناتج من إشكال في فهمنا للنص، أو من خطأ في ربطنا بينه وبين حقائق العلم، لا من نفس النصوص، أو ناتج -الخطأ- من نقص في جوانب الحقائق العلمية والتي بتمام ظهورها تتجلى المعاني وتظهر المعجزة، أو أن ما جاء به العلم مجرد نظريات وافتراضات علمية، تحتل الخطأ، ويدخلها التبديل والتعديل، خلافاً للحقائق العلمية، يقول ابن تيمية: «فتبين أن كل ما قام عليه دليل قطعي سمعي يمتنع أن يعارضه قطعي عقلي، ومثل هذا الغلط يقع فيه كثير من الناس... فما أخبر به الصادق المصدوق ﷺ هو ثابت في نفس الأمر، سواء علمنا صدقه أو لم نعلمه»^(٥)، وكذلك ما أخبر به المولى ﷻ في كتابه الكريم هو ثابت في نفس الأمر، سواء علمنا صدقه أو لم نعلمه، والله أعلم.

١- انظر: مفاتيح الغيب ١١٨/٣١.

٢- سورة النساء: الآية ١٦٦.

٣- تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٧٢٦/١.

٤- سورة فصلت: الآية ٥٣.

٥- درء تعارض العقل والنقل أو موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول لابن تيمية ٨٠/١، ٨٨.

الفصل الثالث: أطوار خلق الإنسان

وفيه ستة مباحث:

المبحث الأول: خلق الإنسان في أطوار، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: خلق الإنسان في أطوار في القرآن الكريم.
المطلب الثاني: خلق الإنسان في أطوار في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة.
المطلب الثالث: ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها.

المبحث الثاني: طور النطفة، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: طور النطفة في القرآن الكريم.
المطلب الثاني: طور النطفة في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة.
المطلب الثالث: ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها.

المبحث الثالث: طور العلقة، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: طور العلقة في القرآن الكريم.
المطلب الثاني: طور العلقة في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة.
المطلب الثالث: ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها.

المبحث الرابع: طور المضغة، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: طور المضغة في القرآن الكريم.
المطلب الثاني: طور المضغة في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة.
المطلب الثالث: ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها.

المبحث الخامس: طور خلق العظام وكساؤه باللحم، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: طور خلق العظام وكساؤه باللحم في القرآن الكريم.
المطلب الثاني: طور خلق العظام وكساؤه باللحم في ضوء الاكتشافات العلمية.
المطلب الثالث: ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها.

المبحث السادس: طور النشأة خلقاً آخر، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: طور النشأة خلقاً آخر في القرآن الكريم.
المطلب الثاني: طور النشأة خلقاً آخر في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة.
المطلب الثالث: ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها.

المبحث الأول

خلق الإنسان في أطوار

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول:

خلق الإنسان في أطوار في القرآن الكريم.

المطلب الثاني:

خلق الإنسان في أطوار في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة.

المطلب الثالث:

ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها.

المطلب الأول: خلق الإنسان في أطوار في القرآن الكريم

الآيات الواردة:

قال الله ﷻ: ﴿بَخَلَقَكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾^(١).

وقال ﷻ: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾^(٢).

أقوال المفسرين:

قوله ﷻ: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾، الطَّوْرُ: التَّارَةُ، تقول: طَوَّرًا بَعْدَ طَوْرٍ، أي تارة بعد تارة، والأطوارُ: الحالاتُ المختلفةُ والتاراتُ والحدودُ^(٣).

وقد اختلف المفسرون في معنى ﴿أطوارًا﴾ في قوله ﷻ: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾، على أقوال:

القول الأول: وعليه أكثر المفسرين^(٤)، أنها المراحل والأطوار الجنينية المبينة في قول الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾^(٥)، مستدلين على ذلك

١- سورة الزمر: الآية ٦.

٢- سورة نوح: الآية: ١٣، ١٤.

٣- انظر: لسان العرب ٥٠٧/٤.

٤- انظر: تفسير مقاتل ٤٠٢/٣، وجامع البيان للطبري ٦٣٥/٢٣، والكشف والبيان للشعلبي ٤٥/١٠، والوجيز للواحي ص ١١٣٦، ومعالم التنزيل للبغوي ١٥٧/٥، والكشاف للزمخشري ٦٢٠/٤، والمحزر الوجيز لابن عطية ٣٤٦/٥، ومفاتيح الغيب للرازي ١٢٣/٣٠، ولباب التأويل للخازن ١٥٤/٧، والدر المنثور للسيوطي ٢٩٠/٨، وتفسير الجلالين ص ٧٦٨، ومراح لبيد ٥٦٧/٢، ومحاسن التأويل للقاسمي ٣٢٣/٩، وفي ظلال القرآن لسيد قطب ٣٧١٤/٦، وصفوة التفاسير للصابوني ٤٠٦/٣، وأيسر التفاسير للجزائري ٤٤٠/٥.

٥- سورة المؤمنون: الآية ١٢-١٤.

بالقرينة الموجودة في الآية، وهي أن الآية تتحدث في قضية الخلق وهو الإيجاد الأول؛ لأن ما بعد الإيجاد يعتبر صفات عارضة، والآية سيقّت في الدلالة على قدرة الله على بعثهم بعد موتهم لمجازاتهم، فكان الأنسب بها أن يكون متعلقها كمال الخلق والقدرة على الإيجاد، والأنسب لهذا المعنى هو خلقهم في هذه الأطوار، فهي قدرة باهرة وسلطة قاهرة، ومثله في الواقعة في قول الله ﷻ: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ * أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْمَخْلُقُونَ﴾^(١)، وأصل الخلق والإيجاد، هو أقوى

دليل على القدرة، وهو الذي يجاب به على الكفرة، كما في قوله ﷻ: ﴿قِيلَ لِلْإِنْسَانِ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَي شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾^(٢)، فذلك كله دليل على أن المراد بالأطوار في الآية، هو ما جاء عن ابن عباس المشتملة عليه سورة المؤمنون، وبيان أطوار خلق الإنسان على النحو المتقدم أقوى في انتزاع الاعتراف بقدرة الله من العبد، من يحيي المخلوق جملة؛ لأنه يوقفه على عدة مراحل من حياته وإيجاده، وكل طور منها آية مستقلة^(٣).

القول الثاني: ﴿أَطْوَارًا﴾: شباباً، وشيوخاً، وضعفاء^(٤)، كما قال ﷻ: ﴿اللَّهُ الَّذِي

خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾^(٥).

١- سورة الواقعة: الآية ٥٨، ٥٩.

٢- سورة عبس: الآية ١٧، ١٨.

٣- انظر: أضواء البيان للشنقيطي ٣٠٧/٨-٣٠٩.

٤- انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣٠٣/١٨، والبحر المحيط في التفسير لأبي حيان ٢٥٦/٨، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل ٣٨٨/١٩، وفتح القدير للشوكاني ٣٥٧/٥، وروح المعاني للألوسي

٧٤/٢٩، وأضواء البيان للشنقيطي ٣٠٧/٨.

٥- سورة الروم: الآية ٥٤.

القول الثالث: جمع القائلون به بين القولين الأول والثاني، فقالوا: خلقكم أطواراً، أي: أحوالاً مختلفة، خَلَقَكُمْ أَوْلًا نُطْفَاءً، ثم خَلَقَكُمْ عِلْقَاءً، ثم مُضْغَاءً، ثم عِظَامًا وَلِحْمًا، ثم إنساناً، ثم خلقاً آخر، وبعد ظهوره إلى هذا العالم يكون شباباً، ثم كهلاً، ثم شيخاً^(١).
القول الرابع: خلقكم أنواعاً: صحيحاً، وسقيماً، وبصيراً، وضريراً، وغنياً، وفقيراً^(٢).

القول الخامس: ﴿أَطْوَارًا﴾: اختلافهم في الأخلاق والأفعال^(٣).

القول السادس: الطور الحال، والمعنى خلقكم أصنافاً مختلفين لا يشبه بعضهم بعضاً^(٤)، أي: أشكالاً وأصنافاً وأزواجاً، فكلٌ على فهم، وكلٌ بعقل، وكلٌ بتفسير، وكلٌ بسجيته وطبيعته^(٥).

القول السابع: خلقهم أطواراً حين أخرجهم من ظهر آدم للعهد، ثم خلقهم حين أذن بهم إبراهيم عليه السلام للحج، ثم خلقهم ليلة أسرى برسول الله ﷺ فأراه إياهم^(٦).
والقول الراجح هو القول الأول، أنها المراحل والأطوار الجنينية المبينة في سورة المؤمنون في قول الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي

١- انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية لحموش ٧٧٣٧/١٢، والبحر المديد في تفسير القرآن المجيد لابن عجيبة ٢١٧/٨، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ٨٨٩، والتحرير والتنوير لابن عاشور ١٨٦/٢٩، والتفسير المنير في العقيدة و الشريعة والمنهج للزحيلي ١٤٤/٢٩.

٢- انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية لحموش ٧٧٣٧/١٢، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣٠٣/١٨، وتفسير البحر المحيط لأبي حيان ٢٥٦/٨، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل ٣٨٨/١٩، وروح المعاني للألوسي ٧٤/٢٩، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي ٣٠٧/٨.

٣- النكت والعيون للماوردي ١٠٢/٦، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣٠٣/١٨، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل ٣٨٨/١٩، وفتح القدير للشوكاني ٤١٨/٥، وأضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٣٠٧/٨.

٤- قاله ابن الأنباري، مفاتيح الغيب للرازي ١٢٤/٣٠، وغرائب القرآن و رغائب الفرقان للنيسابوري ٣٦٤/٦.

٥- انظر: سلسلة التفسير لمصطفى العدوي، على موقع الشبكة الإسلامية: (www.islamweb.net).

٦- انظر: تفسير روح البيان لحقي ١٣٧/١٠.

قَرَارِ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْمَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١﴾؛ وذلك لقوة أدلته.

فقوله ﷻ: **﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾** المراد آدم ﷺ، فأدم استل من الطين، وخلقت ذريته من بعده من ماء مهين.

وقوله ﷻ: **﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾**، أي جعلهم الله ﷻ بعد ذلك نطفة في أصلاب الآباء، ثم استقرت هذه النطف في أرحام الأمهات.

وقوله ﷻ: **﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾** أي: حولنا النطفة عن صفاتها إلى صفات العلقة وهي الدم الجامد.

وقوله ﷻ: **﴿فَخَلَقْنَا الْمَلَقَةَ مُضْغَةً﴾** أي: جعلنا ذلك الدم الجامد مضغاً، أي: قطعة لحم، كأنها مقدار ما يمضغ، كالغرفة وهي مقدار ما يغترف، وسمى التحويل خلقاً؛ لأنه سبحانه يفني بعض أعراضها ويخلق أعراضاً غيرها، فسمى خلق الأعراض خلقاً لها، وكأنه سبحانه وتعالى يخلق فيها أجزاء زائدة.

وقوله ﷻ: **﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا﴾** أي: صيرناها كذلك.

وقوله ﷻ: **﴿فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا﴾**؛ وذلك لأن اللحم يستر العظم فجعله كالكسوة لها.

وقوله ﷻ: **﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾** أي: خلقاً مباحين، فصار ناطقاً، سمياً، بصيراً^(٢).

وذكر بعض العلماء ملخص المصطلحات القرآنية للأطوار الجنينية كما يلي:

المراحل الأساسية: يقرر القرآن الكريم في سورة المؤمنون تتقل الجنين في رحم أمه في ثلاث مراحل أساسية متميزة، يفصل بين كل مرحلة منها والمرحلة الأخرى

١- سورة المؤمنون: الآية ١٢، ١٣، ١٤.

٢- انظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري ١٦/١٩، ومفاتيح الغيب للرازي ٧٤/٢٣.

فترة زمنية يدل عليها حرف عطف خاص (ثم)، وهو يدل على التراخي الزمني بين الأطوار، وهي كالتالي:

- ١- مرحلة النطفة (الأسبوع الأول منذ التلقيح).
 - ٢- مرحلة التخليق (الأسبوع الثاني والثالث إلى السابع).
 - ٣- مرحلة النشأة خلقاً آخر (الشهر الثالث إلى الولادة).
- المراحل الفرعية: وهي كما يلي:
- ١- في مرحلة النطفة: (الماء الدافق، السلالة، النطفة الأمشاج، الحرث).
 - ٢- في مرحلة التخليق: (العلاقة، المضغة، العظام، الكساء باللحم).
 - ٣- في مرحلة النشأة: (القابلية للحياة، الحضانة الرحمية، المخاض).

أما التقسيم الآخر فهو كالتالي:

- نطفة (الأسبوع الأول منذ التلقيح).
- علقة (الأسبوع الثاني والثالث).
- مضغة (الأسبوع الرابع).
- العظام والعضلات (الخامس والسادس والسابع).
- التصوير (الأسبوع الخامس والسادس والسابع).
- التسوية والتعديل.
- نفخ الروح^(١).

١- انظر: علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة ص ٦٧، وخلق الإنسان بين الطب والقرآن لمحمد علي البار ص ٣٧٦، ودلائل الإعجاز العلمي في القرآن الكريم لسيف الدين الكاتب ص ٤١٢-٤١٥، ومدخل إلى رعاية الطفل والأسرة لمحمد متولي قنديل، وصافي ناز شلبي ص ٥٠، وعجائب النظر والتأمل في عظمة الله عز وجل لأسامة نعيم الناعسة ص ١٨٠-١٩٠.

فالقُرآن الكريم وصف أطوار الجنين وصفاً دقيقاً من خلال إطلاق مسمى على كل طور له بداية ونهاية محددة، حيث يصف المظهر الخارجي للجنين، ويعكس عمليات التخلق الداخلية له في فترات زمنية متعاقبة^(١).

أما قوله ﷺ: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾^(٢)، ضمير المخاطبين هنا راجع إلى الناس، وهو استدلال بخلق الإنسان في أطوار على عظيم قدرة الله وحكمته ودقائق صنعته، والتعبير بصيغة المضارع؛ لإفادة تجدد الخلق وتكرره مع استحضار صورة هذا التطور^(٣) العجيب استحضاراً بالوجه والإجمال الحاصل للأذهان على حسب اختلاف مراتب إدراكها، ويعلم تفصيله علماء الطب والعلوم الطبيعية^(٤)، وقد بينته السنة النبوية، وذلك في قول رسول الله ﷺ: "إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ عِلْقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ وَيُؤَمَّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، يَكْتُبُ رِزْقَهُ وَأَجَلَهُ وَعَمَلَهُ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، فَوَ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّىٰ مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا"^(٥).

١- أطوار الجنين ونفخ الروح لعبد الجواد الصاوي، بحث منشور في مجلة الإعجاز العلمي الصادرة عن هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، العدد ٨، ص ٦، شوال ١٤٢١هـ - يناير ٢٠٠١م.

٢- سورة الزمر: الآية ٦.

٣- أي الخلق في أطوار.

٤- انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٦١١/٢، والتحرير والتنوير لابن عاشور ٢٣/٢٤، ٢٤.

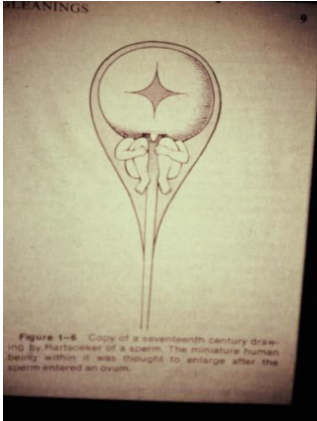
٥- أخرجه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب ذكر الملائكة ١١٧٤/٣، برقم: ٣٠٣٦، ومسلم، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته ٢٠٣٦/٤، برقم: ٢٦٤٣.

وقوله ﷻ: ﴿خَلَقْنَا مِنْ بَعْدِ خَلْقِ﴾، أي: طوراً من الخلق بعد طور آخر يخالفه^(١). قال الطبري: «يبتدئ خلقكم أيها الناس في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق، وذلك أنه يحدث فيها نطفة، ثم يجعلها علقة، ثم مضغة، ثم عظاماً، ثم يكسو العظام لحماً، ثم يُنشئه خلقاً آخر، تبارك الله وتعالى، فذلك خلقه إياه خلقاً بعد خلق»^(٢).

١- انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٦١١/٢، والتحرير والتنوير لابن عاشور ٢٤/٢٤.
٢- تفسير الطبري ٢٥٧/٢١.

المطلب الثاني: خلق الإنسان في أطوار في ضوء الاكتشافات العلمية

لقد شهد هذا العصر نهضة علمية في شتى المجالات، ومن هذه المجالات ما يتعلق بعلم الأجنة، ومراحل تخلقها، هذا العلم الذي كانت معلوماته محل تخمينات عقليه وتصورات ذهنية، حتى ارتقى في القرون الأخيرة إلى مرحلة الوصف الدقيق القائم على استخدام الأجهزة الحديثة، فظهر للعلم مقدار التخبط الذي كان سائداً في العصور السابقة في مسألة الإنسان ومراحل تخلقه، فقد ظهر في ذلك الوقت فكرة أن الجنين يخلق من دم الحيض^(١)، كما كان يعتقد (أرسطو) ويقول: «إن الجنين موجود في دم الحيض، فيعقده نطاف الذكر فيصبح جنيناً، تماماً كما تفعل المنفحة^(٢) بالحليب فتحوله إلى جبن»^(٣)، وظلت هذه الفكرة عند جميع الأطباء واستمرت حتى نشط البحث العلمي في القرن السادس عشر بعد اكتشاف الميكروسكوب فكان الأطباء طوال القرن السابع عشر يعتقدون أن الإنسان يخلق



خلقاً كاملاً في الحيوان المنوي أي في نطفة الرجل والشكل الذي رسمه الأطباء في ذلك العصر ليدلوا على أن الإنسان يخلق خلقاً كاملاً في هذا الحيوان المنوي، واستمر هذا الاعتقاد إلى القرن الثامن عشر، وبعد اكتشاف البويضات في القرن الثامن عشر غير العلماء جميعاً آراءهم فقالوا: إن الإنسان يخلق خلقاً كاملاً في

- ١- مراحل الجنين لعادل الصعدي ٣٩٢/٢، بحث في موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، إصدار مركز البحوث- جامعة الإيمان، ٢٠٠٦م.
- ٢- مادة خاصة تستخرج من الجزء الباطني من المعدة الرضيع من العجول أو الجداء أو نحوهما، بها خميرة تجبن اللبن، انظر: المعجم الوسيط ٩٣٨/٢.
- ٣- موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة النبوية لعبد الرحيم مارديني ص ٢٣١.

ببَيضة المرأة لأنها أكبر، وأهمل دور الرجل بعد أن أهمل القرن السابع عشر دور المرأة، وفي منتصف القرن التاسع عشر فقط بدأ العلماء يكتشفون أن الإنسان يخلق في أطوار^(١)، فقد قدم (وولف) نظريته القائلة بأن الجنين ليس موجوداً بشكل متكامل في البويضة أو الحيوان المنوي، وإنما هو موجود بصورة بسيطة جداً، ثم يتعدّد تدريجياً، حيث كان يدرس جنين الكتكوت الذي وصفه بأنه يبدأ من مجموعة من الكريات الصغيرة التي تشبه الفقاقيع -في الواقع مجموعة من الخلايا- ثم تنمو هذه الكريات البسيطة لتصبح في النهاية جسم الكتكوت المعقد، وسميت نظريته هذه بالخلق الفوقي أو الخارجي أي من البسيط إلى المركب، مبتدأةً بالنقاء الحيوان المنوي بالبويضة، ثم تكون كريات بسيطة، ثم تتعدّد لتكون في النهاية مخلوقاً معقد التركيب ذو أجهزة وأعضاء متعددة، فانتهى الجدل حول نظرية الخلق التام، وبعدها ظهرت دراسات علمية من قبل كثير من العلماء، وتبين بعد ذلك أن الإنسانية بعلمها التجريبي لم تعرف أن الجنين يمر بأطوار مختلفة متباينة، وأن جسمه يبني من البسيط إلى المركب المعقد إلا في القرن التاسع عشر، ولم يتأكد ذلك إلا في أوائل القرن العشرين^(٢).

وقد جرت محاولات أولى لترتيب تطور الجنين البشري في مراحل، عند نهاية القرن التاسع عشر، وتواصلت الجهود حتى بداية القرن العشرين، والصعوبة الأساسية التي واجهت العلماء هي انتقال الجنين في سلسلة من التغيرات المتداخلة والمتواصلة أثناء نموه، وفي عام (١٣٣٢هـ-١٩١٤م) رتب (مول) (٢٦٦) جنيناً بشرياً في سلسلة من المراحل، وبعد ثمانية وعشرين عاماً (١٣٥٩هـ-١٩٤٢م)

١- إنه الحق للزنداني ص٤٢، من إصدارات هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة.

٢- خلق الإنسان بين الطب والقرآن لمحمد علي البار ص ١٨٦-١٨٨، ونشأة الذرية لمحمد دودح ص٢٨.

رتب ستريتر الجنين البشري في (٢٣) مرحلة، وأطلق عليها (آفاق التطور) وظلت ترتيبات ستريتر تستعمل على نطاق عالمي، حتى عام (١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م)؛ حينما قدم أورايلى نظاماً أكثر تفصيلاً لتصنيف الجنين البشري، وخاصة خلال الأسابيع الثلاثة الأولى من تكوينه، وقد حظيت مراحل كراتيجي هذه بموافقة عالمية، وهي مبنية على الأحداث المختلفة للتطور، وعلى معايير المظهر الخارجي، ويقدم هذا النظام معلومات مفصلة لعلماء الأجنة الذين يعنون بتفاصيل التخلق البشري، وقد وضع العلماء في بداية محاولاتهم حرفاً أبجدياً لوصف كل مرحلة من المراحل، ثم غيرت الحروف إلى الأرقام، إلا أن هذه الحروف والأرقام لم تحمل مفهوماً وصفيّاً مميزاً لمرحلة عن أخرى، وحتى وقت قريب لم يكن معروفاً أن القرآن الكريم والسنة المطهرة يتضمنان مصطلحات دقيقة تتعلق بمراحل التخلق البشري إلا عند المسلمين، فلم تكن هذه المصطلحات مفهومة بوضوح حتى وقت قريب؛ لأنها تشير إلى تفاصيل في عملية التخلق، لم تكن معروفة في الماضي^(١)، لذلك يقول (كيث مور) -رئيس قسم التشريح وعلم الأجنة بجامعة تورنتو في كندا- عن التقسيمات القرآنية التي تعتمد على الشكل المحدد المتميز عن الشكل الآخر (نطفة-علقة-مضغة-عظام-كساء العظام باللحم-النشأة خلقاً آخر): «هي تقسيمات علمية دقيقة، وتقسيمات سهلة، ومفهومة، ونافعة»^(٢).

واقترح أيضاً بأن التقسيم الذي تقسم إليه أطوار الجنين في بطن أمه الآن في العالم كله تقسيم صعب غير مفهوم ولا ينفذ في فهم مراحل تطور الجنين، ويتعجب كذلك (كيث مور) في كتابه (تخلق الجنين البشري) من وفرة وتآزر الحقائق العلمية المتعلقة بخلق الجنين في القرآن، فيقول: «لم تُضف في العصور

١- علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة ص ١٧٥، ١٧٦.

٢- كتاب إنه الحق للزنداني ص ٣٨.

الوسطى معلومات ذات قيمة في مجال تخلق الجنين، ومع ذلك قد سجل القرآن في القرن السابع وهو الكتاب المقدس عند المسلمين أن الجنين البشري يتخلق من أخلط تركيبية من الذكر والأنثى، مع بيان تخلق الجنين في أطوار ابتداءً مما يماثل في التركيب قطيرة أو نطفة تتغرس وتنمو في الرحم كالبذرة، ومع وصف الجنين في أول مرحلة بما يماثل العلقة التي تعيش على مص دماء الغير، ثم مما يماثل كتلة ممضوغة بما فيها من علامات أسنان وانبعاجات، وهو ما يتفق تماماً مع تطور الأعضاء في تلك المرحلة بالفعل»^(١).

و(كيث مور) من أشهر علماء التشريح وعلم الأجنة في العالم، ألف كتاب (أطوار خلق الإنسان) وهو مرجع علمي عالمي مترجم بثمان لغات من أهم المراجع الطبية في هذا الاختصاص، يدرس في كثير من الجامعات، ضمنه ذكر المراحل المذكورة في القرآن، وربط في كل فصل من فصول الكتاب والتي تتكلم عن تطور خلق الجنين وبين الحقائق العلمية والآيات والأحاديث المتعلقة بها وشرحها، بعد أن دار بينه وبين علماء مسلمين حوار، عرضوا عليه كثيراً من الآيات والأحاديث المتعلقة بمجال تخصصه في علم الأجنة، فاقتنع بما عرض عليه، وإليك بعضاً مما جاء فيه:

عبد المجيد الزنداني: قلنا له: إنك ذكرت في كتابك (القرون الوسطى) وقلت: إن هذه القرون لم يكن فيها تقدم لعلم الأجنة، بل لم يعلم فيها إلا الشيء القليل، وفي هذه العصور عندكم كان القرآن ينزل عندنا، وكان محمد ﷺ يعلم الناس الهدى الذي جاء من عند الله ﷻ، وفيه الوصف الدقيق لخلق الإنسان ولأطوار خلق الإنسان، وأنت رجل عالمي، فلماذا لم تتصف وتضع في كتابك هذه الحقائق؟

١- نشأة الذرية لمحمد دودح ص ٢٦.

كيث مور): الحجة عندكم وليست عندي؛ قدموها لنا.
يقول عبد المجيد الزنداني: ففعلنا، فكان هو كذلك عالماً شجاعاً، فوضع إضافة في الطبعة الثالثة وهي الآن منتشرة في العالم بثمان لغات يقرأها أكابر العلماء في العالم الذين ينطقون باللغة الإنجليزية والروسية والصينية واليابانية والألمانية والإيطالية واليوغوسلافية والبرتغالية، يقرأون ما أضافه البروفيسور كيث مور في هذا الباب^(١).

وذكر عبد المجيد الزنداني أنه التقى ب(مارشال جونسون) رئيس قسم التشريح ومدير معهد دانيال بجامعة توماس جيفرسون بفلادلفيا بالولايات المتحدة الأمريكية، ودار بينهما الحوار التالي - عن الخلق في أطوار -:

عبد المجيد الزنداني: ذكر القرآن أن الجنين يخلق في أطوار.

(مارشال جونسون): كان جالساً فوق يصرخ: لا . لا . لا .

عبد المجيد الزنداني: اجلس يا دكتور.

(مارشال جونسون): أجلس، ما هذا الكلام الذي تقوله؟

عبد المجيد الزنداني: فقمنا إليه، وقدمنا له المصحف وقلنا له: تفضل اقرأ وقرأنا

عليه قول الله ﷻ: ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾^(٢)، وقوله ﷻ: ﴿ يَخْلُقُكُمْ

فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا

هُوَ فَآَنِي تُصِرُّوْنَ ﴾^(٣)، وقرأ ترجمة معناهما باللغة الإنجليزية، فجلس.

(مارشال جونسون): لكن هذا يمكن أن يكون له ثلاثة تفسيرات:

١- إنه الحق لعبد المجيد الزنداني ص ٣٣، ٣٤.

٢- سورة نوح: الآية: ١٣، ١٤.

٣- سورة الزمر: الآية ٦.

الأول: أن يكون صدفة.

عبد المجيد الزنداني: فجمعنا له أكثر من خمسة وعشرين نصاً ووضعناها بين يديه، وقلنا: كل هذه النصوص قد تكون صدفة؟! ثم إن القرآن قد أعطى لهذه الأقطار أسماء أيكون هذا صدفة؟!

(مارشال جونسون): لا.

عبد المجيد الزنداني: فماذا بقي؟

(مارشال جونسون): يمكن أن يقال: إن محمداً عنده ميكروسكوبات ضخمة.

عبد المجيد الزنداني: أنت تعلم أن مثل هذه الأقطار والدقائق والتفاصيل وما عرفه العلم من تفاصيل هذه الأقطار وذكره القرآن كذلك هذا لا يتيسر إلا بميكروسكوبات ضخمة جداً، والذي عنده هذه الميكروسكوبات الضخمة لا بد أن يكون له تقنية عالية جداً وتنعكس على طعامه وشرابه وحره وسلمه، ولا بد أن يتلقى هذا من الجيل الذي قبله، ويسلمه للجيل الذي بعده.

(مارشال جونسون): ضحك، وقال: لقد رأيت في معرض من المعارض أول ميكروسكوب اخترع في العالم، إنه ليكبر أكثر من عشر مرات، ولا يستطيع أن يظهر الصورة واضحة، لا، لم يكن عند محمد أجهزة ولا مكروسكوبات، فما بقي إلا أن نقول هو رسول من عند الله.

ومما قاله (مارشال جونسون): «القرآن في الواقع شرح المراحل الخارجية، ولكنه يؤكد أيضاً المراحل التي داخل الجنين أثناء خلقه وتطوره مؤكداً على أحداث رئيسية تعرف عليها العلماء المعاصرون»^(١).

١- إنه الحق للزنداني ص ٤١ - ٤٦، وموسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة ص ٩٥.

وذكر عبد المجيد الزنداني أيضاً أنه التقى بـ(ج. س. جورنجر) -أستاذ في كلية الطب قسم التشريح في جامعة جورج تاون في واشنطن-، ودار بينهما الحوار التالي:

عبد المجيد الزنداني: هل ذكر في تاريخ علم الأجنة أن الجنين يخلق في أطوار؟ وهل هناك من الكتب المتعلقة بعلم الأجنة ما قد أشار إلى هذه الأطوار في زمن الرسول ﷺ أو بعده بقرون، أم أن هذا التقسيم إلى أطوار لم يعرف إلا في منتصف القرن التاسع عشر؟

(ج. س. جورنجر): لقد كانت هناك عناية من اليونانيين بدراسة الجنين، وقد حاول عدد منهم أن يصف ما يدور للجنين وما يحدث فيه.

عبد المجيد الزنداني: نعم، نعلم هذا، إن هناك نظريات لبعض العلماء منهم أرسطو وغيره، ولكن هل هناك من ذكر أن هناك أطواراً؟

(ج. س. جورنجر): لا.

عبد المجيد الزنداني: وهل هناك مصطلحات أطلقت على هذه الأطوار كالمصطلحات التي وردت في القرآن الكريم؟

(ج. س. جورنجر): لا.

عبد المجيد الزنداني: فما رأيك في هذه المصطلحات التي تغطي أطوار الجنين؟

(ج. س. جورنجر): إنه وصف للتطور البشري منذ تكوين الأمشاج إلى أن أصبحت كتلاً عضوية، عن هذا الوصف والإيضاحات الجلية والشاملة لكل مرحلة من مراحل تطور الجنين في معظم الحالات، إن لم يكن في جميعها يعود هذا

الوصف في قدمه إلى قرون عديدة قبل تسجيل المراحل المختلفة للتطور الجنيني البشري التي وردت في العلوم التقليدية العلمية^(١).

وهناك قواعد خاصة بالمصطلحات العلمية، فالعلماء يحرصون عند وضع أسس المصطلحات في علم الأجنة، أن يكون المصطلح الذي يطلق على طور ما، واصفاً لما يبدا عليه الجنين فعلاً، ويجب أن يكون هناك اتفاق تام بين التسمية وبين طبيعة التطور والأحداث التي يمر بها الجنين في هذه المرحلة، ولكي نتجنب الالتباس بين مرحلة وأخرى فإن كل مصطلح ينبغي أن يصف مرحلة لها بداية واضحة ونهاية واضحة كذلك، وبقدر الإمكان يجب أن تتفادى أي تداخل بين المراحل^(٢).

واليك تقسيم جهاذة علم الأجنة لمراحل الخلق، وهذا التقسيم يتفق مع تقسيم القرآن في مرحلة البويضة الملقحة (النطفة الأمشاج).

ويختلفون بعد ذلك: فمنهم من يجعل من الأسبوع الثاني حتى الثامن مرحلة واحدة هي مرحلة الحميل، ويقسم بعد ذلك ما يحدث في مرحلة الحميل إلى:

أ- الانغراز (العلاقة).

ب- الجنين ذو الطبقتين.

ج- مرحلة الجنين ذو الثلاث طبقات.

د- الكتل البدنية.

هـ- تكون الأعضاء.

ومنهم من يقسم هذه المرحلة إلى ثلاثة أقسام فقط:

١- إنه الحق لعبد المجيد الزنداني ص ١٧- ١٩.

٢- انظر: علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة للزنداني وآخرين ص ١٧٦.

أ- **مرحلة العلق**، وتستمر حتى تظهر أغشية الجنين والدورة الدموية وتتمايز طبقات اللوح الجنيني إلى ثلاث طبقات، وهذا التقسيم ينطبق تماما على مرحلة العلق؛ لأنها تبدأ بعد العلق مباشرة وتنتهي بظهور الكتل البدنية (أي المضغة)، ومدة هذه المرحلة أسبوعين فقط أي منذ نهاية الأسبوع الأول للتلقيح، وحتى نهاية الأسبوع الثالث للتلقيح.

ب- **مرحلة الكتل البدنية**، ولا يختلف العلماء في هذه المرحلة فهم متفقون عليها، وهي تبدأ في اليوم العشرين أو الواحد والعشرين وتنتهي باليوم الثلاثين (المضغة).

ج- **مرحلة تكون الأعضاء**، وتبدأ من الأسبوع الرابع، وتنتهي في الأسبوع الثامن، وهي الفترة الحرجة بالنسبة للجينات (الناسلات) لقابليتها الشديدة للتأثر بعوامل البيئة في هذه الفترة، وفي نهاية الأسبوع الثامن تكاد تكون الأعضاء الداخلية كلها قد اتخذت مواضعها وإن بدت بشكل أولي، وتعتبر في نهاية الأسبوع الثامن اكتمال دورة الجنين وبدء دورة الحمل، فإذا ما انتهت مرحلة تكوين الأعضاء فإن مرحلة الجنين تكون قد انتهت، وبدأت مرحلة أخرى تعرف لدى العلماء بمرحلة الحمل، وهي تبدأ من بداية الشهر الثالث وتنتهي بالولادة، ولا يكون في هذه المرحلة إلا تخليق يسير، ويتسارع معدل النمو والتغير في الهيئة، وأبرز سمة في هذه المرحلة هي ظاهرة النمو المتصل السريع، وتستمر هذه المرحلة حتى تنتهي بآلام الطلق والولادة^(١).

وسنقف في المباحث القادمة إن شاء الله على كل طور ونبيته.

١- انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن لمحمد علي البار ص ٣٧٦ - ٣٧٩، وأطوار الجنين ونفخ الروح لعبد الجواد الصاوي، بحث منشور في مجلة الإعجاز العلمي الصادرة عن هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، العدد ٨، ص ١٣، شوال ١٤٢١هـ - يناير ٢٠٠١م، وتطور الجنين وصحة الحامل كتاب الطبيب والأسرة لمحيي الدين طالو العلبي ص ٩٤-١١٦.

المطلب الثالث: ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها

من خلال الدراسة التفسيرية والعلمية يتلخص ما يلي:

* الطَّوْرُ: التَّارَةُ، تقول: طَوَّرًا بَعْدَ طَوْرٍ، أي تارةً بعد تارة، والأطوارُ: الحالاتُ المختلفةُ والتاراتُ والحدودُ.

* اختلف المفسرون في معنى ﴿أَطْوَارًا﴾ على سبعة أقوال، والراجح هو القول الأول، وهو أنها المراحل والأطوار الجنينية المبينة في قوله ﷻ في سورة المؤمنون: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾^(١)؛ لقوة الأدلة فيه.

* القرآن الكريم ذكر المراحل الجنينية، ويؤكد أيضاً العمليات الداخلية للجنين أثناء خلقه وتطوره، كما أعطى مسميات تنطبق على المراحل، واصفة لشكلها الداخلي والخارجي، ومحددة لبدايتها ونهايتها، أما وصف علم الأجنة فيتفق مع كثير من هذه التقسيمات: كالنطفة، والمضغة، والعظام، واللحم، وبعض علماء علم الأجنة لا يركز على مرحلة العلقة كما يركز عليها التقسيم القرآني، وكذلك مرحلة التصوير والتسوية والتعديل، فالمنهج القرآني لتقسيم مراحل تخلق ونمو الجنين الإنساني أدق من وصف علم الأجنة ويدعو إلى الدهشة حقاً^(٢).

* كان الأطباء طوال القرن السابع عشر يعتقدون أن الإنسان يخلق خلقاً كاملاً في الحيوان المنوي، وبعد اكتشاف البويضات في القرن الثامن عشر غير العلماء جميعاً آراءهم فقالوا: إن الإنسان يخلق خلقاً كاملاً في بويضة المرأة؛ لأنها أكبر.

١- سورة المؤمنون: الآية ١٢-١٤.

٢- انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن ص ٣٧٧، وعلم الأجنة في ضوء القرآن والسنة ص ١٧٦.

* ظهرت دراسات علمية بعد ذلك، وتبين أن الإنسانية بعلمها التجريبية لم تعرف أن الجنين يمر بأطوار مختلفة متباينة إلا في القرن التاسع عشر، ولم يتأكد ذلك إلا في أوائل القرن العشرين.

* الصعوبة الأساسية التي واجهت العلماء لمعرفة الأطوار وتسميتها هي انتقال الجنين في سلسلة من التغيرات المتداخلة والمتواصلة أثناء نموه.

* وضع العلماء قواعد وأسس خاصة بالمصطلحات العلمية في علم الأجنة، وقد وضعوا في بداية محاولاتهم حرفاً أبجدياً لوصف كل مرحلة من المراحل، ثم غيرت الحروف إلى الأرقام، إلا أن هذه الحروف والأرقام لم تحمل مفهوماً وصفيًا مميزاً لمرحلة عن أخرى.

ومن خلال الدراسة التفسيرية والعلمية يظهر لي الآثار التالية:

* أكدت الحقائق العلمية صحة ما ذهب إليه جمهور المفسرين من أن معنى (أطوارا) هي المراحل والأطوار الجنينية، وهو ما يتوافق مع ظاهر القرآن وصحيح السنة النبوية.

* إظهار المعجزة العلمية، حيث قرر القرآن والسنة حقائق كثيرة في علم الأجنة لم تتأكد إلا في القرون الأخيرة عندما تطورت التقنية الحديثة، وهذا هو ما نطق به قادة العلوم التجريبية، يقول (كيث إل مور) رئيس قسم التشريح وعلم الأجنة بجامعة تورنتو في كندا- في مؤتمر الإعجاز العلمي في القرآن بالقاهرة عام ١٩٨٦هـ: «إنني أشهد بإعجاز الله في خلق كل طور من أطوار القرآن الكريم، ولست أعتقد أن محمد ﷺ أو أي شخص آخر يستطيع معرفة ما يحدث في تطور الجنين؛ لأن هذه التطورات لم تكتشف إلا في الجزء الأخير من القرن العشرين،

وأريد أن أؤكد على أن كل شيء قرأته في القرآن الكريم عن نشأة الجنين وتطوره في داخل الرحم، ينطق^(١) على كل ما أعرفه كعالم من علماء الأجنة البارزين^(٢). ويقول (مارشال جونسون) -رئيس قسم التشريح ومدير معهد دانيال بجامعة توماس جيفرسون بفلادلفيا بالولايات المتحدة الأمريكية-: «لم يكن عند محمد أجهزة ولا مكروسكوبات، فما بقي إلا أن نقول هو رسول من عند الله»^(٣).

ويقول عبد المجيد الزندانى: «هذا هو البروفيسور مارشال جونسون الذي بدأ رافضاً لما قلناه من أول وهلة، وانتهى به الأمر متبنياً لهذه الأبحاث في عديد من المؤتمرات، عندما سئل عن رأيه في تفسير هذه الظاهرة - ظاهرة ما كشفه العلم من تصديق لما جاء في القرآن والسنة، أجاب بقوله: نعم، إنه الوحي، نعم، لا طريق أمام البشرية إلا أن تقر كما يقر هؤلاء العلماء بأن الله قد أوحى إلى محمد ﷺ كتاباً أنزله بعلمه ووعد البشرية أثناء سيرها أن تكتشف طوال سيرها ما يدلها على أن هذا القرآن من عند الله كما قال تعالى: ﴿وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾^(٤)»^(٥).

ويقول -عبد المجيد الزندانى- أيضاً: «إن التقدم العلمي والكشف العلمي ليقوم دليلاً بعد دليل على بيان الحق الذي جاء به القرآن، وهكذا يتجلى هذا الكتاب الكريم مع مرور الزمن وتتجلى آياته، وتتضح لأكابر علماء عصرنا وللعلماء جيلاً بعد جيل، فهو الكتاب الذي لا يشبع منه العلماء ولا تنقضي عجائبه»^(٦).

١- هكذا في المصدر، والصحيح (ينطق).

٢- من علم الطب القرآني لعنان الشريف ص ١٦، والعلوم المعاصرة في خدمة الداعية الإسلامي مطابقة الحقائق العلمية للآيات القرآنية لمحمد جميل الحبال ص ٤٢.

٣- إنه الحق للزندانى ص ٤٥.

٤- سورة ص: الآية ٨٨.

٥- إنه الحق للزندانى ص ٤٩.

٦- المصدر نفسه ص ٢٢.

* الإعجاز البياني لآيات القرآن، فنحن أمام معجزة وعجبية بيانية بهرت العلماء بسمو أغراضها، وصدق دلالتها، وفصاحة تركيبها، وإحكام نظمها، وحسن إيقاعها، لا يملك من يعاين مشاهدتها سوى التعجب^(١)، والإيمان بأن ما في القرآن كلام العليم الخبير ﷺ ومن عنده، وما في السنة النبوية وحي الله لنبيه ﷺ، وذلك حين ذكرت نصوص الكتاب والسنة بكلمات موجزة معجزة صريحة مراحل تخلق الجنين، وأعطت مسميات لأطوار خلق الإنسان ناسبت الشكل الخارجي والداخلي لكل طور من الأطوار، كما أكده وأثبته العلم الحديث، وكل ذلك قبل أن يثبت العلم.

١- نشأة الذرية لمحمد دودح ص ٤٥.

المبحث الثاني

طور النطفة

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول:

طور النطفة في ضوء القرآن الكريم.

المطلب الثاني:

طور النطفة في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة.

المطلب الثالث:

ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها.

المطلب الأول: طور النطفة في القرآن الكريم

الآيات الواردة:

- قال الله ﷻ: ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾^(١).
- وقال ﷻ: ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا ﴾^(٢).
- وقال ﷻ: ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾^(٣).
- وقال ﷻ: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴾^(٤).
- وقال ﷻ: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ﴾^(٥).
- وقال ﷻ: ﴿ أَوْلَتْزِيرَ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾^(٦).
- وقال ﷻ: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾^(٧).
- وقال ﷻ: ﴿ مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى ﴾^(٨).
- وقال ﷻ: ﴿ أَلْزَبِكَ نُطْفَةً مِنْ مَنِيِّ يَمْنَى ﴾^(٩).

١- سورة النحل: الآية ٤.

٢- سورة الكهف: الآية ٣٧.

٣- سورة الحج: الآية ٥.

٤- سورة المؤمنون: الآية ١٣.

٥- سورة فاطر: الآية ١١.

٦- سورة يس: الآية ٧٧.

٧- سورة غافر: الآية ٦٧.

٨- سورة النجم: الآية ٤٦.

٩- سورة القيامة: الآية ٣٧.

وقال ﷻ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾^(١).

وقال ﷻ: ﴿مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ﴾^(٢).

أقوال المفسرين:

النُّطْفَةُ في اللغة تطلق على عدة معان، ومنها:
الْقَطْرَةُ: يقال: جاء وعلى جبينه نطاف من عرق: قطرات.
الماء الصافي، قليلاً كان أو كثيراً، فمن القليل نُطْفَةٌ الإنسان التي يكونُ منها الولد، وجمعها: نُطْفٌ، ونَطَافٌ^(٣).
قال الفيومي: «والنُّطْفَةُ: ماء الرجل والمرأة»^(٤).
وذكر المفسرون أن النطفة: الماء الصافي وهو مادة التلقيح^(٥)، التي منها يخلق الإنسان، فكانت للذكر نطفة، وللمرأة نطفة كما ورد في الأحاديث^(٦)، فالإنسان يتولد من هذه النطفة^(٧).
ويبدأ مصطلح النطفة من المنوي والبيضة، وينتهي بطور الحرث (الانغراس)^(٨).

١- سورة الإنسان: الآية ٢.

٢- سورة عبس: الآية ١٩.

٣- انظر: الصحاح للجوهري ١٢٠/٥، والمصباح المنير ٦١١/٢، وتاج العروس للحسيني ٤١٩/٢٤، ولسان العرب ٣٣٤/٩، ومختار الصحاح للرازي ص ٦٨٨، والمعجم الوسيط لإبراهيم مصطفى وآخرين ٩٣١/٢.

٤- المصباح المنير ٦١١/٢.

٥- أيسر التفاسير لأسعد حومد ١٩٠٦/١.

٦- وقد ذكرت ذلك في مبحث الخلق من ذكر وأُنثى ص ١٣٢-١٣٤.

٧- مفاتيح الغيب للرازي ٧٤/٢٣، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٥٩/١٣، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير

٤/٥٤٤، والتحرير والتنوير لابن عاشور ١٤٥/٢٧، وتفسير القطان ١٨٦/١، صفوة التفاسير ١٠٣/٢.

٨- علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة لعبد المجيد الزنداني ص ٣٤.

وتمر النطفة خلال تكونها بالمراحل التالية^(١):

١ - الماء الدافق، قال ﷺ: ﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾^(٢)، وقد تكلمت عن الماء الدافق سابقاً في الباب الثاني، في مبحث مستقل، هو (صفة الماء الذي يخلق منه الإنسان)^(٣)، فيراجع هناك.

٢ - السلالة، قال الله ﷻ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾^(٤)، وفي اللغة: السَّلُّ: انتزاع الشيء وإخراجه في رفق، والانسِلالُ: المضيُّ والخروج من مضيق أو زحام، والسُّلالَةُ: الخلاصة؛ لأنها تُسَلُّ من الكَدَرِ، أو الصفو الذي يسيل من الشيء، والسُّلالَةُ: ما انسل من الشيء، وسُّلالَةُ الشيء: ما استُلِّ منه، والنطفة سُلالَةُ الإنسان، والسلالة: يُكنى بها عن الولد حين يخرج من بطن أمه؛ لأنه خُلِقَ من السُّلالَةِ، والسُّلَيْلَةُ: بِنْتُ الرَّجُلِ من صُلْبِهِ، والسلائلُ: طرائق اللحم الطوال تكون ممتدة مع الصلب، والسُّلَيْلَةُ أيضاً: سمكة طويلة، لها منقار طويل^(٥).
والسُّلالَةُ على وزن (فُعالة)، وهو بناء يدل على القلة كالفُقْلَمَةِ^(٦).

١- علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة ص ٣٤.

٢- سورة الطارق: الآية ٦.

٣- انظر: ص ١٨٩.

٤- سورة السجدة: الآية ٨.

٥- انظر: تهذيب اللغة ٢٠٦/١٢، والمفردات في غريب القرآن ص ٢٣٧، ومختار الصحاح ص ٣٢٦، ولسان العرب ٣٣٨/١١، وتاج العروس ٢٠٧/٢٩، والمعجم الوسيط ٤٤٥/١.

٦- انظر: الكشف للزمخشري ١٨١/٣، ومفاتيح الغيب للرازي ٧٤/٢٣، والبحر المحيط في التفسير لأبي حيان ٣٦٤/٦، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل ١٧٦/١٤، والتحرير والتنوير لابن عاشور ١٩/١٨.
والفُقْلَمَةُ: ما قطع من طرف الظفر أو الحافر أو العود، وقلامة الظفر مثل في القلة والحقارة، يقال: لم يغن عني قلامة ظفر. المعجم الوسيط ٧٥٧/٢.

وقد اختلف المفسرون في معنى السلالة، على أقوال:

القول الأول: صفوة الماء، يعني: المنى^(١)، قال الطبري: «**من سَلَلَةٍ**»، يقول: من الماء الذي انسل فخرج منه، وإنما يعني من إراقة من مائه»^(٢).

القول الثاني: هو الماء يسيل من الظهر^(٣)، أو ما انسل من صلبه^(٤)، وإنما سميت النطفة سلالة؛ لأنها تتسل بين الصلب والترائب^(٥).

القول الثالث: النطفة التي تتسل من الإنسان^(٦)، أو مسلوقة من سائر البدن^(٧)، فتكون السلالة على هذا مجموع ماء الذكر والأنثى المسلول من دمهما^(٨).

ويرجع سبب الخلاف عند المفسرين في معنى السلالة إلى تعدد معناها في اللغة، وجميع أقوالهم ترجع إلى أن السلالة: الشيء المسلول -أي المنتزع- من شيء آخر، وإلى أنها الخلاصة من الشيء^(٩)، فالسلالة صفوة الماء وخلاصته، وهي النطفة التي يخلق منها الإنسان، وتتسل وتتولد منه، وهي قليلة، ويمكن أن يكون المراد بالسلالة جزء من النطفة، وهو الحيوان المنوي من ماء الرجل،

١- منقول عن ابن عباس، انظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري ١٧٣/٢٠، والمحرر الوجيز لابن عطية ١٦٨/٤، وتفسير أبي السعود ٨١/٧، وصفوة التفاسير للصابوني ٢٥/٣.

٢- جامع البيان في تأويل القرآن للطبري ١٧٢/٢٠.

٣- قاله عكرمة انظر: معالم التنزيل في تفسير القرآن للبخاري ٣٦١/٣.

٤- انظر: النكت والعيون للماوردي ٣٥٦/٤، والكشاف للزمخشري ٥١٥/٣، وروح البيان لحقي ٨٣/٧.

٥- بحر العلوم للسمرقندي ٤٧٥/٢.

٦- انظر: بحر العلوم للسمرقندي ٣٢/٣، وتفسير القرآن العزيز لابن أبي زَمِين ٥٨/٢، والكشف والبيان للثعلبي ٣٢٧/٧، والهداية إلى بلوغ النهاية ٥٧٥٢/٩، ولباب التأويل للخان ٢٢٢/٥، واللباب في علوم الكتاب ٤٧٨/١٥.

٧- انظر: البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ٥٨٤/٥.

٨- انظر: التحرير والتنوير ١٩/١٨.

٩- انظر: التحرير والتنوير ١٩/١٨.

ويستشهد لذلك بقول النبي ﷺ لما سئل عن العزل^(١): "مَا مِنْ كُلِّ الْمَاءِ يَكُونُ الْوَلَدُ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ خَلْقَ شَيْءٍ، لَمْ يَمْنَعَهُ شَيْءٌ"^(٢)، وكذلك البيوضة من ماء المرأة^(٣)، وقد مر أن الحيوان المنوي والبيوضة هما العنصران الأساسيان في تخلق الإنسان.

أما أن السلالة الماء يسيل من ظهر الرجل، أو ينسل من صلبه، أو أنها تتسل من بين الصلب والترائب، فمحل خلاف بين المتقدمين والمتأخرين، وقد سبق الحديث عنها في مبحث الصلب والترائب من الفصل الثاني.

وسميت الذرية نسلًا؛ لأنها تتسل من الإنسان، وتنفصل منه^(٤).

قوله ﷺ: ﴿مُهَيِّنٌ﴾، قيل: الشيء الممتهن الذي لا يعبأ به ولا خطر له عند الناس^(٥)، وقيل: الضعيف^(٦)، وقيل: ضعيف هو النطفة^(٧)، أي: من نطفة ضعيفة رقيقة^(٨)،

-
- ١- صرف الماء عن المرأة؛ حذر الحمل، وذلك بأن يجامع، فإذا قارب الإنزال، نزع وأنزل خارج الفرج. انظر: التعريفات للجرجاني ص ١٩٤، وشرح صحيح مسلم للنووي ٩/١٠.
 - ٢- أخرجه مسلم، كتاب النكاح، باب حكم العزل ١٠٦١/٢ برقم: ١٤٣٨.
 - ٣- انظر: من علم الطب القرآني ص ٣٧، ٤٠.
 - ٤- انظر: الكشف والبيان للثعلبي ٣٢٧/٧، ومعالج التنزيل للبغوي ٣٦١/٣، والكشاف للزمخشري ٥١٥/٣، وأنوار التنزيل للبيضاوي ٣٥٦/٤.
 - ٥- انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٩١/١٤، وأنوار التنزيل للبيضاوي ٣٥٦/٤، وإرشاد العقل السليم لأبي السعود ٨١/٧، وفتح القدير للشوكاني ٢٨٨/٤، والتحرير والتنوير لابن عاشور ١٥١/٢١.
 - ٦- انظر: الكشف والبيان للثعلبي ٣٢٧/٧، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٩٠/١٤، ولباب التأويل للخان ٢٢٢/٥، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل ٤٧٨/١٥، وتفسير السراج المنير للشربيني ١٧٩/٣.
 - ٧- انظر: تفسير مقاتل بن سليمان ٢٧/٣، وبحر العلوم للسمرقندي ٣٢/٣، وتفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين ٣٨١/٣، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥٥٣/٣، وتفسير الجلالين ص ٥٤٥.
 - ٨- انظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري ١٧٢/٢٠.

وخصه البعض بنطفة الرجل^(١)، وقيل: صفوة الماء، أو السائل^(٢).
وتخصيصه بنطفة الرجل ليس عليه دليل موجب للحمل عليه، وحمله على صفوة الماء لا يقوى؛ لأن الاستلال اصطفاً للماء، فيكون الكلام على التأكيد، وحمل الكلام على التأسيس أولى من حمله على التأكيد^(٣).
قال ابن عاشور: «والغرض من إجراء هذا الوصف عليه الاعتبار بنظام التكوين؛ إذ جعل الله تكوين هذا الجنس المكتمل التركيب العجيب الآثار من نوع ماء مهراق لا يعبأ به ولا يصاب»^(٤).

٣- الأمشاج، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾^(٥)، وفي اللغة: مشج: خَلَطَ، وَالْمَشْجُ، وَالْمَشِجُ، وَالْمَشِجُ، وَالْمَشِجُ: كل لَوْنَيْنِ اخْتَلَطَا، وقيل: هو ما اختلط من حمرة وبياض، وقيل: هو كل شيئين مختلفين، والمَشِجُ: ماء الرجل يختلط بماء المرأة، والجمع أَمْشَاجٌ، والأَمْشَاجُ: الأَخْلَاطُ، وعليه أَمْشَاجُ غُزُولٍ: داخلَةٌ بعضُها في بعض، يعني البُرود فيها ألوانُ الغُزُولِ، والأَمْشَاجُ: العُرُوقُ التي تَجْتَمِعُ في السُرَّةِ^(٦)، وقد اختلف المفسرون في معنى ﴿أَمْشَاجٍ﴾ على عدة أقوال:
القول الأول: الأَخْلَاطُ، وهو اختلاط ماء الرجل بماء المرأة.
القول الثاني: الأطوار، وهو أن الخلق يكون طوراً نطفة، وطوراً علقة، وطوراً مضغة، ثم طوراً عظماً، ثم يكسى العظم لحماً.

١- انظر: تفسير مجاهد ٥٠٩/٢، ومعالم التنزيل في تفسير القرآن للبخاري ٥٩٥/٣.

٢- انظر: تفسير ابن عبد السلام ٢٦١/٧.

٣- انظر للقاعدة: البحر المحيط في التفسير لأبي حيان ٢٩٣/٣، واللباب لابن عادل ١٢/١١.

٤- التحرير والتنوير ١٥١/٢١.

٥- سورة الإنسان: الآية ٢.

٦- انظر: معجم مقاييس اللغة ٣٢٦/٥، وتهذيب اللغة ٢٩٢/١٠، ومختار الصحاح ص ٦٤٢، ولسان

العرب ٣٦٧/٢، وتاج العروس ٢١٤/٦، والمعجم الوسيط ٨٧٠/٢، والمحيط في اللغة للطالقاني ٤٣٨/٦.

القول الثالث: الألوان.

القول الرابع: العروق التي تكون في النطفة.

القول الخامس: أن النطفة مُشجبت بدم الحيض.

القول السادس: اختلاط ماء الرجل وماء المرأة والدم والعلقة.

السابع: يكون ذلك بامتزاج الأنواع التي تجعل البشر ذوي طبائع مختلفة^(١).

مناقشة الأقوال:

أما أن معنى الأمشاج الأطوار، فإن الله ﷻ وصف النطفة بأنها أمشاج، وهي إذا انتقلت فصارت علقة، فقد استحالت عن معنى النطفة، فكيف تكون نطفة أمشاجاً وهي علقة؟! ويمثل ذلك يرد على من قال: الأمشاج اختلاط ماء الرجل وماء المرأة والدم والعلقة؛ إذ العقلة طور للخلق غير النطفة.

وأما الذين قالوا: إن نطفة الرجل بيضاء وحمراء، فإن المعروف من نطفة الرجل أنها سحراء على لون واحد، وهي بيضاء تضرب إلى الحمرة، وإذا كانت لوناً واحداً لم تكن ألواناً مختلفة، ولعل الذين قالوا: هي العروق التي في النطفة قصدوا هذا المعنى^(٢).

وأما من قال إنها الألوان، فلعلهم قصدوا اختلاط لون نطفة الرجل الأبيض، بلون نطفة المرأة الأصفر، فإن النطفتين إذا اختلطتا امتزجت ألوانها، وبهذا لا يعارض القول الأول.

١- انظر لجميع الأقوال: جامع البيان للطبري ٨٩/٢٤، ٩١، والكشف والبيان للثعلبي ٩٤/١٠، والهداية إلى بلوغ النهاية ٧٩٠٣-٧٩٠٥، والنكت والعيون للماوري ١٦٢/٦-١٦٣، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٢٠/١٩، ولباب التأويل للخازن ١٨٩/٧، والبحر المحيط لأبي حيان ٣٨٦/٨، واللباب في علوم الكتاب ٧/٢٠-٩، والدر المنثور ٣٦٨/٨، والسراج المنير للشربيني ٣٢٦/٤، وفتح القدير للشوكاني ٤١٦/٥.
٢- جامع البيان في تأويل القرآن للطبري ٩١/٢٤.

وأما من قال بأنها خلطت بدم الحيض، فهو مردود بحديث النبي ﷺ الذي قال فيه: **"مَاءُ الرَّجُلِ أَبْيَضُ، وَمَاءُ الْمَرْأَةِ أَصْفَرُ، فَإِذَا اجْتَمَعَا فَعَلَا مَنِيَّ الرَّجُلِ مَنِيَّ الْمَرْأَةِ أَذْكَرًا بِإِذْنِ اللَّهِ، وَإِذَا عَلَا مَنِيَّ الْمَرْأَةِ مَنِيَّ الرَّجُلِ آتْنَا بِإِذْنِ اللَّهِ"**^(١)، فقد بين النبي في الحديث أن الإنسان يخلق من اجتماع ماء الرجل الأبيض مع ماء المرأة الأصفر، أما فكرة تكوّن الجنين من دم الحيض فهي فكرة قديمة جداً^(٢)، وعلماء المسلمين كانوا يرفضون هذه الفكرة؛ لمخالفتها للنصوص الشرعية من الكتاب والسنة، قال ابن حجر: «وزعم كثير من أهل التشريح أنّ منيَّ الرجل لا أثر له في الولد إلا في عقده، وأنه إنما يتكون من دم الحيض، وأحاديث الباب تبطل ذلك»^(٣).

فالقول الراجح هو القول الأول أن الأمشاج أخلط من ماء الرجل وماء المرأة؛ لأن الخلق لا يحصل إلا بامتشاج نطفة الذكر بنطفة الأنثى، كما أنه قد وردت أحاديث دالة على أن الخلق يكون بامتشاج واختلاط ماء الرجل بماء المرأة، كقولة ﷺ **"مَاءُ الرَّجُلِ أَبْيَضُ وَمَاءُ الْمَرْأَةِ أَصْفَرُ، فَإِذَا اجْتَمَعَا فَعَلَا مَنِيَّ الرَّجُلِ مَنِيَّ الْمَرْأَةِ أَذْكَرًا بِإِذْنِ اللَّهِ، وَإِذَا عَلَا مَنِيَّ الْمَرْأَةِ مَنِيَّ الرَّجُلِ آتْنَا بِإِذْنِ اللَّهِ"^(٤)، وحديث اليهودي الذي سأل النبي ﷺ، ممّ يخلق الإنسان، قال: **"يَا يَهُودِي، مِنْ كُلِّ يُخْلَقُ: مِنْ نُطْفَةِ الرَّجُلِ، وَمِنْ نُطْفَةِ الْمَرْأَةِ"**^(٥).**

١- أخرجه مسلم، كتاب الحيض، باب بيان صفة مني الرجل والمرأة وأن الولد مخلوق من مائهما ٢٥١/١ برقم: ٣١٥.

٢- سبق الكلام عن هذه الفكرة في مبحث (الخلق من ذكر وأنثى) ص ١٤٠.

٣- فتح الباري لابن حجر ٤٨٠/١١.

٤- سبق تخريجه ص ١٣٤، وهو حديث صحيح.

٥- سبق تخريجه ص ١٣٥، وهو حديث صحيح.

* وفي نهاية مرحلة النطفة الأمشاج تنغرس البويضة الملقحة في بطانة الرحم بما يشبه انغراس البذرة في التربة في عملية حرث الأرض^(١)، وإلى هذه العملية تشير الآية في قوله ﷻ: ﴿نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾^(٢)، أي هُنَّ مزرع للولد، بمنزلة الأرض التي هي مزرع للحب، فتقديره: نساؤكم موضع حرث لكم، أي: مواضع حرثكم، فشبه ما يلقي في أرحامهن من النطف، بالبذر، والأرحام أرض لها، يريد مكان إنجاب الأولاد، وشبه النساء بالحرث؛ لأن الأرض إذا حرثت أنبت الزرع، والمرأة إذا وطئت أنبت الولد بإذن الله تعالى^(٣).

ومن أسباب الاختلاف عند المفسرين تعدد معنى الأمشاج في اللغة.

* وكلمة ﴿نُطْفَةٍ﴾: اسم مفرد، أما كلمة ﴿أَمْشَاجٍ﴾ فهي صفة في صيغة الجمع، وقواعد اللغة تقتضي جعل الصفة تابعة للموصوف في الإفراد والتنثية والجمع^(٤)، وللمفسرين في سبب وصف النطفة المفردة هنا بصيغة الجمع قولان:

القول الأول: الـ ﴿نُطْفَةٍ﴾ مفردة؛ لكنها في معنى الجمع؛ لأنها مجموع مني الرجل والمرأة، أو جعل كل جزء من النطفة نطفة فوصفت بالجمع^(٥).

١- علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة للزنداني ص ٤٨.

٢- سورة البقرة: الآية ٢٢٣.

٣- الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي ٧٣٥/١، وتفسير الكشاف ٢٩٤/١، ومفاتيح الغيب للرازي ٦١/٦، ومدارك التنزيل للنسفي ١٢٠/١، والبحر المديد لابن عجيبة ٢٨٥/١، وأيسر التفاسير للجزائري ٢٠٦/١.

٤- انظر: علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة لعبد المجيد الزنداني وآخرين ص ٤٣، والتطبيق النحوي لعبده الراجحي ص ٣٧٣.

٥- انظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ٤٢٥/٥، والبحر المحيط في التفسير لأبي حيان ٣٨٦/٨، واللباب في علوم الكتاب لابن عال ٧/٢٠، وتفسير السراج المنير للشربيني ٣٢٦/٤.

القول الثاني: ﴿أَمْشَاجٌ﴾ لفظ مفرد غير جمع؛ بناء على أنّ وزن أفعالٍ يكون في المفردات نادراً، كأعشار في برمة أعشار، أي: متكسرة كأنها صارت عشرُ قطع، والبرمة القدر^(١).

ونوقش: بأن أفعالاً لا يكون مفرداً^(٢)، وأجاب البعض بأن القائل به قال: يوصف به المفرد، ولم يجعل أفعالاً مفرداً، فكأن جعل كل قطعة من البرمة برمة، وكل قطعة من البرد برداً، فوصفوهما بالجمع^(٣).

قال ابن عاشور: «فإذا كان ﴿أَمْشَاجٌ﴾ في هذه الآية مفرداً، كان على صورة الجمع... فوصف ﴿نُطْفَةٍ﴾ به غير محتاج إلى تأويل، وإذا كان جمعاً... كان وصف النطفة به باعتبار ما تشتمل عليه النطفة من أجزاء مختلفة الخواص، فلذلك يصير كل جزء من النطفة عضواً، فوصف النطفة بجمع الاسم للمبالغة، أي شديدة الاختلاط، وهذه الأمشاج منها ما هو أجزاء كيميائية نباتية أو ترابية، ومنها ما هو عناصر قوى الحياة»^(٤).

وعليه يمكن للعلم اليوم أن يوضح ذلك المعنى الذي استدل عليه المفسرون من النص القرآني^(٥)، وهذا سأذكره في المطلب اللاحق إن شاء الله تعالى.

* وقد أورد القرآن الكريم لفظة النطفة أكثر من عشر مرات بمعنى الخلية التناسلية التي يتخلق منها الإنسان^(٦)، سواءً كانت من الرجل أو من المرأة، والنطفة

١- انظر: الكشاف للزمخشري ٦٦٦/٤، وحاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ٢٨٦/٨.

٢- انظر: البحر المحيط في التفسير لأبي حيان ٣٨٦/٨.

٣- انظر: تفسير السراج المنير للشريبي ٣٢٦/٤.

٤- التحرير والتنوير ٣٤٧/٢٩.

٥- انظر: علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة لعبد المجيد الزنداني وآخرين ص ٤٣.

٦- وقد ذكرت الآيات في أول هذا المطلب.

الأمشاج هي اللقيحة الناتجة عن اندماج نطفتي الرجل والمرأة^(١).
والمني هو السائل الحامل للنطف التي قدرت بها الحياة، ولفظة (مني) جاء
بتصرفاتها المختلفة أربع مرات في كتاب الله ﷻ:

في قوله ﷻ: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ * مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾^(٢).

وقوله ﷻ: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ * أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾^(٣).

وقاله ﷻ: ﴿الزَّيْطُ نُّطْفَةٌ مِّن مَّنَىٰ يَمْنَىٰ﴾^(٤)، حيث أوضح الله ﷻ في هذه الآيات أن

النطفة هي جزء يسير من المني و﴿مِّن﴾ تفيد التبويض كما يذكر علماء اللغة^(٥).

١- انظر: خلق الإنسان في القرآن الكريم لزغلول النجار ص ٢٠١.

٢- سورة النجم: الآية ٤٥، ٤٦.

٣- سورة الواقعة: الآيات ٥٨، ٥٩.

٤- سورة القيامة: الآية ٣٧.

٥- انظر: خلق الإنسان في القرآن الكريم لزغلول النجار ص ٢٠١، وموسوعة الإعجاز العلمي لعبد الرحيم
مارديني ص ٢٤٠.

المطلب الثاني: النطفة في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة

تطلق النطفة على ثلاثة أشياء:

١- **نطفة الذكر:** وهي عبارة عما تفرزه الخصية من ملايين الحيوانات المنوية، وهذه النطفة أخص من المنى، وجزء لا يتجزأ منه، والمنى أعم منها؛ لأنه يحتوي على الحيوانات المنوية (النطفة)، والسائل المنوي، ويتم إفرازه وإنتاجه من الخصية، ويرحل ماء الرجل حاملاً الحيوانات المنوية داخل المهبل ليقابل البويضة في ماء المرأة في قناة البويضات، وفي الدفقة الواحدة من ماء الرجل ملايين من الحيوانات المنوية، يهلك معظمها في طريق رحلتها إلى البويضة، ولا يصل منها إلا بضع مئات، ويخترق منوي واحد البويضة، ويحدث عقب ذلك مباشرة تغير سريع في غشائها يمنع دخول بقية المنويات، وهكذا فإن الخلق من ماء الرجل يتم من خلال اختيار واصطفاء خاص بالنسبة للحيوان المنوي، وإذا حصلت حالة شاذة فاقترنت البويضة بأكثر من حيوان منوي فإنه يحدث خلل في جدار البويضة يسبب موتها^(١).

والحيوان المنوي يملك درعاً واقياً حول رأسه، وتحت هذا الدرع درع ثان، وتحت هذا الدرع الثاني يقع الحمل الذي ينقله الحيوان المنوي، ويحفظ هذا الدرع الحمل الثمين (المعلومات الجينية) الذي يحمله الحيوان المنوي من المواد الضارة، بالإضافة إلى ذلك فإن هذه الدروع تعمل على اختراق أغشية البويضة، حيث يذوب الدرع الأول عند ملاقاته البويضة ممزقاً معه الحاجز الأول من أغشية

١- انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن للبار ص ١١١، ١١٢، وعلم الأجنة في ضوء القرآن والسنة ص ٣٨، ٣٩، وخلق الإنسان بين العلم والقرآن للرقعي ص ٥٥، والعلم والإعجاز أبحاث علمية في ضوء القرآن والسنة لدلاور محمد ص ٣٧، وموسوعة الإعجاز العلمي لعبد الرحيم مارديني ص ٢٤١، وخلق الإنسان في القرآن للنجار ص ١٦٣.

البويضة، ثم يقوم الدرع الداخلي بالذوبان لاختراق الجدار الداخلي للبويضة، وعند دخول الحيوان المنوي إلى البويضة ينفصل عنه ذنبه ويبقى في الخارج، ولا يصل إلى داخل البويضة إلا المادة الوراثية (الحمل الثمين)؛ لأن حركة الذيل داخل البويضة يضرها! ولأن المادة الوراثية لنطفة الرجل مخزنة داخل رأس الحيوان المنوي^(١)، وهذه المادة هي خلاصة هذه النطفة، استلت منها للتلقيح، وما ذيل الحيوان المنوي إلا كالمساعد لهذه المادة على الوصول إلى غايتها التي قدرها لها المولى جل في علاه سبحانه.

وإذا نظرنا إلى المنوي فسنجد سلاطة تستخلص من ماء الرجل، وعلى شكل السمكة الطويلة، ويستخرج الحوين الذي يلحق البويضة برفق من الماء المهين^(٢).

٢- **نطفة الأنثى:** وهي البويضة التي يفرزها المبيض مرة واحدة في الشهر، وكما يحدث للمني اصطفاء كذلك يحدث اختيار واصطفاء للبويضة، فمبيض الأنثى وهي لا تزال جنيناً في بطن أمها يحتوي على ستة ملايين بويضة، فإذا خرجت إلى الدنيا مات الكثير منها، وتستمر في اندثارها حتى إذا بلغت الفتاة سن المحيض لم يبق منها إلا ثلاثين ألفاً، وما ينمو منها ويخرج من المبيض لا يزيد عن أربعمئة بويضة في حياة المرأة كلها، وفي كل شهر تنمو مجموعة من البويضات، ولكن يختار الله تعالى منها بويضة واحدة فقط لملاقاة الحيوان المنوي^(٣).

١- انظر: معجزة خلق الإنسان لهارون يحي ص ٧٠-٧٣.

٢- انظر: علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة لعبد المجيد الزنداني وآخرين ص ٣٨.

٣- انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن للطبيب محمد علي البار ص ١١٢، ٣٦٧، وموسوعة جسم الإنسان الشاملة ص ١٨٧، ورحلة الإيمان في جسم الإنسان لحامد أحمد حامد ص ٩٢، وخلق الإنسان في القرآن الكريم للنجار ص ١٦٧.

وهذا الاصطفاء من ماء الرجل وماء المرأة لخصته الآية الكريمة: ﴿مِنْ سَلْطَةِ مَن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾^(١)، أي لا يعتنى به، ولهذا وضع مع الجهاز البولي في وحدة واحدة تعرف بالجهاز البولي التناسلي، بالإضافة إلى أن الجنين خلال مرحلة النطفة لا يجاوز قطره خمس المليمتر الواحد والماء يؤلف الجزء الأكبر منه ويحيط به^(٢).

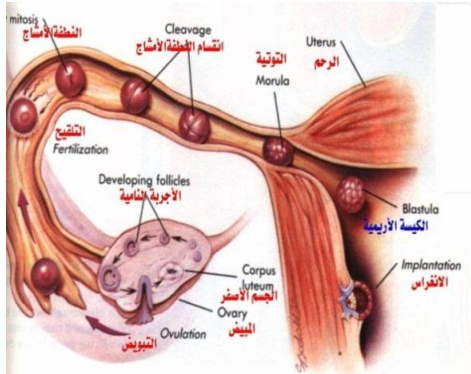
٣- النطفة الأمشاج: وهي البيضة الملقحة بنطفة الذكر، فبعد خروج البيضة من المبيض، تسير في قناة فالوب بعد أن تلتقطها فوهة هذه القناة، وتظل يوماً كاملاً في قناة الرحم تنتظر الحيوان المنوي الذي يلحقها، وعند وصوله تفتح كوة في جدارها؛ حتى يلج من خلالها إلى الجدار المصمت المحاط بالتاج المشع، فإذا ما ولج أوصدت الباب عليه، وأحكمت المنافذ جميعها، وأضافت جداراً إلى الجدار الأول؛ حتى تمنع عنها أي محاولة أخرى لاختراقها، وبعد اندماج نواة البيضة مع نواة الحيوان المنوي يتكون الزيجوت^(٣)، وتختلط حاملات المادة الوراثية (الصبغيات) وعددها ٢٣ كروموسوم الموجودة في نطفة الرجل، بجميع خصائصها مع حاملات المادة الوراثية في نطفة المرأة وعددها كذلك ٢٣ كروموسوم، فيكون ناتج البويضة المخصبة ٤٦ صبغياً، مرتبة في (٢٣ زوجاً)، حيث يأتي أحد صبغيني كل زوج من بويضة الأم والآخر من نطفة الرجل، وهذه المادة الوراثية الموجودة في كل من نطفة الرجل والمرأة تحتوي على جميع خصائص حاملها وأجداده وأحفاده، فيتم بعد ذلك الاستخلاص والاصطفاء في خفاء وصمت للصفات الوراثية التي سيجعلها هذا المخلوق الجديد، وهي الخلاصة التي تستل وتستخلص

١- سورة السجدة: الآية ٨.

٢- انظر: تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم للنجار ٣/٥٨، ومن علم الطب القرآني للشريف ص ٤٩.

٣- انظر: رحلة الإيمان في جسم الإنسان لحامد أحمد ص ٩٦، والمعارف الطبية في ضوء القرآن والسنة أطوار الخلق وحواس الإنسان لأحمد شوقي ص ٥١، وخلق الإنسان بين الطب والقرآن ص ١٩٥، ١٩٦.

من هذا العدد الهائل من الصفات الوراثية؛ تنتقل وتصل منتقاة مختارة إلى الأبناء دون أن يتطابق منهما اثنان، كل واحد من الأبناء متميز عن الآخر، رغم تلقيهما الجسيمات الملونة (الكروموسومات) من نفس الأم والأب^(١)، ويحدث أول انقسام في هذه البويضة المخصبة بعد ٢٤ ساعة من التلقيح، وتقوم بعدها بالانقسام المتتالي، فتصبح الخلية أربع خلايا بعد أربعين ساعة، ثم تكون اثنتين وثلاثين خلية في ثمانين ساعة، ولا تمر خمسة أيام إلا وقد صارت مثل الكرة تماماً، أو مثل ثمرة التوتة، وتدعى عندئذ التوتة، ثم تنمو ويمتلئ جوفها بسائل، وتدعى



صورة توضح تكون النطفة الأمشاج

عندئذ الكرة الجرثومية (الكيسة الأريمية)، والتي لا يزيد قطرها عن ربع ميليمتر، وفي هذه الأثناء تتميز خلايا الكرة الجرثومية إلى طبقتين: خارجية، وداخلية، أما الخارجية فتتكون من خلايا آكلة ومغذية، وما أن تصل إلى الرحم حتى تنشب فيه وتعلق بجداره، وتضم خلاياه، وعادة ما يكون ذلك في الجدار الخلفي للرحم، وفي النصف الأعلى منه على وجه الخصوص، حيث يعتبر ذلك أكثر مناطق الرحم صلاحية لنمو الجنين واكتماله، وأما الطبقة الداخلية فهي التي يخلق الله ﷻ منها الجنين وأغشيته^(٢).

- ١- انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن للبار ص١٩٧، ١٩٨، وإعجاز آيات القرآن في بيان خلق الإنسان ص٥٩، ٧٢، وعلم الأجنة في ضوء القرآن والسنة ص٤٤، وتفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم للنجار ص٥٨/٣، والموسوعة الصحية للأم والطفل لمروان عبد الواحد ونضال البزم ص ١١٨.
- ٢- انظر: رحلة الإيمان في جسم الإنسان ص ١٠٣، وخلق الإنسان بين الطب والقرآن ص ١٩٨-٢٠٠، وعلم الأجنة في ضوء القرآن والسنة ص٤٣، وعلم نفس النمو الطفولة والمراهقة لحامد عبد السلام ص١١٧، ودلائل الإعجاز العلمي في القرآن الكريم ص٤١٢، ومباحث في إعجاز القرآن ص٢٣٣، ٢٣٤.

ومع ما يحدث للنطفة الملقحة من انقسامات في الداخل، وتحولها إلى خلايا كثيرة، إلا أن طبيعتها ومظهرها لا يتغيران عن النطفة؛ لأنها تملك غشاءً سميكاً يحفظها ويحفظ مظهر (النطفة) فيها، وخلال هذه الفترة ينطبق مصطلح (نطفة أمشاج) بشكل مناسب تماماً على النطفة في كافة تطوراتها؛ إذ أنها تظل كياناً متعددًا، فهي إلى هذا الوقت جزء من ماء الرجل والمرأة، وتأخذ شكل القطرة فهي نطفة، وتحمل أخلطاً كثيرة فهي أمشاج، فهذا الاسم للجنين في هذه المرحلة يغطي الشكل الخارجي وحقيقة التركيب الداخلي بينما لا يسعفنا مصطلح (توتة) بهذه المعاني، كما لا تعبر الأرقام المستعملة الآن عن هذه المعاني^(١).

نتائج تكوين النطفة الأمشاج:

١- الخلق: وهو البداية الحقيقية لوجود الكائن الإنساني، فالمنوي يوجد فيه (٢٣) حاملاً وراثياً، كما يوجد في البيضة (٢٣) حاملاً وراثياً أيضاً، ويندمجان -المنوي في البيضة- لتكوين الخلية الجديدة التي تحوي على (٤٦) حاملاً وراثياً، وبوجود هذه الخلية التي تحمل هذا العدد من الصبغيات يتحقق الوجود الإنساني؛ لأن جميع الخطوات التالية تركز على هذه الخطوة وتتبع منها.

٢- التقدير (البرمجة الجينية): فبعد ساعات من تخلق إنسان جديد في خلية إنسانية كاملة تبدأ عملية أخرى، تتحدد فيها الصفات التي ستظهر على الجنين في المستقبل وتعرف بالصفات السائدة، كما تحدد فيها الصفات المتنحية التي قد تظهر في الأجيال القادمة، وقد أشار القرآن إلى هاتين العمليتين المتعاقبتين (الخلق والتقدير) في أول مراحل النطفة الأمشاج في قوله ﷻ: ﴿مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ﴾^(٢).

١- انظر: علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة ص ٤٤.

٢- سورة عبس: الآية ١٩.

٣- تحديد الجنس: ويتضمن التقدير الذي يحدث في النطفة الأمشاج تحديد الذكورة والأنوثة، وإلى هذا يشير قوله ﷺ: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى * مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى﴾^(١)، فإذا كان المنوي الذي لقح البويضة يحمل الكروموسوم (Y) كانت النتيجة ذكراً، وإذا كان ذلك المنوي يحمل الكروموسوم (X) كانت النتيجة أنثى.

٤- الحرث: تبقى النطفة إلى ما قبل طور الحرث (الانغراس) متحركة، وتظل كذلك حين تصير أمشاجاً وبعد ذلك، وبالتصاقها بالرحم تبدأ مرحلة الاستقرار التي أشار إليها النبي ﷺ بقوله: «يَدْخُلُ الْمَلَكُ عَلَى النُّطْفَةِ بَعْدَ مَا تَسْتَقِرُّ فِي الرَّحِمِ بِأَرْبَعِينَ أَوْ خَمْسَةَ وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ أَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ؟ فَيُكْتَبَانِ، فَيَقُولُ: أَيُّ رَبِّ أَذْكَرٌ أَوْ أُنْثَى؟ فَيُكْتَبَانِ، وَيُكْتَبُ عَمَلُهُ وَآثَرُهُ وَأَجَلُهُ وَرِزْقُهُ، ثُمَّ تُطَوَّى الصُّحُفُ فَلَا يُزَادُ فِيهَا وَلَا يُنْقَصُ»^(٢)، وفي نهاية مرحلة النطفة الأمشاج تنغرس البويضة الملقحة في بطانة الرحم بما يشبه انغراس البذرة في التربة في عملية حرث الأرض، وبهذا الانغراس يبدأ طور الحرث ويكون عمر النطفة ستة أيام، وفي الحقيقة تنغرس النطفة (كيس الجرثومة) في بطانة الرحم بواسطة خلايا تنشأ منها تتعلق بها في جدار الرحم، والتي ستكون في النهاية المشيمة، كما تنغرس البذرة في التربة، ويستخدم علماء الأجنة مصطلح (انغراس) في وصف هذا الحدث، وهو يشبه في معناه كلمة (الحرث) المذكور في القرآن، ومرحلة الحرث آخر مرحلة في طور النطفة، وبنهايتها تنتقل الكرة الجرثومية من النطفة وتعلق بجدار الرحم؛ لتبدأ في طور جديد في اليوم الخامس عشر، هو طور العلقة^(٣).

١- سورة النجم: الآيتان ٤٥، ٤٦.

٢- أخرجه مسلم، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه... ٢٠٣٧/٤، برقم: ٢٦٤٤.

٣- انظر: علم الأجنة للزنداني وآخرين ص ٤٤-٤٨، وإعجاز آيات القرآن في بيان خلق الإنسان ص ٧٥-٨٠.

وكما يحدث اختيار واصطفاء للبويضة والمنوي، كذلك يحدث اختيار واصطفاء للبويضة الملقحة، فليست كل بويضة تلقحت تصبح جنيناً كاملاً، فالأبحاث الطبية تفيد بأن ٧٨٪ من كل حمل يجهض ويتم إسقاطه، وأن ما يقرب من ٥٠٪ تسقط قبل أن تعلم الأم أنها حامل^(١)(٢).

١- انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن ص ١١٢، وموسوعة الإعجاز في القرآن والسنة لمارديني ص ٢٤١.
 ٢- من المعاصرين من قال: إن النطفة الأمشاج: ذات عناصر شتى، والمقصود بها نطفة الرجل؛ حيث يتشكل السائل المنوي من إفرازات مختلفة من الغدد التناسلية الذكرية، وهي الخصيتان والحوصلتان المنوية والبروستاتا، والغدد الملحقة بالمسالك البولية، [خلق الإنسان بين العلم والقرآن للرقعي ص ٥٠، ٥١، ومعجزة خلق الإنسان لهارون يحيي ص ٣٩].
 وقال آخرون: أمشاج مفردها مشيج، وهو إشارة إلى الصبغيّ الجديد والفريد والذي ينشأ عقب تبادل المادة الوراثية خلال آلية العبور بين كل نظيرين أو زوجين من الصبغيات المماثلة إحداهما من الأب والآخر من الأم أثناء عملية الانقسام المنصف لخلية التناسل في أي ذات إنسانية، وعليه فإن التعبير بـ **نُطْفَةٌ** **أمشاج** يدل على جرثومة التناسل الحيوان المنوي، أو البويضة، والتي تحتوي كل منها على ٢٣ مشيجا، كما أنه يدل على اللاقحة والتي تحتوي ٤٦ مشيجا. [دورة حياة الإنسان بين العلم والقرآن ص ١٧٩].
وهذان القولان لا يعارضان مع ما ذكرناه في صلب البحث؛ لأن الخلط في مكونات النطفة موجود في كل من نطفتي الرجل والمرأة، سواء من حيث الصبغيات كما هو في الرأي الأخير، أو من حيث العناصر المكونة لنطفة الرجل كما هو في الذي قبله، أو من حيث اختلاط مكونات النطفتين بعد الإخصاب كما ذكرنا في صلب البحث، واللفظ القرآني يتسع لهذه المعاني جميعاً، إلا أن حملها على النطفة المختلطة من ماء الرجل وماء المرأة (البويضة المخصبة) أوضح وأدل على المراد؛ ولأن هذا المعنى هو الموافق للمعنى اللغوي الذي يفيد خلط شيئين مختلفين، ولأن هذا المعنى هو المتبادر إلى الذهن لمن يفهم لغة العرب، ولذلك فهو قول الأكثرين من أهل التفسير، وتكاد تجمع عليه آراء الباحثين المعاصرين، فقد جمع هذا الرأي بين السابقين والمعاصرين، وفهموا جميعاً أن النطفة الأمشاج هي النطفة التي اختلط فيها ماء الرجل بماء المرأة، ولأن النطفة المخصبة تعتبر بداية تكون الجنين، فقد جمعت نصف عدد الصبغيات من نطفة الرجل، مع نصف عدد الصبغيات من نطفة المرأة، وبالتقاء هذه الأعداد من الطرفين يتشكل كائن جديد، وهذا بلا شك أول مرحلة من مراحل خلق الجنين، =

المطلب الثالث: ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها

من خلال الدراسة التفسيرية والعلمية يتلخص ما يلي:

- * النُّطْفَةُ في اللغة تطلق على: القَطْرَةَ، والماء الصافي، قليلاً كان أو كثيراً، ومن القليل نُطْفَةٌ الإنسان التي يكونُ منها الولد.
- * ذكر المفسرون أن النطفة: الماء الصافي وهو مادة التلقيح التي منها يخلق الإنسان، فكانت للذكر نطفة، وللمرأة نطفة.
- * يبدأ مصطلح النطفة من المنوي والبيضة، وينتهي بطور الحرث، وتمر النطفة خلال تكونها بالمراحل التالية: الماء الدافق، السلالة، النطفة الأمشاج.
- * اختلف المفسرون في معنى ﴿سَلَالَةٌ﴾، وجميع أقوالهم ترجع إلى أن السلالة: الشيء المسلول - أي المنتزع- من شيء آخر، وإلى أنها الخلاصة من الشيء، فالسلالة صفوة الماء وخلاصته، وهي النطفة التي يخلق منها الإنسان، وتتسل وتتولد منه، وهي قليلة، وتطلق على ماء الرجل والمرأة.
- * اختلف المفسرون في معنى ﴿أَمْشَاجٌ﴾، والراجح أنها أخلاط من ماء الرجل وماء المرأة؛ لأن الخلق لا يحصل إلا بامتشاج نطفة الذكر بنطفة الأنثى، كما أنه قد وردت أحاديث دالة على أن الخلق يكون بامتشاج واختلاط
- * تطلق النطفة علمياً على ثلاثة أشياء: نطفة الذكر (الحيوان المنوي)، ونطفة

=بالإضافة إلى أن القول بأنه إشارة إلى الصِبْغِيّ الجديد عند تكوين جرثومة التناسل سواء في الحيوان المنوي، أو البويضة، أو اللاقحة، هو قول فيه تفصيل زائد عن القولين السابقين، فإذا كان هذا الخلط في اللاقحة فهو يدخل ضمناً فيما ذكرناه في صلب البحث، وإن كان هذا الخلط في نفس النطفة فقد ذكرنا أنه وإن كان صحيحاً فإنه لا يكون أكثر تمييزاً عن اختلاط نطفتين مختلفتين كما هو في النطفة الملقحة التي ذهب إليها الأكثرون. [أثر الحقائق العلمية في ترجيح أقوال المفسرين من خلال الثلث الأخير للقرآن لرياض عيدروس ص ١٣٢-١٣٤].

الأنثى (الببيضة)، والنطفة الأمشاج (الملقحة).

* الخلق من ماء الرجل يتم من خلال اختيار واصطفاء خاص بالنسبة للحيوان المنوي، إذ ينجح منوي واحد في تلقيح الببيضة، ولا يخترق الببيضة إلا المادة الوراثية في رأس الحوين، ويحدث اختيار واصطفاء للببيضة، فما ينمو منها ويخرج لا يزيد عن أربعمئة في حياة المرأة كلها، وفي كل شهر يختار الله ﷻ بويضة واحدة لملاقاة الحيوان المنوي، كذلك يحدث اختيار واصطفاء للبويضة الملقحة، فليست كل بويضة تلقحت تصبح جنيناً كاملاً.

* النطفة الأمشاج: وهي الببيضة الملقحة الناتجة عن اندماج نطفتي الرجل والمرأة، فتختلط حاملات المادة الوراثية في نطفة الرجل ونطفة المرأة ليكون ناتج البويضة المخصبة ٤٦ صبغياً، وهذه المادة الوراثية تحتوي على جميع خصائص حاملها وأجداده وأحفاده، فيتم بعد ذلك الاستخلاص والاصطفاء في خفاء وصمت للصفات الوراثية التي سيحملها هذا المخلوق الجديد.

* يحدث أول انقسام في هذه الببيضة المخصبة بعد ٢٤ ساعة من التلقيح، وتقوم بعدها بالانقسام المتتالي، ولا تمر خمسة أيام إلا وقد صارت مثل ثمرة التوتة، ثم تنمو ويمتلئ جوفها بسائل، وتدعى عندئذ الكرة الجرثومية.

* مع ما يحدث للنطفة الملقحة من انقسامات، إلا أن طبيعتها ومظهرها لا يتغيران عن النطفة، وفي هذه الفترة ينطبق مصطلح (نطفة أمشاج) بشكل مناسب تماماً على النطفة في كافة تطوراتها، فيغطي الشكل الخارجي وحقيقة التركيب الداخلي.

* ينتج عن تكون النطفة الأمشاج: الخلق، والتقدير، وتحديد الجنس، والحرث الذي يبدأ بانغراس البويضة الملقحة في بطانة الرحم كانغراس البذرة في التربة،

والحرث آخر مرحلة في طور النطفة، وبنهايتها تنتقل الكرة الجرثومية من النطفة وتتعلق بجدار الرحم؛ لتبدأ في اليوم الخامس عشر في طور العلقة.

ومن خلال الدراسة التفسيرية والعلمية يظهر لي الآثار التالية:

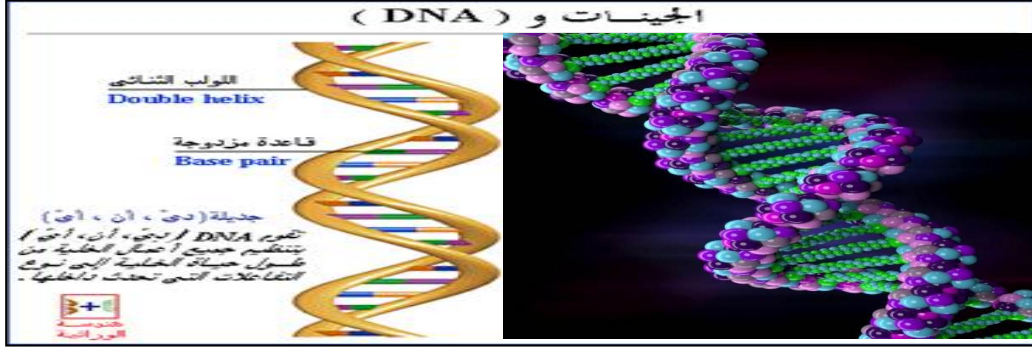
* المكتشفات العلمية تؤكد صحة ما ذكره المفسرون من أن النطفة الماء الذي يخلق منه الإنسان، وأن للذكر نطفة، وللمرأة نطفة.

* المكتشفات العلمية تؤكد صحة القول إن السلالة هي الخلاصة وصفوة الماء، وما انسل عن الإنسان وفصل عنه، وبأنه لفظ يؤذن بالقلة؛ لأن حيوانا منويا واحدا من ملايين يلحق بويضة واحدة استخلصت، فالاستلال لكلا ماءي الرجل والمرأة، ويظهر من خلال المكتشفات العلمية معانٍ يصح حمل الـ ﴿سَلَالَةٌ﴾ عليها، كحمل الحيوان المنوي على السمكة الطويلة بعد ظهور شكله يشبه السمكة الطويلة، وله رأس يحتفظ بالمادة الوراثية التي تستل من هذا الحوين الوحيد الذي يصل إلى البيضة، ثم يستل من هذه المادة الوراثية الصفات التي تظهر عليه.

* المكتشفات العلمية تؤكد صحة القول إن الأمشاج اختلاط ماء الرجل بماء المرأة؛ إذ بهذا الاختلاط البداية الحقيقية لوجود الإنسان، وبيان عدم صحة القول إن النطفة خلطت بدم الحيض؛ إذ لا علاقة لدم الحيض في الإخصاب ووجود الإنسان.

* يمكن اعتبار بعض الأقوال الأخرى للمفسرين صحيحة؛ كونها لا تعارض القول الراجح، مع وجود ما يؤكدها من المكتشفات العلمية، كالقول إن الأمشاج: عروق النطفة، إذ بالنظر في الصبغيات -الكروموسومات- التي تحمل الشفرة الوراثية نجدها تتكون من سلاسل حلزونية مزدوجة، ملتفة حول نفسها على هيئة سلاسل، وكل درجة (مرقاة) تربط بين قاعدتين، وتتناغم القواعد النيتروجينية واحداً بعد آخر ودرجة درجة، حتى تتكون تلك السلاسل الطويلة الممتدة إلى عدة أمتار لو

قيست بطولها الحقيقي، ولكنها تلتف حول نفسها وتتكوّم حتى تصبح واحد على مليون من المتر أو أقل من ذلك^(١).



وكالقول إن الأمشاج الأخلاط؛ لأنها ممتزجة من أنواع، فخلق الإنسان ذا طبائع مختلفة، إذ النطفة الملقحة تحتوي على كل الصفات الوراثية لحاملها مع صفات الأجداد والأحفاد، وفيها تتحدد الصفات السائدة التي ستظهر على الجنين في المستقبل، والصفات المتنحية التي قد تظهر في الأجيال القادمة، وكل خلية تحتوي على الحمض النووي الذي يحمل الشفرة الوراثية لكل صفات الكائن الحي المرئية وغير المرئية (كاللون والطول والعقل)، وكأن الله تعالى قد جعل للكائن الحي صورة متناهية في الصغر بداخل نواة كل خلية، وعليه يصبح بإمكان صفة متنحية في عائلة ما منذ مئات السنين أن تظهر قَدْرًا في أحد الأفراد الجدد بنزعة عرق^(٢)، ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: جاء رجل من بني فزارة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: إن امرأتي ولدت غلاماً أسود، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَمَا

١- انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن للبار ص ١٢٨.

٢- انظر: رحلة الإيمان في جسم الإنسان ص ٤١، وعلم الأجنة في ضوء القرآن والسنة ص ٤٣، ٤٦، والأسس العلمية لاختبار البصمة الوراثية في القرآن والسنة لمحمود عبد الله، ضمن بحوث المؤتمر العالمي العاشر للإعجاز بتركيا، ١٤٣٢هـ-٢٠١١م، محور الطب وعلوم الحياة، الجزء الثاني، ص ٣٣، دار جباد، والإعجاز الإلهي في خلق الإنسان وتفنيد نظرية داروين ص ١٠٤.

أَلْوَأْتِهَا؟ قَالَ: حُمْرٌ، قَالَ: هَلْ فِيهَا مِنْ أَوْرَقٍ؟ قَالَ: إِنَّ فِيهَا لَوُرُقًا، قَالَ: فَأَنْتَى أَتَاهَا ذَلِكَ؟ قَالَ: عَسَى أَنْ يَكُونَ نَزْعُهُ عِرْقٌ، قَالَ: وَهَذَا عَسَى أَنْ يَكُونَ نَزْعُهُ عِرْقٌ^(١).

* ظهور المعجزة العلمية؛ ذلك أن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة يقرران حقائق علمية عن النطفة والسلالة والأمشاج لم تعلم إلا في القرون الأخيرة عندما تطورت التقنية الحديثة، وذلك سبق من القرآن الكريم لجميع المعارف المكتسبة، مما أذهل جهابذة علماء العصر، فما هو البروفسور (كيث مور) بعد وقوفه عند آية النطفة الأمشاج يقول: «لقد كان نبيكم إنساناً بسيطاً، ورجلاً أميناً، وقد عاش ومات في القرن السابع الميلادي، أي في وقت لم يكن فيه لعلم الأجنة أساس ولا خبر، كما لم يكن هناك مجاهر على الإطلاق، ولم يكن علم البصريات قد ظهر إلى عالم الوجود، فمن أين له بهذه المعلومات العلمية المذهلة؟! وكيف شاهد اندماج نطفة الذكر بنطفة الأنثى...»، وبعد ذلك قال: «والله لا أشك أبداً أن محمداً رسول من عند الله»^(٢).

* ظهور إعجاز القرآن الكريم البياني، الذي أبهر العلماء بسمو أغراضه، وصدق دلالاته، وفصاحة تركيبه، وإحكام نظمه، وحسن إيقاعه، فلا يملك من يعاين مشاهدته سوى العجب، كما رأينا ذلك عند علماء الغرب، حيث أشارت هذه النصوص بكلمات معجزة وصريحة ما أكدته وأثبتته الأبحاث الحديثة، وأعطت المسميات الدالة دلالة واضحة على الشكل الخارجي، وكذلك التركيب الداخلي للنطفة، ألفاظ غاية في الدقة، جامعة لمعاني متعددة، فهي ألفاظ تجمع الإيجاز والإعجاز، والله أعلم.

١- أخرجه البخاري، كتاب الطلاق، باب إذا عرض بنفي الولد ٢٠٣٢/٥ برقم: ٤٩٩٩، ومسلم، كتاب اللعان، ١١٣٧/٢ برقم: ١٥٠٠، واللفظ لمسلم. والأورق: الذي فيه سواد ليس بصاف، والعرق: الأصل من النسب، ومعنى نزعه: أشبهه واجتذبه إليه وأظهر لونه عليه. شرح النووي على صحيح مسلم ١٠/١٣٣.

٢- موسوعة الإعجاز العلمي لعبد الرحيم مارديني ص ٢٤٧.

المبحث الثالث

طور العلقه

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول:

طور العلقه في القرآن الكريم.

المطلب الثاني:

طور العلقه في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثه.

المطلب الثالث:

ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها.

المطلب الأول: طور العلقه في القرآن الكريم

الآيات الواردة:

قال الله ﷻ: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾^(١).

وقال ﷻ: ﴿فَخَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾^(٢).

وقال ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾^(٣).

وقال ﷻ: ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى﴾^(٤).

قال ﷻ: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾^(٥).

أقوال المفسرين

العلقه لغة: مفرد علق، قال ابن فارس: «(علق): العين واللام والقاف أصل كبير صحيح، يرجع إلى معنى واحد، وهو أن يناط الشيء بالشيء العالي»^(٦). والعلق: النُّشوب في الشيء يكون في جبل أو أرض أو ما أشبهها، والعلق: الدم عامة، والشديد الحمرة، أو الغليظ، أو الجامد قبل أن يبیس، والعلقه: دودة في الماء تمتص الدم، وتعيش في البرك، وتتغذى على دماء الحيوانات التي تلتصق بها، وعلقت الدابة إذا شربت الماء فعلقت بها العلقه^(٧).

١- سورة الحج: الآية ٥.

٢- سورة المؤمنون: الآية ١٤.

٣- سورة غافر: الآية ٦٧.

٤- سورة القيامة: الآية ٣٨.

٥- سورة العلق: الآية ٢.

٦- معجم مقاييس اللغة ٤/١٢٥.

٧- تهذيب اللغة ١/١٦٢، ومعجم مقاييس اللغة ٤/١٢٦، والمخصص لابن سيده ٢/٣١٩، ومختار الصحاح

١/٤٦٧، ولسان العرب ١٠/٢٦١، والمصباح المنير ٢/٤٢٥، والقاموس المحيط ص ٩١٠، وتاج العروس ٢٦/١٨٥.

قال الفيومي: «والعَلَقَةُ: المني ينتقل بعد طوره فيصير دماً غليظاً متجمداً»^(١).
تعددت عبارات المفسرين في وصف العلقة، وحاصل كلامهم ما يلي:
منهم من قال: هي القطعة من الدم^(٢)، أو هي القطعة اليسيرة منه^(٣).
ومنهم من قال: قطعة من دم رطب^(٤).
ومنهم من قال: هي الدم الجامد^(٥)، أو قطعة دم جامدة^(٦)، أو قطعة دم حمراء
جامدة ليس فيها أهلية للسيلان^(٧)، أو القطعة من الدم الجامد اللين^(٨)، أو دم جامد
رطب يعلق بما مر عليه^(٩).
ومنهم من قال: الدم الغليظ^(١٠)، أو القطعة اليسيرة من الدم الغليظ^(١١).

-
- ١- المصباح المنير ٢/٤٢٥.
 - ٢- انظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري ١٩/١٦، والمحزر الوجيز لابن عطية ٥/٣٧٩، والجواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي ٤/٣٦٩.
 - ٣- انظر: المحزر الوجيز لابن عطية ٥/٤٧٣، والجواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي ٤/٤٢٧.
 - ٤- النكت والعيون للماوردي ٦/٣٠٤، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٠/١١٩، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل ٢٠/٤١٤.
 - ٥- انظر: لطائف الإشارات للقشيري ٣/٧٤٧، والوجيز في تفسير الكتاب العزيز للواحد ص ٧٢٨، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٠/١١٩، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل ٢٠/٤١٤، تفسير الجلالين ص ٤٣٣، وفتح القدير للشوكاني ٣/٥١٥.
 - ٦- انظر: مفاتيح الغيب للرازي ٢٣/٨، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ٤/١١٤، ومدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي ٤/٢٤٥، ولباب التأويل للخازن ٥/٣٣، والبحر المديد في تفسير القرآن المجيد لابن عجيبة ٤/٥٨٨، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي ٤/٢٦٦.
 - ٧- انظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ٥/٢٦٦، وتفسير السراج المنير للشربيني ٢/٤٢٣.
 - ٨- التحرير والتنوير لابن عاشور ١٧/١٤٤.
 - ٩- تفسير روح البيان لحقي ١٠/٣٦٣.
 - ١٠- الجواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي ٣/٧١، ٩٣، وأيسر التفاسير للجزائري ٥/٥٩٣.
 - ١١- انظر: تفسير الجلالين ص ٨١٤.

ومنهم من قال: من دم عبيط^(١)^(٢)، أو دم عبيط جامد^(٣).
 ومنهم من قال: العلقة: واحدة العلق، وهو الدم قبل أن يببس^(٤).
 ومنهم من قال: الدم المنعقد^(٥).
 ومنهم من قال: الشديد الحُمْرة^(٦).
 ومنهم من قال: هي علقة حمراء على شكل العلقة مستطيلة^(٧).
 ومن المفسرين من جمع بين أكثر من وصف، قال البغوي: «ثم من علقة، وهي الدم الغليظ المتجمد الطري»^(٨)، وقال ابن عاشور: «والعلق: اسم، جمع علقة، وهي قطعة قدر الأنملة، من الدم الغليظ، الجامد، الباقي رطباً، لم يجف»^(٩).
 وسميت بالعلقة؛ لأنها تعلق لرتوبتها بما تمر عليه، وتعلقها بالرحم، وتشبيها لها بدودة صغيرة تسمى علقة، وهي حمراء داكنة تكون في المياه الحلوة، تمتص الدم من الحيوان إذا علق خرطومها بجلده، وقد تدخل إلى فم الدابة^(١٠).

-
- ١- انظر: تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ص ٣٩٨، وبحر العلوم للسمرقندي ٥٧٤/٣، والكشف والبيان للثعلبي ٢٤٢/١٠، ومراح لبيد لكشف في معنى القرآن المجيد ٣٥٤/٢.
 ٢- العبيط: الطري. لسان العرب ٣٤٧/٧، وتاج العروس ٤٦٦/١٩. وقال الفيومي: «طري خالص لا خلط فيه» المصباح المنير ٣٩٠/٢. وقال الشوكاني: «الطري أو المتجمد» فتح القدير ٥١٥/٣.
 ٣- انظر: زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ٣٦٩/٤.
 ٤- انظر: معاني القرآن للنحاس ٤٤٧/٤.
 ٥- انظر: تفسير القرآن للسمعاني ٤١٩/٣.
 ٦- انظر: معاني القرآن للنحاس ٣٧٧/٤، والمحرم الوجيز لابن عطية ١٣٠/٤، والجامع لأحكام القرآن للطبري ٦/١٢، وفتح القدير للشوكاني ٥١٥/٣.
 ٧- انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢٩٥/٣.
 ٨- معالم التنزيل في تفسير القرآن للبغوي ٣٢٤/٣.
 ٩- التحرير والتنوير لابن عاشور ٣٨٦/٣٠.
 ١٠- النكت والعيون ٣٠٤/٦، وزاد المسير في علم التفسير ٤٠٦/٥، وغرائب القرآن و رغائب الفرقان ٦٥/٥، واللباب في علوم الكتاب ٤١٤/٢٠، والتحرير والتنوير ٣٨٦/٣٠، والوسيط لسيد طنطاوي ٤٥٤٠/١.

وبالنظر فيما قاله المفسرون في معنى العلقه نجده يرجع إلى الدم، وإنما تعدد الوصف عندهم لها؛ لتعدد المعنى اللغوي لها، وقد جاءت لفظة علقه مطلقاً في القرآن الكريم؛ لتشمل المعاني اللغوية المذكورة التي تقدمت، وتتجلى هذه المعاني التي وردت في النص القرآني فيما توصل إليه العلم الحديث عن هذه المرحلة^(١)، وهذا ما سأبينه في المبحث التالي إن شاء الله تعالى.

أما قوله ﷻ: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾^(٢)، فإنما قال ﷻ: ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾ على الجمع:

لأن الإنسان في معنى الجمع، كقوله ﷻ: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ﴾^(٣)(٤). أو يراد جنس الإنسان^(٥)، أو مراعاة الفواصل، قال أبو السعود: «وإيراده بلفظ الجمع بناء على أن الإنسان في معنى الجمع؛ لمراعاة الفواصل، ولعله هو السر في تخصيصه بالذكر من بين سائر أطوار الفطرة الإنسانية، مع كون النطفة والتراب أدل منه على كمال القدرة؛ لكونهما أبعد منه بالنسبة إلى الإنسانية»^(٦). أو أن سورة العلق بنيت على الإيجاز^(٧) في اللفظ والإطناب^(٨) في المعنى، كما يتضح من خلال حذف المفعول في فاصلة الآية الأولى: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي

١- انظر: علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة للزنداني ص ٦٨.

٢- سورة العلق: الآية ٢.

٣- سورة العصر: الآية ٢.

٤- انظر: الكشاف للزمخشري ٤/٧٨١، ومفاتيح الغيب للرازي ٣٢/١٦.

٥- انظر: النكت والعيون للماوردي ٦/٣٠٤، والتسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ٢/٤٩٦، ولباب التأويل في معاني التنزيل للخازن ٧/٢٦٩، وبلاغة القرآن الكريم في الإعجاز إعراباً وتفسيراً بإيجاز ١٠/٦٥٥.

٦- انظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود ٩/١٧٧.

٧- هو وضع المعاني الكثيرة في ألفاظ أقل منها، وافية بالعرض المقصود، مع الإبانة والإفصاح. جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع لأحمد الهاشمي ص ١٩٧.

٨- هو زيادة اللفظ على المعنى لفائدة، أو هو تأدية المعنى بعبارة زائدة عن متعارف أو ساط البلاغ؛ لفائدة تقويته وتوكيده. جواهر البلاغة ص ٢٠١.

خَلَقَ ﴿١﴾، ويتضح كذلك من خلال الاقتصار على طور واحد من أطوار الخلق، ولما كان الجمع أقل حروفاً من مفرده مع زيادة عليه في المعنى بما يتضمنه من الكثرة، كان هو الأليق بمقام الإيجاز الذي انبنت عليه هذه السورة^(٢).

وأما السبب في الاقتصار على طور العلقة دون باقي الأطوار:

قال الشنقيطي: «وذلك لأنهم يشاهدون ذلك أحياناً فيما تلقي به الرحم، ويعلمون أنه مبدأ خلقة الإنسان... وقال ابن تيمية: إن المقام هنا مقام دلالة على وجود الله، فبدأ بما يعرفونه ويسلمون به الله، ولم يبدأ من النطفة أو التراب؛ لأن خلق آدم من تراب لم يشاهدوه، ولأن النطفة ليست بلازم لها خلق الإنسان، فقد تقذف في غير رحم كالمحتلم، وقد تكون فيه، ولا تكون مخلقة. اهـ^(٣)».

وهذا في ذاته وجيه، ولكن لا يبعد أن يقال: إن السورة في مستهل الوحي وبدايته، فهي كالذي يقول: إذا كنت بدأت بالوحي إليه ولم يكن من قبل، ولم يوجد منه شيء بالنسبة إليك، فليس هو بأكثر من إيجاد الإنسان من علقته، بعد أن لم يكن شيئاً، وعليه يقال: لقد تركت مرحلة النطفة مقابل مرحلة من الوحي قد تركت أيضاً، وهي فترة الرؤيا الصالحة... ومثل ذلك تماماً فترة النطفة، فقد تكون النطفة ولا يكون الإنسان، كما تكون الرؤيا ولا تكون النبوة، أما العلقه فلا تكون إلا في رحم وقرار مكين، ومن ثم يأتي الإنسان مخلقاً كاملاً، أو غير مخلق على ما يقدر له، فلما كانت فترة النطفة ليست بلازمة لخلق الإنسان، وكان مثلها فترة الرؤية ليست لازمة للنبوة، ترك كل منها مقابل الآخر، ويبدأ الدليل بما هو الواقع المسلم

١- سورة العلق: الآية ١.

٢- انظر: مراحل خلق الإنسان في آيات القرآن الكريم لمنى رفعت ص ١٦٠.

٣- انظر: مجموع الفتاوى ١٦/٢٦٠، ٢٦١.

على أن الله تعالى هو الخالق، والخالق للإنسان من علقه، فكان فيه إقامة الدليل من ذاتية المستدل، فالدليل هو خلق الإنسان، والمستدل به هو الإنسان نفسه»^(١).

ويقول ابن عاشور: «إن نطفة الذكر ونطفة المرأة بعد الاختلاط ومضي مدة كافية تصيران علقه، فقد أخذت في أطوار التكون، فجعلت العلقه مبدأ الخلق، ولم تجعل النطفة مبدأ الخلق؛ لأن النطفة اشتهرت في ماء الرجل، فلو لم تخالطه نطفة المرأة لم تصر العلقه فلا يتخلق الجنين، وفيه إشارة إلى أن خلق الإنسان من علق، ثم مصيره إلى كمال أشده هو خلق ينطوي على قوى كامنة وقابليات عظيمة أقصاها قابلية العلم والكتابة، ومن إعجاز القرآن العلمي ذكر العلقه؛ لأن الثابت في العلم الآن أن الإنسان يتخلق من بويضة دقيقة جداً لا ترى إلا بالمرآة المكبرة أضعافاً، تكون في مبدأ ظهورها كروية الشكل سابحة في دم حيض المرأة، فلا تقبل التخلق حتى تخالطها نطفة الرجل فتمتزج معها فتأخذ في التخلق إذا لم يعقها عائق، فإذا أخذت في التخلق والنمو امتد تكورها قليلاً فشابهت العلقه التي في الماء مشابهة تامة في دقة الجسم وتلونها بلون الدم الذي هي ساحبة فيه، وفي كونها سابحة في سائل كما تسبح العلقه»^(٢).

١- انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٩/١٥-١٧.

٢- انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور ٣٠/٣٨٧.

وقيل: إن مرحلة النطفة قد تتم خارج الجسم عن طريق ما يعرف بالتلقيح الصناعي^(١)، أما مرحلة العلقة فلا يمكن أن يتشبث الجنين إلا داخل الرحم^(٢). بالإضافة إلى ما سبق يحتمل القول إن طور العلقة بداية حقيقية لتخلق أجهزة الجنين، إذ يبدأ الجهاز العصبي ممثلاً بالحبل الظهري، والجهاز الدوري الابتدائي ممثلاً بأنابيب القلب وحزمة من الأوردة والشرايين، كذلك يكتمل في هذا الطور ظهور الطبقات الثلاث التي تكون اللبنة الأولى لتكون الأعضاء والأجهزة فيما بعد.

والله ﷻ أعلم

١- التلقيح الصناعي: هو تكون النطفة الأمشاج نتيجة التقاء النطف الذكورية بالنطف الأنثوية عن غير طريق الجماع. [انظر: الأحكام المتصلة بالعقم والإنجاب ومنع الحمل لسارة الهاجري ص ٣٣١]. وقيل: هو دمج الحيوان المنوي ببويضة المرأة بغير الطريق الطبيعي المعتاد، سواء في الرحم، أو في أنبوب الاختبار، ثم إعادتها إلى الرحم. [الموسوعة الفقهية للأجنة والاستنساخ البشري لسعيد موفعة ٦٩٨/١، والتلقيح الصناعي الداخلي والخارجي بين الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية لشوقي زكريا الصالحي ص ٢٥].

٢- انظر: مراحل خلق الإنسان في آيات القرآن الكريم لمنى رفعت ص ١٦١. ونقلت الباحثة قولاً: هو أن العلقة طور مجهول لا تتكشف أسناره إلا بالعلم والمعرفة، وهي البداية الحقيقية للمجهول من أطوار الإنسان؛ إذ التراب والنطفة من الأمور الظاهرة المعلومة للناس كافة، فكانت العلق بمادتها وصيغتها أمس رحماً بمقام تستنفر فيه طاقات الإنسان للبحث والتعلم، والعلم في نظر الإسلام هو الوسيلة لمعرفة الله والتقرب إليه، لذا بدأت السورة بالدعوة إلى القراءة، واختتمت بالعبادة والتقرب إلى الله.

إلا أنه يؤخذ عليه: أن النطفة بعد إنمائها في موضعها لم تعد من الأمور الظاهر، والنطفة الأمشاج من مراحل النطفة وليست ظاهرة، وغيظ الأرحام يحصل قبل العلقة وهو مما استأثر الله بعلمه، وبالتالي لا يصح القول: إن البداية الحقيقية للمجهول من أطوار الإنسان هو العلقة.

المطلب الثاني: طور العلقه في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة

لا تمر خمسة أيام على النطفة الأمشاج إلا وقد صارت مثل الكرة تماماً، وتدعى عندئذ (التوتة)، ثم يمتلئ جوفها بسائل، وتدعى عندئذ (الكرة الجرثومية)، وفي تلك الأثناء تتميز خلايا الكرة الجرثومية إلى طبقتين: داخلية يخلق الله تعالى منها الجنين وأغشيته، وخارجية تتكون من خلايا آكلة ومغذية ما أن تصل إلى الرحم حتى تنشب فيه وتعلق بجداره وتقضم خلاياه، وتنغرز فيه^(١)، كما تقوم بعدئذ بتأمين الغذاء من الرحم، وتتصل هذه الخلايا مباشرة بالدم الغليظ في الجيوب الدموية الرحمية، وتأخذ منه غذاءها وغذاء الجنين^(٢).

وتنغرز الكرة الجرثومية بأكملها تقريباً داخل الرحم في اليوم التاسع من التلقيح، وتقل الفتحة التي دخلت منها الكرة الجرثومية بواسطة جلطة مكونة من الليفين، وفي اليوم الحادي عشر والثاني عشر أو الثالث عشر تكون الكرة الجرثومية قد أكملت انغرازها، وتغطت الفتحة التي دخلت منها هذه الكرة بواسطة خلايا طلائية من غشاء الرحم بدلاً من الجلطة الدموية التي كانت تسد الفتحة في اليوم التاسع^(٣).

١- وهذا يكون في الجدار الخلفي للرحم، وفي النصف الأعلى منه على وجه الخصوص حيث يعتبر ذلك أكثر مناطق الرحم صلاحية لنمو الجنين واكتماله، ويكون الرحم قد استعد لذلك بزيادة ثخانة طبقة غشائه، وازدياد الدماء فيه، حتى تتكون به جيوب دموية كثيرة. انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن للبار ص ٢٠٥.

٢- انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن للبار ص ٢٠٤، ٢٠٥، والهندسة الوراثية في القرآن لمحمد محمود عبدالله ص ٣٤، ودلائل الإعجاز لسيف الدين الكاتب ص ٤١٢، ودليل الأنفس لمحمد عز الدين توفيق ص ١٠٨، ورحلة الإيمان في جسم الإنسان ص ١٠٣، ١٠٤، وخلق الإنسان بين العلم والقرآن ص ٦٦، ٦٧.

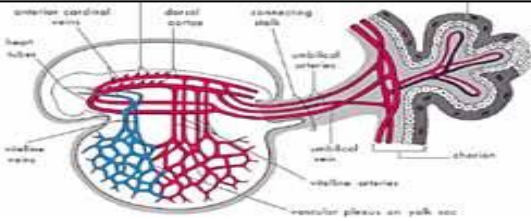
٣- انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن للبار ٢٣٤، وخلق الإنسان في القرآن الكريم للنجار ص ٤٦٦.

وبعد هذه المرحلة من تعلق الجنين بجدار الرحم وانغراسه فيه يبدأ الغشاء المشيمي في التكون من الخلايا الخارجية للأرومة الجرثومية، كما يتكون معلاق^(١) موصل بين الجنين وبين الغشاء المشيمي، تنشأ فيه الأوعية الدموية السرية المغذية للجنين؛ لتأكيد تعلق الجنين بجدار الرحم^(٢).

فهناك عدة تعلقات: تعلق أولي عند انغراز النطفة الأمشاج، وبعده تعلق ثاني عند تكون الغشاء المشيمي، وبعدها تعلق ثالث للجنين عند تكون المعلاق يربط بين الجنين الحقيقي وبين الغشاء المشيمي^(٣).

ففي أثناء عملية الحرث، وباطراد عملية النمو، وتعدد الخلايا، وبدء تكوين

الجهاز الدوري الابتدائي في مرحلة العلقه وهو ما يظهر مظهر الدم المتخثر بسبب كميات الدم الكسرة في الحنجره المشيمية



الأجهزة المختلفة (وفي مقدمتها الجهاز العصبي ممثلاً بالحبل الظهري، والجهاز الدوري الابتدائي ممثلاً بأنابيب القلب

١- المعلاق: ساق موصلة تصبح فيما بعد الحبل السري الذي يربط ما بين الجنين والمشيمة. [انظر: علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة ص ٧١]. وأهمية هذا المعلاق تأتي من أنه حلقة الاتصال الأولى بين الجنين وما يحمله من كيس السلى (الأمينون) وكيس المح، وبين الغشاء المشيمي والذي سيكون المشيمة في المستقبل، بالإضافة إلى أنه -المعلاق- المهد الأول الذي تنشأ فيه الأوعية الدموية السرية المغذية للجنين، وهذا المعلاق أو العنق يستطيل حتى ليصبح الحبل السري الذي يربط ما بين الجنين والمشيمة، وعبر أوعيته الدموية تتم تغذية الجنين بالأغذية المناسبة، كما يحمل إليه الأوكسجين ومواد المناعة، ويحمل من الجنين إلى الأم المواد الضارة مثل كثنائي أوكسيد الكربون، ويتكون المعلاق ينفصل غشاء السلى عن الخلايا الأكلة، ويسمح لغشاء السلى بالنمو السريع، كما يسمح للجنين بحرية الحركة في كيس السلى. [خلق الإنسان بين الطب والقرآن للبار ص ٢٢٢]. وكيس المح: كيس يجتمع فيه الغذاء الذي تمتصه الخملات، ومنه يذهب إلى الجنين، ولا يستمر إلا فترة قصيرة، ثم يضم عندما تنمو المشيمة والحبل السري. [دليل الأنفس لعز الدين توفيق ص ١١٦].

٢- انظر: خلق الإنسان في القرآن الكريم للنجار ص ٤٦٦.

٣- انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن للبار ص ٢٢٣، ٣٦٨.

وحزمة من الأوردة والشرابين)، تفقد النطفة شكلها وتستطيل في مطلع الأسبوع الثالث من اليوم الرابع عشر أو الخامس عشر لتأخذ هيئة دودة العلق، والذي يبدأ بتعلق الجنين بالمشيمة، بواسطة المعلاق أو الساق الذي يعلق الجنين، وهذا يتفق مع معنى (التعلق بالشيء) الذي يعتبر أحد مدلولات (علقة)^(١).

أيضاً عندما تعلق الكرة الجرثومية تكون كتلة الخلايا الداخلية التي يخلق منها الجنين قد تمايزت إلى طبقتين: خارجية: الأكتودرم، وداخلية: الأنتودرم، وتكون كل طبقة مثل القرص، فكأنهما قرصان متلاصقان يتحولان إلى مستطيلين في نهاية الأسبوع الثاني حتى يأخذا شكل الكمثرى، فيكون الجزء العريض هو الجزء الأمامي، بينما يرق الجزء المؤخري، وتصبح خلايا الانتودرم في الجزء الأمامي أو طرف الرأس، وتعرف هذه المنطقة باسم الصفيحة سالفة القلب، بينما تنشط خلايا الاكتودرم -الطبقة الخارجية- في الجزء المؤخري من القرص الجنيني مكونة الشريط الأولي، ويظهر هذا الشريط في اليوم الخامس عشر منذ بدء التلقيح، وتنمو من تحت هذا الشريط الأولي السريع الانقسام مجموعة من الخلايا تتجه يميناً ويسراً بين طبقة الاكتودرم وطبقة الانتودرم، مكونة طبقة جديدة هي الطبقة المتوسطة (الميزودرم)، ويستمر هذا الشريط في نشاطه إلى نهاية الأسبوع الثالث عندما تظهر الكتل البدنية، ثم يطوى بعد ذلك نشاطه، ويندثر في الأسبوع الرابع، وفيما بين اليوم الخامس عشر، وحتى ظهور الكتل البدنية في نهاية الأسبوع الثالث، يكون الشريط الأولي في أوج نشاطه، وتمتد خلايا منه مكونة الطبقة المتوسطة الجنينية، وهكذا يتحول اللوح الجنيني المستدير الشكل إلى شكل كمثري،

١- انظر: خلق الإنسان في القرآن الكريم للنجار ص٤٦٥، وعلم الأجنة في ضوء القرآن والسنة ص٧١،
٧٢، ودلائل الإعجاز لسيف الدين الكاتب ص٤١٢.

تكون جهته الرأسية عريضة، وجهته المتأخرة ضيقة دقيقة، ويتضح ذلك في اليوم الثامن عشر، ويكون اللوح الجنيني عندئذٍ مكوناً من ثلاث طبقات^(١):

١- **الطبقة الخارجية (الاكتودرم):** ويظهر في جهتها المؤخرية الشريط الأولي الذي تنمو منه الطبقة المتوسطة وتمتد يمناً ويسرة وإلى الأمام حتى تفصل بين الطبقتين الخارجية (الاكتودرم) والداخلية (الانتودرم)، كما ينمو من خلايا الاكتودرم الخارجية وبالذات من عقدة هنسن (العقدة الأولية) شريط يعرف بالحبل الظهري، ومنها يتخلق لاحقاً الجلد ومحتوياته، والجهاز العصبي.

٢- **الطبقة المتوسطة (الميزودرم):** وتظهر نتيجة لنشاط خلايا الشريط الأولي، وتمتد الخلايا منه لتفصل ما بين الطبقتين الخارجية (الاكتودرم) والداخلية ما عدا منطقتين فقط هما: (أ) منطقة الصفيحة سالفة القلب. (ب) منطقة غشاء المذرق، وفي هاتين المنطقتين تلتصق خلايا الاكتودرم الخارجية بخلايا الانتودرم الداخلية ولا يفرق بينهما شيء، ومن هذه الطبقة يتخلق لاحقاً الهيكل العظمي، والعضلات، والجهاز البولي، والتناسلي، والدم وغيرها من الأعضاء.

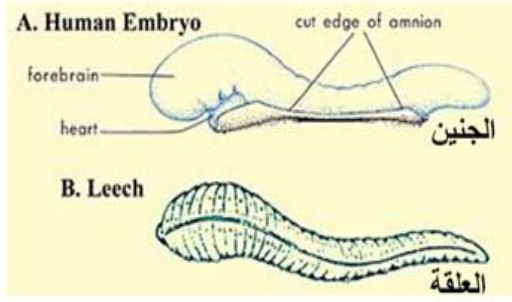
٣- **الطبقة الداخلية (الانتودرم):** وهي الخلايا الداخلية للجنين الذي سيخلق الله منه الجهاز الهضمي، والجهاز التنفسي، وغيرها من الأعضاء.

وفي اليوم التاسع عشر والعشرين ينمو التجويف المحيط بالجنين وهو ما يعرف بالتجويف خارج الجنين، ويسمى هذا التجويف عندئذٍ تجويف المشيمة، ويبقى الجنين معلقاً في هذا التجويف بواسطة المعلق إلى الغشاء المشيمي المعلق أيضاً بجدار الرحم بواسطة الخملات^(٢).

١- انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن للبار ٢٣٦-٢٤٠.

٢- انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن للبار ص ٢٤٠-٢٤٢، ودليل الأنفس لمحمد عز الدين توفيق ص ١١٤، من علم الطب القرآني لعبدان الشريف ص ٥٢.

والجنين في هذه المرحلة من حياته وحتى ولادته يعيش في محيط مائي، معلقاً



برحم أمه بواسطة الحبل السري، والعلق يعيش في الماء، فشابه الجنين العلقة بذلك.

وإذا رأينا المعنى الحرفي للعلق (دودة عالقة) فإننا نجد أن الجنين يفقد شكله المستدير ويستطيل حتى يأخذ شكل الدودة،

فالجنين شكله في هذه المرحلة يشبه إلى حد كبير شكل العلقة كما في الشكل.

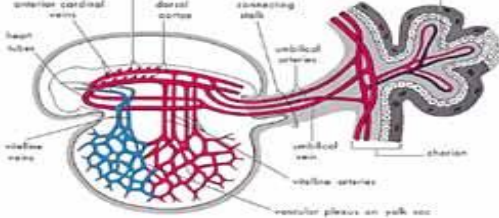


ثم يبدأ في التغذية من دم الأم، كما تفعل الدودة العالقة، إذ تتغذى من دم الكائنات التي تتعلق بها، ويحاط الجنين بمائع مخاطي مثلما تحاط العلقة بالماء.

وطبقاً لمعنى (دم جامد أو غليظ) للفظ العلقة، نجد أن المظهر الخارجي للجنين

وأكياسه يتشابه مع الدم المتخثر الجامد الغليظ؛ لأن القلب الأولي وكيس المشيمة،

القلب الوعائي الأولي وكيس المشيمة في العلقة يبين مظهر الدم المتخثر بسبب انحباس الدم في الأوعية الدموية



ومجموعة الأوعية الدموية القلبية تظهر في هذه المرحلة، وتكون الدماء محبوسة في الأوعية الدموية حتى وإن كان الدم سائلاً، فتظهر على شكل جزر مغلقة تجعل الدماء

غير متحركة، ولا يبدأ الدم في الدوران حتى نهاية الأسبوع الثالث، وبهذا يأخذ

الجنين مظهر الدم الجامد أو الغليظ مع كونه دماً رطباً، وتندرج الملامح المذكورة

سابقاً تحت المعنيين المذكورين للعقّة (دم جامد) أو (دم رطب) والصور توضح ذلك^{(١)(٢)}.

أما الفترة الزمنية التي يستغرقها التحول من نطفة إلى عقّة، فإن الجنين خلال مرحلة الانغراس أو الحرث يتحول من مرحلة النطفة ببطء؛ إذ يستغرق نحو أسبوع منذ بداية الحرث (اليوم السادس) إلى مرحلة العقّة، حتى يبدأ في التعلق (اليوم الرابع عشر أو الخامس عشر)، ويستغرق بدء نمو الحبل الظهري حوالي عشرة أيام (اليوم السادس عشر) حتى يتخذ الجنين مظهر العقّة، والدلالات الواردة في الآيات المذكورة فيما يتعلق بالفترة التي تتحول فيها النطفة إلى عقّة، تأتي من حرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ الذي يدل على انقضاء فترة زمنية حتى يتحقق التحول إلى

-
- ١- انظر: علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة ص ٧٣-٧٥، ووصف التخلق البشري (طورا العقّة والمضغة)، لكيث مور، بحث منشور في مجلة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، العدد الثاني، جمادي الأول ١٤١٧هـ- سبتمبر ١٩٩٦م، ص ١٥، ١٦، مدخل إلى رعاية الطفل والأسرة لمحمد قنديل وصافي شلبي ص ٥١، عجائب النظر والتفكير لأسامة الناعسة ص ١٨٣، موسوعة الإعجاز العلمي في سنة النبي الأمي لحمدي الصعيدي ص ٢٧٩، موسوعة الإعجاز العلمي ليويسف الحاج أحمد ص ١٠٢، من علم الطب القرآني لعنان الشريف ص ٥١، ودلائل الإعجاز العلمي في القرآن والسنة لسيف الدين الكاتب ص ٤١٢.
- ٢- أما الطبيب محمد البار فذكر أن تفسير العقّة بالدم الغليظ المتجمد توهم من قدامى المفسرين؛ لأن حجمها في هذه المرحلة لا يزيد عن نقطة الحبر هذه(.)، ويحيط بها الدم المتجمد -المتخثر- من كل جانب[خلق الإنسان بين الطب والقرآن ص ٢١٣]، واعترض مأمون شقفة على البار في قوله: إن العقّة تحاط بالدم الغليظ المتخثر، فالنطفة بعد أن تعلق لا يحيط بها دم غليظ متجمد أبداً، وإنما هو دم سائل عادي يجري في العروق؛ إذ لو كان غليظاً متخثراً لا نعدم الدوران، ولماتت النطفة الأمشاج، وعلى هذا فإن وصف العقّة بأنها الدم المتخثر يجب أن ينتهي، وما العقّة إلا من العلق[القرار المكين لمأمون شقفة ص ١٩٤]، ويرى موريس بوكاي أن العقّة من التعلق والتشبث بالشيء، وتفسيرها بجلطة الدم أمر غير صحيح، ينبغي التحذير منه؛ لأن الإنسان لا يمر بمرحلة جلطة الدم[القرآن والتوراة والإنجيل والعلم دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الجديدة لموريس بوكاي ص ٢٣٦].

الطور الجديد، وهكذا فإن التعبير القرآني ﴿عَلَقَةٍ﴾ يعتبر وصفاً متكاملًا عن الطور الثاني لنمو الجنين، ويشتمل على الملامح الأساسية الخارجية والداخلية له^(١).

١- انظر: علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة ص ٧٥، ووصف التخلق البشري (طورا العلقة والمضغة)، لكيث مور، مجلة الإعجاز العلمي، العدد الثاني، ص ١٦، ١٧.

المطلب الثالث: ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها

من خلال الدراسة التفسيرية والعلمية يتلخص ما يلي:

* العلقه لغة: مفرد علق، وهو النُّشوب في الشيء، أو الدم عامة، أو الشديد الحمرة، أو الغليظ، أو الجامد قبل أن يبببس، ودودة في الماء تمتص الدم.
* بالنظر فيما قاله المفسرون في معنى العلقه نجده يرجع إلى الدم، وإنما تعددت عباراتهم في وصفها؛ لتعدد معناها اللغوي، ومحصل أقوالهم يدور حول: القطعة من الدم، والدم الرطب، والذي لم يبببس، أو الجامد، أو الجامد اللين، أو الدم الغليظ، أو العبيط -طري-، أو المنعقد، أو الشديد الحُمرة، أو على شكل العلقه مستطيلة، ومن المفسرين من جمع أكثر من وصف، وجاء لفظ القرآن مطلقاً.

* علل المفسرون لتسمية العلقه بذلك؛ أنها تعلق لרטوبتها بما تمر عليه، وتعلق بالرحم، وتشبيها لها بدودة صغيرة تسمى علقه.

* جاء قوله ﷻ: ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾^(١) على الجمع؛ لأن الإنسان في معنى الجمع، أو يراد جنس الإنسان، أو مراعاة الفواصل، أو أن السورة بنيت على الإيجاز في اللفظ والإطناب في المعنى، وذلك يناسبه لفظ الجمع هنا.

* السبب في الاختصار على طور العلقه في قوله ﷻ: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾^(٢): أن الناس يشاهدون ذلك أحياناً فيما تلقي به الرحم، والنطفة ليست بلازم لها خلق الإنسان، فقد تقذف في غير رحم كالمحتلم، وقد تكون فيه ولا تكون مخلقة، أو أن السورة في مستهل الوحي وبدايته، فتركت مرحلة النطفة مقابل مرحلة من الوحي

١- سورة العلق: الآية ٢.

٢- سورة العلق: الآية ٢.

وهي فترة الرؤيا الصالحة، أو أن النطفة اشتهرت في ماء الرجل فلو لم تخالطه نطفة المرأة لم تصر العلقة فلا يتخلق الجنين، أو أن مرحلة النطفة قد تتم خارج الجسم بالتلقيح الصناعي خلافا للعلقة، ويحتمل القول إن طور العلقة بداية حقيقية لتخلق أجهزة الجنين بظهور مبدئي للحبل الظهري وحزمة من الأوردة والشرايين، وظهور الطبقات الثلاث التي هي اللبنة الأولى لتكون الأعضاء والأجهزة فيما بعد. * هناك عدة تعلقات: تعلق أولي عند انغراز النطفة الأمشاج، وبعده تعلق ثاني عند تكون الغشاء المشيمي، وبعدها تعلق ثالث للجنين عند تكون المعلاق الذي يربط بين الجنين الحقيقي وبين الغشاء المشيمي، وهذا الأخير هو بداية طور العلقة، فطور العلقة يبدأ بعد مرحلة الحرث الذي يُعدُّ من مراحل النطفة، حيث تنتهي النطفة بعده للتعلق، وذلك في اليوم الرابع عشر أو الخامس عشر لتصبح علقة^(١).

١- انظر: علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة ص ٧٥، وخلق الإنسان في القرآن الكريم للنجار ص ٤٦٦. بينما يرى الطبيب محمد البار أن طور العلقة يبدأ بمرحلة الحرث الذي تلتصق فيه النطفة بجدار الرحم وتتشب فيه، وذلك ما بين اليوم الخامس والسابع منذ بدء التلقيح. [خلق الإنسان ص ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٥]. وقد اعترض عليه الطبيب مأمون شقفة: أنه حين تصل النطفة الأمشاج إلى جدار الرحم تحفر لنفسها نفقاً تدخله وتتخذة عشاً، والطب يسمي هذا الفعل تعشيشاً، فالانغراس تعشيش، والعلوق غير التعشيش، وعليه لا يصح أن توصف بالعلقة في هذه المرحلة. [انظر: القرار المكين مأمون شقفة ص ١٩٥، ١٩٦].

وذهب الطبيب كريم حسنين إلى أن العلقة تبدأ باتحاد نطفتي الرجل والمرأة؛ لأن وظيفتها الأساسية حال تكونها هو التعلق ببطانة الرحم، سواء نجحت في التعلق أم لم تنجح، وسواء كان في بداية التعلق أو في نهايته. [دورة حياة الإنسان بين العلم والقرآن ص ٨٦].

وما قاله بعيد؛ لأن التلقيح يكون في مرحلة النطفة، ولا يصدق على اتحاد الحيوان المنوي بالبيضة أنه علقه، لا في كلام أهل اللغة، ولا عند المفسرين، ولا تصدقه الكشوفات العلمية، فما قاله تحكم لا دليل عليه، بل ما قاله شذوذ شذ به عن أهل الطب.

* أثناء عملية الحرث، وبإطراد عملية النمو، وتعدد الخلايا، وبدء تكوين الأجهزة المختلفة (وفي مقدمتها الجهاز العصبي ممثلاً بالحبل الظهري، والجهاز الدوري الابتدائي ممثلاً بأنابيب القلب وحزمة من الأوردة والشرايين)، تفقد النطفة شكلها وتستطيل في مطلع الأسبوع الثالث من اليوم الرابع عشر أو الخامس عشر لتأخذ هيئة دودة العلق، ويتعلق بالمشيمة، بواسطة المعلاق، وهذا يتفق مع معنى (التعلق بالشيء) الذي يعتبر أحد مدلولات (علقة).

* يتسع اسم علقة فيشمل وصف الهيئة العامة للجنين كدودة عالقة، كما يشمل الأحداث الداخلية كتكون الدماء والأوعية المقفلة، كما يدل لفظ علقة على تعلق الجنين بالمشيمة، وبالإضافة إلى ذلك فقد أظهر القرآن الكريم التحول البطيء من النطفة إلى العلقة باستعمال حرف العطف (ثم)، الدال على التعقيب مع التراخي^(١).

ومن خلال الدراسة التفسيرية والعلمية يظهر لي الآثار التالية:

* أكدت المكتشفات العلمية صحة ما ذكره المفسرون في وصفهم للعلقة بالقطعة من الدم، والدم الرطب، والذي لم ييبس، والجامد، أو الجامد اللين، والدم الغليظ، أو العبيط -طري-، أو المنعقد، أو الشديد الحُمْرة، وعلى شكل العلقة مستطيلة.

* صحة تشبيه المفسرين للجنين بدودة العلقة في شكلها، وأثبت العلم أنها تشبهها في وظيفتها بالتغذي بامتصاص الدماء من جدار الجسم الذي تعلق به.

* صحة ما ذكره المفسرون بأن من سبب تسميتها بذلك أنها تعلق بالرحم، إذ العلوق من أهم مزايا هذه المرحلة.

١- انظر: علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة للزندان ص ٧٥، ووصف التخلق البشري (طورا العلقة والمضغة)، لكيث مور، مجلة الإعجاز العلمي، العدد الثاني، ص ١٧.

* ظهور المعجزة العلمية، وذلك بسبق القرآن الكريم في وصف مراحل تخلق الجنين البشري بدقة فائقة قبل ألف وأربعمائة سنة، وهي مراحل متناهية الضآلة في الحجم، في زمن لم يتيسر للإنسان أي وسيلة من وسائل التكبير أو الكشف أو التصوير، وذلك من أوضح جوانب الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، خاصة وأن هذه المراحل لم تتوصل العلوم المكتسبة إلى معرفتها إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين، مع أن القرآن قد وصفها بدقة، وطول العلقه يتراوح بين ٠,٧ ملليمتر و ٣,٥ ملليمتر، وهو ما لا يمكن للعين المجردة رؤيته في السقط النازل مغموراً بالدماء وبأشلاء الانسجة، ومن هنا كان ذكر الآيات القرآنية الكريمة لمراحل الجنين بأوصاف محددة، ومراحل متتالية منتظمة، من أعظم الشهادات على أن القرآن الكريم هو كلام الله ﷻ، وأن محمداً رسول أرسله الله بالهدى والنور، جاءه وحي السماء، إذ يستحيل أن يوجد مصدر لهذا العلم الراقى المحكم الدقيق في الزمان الذي عاش فيه محمد ﷺ إلا علم الله سبحانه وتعالى^(١).

* الإعجاز البياني للقرآن الكريم؛ وذلك من خلال إعطائه لهذه المرحلة اسماً يشمل وصف الهيئة العامة للجنين كدودة عالقة، كما يشمل الأحداث الداخلية كتكون الدماء والأوعية المقفلة، كما يدل لفظ علقه على تعلق الجنين بالمشيمة، واستعمال حرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ الذي يدل على التعقيب مع التراخي، فهو لفظ موجز يستوعب معاني عدة، ليكون بذلك لفظاً معجزاً.

والله ﷻ أعلم

١- انظر: خلق الإنسان في القرآن الكريم لزغلول النجار ص ٤٦٧، ٤٦٨.

المبحث الرابع

طور المضغة

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول:

طور المضغة في القرآن الكريم.

المطلب الثاني:

طور المضغة في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة.

المطلب الثالث:

ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها.

المطلب الأول: طور المضغة في القرآن الكريم

الآيات الواردة

قال الله ﷻ: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّفَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾^(١).

وقال ﷻ: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَدَشْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾^(٢).

أقوال المفسرين:

المضغة مفرد مُضَغ، وتأتي في اللغة بعدة معان، وهي:

القطعة من اللحم قدر ما يمضغ.

الشيء الصغير في المادة، من مُضَغُ الأمور أي: صغارها.

ما لاكته الأسنان، من يَمْضُغُهُ مَضْغًا أي: لاكته بسننه طعاماً أو غيره^(٣).

والمضغة عند كثير من المفسرين في قدر وحجم ما يمكن مضغه، إذ قالوا: هي

القطعة من اللحم، وسميت مضغة؛ لأنها قدر ما يمضغ^(٤).

١- سورة الحج: الآية ٥.

٢- سورة المؤمنون: الآية ١٤.

٣- انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٢٦٥/٥، والنهاية في غريب الحديث والأثر لابن الجزي ٧٣٠/٤، ولسان العرب لابن منظور ٤٥٠/٨، وتاج العروس للزبيدي ٥٦٨/٢٢، ٥٧٠.

٤- الهداية إلى بلوغ النهاية ٤٨٤٤/٧، والنكت والعيون للماوردي ٤٨/٤، والكشاف للزمخشري ١٤٥/٣، والمحزر الوجيز لابن عطية ١٣٠/٤، ومفاتيح الغيب للرازي ٨/٢٣، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٦/١٢، ومدارك التنزيل للنسفي ٨١/٣، ولباب التأويل للخان ٤/٥، واللباب لابن عادل ١٨/١٤، وتفسير الجلالين ص ٤٣٣، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود ٩٣/٦، والبحر المديد لابن عجيبة ٥٨٨/٤، وفتح القدير للشوكاني ٥١٥/٢، وتيسير الكريم الرحمن للسعدي ص ٥٤٨، والتحرير والتنوير لابن عاشور ٢٠/١٨، وأضواء البيان ٢٦٦/٤، وتفسير الشعراوي ٩٧٠٦/١٦، وأيسر التفاسير للجزائري ٥٠٧/٣.

يقول أبو السعود: «قطعة لحم، بقدر ما يمضغ، لا استبانة ولا تمايز فيها»^(١).
 قوله ﷺ: ﴿فَخَلَقْنَا الْمَلَقَةَ مُضْغَةً﴾، سمي التحويل خلقاً؛ لأنه تعالى يُفني بعض الصفات، ويخلق صفات غيرها، فسمي خلق الصفات خلقاً لها، كأنه ﷺ يخلق فيها أجزاء زائدة^(٢).

وقد اختلف المفسرون في قوله ﷺ: ﴿مُخَلَّقَةٌ وَغَيْرُ مُخَلَّقَةٍ﴾:

القول الأول: هو صفة للنطفة، ومعنى ذلك: فإننا خلقناكم من تراب، ثم من نطفة مخلّقة وغير مخلّقة، فأما المخلّقة فما كان خلقاً سوياً، وغير المخلّقة ما دفعته الأرحام من النطف، وألقته قبل أن يكون خلقاً، واستدلوا لذلك بقول ابن مسعود: «إذا وقعت النطفة في الرحم، بعث الله ملكاً، فقال: يا ربّ، مخلّقة، أو غير مخلّقة؟ فإن قال: غير مخلّقة، مجّتها الأرحام دماً، وإن قال: مخلّقة، قال: يا ربّ، فما صفة هذه النطفة، أذكر أم أنثى؟ ما رزقها؟ ما أجلها؟ أشقيّ أو سعيد؟ قال: فيقال له: انطلق إلى أم الكتاب فاستنسخ منه صفة هذه النطفة! قال: فينطلق الملك، فينسخها، فلا تزال معه حتى يأتي على آخر صفتها»^(٣)(٤).

- ١- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ١٢٦/٦، ومثله قاله إسماعيل حقي تفسير روح البيان ٥٠/٦، وابن عجيبة في البحر المديد ٩/٥، والآلوسي في روح المعاني ١٤/١٨
- ٢- انظر: مفاتيح الغيب ٧٤/٢٣، واللباب لابن عادل ١٧٩/١٤، والتفسير المنير للزحيلي ١٩/١٨.
- ٣- أخرجه ابن جرير الطبري في جامع البيان ٥٦٧/١٨، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير ٢٥٣/٣، قال ابن حجر: «إسناده صحيح، وهو موقوف لفظاً مرفوعاً حكماً». فتح الباري ٤٩٧/١، وقال حمكت بشير: «ورجاله ثقات رجال الصحيح، إلا أن أبا معاوية قد يهيم في غير حديث الأعمش. والحديث له حكم الرفع؛ لأنه لا مدخل للرأي فيه» الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور ٤٠٣/٣.
- ٤- قال الآلوسي: «والمراد أنهم خلقوا من جنس هذه النطفة الموصوفة بالتامة والساقطة، لا أنهم خلقوا من نطفة تامة ومن نطفة ساقطة؛ إذ لا يتصور الخلق من النطفة الساقطة، وهو ظاهر». روح المعاني ١١٦/١٧.

القول الثاني: هو السقط مخلوق وغير مخلوق^(١).

القول الثالث: **﴿مُخَلَّقَةٌ﴾**: الولد الذي تأتي به المرأة لوقتته، **﴿وَعَبْرٌ مُخَلَّقَةٌ﴾**: السقط^(٢)، أو **﴿مُخَلَّقَةٌ﴾**: ما ولد حياً، **﴿وَعَبْرٌ مُخَلَّقَةٌ﴾**: ما كان من سقط^(٣)، أو **﴿مُخَلَّقَةٌ﴾**: ما أكمل خلقه بنفخ الروح فيه وهو الذي يولد حياً لتمام، **﴿وَعَبْرٌ مُخَلَّقَةٌ﴾**: ما سقط غير حي لم يكمل خلقه بنفخ الروح فيه^(٤)، ومنه قول الشاعر:
أفي غير المخالقة البكاء فأين الحزم ويحك والحياء^(٥)
قال القرطبي: «وقد قيل: إن قوله: **﴿مُخَلَّقَةٌ وَعَبْرٌ مُخَلَّقَةٌ﴾** يرجع إلى الولد بعينه لا إلى السقط، والمعنى: منهم من يتم الرب سبحانه مضغته فيخلق له الأعضاء أجمع، ومنهم من يكون خديجاً ناقصاً غير تمام»^(٦).

١- قاله مجاهد. انظر: تفسير مجاهد ٤١٩/٢، وجامع البيان للطبري ٥٦٨/١٨، وتفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ٢٤٧٥/٨، مكتبة نزار، والهداية إلى بلوغ النهاية لمكي ابن أبي طالب ٤٨٤٥/٧.
قال ابن كثير: «ثم تستحيل فتصير مضغعة: قطعة من لحم لا شكل فيها ولا تخطيط، ثم يشرع في التشكيل والتخطيط، فيصور منها رأس ويدان وصدر ووطن وفخذان ورجلان وسائر الأعضاء، فتارة تسقطها المرأة قبل التشكيل والتخطيط، وتارة تلقاها وقد صارت ذات شكل وتخطيط، ولهذا قال تعالى: **﴿ثُمَّ مِنْ مَّضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَعَبْرٍ مُخَلَّقَةٍ﴾** أي: كما تشاهدونها، **﴿لِنَسِئِنَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِنَّكَ أَجَلٌ مُسَمًّى﴾** أي: وتارة تستقر في الرحم لا تلقاها المرأة ولا تسقطها، كما قال مجاهد في قوله تعالى: **﴿مُخَلَّقَةٌ وَعَبْرٌ مُخَلَّقَةٌ﴾** قال: هو السقط مخلوق وغير مخلوق». تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢٥٣/٣.
٢- انظر: معالم التنزيل للبخاري ٣٢٤/٣، ولباب التأويل للخان ٤/٥، واللباب في علوم الكتاب ١٩/١٤.
٣- انظر: تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ٢٤٧٥/٨، والدر المنثور للسيوطي ١٠/٦، وفتح القدير للشوكاني ٥١٨/٣.
٤- انظر: زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ٤٠٦/٥، ٤٠٧.
٥- انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٩/١٢.
٦- انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٩/١٢.

القول الرابع: صفة للمضغة، واختلف القائلون به في معنى ﴿مُخَلَّقَةٌ وَغَيْرُ مُخَلَّقَةٍ﴾:

أ- الفريق الأول: الـ ﴿مُخَلَّقَةٌ﴾: المصورة خلقاً تاماً، ﴿وَغَيْرُ مُخَلَّقَةٍ﴾: السَّقَطُ قبل تمام خلقه^(١)، وهذا ما رجحه الطبري بقوله: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: الـ ﴿مُخَلَّقَةٌ﴾: المصورة خلقاً تاماً، ﴿وَغَيْرُ مُخَلَّقَةٍ﴾: السَّقَطُ قبل تمام خلقه؛ لأن الـ ﴿مُخَلَّقَةٌ وَغَيْرُ مُخَلَّقَةٍ﴾ من نعت المضغة، والنطفة بعد مصيرها مضغة لم يبق لها حتى تصير خلقاً سواً إلا التصوير، وذلك هو المراد بقوله: مخلقة خلقاً سواً، وغير مخلقة بأن تلقيه الأم مضغة بلا تصوير، ولا ينفخ فيها الروح^(٢).

ب- الفريق الثاني: الـ ﴿مُخَلَّقَةٌ﴾: المساواة للمساء من النقصان والعيب، يقال: خلق السواك والعود، إذا سواه وملسه، من قولهم: صخرة خلقاء إذا كانت ملساء^(٣)، كأن الله تعالى يخلق المضع متفاوتة: منها ما هو كامل الخلقة أملس من العيوب، ومنها ما هو على عكس ذلك، فيتبع ذلك التفاوت تفاوت الناس في خلقهم وصورهم وطولهم وقصرهم، وتمامهم ونقصانهم^(٤).

ج- الفريق الثالث: الـ ﴿مُخَلَّقَةٌ﴾: مستبينة الخلق ظاهرة التصوير، ﴿وَغَيْرُ

﴿مُخَلَّقَةٍ﴾: أي لم يستبن خلقها وصورتها بعد، والمراد تفصيل حال المضغة وكونها أولاً قطعة لم يظهر فيها شيء من الأعضاء، ثم ظهرت بعد ذلك شيئاً فشيئاً^(٥).

١- انظر: جامع البيان للطبري ٥٦٧/١٨، وبحر العلوم للسمرقندي ٤٤٩/٢، والوجيز في تفسير الكتاب العزيز للواحي ص ٧٢٨، والمحزر الوجيز لابن عطية ١٣١/٤، والجواهر الحسان للثعالبي ٧١/٣.

٢- جامع البيان في تأويل القرآن للطبري ٥٦٨/١٨، ٥٦٩.

٣- وحجر أخلق: لين أملس مُصنمت لا يؤثر فيه شيء. لسان العرب ٨٥/١٠، وتاج العروس ٢٥٣/٢.

٤- انظر: الكشاف للزمخشري ١٤٥/٣، ومدارك التنزيل للنسفي ٨١/٣، وإعراب القرآن وبيانه ٣٩١/٦.

٥- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٩/١٢، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود ٩٣/٦، وفتح القدير للشوكاني ٥١٥/٣، وروح المعاني للألوسي ١١٦/١٧، وصفوة التفسير للصابوني ٢٥٧/٢.

قال ابن عاشور: «**مُخَلَّقَةٌ وَغَيْرُ مُخَلَّقَةٍ**» صفة **مُضْغَةٌ**، وذلك تطور من تطورات المضغة، إشارة إلى أطوار تشكل تلك المضغة، فإنها في أول أمرها تكون غير مخلقة أي: غير ظاهر فيها شكل الخلقة، ثم تكون مخلقة والمراد تشكيل الوجه ثم الأطراف»^(١).

مناقشة الأقوال:

نوقش القول الأول بأنه لا يخفى بعده؛ لأن الـ **مُخَلَّقَةٌ وَغَيْرُ مُخَلَّقَةٍ** من صفة المضغة، كما هو ظاهر الآية، وليست من صفة النطفة؛ لأن الله تعالى لم يذكر مثل هذين الوصفين عند ذكر النطفة والعلقة؛ إذ ليس لهما مثل هذين الوصفين بخلاف المضغة، وإذ قد جعلت المضغة من مبادئ الخلق تعين أن كلا الوصفين لازمان للمضغة، وعليه لا يستقيم كذلك تفسير من فسر غير المخلقة بأنها التي لم يكمل خلقها فسقطت^(٢)، أو السقط مخلوق وغير مخلوق؛ إذ لا يتصور الخلق من النطفة الساقطة، وكذلك المضغة الساقطة.

فإن قيل: في نفس الآية الكريمة قرينة تدل على أن المراد بغير المخلقة: السقط؛ لأن قوله ﷻ: **«وَنَقَرْنَا فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِنَّكَ أَجَلٌ مُّسَمًّى»**^(٣)، يفهم منه أن هناك قسماً آخر لا يقره الله في الأرحام، إلى ذلك الأجل المسمى، وهو السقط. فالجواب: أنه لا يتعين فهم السقط من الآية؛ لأن الله يقر في الأرحام ما يشاء أن يقره إلى أجل مسمى، فقد يقره ستة أشهر، وقد يقره تسعة، وقد يقره أكثر من ذلك كيف شاء، أما السقط فقد دلت الآية على أنه غير مراد، بدليل قوله: **«فَإِنَّا**

١- التحرير والتنوير ١٧/١٤٤، ١٤٥.

٢- التحرير والتنوير لابن عاشور ١٧/١٤٥.

٣- سورة الحج: الآية ٥.

خَلَقْتَكُمْ؛ لأن السقط الذي تلقىه أمه ميتاً -ولو بعد التشكيل والتخطيط- لم يخلق الله منه إنساناً واحداً من المخاطبين بقوله: **﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾** (١) الآية (٢)، قال الرازي: «فيجب أن تحمل **﴿مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾** على من سيصير إنساناً، وذلك يبعد في السقط؛ لأنه قد يكون سقطاً ولم يتكامل فيه الخلقة» (٣).

وعليه فالراجح أن قوله **﴿مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾** صفة لمضغة؛ لظاهر الآية، ولمطابقتها لما كشفته العلم الحديث، وسنبين ذلك في المطلب اللاحق إن شاء الله. وقوله **﴿مُخَلَّقَةٍ﴾**، اللفظة بناء مبالغة من خلق، وذلك أن الإنسان لما كان فيه أعضاء متباينة، وكل واحد منها مختص بخلق، حسن في جملة تضعيف الفعل؛ لأن فيه خلقاً كثيراً (٤)، أو لأن التخلق صيغة تدل على تكرير الفعل، أي خلقاً بعد خلق، وشكلاً بعد شكل (٥)، وهذا وصف المضغة لا النطفة.

وتقديم ذكر الـ **﴿مُخَلَّقَةٍ﴾** على ذكر **﴿وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾** خلاف الترتيب في الوجود؛ لأن المخلقة أدخل في الاستدلال، وذكر بعده غير المخلقة؛ لأنه إكمال للدليل وتبنيه على أن تخليقها نشأ عن عدم، فكلا الحالين دليل على القدرة على الإنشاء،

١- سورة الحج: الآية ٥.

٢- انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي ٤/٢٦٧، ٢٦٨.

٣- مفاتيح الغيب للرازي ٢٣/٨.

٤- انظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية ٤/١٣١، والجواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي ٣/٧١، وروح المعاني للألوسي ١٧/١١٦.

٥- التحرير والتنوير لابن عاشور ١٧/١٤٥.

وهو المقصود من الكلام، ولذلك عقب بقوله تعالى: ﴿لِنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ أي: لنظهر لكم إذا تأملتم، دليلاً واضحاً على إمكان الإحياء بعد الموت^(١).
وقال الألوسي: «وكان مقتضى الترتيب المبني على التدرج من المبادئ البعيدة إلى القريبة أن يقدم غير المخلفة وإنما أخرت لكونها عدم ملكة»^(٢).

١- التحرير والتنوير لابن عاشور ١٧/١٤٥.

٢- روح المعاني ١٧/١١٦.

المطلب الثاني: طور المضغة في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة.

في نهاية مرحلة العلقة يتحول الجنين إلى مرحلة المضغة، ويكون هذا التحول سريعاً جداً، ويبدأ الجنين خلال آخر يوم أو يومين من مرحلة العلقة اتخاذ بعض خصائص المضغة، ويصف القرآن الكريم هذا التحول السريع للجنين من طور العلقة إلى طور المضغة باستخدام حرف العطف (الفاء) الذي يفيد التتابع السريع للأحداث^(١)، ويتميز طور المضغة باكتمال ظهور الكتل البدنية في أعلى اللوح الجنيني، ثم يتوالى ظهور هذه الكتل بالتدرج إلى مؤخرة الجنين، ويتكون الجنين من عدة فلقات تظهر بينها انبعاجات، وبوجودها يصبح شكل الجنين شبيهاً بالعلقة الممضوغة من حيث المظهر الخارجي، ولكن لا شكل فيه ولا تخطيط ولا تمايز للملامح الإنسانية التي تدل على أنه جنين إنساني، ولا استبانة فيه لأي عضو، ويكتسب الجنين تدريجياً شكل المضغة من حيث الحجم (حيث يكون طول الجنين (اسم) وهو أقل ما يمضغ، ولم يتوصل الإنسان إلى تصوير الجنين في طور المضغة إلا في القرن العشرين، وهو يبدو تحت المجهر كقطعة لحم وغضروف، خاصة في القسم الذي سيكون لاحقاً العمود الفقري، وبقية العظام، ومع استمرار نمو الجنين تبدو الفلقات في تغير مستمر مثلما تتغير طبقات الأسنان في المادة الممضوغة، ثم يأتي النصف الثاني من هذا الطور لتظهر الملامح الإنسانية، كبراعم اليدين والرجلين وغير ذلك^(٢).

١- انظر: علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة للزنداني وآخرين ص ٧٦، وعجائب النظر والتأمل لأسامة

الناعسة ص ١٨٥، وإعجاز آيات القرآن في خلق الإنسان لمحمد فياض ص ٩١.

٢- انظر: علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة ص ١٤٨، ومن علم الطب القرآني ص ٥٣، وخلق الإنسان في

القرآن الكريم ص ٣٢٠، ٣٢٢، ودلائل الإعجاز للكاتب ص ٤١٣، ومباحث في إعجاز القرآن ص ٢٣٥،

وأطوار الجنين ونفخ الروح للساوي، مجلة الإعجاز، العدد الثامن، شوال ١٤٢١هـ - يناير ٢٠٠١م، ص ٨.

فأهم ما يميز مرحلة المضغة ما يلي:

أولاً: اكتمال ظهور الكتل البدنية:

وهذه الكتل البدنية ليست إلا تكثفاً لطبقة الميزودرم المتوسطة بجانب محور الجنين، إذ تنمو طبقة تسمى الكتلة بجانب المحور، تنمو هذه الطبقة بسرعة على جانبي محور الجنين، وتلامس الميزاب العصبي، وتبدأ هذه الكتل في الظهور من جهة الرأس بعد الصفيحة سالفة القلب، وتظهر كتلة على كل جانب، ثم يتوالى ظهورها تباعاً من الرأس إلى مؤخرة الجنين، ويكون أول ظهورها في اليوم العشرين أو الواحد والعشرين (منذ التلقيح)^(١)، وتظهر بهذه الكتلة جملة شقوق تقسمها إلى قطاعات تسمى الكتل البدنية، وتتوالى الكتل البدنية في الظهر على كل جانب من محور الجنين حتى ليبلغ عددها عند اكتمالها ٤٢ إلى ٤٥ كتلة على كل جانب، من القمة إلى المؤخرة، ولا يكاد ظهورها يكتمل حتى تبدأ الكتل التي في القمة تتمايز بحيث لا تكون جميع الكتل في مستوى واحد^(٢).

وتنقسم الكتل البدنية التي تعطي المضغة صفتها وشكلها وتميزها في الأسبوع الرابع إلى قسمين ينموان في الأسبوعين الخامس والسادس إلى المراحل التالية:

أ- قسم أمامي يكون النسيج الليفي والغضروفي ثم العظمي، وتنمو خلايا هذه الكتل في هذا القسم من كل جانب لتلتقي أمام القناة العصبية وبذلك تكون الفقرات -العمود الفقري-، وتمتد من جهة مؤخرة الرأس حيث تلتحم أربع كتل بدنية -الكتل الأربع الأولى العليا- مكونة كلا من قاع الجمجمة ومؤخرة الرأس، تليها ثماني فقرات عنقية، وتليها اثنتا عشرة فقرة صدرية، تليها خمس فقرات قطنية، تليها

١- أي أن أول ظهور لها يكون في نهاية مرحلة العلقة، إذ إن الجنين يتحول إلى مرحلة المضغة في اليومين

٢٥-٢٦. انظر: علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة ص ٧٦، وخلق الإنسان في القرآن للنجار ص ٣٢٢.

٢- انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن للبار ص ٢٤٧.

خمس فقرات عجزية، تليها ثمان إلى عشر فقرات عصصية تلتحم في عظم العصص الذي يندثر في عجب الذنب^(١).

ب- قسم خلفي ظهري، على هيئة كتلة من الخلايا تظهر بعد تكون الفقرات الأولية، ثم تتمايز إلى طبقتين: خارجية وتكون الأدمة وما تحت الجلد، وداخلية وتكون مختلف عضلات الهيكل، وخاصة تلك المحيطة بالفقرات والأضلاع^(٢). وهكذا نرى الأسبوع الرابع (٢١-٣٠) مخصصا لظهور الكتل البدنية، والأسبوع الخامس والسادس لتحول الكتل البدنية إلى قطاع عظمي وعضلي يميز المضغة^(٣).

ثانياً: اكتمال ظهور الأقواس البلعومية

ويظهر في هذه الفترة أيضا خمسة ميازيب أو شقوق في طبقة الاكتودرم من جهة الرأس، ويقابل هذه (الشقوق والميازيب) نتوءات مماثلة حتى يلي كل شق نتوء، مكوناً بذلك خمسة أقواس تعرف لدى جنين الإنسان بالأقواس البلعومية، ومن القوس البلعومي الأول يخلق الله الفك العلوي والسفلي، وبذلك يبدأ تكوين الوجه، ويحيط هذان الفك بفتحة الفم البدائية، ويسمى القوس البلعومي الثاني بالقوس اللامي، أما بقية الأقواس فتعرف بأرقامها (الثالث، الرابع، الخامس)^(٤).

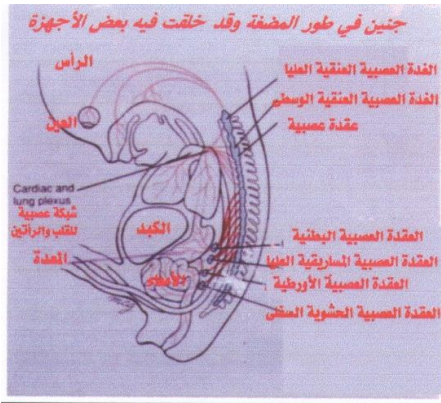
١- انظر: الأطلس العلمي (فيزيولوجيا جسم الإنسان) ص ٧١.

٢- انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن للبار ص ٢٥٥، وخلق الإنسان في القرآن للنجار ص ٣٢٤، ٣٢٥.

٣- خلق الإنسان بين الطب والقرآن للبار ص ٢٥٦.

٤- انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن للبار ص ٢٤٧، ٢٤٨، ٣٦٩، وخلق الإنسان في القرآن الكريم للنجار ص، ومراحل خلق الإنسان في آيات القرآن الكريم لمنى مرفت ص ١٨١، ١٨٠.

* وتتخلق أجهزة الجنين على هيئة براعم في طور المضغة، ويتم نموها في الأطوار التالية، فينمو الجهاز العصبي للجنين من ميزاب -شق- عصبي إلى قناة عصبية تنمو في منطقة الرأس لتكون المخ بنتواته المختلفة -المخ القدي والمخ المتوسط والمخ المؤخري، كما تنمو بسرعة انحناءات الرأس، وتظهر فتحة الفم البدائية قريبة من صفيحة القلب، ثم تظهر حويصلة العين كامتداد من المخ



المقدي، ثم حويصلة السمع، كما يظهر لوح قرص الشم، ويظهر في الفترة ذاتها الحبل السري^(١)، وفي هذه الفترة تكون الأوعية الدموية قد ظهرت بوضوح في الجنين وتتحول إلى أنبوب ملتوٍ للقلب على شكل الحرف (S)، ثم تظهر غرف القلب -الأذينان والبطينان- متصلة

ببعضها، وتبدأ الدورة الدموية بالاكتمال والاتصال بالدورة المشيمية في رحم الأم، وتبدأ القناة الهضمية في التكون في هذا الطور، ويظهر برعمي البنكرياس والكبد، وحويصلتا السمع والإبصار، وفي هذه الفترة أيضاً تظهر بداية الجهاز التنفسي كميزاب من قاع البلعوم، ثم تظهر القصبة الهوائية وبرعما الرئة، كما تظهر أنابيب أولية للكلية تتشكل منها الكلى الحقيقية وبدايات الجهاز البولي فيما بعد^(٢).

* ويعتبر مصطلح (مضغة) أكثر ملاءمة للمعنى ولهذا الطور من تلك التسميات التي يطلقها علماء الأجنة على هذه المرحلة، والتي ما تزال سائدة حتى وقتنا الحاضر، إذ تعرف هذه المرحلة بـ(مرحلة الأزواج الفلقية)، فهذه التسمية لا

١- وهو الذي كان في المرحلة السابقة (مرحلة العلقة) يعرف بالمعلق.

٢- انظر: خلق الإنسان في القرآن الكريم للنجار ص ٣٢٤، وخلق الإنسان بين الطب والقرآن للبار ص ٢٥٣، ٢٥٤، وعلم الأجنة في ضوء القرآن والسنة للزندان وآخرين ص ٧٨.

تشير إلا إلى تلك الفتحات التي يتكون منها الجهاز العصبي والعظام والجهاز الهضمي والعضلات، في حين تتجاهل هذه التسمية أزواجاً أخرى من الفتحات تعرف عند علماء الأجنة بـ(قوس الأزواج الخمسة)، والتي تظهر كقوس يتكون من خمسة أزواج تظهر في الأسبوع الرابع، ويتكون منها: الوجه، والأذن، والرقبة، وهذه الفتحات لا يشار إليها في التسمية السائدة الآن، رغم أنها تمثل علامة هامة في هذه المرحلة من مراحل تطور الجنين، في حين تأتي كلمة مضغة مناسبة جداً لتسمية هذا الطور^(١).

* ويمكن إدراك تطابق مصطلح مضغة لوصف العمليات الجارية في هذا الطور في النقاط التالية:

١- ظهور الفلقات التي تعطي مظهراً يشبه مظهر طبع الأسنان في المادة الممضوغة، وتبدو دائمة التغير، كما تتغير آثار طبع الأسنان في شكل مادة تمضغ حين لوكها؛ وذلك نتيجة للتغير السريع في الجنين، ولكن آثار الطبع أو المضغ تستمر ملازمة، فالجنين يتغير شكله الكلي، ولكن التركيبات المتكونة من الفلقات تبقى، وكما أن المادة التي تلوكها الأسنان يحدث بها تَعَضُّن^(٢)، وانتفاخات وتثنيات، فإن ذلك ما يحدث للجنين تماماً.

٢- تغير أوضاع الجنين بسبب تحولات في مركز ثقله مع تكون أنسجة جديدة.



٣- كما تستدير المادة الممضوغة قبل أن تبلع، فإن ظهر الجنين ينحني ويصبح مقوساً شبه مستدير مثل حرف (C) باللغة الإنجليزية.

١- انظر: خلق الإنسان بين العلم والقرآن لحمد الرقعي ص ٧٠، ٧١.

٢- تغضن الشيء: تثنى وتكسر، المعجم الوسيط ٦٥٥/٢.

٤- يكون طول الجنين حوالي (اسم) في نهاية هذه المرحلة، وهذا مطابق لوجه من معاني المضغة في اللغة، وهو الشيء الصغير من المادة؛ لأن مُضَغُ الأمور: صِغارُها، وهذا المعنى ينطبق على حجم الجنين الصغير؛ لأن جميع أجهزة الإنسان تتخلق في مرحلة المضغة، ولكن في صورة برعم^(١).

٥- ذكر المفسرون من معاني المضغة: أن تكون في حجم ما يمكن مضغه^(٢)، والجنين في نهاية هذا الطور يكون طوله (اسم)، وهذا تقريباً أصغر حجم لمادة يمكن أن تلوكها الأسنان، وأما طور العلقة السابق فقد كان الحجم صغيراً لا يتيسر مضغه، إذ يبلغ ٣,٥ مم طولاً^(٣).

* ولا تتمايز الفلقات -الكتل البدنية- في البداية، ولكنها سرعان ما تتمايز إلى خلايا تتطور إلى أعضاء مختلفة، وبعض هذه الأعضاء والأجهزة تتكون في مرحلة المضغة، والبعض الآخر في مراحل لاحقة، وإلى هذا المعنى تشير الآية القرآنية الكريمة: ﴿ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾^(٤)، ف﴿مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ صفة ﴿مُضْغَةٍ﴾، فإنها في أول أمرها تكون غير مخلقة ثم تكون مخلقة^(٥)، والجنين في النصف الثاني من هذا الطور تقريباً تظهر عليه براعم اليدين والرجلين

١- هو أصغر حجم لإنسان تخلقت جميع أجهزته فهو إذن مضغة؛ لأن مضغ الأمور صغارها وهذا إنسان بجميع أجهزته وطوله (اسم)، انظر: علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة ص ٨٢، في الهامش.

٢- وفي اللغة: القطعة من اللحم قدر ما يمضغ. انظر: لسان العرب ٨/٤٥٠.

٣- انظر: علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة ص ٨٠-٨٢، وخلق الإنسان في القرآن الكريم للنجار ص ٣٢٠، ٣٢٢، ٣٢٣، ودلائل الإعجاز للكاتب ص ٤١٣

٤- سورة الحج: الآية ٥.

٥- انظر: علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة للزنداني وآخرين ص ٨٢، والموسوعة الفقهية للأجنة والاستنساخ البشري لموقعة ١/٣٢٠، ومع الطب في القرآن الكريم لعبد الحميد دياب وأحمد قرقوز ص ٨٢، ودليل الأنفس ٣٣٥.

والرأس والصدر والبطن، كما تتكون معظم براعم أعضائه الداخلية، ومع احتفاظه بالشكل الخارجي المشابه لمادة ممزوجة يصدق عليه أنه مخلوق وغير مخلوق^(١)(٢)، قال ابن كثير: «ثم تستحيل فتصير مضغة: قطعة من لحم لا شكل

١- انظر: أطوار الجنين ونفخ الروح للساوي، بحث في مجلة الإعجاز، العدد ٨، شوال ١٤٢١هـ- يناير ٢٠٠١م، ص ٨، وأثر بحوث الإعجاز العلمي في بعض القضايا الفقهية للمصلح والساوي، منشور ضمن بحوث المؤتمر الثامن للإعجاز العلمي في القرآن والسنة بالكويت، العلوم الطبية، الجزء الأول، ص ١٨.

٢- وهناك تفسيرات علمية أخرى لقوله ﷻ: ﴿مُخَلَّقًا وَغَيْرَ مُخَلَّقًا﴾، من ذلك:

أ- المضغة في بدايتها تكون مخلقة بالقوة والكمون، فالتصميم الذي سيسير عليه التخلق كامن في المضغة، لكنه لم يظهر بعد، وهذا يكون في أولى مراحل المضغة، فإذا نظرت إلى عدم ظهور التخلق الفعلي فهي غير مخلقة، وإذا نظرت إلى كمون التخلق فيها فهي مخلقة. [دليل الأنفس لمحمد عز الدين توفيق ص ٣٥٥].
ب- أو أن تخلقه قد بدأ ولكن لم يكتمل بعد، ذلك أن بعض أعضاء الجنين كالعينين والقلب والأذنين والجهاز العصبي وغيرها يبدأ تكونها في طور المضغة، إلا أنه لا يتم إلا لاحقاً في طور التسوية، أي أن تخلقه قد بدأ لكنه لم يكتمل بعد، فهو مخلوق وغير مخلوق. [من علم الطب القرآني لعبدان الشريف ص ٥٥].

ج- الـ ﴿مُخَلَّقًا﴾: الجنين بعد ذاته، أي: الورقة الجنينية التي ينكون منها الجنين الفعلي، ﴿وَغَيْرَ مُخَلَّقًا﴾: المشيمة والحبل السري والأغشية التي تحيط بالجنين وتغذيه وتسقط بعد الولادة فلا يتخلق منها أي شيء من الجنين [دليل الأنفس ص ٣٥٥، ومن علم الطب القرآني ص ٥٥].

د- الـ ﴿مُخَلَّقًا﴾: الخلايا التي تم تخلقها في المرحلة الجنينية، ﴿وَغَيْرَ مُخَلَّقًا﴾: الخلايا التي تبقى في المضغة كخلايا خام وتساهم في إصلاح الجسم وترميمه عندما تصبح بقية الخلايا متخصصة جداً وتفقد قدرتها على الانقسام، ذلك أنه في طور المضغة تتمايز الخلايا فتظهر خلايا متخصصة كالخلايا القلبية والعصبية والدموية وغيرها، لتشكل الخلايا المخلقة التي ستكون مختلف أعضاء الجنين، وتبقى خلايا غير متخصصة هي الخلايا غير المخلقة أو ما يدعى علمياً بخلايا الاحتياط، وعملها أن تتحول إلى خلايا متخصصة تحل محل الخلايا المتخصصة عندما تموت هذه [خلق الإنسان للبار ص ٢٠٦، ودليل الأنفس ص ٣٥٥، ٣٥٦، ومن علم الطب القرآني ص ٥٥].

هـ- أن بعض أجزاء المضغة يظهر فيها التخلق قبل الأجزاء الأخرى، فتكون المضغة في أولى مراحلها مخلقة في أجزاء وغير مخلقة في أجزاء، ثم يعم التخليق بعد ذلك كل الأجزاء، فلو نظرنا إلى الجنين خلال هذه المرحلة من تكونه -المضغة- لوجدنا أن الطبقات الثلاث -الداخلية والخارجية والوسطى- تبدأ في التشكل إلى الأعضاء والأجهزة المختلفة، وهذا لا يحدث في وقت واحد بل إنه يستغرق بعض الوقت، ولهذا سيكون =

فيها ولا تخطيط، ثم يشرع في التشكيل والتخطيط، فيصور منها رأس ويدان وصدر وبطن وفخذان ورجلان وسائر الأعضاء»^(١)، وقال أبو السعود والآلوسي: «مُخَلَّقَةٌ» بالجر صفة مضغة أي: مستبينة الخلق مصورة، «وغير مُخَلَّقَةٌ» أي: لم يستتب خلقها وصورتها بعد، والمراد تفصيل حال المضغة وكونها أولاً قطعة لم يظهر فيها شيء من الأعضاء، ثم ظهرت بعد ذلك شيئاً فشيئاً»^(٢)، وقال ابن عاشور: «وذلك تطور من تطورات المضغة، إشارة إلى أطوار تشكل تلك المضغة، فإنها في أول أمرها تكون غير مخلقة أي: غير ظاهر فيها شكل الخلق، ثم تكون مخلقة والمراد تشكيل الوجه ثم الأطراف»^(٣).

=وفي أي وقت نراقب فيه هذا الجنين - هناك بعض من هذه الطبقات قد تميز إلى الأعضاء المختلفة في حين لا يزال البعض لم يصل إلى هذه المرحلة من التشكيل والتميز بعد أي أن بعضها قد صار مخلقاً والبعض الآخر لم يصل إلى هذه المرحلة بعد، وذلك لأن أوج التميز وتشكيل الأعضاء في الجنين يحصل في هذه المرحلة (الأسبوع الرابع-الأسبوع الثامن)، ولهذا عرفت هذه الفترة بفترة تكون أو تولد الأعضاء. [دليل الأنفس ص ٣٥٥، وخلق الإنسان بين العلم والقرآن للرقعي ص ٧١].

قال محمد عز الدين توفيق بعد نقله لأكثر الوجوه السابقة: «ولا يبدو - إن شاء الله - أي تعارض أو تضاد بين هذه الوجوه؛ فإن كل واحد يصف المضغة في إحدى مراحلها، بدء من البداية الأولى للتخطيط، وانتهاء بظهور الملامح المميزة للجنين، وهذا يعطي للآية الكريمة دلالة عميقة؛ لأنها جمعت في كلمتين مراحل معقدة، يشرحها أهل الاختصاص في صفحات». [دليل الأنفس ص ٣٥٦].

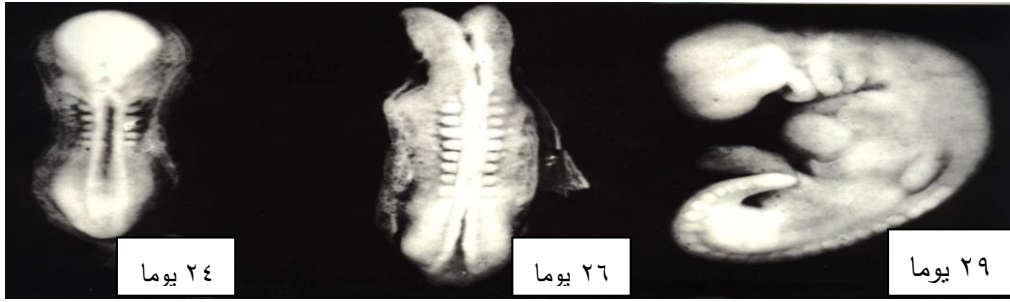
قلت: إن أقرب هذه الوجوه بالإضافة إلى ما ذكرته هو الوجه الأول والوجه الثاني، والله أعلم.

و- أن بعض الأجزاء في أثناء مدة تطور الجنين تبدو غير متناسبة مع ما سيكون عليه الفرد في المستقبل، على حين تظل أجزاء أخرى متناسبة، ذلك هو معنى كلمة (مخلق): يعني مُشَكَّل بنسب [القرآن والتوراة والإنجيل والعلم دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الجديدة لموريس بوكاي ص ٢٣٨].

١- تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢٥٣/٣. مع التنبيه على أن ابن كثير حمل كلامه على السقط.

٢- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود ٩٣/٦، وروح المعاني للآلوسي ١١٦/١٧.

٣- التحرير والتنوير ١٧/١٤٤، ١٤٥.



ومما أستأنس به لذلك أن الله ﷻ قال: ﴿ثُمَّ مِنْ مَضْغَةٍ مُخْلَقَةٍ وَغَيْرِ مُخْلَقَةٍ﴾^(١)، فجاء هنا بحرف العطف ﴿ثُمَّ﴾؛ وذلك لما قدم ذكر المضغة المخلقة والتي بينها وبين مرحلة العلقة المضغة غير المخلقة، أي بين العلقة والمضغة المخلقة فترة زمنية^(٢)، فجاء بحرف العطف ﴿ثُمَّ﴾، الدال على التراخي^(٣)، أما الآية الأخرى - قوله ﷻ: ﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مَضْغَةً﴾^(٤) - فجاء بالمضغة مطلقة، فتعم المخلقة وغيرها، ولما كانت المضغة في أول أمرها غير مخلقة، وطور المضغة مباشر للعلقة جاء بالعطف بحرف (الفاء) الذي يفيد الترتيب والتعقيب؛ لأن التحول من ﴿الْعَلَقَةَ﴾ إلى ﴿مَضْغَةً﴾ - وهي في أول أحوالها غير مخلقة - سريع، والله أعلم. وبهذا يكتمل طور المضغة في بقية الأربعين الأولى، وينتهي هذا الطور بنهاية الأسبوع السادس، والصورة أسفل لجنين في نهاية طور المضغة^(٥).



١- سورة الحج: الآية ٥.

٢- وهي فترة المضغة غير المخلقة.

٣- كذلك الترتيب هنا حاصل، أي بين العلقة والمضغة؛ لأن ﴿مُخْلَقَةٍ وَغَيْرِ مُخْلَقَةٍ﴾ من صفات طور المضغة.

٤- سورة المؤمنون: الآية ١٤.

٥- انظر: خلق الإنسان في القرآن الكريم للنجار ص ٣٢٢.

المطلب الثالث: ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها

من خلال الدراسة التفسيرية والعلمية يتلخص ما يلي:

* تأتي المضغة في اللغة بعدة معان، وهي: القطعة من اللحم قدر ما يمضغ، والشيء الصغير في المادة، ما لا كته الأسنان.

* المضغة عند كثير من المفسرين في قدر وحجم ما يمكن مضغه، واختلفوا في: ﴿مُخَلَّقَةٌ وَغَيْرُ مُخَلَّقَةٍ﴾: فقيل: صفة للنطفة.

وقيل: هو السقط مخلوق وغير مخلوق.

وقيل: الـ ﴿مُخَلَّقَةٌ﴾: الولد الذي تأتي به المرأة لوقته، ﴿وَغَيْرُ مُخَلَّقَةٍ﴾: السقط.

وقيل: صفة للمضغة، ثم اختلف هؤلاء، فقال فريق: الـ ﴿مُخَلَّقَةٌ﴾: المصورة خلقاً تاماً، ﴿وَغَيْرُ مُخَلَّقَةٍ﴾: السقط قبل تمام خلقه، وقال فريق آخر: الـ ﴿مُخَلَّقَةٌ﴾:

المسواة للمساء من النقصان والعيب، وقال فريق ثالث: الـ ﴿مُخَلَّقَةٌ﴾: مستبينة

الخلق ظاهرة التصوير، ﴿وَغَيْرُ مُخَلَّقَةٍ﴾: أي لم يستتب خلقها وصورتها بعد.

والراجح أنها صفة لمضغة؛ لظاهر الآية، ولمطابقته لما كشفت العلم الحديث.

* قوله ﷻ: ﴿مُخَلَّقَةٌ﴾، مبالغة من خلق، لكثرة الأعضاء المختص كل منها بخلق وصورة؛ أو لأن التخلق صيغة تدل على تكرير الفعل، أي خلقاً بعد خلق.

* تقديم الـ ﴿مُخَلَّقَةٌ﴾ على ﴿وَغَيْرُ مُخَلَّقَةٍ﴾؛ لأن المخلقة أدخل في الاستدلال، وغير المخلقة إكمال للدليل وتنبيه على أن تخليقها نشأ عن عدم، فكلا الحالين دليل على القدرة على الإنشاء، وهو المقصود من الكلام.

* في نهاية العلقة يتحول الجنين إلى مضغة، ويكون هذا التحول سريعاً جداً، ويبدأ الجنين خلال آخر يوم أو يومين من العلقة اتخاذ بعض خصائص المضغة، لذا وصف القرآن التحول بحرف العطف (الفاء) الذي يفيد التتابع السريع للأحداث.

* أهم ما يميز مرحلة المضغة اكتمال ظهور الكتل البدنية التي تعطي المضغة صفتها وشكلها وتميزها، وتنقسم في الأسبوع الرابع إلى قسمين ينموان في الأسبوعين الخامس والسادس إلى المراحل التالية.

* ومن أهم ما يميز مرحلة المضغة كذلك اكتمال ظهور الأقواس البلعومية، وهي خمسة أقواس، من الأول يخلق الله الفك العلوي والسفلي، وبذلك يبدأ تكوين الوجه، ويسمى الثاني بالقوس اللامي، أما بقية الأقواس فتعرف بأرقامها.

* تتخلق أجهزة الجنين على هيئة براعم في طور المضغة، وتنمو لاحقاً.

* يعتبر مصطلح (مضغة) أكثر ملاءمة لهذا الطور من تسميات علماء الأجنة، لتطابقه مع وصف العمليات الجارية في هذا الطور، بظهور الفلقات التي تعطي مظهراً يشبه مظهر طبع الأسنان في المادة الممضوغة، ولتغير أوضاع الجنين بسبب تحولات في مركز ثقله مع تكون أنسجة جديدة، ولاستدارة ظهر الجنين مقوساً كحرف (C)، ويكون طول الجنين حوالي (اسم) في نهاية المرحلة، وهو شيء صغير من المادة، وهذا أصغر حجم لمادة يمكن أن تلوكها الأسنان.

* ﴿مُخَلَّقَةٌ وَعَيْرٌ مَخْلُوقَةٌ﴾ صفة ﴿مُضْغَةٌ﴾، فإنها في أول أمرها تكون غير مخلقة ثم تكون مخلقة، والجنين في النصف الثاني من هذا الطور تقريباً تظهر عليه براعم اليدين والرجلين والرأس والصدر والبطن، كما تتكون معظم براعم أعضائه الداخلية، ومع احتفاظه بالشكل الخارجي المشابه لمادة ممضوغة يصدق عليه أنه مخلوق وغير مخلوق، ومثل ذلك قال ابن كثير وأبو السعود والآلوسي وابن عاشور.

* يكتمل طور المضغة في الأربعين الأولى، وينتهي بنهاية الأسبوع السادس.

ومن خلال الدراسة التفسيرية والعلمية يظهر لي الآثار التالية:

* أكدت الحقائق العلمية صحة ما ذكره المفسرون في أن المضغة قطعة من اللحم، وأنها قدر ما يمضغ.

* أكدت الحقائق العلمية صحة ما ذكره المفسرون الذين قالوا إن ﴿مُخَلَّقَةٌ وَغَيْرُ

﴿مُخَلَّقَةٌ﴾ صفة لـ ﴿مُضْغَةٌ﴾.

* ظهور الإعجاز البياني، فالقرآن أعطى لهذه المرحلة اسم يناسب الشكل الخارجي والشكل الداخلي لها، فمصطلح (مضغة) أكثر ملاءمة للمعنى من التسميات التي يطلقها علماء الأجنة على هذه المرحلة، فهو لفظ موجز يستوعب معاني عدة، ليكون بذلك لفظاً معجزاً، ومن الإعجاز البياني هنا استعمال حرف العطف (الفاء) لما جاء ذكر طور المضغة مطلقاً بعد العلة ليدل على التحول السريع من علة إلى مضغة، ولما عطف المضغة المخلفة على العلة استعمل حرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ الذي يدل على التراخي بين العلة والمضغة المخلفة.

* إظهار المعجزة العلمية، فالتعبير القرآني عن هذه المرحلة بـ(المضغة) يعتبر سبقاً علمياً معجزاً في زمن لم تتوفر فيه أي وسيلة من وسائل العلم، بل لم يتوصل الإنسان إلى تصوير الجنين في هذا الطور إلا في القرن العشرين.

* دمج شبهات الطاعنين في القرآن الكريم كلام الله العلي القدير، ومنها الشبه المتعلقة بتخلق الإنسان، ومن ذلك الطعن على القرآن في وصفه للمضغة بـ﴿مُخَلَّقَةٌ وَغَيْرُ مُخَلَّقَةٍ﴾، إذ أثبتت الكشوف العلمية سبق القرآن الكريم للعلوم الحديثة، ودقة ما فيه، حتى قال موريس بوكاي -بعد ذكره لمراحل خلق الإنسان في القرآن وفي ختام حديثه عن المضغة وعن ﴿مُخَلَّقَةٌ وَغَيْرُ مُخَلَّقَةٍ﴾-: «عرف الناس القرآن بما يربو على ألف عام من قبل هذا العصر الذي كانت المعتقدات

الوهمية تسوده. إن مقولات القرآن عن التنازل البشري تعبر في ألفاظ بسيطة عن حقائق أولى أنفقت مئات من السنوات لمعرفةاها»^(١)، بل إن كيث إل مور أشهر أطباء العالم في علم الأجنة وكتبه تدرس في عدة جامعات في العالم اعتنق الإسلام بعد تأمله وإمعانه النظر في آيات القرآن عن خلق الإنسان^(٢)، وهذا مارشال جونسون الذي بدأ رافضاً أول وهلة في إحدى المؤتمرات للأبحاث العلمية عن الحقائق العلمية في القرآن الكريم والسنة - ومنها حقائق التخلق البشري ومرآحل خلق الإنسان وطور المضغة - ولكن بعد نقاش، وتأمل، وإمعان نظر، انتهى به الأمر متبنيّاً لهذه الأبحاث في عديد من المؤتمرات، وعندما سئل عن رأيه في تفسير ظاهرة ما كشفه العلم من تصديق لما جاء في القرآن والسنة، أجاب بقوله: «نعم، إنه الوحي»^(٣)، فهذا هو حال كبار علماء العلوم التجريبية لما وقفوا مع نصوص القرآن وقفة إصغاء وتأمل، وإنصاف وتجرد، أقروا بصدق ما في القرآن الكريم، فسبحان الله القائل: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾^(٤)، وصدق رب العزة إذ يقول: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾^(٥)، أما من لم يكن له قلب

١- القرآن والتوراة والإنجيل والعلوم دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الجديدة لموريس بوكاي ص ٢٣٨.

٢- وموريس بوكاي السابق ذكره اعتنق الإسلام كذلك؛ لأنه كان ضمن الفريق الطبي الذي شرح جثة فرعون، فلما رأى نتيجة التشريح، ونظر إلى حديث القرآن عن قصة فرعون، ورأى التطابق العجيب بين ما توصلت إليه نتيجة تشريح الجثة، مع ما ذكره القرآن الكريم عن قصة غرق فرعون، علم يقيناً أن ما في القرآن وحي من الكريم الرحمن سبحانه وتعالى، يقيم به سبحانه الحجة على عباده، فأعلن إسلامه.

٣- انظر: إنه الحق لعبد المجيد الزنداني ص ٤٩.

٤- سورة سبأ: الآية ٦.

٥- سورة ق: الآية ٣٧.

يعي به، أو له قلب مريض بالشبه ولم يلق السمع، أو ألقاه بأذنه وقلبه عنيد على باطله، فلا تنفعه الذكرى، وهذا هو حال أصحاب الشبه والطاعنين في القرآن الكريم، جاهل أو معاند.

فلا طريق أمام البشرية إلا أن تقر كما يقر هؤلاء العلماء بأن الله قد أوحى إلى محمد ﷺ كتاباً أنزله بعلمه، ووعده البشرية أثناء سيرها أن تكتشف طوال سيرها ما يدلها على أن هذا القرآن من عند الله^(١)، كما قال الله ﷻ: ﴿وَلَتَعْلَمَنَّ بِنَاهُ بَعْدَ حِينٍ﴾^(٢)، وكما قال ﷻ: ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَفَرِّغٌ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾^(٣)، وكما قال ﷻ: ﴿سَتُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾^(٤).

والله ﷻ أعلم

١- انظر: إنه الحق لعبد المجيد الزنداني ص ٤٩.

٢- سورة ص: الآية ٨٨.

٣- سورة الأنعام: الآية ٦٧.

٤- سورة فصلت: الآية ٥٣.

المبحث الخامس

خلق العظام وكساؤه باللحم

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول:

خلق العظام وكساؤه باللحم في القرآن الكريم.

المطلب الثاني:

خلق العظام وكساؤه باللحم في ضوء الاكتشافات العلمية.

المطلب الثالث:

ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها.

المطلب الأول: خلق العظام وكساؤه باللحم في القرآن الكريم

الآيات الواردة

قال الله ﷻ: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾^(١).

أقوال المفسرين

قال كثير من المفسرين: قوله ﷻ: ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ﴾ أي: صيرنا^(٢) وجعلنا قطعة اللحم اللينة ﴿عِظْمًا﴾ صلبة؛ لتكون عموداً للبدن، على أشكال وهيئات مخصوصة، ذات رأس ويدين ورجلين بعظامها وعصبها وعروقها^(٣).

وقال السمرقندي: «﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا﴾ أي: خلقنا في المضغة عظاما»^(٤).

قوله: ﴿عِظْمًا﴾، جمع العظام دون غيرها من الأطوار؛ لاختلافها وتغايرها في الهيئة والصلابة بخلاف غيرها، فعظم الساق وعظم الأصابع وأطراف الأضلاع^(٥)^(٦).

١- سورة المؤمنون: الآية ١٤.

٢- قال الآلوسي عن التصيير: «وحقيقته إزالة الصورة الأولى عن المادة، وإفاضة صورة أخرى عليها» روح المعاني ١٤/١٨.

٣- انظر: جامع البيان للطبري ١٦/١٩، ومفاتيح الغيب للرازي ٧٤/٢٣، ومدارك التنزيل للنسفي ٩٨/٣، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢٩٥/٣، وتفسير الجلالين ص ٤٤٦، وفتح القدير الشوكاني ٥٦٤/٣، ومراح لبيد للتتاري ٨٤/٢، ومحاسن التأويل للقاسمي ٢٨٤/٧، وتفسير المظهر ص ٤٤٥٨، وصفوة التفسير ٢٧٨/٢.

٤- بحر العلوم للسمرقندي ٤٧٥/٢.

٥- أنوار التنزيل ١٤٩/٤، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ١٢٦/٦، وروح المعاني ١٤/١٨.

٦- قال الطبري: «وقد اختلفت القراءة في قراءة ذلك، فقرأته عامة قراء الحجاز والعراق سوى عاصم:

﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا﴾ على الجمع، وكان عاصم وعبد الله يقرآن ذلك: ﴿عِظْمًا﴾ في الحرفين على

التوحيد جميعاً، والقراءة التي نختار في ذلك الجمع؛ لإجماع الحجة من القراء عليه». [جامع البيان ١٦/١٩،

١٧]. قال الزمخشري: «وضع الواحد موضع الجمع؛ لزوال اللبس؛ لأن الإنسان ذو عظام كثيرة». [الكشاف=

وقوله ﷻ: ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا﴾، أي: ألبسنا العظام وجعلنا عليه لحماً، فصار لها كاللباس والكسوة الذي يستره ويشده ويقويه؛ وذلك لأن اللحم يستر العظام ويحيط بها فجعله كالكسوة لها، وجعل الله ﷻ على كل عظم لحماً على المقدار الذي يليق به ويناسبه، وشدها بالأعصاب والعروق^(١).

وقال الشوكاني: «﴿فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا﴾ أي: أنبت الله سبحانه على كل عظم لحماً على المقدار الذي يليق به ويناسبه»^(٢).

يقول أبو السعود: «﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ﴾ أي غالبها ومعظمها، أو كلها، ﴿عِظْمًا﴾: بأن صلبناها وجعلناها عموداً للبدن على هيئات وأوضاع مخصوصة تقتضيها الحكمة، ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ﴾ المعهودة ﴿لَحْمًا﴾ من بقية المضغة، أو مما أنبتنا عليها بقدرتنا مما يصل إليها، أي: كسونا كل عظم من تلك العظام ما يليق به من اللحم على مقدار لائق به وهيئة مناسبة له»^(٣).

= [١٨١/٣]، قال ابن عادل: «والإفراد للجنس» الباب في علوم الكتاب ١٧٩/١٤، وقال ابن كثير: «قال ابن عباس: وهو عظم الصلب، وفي الصحيح... قال رسول الله ﷺ: "كُلُّ جَسَدٍ ابْنِ آدَمَ بَيْنَلَيْ إِلاَّ عَجَبَ الدَّنْبِ، مِنْهُ خُلُقٌ وَمِنْهُ يُرَكَّبُ"». [تفسير القرآن العظيم ٢٩٥/٣]، والحديث أخرجه مسلم، كتاب الفتن، باب ما بين النفختين ٢٢٧٠/٤ برقم: ٢٩٥٥، ويلفظ: "كُلُّ ابْنِ آدَمَ يَأْكُلُهُ التُّرَابُ، إِلاَّ عَجَبَ الدَّنْبِ، مِنْهُ خُلُقٌ، وَفِيهِ يُرَكَّبُ".

١- انظر: جامع البيان للطبري ١٧/١٩، والهداية إلى بلوغ النهاية لمكي ابن أبي طالب ٤٩٥٠/٧، ومعالم التنزيل للبعوي ٣٦١/٣، ومفاتيح الغيب للرازي ٧٤/٢٣، ولباب التأويل للخازن ٣٣/٥، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢٩٥/٣، ومراح لبيد للتتاري ٨٤/٢، ومحاسن التأويل للقاسمي ٢٨٤/٧، وتفسير المظهر ص ٤٤٥٨، وصفوة التفاسير للصابوني ٢٧٨/٢.

٢- فتح القدير للشوكاني ٥٦٥/٣، وانظر: مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي ٩٨/٣.

٣- تفسير أبي السعود ١٢٦/٦.

وقال الألوسي: «**فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ**»: غالبها ومعظمها، أو كلها، **﴿عِظْمًا﴾**: صغاراً وعظاماً حسبما تقتضيه الحكمة، وذلك التصيير بالتصليب لما يراد جعله عظاماً من المضغة، وهذا أيضاً تصيير بحسب الوصف، فيكون من الباب الأول... **﴿فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ﴾** المعهودة **﴿لِحْمًا﴾** أي: جعلناه ساتراً لكل منها كاللباس، وذلك اللحم يحتمل أن يكون من لحم المضغة بأن لم تجعل كلها عظاماً بل بعضها ويبقى البعض فيمد على العظام حتى يسترها، ويحتمل أن يكون لحماً آخر خلقه الله تعالى على العظام»^(١).

ومن كلام أبي السعود والألوسي تظهر لنا مسألتان:

المسألة الأولى: هل تتحول المضغة كلها إلى عظام؟ أو المتحول غالبها ومعظمها؟ فهما احتمالان، وقد جزم إسماعيل حقي بالثاني في قوله: «**فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ**»: أي: غالبها ومعظمها، **﴿عِظْمًا﴾** بأن صلبناها بعد ثلاث وأربعين وجعلناها عموداً للبدن على هياكل وأوضاع مخصوصة تقتضيها الحكمة»^(٢).

المسألة الثانية: اللحم الذي يكسى به العظام هل هو من لحم المضغة؟ أو لحم آخر يخلقه الله ﷻ؟ احتمالان كذلك، وقول إسماعيل حقي: «**﴿فَكَسَوْنَا﴾**... **﴿الْعِظْمَ﴾** المعهودة **﴿لِحْمًا﴾** من بقية المضغة، أي: كسونا كل عظم من تلك العظام ما يليق به من اللحم على مقدار لائق به وهياكل مناسبة له»^(٣)، من الأول.

وقول الشوكاني: «أنبت الله سبحانه...»، من الثاني.

١- روح المعاني للألوسي ١٨/١٤.

٢- تفسير روح البيان ٥٠/٦، ٥١.

٣- تفسير روح البيان ٥٠/٦، ٥١.

يقول الشنقيطي: «وقد بين في آية المؤمنين هذه أنه يخلق المضغة عظاماً، وبين في موضع آخر أنه يركب بعض تلك العظام مع بعض تركيباً قوياً، ويشد بعضها مع بعض على أكمل الوجوه وأبدعها، وذلك في قوله ﷻ: ﴿تَخُنَّ خَلْقَنَّهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾^(١) الآية، والأسر: شد العظام بعضها مع بعض»^(٢).

فالآية الكريمة^(٣) هنا تبين أن طور العظام يأتي بعد طور المضغة، ويشير حرف العطف (الفاء) إلى أن طور العظام ينمو بعد طور المضغة بفترة قصيرة، وسمي الطور الذي يلي المضغة بالعظام؛ لأن الجنين يأخذ شكل العظام بانتشار الهيكل العظمي في هذا الطور، قال ابن عاشور: «وذلك ابتداء تكوين الهيكل الإنساني»^(٤)، وبينما يستمر طور المضغة حتى الأسبوع السادس تقريباً فإن طور العظام يظهر في بداية الأسبوع السابع بتطور الهيكل العظمي الغضروفي، قال إسماعيل حقي: «﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ﴾: أي: غالبها ومعظمها، ﴿عِظَامًا﴾ بأن صلبناها بعد ثلاث وأربعين وجعلناها عموداً للبدن على هيئات وأوضاع مخصوصة تقتضيها الحكمة»^(٥)، وقد روى حذيفة بن أسيد ﷺ أن رسول الله ﷺ

١- سورة الإنسان: الآية ٢٨.

٢- أضواء البيان ٣٢٤/٥، وانظر: مفاتيح الغيب للرازي ٢٢٩/٣٠، والتحرير والتنوير لابن عاشور ٣٧٩/٢٩. وقيل الأسر: الخلق [جامع البيان للطبري ١١٧/٢٤]. أجاب الشنقيطي عنه بقوله: «فقول بعض المفسرين واللغويين: ﴿أَسْرَهُمْ﴾ أي: خلقهم فيه قصور في التفسير؛ لأن الأسر هو الشد القوي بالأسار الذي هو القد، وهو السير المقطوع من جلد البعير ونحوه، الذي لم يدبغ، والله -جل وعلا- يشد بعض العظام ببعض، شداً محكماً متماسكاً كما يشد الشيء بالقد، والشد به قوي جداً».

٣- قول الله ﷻ: ﴿رَبُّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْمَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٤].

٤- التحرير والتنوير ٢١/١٨.

٥- تفسير روح البيان ٥٠/٦، ٥١.

قال: **"إِذَا مَرَّ بِالنُّطْفَةِ ثِنْتَانِ وَأَرْبَعُونَ لَيْلَةً بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهَا مَلَكًا فَصَوَّرَهَا وَخَلَقَ سَمْعَهَا وَبَصَرَهَا وَجِلْدَهَا وَلَحْمَهَا وَعِظَامَهَا"**^(١)، فالجنين يتخذ في بدء طور العظام المظهر الإنساني الذي يميزه عن غيره من الأجنة، كما يصف الحديث الشريف ذلك بكلمة **"صَوَّرَهَا"**، ويصعب قبل اليوم الثاني والأربعين تمييز الجنين البشري عن أجنة كثير من الحيوانات، مع أنه يكون مميزاً بوضوح في مظهره، وتبدأ بعض الخلايا غير المتخصصة للجنين في التخصص، وتتحول إلى أجزاء وظيفية متنوعة، وينجم عن هذه العملية تكون الأعضاء وتهيئتها اللازمة للحياة، ويصبح سطح الجسم أكثر استواءً في طور العظام، ويتخذ في هذا الطور مظهراً أكثر استقامة^(٢)، كما ورد ذلك في قول الله ﷻ: **﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾**^(٣)، يقول ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: «أي جعلك سوياً مستقيماً معتدلاً القائمة منتصبها في أحسن الهيئات والأشكال»^(٤).

كذلك فإن الآية الكريمة^(٥) تدل على أن مرحلة كساء العظام باللحم تأتي عقب تكون العظام، وجاء كذلك بحرف العطف (الفاء)، يقول سيد قطب عند تفسيره لقول الله ﷻ: **﴿فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا﴾**، «وهنا يقف الإنسان مدهوشاً أمام ما كشف عنه القرآن من حقيقة في تكوين الجنين لم تعرف على وجه الدقة إلا أخيراً بعد تقدم علم الأجنة التشريحي، ذلك أن خلايا العظام غير خلايا اللحم، وقد ثبت أن

١- أخرجه مسلم، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته ٤/ ٢٠٣٧، برقم: ٢٦٤٥.

٢- انظر: علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة للزنداني ص ٩٨، ٩٩.

٣- سورة الانفطار: الآية ٧.

٤- تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/ ٥٨٣.

٥- قوله ﷻ: **﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا﴾** [المؤمنون: ١٤].

خلايا العظام هي التي تتكون أولاً في الجنين، ولا تشاهد خلية واحدة من خلايا اللحم إلا بعد ظهور العظام، وتتمام الهيكل العظمي للجنين، وهي الحقيقة التي يسجلها القرآن، فسبحان العليم الخبير!«^(١).

قال الماوردي: «﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا﴾»، وإنما بين الله أن الإنسان تنتقل أحوال خلقه؛ ليعلم نعمته عليه، وحكمته فيه، وإن بعثه بعد الموت حياً أهون من إنشائه ولم يكن شيئاً»^(٢).

قيل: وسمى الله ﷻ التصيير والتحويل من طور إلى طور خلقاً؛ لأنه تعالى يُفني بعض الصفات، ويخلق صفات غيرها، فسمي خلق الصفات خلقاً لها، كأنه ﷻ يخلق فيها أجزاء زائدة^(٣).

وقيل: إنما سمي الله ﷻ التصيير والتحويل من طور إلى طور خلقاً؛ لأن كل عملية من هذه العمليات هي خلق جديد، لا يملكه إلا الخالق جل وعلا، وهو مما استأثر به ﷻ وحده، فسمى ذاته الخالق، وأبى على خلقه أن يشاركوه في ذلك، ومعنى هذا أنه لا يمكن للإنسانية كلها وإن اجتمعت أن تنتقل بالإنسان في هذه الأطوار من طور إلى طور، فجميعها -الأطوار- عمليات خلق استأثر بها الخالق^(٤).

١- في ظلال القرآن لسيد قطب ٥/٢٢٧.

٢- النكت والعيون للماوردي ٤/٤٨.

٣- انظر: مفاتيح الغيب للرازي ٢٣/٧٤، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل ١٤/١٧٩، والتفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج للزحيلي ١٨/١٩.

٤- انظر: التفسير القرآني للقرآن للخطيب ٩/١١٢١.

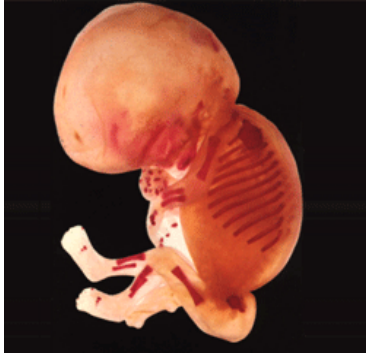
المطلب الثاني: خلق العظام وكساؤه باللحم في ضوء الاكتشافات العلمية

يتضمن هذا المطلب وصفاً لمرحلتين:

١- تكون العظام. ٢- تكوين العضلات (اللحم).

أولاً: تكون العظام:

أوردت المؤلفات العلمية المعاصرة وصفاً مفصلاً، لتطور العظام والعضلات البشرية، فالعظام لا تتطور معاً في آن واحد في الجسم كله، بل هناك برنامج أو جدول زمني لتكونها، فأول عظام يكتمل تكونها على سبيل المثال: هي عظيمات



الأذن الداخلية، (خلال المرحلة الجنينية)، بينما لا تكتمل مراكز النمو للعظام الطويلة للأرجل إلا بعد سن العشرين من الولادة أو أكثر، ويمكننا مع ذلك أن نحدد مرحلة مميزة للعظام عندما يدخل الجنين مرحلة انتشار الهيكل العظمي حين يتكون الهيكل الغضروفي

(العظم الأولى) في الأسبوع السابع، وبهذا ينتقل شكل الجنين من مرحلة المضغعة التي لا تحمل شكلاً آدمياً إلى مرحلة العظام التي يغلب عليها شكل الهيكل العظمي المميز للإنسان، وهذا الهيكل هو الذي يعطي الجنين مظهره الأدمي^(١).

وتتضمن عملية تكون العظام، مجموعة طلائع خلايا الأنسجة الوسطى (النسيج الجنيني الضام) لكل من العظام الغشائية والعظام الغضروفية، فحين تتكون العظام بين الأغشية (كعظام الفك السفلي والفك العلوي) تتكاثر خلايا النسيج الأوسط

١- انظر: علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة ص ٨٩، ٩٠، وإعجاز آيات القرآن في خلق الإنسان لفياض ص ٩٨، وموسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة ليوסף الحاج أحمد ص ١٠٦، ومدخل إلى رعاية الطفل والأسرة ص ٥٤، وموسوعة الإعجاز العلمي لمارديني ص ٢٥٧.

مكونة أكداً من الخلايا، وتتميز على شكل خلية تعظم أو بدائية عظمية، تفرز دورها حول نفسها منبتاً عضوياً للعظام، يكون غنياً بالغراء، وعندما يحيط منبت العظام بالخلايا، تسمى خلايا عظمية، ويتمعدن (بترسب الكالسيوم) منبت العظام العضوي مع تعظمه، وتتكون العظام الغضروفية على نحو مماثل، باستثناء الخلايا المتكثفة في الطبقة المتوسطة؛ فإنها تتميز أولاً على شكل جذعة غضروفية تكون المنبت العضوي لعظام الغضروف، فيتكون الهيكل العظمي الأولي من الغضروف، ثم يحل العظم محل الغضروف، وتحيط طبقة من الأنسجة الضامة (تسمى غشاء الغضروف) بنموذج الغضروف (أو السمحاق الذي يغلف العظام)، ويكون بمثابة خزان للخلايا الأصول (الجذعات الغضروفية أو الجذعات العظمية) عند نمو هذه الأنسجة^(١).

فهذا التحول لا يكون للمضغة كلها، إنما يتحول جزء منها، فمصدر الجهاز العظمي والعضلي والجلدي واحد وهو في الطبقة الجنينية الوسطى (الميزودرم)، وهذه الطبقة جزء من الورقة الجنينية، وليست كلها^(٢).

ومصطلح العظام يعبر تعبيراً دقيقاً يشمل المظهر الخارجي، وهو أهم تغيير في البناء الداخلي وما يصاحبه من علاقات جديدة بين أجزاء الجسم واستواء في مظهر الجنين^(٣).

١- انظر: علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة للزندانى وآخرين ص ٩٠، ٩١، وإعجاز آيات القرآن في خلق الإنسان لفياض ص ٩٨.

٢- انظر: دليل الأنفس ص ١٢١، وموسوعة الإعجاز العلمي في سنة النبي الأمي للصعدي ص ٢٨٠، ومرآة خلق الإنسان في آيات القرآن لمنى رفعت ص ١٨٤، وموسوعة الإعجاز العلمي لمارديني ص ٢٥٧.

٣- انظر: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة ليواف الحاج أحمد ص ١٠٦، ومدخل إلى رعاية الطفل والأسرة ص ٥٤، وعلم الأجنة في ضوء القرآن والسنة للزندانى وآخرين ص ٩٨.

والعظام التي تكون الهيكل العظمي تنقسم إلى نوعين:
عظام غضروفية: وهي التي تتكون من الغضاريف أولاً، ثم تمتلئ بالعظام تدريجياً، وتشمل معظم عظام الجسم، فعظام الأطراف العليا والسفلى كلها من العظام الغضروفية، وكذلك عظام الفقرات، بل إن جزءاً من قاع الجمجمة هي عظام غضروفية.
عظام غشائية: وهي التي كانت نسيجاً من الغشاء، ثم بني عليها العظم دون أن تسبقه مرحلة نشوء الغضاريف، وهي عظام الجمجمة، ما عدا قاع الجمجمة^(١).

تكون الجمجمة

تتكون بطريقة معقدة وتناسب بذلك نمو الدماغ، وتشمل جزئين أساسيين هما:

١- صندوق عظمي يقي الدماغ، وهو مكون من:

أ- قبة الجمجمة، وهذه تشكل الجزء الغشائي من الجمجمة، حيث يتكون العظم مباشرة فوق الغشاء ودون أن يتحول إلى غضاريف أولاً، وتعرف هذه بالعظام الغشائية؛ لأن الأوعية الدموية وهي تزحف نحو قبوة الرأس، وفي أثناء زحفها تضع اللبنة الأولى لعظام الجمجمة على غشاء رقيق حتى تكسو الدماغ، ومع هذا فلا بد أن تبقى فراغات بين العظام حتى يمكن للرأس أن يتشكل أثناء الولادة لتيسير خروجه، وتسمى هذه الفراغات اليوافيخ (جمع يافوخ) وتبقى بعد الولادة لمدة عام ونصف قبل أن تقفل نهائياً.

ب- قاع الجمجمة: والتي تتكون من التحام الكتل البدنية الأربعة الأولى، وهذه مكونة من عظام غضروفية، ثم تنتشر فيها مراكز التمعظم، وتتحول بعد ذلك إلى عظم، وتشمل الصفيحة القاعدية لقاع الجمجمة، وهي مكونة من التصاق قرصين غضروفيين على جانبي الحبل الظهرى، ثم يلتحم الجزء الامامي من الصفيحة

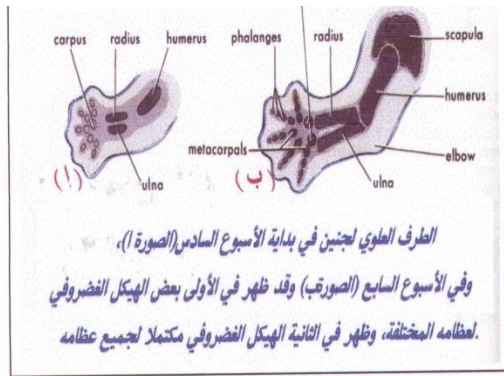
١- انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن للبار ص ٢٧٨، ودلائل الإعجاز العلمي للكاتب ص ٧٥٩.

القاعدية، وفي الواقع أن أول هذه الكتل البدنية يندثر، بينما تلتحم الكتل الثلاثة الأخرى دون فواصل بينها مكونة الجزء القاعدي المؤخري من الجمجمة، وتكون محيطة بالثقب بالمؤخري العظيم، الذي يخرج منه النخاع الشوكي المتصل بالدماغ عبر النخاع المستطيل، وتتصل عظام القاعدة الغضروفية بالعظام الحافظة للحواس مثل المحفظة السمعية، والمحفظة الشمية، والمحفظة البصرية.

٢- الجزء الوجهي: تتكون عظام الوجه أساساً من القوسين البلعوميين الأول والثاني، ويتكون من القوس البلعومي الأول الفك السفلي، كما يتكون من بروز منه الفك العلوي والعظم الوجني، وجزء من العظم الصدغي، كما يتكون من نهاية القوس البلعومي من النتوء الفكي عظيماً الأذن الوسطى المطرقة والسندان والركاب التي تتمتعظم في الشهر الرابع، ويكون الوجه صغيراً في أول الامر بالنسبة للقحف؛ لأن الجيوب الأنفية لم تتكون بعد، فإذا ما تكونت هذه الجيوب فإن الوجه يأخذ شكله الانساني، وتتكون عظام الوجه بواسطة التغضرف أولاً، ثم تنتشر فيه مراكز التمتعظم، وهي لذلك عظام غضروفية، وليست غشائية كعظام القحف^(١).

تكون الأطراف

يبدأ نمو الأطراف مبكراً جداً، ففي الأسبوع الثالث تنشأ براعم من كل جانب من



جوانب الحميل، اثنان علويان واثنان سفليان، ويبدأ في هذا البرعم نمو العظام الغضروفية، وتتبعها الأعصاب والدماء، وفي الأسبوع السادس الرحيمي يظهر اختناقان في الطرف العلوي، واحد يحدد

١- انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن للبار ص ٢٩١، ٢٩٢، وخلق الإنسان في القرآن للنجار ص ٣٣٠.

مكان الكوع، والآخر يعين موضع الرسغ، أما في الأسبوع السابع فتظهر فيه علامة لتوضح مكان الركبة، وأخرى لتعلم على موضع القدم، وتتعين بذلك مواضع العضد والساعد واليد بالطرف العلوي في نهاية الأسبوع السادس، والفخذ والساق والقدم بالطرف السفلي في الأسبوع السابع^(١).

تكون العمود الفقري والأضلاع

يتكون العمود الفقري بل كل فقرة منه في ثلاث مراحل:

- ١- المرحلة الغشائية: حيث تحيط خلايا الميزودرم بالمقطع الهيكلية.
- ٢- المرحلة الغضروفية: تظهر في المقاطع الهيكلية ثلاثة أزواج من المراكز الغضروفية في كل فقرة (ثلاثة على اليمين وثلاثة على اليسار) وذلك في الأسبوع السادس، وهي كالتالي:

أ - مركز غضروفي للقوس الفقري (من كل جهة).

ب- مركز للنتوء المستعرض، ومن هذه النتوءات تتكون الأضلاع الصدرية.

ج- مركز لكل نصف من جسم الفقرة.

ويمتد المركزان مكونان مركزاً واحداً.

- ٣- المرحلة العظمية: في الأسبوع السابع يظهر مركزان للتمعظم في جسم الفقرة، سرعان ما يتحداً ليكونا مركزاً واحداً للتمعظم، وفي الأسبوع الثامن يظهر مركز للتمعظم على ناحية من القوس الفقري.

وتشمل عملية التمعظم ما يلي:

* تفتت الغضروف وضموره، ثم إزالته.

* تكلس الباحات بين الخلايا بترسيب أملاح الكالسيوم.

١- انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن للبار ص ٢٨١، ٢٨٢.

* تكوين خلايا بانية للعظام، وخلايا آكلة للغضاريف، ويعتبر هذا المركز مركز تمعظم أولي^(١).

ويترتب على تكون العظام: (التسوية والاعتدال في تقوس الجسم والتصوير)^(٢).

ثانياً: تكوين العضلات (اللحم):

بالرغم من وجود طلائع خلايا (جنود العضلات) بالقرب من العظام النامية، فإن



التميز على شكل روابط عضلية هيكلية تكسو العظام يحدث بعد بدء عملية التمعظم في نهايات العظام والساق، حيث تنتشر العضلات حول العظام وتحيط بها في هذه المرحلة كما يحيط اللباس بما يكسوه، وبتمام كساء العظام باللحم تبدأ الصورة الأدمية بالاعتدال، فترتبط أجزاء الجسم

بعلاقات أكثر تناسقاً، وبعد تمام تكون العضلات يمكن للجنين أن يتحرك، وتأتي هذه المرحلة عقب مرحلة العظام مباشرة، وخلال فتره وجيزة^(٣).

وتنشأ معظم خلايا عضلات الهيكل العظمي من الفلقات، لذا ينمو الجهاز العضلي على شكل فقري (مجزء)، ويشير توزيع الأعصاب الجلدية في جسم الإنسان البالغ إلى هذا التجزء العضلي، كما يشير التجزء العضلي بدوره إلى أصل التجزء الجنيني، وعند نهاية الأسبوع الخامس، وبداية الأسبوع السادس من النمو

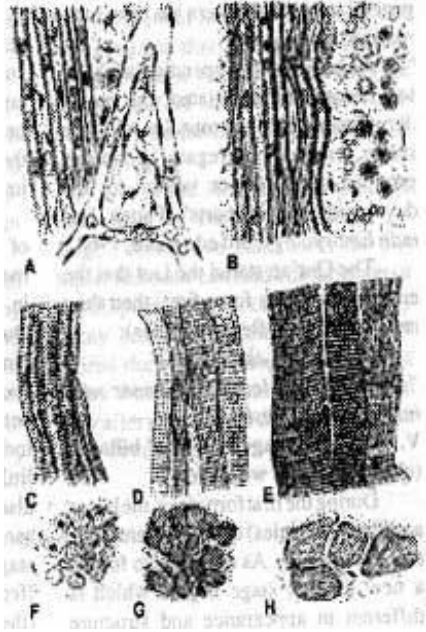
١- خلق الإنسان بين الطب والقرآن للبار ص ٢٨١، ٢٨٨، ٢٩١، ودلائل الإعجاز العلمي للكاتب ص ٧٥٩.

٢- انظر: مراحل خلق الإنسان في آيات القرآن ص ١٨٤، وخلق الإنسان في القرآن للنجار ص ٣٣٧.

٣- انظر: عجائب النظر والتأمل ص ١٨٨، وعلم الأجنة في ضوء القرآن والسنة للزنداني ص ٩٤، وموسوعة الإعجاز العلمي في سنة النبي الأمي للصعيدي ص ٢٨٠، ومدخل إلى رعاية الطفل والأسرة ص ٥٤، وموسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة ليوسف الحاج أحمد ص ١٠٧.

تنتقل الخلايا الأولية لهيكل الجسم، وخلايا الجلد الأولية بعيداً عن منطقة الفلقات الأصلية، ثم تنمو هذه الخلايا وتتصل بالخلايا المجاورة، ويكون نموها في اتجاه البطن لتشكل القسيمات العضلية، وتتجزأ هذه القسيمات العضلية بدورها إلى أجزاء خارجية، وأجزاء داخلية، يزود كل منهما بفرع من العصب الشوكي، وبصفة عامة فإن الجهاز العضلي للظهر ينشأ من طبقة الأجزاء الخارجية، بينما تنشأ عضلات جدران البطن والضلع من الأجزاء الداخلية^(١).

عملية تكون العضلات على مستوى الخلايا: يتضح أن الخلايا الابتدائية



للخلايا العضلية تندمج معاً، وتكون مركبات متعددة النويات، تتخذ شكل أنابيب عضلية، ويستمر النمو باندماج كل من الخلايا العضلية والأنابيب العضلية، ويحدث بعد الاندماج مباشرة أو خلاله تأليف وتنظيم بشكل تدريجي للخيوط العضلية (الأكتين، الميوسين، وغيرها من البروتينات العضلية) في هذه الخلايا أو (الألياف) العضلية، ويظهر ترتيب الألياف العضلية غير منتظم في البداية؛ ولكنها تدريجياً تنتظم في حزم

من الألياف العضلية التي يتصف بها التنظيم النسيجي لعضلات الهيكل العظمي، ثم تتصل هذه الخلايا العضلية بغشاء العظام التي تكونت في هذا الموضع مكونة حول هذه العظام النسيج العضلي الذي يكسو تلك العظام مع نهاية الأسبوع السابع وخلال الأسبوع الثامن، ويمكن ملاحظة تميز واضح لعضلات الجذع والأطراف

١- انظر: علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة للزنداني وآخرين ص ١٠٠.

والرأس وقد بدت بصورة جلية في هذه الفترة، وبهذا يصبح الجنين قادراً على إحداث بعض الحركات^(١).

ويتم اتصال الألياف العضلية بالعظام بواسطة أوتار عن طريق تشابك النهايات القصوى للخلايا العضلية بحزم النسيج الضام للوتر المتكون، وهذا النسيج الضام الكثيف يتصل بقوة بالقشرة الخارجية المحيطة بالخلايا العضلية، كما يتصل كذلك بغشاء العظام الذي سبق تكوينه، ومع نمو العظام فقد تنطمر حزم النسيج الضام داخل العظام على شكل ألياف (شاربي/Sharpey)، ويلاحظ أن تحلل الخلايا العضلية، وحلول عناصر النسيج الضام مكانها يمكن أن يقدم لنا تصوراً عن كيفية تكون الأوتار والصفاقات^(٢).

إن علم الحياة النمائية يهتم بدراسة تسلسل عمليات النمو التي تحدث في تكوين العظام والعضلات، ويمكننا أن نلخص نموذج التسلسل العام لهذه العمليات بما يلي: (عندما تتكون عظام الهيكل، فإن الطبقة المتوسطة التي تتشكل منها العضلات تبدأ في التجمع على هيئة كتل ظهرية أو بطنية، وتقوم بكساء أجزاء الهيكل العظمي المتكون)^(٣).

١- انظر: علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة للزندانى وآخرين ص ١٠٠-١٠١، وإعجاز آيات القرآن في

خلق الإنسان لمحمد فياض ص ١٠٣، ١٠٤.

٢- انظر: علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة للزندانى وآخرين ص ١٠٤.

٣- انظر: علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة للزندانى وآخرين ص ١٠٤، وإعجاز آيات القرآن في خلق

الإنسان لمحمد فياض ص ١٠٤.

وقد سبق في طور المضغة أن الكتل البدنية^(١) التي تعطي المضغة صفتها وشكلها وتميزها تنقسم في الأسبوع الرابع إلى قسمين ينموان في المراحل اللاحقة: القسم الأمامي الأنسي: والذي يكون النسيج الليفي والغضروفي ثم العظمي، وينمو في مرحلة العظام^(٢).

القسم الخلفي الظهرى: ويسمى المقطع الأدمي العضلي، وهو على هيئة كتلة من الخلايا تظهر بعد تكون الفقرات الأولية، ثم تتمايز إلى طبقتين: طبقة خارجية أدمية وتكون الأدمة وما تحت الجلد من أنسجة. وطبقة داخلية عضلية (لحمية) وتكون العضلات (اللحم)، والتي تنمو في مرحلة كساء العظام باللحم^(٣).

وعليه فإن كلاً من العظام والعضلات من الطبقة الجنينية المتوسطة (الميزوديرم)، فأصلهما من المضغة، وعليه فالعضلات ليس أصلها من العظام، وهذا هو ما يشير إليه قول الله ﷻ: ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا﴾^(٤)؛ فلفظ: ﴿فَكَسَوْنَا﴾ في الآية الكريمة، يصور بدقة فعل العضلات بالعظام؛ فهي تكسوها دون أن تكون قد تكونت منها، كما يكسو اللباس جسم الإنسان دون أن يكون قد تكون منه، والعظام قوام الجسم وعليها تشتغل العضلات، والعضلات لحم لا يقوم وحده، لذا

١- وهذه الكتل ليست إلا تكثفا لطبقة الميزودرم المتوسطة بجانب محور الجنين. انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن للبار ص ٣٦٩.

٢- ويجعل الله ﷻ لخلايا هذا القسم قدرة على التشكيل، فيحولها من خلايا رخوة هي خلايا الكتلة البدنية، إلى خلايا كثيفة هي خلايا الغضاريف، وخلايا العظام التي تكون الغضاريف والعظام، ويتكون النسيج الغضروفي قبل العظمي. انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن للبار ص ٢٨٢.

٣- انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن للبار ص ٢٥٥، ٢٥٦، ٣٧١، وخلق الإنسان في القرآن للنجار ص ٣٢٤، ٣٢٥.

٤- سورة المؤمنون: الآية ١٤.

تظهر العظام أولاً؛ لتعطي للجنين قامة، فتستند إليها العضلات بعد ذلك، وتغلفها بطريقة رائعة تماماً كاللباس الذي لا يقوم وحده؛ لطراوته وانثنائه، فإذا لبسه صاحبه ظهر فيه منسجماً متعادلاً، فالعضلات تشبه هذه الألبسة التي تفصل على قدر أصحابها^(١).

ويدل على صحة ذلك، الاستدلال بالانتهاء على الابتداء؛ فإن الإنسان بعد موته، يفنى منه اللحم قبل العظم، لتبقى العظام عارية عنه فترة قبل فنائها. وبكساء الهيكل العظمي باللحم من جميع جوانبه، تتعدل الصورة الآدمية للجنين، وتتناسق الأعضاء بصورة أدق، وبذلك يبدأ الجنين بالحركة في نهاية الأسبوع الثامن، وهذه مرحلة متميزة عن مرحلة العظام في التركيب والتناسق والصورة، وقدرة الجنين على الحركة، وتبدأ هذه المرحلة من أواخر الأسبوع السابع إلى تمام الأسبوع الثامن، وتأتي عقب مرحلة العظام مباشرة، وهكذا جاء النص القرآني دالاً على التتابع السريع بين المرحلتين باستعمال حرف العطف (الفاء) الذي يفيد تعاقب الأحداث التي يربط بينها^(٢).

ومرحلة الكساء باللحم تمثل نهاية لمرحلة من مراحل نمو الجنين لتبدأ بعدها مرحلة النشأة بفترة من الزمن، يدل عليها استعمال حرف العطف (ثم)، الدال على الترتيب والتراخي في الزمن بين الأفعال التي يربط بينها^(٣)، وذلك في قوله ﷻ:

﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾^(٤).

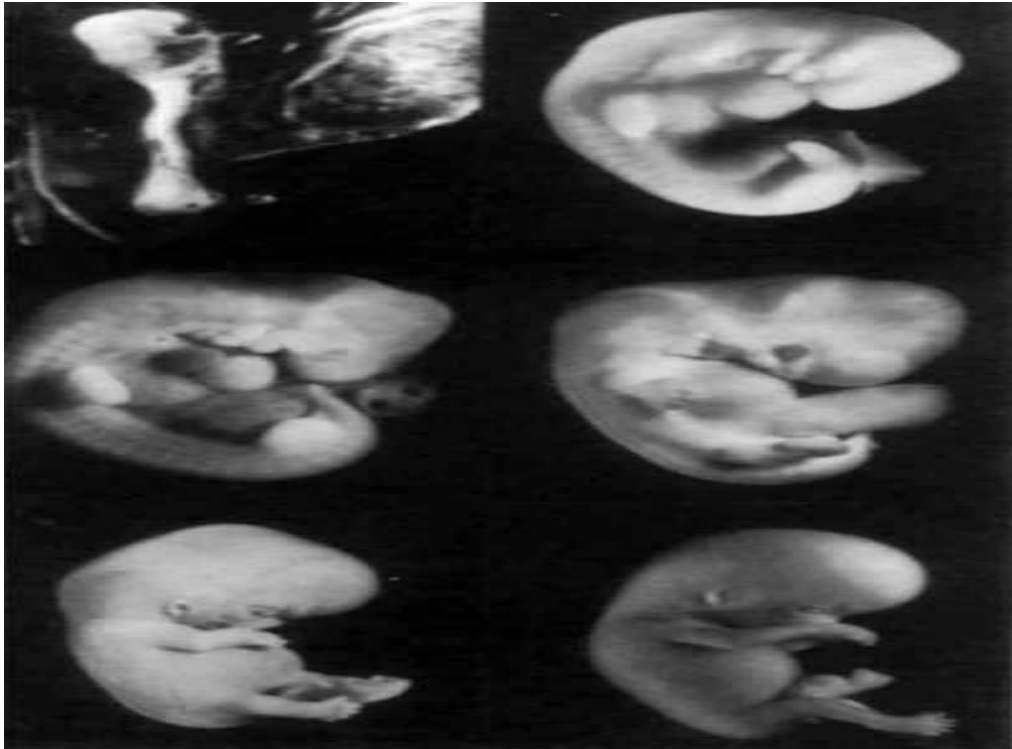
١- دليل الأنفس بين القرآن الكريم والعلم الحديث لمحمد عز الدين توفيق ص ٣٥٧.

٢- انظر: علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة ص ١٠٥، وإعجاز آيات القرآن في خلق الإنسان ص ١٠٤.

٣- انظر: علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة للزنداني ص ١٠٥.

٤- سورة المؤمنون: الآية ١٤.

وبهذا تنتهي مرحلة التخليق حيث تكون جميع الأجهزة الخارجية والداخلية قد تشكلت، ولكن في صورة مصغرة ودقيقة، وبنهاية الأسبوع الثامن تنتهي مرحلة التخليق، والتي يسميها علماء الأجنة بالمرحلة الجنينية، هذا وقد أكد علم الفحص بأجهزة الموجات فوق الصوتية أن جميع التركيبات الخارجية والداخلية الموجودة في الشخص البالغ تتخلق من الأسبوع الرابع وحتى الأسبوع الثامن من عمر الجنين، كما يمكن أن ترى جميع أعضاء الجنين بهذه الأجهزة خلال الأشهر الثلاثة الأولى، وفي الشكل التالي الجنين خلال الأسابيع الثمانية الأولى^(١).



١- انظر: أثر بحوث الإعجاز العلمي في بعض القضايا الفقهية للمصلح والساوي، ضمن بحوث المؤتمر الثامن للإعجاز العلمي في القرآن والسنة المنعقد في الكويت، العلوم الطبية، ٢٠/١.

المطلب الثالث: ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها

من خلال الدراسة التفسيرية والعلمية يتلخص ما يلي:

* ذكر المفسرون في معنى قوله ﷻ: ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا﴾ أي: صيرنا وجعلنا قطعة اللحم اللينة عظاماً صلبة؛ لتكون عموداً للبدن، على أشكال وهيئات مخصوصة، ذات رأس ويدين ورجلين بعظامها وعصبها وعروقها، وذكر السمرقندي: أن المراد خلق العظام في المضغة.

وقوله ﷻ: ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا﴾، أي: ألبسنا العظام وجعلنا عليه لحماً، فصار لها كاللباس والكسوة الذي يستره ويشده ويقويه، وجعل الله ﷻ على كل عظم لحماً على المقدار الذي يليق به ويناسبه، وشدها بالأعصاب والعروق، وذكر الشوكاني أن الكساء باللحم بإنباته على كل عظم على المقدار الذي يليق به ويناسبه.

* جمعت العظام دون باقي الأطوار؛ لاختلافها وتغايرها في الهيئة والصلابة.

* ذكر المفسرون احتمالين في تحول المضغة إلى عظام: الأول: كلها تتحول إلى عظام، والثاني: غالبها ومعظمها، وبه جزم إسماعيل حقي.

* ذكر المفسرون احتمالين في اللحم الذي يكسى به العظام: الأول: أنه من بقية لحم المضغة، وبه قال إسماعيل حقي، الثاني: أنه لحم آخر يخلقه الله ﷻ.

* بين القرآن أن طور العظام يأتي بعد طور المضغة، ويشير حرف العطف (الفاء) إلى أن طور العظام ينمو بعد المضغة بفترة قصيرة، وبين القرآن كذلك أن مرحلة كساء العظام باللحم تأتي عقب تكون العظام، وأتى بحرف العطف (الفاء).

* لا يبدأ تكون العظام على نحو موحد في الجسم كله، وتظهر الأنسجة العظمية بالتعاقب، لكن الأسبوع السابع يشهد مرحلة انتشار الهيكل العظمي في الجنين^(١).

١- انظر: علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة للزنداني وآخرين ص ٩٣.

* مصدر الجهاز العظمي والعضلي واحد في الطبقة الجنينية الوسطى (الميزودرم).
 *العظام المكونة للهيكل العظمي تنقسم إلى عظام غضروفية، وعظام غشائية.
 * تتحول الكتل البدنية إلى جزئين: أحدهما الأمامي الأنسي والذي يكون النسيج الليفى والغضروفي ثم العظمي، ولخلايا هذا القسم قدرة على التشكيل، فتتحول من خلايا رخوة إلى خلايا كثيفة هي خلايا الغضاريف، وخلايا العظام التي تكون الغضاريف والعظام، ويتكون النسيج الغضروفي قبل العظمي.
 ويسمى -الجزء الأمامي- القطعة الهيكلية وهي تكون عظام الفقرات، كما أن انسياب خلاياه في المنطقة العنقية يشكل عظام الأطراف العليا، وانسياب خلاياه في المنطقة القطنية والعجزية يشكل عظام الأطراف السفلى، وتشكل الأربع كتل البدنية الواقعة في منطقة الرأس الجزء المؤخري القاعدي من الجمجمة، وتتكون الأضلاع من نتوءات من العمود الفقري في المنطقة الصدرية، وأما عظام الوجه والفكين وعظام الأذن الوسطى (المطرقة والسندان والركاب) فإنها جميعاً تشكل من القوس البلعومي الأول، ويتكون العظم اللامي من القوس البلعومي الثاني، وتتكون قحفة الجمجمة التي تتكون من الخلايا الميزودرمية (المتوسطة) المتكثفة في قمة الرأس، والتي تتحول مباشرة من غشاء إلى عظم دون أن تتحول إلى غضاريف^(١).

* يتم اتصال الألياف العضلية بالعظام بواسطة أوتار.

* بالرغم من وجود طلائع خلايا (جذوع العضلات) بالقرب من العظام النامية، فإن التميز على شكل روابط عضلية هيكلية تكسو العظام يحدث بعد بدء عملية التعظم في نهايات العظام والساق، حيث تنتشر العضلات حول العظام وتحيط بها في هذه المرحلة كما يحيط اللباس بما يكسوه، ويتمام كساء العظام باللحم تبدأ

١- انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن للبار ص ٣٧٠، ٣٧١.

الصورة الآدمية بالاعتدال، وبعد تمام تكون العضلات يمكن للجنين أن يتحرك حركات لا إرادية، وهذه المرحلة عقب مرحلة العظام مباشرة.

* عند تكون عظام الهيكل فإن الطبقة المتوسطة التي تتشكل منها العضلات تبدأ في التجمع على هيئة كتل ظهرية أو بطنية، وتقوم بكساء أجزاء الهيكل المتكون.

* مرحلة الكساء باللحم تمثل نهاية لمرحلة من مراحل نمو الجنين لتبدأ بعدها مرحلة النشأة بفترة من الزمن، يدل عليها استعمال حرف العطف (ثم).

ومن خلال الدراسة التفسيرية والعلمية يظهر لي الآثار التالية:

* المكتشفات العلمية أثبتت أن مصدر الجهاز العظمي والعضلي والغضروفي في الطبقة الجنينية الوسطى (الميزودرم)، وهذا يترتب عليه ما يلي:

أ- التحول من المضغة إلى العظام إنما هو لجزء منها؛ لأن هذه الطبقة جزء من الورقة الجنينية التي تكون قد انقسمت إلى ثلاثة أقسام، وعليه فما ذكره بعض المفسرين من احتمال التحول للمضغة كلها غير صحيح، وظاهر الجوانب العلمية لا تؤيد القول بأن المتحول غالبها ومعظمها كما ذكر (حقي) واحتمله غيره، بل المتحول جزء منها، وهو قسم واحد -الطبقة الوسطى- من ثلاثة أقسام للورقة الجنينية.

ب- أصل العظام من خلايا تكونت في المضغة، وبالتالي فما ذكره السمرقندي من أن المراد خلق العظام في المضغة، صحيح على أساس أن مصدر تخلق العظام خلايا في الطبقة الوسطى في المضغة، وكذلك تخلق العظام يتطور في طور المضغة، وما قاله أكثر المفسرين من أن المقصود تحول الجنين من مضغة إلى عظام صحيح؛ فعند تكون الهيكل الغضروفي في الأسبوع السابع، ينتقل شكل الجنين من مضغة لا تحمل شكلاً آدمياً إلى عظام يغلب عليها شكل الهيكل العظمي المميز للإنسان.

ج- اللحم الذي تكسى به العظام يخلقه الله تعالى من خلايا أصلها من المضغة، لا أنها تكونت من نفس العظام، وبالتالي فقول إسماعيل حقي إن كسوة العظام باللحم (من بقية المضغة) صحيح باعتبار ما ذكرت، أي: من خلايا في المضغة غير خلايا العظام، وإن كانت جميعاً من الطبقة المتوسطة التي هي جزء من المضغة، لا أن المضغة قد تحول جزء منها عظام والجزء الآخر كساه باللحم.

* ظهور المعجزة العلمية، وذلك بما قرره القرآن من حقائق في علم الأجنة، لم تتأكد إلا مؤخراً عندما تطورت التقنية الحديثة، ومن ذلك ما كان يعتقد العلماء من أن مرحلة العظام واللحم لا فرق بينهما، بل إن من المراجع الطبية ما لا يميز بين طور المضغة وطور العظام؛ نظراً لتداخل ظهور الكتل اللحمية مع بداية العظام مع اكتسائها بالعضلات وحصول كل ذلك في وقت وجيز^(١)، حتى اكتشف مؤخراً تقدم طور المضغة عن العظام، وأن العظام تسبق اللحم، وهذا ما ذكره القرآن، ليدل ذلك على سبقه لجميع المعارف المكتسبة، وما ذلك إلا لأنه كلام الله أنزله على سيدنا محمد ﷺ معجزة تشهد بصدق رسالته، وأن العلم الذي فيه من عند الله.

* ظهور الإعجاز البياني لألفاظ القرآن، فمصطلحات القرآن تحدد وصف المراحل المختلفة، ويعتبر شكل الجنين من أسباب اختيار المصطلح المستخدم لكل طور ومرحلة، فحين يتكون الهيكل الغضروفي يغلب على الجنين شكل الهيكل المميز للإنسان، سمى الله هذا الطور بـ(العظام)، ولفظ: ﴿فَكَسَوْنَا﴾ الذي يصور بدقة فعل اللحم بالعظام؛ فهو يكسوها دون أن يكون قد تكون منها، كما يكسو اللباس الجسم، كذلك حروف العطف، لما كان الانتقال من المضغة إلى العظام

١- ونكتفي بتصنيف يعتمد على الأسابيع والأيام، وتقسّم مراحل النمو الجنيني إلى مرحلتين: مرحلة الجنين، ومرحلة الحمل. انظر: دليل الأنفس لمحمد عز الدين ص ١٢١.

في فترة وجيزة، ويلي ذلك الكساء باللحم في فترة وجيزة جاء بحرف (الفاء) الدال على الترتيب والتعقيب، فكل هذا الانتقاء والاصطفاء للألفاظ المعبرة عن مدلولاتها بدقة متناهية لا يمكن أن يكون محض مصادفة، ولا من فعل بشر عاش في بيئة أمية، إن هذا الاصطفاء والانتقاء، وهذه الدقة، لشاهد من الشهود، التي أقامها الرب المعبود، ترشد كل عاقل في هذا الوجود، إلى أن القرآن نزل من عند الكريم الودود، ينطق أن كل ما هو كائن في الوجود، فهو من تدبير الرب المعبود ﷻ.

* تثبيت إيمان المؤمنين، بمشاهدتهم لعظيم صنع الخالق العظيم، وهداية غير المسلمين، وإقامة الحجة عليهم، وذلك بالاستدلال على الخالق بمشاهدة آثار صنعه في مخلوقاته، ومن ذلك بديع خلق الرحمن للإنسان، والذي لا يسع كل من كان له قلب إلا أن يقر بأن هذا الخلق البديع من عمل خالق بديع، فهذا (لينارد نلسون) لما صور منذ سنوات مختلف مراحل تخلق الجنين، من بداية الحمل وحتى الولادة، ونال على عمله المتقن هذا جائزة نوبل للتصوير الطبي، فقد استطاع التقاط صور رائعة للجنين في أطوار النطفة والعلقة والمضغة، وطور العظام والذي يسبق بأسبوع فقط كساء العظم باللحم، سأله محقق صحيفة: هل تعتقد بوجود الله بعد عمك الطويل الذي استغرق ثلاث سنوات في تصوير أطوار الجنين؟ أجاب بقوله: «بعد أن تتبعت بالصور مختلف مراحل تكون الجنين، منذ أن بدأ كخلية واحدة، إلى أن خرج بعد تسعة أشهر من رحم أمه، أنا لا أستطيع إلا أن أقر وأعترف بأن يد الله هي وراء عمل كل خلية من خلايا الجنين»^(١).

١- انظر: من علم الطب القرآني لعبدنان الشريف ص ٥٩.

المبحث السادس

طور النشأة خلقا آخر

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول:

طور النشأة خلقا آخر في القرآن الكريم.

المطلب الثاني:

طور النشأة خلقا آخر في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة.

المطلب الثالث:

ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها.

المطلب الأول: طور النشأة خلقاً آخر في القرآن الكريم

الآيات الواردة

قال الله ﷻ: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (١).

وقال ﷻ: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (٢).

أقوال المفسرين

كلمة (نشأة) مشتقة من فعل (نشأ)، ولها عدة معان في اللغة، ومنها: ارتفع وعلا، شبَّ ونما، بدأ وربأ، والنشأة: ارتفاع في شيء وسمو، والنشأة: الإيجاد والتربية (٣).

وقد اختلف المفسرون في معنى (النشأة) في قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ إلى عدة أقوال:

القول الأول: نفخ الروح فيه؛ فيصير حينئذ إنساناً، وكان قبل ذلك صورة (٤)؛ وذلك أنه بنفخ الروح فيه يتحول إنساناً وكان قبل ذلك بالأحوال التي وصفه الله أنه كان بها، من نطفة وعلقة ومضغة وعظم، كما تحول أبوه آدم بنفخ الروح في

١- سورة المؤمنون: الآية ١٤.

٢- سورة السجدة: الآية ٩.

٣- انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٣٤٤/٥، المفردات في غريب القرآن للأصفهاني ص ٨٠٧، ومختار الصحاح للرازي ٦٨٨/١، والعياب الزاخر للساغاني ٤٧/١، ولسان العرب لابن منظور ١٧٠/١، والمعجم الوسيط ٩٢٠/٢.

٤- انظر: جامع البيان للطبري ١٧/١٩، ١٨، وأنوار التنزيل للبيضاوي ١٤٩/٤، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢٩٥/٣، وتفسير الجلالين ص ٤٤٦، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ٥٤٨، والتحرير والتنوير لابن عاشور ٢١/١٨.

الطينة التي خلق منها إنساناً، وخلقاً آخر غير الطين الذي خلق منه، فبنفخ الروح فيه يتهيأ للحياة والنماء؛ لأن الخلق المذكور قبله كان دون حياة، ثم نشأ فيه خلق الحياة، وهي حالة أخرى طرأت عليه عبر عنها بالإنشاء^(١).

القول الثاني: تصريفه إياه في الأحوال بعد الولادة، وذلك التصريف في: الطفولة، والكهولة، والاعتداء، ونبات الشعر والسنّ، ونحو ذلك من أحوال الأحياء في الدنيا^(٢).

وروي أنه: من الاستهلال، إلى الارتضاع، إلى القعود، إلى القيام، إلى المشي، إلى الفطام، إلى أن يأكل ويشرب، إلى أن يبلغ الحلم، ويتقلب في البلاد، إلى ما بعدها^(٣).

وروي أنه في: الطفولية، وما بعدها، إلى استواء الشباب، وخلق الفهم والعقل^(٤) «إذا تمت النطفة أربعة أشهر، بعث إليها ملك ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾».

قال الآلوسي: ويؤيده قوله ﷺ: ﴿ثُمَّ إِنَّمَا بَعَدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾^(٥).

القول الثالث: خروج الأسنان والشعر، قاله الضحاك، فقيل له: أليس يولد وعلى رأسه الشعر؟ فقال: وأين العانة والإبط؟^(٦)، أو نبات الأسنان والشعر^(٧).

القول الرابع: سوّى شبابه^(٨).

١- انظر: جامع البيان للطبري ١٨/١٩، والتحرير والتنوير لابن عاشور ٢١/١٨.

٢- انظر: جامع البيان للطبري ١٨/١٩.

٣- انظر: معالم التنزيل في تفسير القرآن للبخاري ٣/٣٦١.

٤- انظر: غرائب القرآن ورجائب الفرقان للنيسابوري ٥/١١٢.

٥- سورة المؤمنون: الآية ١٥.

٦- انظر: زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ٥/٤٦٣، والدر المنثور للسيوطي ٦/٩٢.

٧- قاله قتاده. انظر: بحر العلوم للسمرقندي ٢/٤٧٥، والكشف والبيان للثعلبي ٧/٤٢.

٨- انظر: تفسير مجاهد ٢/٤٣٠.

القول الخامس: الذكورة والأنوثة، فإما أن يكون ذكراً أو أنثى^(١).

القول السادس: إعطاء العقل والفهم^(٢).

القول السابع: خروجه إلى الدنيا^(٣).

القول الثامن: من رأى أنه لا تعارض بين كل ما ذكر، وأنه يمكن الجمع بين الأقوال السابقة، قال القرطبي بعد ذكره لكثير من الأقوال السابقة: «والصحيح أنه عام في هذا، وفي غيره من النطق، والإدراك، وحسن المحاولة، وتحصيل المعقولات، إلى أن يموت»^(٤)، ومثله الشوكاني بقوله: «ولا مانع من إرادة الجميع»^(٥)، ومثله يفهم من قول من قال من المفسرين: «خلقاً م바이ناً للخلق الأوّل مباينة ما بعدها، حيث جعله حيواناً، وكان جماداً، وناطقاً وكان أبكم، وسميعاً وكان أصمّ، وبصيراً وكان أكمه، وأودع باطنه وظاهره بل كل عضو من أعضائه وكل جزء من أجزائه عجائب فطرة، وغرائب حكمة لا تدرك بوصف الواصف ولا تبلغ بشرح الشارح»^(٦).

يقول الشنقيطي: «والظاهر أن جميع أقوال أهل العلم في قوله: ﴿خَلَقْنَا آخَرَ﴾ أنه صار بشراً سوياً بعد أن كان نطفة، ومضغة، وعلقة، وعظاماً، كما هو واضح»^(٧).

والظاهر: أن الآية الكريمة ذكرت النشأة خلقاً آخر في سياق الحديث عن أطوار تخلق الجنين البشري، وعليه فإنه يدخل في طور النشأة ما يمر به الجنين البشري من تخلق بعد الكساء باللحم بمدة زمنية يدل عليها حرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ الدال

١- انظر: تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين ٣/ ١٩٦، ومعالم التنزيل في تفسير القرآن للبغوي ٣/ ٣٦١.

٢- انظر: الكشف والبيان للثعلبي ٧/ ٤٣.

٣- انظر: المحرر الوجيز لابن عطية ٤/ ١٦٩، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٢/ ١١٠.

٤- والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٢/ ١١٠.

٥- فتح القدير للشوكاني ٣/ ٦٨٣.

٦- الكشاف للزمخشري ٣/ ١٨١، ١٨٢، ومفاتيح الغيب للرازي ٢٣/ ٧٤، واللباب في علوم الكتاب ١٤/ ١٨٠.

٧- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٥/ ٣٢٥.

على التراخي في الفترة الزمنية، ومن ذلك نفخ الروح، والذكورة والأنوثة أي تحديد جنس الجنين، ونبات الشعر، ومع هذا فإنه لا مانع من صحة ما ذكره المفسرون كما في القول الأخير، بقرينة قوله ﷺ في آية أخرى: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لَئِنْ لَبِغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لَأَتَّكُوا شُبُوحًا﴾^(١)، وقوله ﷺ في آية ثالثة: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾^(٢)، وكذلك معنى النشأة في اللغة، ومن ذلك قول الراغب: «والنشأة: إحداث الشيء وتريبته»^(٣).

قال ابن عاشور: «ولالإشارة إلى التفاوت الرتبي بين الخلقين عطف هذا الإنشاء بـ﴿ثُمَّ﴾ الدالة على أصل الترتيب في عطف الجمل بـ﴿ثُمَّ﴾»^(٤)، فورود حرف العطف (ثم) مع ﴿أَنْشَأْتَهُ﴾ يفيد أن طور النشأة يأتي بعد مرحلة الكساء بزمن. وقوله ﷺ: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ﴾^(٥)، يعني: جمع خلقه في بطن أمه، وقوم أعضائه، وسوى صورته في أحسن تقويم، وعدل خلقته بتكميل أعضائه في الرحم، وتصويرها على ما ينبغي، فأصبح شخص إنسان سوياً معتدلاً^(٦)، يقول السعدي: «ثم سواه بلحمه، وأعضائه، وأعصابه، وعروقه، وأحسن خلقته، ووضع كل عضو منه، بالمحل الذي لا يليق به غيره»^(٧).

١- سورة غافر: الآية ٦٧.

٢- سورة المؤمنون: الآية ١٥.

٣- المفردات في غريب القرآن للأصفهاني ص ٨٠٧.

٤- انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور ٢١/١٨.

٥- سورة السجدة: الآية ٩.

٦- انظر: جامع البيان للطبري ١٧٣/٢٠، وبحر العلوم ٣٢/٣، وأنوار التنزيل للبيضاوي ٣٥٦/٤، والتسهيل

لعلوم التنزيل لابن جزى ١٤٢/٢، ولباب التأويل للخانزاد ٢٢٢/٥، وغرائب القرآن ورجائب الفرقان ٢٣٧/٦،

واللباب لابن عادل ٤٧٨/١٥، وتفسير أبي السعود ٨١/٧، والبحر المديد ٥٨٤/٥، وصفوة التفسير ٢٥.

٧- تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ٦٥٣.

وقوله ﷻ: ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوْحِهِ﴾، يعني جعل الروح فيه^(١)، ليصير حياً ناطقاً^(٢)، وسميت الروح روحاً؛ لأن بها حياة البدن^(٣)، وأضيفت الروح إلى الله تشريفاً^(٤)، وأيضاً فإنها من فعله وخلقه^(٥)، فأضيفت إضافة ملك إلى ملك، وقد يراد بها الاختصاص؛ لأن الروح لا يعلم كنهها إلا الله^(٦)، ولهذا قال السيوطي: «الروح نمسك عنها، فلا نتكلم في حقيقتها؛ اعترافاً بالعجز عنها، مخالفين الأطباء حيث خاضوا في ذلك؛ لأن النبي ﷺ لم يتكلم عليها، وقد سأل عنها؛ لعدم نزول الأمر ببيانها، قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾^(٧) أي: علمه فلا تعلمونه»^(٨).

وقوله ﷻ: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوْحِهِ﴾، فيه أن تخليق الإنسان لا يكتمل ويتم إلا بنفخ الروح فيه بعد تسويته؛ لأنه مركب من جسد وروح^(٩).

-
- ١- انظر: تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ص ٣٤٨، وبحر العلوم للسمرقندي ٣/٣٢، والدر المنثور للسيوطي ٦/٩٢، ومراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد للتتاري ٢/٢٤٢، ومحاسن التأويل للقاسمي ٨/٣٩.
 - ٢- انظر: جامع البيان للطبري ٢٠/١٧٣، والهداية إلى بلوغ النهاية لمكي ابن أبي طالب ٩/٥٧٥٢.
 - ٣- انظر: الروح لابن القيم ص ٢١٨.
 - ٤- انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٤/٩١، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ٤/٣٥٦، ولباب التأويل في معاني التنزيل للخازن ٥/٢٢٢.
 - ٥- انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٤/٩١.
 - ٦- انظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ٢/١٤٢.
 - ٧- سورة الإسراء: الآية ٨٥.
 - ٨- إتمام الدراية لقراء النقاية ص ١٤٥.
 - ٩- انظر: مفاتيح الغيب للرازي ٢٦/١٩٨.

زمن نفخ الروح في الجنين

ذهب الكثير من العلماء - من مفسرين وغيرهم -، إلى أن نفخ الروح في الجنين يكون بعد مائة وعشرين يوماً^(١)، بل قد حُكي الإجماع على ذلك^(٢)؛ لظاهر حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في جمع الخلق، قال: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق، قال: **«إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْماً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ مَلَكًا، فَيُؤَمِّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، وَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ: عَمَلَهُ، وَرِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَشَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ»**^(٣)، والدال على أن أطوار الجنين: النطفة، والعلقة، والمضغة، مدتها ١٢٠ يوماً، ونفخ الروح بعد ذلك، يقول ابن كثير في الحديث عن حكمة عدة الوفاة أربعة أشهر وعشراً: «فهذه ثلاث أربعينات بأربعة أشهر، والاحتياط بعشر بعدها؛ لما قد ينقص بعض الشهور، ثم لظهور الحركة بعد نفخ الروح فيه»^(٤)، ويقول ابن حجر:

- ١- انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية ٤٩٥١/٧، وزاد المسير لابن الجوزي ٢٧٥/١، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٨/١٢، ولباب التأويل للخازن ٢٣٧/١، والبحر المحيط لأبي حيان ٢٣٥/٢، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣٥٢/١، وغرائب القرآن ورجائب الفرقان ٦٢٣/١، وتفسير روح البيان ٢٠١/١٠، والتحرير والتنوير ٤٢١/٢، وأضواء البيان ٢٧١/٤، وشرح النووي لصحيح مسلم ١٩١/١٦، وفتح الباري ٤٨٣/١١، وبدائع الصنائع في ترتيب الشرائع للكاساني ١٩٥/٣، وحاشية الدسوقي على الشرح الكبير ٤٠٨/٤، والحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي للماوردي ٣١/٣، والمغني في فقه الإمام أحمد لابن قدامة ٩٧/٨.
- ٢- نقل الإجماع: القرطبي، والنووي، والقاضي عياض انظر: شرح النووي لمسلم ١٩١/١٦، وفتح الباري ٤٨٥/١١. قال القرطبي: «لم يختلف العلماء أن نفخ الروح فيه يكون بعد مائة وعشرين يوماً، وذلك تمام أربعة أشهر ودخوله في الخامس، كما بيناه بالاحاديث». الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٨/١٢، وعليه يعول فيما يحتاج إليه من الأحكام في الاستلحاق عند التنازع، وفي وجوب النفقات على حمل المطلقات.
- ٣- أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة ١١٧٤/٣ برقم: ٣٠٣٦. والصادق: في قوله، والمصدوق: فيما يأتي من الوحي الكريم، شرح النووي لصحيح مسلم ١٩٠/١٦.
- ٤- تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣٥٢/١.

«وحديث ابن مسعود بجميع طريقة يدل على أن الجنين يتقلب في مائة وعشرين يوماً، في ثلاثة أطوار، كل طور منها أربعون يوماً، ثم بعد تكملتها ينفخ فيه الروح»^(١)، قالوا: وكذلك رواية مسلم، ونصها: **«إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْماً، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ عِلْقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَلَكُ، فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤَمَّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكُتِّبَ رِزْقُهُ، وَأَجَلُهُ، وَعَمَلُهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ»**^(٢)، إذ لا يجدونها مخالفة لمعنى ما جاء في البخاري، وأن جميعها تفيد التعاقب للزمن المحدود، وهو ما تقتضيه ظواهر النصوص لقوله ﷺ: **«ثُمَّ يَكُونُ عِلْقَةً مِثْلَهُ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَهُ»**، فقوله ﷺ: **«ثُمَّ يَكُونُ عِلْقَةً مِثْلَ ذَلِكَ»**، يساوي قوله: **«ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ عِلْقَةً مِثْلَ ذَلِكَ»** أي: في ذلك الرحم علقه، **«مِثْلَ ذَلِكَ»** أي: الزمان الذي هو الأربعون، فاختلقت الألفاظ، واتحد المعنى، وكذلك القول في قوله ﷺ: **«ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ»**^(٣).

وقد وردت آثار عن الصحابة وغيرهم في ذلك، كقول علي عليه السلام: **«إِذَا تَمَّتِ النَّطْفَةُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ، بَعَثَ إِلَيْهَا مَلَكٌ، فَنَفَخَ فِيهَا الرُّوحَ فِي الظُّلُمَاتِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾**^(٤)، وقول ابن عباس: **«إِذَا وَقَعَتِ النَّطْفَةُ فِي الرَّحِمِ، مَكَثَتْ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعِشْرًا، ثُمَّ نَفَخَ فِيهَا الرُّوحَ، ثُمَّ مَكَثَتْ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، ثُمَّ بَعَثَ إِلَيْهَا مَلَكٌ، فَنَفَقَهَا فِي نَقْرَةِ الْقَفَا»**^(٥)، وكتب شقياً أو سعيداً»^(٦)، ونقل غير واحد عن أحمد

١- فتح الباري ١١/٤٨١، ٤٨٣.

٢- أخرجه مسلم، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه... ٤/٢٠٣٦ برقم: ٢٦٤٣.

٣- المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم للقرطبي ٦/٦٥٠.

٤- قال ابن رجب: «خرجه ابن أبي حاتم، وإسناده منقطع». جامع العلوم والحكم لابن رجب ص ٥٢.

٥- النقرة: الحفرة الصغيرة المستديرة، ونقرة القفا: حفر في آخر الدماغ. المعجم الوسيط ٢/٩٤٥.

٦- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم لأبي القاسم اللالكائي ص ٢٧٨، رقم الأثر ١٠٦٠، قال ابن رجب: «وفي إسناده نظر»، جامع العلوم والحكم ص ٥٢.

أنه قال: «إذا بلغ أربعة أشهر وعشراً، ففي تلك العشر ينفخ فيه الروح»^(١)، وروي عن ابن عباس: «إذا وقعت النطفة في الرحم، مكثت أربعة أشهر وعشراً، ثم ينفخ فيها الروح»^(٢)، وقد سئل سعيد بن المسيب عن عدة الوفاة، فقيل له: ما بال العشرة بعد الأربعة الأشهر؟ فقال: «ينفخ فيه الروح»^(٣).

لكن ما قالوه يرد عليه عدة اعتراضات:

١- أن ابن الزمكاني^(٤)، ذهب إلى أن زمن أطوار الجنين: النطفة، والعلقة، والمضغة، مدتها في الأربعين الأولى، بقوله عن حديث ابن مسعود: «وأما حديث البخاري فنزل على ذلك، إذ معنى: **يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ**، أي: يحكم ويتقن، ومنه رجل جميع أي مجتمع الخلق^(٥)، فهما متساويان في مسمى الإتيان والإحكام لا في خصوصه^(٦)، ثم إنه يكون مضغة في حصتها أيضاً من الأربعين، محكمة

١- جامع العلوم والحكم ص ٥٢.

٢- فتح الباري ١١/٤٨٦.

٣- انظر: الهداية الى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب ٧/٤٩٥١، وتفسير البحر المحيط لأبي حيان ٢/١٦٣، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/٣٥٢، وفتح الباري ١١/٤٨٦، قال ابن حجر بعد ذكر كلام سعيد: «وقد تمسك به من قال -كالأوزاعي، وإسحاق-: إن عدة أم الولد مثل عدة الحرة، وهو قوي؛ لأن الغرض استبراء الرحم، فلا فرق فيه بين الحرة والأمة».

٤- عبد الواحد بن عبد الكريم بن خلف الشيخ كمال الدين أبو المكارم ابن خطيب زمكا، كان عالماً خيراً متميزاً في علوم عدة، ولي القضاء بصرخد ودرس ببعلبك، توفي بدمشق سنة ٦٥١هـ، انظر: طبقات الشافعية الكبرى ٨/٣١٦، والأعلام للزركلي ٤/١٧٦.

٥- أي: قوي، لم يهرم، ولم يضعف، النهاية في غريب الأثر ١/٢٩٧.

٦- قوله: (فهما متساويان في مسمى الإتيان والإحكام لا في خصوصه)، يقصد أنهما متطابقان في اكتمال الخلقة وإتقانها ودقتها، فهذا مما يصح تسميته بالجمع سواء للجنين أو الرجل المكتمل؛ لما فيهما جميعاً من الاشتراك في الاكتمال والاتفاق، وإن كان مثل هذا التشبيه أو التعبير يصح صورة أو نظرياً مع ما بين المسميين من وجه اختلاف في خصوص هذا الاتفاق؛ فليس اكتمال أعضاء الجنين =

الخلق مثلما أن صورة الإنسان محكمة بعد الأربعين يوماً، فنصب "مِثْلَ ذَلِكَ" على المصدر لا على الظرف، ونظيره في الكلام قولك: إن الإنسان يتغير في الدنيا مدة عمره، ثم تشرح تغيره فتقول: ثم إنه يكون رضيعاً، ثم فطيماً، ثم يافعاً، ثم شاباً، ثم كهلاً، ثم شيخاً، ثم هرمًا، ثم يتوفاه الله بعد ذلك، وذلك من باب ترتيب الإخبار عن أطواره التي ينتقل فيها مدة بقائه في الدنيا»^(١)، وطالما أن النفخ بعد التخلق، والتخلق في الأربعين الأولى، ويليه طور العظام وكساؤه باللحم، ثم النفخ في الروح، عليه فالنفخ محتمل قبل المائة والعشرين.

٢- أحاديث حذيفة بن أسيد المصرحه بأن التخلق يكون في الأربعين الأولى^(٢)، وبأن إرسال الملك يكون بعد الأربعين الأولى كذلك، وليس بعد الشهر الرابع، فعنه **قال: قال رسول الله ﷺ: "إِذَا مَرَّ بِالنُّطْفَةِ اثْنَانِ وَأَرْبَعُونَ لَيْلَةً، بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهَا مَلَكًا، فَصَوَّرَهَا، وَخَلَقَ سَمْعَهَا، وَبَصَرَهَا، وَجِلْدَهَا، وَلَحْمَهَا، وَعِظَامَهَا، ثُمَّ قَالَ: يَا رَبِّ أَذْكَرٌ أَمْ أُنْثَى؟ فَيَقْضَى رَبُّكَ مَا شَاءَ، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ أَجَلُهُ؟ فَيَقُولُ رَبُّكَ مَا شَاءَ، وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ رِزْقُهُ؟ فَيَقْضَى رَبُّكَ مَا شَاءَ،**

=الأساسية في بطن أمة يساوي اكتمال خلقه الرجل وتمام قواه، فهذا القدر مما يختص به الرجل الكبير دون الجنين؛ لأن لكل واحد منهما خصوصيته في اكتماله، فتكون مسألة الاكتمال والاتفاق مسألة نسبية إضافية تختلف من الكبير الموجود عنها في الجنين المستتر، انظر: الموسوعة الفقهية للأجنة والاستنساخ البشري ١/٣٦٥، في الحاشية.

١- البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن لابن الزمكاني ص ٢٧٥.

٢- ومع أنه لم يرد في هذه الأحاديث ذكر نفخ الروح، فإنه قد ورد في حديث ابن مسعود، والحقيقة أن ذكر تخليق الجنين وكتابة قدره مرتبط مع نفخ الروح، فحديث ابن مسعود ورد فيه: **"ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَلَكُ، فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤَمَّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكُتُبِ رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ"**، فهناك تلازم بين نفخ الروح والكتابة، فهما يحدثان معاً، ولا يوجد حديث واحد يبين أنهما في زمنين مختلفين. انظر: اختيار جنس الجنين دراسة فقهية طبية لعبد الرشيد قاسم ص ١٣٨، ١٣٩.

وَيَكْتَبُ الْمَلَكُ^(١)، وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "يَدْخُلُ الْمَلَكُ عَلَى النُّطْفَةِ بَعْدَ مَا تَسْتَقِرُّ فِي الرَّحِمِ بِأَرْبَعِينَ أَوْ خَمْسَةَ وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً، فيقول: يَا رَبِّ أَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ؟ فيُكْتَبَانِ، فيقول أَيُّ رَبِّ أَدَكَرُّ أَوْ أُنْثَى؟ فيُكْتَبَانِ، وَيَكْتَبُ عَمَلُهُ، وَأَثَرُهُ، وَأَجَلُهُ، وَرِزْقُهُ"^(٢)، وعنه رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ بأذني هاتين يقول: "إِنَّ النُّطْفَةَ تَقَعُ فِي الرَّحِمِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، ثُمَّ يَتَصَوَّرُ عَلَيْهَا الْمَلَكُ - قَالَ زُهَيْرٌ^(٣) حَسِبْتُهُ قَالَ - الَّذِي يَخْلُقُهَا فيقول يا رَبِّ أَدَكَرُّ أَوْ أُنْثَى..."^(٤)، وفي رواية: "إِنَّ مَلَكًا مُوَكَّلًا بِالرَّحِمِ إِذَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يَخْلُقَ شَيْئًا بِإِذْنِ اللهِ لِيَضَعَ وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً..."^(٥)^(٦).

وهذه الأحاديث تدل على أن لفظ "في ذلك" في رواية مسلم لحديث ابن مسعود يعود إلى الوقت، أي إلى الأربعين يوماً، و"مِثْلَ ذَلِكَ"، فإنه يعود إلى جمع الخلق. وتدل على أن بدء تخلق العظام يكون بعد الليلة الثانية والأربعين والقول بأن الأطوار الأولى من نطفة وعلقة ومضغة في مائة وعشرين تقتضي أن العظام يبدأ تخليقها بعد ١٢٠ يوماً، وهذا يتعارض مع ظاهر الحديث، وحقائق العلم^(٧).

- ١- أخرجه مسلم، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الأدمي في بطن أمه... ٢٠٣٧/٤ برقم: ٢٦٤٥.
- ٢- أخرجه مسلم، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الأدمي في بطن أمه... ٢٠٣٧/٤ برقم: ٢٦٤٤.
- ٣- زهير بن معاوية بن حُدَيْج، أبو خَيْثَمَةَ الجعفي الكوفي، أحد الثقات الحفاظ، ومعدن العلم.
- ٤- أخرجه مسلم، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الأدمي في بطن أمه... ٢٠٣٨/٤ برقم: ٢٦٤٥.
- ٥- أخرجه مسلم، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الأدمي في بطن أمه... ٢٠٣٨/٤ برقم: ٢٦٤٥.
- ٦- الاختلاف الوارد في روايات الحديث بالنسبة لبعث الملك بعد أربعين يوماً، أو ليلة، أو اثنين وأربعين، أو خمسة وأربعين ليلة، فمحمول على اختلاف ذلك باختلاف الأجنّة، فبعضها يكون بعد الأربعين مباشرة، والبعض الآخر بعد خمسة وأربعين، ويؤكد هذا الأمر ما ثبت طبيّاً من أن الأجنّة تختلف في درجات وسرعة النمو كما هو الشأن بعد الولادة. انظر: اختيار جنس الجنين ص ١٣٨، وخلق الإنسان للبار ص ٢٣٣.
- ٧- وقد نبه على هذا التعارض الواضح مع الحقائق العلمية ابن رجب بقوله بعدما أورد حديث ابن مسعود برواية أحمد، والتي تشبه رواية البخاري، فضعف متنه وسنده حيث قال: «ورواية الإمام أحمد تدل على=

٣- حديث جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا اسْتَقَرَّتِ النُّطْفَةُ فِي الرَّحِمِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا أَوْ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، بَعَثَ إِلَيْهَا مَلَكًا، فيقول: يَا رَبِّ، مَا رِزْقُهُ، فيقال له، فيقول: يَا رَبِّ، مَا أَجَلُهُ، فيقال له، فيقول: يَا رَبِّ، ذَكَرَ أَوْ أَنْثَى، فيُعَلَّمُ، فيقول: يَا رَبِّ، شَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ، فيُعَلَّمُ»^(١)، وهو كذلك مصرح بأن التخلق يكون في الأربعين الأولى، وأن إرسال الملك يكون بعدها كذلك، وليس بعد الشهر الرابع.

٤- اختلاف العواطف بـ(الفاء) و(ثم) في قوله ﷺ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا﴾^(٢)، لتفاوت الاستحالات، يعني: أن بعضها مستبعد حصوله مما قبله، وهو المعطوف بـ﴿ثُمَّ﴾، فجعل الاستبعاد عقلاً، أو رتبته بمنزلة التراخي والبعد الحسي؛ لأن حصول النطفة من أجزاء ترابية غريب جداً، وكذلك جعل النطفة البيضاء دماً أحمر، بخلاف جعل الدم لحماً مشابهاً له في اللون والصورة، وكذا تصليبها حتى تصير عظماً؛ لأنه قد يحصل ذلك بالمكث فيما يشاهد، وكذا من لحم المضغعة عليه ليستره، فسقط ما قيل: إن الوارد في الحديث أن مدة كل استحالة أربعين يوماً؛ وذلك يقتضي عطف الجميع بـ﴿ثُمَّ﴾، إن نُظِرَ لآخر المدة وأولها، أو يقتضي العطف بالفاء إن نظر لآخرها فقط، وهذا

= أن الجنين لا يكسى اللحم إلا بعد مائة وستين يوماً، وهذا غلط لا ريب فيه»، وذكر أن ظاهر حديث ابن مسعود يدل على أن تصوير الجنين وخلق سمعه وبصره وجلده ولحمه وعظامه يكون في أول الأربعين الثانية، فيلزم من ذلك أن يكون في أول الأربعين الثانية لحماً وعظماً. جامع العلوم والحكم ص ٤٩، ٥٠.

١- أخرجه أحمد في المسند ٣/٣٩٧ برقم: ١٥٣٠٤، قال الهيثمي: «رواه أحمد، وفيه خفيف وثقه ابن معين وجماعة وفيه خلاف، وبقية رجاله ثقات»، مجمع الزوائد ٧/١٩٢.

٢- سورة المؤمنون: الآيات ١٢، ١٣، ١٤.

في العواطف الخمسة الأولى، أما قوله ﷺ: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾، فعطفه (بثم) للفتاوت بين الخلقين^(١).

وقد حمل ابن القيم حديث حذيفة على عدة احتمالات هي:
الأول: أن يكون المراد بالأربعين الأربعين الثالثة، وسمى المضغة فيها نطفة اعتباراً بأول أحوالها، وما كانت عليه، وهذا من تسمية الشيء باعتبار ما كان، وهي إحدى علاقات المجاز.

الثاني: أن المراد بها الأربعين الأولى وسمي كتابه تصويره وتقديره تخليفاً؛ اعتباراً بما يؤول إليه، ويكون قدر ذلك وكتبه وأعلم به الملك، ثم يفعله بعد الأربعين الثالثة؛ لأن التصوير عقب الأربعين الأولى غير موجود في العادة، وإنما يقع في الأربعين الثالثة وهي مدة المضغة.

الثالث: أن يكون المراد بالأربعين هنا هي الأربعين الأولى، وأن حقيقة التصوير يكون فيها، فَيَتَعَيَّن حَمْلُهُ على تصوير خفي لا يدركه إحساس البشر، فإن النطفة إذا تجاوزت الأربعين انتقلت علقه وحينئذ يكون أول مبدأ التخليق، فيكون مع هذا المبدأ -مبدأ التخليق- مبدأ التصوير الخفي الذي لا يناله الحس، ثم إذا مضت الأربعون الثالثة صورت -أي المضغة- التصوير المحسوس المشاهد، وهذا التقدير الثالث أليق بألفاظ الحديث وأشبهه وأدل على القدرة.

الرابع: أن النطفة بعد الأربعين تكون علقه ومضغة، ويصور خلقها، وتركب فيها العظام والجلد، ويشق لها السمع والبصر، وينفخ فيها الروح، وهذا لا يقتضي وقوع ذلك كله عقب الأربعين الأولى من غير فصل^(٢).

١- الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية لسليمان الجمل ١٨٥/٣.

٢- انظر: طريق الهجرتين ص ١٣٤، ١٣٥، والتبيان في أقسام القرآن لابن القيم ص ٢١٧-٢١٩.

وزاد غيره عدة احتمالات، وهي:
أن ذلك يختلف باختلاف الأجنة، فبعضهم يكتب له ذلك بعد الأربعين الأولى،
وبعضهم بعد الأربعين الثالثة^(١).

أن الكتابة تقع بعد الأربعين الأولى، والتصوير بعد الأربعين الثانية، ونفخ الروح
بعد الأربعين الثالثة^(٢).

الكتابة الأولى في السماء، والثانية في البطن، ويحتمل كون إحداهما في
صحيفة، والأخرى على جبين المولود^(٣).

وقد حدد ابن القيم العلامات الدالة على نفخ الروح بقوله: «فإن قيل: الجنين قبل
نفخ الروح فيه، هل كان فيه حركة وإحساس أم لا؟ قيل: كان فيه حركة النمو
والاغتذاء، كالنبات، ولم تكن حركة نموه واغتنائه بالإرادة، فلما نفخت فيه الروح
انضمت حركة حسيته وإرادته إلى حركة نموه واغتنائه»^(٤)، أي: الحركة الإرادية.

وحاصل الأمر:

أن ما قاله كثير من المفسرين وغيرهم في نفخ الروح مبناه على أن مراحل
التخلق الأولى للجنين من نطفة وعلقة ومضغة تتم في مائة وعشرين، وهذا ما
فهموه من حديث ابن مسعود، بينما الذي تدل عليه رواية حديث ابن مسعود في
مسلم، وأوضح من ذلك حديث حذيفة، أن التخلق في الأربعين الأولى، وهو الذي
بينته الحقائق الطبية كما مر، أن مراحل التخلق-النطفة والعلقة والمضغة- تنتهي

١- انظر: جامع العلوم والحكم ص ٥٤.

٢- انظر: شرح النووي على صحيح مسلم ١٦/١٩٠.

٣- انظر: فتح الباري ١١/٤٨٦.

٤- التبيان في أقسام القرآن ص ٢٢١.

بنهاية الأسبوع السادس^(١)، وفي بداية الأسبوع السابع يظهر طور العظام، وسيأتي ما قاله المعاصرون في الجوانب العلمية في المطلب التالي إن شاء الله تعالى.

تنبيه:

جاء في رواية لحديث ابن مسعود: "إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَةً"، وكلمة (نطفة) أدرجت فيها، فعمقت المفهوم الخاطئ لأطوار الجنين، وهذه الكلمة (نطفة) غير موجودة في رواية البخاري، أو أي رواية صحيحة^(٢).

١- نقل الحافظ ابن حجر عن الطبيب الفاضل علي بن المهذب الحموي، اتفاق الأطباء على أن خلق الجنين في الرحم يكون نحو الأربعين، وفيها تتميز أعضاء الذكر دون الأنثى؛ لحرارة مزاجه وقواه. فتح الباري ٤٨١/١١.

وقد ذكر الطبيب أحمد بن محمد البلدي المتوفى ٣٨٠هـ، في كتابه تدبير الحبالى نقلاً عن دير قيس الحكيم وغيره من الأطباء: أن الجسد يظهر مفصلاً ويكمل ذلك إلى تمام أربعة وأربعين ليلة، بل قال: فتكمل الصورة، ويتم الخلق، وتتميز العينان والأنف وجميع الأعضاء، ويجري فيه روح الحياة، انظر: تدبير الحبالى والأطفال والصبيان وحفظ صحتهم ومداواة الأمراض العارضة لهم لأحمد بن محمد البلدي ص ١٠١، ١٠٢.

٢- انظر: علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة ص ١٤٢، وأطوار الجنين ونفخ الروح لعبد الجواد الصاوي، بحث قدم إلى هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، ومنشور ضمن مجلة الإعجاز العلمي، العدد الثامن، ص ١١، ١٤٢٠هـ-٢٠٠١م.

المطلب الثاني: طور النشأة خلقاً آخر في ضوء الاكتشافات العلمية

يظهر على الجنين في نهاية الأسبوع الثامن خواص بشرية، فتكسي العظام بالعضلات التي يغطيها الجلد، وتتميز بعد ذلك بشكل واضح كل أعضاء الجسم، وتبدأ بالعمل، كما تتميز مرحلة (الحميل) والتي تضم مرحلة (النطفة، العلقة، المضغة) ببداية تكون الأعضاء وظهورها، وتعتبر نهاية طور كساء العظام هي الحد الفاصل بين مرحلتي - الحميل والجنين -، أما النشأة فتبدأ في الأسبوع التاسع،



ويكون معدل النمو بطيئاً حتى بداية الأسبوع الثاني عشر، وحينئذ يدخل طوراً جديداً من النمو السريع والتغير الكبير، وتتم عدة عمليات هامة في نمو الجنين تحت وصفين هامين هما النشأة والخلق الآخر^(١)، فيظهر على الجنين التصوير، والتسوية،

والتعديل، ثم النفخ في الروح، وقد تحدثنا عن التصوير وتكوين الوجه سابقاً، ويدخل في التصوير أيضاً جعله ذكراً أو أنثى، وأما التسوية فهي تتم مع التصوير وقبله وبعده، فهي تشمل جميع الأعضاء^(٢)، فعملية الهدم والبناء والتسوية والتعديل

١- علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة للزندانى وآخرين ص ١١١، ومدخل إلى رعاية الطفل والأسرة لمحمد قنديل وصافي ناز ص ٥٥، وعجائب النظر والتأمل لأسامة الناعسة ص ١٩٠.

٢- فالأطراف مثلاً عند أول ظهورها تبدأ كبرعم صغير مكون من تكثف لخلايا (الميزودرم) مغطى بغطاء من الطبقة الخارجية (الاكتودرم)، ثم تتكون في الطبقة المكثفة من الميزودرم خلايا غضروفية وترسب النسيج الغضروفي في موضع النسيج الغشائي، ثم ما تلبث الخلايا العظمية أن تظهر فتقوم بتفتيت النسيج الغضروفي، كما تتكون خلايا آكلة فتأكل الغضاريف وخلاياها وتضع الغضاريف عظاما تكون مراكز للتمعظم، وينتشر منها التمعظم في أجزاء الهيكل الغضروفي، وهذه أنبوبة القلب المستطيلة تتحول إلى شكل S ثم تتكون الغرف المتتالية الأذين العام، والبطين العام، وبصلة القلب، والجيب الوريدي، ثم يعاد التركيب ليدخل الجيب الوريدي في الأذين الأيمن، وتدخل بصلة القلب في البطين =

مستمرة في الجنين بشكل مثير، إذ كل يوم بل كل ساعة تشهد جديداً، ومن له معرفة بعلم الأجنة وعلم التشريح وعلم وظائف الأعضاء يعرف كيف أن أجهزة الجسم المختلفة تهدم ويعاد بناؤها باستمرار^(١)، وتتجلى هذه التسوية والتعديل في أجل صورها في الجنين، ثم تقل نسبياً بعد الولادة، ثم تقل كذلك بعد البلوغ، ولكنها لا تتوقف حتى في الشيخوخة، ففي كل لحظة هناك تغيير في الشكل، أو في الوظيفة، أو في إزالة مجموعة من الخلايا قد أدت وظيفتها، أو في بناء مجموعة أخرى، ليظهر بذلك أن ما يحدث في الجنين شبيه إلى حد ما بما يحدث عند بناء عمارة^(٢)، فكل مرحلة تَدْلِفُ -تُدْخِلُ- إلى المرحلة التي بعدها، وكذلك في بناء جسم الإنسان، كل مرحلة تَدْلِفُ إلى المرحلة التي بعدها، وما استخدم من أدوات في المرحلة السابقة ولم يعد له حاجة، فلا بد من إزالته؛ حتى لا يعيق الطريق، هذه هي التسوية والتعديل، وهي عملية مستمرة في بناء جسم الإنسان منذ أن كان جنيناً إلى أن يصبح شيخاً هرمًا، ولكن هذه التسوية والتعديل أبرز ما تكون في الجنين، ولا يمكن أن تتم التسوية والتعديل إلا بعد وضع الأسس، والأسس لجميع

=الأيمن والأيسر، ومن بصلة القلب أيضا تنشأ جذور الشريان الأورطي والشريان الرئوي، انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن ص ٣٧٤.

١- هناك جهاز واحد فقط لا يشمل التغيير والتبديل المستمر وهو الجهاز العصبي، فالجهاز العصبي (الدماغ والنخاع الشوكي والأعصاب) لا يتغير بعد الولادة من حيث الهدم والبناء، ولكنه يتغير من حيث اتصالات الخلايا العصبية ببعضها، أما قبل الولادة في الجنين وخاصة في الشهر الثاني من الحمل فإن التغيير يكون فيه على أشده. انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن للبار ص ٣٧٤.

٢- فهناك السقالات والأعمدة التي تقام، ثم تهدم وتزال بعد أداء وظيفتها، وهناك الأساس أولاً، ثم بناء الأعمدة والجدران، ثم بعد ذلك تأتي مرحلة الأبواب والنوافذ، ثم تأتي بعد ذلك مرحلة التبليط والترتيب والتحسين (الديكور)، ولا يمكن أن تقوم مرحلة التبليط قبل بناء الأعمدة والجدران، ولا يمكن وضع التحسينات قبل إقامة الأبواب والنوافذ. انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن للبار ص ٣٧٥.

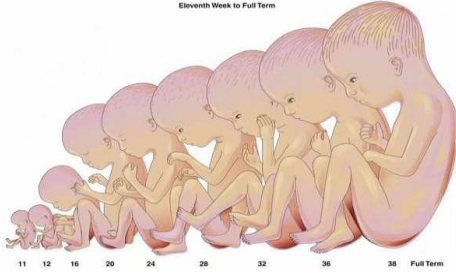
الأعضاء توضع في الفترة ما بين الأسبوع الرابع والثامن، ولهذا تعتبر هذه الفترة هي الفترة الحرجة التي تكون فيها الجينات أشد ما تكون قابلية للتغيير، ولذا فإن تأثير الأدوية والعقاقير أو الأشعة أو الحميات مثل الحصبة الألمانية تكون في أوج تأثيرها على الجنين في هذه الفترة^(١).

خصائص ومميزات مرحلة النشأة:

١- التطور للأعضاء والأجهزة: فكما تميزت مرحلة الحمل ببداية تكون الأعضاء وظهورها، تتسم مرحلة الجنين اللاحقة لها بتكامل أجزاء الجنين، وتهيئة الأعضاء والأجهزة المختلفة للقيام بوظائفها، فالهيكل العظمي يتطور من العظام الغضروفية اللينة إلى عظام صلبة متكلسة، وفي الأسبوع الثاني عشر من الحمل تظهر مراكز التعظم في غالب العظام، وتتمايز الأطراف، كما تتميز البصمات الخاصة بالجنين، ومن الممكن رؤية الأظافر على الأصابع، وتتوازن أحجام الرأس والجسم والأطراف، ولا سيما بين الأسبوعين التاسع والثاني عشر، ويظهر الشعر الزغبي على الجلد، الذي يتمايز في هذه المرحلة إلى بشرة وأدمة، ويزداد حجم الجنين بسرعة بصورة عامة، ويتم التمييز بين الأعضاء التناسلية الخارجية بصورة واضحة في الأسبوع الثاني عشر، وتتطور العضلات الإرادية وغير الإرادية، ويظهر الجنين في هذه المرحلة بعض الحركات العادية الذاتية، وبعض التقلصات العضلية الانعكاسية إذا ما نبهت بمنبه خارجي، وبصورة عامة فإن التطور الوظيفي للجهاز العصبي يوازي تطور الدماغ والحبل الشوكي، وتظهر الحركات البدائية والغريزية كالمص والقبض بعد ذلك بفترة طويلة، ويستقر عمل القلب،

١- خلق الإنسان بين الطب والقرآن ص ٣٧٢-٣٧٦، ومباحث في إعجاز القرآن ص ٢٣٦.

ويتطور الجهاز الدوري، ومن ذلك فإن هذا الطور من مراحل التخلق يمثل مرحلة انتقال مهمة للجنين، حيث تظهر هذه الاستجابات الحركية المنسقة التي تتطور



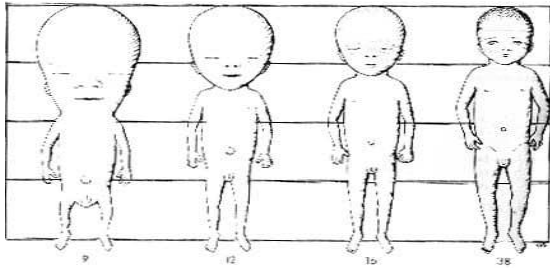
تدرجياً، وتكون أكثر شدة، وبالإضافة لذلك تحدث تطورات كثيرة ودقيقة في الجنين الذي انتقل من مرحلة خلقه الأولى حميل إلى مرحلة الجنين، ويستقر كذلك عمل المشيمة التي هي

تعتبر الجهاز التنفسي والجهاز الهضمي الأول للجنين في هذه المرحلة^(١).

وبهذا التطور للأعضاء والأجهزة يتهيأ الجنين تماماً -بدقة وإحكام- للعالم الخارجي الذي لم يراه^(٢)، فسبحان الله الخالق الحكيم.

٢- التغيرات في مقاييس الجسم، واكتساب الصورة الشخصية

وتتغير خلال مرحلة النشأة مقاييس الجسم، وتتخذ ملامح الوجه المقاييس



البشرية المألوفة، فتنقل الأذن على سبيل المثال من الرقبة إلى الرأس، وتتحرك العينان إلى مقدمة الوجه، ويصبح الطرفان السفليان أكثر طولاً مقارنة

بالجسم، ومحيط الرأس الذي كان يساوي محيط البطن تقريباً، يبدأ بالتعديل والتغير، فيزداد محيط البطن فيما بعد، لتتعدل الصورة، وتتناسق أحجام أجزاء

١- انظر: علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة للزندان ص ١١٣، ١٢٥، وموسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة ليوسف الحاج أحمد ص ١٠٨، وخلق الإنسان في القرآن الكريم للنجار ص ٣٣٩، ودليل الأنفس لمحمد عز الدين توفيق ص ١٤٢، ١٤٣، ومدخل إلى رعاية الطفل والأسرة لمحمد قنديل وصافي ناز ص ٥٥، وعجائب النظر والتأمل لأسامة الناعسة ص ١٩٠.

٢- انظر: معجزة خلق الإنسان لهارون يحي ص ١٣٩.

الجسم لدى الجنين، فيتخذ المقاييس الطبيعية (التعديل)، ويحدث اكتساب الصورة الشخصية (التصوير)^(١).

٣- تحديد الجنس: وهناك ثلاث خطوات تحدد نمو الخصائص الجنسية (التذكير والتأنيث):

تحدث الخطوة الأولى: في مرحلة النطفة (التقدير في النطفة).

أما الخطوة الثانية: وهي تمايز غدتي التناسل على شكل خصيتين أو مبيضين، فإنها تحدث خلال مرحلة الكساء باللحم.

وتحدث الخطوة الثالثة: وهي تميز وظهور الأعضاء التناسلية الخارجية، وذلك خلال هذا الطور -النشأة-، وذلك بخلق الأعضاء التناسلية الخارجية التي يتم بها التمييز النهائي للذكورة والأنوثة، وتكتمل بها أطوار تحديد الجنس، ويتم ذلك في الأسبوع الثاني عشر، إذ أنها كانت متماثلة إلى الأسبوع التاسع، ويصعب قبل الأسبوع الثاني عشر التمييز بسهولة بين الأعضاء التناسلية الخارجية للجنسين^(٢).

علماً بأن التطور الجنسي لمستقبل الجنين المتمثل في الغدد والأعضاء التناسلية الخارجية قد تحدد سلفاً وفقاً لجنس الكروموزوم، إلا أنه يحدث أحياناً أن الأعضاء التناسلية الخارجية تتطور في وضع مغاير للوضع الجيني السابق بالنسبة لتحديد نوع الجنس^(٣).

١- انظر: علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة للزندان وآخرين ص ١١٥، وإعجاز آيات القرآن في خلق الإنسان لفياض ص ١١١، ١١٢، ودليل الأنفس لمحمد عز الدين توفيق ص ١٤٣، ومدخل إلى رعاية الطفل والأسرة لمحمد قنديل وصافي ناز ص ٥٥.

٢- انظر: علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة للزندان وآخرين ص ١١٩، وخلق الإنسان بين الطب والقرآن للبار ص ٣٥٣، ومدخل إلى رعاية الطفل والأسرة لمحمد قنديل وصافي ناز ص ٥٥.

٣- انظر: علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة للزندان وآخرين ص ١٢٠.

٤- **نفخ الروح:** في هذا الطور تنفخ الروح في الجنين^(١)، ومما يمكن ذكره كعلامة ودليل على نفخ الروح في الجنين ظاهرة النوم في الجنين؛ ذلك أن هناك نصوصاً قرآنية تؤكد على أن الروح تغادر الجسد وقت النوم، وتعود إليه وقت اليقظة^(٢)، وعليه يمكن اعتبار ظاهرة النوم علامة على وجود الروح في الجنين^(٣)، كما أنه لا بد من إجراء المزيد من الدراسات فيما يتعلق بنمو الأعصاب في الجنين، لتحديد وقت نمو أنماط النوم لديه، فلعل ذلك يكون محددًا لمرحلة نفخ الروح، كما أنه عندما يتمكن الجنين من التحرك إرادياً برغبة منه مقارنة بالحركة الانعكاسية اللاإرادية، فإنه يمكن اعتبار ذلك دليلاً على وجود الروح أيضاً^(٤).

٥- **القابلية للحياة والحضانة الرحمية:** كما يتم تهيئة الجنين للحياة خارج الرحم عندما يصبح الجهاز التنفسي مؤهلاً للقيام بوظائفه، وكذلك الجهاز العصبي مؤهلاً لضبط حرارة الجسم ووظائفه الأخرى، فيدخل الجنين في فترة أخرى (القابلية للحياة)، وهي المدة اللازمة والكافية ليصبح الجنين قابلاً للحياة خارج الرحم، وهي (ستة أشهر قمرية)، في الأسبوع الثاني والعشرين، وحين يكتمل خلق الإنسان، وبتهيؤهِ للحياة بعد الشهر السادس يدخل بعدها فترة حضانة رحمية، فلا تنشأ أجهزة

١- انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن للبار ص ٣٧٢.

٢- قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمِمْسِكَ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأَخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢].

٣- ففي أثناء النوم تحدث بعض الرؤى المنامية الصادقة التي تتحقق بعد رؤية النائم لها بفترة من الزمن، وهذا دليل على أن النائم يمكن أن يرى شيئاً من المستقبل قبل وقوعه، ومن المؤكد أن جسم الإنسان لم ينتقل من مكانه ليرى ذلك الشيء، وهذا يدل على أن الروح هي التي رأت ذلك، وهي التي تعطي الإنسان إذا استيقظ الشعور بأنه كان في مكان بعيد ثم حضر لتوّه، وأن الروح التي رأت الرؤيا هي نفسها تتذكرها في حالة اليقظة، انظر: علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة ص ١١٤، الحاشية.

٤- انظر: علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة ص ١١٤، ومدخل إلى رعاية الطفل والأسرة ص ٥٥.

أو أعضاء جديدة، فكلها قد وجدت وأصبحت مؤهلة للعمل، ويقوم الرحم بتوفير الغذاء والبيئة الملائمة لنمو الجنين، وتستمر الحضانة الرحمية إلى مرحلة المخاض والولادة التي تبدأ بعد مرور تسعة أشهر قمرية، وتنتهي بولادة الجنين، بينما كانت الفترة السابقة فترة حفظ وحضانة للجنين في الرحم، ويمثل هذه الفترة مرحلة التخلي عن الجنين ودفعة خارج الجسم، وسيأتي الحديث عن ذلك إن شاء الله تعالى^(١).

زمن نفخ الروح في الجنين عند المعاصرين:

حصل الخلاف بين العلماء والأطباء المتأخرين في زمن نفخ الروح:

القول الأول: النفخ في الروح بعد ١٢٠ يوماً، وقد أخذ بذلك كثير من المعاصرين^(٢)؛ عملاً بالإجماع المنقول على ذلك^(٣)؛ ولأنه في بداية الشهر الخامس تتصل المناطق المخية العليا الموجودة في قشرة الدماغ والمناطق السفلية من المخ وبقية الجهاز العصبي، فقد أوضح (بوليوس كورين) في المؤتمر الدولي للأخلاقيات (زرع الأعضاء) ١٩٨٩م، بأن خلايا المخ لا تتشابك ولا تتصل في الجنين إلا عند بلوغه ١٢٠ يوماً منذ التلقيح^(٤)، فيكون المخ قد تكون، وفيه مجال

١- انظر: مدخل إلى رعاية الطفل والأسرة لمحمد قنديل وصافي ناز ص٥٦، وعلم الأجنة في ضوء القرآن والسنة للزنداني ص١٢٩، ١٣٠، وعجائب النظر والتأمل لأسامة الناعسة ص ١٩٠.

٢- انظر: اختيار جنس الجنين دراسة فقهية طبية ص١٣٣، والموسوعة الفقهية للأجنة والاستنساخ البشري ١/٤٠٤، ومدى مشروعية استخدام الأجنة البشرية في إجراءات تجارب البحث العلمي ص٥٩، والأحكام المتصلة بالعقم والإنجاب ومنع الحمل ص٧٢٢، وأحكام الجنين من النطفة إلى الاستهلال لعلي الإبياتي ص١٩٦، وفقه القضايا الطبية المعاصرة لداغي والمحمدي ص٤٤٣، والقرار المكين لشقفة ص٢٥٢.

٣- نقل الإجماع القرطبي، والنووي، والقاضي عياض انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٢/٨، شرح النووي لمسلم ١٦/١٩١، وفتح الباري ١١/٤٨٥.

٤- انظر: الجنين المشوه والأمراض الوراثية للبار ص٤١٦، والطبيب أدبه وفقهه للسباعي والبار ص٢٧٥، والموسوعة الطبية الفقهية لأحمد كنعان ص٣٠٥.

عمل قوى: الحفظ، والفكر، والذكر، والعلم، والكلام، والسمع، والبصر، والإحساس، والوعي، والإدراك، أي كل أنواع القوى التي يعتبر بها الإنسان إنساناً^(١)، فيتضح من هذا جلياً أن هذه الاتصالات هي بداية العمل، وأن هذه المناطق المخية لا تبدأ في العمل إلا بعد ١٢٠ يوماً منذ التلقيح، وهي المدة التي حددها الحديث النبوي الشريف لنفخ الروح في الإنسان^(٢).

ومنهم القائل: أصل تكوين النطفة والمضغة والعلقة توجد في الأربعين الأولى، لا حقيقتها وكمالها، والعلقة لا تسمى علقة كاملة قبل الأربعين الثانية، والمضغة لا تسمى مضغة قبل الأربعين الثالثة، فيكون هذا من قبيل الحقيقة، وأحاديث حذيفة من قبيل المجاز، كذلك تحمل أحاديث حذيفة التي جاء فيها ذكر التصوير، والسمع، والبصر، والجلد، واللحم، والعظم في بداية الأربعين الثانية، أي: على المجاز، والمقصود وجود أصل هذه المسميات لا كمالها وحقيقتها^(٣)، ولو فرضنا أن اكتمال هذه المراحل الثلاث في الأربعين الأولى، فإن ورود حرف العطف (ثم)

١- تبدأ البداية الأولى للجهاز العصبي في الظهور بعد تكون الشريط الأولي (البدايي) الذي يظهر في اليوم الخامس عشر منذ التلقيح، ثم يتكون جذع الدماغ والذي يعتبر المركز الأساسي للحياة بعد مرور ٤٢ يوماً، وتكون جميع أجزائه موجودة في هذه الفترة (يتكون من الدماغ الأوسط، والقنطرة، والنخاع المستطيل)، وهو يحتوي على المراكز الأساسية للحياة، كالوعي، والتنفس والدورة الدموية، والتحكم في القلب، ويعتبر موته دليلاً على موت الإنسان عند جمهور الأطباء، وفي الـ ١٢٠ يوماً يكون المخ قد تكون وفيه مجال عمل كل القوى، إذ ينمو فصا المخ نمواً كبيراً، ويرتبط بهما: التفكير، والإحساس، والإرادة، والعواطف، والذاكرة، فاعتبر ذلك بداية لنفخ الروح. انظر: الجنين المشوه والأمراض الوراثية للبار ص ٤٠١، ٤١٦-٤١٨، ٤٣٠.

٢- الموسوعة الفقهية للأجنة والاستنساخ البشري لسعيد منصور موفعة ٤٠٩/١. قلت: لم ينص الحديث نصاً على أن النفخ بعد مائه وعشرين، وإنما هو فهم فهمه من قال ذلك باعتبار تعدد الأربعينات، وقد سبق ذلك.

٣- الموسوعة الفقهية للأجنة والاستنساخ البشري لسعيد منصور موفعة ٤٠٩/١.

في القرآن وأحاديث البخاري يكفي لإفادة التراخي في نفخ الروح إلى ما بعد ١٢٠ يوماً^(١).

وهذا القول يرد عليه عدة اعتراضات سبق ذكرها.

القول الثاني: إمكان نفخ الروح بعد الأربعين^(٢)؛ لأنه لا يوجد نص صريح وصحيح ذكر فيه نفخ الروح، إلا حديث ابن مسعود في جمع الخلق، وقد اتفق علماء المسلمين على أن الجنين تنفخ فيه الروح بعد اكتمال طور المضغة، بناء على حديث ابن مسعود، وبما أنه قد ثبت أن زمن المضغة يقع في الأربعين يوماً الأولى، بنص أحاديث حذيفة بن أسيد المصرحه بأن التخلق يكون في الأربعين الأولى، وبأن إرسال الملك يكون بعد الأربعين الأولى، وليس بعد الشهر الرابع، وتوافق حقائق علم الأجنة مع هذه الأوصاف الشرعية لأطوار الجنين؛ فالروح تنفخ بعد الأربعين الأولى من عمر الجنين، ولكن لا يستطيع أحد أن يحدد ذلك على وجه الجزم واليقين في يوم بعينه بعد الأربعين الأولى، لكن يمكن أن يجتهد في تحديد الموعد التقريبي استئناساً بقول الله ﷻ: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوْحِهِ﴾^(٣)، حيث تدل على أن الروح تنفخ في الجنين بعد التسوية، وبما أن التسوية تأتي بعد الخلق مباشرة؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾^(٤)، فيمكن القول بأن الروح

١- المصدر نفسه ١/٤١٠.

٢- انظر: أثر بحوث الإعجاز العلمي في بعض القضايا الفقهية للمصلح والصاوي، بحث قدم للمؤتمر الثامن للإعجاز العلمي في الكويت، العلوم الطبية، جزء ١، ص ٢٧، ومنشور ضمن مجلة الإعجاز العلمي، عدد ٢٩، ١٤٢٩هـ، ص ٣٧، واختيار جنس الجنين دراسة فقهية طبية ص ١٣٣، ومدى مشروعية استخدام الأجنة البشرية في إجراءات تجارب البحث العلمي ص ٧٣، والموسوعة الفقهية للأجنة والاستنساخ البشري ١/٤٠٦.

٣- سورة السجدة: الآية ٩.

٤- سورة الانفطار: الآية ٧.

تتنفخ في الجنين بعد مرحلة الخلق في مرحلة النشأة خلقاً آخر، أي بعد الأسبوع الثامن من عمره، وهو استنتاج معظم المفسرين الذين قالوا: إن طور النشأة خلقاً آخر هو الطور الجنيني الذي تنفخ فيه الروح، والذي لا يكون إلا بعد طوري العظام وكسائه باللحم، ويعضد ذلك حرف (ثم) الذي يفيد التراخي في حدوث الفعل، حينما ذكر مع نفخ الروح في حديث جمع الخلق، حيث ورد: **«ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ»**^(١) كما في البخاري، أو: **«ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَلَكُ، فَيَنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ»**^(٢)، كما في مسلم، وحيث إنه لا ينتهي الأسبوع الثامن إلا وجميع الأجهزة الرئيسة قد تخلقت، وانتهى طور المضغعة في الأربعين يوماً الأولى من عمر الجنين، وتميزت الصورة الإنسانية، وسوي خلق الإنسان خلال هذه الفترة أو بعدها بقليل؛ فعليه يمكن للروح أن تنفخ في الجنين بعد انتهاء عملية الخلق في الأسبوع التاسع، أو العاشر، أو بعد تميز الأعضاء التناسلية في الأسبوع الثاني عشر، أو بعد ذلك^(٣).

وقد أثبتت الأجهزة الحديثة رؤية حركات جسم الجنين في وقت مبكر؛ حيث يمكن أن تصور عند الأسبوع الثامن، أو عندما يبلغ كيس الحمل ٣سم، أو يبلغ طول الجنين حوالي ١٥م، كما يمكن أن ترى الحركات الجنينية التي تعبر عن حيوية الجنين، مثل حركات التنفس، وحركات الأطراف العليا، وضربات القلب، وحركات عدسة العين، والبلع، وحركات الأمعاء الدودية، كما رصدت الحركات التي تعبر عن نشاط الجنين مثل: البلع، وحركة اليد إلى الفم، والمضغ، وحركات اللسان، وحركة اليد إلى الوجه، ومص الأصابع؛ والتي يمكن أن ترى عند الأسبوع

١- أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة ١١٧٤/٣ برقم: ٣٠٣٦.

٢- أخرجه مسلم، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه... ٢٠٣٦/٤ برقم: ٢٦٤٣.

٣- نظر: أثر بحوث الإعجاز العلمي في بعض القضايا الفقهية للمصلح والصاوي، بحث قدم للمؤتمر الثامن للإعجاز العلمي، العلوم الطبية، الجزء الأول، ص ٢٧.

السادس عشر؛ أي قبل مائة وعشرين يوماً، وتعتبر هذه الحركات انعكاساً غير مباشر لحالة الجهاز العصبي المركزي؛ فكلما كانت هذه الحركات موجودة ومتوازنة، كلما كانت حالة الجهاز العصبي نشطة وسليمة، وعليه فإمكانية نفخ الروح في الأجنة قائمة في أي وقت بعد الأربعين يوماً الأولى؛ في نهاية الأسبوع السابع، أو الثامن، أو التاسع، أو حتى بعد أربعة أشهر، وإن كان الراجح من النصوص أن الروح تنفخ بعد الأسبوع الثامن من التلقيح؛ لدلالة النصوص الصريحة والصحيحة على ذلك، ولعدم وجود حديث واحد صحيح أو حسن، يصرح بأن الروح لا تنفخ في الجنين إلا بعد أربعة أشهر، ومما يؤكد ذلك الحقائق العلمية الثابتة في علم الأجنة، ومن أهمها رؤية مراحل الجنين المختلفة منذ بداية تكونه، واكتمال خلقه وتصويره، وقيام معظم أجهزته بوظائفها، ورصد حركته الذاتية وأنشطته البدنية قبل أربعة أشهر على وجه القطع^(١).

يقول الطبيب البار: «تبدأ حركات إرادية محدودة جداً في الأسبوع الثامن، وتنتضح في الأسبوع الثاني عشر، وتحس بها الأم الحامل في نهاية الأسبوع السادس عشر بوضوح تام»^(٢).

وفي عام ١٩٨٥م عرض فيلم (الصيحة الصامتة)، والذي بدأ بعرض جنين سليم تم تصويره بالأشعة فوق الصوتية، وانتهى بتقطيع أوصاله، وفصل رأسه عن جسده، وهو يسبح في السائل المحيط داخل الرحم، بفعل آلة الإجهاض (الجيلوتين) والتي تعمل على تهشيمه تماماً، وأظهر الفلم تعرض الجنين لآلام رهيبية حتى تمت عملية الإجهاض، كما أوضح أن الطفل داخل الرحم في حالات

١- أثر بحوث الإعجاز العلمي في بعض القضايا الفقهية للمصلح والساوي، بحث قدم للمؤتمر الثامن للإعجاز العلمي، العلوم الطبية، الجزء الأول، ص ٢٧، ٢٨، ٢٩.

٢- انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن للبار ص ٣٥٣.

شعور بالألم؛ حيث يتحرك بعيداً عن آلة الإجهاض التي تجلب له الموت، كما تزيد ضربات قلبه الصغير زيادة كبيرة وصلت إلى ٢٠٠ ضربة في الدقيقة، وهذا رقم غير طبيعي كما تجمع على ذلك كافة المراجع الطبية، ويظهر صراخه بشدة كصراخ الغريق تحت الماء، وكان عمر الجنين ١٢ أسبوعاً فقط^(١).

القول الثالث: الروح تنفخ في الجنين بعد الشهر الثالث^(٢)؛ واستدلوا بنفس الأدلة السابقة مع محاولة الجمع بينها؛ إعمالاً لجميع النصوص، فحديث ابن مسعود الذي في البخاري يدل على أن نفخ الروح يكون بعد أن يكتب الملك الأجل والرزق والشقاوة والسعادة، وذلك بعد أطوار النطفة والعلقة والمضغة، كذلك حديث ابن مسعود الذي في مسلم بلفظ: **"فِي ذَلِكَ"**، والتي تعود على جمع الخلق، فدل على أن أطوار النطفة، والعلقة، والمضغة تتم في فترة جمع الخلق الذي يكون في أربعين يوماً، وحديث حذيفة يدل على أنه بعد التخلق يكون التصوير وخلق السمع، والبصر، والجلد، واللحم، والعظام، وتحديد الجنس، وبعد ذلك تكون كتابة الأجل والرزق، وبعده يكون نفخ الروح حسب حديث ابن مسعود، ومن الحديثين نخلص إلى الترتيب التالي: خلق النطفة والعلقة والمضغة أولاً في الأربعين الأولى، ثم التصوير وخلق السمع والبصر والجلد واللحم والعظام وتحديد الجنس، ثم كتابة الملك للأجل والرزق والشقاوة والسعادة، وبعده يكون نفخ الروح^(٣).

١- انظر: الأحكام المتصلة بالعقم والإنجاب ومنع الحمل ص ٧٣٥، ٧٣٦.

٢- انظر: اختيار جنس الجنين دراسة فقهية طبية ص ١٣٣. نقلا عن الشيخ عبد المجيد الزنداني.

٣- فيما أن المخبر عنه هنا هو جمع الخلق، والنطفة، والعلقة، والمضغة، والكتابة، والنفخ للروح، وقد جاء طور نفخ الروح متأخراً عن جميع هذه الأمور في أكثر من رواية، وبحرف العطف (ثم) الذي تفيد الترتيب مع التراخي، فتكون مرحلة النفخ هي الأخيرة، وأما ما جاء في رواية لمسلم: **"ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَلِكُ، فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤَمَّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ"** بتقديم النفخ على الكتابة، فقد روعي فيه ترتيب الكلام، ولم يراعَ =

وأثبت علم الأجنة أن خلق الجلد وأعضاء الجهاز التناسلي في الذكور والإناث لا يكتمل إلا في الأسبوع الثاني عشر -أي في نهاية الشهر الثالث-، وعليه تكون كتابة الملك بعد ذلك، ثم يكون نفخ الروح بعد الكتابة، فنستطيع الجزم بأن نفخ الروح لا يكون إلا بعد مضي ثلاثة أشهر على الجنين^(١).

كذلك قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٢)، والدالة على أن الروح إذا حلت في البدن تظهر عليه ظاهرة النوم واليقظة، وقد أثبت علم الأجنة أن الجنين يبدأ النوم واليقظة بعد الشهر الثالث^(٣)، والحركات الإرادية تتعلق بالروح، وهذه الحركات لا تظهر إلا بعد الشهر الثالث^(٤).

القول الرابع: لا يتم نفخ الروح قبل (٤٠)، ولا يتأخر عن (٤٥) يوماً من العلق؛ لحديث: **"يَدْخُلُ الْمَلَكُ عَلَى النَّطْفَةِ بَعْدَ مَا تَسْتَقِرُّ فِي الرَّحِمِ بِأَرْبَعِينَ أَوْ**

=فيه ترتيب الواقع، وهذا أسلوب معروف عند العرب، فإنها إذا عبرت عن أمر بأمر متعددة، ولبعضها تعلق بالأول، حسن تقديمه لفظاً على البقية، وإن كان بعضها متقدماً عليه وجوداً وحققة؛ لمراعاة التعلق، فلا يمنع هنا من القول: إن تعلق الروح بالخلق والأطوار أشد تعلقاً من الكتابة بهذه الأطوار، فروعياً تقديمه عليها، وإن كان حقه التأخير وحقها التقديم، فقد روعي ترتيب الكلام ولم يراع ترتيب الواقع، وقد حسن التقديم هنا؛ لأن القصد ترتيب الخلق الذي سيق الكلام لأجله، كما أنه يمكن تخريج رواية مسلم على أن ذلك من تصرف الرواة في الرواية بالمعنى؛ لأنه يجوز نقل الحديث بالمعنى، بالإضافة أن ترتيب النفخ وتأخيره بالحرف (ثم) بينما ترتيب تقديمه هو بالفاء أو الواو وهما لا يفيدان الترتيب كما يفيد حرف العطف (ثم)، كما أنه لا يمنع من القول إن ذلك يختلف باختلاف الأجنة.

الموسوعة الفقهية للأجنة والاستنساخ البشري / ١ / ٤٠٢.

١- اختيار جنس الجنين دراسة فقهية طبية ص ١٤٠.

٢- سورة الزمر: الآية ٤٢.

٣- انظر: اختيار جنس الجنين دراسة فقهية طبية ص ١٤١.

٤- المصدر نفسه.

خَمْسَةَ وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً...^(١)، وحديث: **"إِذَا مَرَّ بِالنُّطْفَةِ اثْنَانِ وَأَرْبَعُونَ لَيْلَةً، بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهَا مَلَكًا، فَصَوَّرَهَا...^(٢)**، واختلاف الروايات في يوم النفخ (٤٠، ٤٢، ٤٥) راجع لاختلاف الأجنة، ولا ندري في أي يوم يتم ذلك، إلا أنه لا يكون قبل (٤٠)، ولا يتأخر عن (٤٥)، والترتيب الوارد في حديث ابن مسعود ليس زمنياً، وإنما هو ترتيب جمعي، فتكون العلقة مثل النطفة، والمضغة مثل العلقة، في كون الجنين لا روح فيه، ولم يكتب قدره بعد؛ لأن حمل الحمل على الترتيب الزمني يتعارض مع ما توصل إليه الطب الحديث، بالإضافة إلى وجود تلازم بين نفخ الروح وكتابة المقادير والتخليق، فالملك يأتي لجميع ذلك مرة واحدة، لا في زمنين مختلفين؛ لأن مجموع الأحاديث يدل على ذلك^(٣).

وهذا القول يرد عليه أن نفخ الروح في الجنين إنما يكون في طور النشأة، وهو طور تالي لطور تكون العظام وكسائها باللحم، والعلم يثبت أنه يبدأ -طور النشأة- في الأسبوع التاسع، أي بعد اليوم السادس والخمسين، هذه بدايته، ونفخ الروح يسبق أموراً في طور النشأة.

خلاصة الأمر:

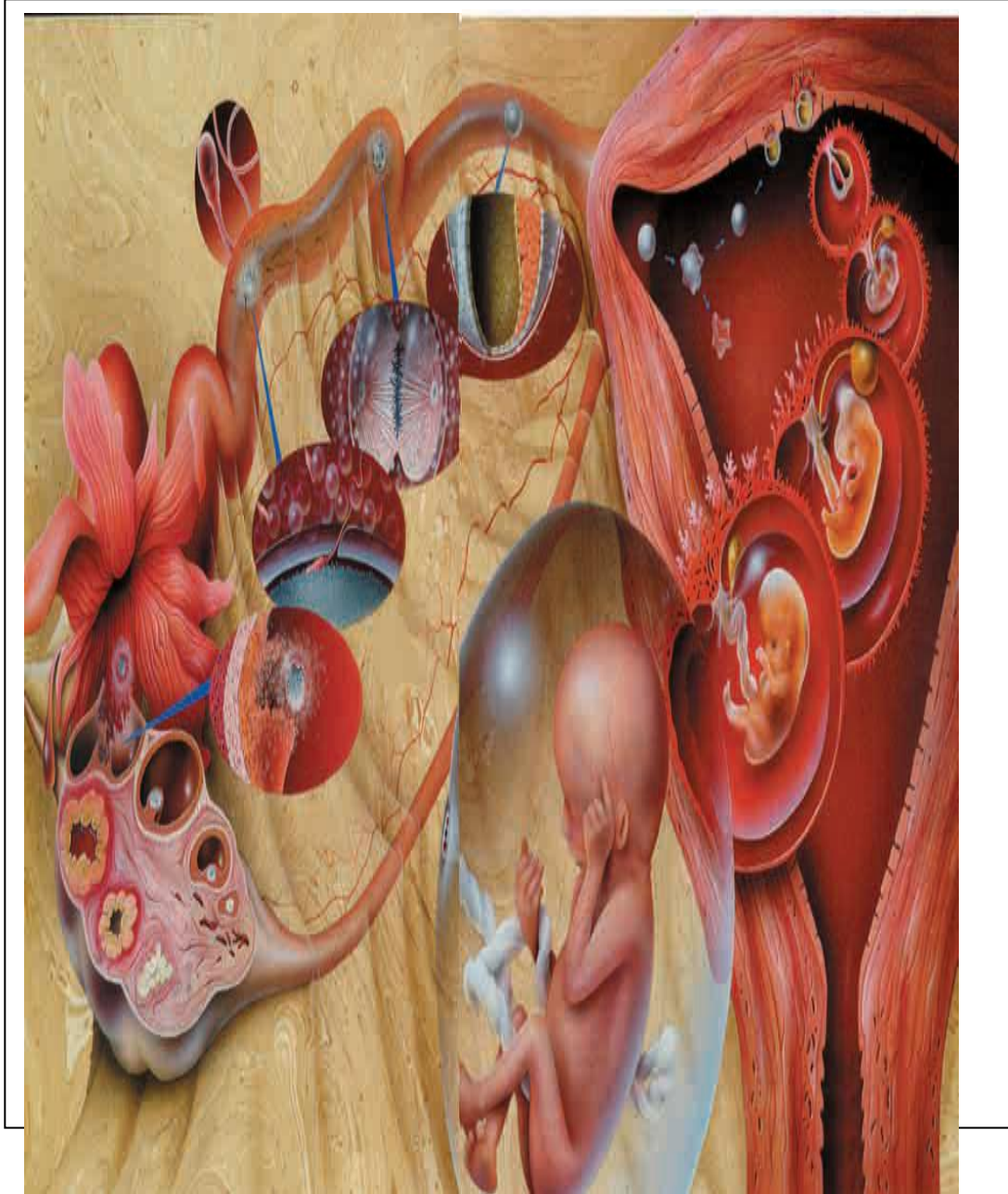
أن الاتفاق بين المتقدمين والمتأخرين حاصل على أن الروح لا تنفخ في الجنين قبل الأربعين يوماً الأولى، وكذلك حصل الاتفاق على أن الجنين بعد مائة وعشرين يوماً يكون قد نفخ فيه الروح، واختلفوا فيما بين الأربعين والمائة والعشرين، والسبب في ذلك يرجع إلى أنه لم يرد تحديد زمن نفخ الروح بوقت معين في الشرع، ولم يصل إلى معرفة ذلك أهل الاختصاص من الأطباء على وجه

١- أخرجه مسلم، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الأدمي في بطن أمه... ٢٠٣٧/٤ برقم: ٢٦٤٤.

٢- أخرجه مسلم، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الأدمي في بطن أمه... ٢٠٣٧/٤ برقم: ٢٦٤٥.

٣- انظر: دراسات فقهية في قضايا طبية معاصرة ١/٣٤٢-٣٤٥.

القطع واليقين، بالإضافة إلى أن الخلاف في زمن الأطوار الأولى للجنين -المنطقة والعلقة والمضغة- لا زال له أثره هنا، وإن كان من الثابت علمياً أن هذه الأطوار تتم خلال الأربعين يوماً الأولى، وما ذهب إليه المتقدمون ومن وافقهم من المتأخرين هو اجتهاد منهم في فهم حديث ابن مسعود تعارضه أحاديث حذيفة، والله أعلم.



المطلب الثالث: ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها

من خلال الدراسة التفسيرية والعلمية يتلخص ما يلي:

* كلمة (نشأة) مشتقة من فعل (نشأ)، ومن معانيها في اللغة: ارتفع وعلا، شَبَّ ونما، بَدَأَ ورَبَا، والنشأة: ارتفاع في شيء وسمو، والنشأة: الإيجاد والتربية.

* اختلف المفسرون في قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ إلى ثمانية أقوال: نفخ الروح فيه، أو تصريفه إياه في الأحوال بعد الولادة، أو خروج الأسنان والشعر، أو سوّى شبابه، أو الذكورة والأنوثة، أو إعطاء العقل والفهم، أو خروجه إلى الدنيا، أو أنه لا تعارض بين كل ما ذكر، والظاهر أن الآية ذكرت النشأة خلقاً آخر في سياق الحديث عن أطوار تخلق الجنين، وعليه فإنه يدخل في طور النشأة ما يمر به الجنين من تخلق بعد الكساء باللحم بمدة زمنية يدل عليها حرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ الدال على التراخي في الفترة الزمنية، ومن ذلك نفخ الروح، والذكورة والأنوثة أي تحديد جنس الجنين، ونبات الشعر، ومع هذا فإنه لا مانع من صحة ما ذكره المفسرون كما في القول الأخير، بدلالة نصوص القرآن الأخرى واللغة.

* قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ﴾، يعني: جمع خلقه في بطن أمه، وقوم أعضائه، وسوّى صورته في أحسن تقويم، وعدل خلقته بتكميل أعضائه في الرحم، وتصويرها على ما ينبغي، فأصبح شخص إنسان سوياً معتدلاً.

* قوله ﷻ: ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ﴾، يعني جعل الروح فيه، وأضيفت إلى الله تشريفاً، وهي فعله وخلقها، وقد يراد بها الاختصاص؛ لأن الروح لا يعلم كنهها إلا الله، ولهذا أمسك جماعة من العلماء عن الحديث عنها، وكثير من المفسرين وغيرهم على أن نفخ الروح يكون بعد ١٢٠ يوماً، وحُكي الإجماع عليه، غير أن قولهم مبناه على أن مراحل التخلق الأولى للجنين (نطفة وعلقة ومضغة) في

١٢٠، وهذا فهموه من حديث ابن مسعود، بينما رواية مسلم لحديث ابن مسعود، وحديث حذيفة أن ذلك في الأربعين الأولى كما بينته الحقائق العلمية، وذهب إليه ابن الزمكاني.

* في إحدى روايات حديث ابن مسعود أدرجت كلمة (نطفة)، فعمقت مفهوماً خاطئاً لأطوار الجنين، والكلمة غير موجودة في البخاري، أو أي رواية صحيحة.

* النشأة تبدأ في الأسبوع التاسع، ومن خصائصها ومميزاتها: التطور للأعضاء والأجهزة، والتغيرات في مقاييس الجسم واكتساب الصورة الشخصية، وتحديد الجنس بتميز وظهور الأعضاء التناسلية الخارجية التي يتم بها التمييز النهائي للذكورة والأنوثة، ونفخ الروح، والقابلية للحياة وهي المدة اللازمة والكافية ليصبح الجنين قابلاً للحياة خارج الرحم وهي (سنة أشهر قمرية)، والحضانة الرحمية، بأن يقوم الرحم بتوفير الغذاء والبيئة الملائمة لنمو الجنين، وتستمر الحضانة إلى مرحلة المخاض والولادة التي تبدأ بعد مرور تسعة أشهر قمرية.

* كثير من المعاصرين على أن النفخ في الروح بعد ١٢٠ يوماً، وقال آخرون بإمكان النفخ بعد الأربعين؛ ولا يستطيع أحد أن يحدد ذلك على وجه الجزم واليقين في يوم بعينه، ويمكن للروح أن تنفخ بعد انتهاء عملية الخلق في الأسبوع التاسع، أو العاشر، أو بعد تميز الأعضاء التناسلية في الأسبوع الثاني عشر، أو بعد ذلك، وفريق ثالث يرى أن الروح تنفخ في الجنين بعد الشهر الثالث؛ وفريق رابع قال: لا يتم نفخ الروح قبل (٤٠)، ولا يتأخر عن (٤٥) يوماً من العلوق.

* لم يرد تحديد زمن نفخ الروح بوقت معين في الشرع، ولم يصل إلى معرفة ذلك أهل الاختصاص من الأطباء على وجه اليقين والقطع، ومن الثابت علمياً أن هذه الأطوار الأولى للجنين -النطفة والعلقة والمضغة- تتم خلال الأربعين يوماً الأولى.

ومن خلال الدراسة التفسيرية والعلمية يظهر لي الآثار التالية:

* بينت المكتشفات العلمية صحة القول الذي جمع بين الأقوال في معنى النشأة، حيث أثبتت المكتشفات العلمية أنه في هذا الطور -النشأة- يتم نفخ الروح في الجنين، وتحديد الجنس، وكثير من العمليات الهامة التي ذكرها المفسرون.

* ظهور الإعجاز البلاغي لألفاظ القرآن الكريم، إذ إن كلمة (أنشأنا) بحسب استعمالها في القرآن الكريم تشمل أوضح التطورات والتغيرات الخارجية والداخلية في الملامح خلال هذا الطور من التخلق البشري، وتنطبق المعاني اللغوية لكلمة (نشأة) بشكل بين ومفهوم على هذه المرحلة، فما ورد بمعنى (بدأ) يصف لنا بداية عمل الأعضاء والأجهزة المختلفة، حيث نجد أن الكلية قد بدأت في تكوين البول، وتبدأ حويصلات الشعر في الظهور في الأسبوع العاشر، وما إلى ذلك، وأما معنى (نما) فإنه يبين النمو السريع والتطور الشامل في أعضاء وأجهزة الجسم خلال هذه المرحلة، وأما المعنى (ارتفع، وربما) فإنه يصف تلك الزيادة الواضحة والسريعة جداً في طول الجنين ووزنه، والتي تبدأ في الأسبوع الثاني عشر، ومرحلة النشأة مرحلة ارتفاع للجنين وسمو، وفيها إيجاد وعناية، ولذا فإن مصطلح (نشأة) ينطبق بصورة دقيقة ومناسبة للغاية في وصف مرحلة الجنين^(١).

* ظهور المعجزة العلمية؛ ذلك أن الفروق الهائلة التي تظهر على الجنين من نهاية الأسبوع الثامن -طور العظام والكساء باللحم-، ونهاية فترة الحمل، عبرت عنها الآية الكريمة باستعمال حرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ الدال على الترتيب والتراخي في الفترة الزمنية، في قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾^(٢)، بل سمي الطور بالنشأة

١- انظر: علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة للزنداني وآخرين ص ١٣٣.

٢- سورة المؤمنون: الآية ١٤.

خلقاً آخر؛ نظراً لما يظهر على الجنين من تطورات كبيرة ومراحل في هذا الطور، ومثل هذا التعبير الدقيق الذي كشف العلم اليوم عن دقة وصفه للجنين بما يكون شاملاً للتغيرات الكاملة التي تطرأ عليه، في حين أن علم الأجنة يستخدم الترقيم العددي دون إشارة إلى أي وصف^(١)، جاء به القرآن في زمن لم تعرف فيه البشرية أي وسيلة من وسائل العلم الحديث التي مكنت الإنسان من مشاهدة الجنين في القرون الأخيرة، لهو دليل قاطع على أن القرآن نزل من عند الله خالق الإنسان، معجزة لخاتم الرسل إلى الإنسانية، شاهدة على رسالته في عصر العلم والنهضة العلمية، مما جعل قادة العلوم التجريبية يقفون مذهولين أمام هذه المعجزة الباهرة، ليعلن (كيث مور) أحد أكبر علماء الأجنة في العالم إسلامه بعد اطلاعه على ما جاء في القرآن ومقارنته بما يحصل للجنين في كل طور ومرحلة من تخلقه، مما دله يقيناً أن ما في القرآن من عند خالق الإنسان.

* أن هناك احتمالاً لنفخ الروح في الجنين قبل ١٢٠ يوماً.

والله ﷻ أعلم

١- انظر: خلق الإنسان في القرآن الكريم للنجار ص ٣٤٠، وموسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة ليوסף الحاج أحمد ص ١١٢.

الفصل الرابع: صفة وحال خلق الإنسان

وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: خلق الإنسان في أحسن تقويم، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: خلق الإنسان في أحسن تقويم في القرآن الكريم.
المطلب الثاني: خلق الإنسان في أحسن تقويم في ضوء الاكتشافات العلمية.
المطلب الثالث: ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها.

المبحث الثاني: خلق الإنسان ضعيفاً، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: خلق الإنسان ضعيفاً في القرآن الكريم.
المطلب الثاني: خلق الإنسان ضعيفاً في ضوء المعطيات الواقعية والمكتشفات العلمية.
المطلب الثالث: ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها.

المبحث الثالث: خلق الإنسان في كبد، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: خلق الإنسان في كبد في القرآن الكريم.
المطلب الثاني: خلق الإنسان في كبد في ضوء المعطيات الواقعية والمكتشفات العلمية.
المطلب الثالث: ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها.

المبحث الرابع: خلق الإنسان من عَجَلٍ وهلوعاً، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: خلق الإنسان من عَجَلٍ وهلوعاً في القرآن الكريم.
المطلب الثاني: خلق الإنسان من عَجَلٍ وهلوعاً في ضوء المعطيات الواقعية والمكتشفات العلمية.
المطلب الثالث: ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها.

المبحث الخامس: خلق الإنسان لا يعلم شيئاً وإمداده بوسائل العلم،

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: خلق الإنسان لا يعلم شيئاً وإمداده بوسائل العلم في القرآن الكريم.
المطلب الثاني: خلق الإنسان لا يعلم شيئاً وإمداده بوسائل العلم في ضوء الاكتشافات العلمية.

المطلب الثالث: ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها.

المبحث الأول

خلق الإنسان في أحسن تقويم

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول:

خلق الإنسان في أحسن تقويم في القرآن الكريم.

المطلب الثاني:

خلق الإنسان في أحسن تقويم في ضوء الاكتشافات العلمية.

المطلب الثالث:

ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها.

المطلب الأول: خلق الإنسان في أحسن تقويم في القرآن الكريم

الآيات الواردة

قال الله ﷻ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾^(١).

وقال ﷻ: ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّدَكَ فَعَدَلَكَ﴾^(٢).

أقوال المفسرين:

اختلف المفسرون في المراد بالإنسان في قوله ﷻ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ

تَقْوِيمٍ﴾، على قولين:

القول الأول: جنس الإنسان، وهو ما ذهب إليه أكثر المفسرين^(٣)، فالمراد عموم

الناس، وذكر الإنسان على وجه التكثر؛ لأنه وصفه بما يعم لجميع الناس^(٤).

القول الثاني: أنه أراد إنساناً بعينه عناه بهذه الصفة، وإن كان صفة الناس^(٥).

ثم هؤلاء اختلفوا فيمن أراده الله تعالى على أقوال:

الأول: أراد آدم عليه الصلاة والسلام^(٦)، كأنهم نظروا إلى أول خلق الإنسان.

١- سورة التين: الآية ٤.

٢- سورة الانفطار: الآية ٧.

٣- انظر: جامع البيان للطبري ٥٠٨/٢٤، والكشف والبيان للثعلبي ٢٤٠/١٠، ومعالم التنزيل للبعوي ٢٧٧/٥، وزاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ١٧٢/٩، ولباب التأويل للخازن ٢٦٦/٧، وتفسير البحر المحيط لأبي حيان ٤٨٦/٨، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٦٤٣/٤، والجواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي ٤٢٦/٤، والسراج المنير للشرييني ٤٠٨/٤، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود ١٧٥/٩، وروح البيان لحقي ٣٦٠/١٠، والبحر المديد لابن عجيبة ٤٩٦/٨، وفتح القدير للشوكاني ٥٦٧/٥.

٤- انظر: النكت والعيون للماوردي ٣٠١/٦.

٥- انظر: النكت والعيون للماوردي ٣٠١/٦، وزاد المسير لابن الجوزي ١٧١/٩.

٦- انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب ٨٣٤٣/١٢.

الثاني: أراد محمداً ﷺ^(١)، وكأنهم نظروا للآية قبلها التي ذكرت مكة.

الثالث: أراد أبا الأشدين^(٢).

الرابع: أراد أبا جهل بن هشام^(٣).

الخامس: أراد الوليد بن المغيرة.

السادس: أراد عتبة وشيبة^(٤)^(٥).

فعلى هذه نزلت في الكفار منكري البعث^(٦).

والراجع: هو القول الأول - أن المراد جنس الإنسان-؛ لأن الإنسان وإن كان

لفظاً مفرداً، إلا أنه للجنس، بدلالة قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ رَدَدْتُهُ أَصْفَلَّ سَفَلِينَ إِلَّا الَّذِينَ

ءَامَنُوا﴾^(٧)، وهذا مثل قوله ﷻ في سورة العصر: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي

خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ﴾^(٨)، فباستثناء

الجمع منه، عُلم أن المراد به الجنس^(٩).

١- انظر: النكت والعيون للماوردي ٣٠١/٦، والدر المنثور للسيوطي ٥٥٤/٨.

٢- كلداء بن أسيد بن خلف الجمحي، جمهرة أنساب العرب ١٦١/١، وقيل اسمه أسيد بن كلداء بن خلف الجمحي. انظر: تفسير مقاتل بن سليمان ٢٨/٣.

٣- عمرو بن هشام المخزومي، أبو الحكم، وأما أبو جهل فالمسلمون كونه به. الكامل في التاريخ ١/٦٧٠.

٤- عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، وشيبة بن ربيعة بن عبد شمس.

٥- انظر من القول الثالث إلى السادس: بحر العلوم للسمرقندي ٥٧١/٣، والنكت والعيون للماوردي ٣٠٢/٦،

وزاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ١٧١/٩، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١١٣/٢٠.

٦- اللباب في علوم الكتاب لابن عادل ٤٠٨/٢٠.

٧- سورة التين: الآية ٥، ٦.

٨- سورة العصر: الآيات ١، ٢، ٣.

٩- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي ٦/٩.

قوله ﷻ: ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾: التقويم: تصيير الشيء على ما ينبغي أن يكون في التألف والتعديل، يقال قومته تقويماً فاستقام وتقوم^(١).

وقد اختلف المفسرون في المراد بالآية الكريمة على أقوال:

القول الأول: في أعدل خلق، وأحسن صورة^(٢)؛ لأن قوله ﷻ: ﴿أَحْسَنَ تَقْوِيمٍ﴾، إنما هو نعت لمحذوف، وهو في تقويم أحسن تقويم، فكأنه قيل: لقد خلقناه في تقويم أحسن تقويم^(٣).

القول الثاني: قيل ذلك؛ لأنه ليس شيء من الحيوان إلا وهو منكب على وجهه غير الإنسان، خلقه مديد القامة، يتناول مأكوله بيده^(٤).

القول الثالث: في أكمل عقل وفهم وأدب وعلم وبيان وإدراك وتمييز^(٥).

القول الرابع: جمع بعض المفسرين بين الأقوال الثلاثة السابقة^(٦).

القول الخامس: بلغنا به استواء شبابه، وجلده وقوته، وهو أحسن ما يكون، وأعدل ما يكون وأقومه^(٧).

-
- ١- انظر: مفاتيح الغيب للرازي ١١/٣٢، وفتح القدير للشوكاني ٥/٥٦٧.
 - ٢- انظر: جامع البيان للطبري ٥٠٧/٢٤، وتفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ٣٤٤٨/١٠، والهداية إلى بلوغ النهاية ٨٣٤٢/١٢، وتفسير الكشاف للزمخشري ٧٧٩/٤، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/٦٤٣.
 - ٣- انظر: جامع البيان للطبري ٥٠٨/٢٤، والبحر المحيط في التفسير لأبي حيان ٤٨٦/٨.
 - ٤- انظر: جامع البيان للطبري ٥٠٨/٢٤، ومفاتيح الغيب للرازي ١١/٣٢، وفتح القدير للشوكاني ٥/٥٦٧.
 - ٥- انظر: مفاتيح الغيب للرازي ١١/٣٢، والبحر المحيط لابن أبي حاتم ٤٨٦/٨.
 - ٦- قال البغوي: «أعدل قامة، وأحسن صورة، وذلك أنه خلق كل حيوان منكباً على وجهه إلا الإنسان خلقه مديد القامة، يتناول مأكوله بيده، مزيناً بالعقل والتمييز». معالم التنزيل في تفسير القرآن ٥/٢٧٧. ومثله قال الخازن في لباب التأويل في معاني التنزيل ٧/٢٦٦. وكذلك ملا حويش في بيان المعاني ١/٣٠٤.
 - ٧- انظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري ٥٠٧/٢٤، والهداية إلى بلوغ النهاية لمكي ابن أبي طالب ٨٣٤٢/١٢، وزاد المسير لابن الجوزي ٩/١٧٢، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٠/١١٤.

القول السادس: ليس لله تعالى خلق هو أحسن من الإنسان، فإن الله خلقه حياً، عالماً، قادراً، مريداً، متكلماً، سميعاً، بصيراً، مدبراً، حكيماً، وهذه صفات الرب، وعنهما عبر بعض العلماء، ووقع البيان بقوله ﷻ: **"خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ"**^(١)، يعني على صفاته التي قدمنا ذكرها^(٢)، قال الشوكاني: «وينبغي أن يضم إلى كلامه هذا قوله ﷻ: **"لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ"**^(٣)، وقوله: **"وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا"**^(٤)»^(٥).

القول السابع: العموم، قال أبو حيان: «الأولى العموم في كل ما هو أحسن»^(٦)، وقال الشنقيطي: «و**"أَحْسَنُ تَقْوِيمٍ"** شامل لخلق الإنسان حساً، ومعنى، أي شكلاً وصورة وإنسانية، وكلها من آيات القدرة ودلالة البعث، وقد بين تعالى خلقه ابتداء من نطفة فعلاقة إلى آخره في أكثر من موضع، أما الجانب المعنوي فهو الجانب الإنساني، وهو المتقدم في قوله ﷻ: **"وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا"**^(٧)، من أن النفس البشرية هي مناط التكليف، وهو الجانب الذي به كان الإنسان إنساناً، وبهما كان خلقه في أحسن تقويم، ونال بذلك أعلى درجات التكريم قال ﷻ: **"وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ"**^(٨)»^(٩).

- ١- أخرجه البخاري، كتاب الاستئذان، باب بدء السلام ٢٢٩٩/٥ برقم: ٥٨٧٣، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير ٢١٨٣/٤ برقم: ٢٨٤١.
- ٢- انظر: أحكام القرآن لابن العربي ٤/٤١٥.
- ٣- سورة الشورى: الآية ١١.
- ٤- سورة طه: الآية ١١٠.
- ٥- فتح القدير ٥/٥٦٧.
- ٦- البحر المحيط في التفسير ٨/٤٨٦.
- ٧- سورة الشمس: الآية ٧.
- ٨- سورة الإسراء: الآية ٧٠.
- ٩- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي ٥/٩، ٦.

وقال سيد قطب: «ومنها تبدو عناية الله بخلق هذا الإنسان ابتداءً في أحسن تقويم، والله سبحانه أحسن كل شيء خلقه، فتخصيص الإنسان هنا وفي مواضع قرآنية أخرى بحسن التركيب، وحسن التقويم، وحسن التعديل، فيه فضل عناية بهذا المخلوق، وإن عناية الله بأمر هذا المخلوق على ما به من ضعف، وعلى ما يقع منه من انحراف عن الفطرة وفساد؛ لتشير إلى أن له شأنًا عند الله، ووزناً في نظام هذا الوجود، وتتجلى هذه العناية في خلقه وتركيبه على هذا النحو الفائق، سواء في تكوينه الجثماني البالغ الدقة والتعقيد، أم في تكوينه العقلي الفريد، أم في تكوينه الروحي العجيب»^(١).

والراجح هو العموم؛ لأن الجمع إن أمكن فهو أولى من الترجيح^(٢)، وهو ممكن هنا؛ لصحة حمل الآية على كل ما ذكره المفسرون، فجميعها معانٍ صحيحة^(٣).

أما قوله ﷻ: ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوِّكَ فَعَدَلَكَ﴾^(٤)، فقد نقل الماوردي فيها أوجهًا:

أحدها: فسوى خالقك وعدل خلقك.

الثاني: فسوى أعضائك بحسب الحاجة، وعدلها في المماثلة لا تفضل يد على

يد، ولا رجل على رجل.

١- في ظلال القرآن لسيد قطب ٦/٣٩٣٣.

٢- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣/١٧٥، والإحكام في أصول الأحكام للأمامي (٢/٣٥٣)، و(٣/٢٤٣).

٣- قال القرطبي: «فهذا يدل على أن الإنسان أحسن خلق الله باطنًا وظاهرًا». الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١١٤. وذكر أن عيسى بن موسى الهاشمي قال لزوجته يوماً: أنت طالق ثلاثاً إن لم تكوني أحسن من القمر، فنهضت واحتجبت عنه، وقالت: طلقنتي، وبات بليلة عظيمة، فلما أصبح غداً إلى دار المنصور، فأخبره الخبر، فاستحضر الفقهاء واستفتاهم، فقال جميع من حضر: قد طلقنت، إلا رجلاً واحداً من أصحاب أبي حنيفة، فإنه كان ساكتاً، فقال له المنصور: ما لك لا تتكلم؟ فقرأ عليه الآية وقال: يا أمير المؤمنين، فالإنسان أحسن الأشياء، ولا شيء أحسن منه، فقال المنصور لعيسى: الأمر كما قال الرجل، فأقبل على زوجته.

٤- سورة الانفطار: الآية ٧.

الثالث: فسواك إنساناً كريماً، وعدل بك عن أن يجعلك حيواناً بهيماً.
الرابع: سواك بالعقل وعدلك بالإيمان^(١).

يقول الطبري: «الذي خلقك أيها الإنسان فسوى خلقك ﴿فَعَدَّلَكَ﴾، واختلفت القراء في قراءة ذلك، فقرأته عامة قراء المدينة ومكة والشام والبصرة (فعدلك) بتشديد الدال، وقرأ ذلك عامة قراء الكوفة بتخفيفها، وكان من قرأ ذلك بالتشديد وجّه معنى الكلام إلى أنه جعلك معتدلاً معدّل الخلق مقوماً، وكان الذين قرأوه بالتخفيف، وجّهوا معنى الكلام إلى صرفك وأمالك إلى أي صورة شاء، إما إلى صورة حسنة، وإما إلى صورة قبيحة، أو إلى صورة بعض قراباته، وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب أن يقال: إنهما قراءتان معروفتان في قراءة الأمصار صحيحتا المعنى، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب، غير أن أعجبهما إليّ أن أقرأ به قراءة من قرأ ذلك بالتشديد؛ لأن دخول (في) للتعديل أحسن في العربية من دخولها للعدل، ألا ترى أنك تقول: عدلتك في كذا، وصرفتك إليه، ولا تكاد تقول: عدلتك إلى كذا وصرفتك فيه، فلذلك اخترت التشديد»^(٢).

وذكر بعض المفسرين أن قراءة التخفيف تحتل معنى قراءة التشديد^(٣).

فقوله ﴿كَذَٰلِكَ﴾: ﴿خَلَقَكَ﴾، أي: بعد أن لم تكن شيئاً، وقدر خلقك من نطفة، ﴿فَسَوَّانَكَ﴾ في بطن أمك، وجعل لك يدين ورجلين وعينين وسائر أعضائك، وجعلك سوياً مستقيماً معتدلاً القائمة منتصبها في أحسن الهيئات والأشكال، مستوى

١- انظر: النكت والعيون للماوردي ٢٢٢/٦.

٢- جامع البيان في تأويل القرآن للطبري ٢٤/٢٦٩، ٢٧٠. وانظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن للثعلبي ١٠ / ١٤٧، ومعالم التنزيل في تفسير القرآن للبخاري ٥/٢١٩.

٣- انظر: الكشف للزمخشري ٤/٧١٦، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ٥/٤٦١، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل ٢٠/١٩٨، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود ٩/١٢١.

الخلقة، سالم الأعضاء ﴿فَعَدَلَك﴾، أي: فصيرك معتدلاً متناسب الخلق والأعضاء من غير تفاوت فيه، فلم يجعل إحدى اليدين أطول، ولا إحدى العينين أوسع، ولا بعض الأعضاء أبيض وبعضها أسود، ولا بعض الشعر فاحماً وبعضه أشقر، وجعلك معتدل الخلق تمشي قائماً لا كالبهائم^(١)، وجاء في السنة: "أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَرَقَ يَوْمًا فِي كَفِّهِ، فَوَضَعَ عَلَيْهَا أُصْبُعَهُ، ثُمَّ قَالَ: "قَالَ اللَّهُ: ابْنِ آدَمَ أَنِّي تَعَجَّرْتُ بِكَ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ، حَتَّى إِذَا سَوَّيْتُكَ وَعَدَلْتُكَ، مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْنِ^(٢) وَبِلَأْرُضٍ مِنْكَ وَيَيْدٍ^(٣)، فَجَمَعْتَ وَمَنَعْتَ، حَتَّى إِذَا بَلَغْتَ التَّرَاقِي، قُلْتَ: أَتَصَدَّقُ، وَأَنَّى أَوَانُ الصَّدَقَةِ"^(٤).

وقال ﷺ: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَهُمْ فَأَحْسَنَ صُورَهُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾^(٥)، أي: خلقكم على أجمل صورة، وأحسن الأشكال، ومنحكم أكملها، وفي أحسن تقويم، فالله ﷻ جعلكم أحسن من الحيوانات كلها، وأبهاها صورة، بدليل أن الإنسان لا

١- انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي ابن أبي طالب ١٢/٨١٠٢، وتفسير الكشاف للزمخشري ٤/٧١٦، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٩/٢٤٦، ولباب التأويل في معاني التنزيل للخازن ٧/٢١٧، والبحر المحيط في التفسير لأبي حيان ٨/٣٢٧، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/٥٨٣، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل ٢٠/١٩٨، وفتح القدير للشوكاني ٥/٤٧٩، وأيسر التفاسير للجزائري ٥/٥٢٩.

٢- البُرد: نوع من الثياب معروف والجمع أبراد وبُرود، والبُرْدَةُ الشَّمْلَةُ المَخْطُطَةُ، وقيل: كِساء أسود مُرَّع فيه صورٌ تُلبسه الأعراب وجمعها بُرْدٌ. انظر: النهاية في غريب الأثر ١/٢٩٣.

٣- الوئيدُ شِدَّةُ الوَطءِ على الأرض يسمع كالدَّوِيِّ من بُعد، ووَادٌ ابْنَتُهُ يَبْدُهَا وَأَدَا: دَفَنُهَا فِي الْقَبْرِ وَهِيَ حَيَّةٌ، ومنهم من كان يَبْدُ الْبَنِينِ عِنْدَ الْمَجَاعَةِ. انظر: لسان العرب ٣/٤٤٢، والنهاية في غريب الأثر ٥/٣٠٤.

٤- أخرجه أحمد، مسند الشاميين، مسند بسر بن جحاش القرشي ٢٩/٣٨٥، برقم: ١٧٨٤٢، وابن ماجه مختصراً، كتاب الوصايا، باب النهي عن الإمساك في الحياة والتبذير عند الموت ٢/٩٠٣ برقم: ٢٧٠٧. قال البوصيري: «إسناد حديثه صحيح رجال ثقات» مصباح الزجاجة ٣/١٤٣، وانظر: السلسلة الصحيحة للألباني ٣/١٧٣ برقم: ١٠٩٩.

٥- سورة التغابن: الآية ٣.

يتمنى أن تكون صورته على خلاف ما يرى من سائر الصور، ومن حسن صورته أنه خلقه منتصباً غير منكب، متناسب الأعضاء والتخطيطات^(١)(٢)، والتصوير: التخطيط والتشكيل^(٣).

ويذكر ابن عادل في تفسير قوله ﷺ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾^(٤)، أن هذه نعمة أخرى عظيمة من نعم الله ﷻ على الإنسان، وهي تفضيل الإنسان على غيره، وأنه ليس المراد من الكرم في المال، وعداؤه بالتضعيف، وهو من كرم بالضم ك(شرف)، قال ابن عباس ؓ: كل شيء يأكل بفيه إلا ابن آدم يأكل بيديه، وروي عنه أنه قال: بالعقل، وقيل: بالنطق والتمييز، وقيل: بتعديل القامة وامتدادها، وينبغي أن يشترط مع هذا شرطاً وهو طول القامة مع استكمال القوة العقلية والحسية والحركية، وإلا فالأشجار أطول قامة من الإنسان، والدواب منكبة على وجوهها، وقيل: بحسن الصورة^(٥).

- ١- انظر: بحر العلوم للسمرقندي ٤٣٢/٣، ٤٣٣، والوجيز في تفسير الكتاب العزيز للواحي ١١٠٢/١، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٣٤/١٨، وأنوار التنزيل للبيضاوي ١٠٠/٥، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ١٠٦/٤، وتفسير الجلالين ص ٧٤٥، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ٨٦٦.
- ٢- قال ابن عاشور: «ولا تعتور الإنسان نقائص في صورته إلا من عوارض تعرض في مدة تكوينه، من صدمات لبطون الأمهات، أو علل تحل بهن، أو بالأجنة، أو من عوارض تعرض له في مدة حياته فتشوه بعض محاسن الصور، فلا يعد ذلك من أصل تصوير الإنسان، على أن ذلك مع ندرته لا يعد فظاعة، ولكنه نقص نسبي في المحاسن» التحرير والتنوير ٢٣٨/٢٨.
- وقال ابن جزى: «وإن وجد بعض الناس قبيح المنظر فلا يخرج ذلك عن حسن الصور الإنسانية؛ وإنما هو قبيح بالنظر إلى من هو أحسن منه من الناس، وقيل: يعني العقل والإدراك الذي خص به الإنسان، والأول أرجح؛ لأن الصورة إنما تطلق على الشكل». التسهيل لعلوم التنزيل ٣٨٠/٢.
- ٣- انظر: زاد المسير لابن الجوزي ٢٢٩/٨، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٣٤/١٨، واللباب في علوم الكتاب ٦١٦/١٨، وفتح القدير للشوكاني ٢٨١/٥.
- ٤- سورة الإسراء: الآية ٧٠.
- ٥- اللباب في علوم الكتاب لابن عادل ٣٣٩/١٢، ٣٤٠.

وقال أبو السعود: «كرمناهم بالصورة، والقامة المعتدلة، والتسلط على ما في الأرض، والتمتع به، والتمكن من الصناعات، وغير ذلك مما لا يكاد يحيط به نطاق العبارة، ومن جملة ما ذكره ابن عباس...»^(١).

وقال الشوكاني: «هذا إجمال لذكر النعمة التي أنعم الله بها على بني آدم: أي كرمناهم جميعاً، وهذه الكرامة يدخل تحتها خلقهم على هذه الهيئة الحسنة، وتخصيصهم بما خصهم به من المطاعم والمشارب والملابس على وجه لا يوجد لسائر أنواع الحيوان مثله، وحكى ابن جرير عن جماعة أن هذا التكريم هو أنهم يأكلون بأيديهم وسائر الحيوانات تأكل بالفم... وقيل: ميزهم بالنطق والعقل والتمييز، وقيل: أكرم الرجال باللحي والنساء بالذوائب، وقال ابن جرير: أكرمهم بتسليطهم على سائر الخلق، وتسخير سائر الخلق لهم، وقيل: بالكلام والخط والفهم، ولا مانع من حمل التكريم المذكور في الآية على جميع هذه الأشياء، وأعظم خصال التكريم العقل؛ فإن به تسلطوا على سائر الحيوانات، وميزوا بين الحسن والقبیح، وتوسعوا في المطاعم والمشارب، وكسبوا الأموال التي تسببوا بها إلى تحصيل أمور لا يقدر عليها الحيوان، وبه قدروا على تحصيل الأبنية التي تمنعهم مما يخافون، وعلى تحصيل الأكسية التي تقبهم الحر والبرد، وقيل تكريمهم: هو أن جعل محمداً ﷺ منهم»^(٢)، فالتكريم عام شامل لخلق الإنسان حساً ومعنى، ظاهراً وباطناً، وكل ما ذكره المفسرون صحيح.

والله أعلم

١- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ١٨٦/٥.

٢- فتح القدير ٢٩٠/٣.

المطلب الثاني: خلق الإنسان في أحسن تقويم وتعديل خلقه في ضوء الاكتشافات العلمية

إن المقارنة بين بناء جسم الإنسان، وبناء جسم أي مخلوق آخر من المخلوقات، يؤكد بوضوح أن الله تعالى خلق الإنسان في أحسن تقويم، وأحسن صورة وشكل، وهذا فضل عناية من الله بهذا المخلوق المكرم، وإشارة إلى أن لهذا الإنسان شأن عند الله، فالإنسان أعقد آلة في الكون، في خلاياه، وأنسجته، وفي أعضائه، وأجهزته البالغة التعقيد، والدقة، والإتقان، ما يعجز عن فهم بنيتها وطريقة عملها الكثير من العلماء، كما أن فيه نفس تحمل المشاعر والعواطف، وفيها القيم والمبادئ، والحاجات، يعجز عن إدراك خصائصها تمام الإدراك أعلم علماء النفس^(١)(٢)، ومن مميزات هذا الإنسان عن سائر المخلوقات ما يلي:

١- انتصاب القامة:

يتميز الإنسان في بناء جسده بانتصاب القامة، وهي ميزة يتفرد بها الإنسان بين جميع المخلوقات الحية المتحركة، وقد هيا الله الإنسان لهذه الهيئة المميزة بانتصاب القامة والإنسان جنين في بطن أمه، حيث يبدأ نمو أعضائه في مرحلة مبكرة جداً، وعلى مراحل مميزة بمواضع الفصل والوصل، تبنى عليها الأعضاء شيئاً فشيئاً، فيظهر الحبل الظهري في مرحلة العلقة، وهو المحور الهيكلي الذي

١- انظر: تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم لزغلول النجار ٤/٥٣١، وموسوعة الإعجاز العلمي في

القرآن الكريم والسنة المطهرة ليوسف الحاج أحمد ص ١٤٢، وموسوعة الإعجاز العلمي للنايلسي ص ٤٧.

٢- لهذا كان المنهج الإسلامي هو المنهج الوحيد الكفيل بتربية النفس البشرية تربية صحيحة وسليمة، بها سعادتها في الدارين، وكفيل بتحقيق ميولها ورغباتها الروحية والجسدية في حدود المشروع؛ لأن هذا المنهج من عند خالق النفس البشرية والعالم بطبيعتها وبما يصلحها.

يبنى حوله كل أجهزة الجسم، ويسبق ظهور العمود الفقري الذي يمر بمراحل ثلاث^(١).

ومن مقومات انتصاب القامة عند الإنسان اتساع الحوض (خاصة عند الإناث)، وكبر عظمة الفخذ، ونبوءات الفقرة القطنية الخامسة، ومرونة العمود الفقري، وانحناءات الفقرات، وارتكاز الفتحة القفوية الكبرى أفقياً على المحور الرأسي لعظام فقرات العنق حتى يستقر عليها الرأس عمودياً، ويتكون الهيكل العظمي للإنسان في المرحلة الجنينية من (١٤٤) عظمة محددة بأنسجة غضروفية على أطرافها تسمح لها بالنمو التدريجي، وتعرف باسم مراكز التعظم الثانوية، ويتم تعظم هذه المراكز وفق نظام محدد يتماشى زمنياً مع متطلبات النمو حتى سن العشرين تقريباً، وعند تحول الغضاريف بالتدرج إلى عظام فإنها تلتحم مع بقية الأنسجة العظمية المتاخمة لها مكونة عظماً واحداً، حتى يتم تكوين الهيكل العظمي للإنسان البالغ والذي يتركب من أكثر من مئتي عظمة، وزعت على جميع أنحاء الجسم، وهذا الهيكل العظمي المعقد البناء هو الذي يعطي لجسم الإنسان ميزته البنائية المنتصبة، و شكله الخاص الذي ميزه الله تعالى به عن بقية مخلوقاته المعروفة لنا من الكائنات الحية المتحركة، وهذا البناء العظمي الهائل صمم كذلك ليحفظ تناسق الجسم واتزان، ولكي يعين الإنسان على الحركة بحرية، ولذلك فقد جعل الله تعالى بين تلك العظام مفاصل تسمح للإنسان بالوقوف، والجلوس، والاضطجاع، والانحناء، والبسط والقبض، وغير ذلك من الحركات التي مكنت الإنسان من العديد من المهارات، كما يحمي هذا الهيكل الأعضاء الهامة في الجسم كالدماغ والقلب والرئتين والنخاع الشوكي.

١- سبق وأن ذكرتها في مرحلة العظام. انظر: ص ٣٣٢.

وتتنظم عظام هيكل جسم الإنسان في المجموعتين التاليتين:

١- الهيكل المحوري: ويشمل العمود الفقري والجمجمة، والقفص الصدري والفك السفلي، وبعض أجزاء الفك العلوي.

٣- الهيكل الطرفي: ويشمل الأطراف العليا والأطراف السفلى وأربطتها (عظام الحوض وأحزمة الكتف).

ويفصل هذا العدد الهائل من العظام (٣٦٠) مفصلاً، وهذه المفاصل متحركة في جسم الإنسان، وتعطي لهيكله العظمي استقامته وانتصابه، والقدرة على الحركة بمرونة عالية^{(١)(٢)}.

٢- تتناسب أطوال الأطراف مع طول العمود الفقري:

تظهر براعم أطراف الجنين البشري العلوية قبل السفلية ببضعة أيام، وتتمو هذه الأطراف بمعدلات متناسقة، وبدقة بالغة، فتتناسق في الطول تناسباً واضحاً، كما تتناسب مع طول العمود الفقري^(٣).

١- انظر: تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم لزغلول النجار ٤/٥٣١-٥٣٤، والأطلس العلمي (فيزيولوجيا جسم الإنسان) لزهير الكرمي ومحمد سعيد صباريني وسهام العقاد العارف ص ٦٨-٧١.

٢- أخرج مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف ٨٢/٣ برقم: ١٠٠٧، عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: **"إِنَّهُ خُلِقَ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْ بَنِي آدَمَ عَلَى سِتِّينَ وَثَلَاثِمِائَةِ مَفْصِلٍ، فَمَنْ كَبَّرَ اللَّهَ، وَحَمِدَ اللَّهَ، وَهَلَّلَ اللَّهَ، وَسَبَّحَ اللَّهَ، وَاسْتَعْفَرَ اللَّهَ، وَعَزَلَ حَجْرًا عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ، أَوْ شَوْكَةً، أَوْ عَظْمًا، عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ، وَأَمَرَ بِمَغْرُوفٍ، أَوْ نَهَى عَنْ مُنْكَرٍ، عَدَدَ تِلْكَ السِّتِّينَ وَالثَّلَاثِمِائَةِ السَّلَامَى، فَإِنَّهُ يَمْشِي يَوْمَئِذٍ وَقَدْ رَحَّحَ نَفْسَهُ عَنِ النَّارِ"** قال أبو توبة وربما قال: **"يُمْسَى"**.

وهنا معجزة علمية في تطابق ما أخبر عنه رسولنا الصادق المصدوق ﷺ عن عدد مفاصل جسم الإنسان

مع ما ثبت علمياً، فصدق الله القائل: **﴿وَمَا يَطِّقُ عَلَى الْمَوْتِ * إِن هُوَ إِلَّا رَحْمَةٌ يَوْمِي﴾** [النجم: ٣، ٤].

٣- انظر: تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم للنجار ٤/٥٣٥.

٣- كبر حجم المخ:

من الواضح أن الإنسان البالغ يتمتع بحجم للمخ كبير، وبجهاز عصبي في غاية التعقيد، مما يميزه عن غيره من المخلوقات بالذكاء، والقدرة على التفكير، والتعلم، واكتساب مختلف المهارات ثم تعليمها، وعلى الانفعال والتعبير عن انفعالاته، فالعقل الذي يعتبر من أهم ماميز الله به الإنسان عن غيره جعله قادراً على الإرادة والإدراك والاستنتاج، وبالتالي القدرة على التمييز بين طريق الخير والشر، وبهذه الميزة وهذا التكريم تحمل أمانة عجزت السماء والجبال عن حملها^(١).

٤- تناسق تفاصيل الرأس والوجه:

ميز الله تعالى الإنسان عن غيره بارتفاع الرأس واستدارته، وتفلطح الوجه، واستقامة الجبهة، ووضوح الذقن، واستقامة الكتفين، وتسطح الصدر، والوضع الزاوي لتجويفي العينين مما يساعد على الرؤية المجسمة بالعينين، ودقة ترابط عظام وغضاريف وأعصاب الأطراف خاصة اليدين، مما أعطاهما القدرة على التحكم في كثير من الأمور، كما ميزه الله بالأسنان الصغيرة المرتبة ترتيباً يتناسب مع نظامه في تناول الطعام، وبالجلد الذي يغطي جسده، وتنتهي إليه الأطراف العصبية، ويمتلئ بالخلايا العرقية، ويتغذى بالقليل من الشعر^(٢).

٥- ميزة النطق والكلام:

يدعي كثير من الدهريين^(٣) أن اتساع حنجرة الإنسان، وقدرتها على إصدار العديد من الأصوات، وتقليد أصوات الحيوانات، ربما أعان الإنسان على الكلام؛ ولكن

١- انظر: خلق الإنسان بين العلم والقرآن ص ١١٤، وتفسير الآيات الكونية في القرآن للنجار ٥٣٥/٤.

٢- انظر: تفسير الآيات الكونية للنجار ٥٣٦/٤، ودلائل الإعجاز العلمي للكاتب ص ٧٦٣.

٣- الدهري: من يقول بقدوم الدهر، ولا يؤمن بالبعث، وينكر حشر الأجساد، ويقول: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُبَدِّلُهَا إِلَّا اللَّهُ﴾ [الجاثية: ٢٤]، مع إنكاره إسناد الحوادث إلى الصانع المختار ﷻ. انظر: إغاثة اللفهان ٢٥٥/٢، والمصباح المنير ٥٣٥/٢، وحاشية ابن عابدين ٢٤١/٤، والموسوعة الكويتية ١٧٨/٦.

علماء اللغة يؤكدون أن مصدرها هو الإلهام من الله تعالى، فاللغة والبيان من نعم الله التي أنعم بها على الإنسان، قال ﷺ: ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾^(١)، وقال ﷺ: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٢)، كما أن من الحقائق التي توصل إليها العلماء أن دماغ الإنسان يحتوي على فصوص رئيسية هي: الفص الأمامي، والفص الخلفي، والفص الصدغي، والفص الجداري، ولكل فص دور وظيفي ينفرد به عن الآخر، وفي نفس الوقت هي مكملة لأداء وظائف الجسم الأخرى، كما وُجد بعد تشريح أعلى الجبهة أن الفص الأمامي للمخ هو العضو المستتر وراءها، ويتميز عن نظيره في الحيوان بأن المناطق المسؤولة عن الكلام متطورة وبارزة من الناحية التشريحية والوظيفية، وهذا الفص كبير يقع أمام الأخدود المركزي، وهو يحتوي على خمسة مراكز عصبية تختلف فيما بينها من حيث الموقع والوظيفة، ومن بين هذه المراكز: مركز بروكا لحركات النطق، وهو يقوم بتنسيق الحركة بين الأعضاء التي تشترك في عملية الكلام، كالحنجرة واللسان والوجه^(٣).

٦- جمال صورة الإنسان:

وهذا شيء مشاهد محسوس، يراه كل ذي بصر، صورة الإنسان هي أجمل الصور، وهذا الجمال في الشكل والصورة ناتج عن انتصاب القامة، وتناسق تفاصيل الرأس والوجه، وتناسق أطوال الأطراف مع طول العمود الفقري. هذا وإن مما يبين ويوضح أيضاً أن الإنسان خلق في أحسن تقويم وجود جهاز المناعة الذي يحتوي على خطوط دفاعية، تتمثل بالآتي:

١- سورة الرحمن: الآية ١-٤.

٢- سورة البقرة: الآية ٣١.

٣- تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم ٤/٥٣٦، وموسوعة الإعجاز في القرآن الكريم والسنة المطهرة ص ١٥٨.

١- الجلد الذي يغطي الجسد، وهو درع سابغ على البدن، يرد عنه الجراثيم، والأوبئة، وهو خط الدفاع الأول، وهذا الجلد تنتهي إليه الأطراف العصبية، ويمتلئ بالخلايا العرقية، ويتغذى بالقليل من الشعر.

٢- جهاز دفاع خاص بكل عضو (خط الدفاع الثاني) فالعين مثلاً خصت بالأهداب والأجفان والدمع، وللجهاز التنفسي دفاع خاص بكل عضو فيه، ابتداءً من الأنف وما يحويه من شعيرات لتصفية العوالق الكبيرة، وأغشية مخاطية مبطنة تفرز العديد من المضادات الميكروبية مروراً بقصبة الهواء، وانتهاءً بالرئتين، وما تحويه من شعيرات هديبية، وأغشية مخاطية، وخلايا دفاعية لطرد الأجسام الغريبة التي يحملها الهواء، وللجهاز الهضمي كذلك دفاع خاص بكل عضو فيه متمثلة بالإفرازات الهضمية وكثير من المكروبات النافعة وغيرها من وسائل الدفاع، وكذلك الحال بالنسبة لبقية أجهزة الجسم لكل جهاز خط دفاع.

٣- (الدم) من خطوط الدفاع في جسم الإنسان، ويعتبر خط الدفاع الثالث بجنوده من الكريات البيضاء، وعدد هذه الكريات خمسة وعشرون مليون كرية في السلم، ويتضاعف عددها في حال الاستنفار، قد يصل إلى مئات الملايين، في حال القتال، في فترة لا تتجاوز الساعات، أو الأيام، ولها سلاح إشارة مؤلف من بضع مواد كيميائية، يعد وسيلة الاتصال، والتفاهم فيما بينها، ولها خطة في الدفاع عن الجسم فيه من الدقة، والتنسيق، والفعالية، والذكاء الخارق، ما يدل على أنه من صنع خالق حكيم سبحانه^(١)، إنها خلايا الدم البيضاء، التي أدهشت العلماء في نظام عملها، أو في توزيع الأدوار القتالية بين أفرادها، أو في تحقيق المهمات المنوطة بها، فما هي إلا ثوان معدودة على تجاوز أي جسم غريب للخطوط الدفاعية

١- انظر: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة للنابلسي ص٤٨، وموسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة ص١٤٢، ١٤٣، ومن علم الطب القرآني لعبدان الشريف ص٣٢٧، ٣٢٨.

الأولى والثانية حتى تتجه إليه، وتم كريات مهمتها أخذ الشفرة الوراثية الخاصة بهذا الجسم الغريب، والاحتفاظ بها، ثم نقلها إلى الخلايا للمفاوية، حيث تقوم الخلايا المحصنة بتفكيك رموز هذه الشفرة؛ تمهيداً لصنع المصل المضاد، وبعد صنع هذا المصل المضاد تتوجه الخلايا المقاتلة حاملة هذا المصل المضاد؛ لتهاجم بها هذا الجسم الغريب، وبعد أن تقضي عليه تأتي الخلايا اللاقمة؛ لتنظيف ساحة القتال من العدو، ليعود الدم كما كان نقياً سليماً، وهذه الكريات البيضاء هي العنصر الأساسي في جهاز المناعة ولا يزيد قطرها على خمسة عشر ميكروناً، فسبحان الله العظيم^(١).

فوامل المناعة التي أنعم الله ﷻ بها على الإنسان تنقسم إلى:

- أ- مناعة فطرية: وسائل دفاعية لمقاومة الأمراض المعدية، كالجلد، والأغشية المخاطية، والإفرازات الخاصة في الجهاز البولي، والتناسلي، والتنفسي، والهضمي.
- ب- مناعة مكتسبة: وهي وسائل الدفاع التي تكتسب صفة المقاومة لنوع معين من العناصر الغريبة^(٢).

١- انظر: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة للنايلي ص ٤٨، ٤٩.

٢- وهي على نوعين:

الأول: مناعة مكتسبة نشطة، تتحقق نتيجة لدخول ميكروب أو جسم غريب إلى الجسم بصورة طبيعية، كما يحدث في مختلف الأمراض المعدية، فيتعرف جهاز المناعة -وخاصة الخلايا للمفاوية من نوع (B)- على هذا الجسم، ويختزن ذلك في ذاكرة هذه الخلايا؛ لتكون بالمرصاد لها عند معاودة الهجوم، وتتحقق المناعة المكتسبة النشطة أيضاً نتيجة إدخال ميكروب ميت، أو ضعيف، أو جزء من غلاف الميكروب إلى الجسم بواسطة التطعيم، وبذلك تنتبه الخلايا للمفاوية، وتتكون لديها ذاكرة تمكنها من معرفة نوع ذلك الميكروب، وصنع المضادات الخاصة به، فإذا هجم على الجسم، وجد أجهزة المناعة له بالمرصاد، وفي أتم الاستعداد.

الثاني: مناعة مكتسبة سلبية، وهي وسيلة دفاع مستعجلة، حيث يعطى المصاب أو المتوقع إصابته بمرض معين مضادات لهذا الميكروب، تُجمع في العادة من الناقهين من ذلك المرض، وقد تجمع من أمصال الخيول التي تحقن بالمادة المثيرة كالميكروب أو السم، ثم يؤخذ المصل من بعد تكون المضادات لتلك الأجسام الغريبة.=

المطلب الثالث: ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها

من خلال الدراسة التفسيرية والعلمية يتلخص ما يلي:

* اختلف المفسرون في المراد بالإنسان في قوله ﷻ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾، على قولين، والراجح أن المراد جنس الإنسان.

* اختلف المفسرون في المراد بقوله ﷻ: ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾: على أقوال، والراجح

هو العموم في خلق الإنسان، وأنه شامل لخلق الإنسان حساً ومعنى.

* قوله ﷻ: ﴿خَلَقَكَ﴾، أي: بعد أن لم تكن شيئاً، وقدر خلقك من نطفة،

﴿فَسَوَّيْنَاكَ﴾ في بطن أمك، وجعل لك يدين ورجلين وعينين وسائر أعضائك،

وجعلك سوياً مستقيماً معتدلاً القائمة منتصبها في أحسن الهيئات والأشكال، مستوى

الخلقة، سالم الأعضاء ﴿فَعَدَلْنَاكَ﴾، أي: فصيرك معتدلاً متناسب الخلق والأعضاء

من غير تفاوت فيه، فلم يجعل إحدى اليدين أطول، ولا إحدى العينين أوسع، ولا

بعض الأعضاء أبيض وبعضها أسود، ولا بعض الشعر فاحماً وبعضه أشقر،

وجعلك معتدلاً الخلق تمشي قائماً لا كالبهائم.

=وهناك جهاز خاص خلقه الله ﷻ في جسم الإنسان لمقاومة الأجسام الغريبة، والأمراض المعدية، ويتكون من الخلايا البالعة الكبيرة، والخلايا البيضاء ذات الأنوية المتعددة الأشكال، والخلايا ذات النواة الواحدة، وجميعها تعرف باسم الخلايا الآكلة، وهناك الخلايا للمفاوية، وهي الجهاز المناعي المتخصص، وتنقسم إلى نوعين من الخلايا: الأول: خلايا (T) ومصدرها مخ العظام، ووظيفتها الالتحام بالمواد الغريبة والميكروبات، مسببة قتلها وتحللها، وهذا ما يعرف بالمناعة بواسطة الخلايا، وخلايا (B) ومصدرها مخ العظام، ووظيفتها صنع القذائف المضادة للأجسام الغريبة والميكروبات، وتعرف باسم الخلايا الخلائية، وتختص بالقدرة على إنتاج مجموعة منها تملك ذاكرة تستطيع بواسطتها التعرف على الميكروب والجسم الغريب المهاجم للجسم من قبل، فإذا عاود الهجوم كانت له بالمرصاد. انظر: الإعجاز العلمي في الطب الوقائي لصالح السنبراني ص ٦٥-٦٧، والمحرمات وصحة الإنسان والطب الوقائي لأحمد شوقي ص ١٢٧.

* قول ﷻ: ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَهُ فَأَحْسَنَ صُوْرَهُ وَإِلَيْهِ الْمَصِيْرُ ﴾^(١)، أي: خلقكم على أجمل صورة، وأحسن الأشكال، ومنحكم أكملها، وفي أحسن تقويم، فالله ﷻ جعلكم أحسن من الحيوانات كلها، وأبهاها صورة.

* قوله ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾^(٢)، التكريم عام شامل لخلق الإنسان حساً ومعنى، ظاهراً وباطناً، وكل ما ذكره المفسرون صحيح.

* إن مما يؤكد بوضوح أن الله تعالى خلق الإنسان في أحسن تقويم المقارنة بين بناء جسم الإنسان وبناء جسم أي مخلوق آخر من المخلوقات.

* من مميزات الإنسان عن سائر المخلوقات الدال على خلقه في أحسن تقويم:

١- انتصاب القامة.

٢- تناسق أطوال الأطراف مع طول العمود الفقري.

٣- كبر حجم المخ.

٤- تناسق تفاصيل الرأس والوجه.

٥- ميزة النطق والكلام.

* مما يبين أن الإنسان خلق في أحسن تقويم وجود جهاز المناعة الذي يحتوي على خطوط دفاعية، تتمثل بالجلد خط الدفاع الأول، وجهاز دفاع خاص بكل عضو خط الدفاع الثاني، والدم خط الدفاع الثالث بجنوده من الكريات البيضاء.

١-سورة التغابن: الآية ٣.

٢- سورة الإسراء: الآية ٧٠.

ومن خلال الدراسة التفسيرية والعلمية يظهر لي الآثار التالية:

* الإعجاز البلاغي، فقد جاء الكلام في كتاب الله عن خلق الإنسان أنه في أحسن تقويم، أي أنه صيّرهُ على أحسن ما يكون في الصورة والمعنى والإدراك، وفي كل ما هو أحسن من الأمور المادية والمعنوية^(١)، والتعبير جاء بلفظين جامعين وشاملين لكل ما يدل على حسن خلق الإنسان.

* دمع شبهة الدهريين الذين قالوا أن اتساع حنجرة الإنسان، وقدرتها على إصدار العديد من الأصوات، وتقليد أصوات الحيوانات، ربما أعان الإنسان على الكلام، والقرآن يبطل شبهتهم بقوله ﷻ: ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾^(٢)، وقوله ﷻ: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٣)، كما أن الاكتشافات تبين زيف هذه الشبهة، وترد عليها باكتشاف مراكز خاصه بالنطق والكلام لدى الإنسان.

* المكتشفات العلمية في جسم الإنسان تظهر إعجاز آيات القرآن في حديثها عن خلق الإنسان، ومن ذلك خلق الإنسان في أحسن تقويم، إذ دلت هذه المكتشفات أن كل جهاز بل عضو بل نسيج بل خلية بالغة الدقة والإتقان، وتعمل بتناغم عجيب وامتقن مع ما حولها، مما يشهد لكل ذي لب أن ذلك إبداع الخالق الحكيم ﷻ.

١- الإعجاز اللغوي والبياني في القرآن الكريم ٣٤٥/١.

٢- سورة الرحمن: الآيات ١، ٢، ٣، ٤.

٣- سورة البقرة: الآية ٣١.

المبحث الثاني

خلق الإنسان ضعيفا

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول:

خلق الإنسان ضعيفا في القرآن الكريم.

المطلب الثاني:

خلق الإنسان ضعيفا في ضوء المعطيات الواقعية

والمكتشفات العلمية.

المطلب الثالث:

ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها.

المطلب الأول: خلق الإنسان ضعيفا في القرآن الكريم

الآيات الواردة

قال الله ﷻ: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَوِّفَ عَنْكُمْ^١ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾^(١).

وقال ﷻ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾^(٢).

أقوال المفسرين

اختلف المفسرون في المراد (بالضعف) في قوله ﷻ: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾: القول الأول: الضعف من جهة النساء، وهذا ما عليه كثير من المفسرين؛ لسياق الآية، فقد أخبر تعالى أنه بإباحته للمؤمنين العاجزين عن نكاح الحرائر نكاح الفتيات المؤمنات، يريد بذلك التخفيف والتيسير عنهم رحمة بهم وشفقة عليهم، لما يعلم ﷻ من ضعف الإنسان، وعدم صبره عن النساء بما غرز فيه من غريزة الميل إلى الأنثى، فليس يكون الإنسان في شيء أضعف منه في النساء^(٣)، قال سعيد بن المسيب: «ما أيس الشيطان من بنى آدم قط إلا أتاهم من قبل النساء، فقد أتى علي ثمانون سنة، وذهبت إحدى عيني، وأنا أعشى بالأخرى، وإن أخوف ما أخاف علي فتنة النساء»^(٤).

١- سورة النساء: الآية ٢٨.

٢- سورة الروم: الآية ٥٤.

٣- انظر: جامع البيان للطبري ٢١٥/٨، وتفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ٩٢٦/٣، وبحر العلوم للسمرقندي ٣٢٣/١، والكشف والبيان للثعلبي ٢٩١/٣، والهداية إلى بلوغ النهاية لمكي ابن أبي طالب ١٢٩٧/٢، والنكت والعيون للماوردي ٤٧٤/١، والوجيز في تفسير الكتاب العزيز للواحي ص ٢٦١، والبحر المحيط في التفسير لأبي حيان ٢٣٧/٣، تفسير الجالين ص ١٠٤، أيسر التفاسير للجزائري ٤٦٤/١.

٤- انظر: الكشف والبيان للثعلبي ٢٩١/٣، والبحر المحيط في التفسير لأبي حيان ٢٣٧/٣.

القول الثاني: المراد أنه ضعيف الخلقة، وهو أن خلقه من ماء مهين^(١)، بيانه قول الله ﷻ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ﴾^(٢).

القول الثالث: ضعيف الرأي لا يدرك الأسرار والحكم إلا بنور إلهي، وفيه إشارة إلى تجهيل المجوس في قياسهم^(٣).

القول الرابع: ضعيف الصبر عن الهوى والشهوات وعلى مشاق الطاعات، بل يستميله هواه وشهوته، عاجز عن مخالفة الهوى وتحمل مشاق الطاعة، ويستطيحه خوفه وحزنه، وهذا أشد الضعف، فاحتاج إلى التخفيف^(٤).

القول الخامس: ضعف خلقتة بالنسبة إلى كثير من المخلوقات بل الحيوانات، وهذا ظاهر، ولهذا اشتد احتياجه إلى التعاون والتمدن والأغذية والأدوية والمسكن والملابس والذخائر والمعاملات إلى غير ذلك من الضرورات.

وضعف عزائمه ودواعيه، وهذا ظاهر كذلك، ولهذا لا يصبر على مشاق الطاعات، ولا عن الشهوات، ولا سيما عن النساء.

بدلالة أنه لضعفه خلقة وعزيمة خفف الله تكليفه ولم يثقل^(٥).

ويلاحظ في هذا القول أنه يجمع بين القولين الثاني والرابع.

١- انظر: الكشف والبيان للتعليبي ٢٩١/٣، ومعالم التنزيل في تفسير القرآن للبخاري ٦٠٢/١، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل ٣٣٥/٦، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود ١٦٩/٢.

٢- سورة الروم: الآية ٥٤.

٣- انظر: روح المعاني للألوسي ١٤/٥.

٤- انظر: الكشف للزمخشري ٥٣٣/١، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٤٩/٥، وأنوار التنزيل ١٧٦/٢، وإرشاد العقل السليم ١٦٩/٢، وروح المعاني ١٤/٥، وفتح القدير ٥٢٢/١، وصفوة التفاسير ١٧٥/١.

٥- انظر: غرائب القرآن و رغائب الفرقان للنيسابوري ٣٩٨/٢.

القول السادس: وصف الإنسان بأنه خلق ضعيفاً إنما هو باعتباره بالملأ الأعلى، بدليل قوله ﷺ: ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَوْ السَّمَاءُ بَنَاتُهَا﴾^(١)، أو باعتباره بنفسه دون ما يعتريه من فيض الله ومعونته، أو اعتباراً بكثرة حاجاته وافتقار بعضهم إلى بعض، أو اعتباراً بمبدئه ومنتهاه كما قال ﷺ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾، فأما إذا اعتبر بعقله وما أعطاه من القوة التي يتمكن بها من خلافة الله في أرضه، ويبلغ بها في الآخرة إلى جواره تعالى، فهو أقوى ما في هذا العالم، ولهذا قال ﷺ: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾^{(٢)(٣)}.

القول السابع: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ في كل شيء؛ لأنه خلق من ضعف، ويؤول إلى ضعف، أسير جوعه، صريع شبعه، وخصوصاً عن شهوة النساء، فإنه لا يصبر عن الجماع، ولا يكون في شيء أضعف منه في أمر النساء^(٤).

المناقشة:

نوقش القول الأول: بأن حمل الضعف على عدم الصبر عن النساء وإن كان ذلك مقتضى سياق الكلام، إلا أن اللفظ أعم من ذلك^(٥)، ولعل قائله لم يرد الحصر^(٦).

١- سورة النازعات: الآية ٢٧.

٢- سورة الأسراء: الآية ٧٠.

٣- انظر: البحر المحيط في التفسير لأبي حيان ٢٣٧/٣.

٤- انظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن للثعلبي ٢٩١/٣، والتسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ١/١٨٨، والبحر المديد في تفسير القرآن المجيد لابن عجيبة ٤٩/٢، والتحرير والتنوير لابن عاشور ٩٩/٤.

٥- انظر: التسهيل لعلوم التنزيل ١/١٨٨.

٦- انظر: التحرير والتنوير ٩٩/٤.

ونوقش القول الثاني: بأن ضعيف الخلقة لو قوى الله داعيته إلى الطاعة كان في حكم القوي، والقوي في الخلقة إذا كان ضعيف الدواعي إلى الطاعة صار في حكم الضعيف، فالتأثير في هذا الباب لضعف الداعية وقوتها، لا لضعف البدن^(١).

ونوقش كذلك القول الثاني والثالث: بأن المقام لا يساعده؛ لأن الجملة اعتراض تذييلي مسوق لتقرير ما قبله من التخفيف بالرخصة في نكاح الإماء، وليس لضعف الرأي ولا لضعف البنية مدخل في ذلك، وكونه إشارة إلى تجهيل المجوس في قياسهم ليس بشيء^(٢)، وإنما الذي يتعلق به التخفيف في العبادات الشاقة^(٣).

والراجع: هو القول الأخير؛ وذلك لشموله، فالضعف في الإنسان يتضمن كثيرا من جوانب حياته: النفسية، والبدنية، والجنسية، والعقلية، فجميع الأقوال داخلة فيه.

فالقول الأول صحيح؛ لأنه مقتضى سياق الآية، لهذا يقول ابن جرير: «معناه لا يصبر على النساء، وذلك مقتضى سياق الكلام، واللفظ أعم من ذلك»^(٤)، ويقول ابن عاشور بعد ذكره للقول الأول: «وليس مراده حصر معنى الآية فيه»^(٥)، ولكنه مما روعي في الآية لا محالة؛ لأن من الأحكام المتقدمة ما هو ترخيص في النكاح^(٦). ويدل لصحة الثاني قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ﴾^(٧).

١- انظر: للباب في علوم الكتاب لابن عادل ٦/٣٣٤، ٣٣٥.

٢- انظر: روح المعاني ٥/١٤.

٣- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود ٢/١٦٩.

٤- التسهيل لعلوم التنزيل ١/١٨٨.

٥- أي القائل بالقول الأول وهو أنه الضعف عن الصبر على النساء.

٦- التحرير والتنوير ٤/٩٩.

٧- سورة الروم: الآية ٥٤.

ويدل لصحة الثالث ما علل به القائلون به؛ لأن العقل مع كونه من عظيم ما كرم الله به الإنسان وميزه به، إلا أنه ضعيف، ولولا ضعفه لما أرسلت الرسل وأنزلت الكتب، ولذا وجدنا أن من اعتمد على العقل دون الشرع ضل، فالشرع حاكم على العقل، وما ذلك إلا لنقص العقل، فالعقل لا يستقل بنفسه في إدراك الأمور.

وبالتالي لا يضرهما -القولين الثاني والثالث- الاعتراض الوارد عليهما. وكذلك كون الإنسان ضعيفاً باعتباره بالملأ الأعلى لا يمنع من ضعف الإنسان باعتباره بنفسه.

قول الله ﷻ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾^(١)، فقوله ﷻ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ﴾ يحتمل معنيين، وكلاهما صحيح، ولكل واحد منهما ما يدل عليه، وهما:

الأول: خلقكم من أصل ضعيف هو النطفة، والماء المهين، وذلك كقوله ﷻ: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ﴾^(٢)، وقوله ﷻ: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾^(٣)، وقوله ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾^(٤)، وقوله ﷻ: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾^(٥)، إلى غير ذلك من الآيات.

١- سورة الروم: الآية ٥٤.

٢- سورة المرسلات: الآية ٢٠.

٣- سورة النحل: الآية ٤.

٤- سورة يس: الآية ٧٧.

٥- سورة الطارق: الآيتان ٥، ٦.

والثاني: ابتدأكم ضعفاء، وجعل الضعف أساس أمركم، كقوله ﷻ: ﴿وَخَلَقَ
 الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا﴾، وبدلالة ما بعدها، وهو قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا مِنْ بَعْدِ ضَعْفِ قُوَّةٍ
 ﴾، أي ثم جعل لكم قوة على التصرف، من بعد خلقه إياكم من ضعف، ومن بعد
 ضعفكم بالصغر والطفولة، وذلك حال الشباب إلى بلوغ الأشد، وأشار الله ﷻ إلى
 القوة بين الضعفين في آيات من كتابه، كقوله ﷻ: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾^(١).

وقوله ﷻ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾، ثم أحدث لكم الضعف، بالهرم
 والكبر عما كنتم عليه أقوىاء في شبابكم، وهذا التردد في الأحوال المختلفة،
 والتغيير من هيئة إلى هيئة، وصفة إلى صفة، هو أظهر دليل وأعدل شاهد على
 الصانع العليم القادر سبحانه وتعالى^(٢).

قال ابن كثير: «ينبه تعالى على تنقل الإنسان في أطوار الخلق حالاً بعد حال،
 فأصله من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، ثم يصير عظماً، ثم
 تكسى العظام لحماً، وينفخ فيه الروح، ثم يخرج من بطن أمه ضعيفاً نحيفاً واهن
 القوى، ثم يشب قليلاً قليلاً حتى يكون صغيراً، ثم حدثاً ثم مراهقاً شاباً، وهو القوة
 بعد الضعف، ثم يشرع في النقص فيكتهل، ثم يشيخ، ثم يهرم، وهو الضعف بعد
 القوة، فتضعف الهمة والحركة والبطش، وتشيب اللمة^(٣)، وتتغير الصفات الظاهرة
 والباطنة»^(٤).

١- سورة النحل: الآية ٤. وسورة يس: الآية ٧٧.

٢- انظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري ١١٨/٢٠، وتفسير الكشاف للزمخشري ٤٩٣/٣، ومفاتيح
 الغيب للرازي ١١٩/٢٥، وأنوار التنزيل للبيضاوي ٣٤١/٤، وتفسير الجلالين ص ٥٣٨، وإرشاد العقل السليم
 لأبي السعود ٦٦/٧، والبحر المديد لابن عجيبة ٥٣٨/٥، وأضواء البيان للشنقيطي ١٧٥/٦.

٣- الشعر الذي يجاوز شحمة الأذن، فإذا بلغ المنكبين فهي جملة. مختار الصحاح للرازي ص ٢٨٥.

٤- تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥٣٢/٣.

وقد ذكر الله ﷻ هذا الضعف الثاني في آيات أخرى^(١)، ومنها:

- قوله ﷻ: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يَرُدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمْرِ﴾^(٢)، قال ابن جرير: «يقول: ومنكم من يهرم فيصير إلى أرذل العمر، وهو أردؤه»^(٣)، وقال القرطبي: «يعنى أردأه وأوضعه، وقيل: الذي ينقص قوته وعقله ويصيره إلى الخرف ونحوه، وقال ابن عباس: يعنى إلى أسفل العمر، يصير كالصبي الذي لا عقل له، والمعنى متقارب»^(٤)، وقال الشنقيطي: «وأرذل العمر آخره الذي تفسد فيه الحواس، ويختل فيه النطق والفكر، وخص بالرديلة؛ لأنه حال لا رجاء بعدها لإصلاح ما فسد، بخلاف حال الطفولة، فإنها حالة ينتقل منها إلى القوة وإدراك الأشياء»^(٥)، ولذا ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه كان يستعيز بالله من أرذل العمر^(٦).

- وقوله ﷻ: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾^(٧)، قال الطبري: «نرده إلى مثل حاله في الصبا من الهرم والكبر، وذلك هو النكس في الخلق، فيصير لا يعلم شيئاً بعد العلم الذي كان يعلمه»^(٨)، وقال الزمخشري: «نقلبه فيه، فنخلقه على عكس ما خلقناه من قبل، وذلك أنا خلقناه على ضعف في جسده،

١- انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي ١٧٥/٦.

٢- سورة النحل: الآية ٧٠. وسورة الحج: الآية ٥.

٣- جامع البيان في تأويل القرآن ٢٥١/١٧.

٤- الجامع لأحكام القرآن ١٤٠/١٠.

٥- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٤٠٩/٢.

٦- أخرجه البخاري، كتاب الدعوات، باب الاستعاذة من أرذل العمر ومن فتنة الدنيا وفتنة النار ٢٣٤٣/٥ برقم:

٦٠١٣. عن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: تعوذوا بكلمات كان النبي ﷺ يتعوذ بهن "اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبُخْلِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ أَرُدَّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمْرِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الدُّنْيَا وَعَذَابِ الْقَبْرِ".

٧- سورة يس: الآية ٦٨.

٨- جامع البيان في تأويل القرآن ٥٤٨/٢٠.

وخلو من عقل وعلم، ثم جعلناه يتزايد وينتقل من حال إلى حال، ويرتقي من درجة إلى درجة، إلى أن يبلغ أشده ويستكمل قوته، ويعقل ويعلم ما له وما عليه، فإذا انتهى نكسناه في الخلق فجعلناه يتناقص، حتى يرجع في حال شبيهة بحال الصبي، في ضعف جسده، وقلة عقله، وخلوه من العلم، كما ينكس السهم فيجعل أعلاه أسفله»^(١)، وقال ابن كثير: «يخبر تعالى عن ابن آدم أنه كلما طال عمره، رد إلى الضعف بعد القوة، والعجز بعد النشاط... والمراد من هذا -والله أعلم- الإخبار عن هذه الدار بأنها دار زوال وانتقال، لا دار دوام واسقرار»^(٢).

١- الكشاف ٢٨/٤.

٢- تفسير القرآن العظيم ٦٩٧/٣.

المطلب الثاني: خلق الإنسان ضعيفا في ضوء المعطيات الواقعية والمكتشفات العلمية

جبل الله الإنسان على الضعف، وهذا الضعف يشمل الضعف النفسي، والضعف البدني، والضعف أمام الشهوات بأنواعها، وهو حقيقة في الإنسان، والإنسان إذا نظر متأملاً في نفسه والناس من حوله لتيقن من ثبوت هذه الحقيقة، بل لتجلى له انعدام حوله وقوته أمام وفي مواجهة ما يحيط به من آيات وجنود الله كالسما والارض والجبال، وكالزلازل والبراكين، وكالرعد والبرق والريح، وكالاعاصير والصواعق وفيض الماء، بل أمام وفي مواجهة ما يبدو أصغر مثل العقر واللدغ والافتراس وغيرها^(١)، يقول الله ﷻ: ﴿وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا﴾^(٢)، هكذا يقرر الله تعالى هذه الكلية العامة الشاملة لكل إنسان، إن كل إنسان خلق ضعيفاً في نشأته فقد خلق من نطفة صباية من الماء المهين، وخلق لا يعلم شيئاً ثم أمد الله بوسائل للعلم كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(٣)، ومع هذا فإنه ضعيف في علمه؛ لأنه لم يؤت من العلم إلا النزر اليسير، قال تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٤)، فعلمه قليل، ومحفوف بأفتين: جهل قبل العلم، ونسيان بعده، فهو لا يعلم المستقبل حتى في تصرفاته الخاصة، قال تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي

١- انظر: وخلق الإنسان ضعيفا لمحمد السقا عيد، على الرابط: (http://quran-m.com).

٢- سورة النساء: الآية ٢٨.

٣- سورة النحل: الآية ٧٨.

٤- سورة الإسراء: الآية ٨٥.

نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴿١﴾، وخلق ضعيفاً في تصرفه وإدراكه، فقد يتصور البعيد قريباً، والقريب بعيداً، والنافع ضاراً، والضار نافعاً، ولا يدرك النتائج التي تتمخض عن تصرفاته^(٢).

إن الضعف الإنساني سمة تلازم الإنسان من لحظة البداية في خلقه، فأصل تكوينه تراب الأرض! وخلق من عدم ولم يكن شيئاً! فهل فكر الإنسان لحظة واستشعر مراحل ضعفه ووهنه، فالإنسان هذا المخلوق العجيب هو صنعة الله تعالى المحكمة الدقيقة، يبدو للوهلة الأولى في منتهى البساطة مشتملاً على كل أشكال التعقيد، إنه يبدو قوياً مخيفاً مع أنه في حد ذاته ضعيف في كل جانب من جوانب شخصيته ضعفاً لا يوازيه شيء سوى ما يدعيه من القوة والعزة والسطوة، وقد لخصت لنا كلمات القرآن جوهر الإنسان؛ لكن دون أن تضع لنا الإصبع على مفردات ذلك الضعف ومظاهره، ليظل اكتشافها التدريجي عبارة عن دروس وعظات مستمرة تذكر الإنسان بحقيقته، ولربما ينفذ العمر دون أن نحيط بحقيقة أنفسنا^(٣).

من مظاهر ضعف الإنسان

إن التقدم العلمي الكبير مازال محدوداً إلى يومنا هذا، فهناك أجزاء من أجسامنا مازالت مناطق غامضة، فعلم الدماغ مازال علم إصابات أكثر من أن يكون علم وظائف وتشريح، ومركبات الأنسجة والسوائل المختلفة في أجسامنا وتفاعلها مع بعضها ما زال الكثير منها مجهولاً، فإذا ما نظرنا بإمعان إلى مناطق المشاعر

١- سورة لقمان: الآية ٣٤.

٢- انظر: الضياء اللامع من الخطب الجوامع لمحمد بن صالح العثيمين ٢٣٢/٣.

٣- انظر: وخلق الإنسان ضعيفاً لعبدالكريم بكار، موقع صيد الفوائد، على الرابط: (www.saaaid.net).

والإدراك وصلاتها وتفاعلاتها بالجوانب العضوية، وجدنا أن كثيراً مما لدينا ظنون ونظريات أكثر من أن تكون حقائق، فإذا ما خطونا خطوة أخرى نحو العالم الوجداني والروحي وجدنا أنفسنا في متاهات وسرايب.

إن الباحثين في مجالات علوم الإنسان يجدون الطرق متشعبة ملتوية كلما تقدموا نحو الأمام، على حين أن الباحثين في علوم الطبيعة يستفيدون من أنواع التقدم العلمي الأفقي في إضاءة ما بقي مظلماً من مسائل الطبيعة والمادة، وصدق الله ﷻ إذ يقول: ﴿وَسَأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾^(١).

ويزداد ظهور ضعف الإنسان حين يدخل في صراع بين عقله ومشاعره، حيث يجد نفسه عاجزاً عن دفع مشاعره، والخلاص من وساوسه، والتغلب على مخاوفه أو معرفة مصدرها في بعض الأحيان، ليدرك المرة تلو المرة أنه مع طموحه إلى السيادة على الأرض، وغزو الفضاء، قاصر عن السيطرة على نفسه!

إن فاعلية كل رأي ودقته ينبعان من مجموعة العمليات التي يستند إليها، فإذا كانت ظنية وعائمة فإن آراءنا الطبية والنفسية سيظل كثير منها هشاً ونسبي الصواب. إن هذا الإنسان الضعيف لا يستطيع أن يجزم بشيء مقطوع من حوادث المستقبل، فمهما أدرك المرء الظروف والعوامل والمؤثرات التي تحيط به لم يستطع أن يعرف ماذا سيحدث له بعد شهر أو يوم أو ساعة، وأعظم أطباء الدنيا لا يستطيع ضمان استمرار حياته أو حياة غيره ساعة من زمان، ومن ثم فإن القلق والخوف من المستقبل هما الهاجس الجاثم فوق صدر الإنسان الحديث الذي فقد الإيمان^(٢).

١- سورة الإسراء: الآية ٨٥.

٢- انظر: وخلق الإنسان ضعيفاً لعبدالكريم بكار، موقع صيد الفوائد، على الرابط: (www.saaaid.net).

إن الإنسان جسد ضعيف محدود القدرات والإمكانات، حواسه مقيدة محدودة، فهو ذو بصر محدود، إذ لا يمكنه الرؤية إلا في حدود مكونات الضوء الأبيض وهي: الأحمر، البرتقالي، الأصفر، الأخضر، الأزرق، النيلي، البنفسجي، وما ينتج عن اختلاطها ببعضها من ألوان متعددة، أما ما تعدى حدود ذلك من موجات ضوئية فلا يستطيع الإنسان أن يميزها، فالأشعة تحت الحمراء، والأشعة فوق البنفسجية، والأشعة السينية (أشعة إكس)، وأشعة جاما، وغيرها، لا تدركها العين البشرية، بينما تستطيع بعض الطيور والحيوانات أن ترى الأشياء عن طريق الأشعة تحت الحمراء مثلاً، مما يمنحها القدرة على الرؤية في الظلام الدامس.

أما السمع فالأذن البشرية ذات إمكانات محدودة، فلا تستطيع تمييز الأصوات ذات التردد أو الذبذبات التي تقل عن حوالي عشرين ذبذبة في الثانية، أو التي تزيد عن حوالي عشرين ألف ذبذبة في الثانية، كما أن قوة الصوت أو شدته تؤثر تأثيراً ضاراً على أذن الإنسان إذا تعدت حدوداً معينة، بينما تستطيع معظم الحيوانات أن تسمع الأصوات التي يكون كثير منها خارج المدى المسموع بواسطة الأذن البشرية، فالكلب يستطيع أن يسمع الأصوات ذات التردد المنخفض بواسطة أجزاء حساسة عند الخطوط الجانبية من جسمه، وتستطيع الأسماك في الأحواض الزجاجية أن تسمع صدى حركتها منعكساً على زجاج الحوض فلا ترتطم به^(١).

بالإضافة إلى تلك القدرات العجيبة لكثير من الطيور والحشرات والحيوانات على الاتصال والحركة والهجرة والاستدلال على المواطن، مما تعجز قوى الإنسان عنه، فالحمام الزاجل لا يضل طريقه ليلاً أو نهاراً ولو ذهب بعيداً عن موطنه مئات الأميال فإنه يعود إلى مكانه الأصلي بدقة متناهية، وثنابين الماء تتطلق في رحلة

١- انظر: محدودية حواس الإنسان لعبد الباسط السيد، على الرابط: (<http://www.quran-m.com>).

تقدر أحياناً بآلاف الأميال من كل بحار العالم إلى مكان تجمعها في جنوب برمودا، حيث تغوص إلى الأعماق السحيقة هناك وتتكاثر وتنطلق صغارها عائداً إلى نفس الموطن الأصلي لأمهاتها، ولا تضل الثعابين الكبيرة أو الصغيرة طريقها في رحلة الذهاب أو العودة، كما أن وسائل الاتصال بين الحيوانات والطيور وغيرها متعددة، وكثير منها حار الإنسان في فهمه وإدراك أسرارها، فذكر الفراشة يستطيع أن يميزها وأن يجيبها من مسافات طويلة بطريقة لا نعرفها، وكذلك القوة الفيل العادي تعادل قوته قوة مئة وخمسين رجلاً أو يزيد، كذلك ليس الإنسان من أكثر المخلوقات تحملاً لظروف البيئة أو غيرها، فالإنسان لا يتحمل الجوع أو العطش إلا أياماً معدودة، كما أنه لا يصمد للتغيرات الشديدة في درجات حرارة الجو المحيط به، بينما كثير من الحيوانات في المناطق الباردة تظل أشهراً مدفونة تحت الثلوج فيما يعرف بالبيات الشتوي وتعود بعده إلى سابق نشاطها وحيويتها، كما يستطيع الجمل أن يقاوم العطش ويتحمله أسابيع، ومقدرة الإنسان على تعويض ما يفقد من خلاياه محدودة ومقصورة على الجروح البسيطة والنتام الكسور، بينما يستطيع الوزغ -والسحالي عموماً- إذا فقد ذيله أن يبذل غيره وبسرعة، كما تسارع دودة الأرض بصنع رأس لها إذا قطع رأسها، وإذا قطعت نصفين ينمو كل نصف ليصبح دودة كاملة!!، ورغم إمكانيات الإنسان وما يفعل لتميمتها بالرياضة والتدريب إلا أنها تظل محدودة وإن بدت لنا متطورة ومتميزة، فما وصل إليه الإنسان من سرعة في الجري لا تقارن بسرعة النمر الأمريكي التي تصل إلى ٨٠ كم في الساعة، أو سرعة الصقر المنقض على فريسته ٣٨٠ كم في الساعة، وما وصل إليه الإنسان من أرقام قياسية في القفز لا يقارن بقفزة بعض أنواع الضفادع التي تستطيع القفز مسافة عشرة أمتار، ومعظم الحيوانات والطيور

والحشرات لها قدرة كبيرة جداً على التكاثر، حيث تقصر لديها مدة الحمل، ويزداد عدد المواليد أو البويضات^(١).

ومن مظاهر (الضعف) أيضاً ضعف الرجل أمام المرأة، وضعف المرأة أيضاً أمام الرجل؛ إذ إن كلاهما فُطِرَ على الميل للآخر والانجذاب إليه، فالإنسان مهما أوتي من قوة وعظمة يبقى ذلك الإنسان الضعيف، الذي تذله أقل الشهوات والنزوات، وتضعفه أدنى المؤثرات والمغريات، إذاً الضعف يشمل كذلك ضعف الإنسان تجاه الغريزة الجنسية^(٢).

١- انظر: محدودية حواس الإنسان، لعبد الباسط السيد، على الرابط: (<http://www.quran-m.com>). ورغم قوة تحمل الكثير من المخلوقات، وقدرتها على التكاثر والتحمل بدرجات تفوق إمكانيات البشر، فإن وجودها على الأرض لم يتفوق على الوجود البشري، ورغم ضخامة الكثير منها وطول أعمارها إلا أن السيادة للإنسان منذ أن انتقلت إليه بنزوله إلى الأرض لخلافتها وعمارتها، فلم تقدر الأحياء العملاقة على الأرض أن تجاري الإنسان أو تكون نداً له، لذلك أخضعها لسلطانه، فلا الحوت الأزرق الذي يصل طوله إلى ثلاثة وثلاثين متراً ووزنه عشرات الأطنان، ولا ثعابين الأناكوندا التي بلغ طول الواحد منها عشرة أمتار، ولا التماسيح التي تتراوح أطوالها بين المتر والثمانية أمتار، ولا السلاحف العملاقة التي يصل وزن الواحدة منها إلى الطن وطولها إلى المترين، ولا استطاعت الأفيال العملاقة هي أو غيرها أن تساير الإنسان في عمارته للأرض وسيطرته على كل ما فيها تحقيقاً لخلافته لها، أكثر من مليون نوع من الكائنات على الأرض استطاع الإنسان أن يتعرف عليها، ولا يعلم أعداد كل نوع منها إلا الله سبحانه وتعالى، تسكن الأرض، وتنتشر في جنباتها، وتغوص في أعماقها ومائها، ويحملها هوائها، ويبقى الإنسان شامخاً بين تلك الأنواع جميعاً، صغيرها وكبيرها، قويها وضعيفها، قليلها وكثيرها، يقف بينها متميزاً قوياً بضعفه، مسيطراً بإمكانياته المحدودة وقدراته البدنية القاصرة، سيداً للجميع، مسخراً للكثير منها بما آتاه الله من فضل تميز به عنها جميعاً. انظر: محدودية حواس الإنسان لعبد الباسط السيد، على الرابط: (<http://www.quran-m.com>).

٢- انظر: من جواهر القرآن الكريم (وخلق الإنسان ضعيفاً) لبديري بن منور المدني، على الرابط: (<http://www.alchourouk.com>).

وإذا نظرنا إلى مجال العلم ففي الطب مثلاً سنرى الضعف في وقوف الإنسان عاجزاً عن مداواة بعض الأمراض التي تظهر بين فترة وأخرى. وإن أكثر ما يظن فيه عجز الإنسان وضعفه هو الإمكانيات التي يمتلكها لفهم الواقع المعاش بكلياته وجزئياته ومشكلاته وخباياه، وقد كثرت في أيامنا هذه الدعوة إلى فهم الواقع وفقهه، وهي دعوة مهمة، لكنها تخفي في طريقة طرحها نوعاً من التبسيط للمسألة، حيث إن فهم الواقع أو مقارنته مسألة من أعقد ما يواجهه العقل البشري، فالقيم التي نؤمن بها تتحكم إلى حد كبير في رؤيتنا لذلك الواقع، وكثيراً ما تشكل حائلاً بيننا وبين رؤية حقيقة ما يجري فيه، والعقل الإنساني حتى يلامس الواقع فإنه يفترض ثباته وجموده، على حين أن الواقع يظل محطة لتدفق التحولات المتشعبة الكثيرة والحاددة أحياناً مما يجعل إدراكنا قاصراً عن ملاحظته، وبالتالي فإن أحكامنا تصدر على أشياء فائتة ومنتهية ومن هنا فإنه لا بد من بناء (إشكالية)، يتم من خلالها تقسيم الواقع إلى قضايا يمكن تحديدها وتقديم إجابات وحلول لها، والنمط الذي سنصور الواقع من خلاله هو عبارة عن صورة عقلية مركبة تدخل فيها رؤانا العقديّة إلى جانب العناصر المعرفية والقيم الاجتماعية التي ترشد حركة المجتمع، ومادام كل ذلك متفاوتاً عند الناس فإن عجزنا عن لمّ الخلاف سوف يظهر أكثر وأكثر عندما نحاول تقويم الواقع وإصدار الأحكام عليه^(١).

ضعف الابتداء والانتهاؤ

في الوليد -فضلاً عن الجنين- تكون أغلب العظام طرية، ثم يبدأ تكلسها بالتدريج حتى تقوي، ويولد المولود بعضلات كاملة ولكنها صغيرة بالنسبة إلى حجمه، وبحواس منتبهة وأولها السمع والبصر واللمس وقدرة القبض على الأشياء،

١- انظر: وخلق الإنسان ضعيفاً لعبدالكريم بكار، موقع صيد الفوائد، على الرابط: (www.saaaid.net).

وإن تأخرت حاسة الذوق قليلاً، وتستكمل قشرة المخ نشاطها بالتدريج، فيستطيع الوليد بعد ثمانية أسابيع إدراك ما حوله، والتمييز بين الأصوات ذات النبرات المختلفة وبين الروائح المتباينة، وتزداد قدراته بالتدريج بعد ذلك، فتكتمل حاسة الإبصار في شهره السادس، كما تزداد قدراته على إصدار الأصوات والانفعال بالأحداث من حوله في شهره السابع، وفي الفترة بين عامه الأول والثاني يبدأ الرضيع الطبيعي بالحركة ومحاولة المشي، وفي فهم دلالة بعض الكلمات، وفي تمام الشهر السادس عشر يبدأ في الوقوف على قدميه والمشي مستقلاً، وفي تمام السنتين يكون قد وصل إلى مرحلة الكلام بجمل قصيرة مفهومة وقد تم فطامه^(١).

فالإنسان وهو جنين وفي لحظة خروجه للحياة، ثم وهو طفل رضيع يستمد الغذاء والعون من أمه، إنها لحظات الضعف والوهن الغامر الذي يمر بها كل إنسان، كان لا يقوى على الحركة والجلوس والمشي، ولا يقدر على التعبير والنطق، ولا يدرك أسباب الحياة وحركتها، تفكيره محدود، وقوته ضعيفة، وعزمه واهن، وإرادته تابعة، ويطلب العون والمساعدة^(٢)، ويحتاج بعد الرضاعة إلى فترة حضانة ورعاية، ولهذا قال الله ﷻ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ﴾^(٣).

ويبدأ الطفل بالتدريج في إدراك ما حوله، وفي تحصيل وحدات المعرفة ووسائلها، ثم تعلم اللغة وتنمية الذاكرة والقدرة على التعبير والتفكير والاستنتاج، ثم تتطور دوافعه ورغباته، ثم أخلاقه وقيمه حتى يدخل في طور المراهقة^(٤).

١- انظر: تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم لزغلول النجار ٢/٤٧١، ٤٧٢.

٢- انظر: وخلق الإنسان ضعيفا لمحمد السقا عيد على الرابط: (http://quran-m.com).

٣- سورة الروم: الآية ٥٤.

٤- انظر: تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم لزغلول النجار ٢/٤٧٢.

وأما طور المراهقة فيبدأ في الذكور حوالي من سن الـ ١٣ سنة، وفي البنات بين سن الـ ٨-١١ سنة في المتوسط، وتستمر إلى سن الـ ٢٠ حين يكتمل نمو العظام وتقوي وترداد كثافتها، ويتم نمو العضلات وتشدت، وتكتمل الغضاريف، فتتغير الأبعاد والأشكال والتصورات والمفاهيم، ويتميز طور المراهقة بالنمو البدني السريع، فيزداد الطول والوزن بشكل ملحوظ، ويصاحب النمو الجسدي بالبلوغ الجنسي، وزيادة إفراز الهرمونات، وتصل القوة البدنية إلى أعلى مستوياتها، وتعتبر فترة المراهقة هي طور الشباب، وهو طور الانتقال من الطفولة إلى الرجولة، فتزداد القدرات البدنية والعقلية والنفسية بالتدرج حتي تصل إلى قمته في سن الخامسة والعشرين، وتستمر بهذا الزخم إلى سن الخامسة والأربعين -مرحلة الرجولة الكاملة-، ثم يبدأ منحنى الجسد في التدهور، ليدخل في دور الكهولة ثم الشيخوخة، ويسمي القرآن الكريم مرحلة الرجولة باسم مرحلة بلوغ المرء أشده، وذلك في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾^(١)^(٢)، ولذلك عبر القرآن الكريم عن الانتقال من مراحل الجنين والرضيع والطفل وما فيها من ضعف، إلى مراحل الشباب والرجولة وما فيها من قوة وشدة بقوله ﷻ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾^(٣)^(٤).

وبعد وصول الإنسان إلى أقصى مراحل نموه الجسدي في طور الرجولة وثباته عند هذه القمة من سن الـ ٢٥ إلى سن الـ ٤٥ يتوقف النمو الجسدي، وتأخذ القدرات البدنية في التناقص التدريجي حتي سن الخامسة والستين، ثم بالتناقص الحاد من

١- سورة الأحقاف: الآية ١٥.

٢- انظر: تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم ٤٧٢/٢، ٤٧٣.

٣- سورة الروم: الآية ٥٤.

٤- انظر: تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم ٤٧٣/٢.

سن الـ ٦٥ إلى نهاية العمر، وتسمى هذه الفترة باسم طور الشيخوخة، وهي حالة من التدهور التدريجي في بنية كل حي يشمل جميع خلاياه وأنسجته وأعضائه وأجهزته مما يضعف من كفاءتها ومن قدرتها على القيام بوظائفها بالمعدلات التي كانت تقوم بها في طورى الشباب والرجولة، وهذا التدهور الصحي هو نوع من التدمير الذاتي المبرمج في الشيفرة الوراثية للخلية الحية، فيبدأ الخلل في التراكم على مستوي الخلايا لينعكس على الأنسجة والأعضاء والأنظمة، ويبدأ في الظهور في أشكال متعددة من التغير في تركيب الأحماض النووية التي تكتب بها الشيفرة الوراثية إلى شيب الرأس، وتجاعيد الجلد، وضعف الحواس، ومن المعروف أن أبسط تغير في تركيب الأحماض النووية يؤدي إلى عجز الخلية عن القيام بدورها المنوط بها، فتراجع فاعليتها وتظهر أعراض الشيخوخة المختلفة عليها، وقيل إن من أسباب ذلك كثرة الجذور الحرة للعناصر في الجسم، وأعراض الشيخوخة لا يمكن إيقافها، ولا التخلص منها؛ لأنها ناتجة عن ضعف قدرة خلايا الجسم على الانقسام كلما تقادم بها العمر، وقد اكتشف وجود غطاءين طرفيين عند نهايتي كل جسيم من الجسيمات الصبغية الحاملة للمورثات، وأن هذين الغطاءين يتناقص طول كل منهما عقب كل عملية انقسام، فإذا وصل طولهما إلى حد معين فإن عملية انقسام الخلية تتوقف حتى تموت، وتسمى فترة عجز الخلية عن الانقسام باسم شيخوخة الخلية^(١)، ومن مظاهر ذلك ما يلي:

١- شيب شعر الرأس؛ لفقدانه مادته الملونة الموجودة بخلايا التلوين في عمق البصيلة الشعرية^(٢)^(٣).

١- انظر: تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم لزغلول النجار ٢/٤٧٣، ٤٧٤.

٢- قال الله تعالى عن زكريا **﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَأَشَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾** [مريم: ٤].

٣- انظر: تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم ٢/٤٧٤.

- ٢- انكماش الجلد وتجده، نتيجة لتناقص نشاط كل من الغدد العرقية والدهنية مما يؤدي إلى رقة وجفاف الجلد، وضعف أنسجته الضامة مع تقدم العمر.
- ٣- ضعف الحواس التدريجي، كقدرات السمع والبصر والتذوق والشم واللمس، فيستعين كبار السن بوسائل معينة كالسماعات، والنظارات، والعدسات وغيرها، كما تزداد حاجتهم إلى الإضاءة الشديدة، ويصعب تأقلمهم مع الانتقال إلى الأماكن المظلمة، وقد يقل عدد خلايا التذوق في اللسان فتقل قدراتهم على الاستمتاع بالطعام.
- ٤- ضعف العضلات، إذ لاحظ العلماء بعد سن الـ(٤٥) تناقص كتلة كل من الأنسجة العضلية والوصلات العصبية العضلية، وزيادة كتلة الأنسجة الدهنية والليفية بالتدريج مع تقدم العمر، خاصة مع قلة ممارسة الرياضة وقلة الحركة^(١).
- ٥- وهن (هشاشة) العظام^(٢): فمع تقدم العمر، وتزايد معدلات الهدم على معدلات البناء فإن الهيكل العظمي يدخل في مرحلة الوهن؛ نظراً لامتلائه بالفراغات الناتجة عن تناقص مادة الكالسيوم، وبذلك تزداد هشاشته، وعادة ما تتضاغط فقرات العمود الفقري مؤدية إلى قصر القامة، أو حدوث تحذب في الظهر نتيجة لضعف العضلات وتآكل الغضاريف، ويرجع وهن العظم عند كبار السن إلى توقف إفراز أعداد من الهرمونات المهمة، وإلى نقص واضح في أعداد من الفيتامينات أهمها فيتامين (D) مما يؤدي إلى نقص معدلات امتصاص الكالسيوم من الدم.
- ٦- التدهور التدريجي للجهاز العصبي، إذ تتجدد خلايا جسم الإنسان كلها لعدة دورات طيلة حياته، باستثناء الخلايا العصبية، والتي إن ماتت لا يحل محلها بديل، ولذلك يقل عددها باستمرار مع تقدم العمر خاصة بعد تجاوز الخامسة

١- انظر: تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم لزغلول النجار ٢/٤٧٥، ٤٧٦.

٢- قال الله تعالى عن زكريا **﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾** [مريم: ٤].

والأربعين، فتضعف الذاكرة قصيرة الأمد، ويضعف معها العديد من الحواس كالسمع والبصر، والعديد من المهارات كالقدرة على الإمساك بالأشياء، وعلى الاستجابة للمؤثرات، وقد يصاب الطاعن في السن بشيء من النسيان والخرف والذهول عن كل من المكان والزمان، وقد تتعرض شخصيته إلى شيء من التغيير مع تراكم العديد من المواد بين الخلايا والألياف العصبية الحية تعرف باسم لطع الشيخوخة، والتي تكثر عادة في منطقة الناصية -منطقة اتخاذ القرار- ولذلك فإن الطاعنين في السن قد يصابون بالعديد من أمراض الشيخوخة كمرض الزهايمر والاكتئاب والوسوسة والخوف، وقد يتطور ذلك إلى شيء من الهوس والهيجان والجنون -نسأل الله العافية^(١).

٧- ضعف كل من القلب والجهاز الدوري؛ لبدأ بعض الخلايا العضلية للقلب في التلف، وتبدأ كل من الأنسجة الليفية والدهون في التراكم على الجدر الداخلية للأوعية الدموية، وفي عضلات القلب، وبذلك تقل كفاءة القلب تدريجياً في ضخ الدم، وتقل سرعة انقباضه، وتزداد نسب الإصابة بتصلب الشرايين، فيرتفع ضغط الدم، وقد يؤدي كل ذلك إلى حدوث الجلطات الدموية التي قد تقضي إلى الموت.

٨- ضعف الجهاز التنفسي، حيث تتناقص كفاءته بالتدرج مع الزمن فيصاب الطاعنون في السن عادة بالعديد من أمراض التهاب الرئتين، والغشاء البريتوني المغلف لهما، والتهابات الشعب الهوائية، وحساسية الأجزاء المتصلة بها، وغيرها.

٩- ضعف الجهاز الهضمي؛ نظراً لتناقص إفراز العصارات والإنزيمات المساعدة في عملية هضم الطعام، بالإضافة إلى ضعف قدرة الأسنان على القضم -إن لم تكن قد تساقطت بعد-.

١- انظر: تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم لزغلول النجار ٢/٤٧٥ - ٤٧٧.

١٠- ضعف الجهاز البولي والتناسلي؛ نظرا للنقص التدريجي في إفراز العديد من الإنزيمات الخلوية في الكلى فإنها تفقد بعض وحداتها مما يؤدي إلى انقاص كفاءتها أو فشلها بالكامل، وبالمثل يؤدي النقص الفجائي في إفراز العديد من الهرمونات عند الإناث بمجرد الدخول في سن اليأس والنقص التدريجي عند الذكور في مراحل الشيخوخة إلى ضعف نشاط الجهاز التناسلي بالتدريج حتي يتوقف مع مرور الزمن^(١).

١١- ضعف جهاز المناعة، ولذلك تتناقص القدرة على مقاومة الأمراض، ومن أخطر اعراض ذلك عجز جهاز المناعة عن تمييز خلايا الجسم السليمة من الأجسام الغريبة، فيبدأ بمهاجمة الجسد الذي صمم أصلاً للدفاع عنه، فيصاب بسلسلة من الأمراض المعروفة باسم أمراض فقد التمييز المناعي، والتي ينتج عنها إضعاف العديد من الخلايا والأنسجة والعمليات الحيوية في الجسم مع تقدم العمر^(٢).

١٢- الغدد الصماء: تقل استجابة المستقبلات الخلوية للهرمونات، وينقص هرمون النمو، وبالمثل ينقص الهرمون منظم النوم، فنقل فترات النوم، وفي الإناث يقل إفراز هرمون الأثوثة من المبيض عند انقطاع الحيض.

١٣- تحدث تغيرات على مستوى الخلايا والأنسجة، فيقل إنتاج المواد الفعالة وبعض الإنزيمات داخل الخلايا لذلك قد تصبح أقل فاعلية أو أقل استجابة لها، وقد تتراكم بعض المواد المتحللة الغريبة داخل الخلايا وفي الأنسجة، وفي النصف

١- انظر: تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم لزغلول النجار ٢/٤٧٦-٤٧٨، والشيخوخة تتكيس في الخلق، لمحمد دودح، منشور في مجلة الإعجاز العلمي، الصادرة عن هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة برابطة العالم الإسلامي، العدد الثاني عشر، صفر ١٤٢٣هـ، ص ٧-٩.

٢- انظر: تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم لزغلول النجار ٢/٤٧٨.

الأول من العمر يكون معدل عمليات البناء أعلى، أما في النصف الثاني فيقل معدل نشاط العمليات الحيوية، ويكون معدل الهدم أعلى، كما تتجه القدرات البدنية والعقلية في النصف الأول من العمر نحو الزيادة، بينما تتجه في النصف الثاني نحو التدهور والنقص^(١).

لهذا الضعف المتراكب في جميع أجهزة الجسم مع الزمن، قال الله ﷻ: ﴿رُشْمٌ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾^(٢).

فالضعف صفة ملازمة للإنسان طوال حياته، وهي السمة المميزة له في مقتبل العمر وفي خريف حياته، وسبحان الخالق العظيم الذي جعل مشوار حياة الإنسان يبدأ بالضعف، وينتهي به، حتى وإن كان في ريعان شبابه وقمة عنفوانه فهو ضعيف، أما نرى أنه صريع أمام دوافع النوم لا غلبة له عليه يطرحه أرضاً حتى وإن كانت له قوة تصارع وتقهر العتاة، وها هو المرض في أوهن أشكاله ومسبباته يقهر الإنسان ويوهن صحته ويحد من نشاطه، وقد ينال من جسده ويضعف من قوته فيصبح عاجزاً لا يقوى على رعاية نفسه، أليس ضعيفاً حتى في لحظات ومراحل القوة والغطرسة التي قد تخدع أكثر الناس وتحيد به عن سواء السبيل؟^(٣).
لما كان الضعف مبتدأ أمر الإنسان ومنتهاه، ولما كان الضعف صفة ملازمة للإنسان طوال حياته حتى في عنفوان شبابه، كان الاعتراف بهذا الضعف، وأنه شيء جبل عليه الإنسان، كنز من كنوز الجنة، فلا حول ولا قوة إلا بالله كنز من

١- انظر: الشيخوخة تنكيس في الخلق، لمحمد دودح، مجلة الإعجاز العلمي لرابطة العالم الإسلامي، عدد ١٢، صفر ١٤٢٣هـ، ص ٨، ٩.
٢- سورة الروم: الآية ٥٤.
٣- انظر: وخلق الإنسان ضعيفا لمحمد السقا عيد على الرابط: (http://quran-m.com).

كنوز الجنة، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: "أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كَلِمَةٍ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ - أَوْ قَالَ - عَلَى كَنْزٍ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ، فَقُلْتُ: بَلَى، فَقَالَ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ"^(١)، وقال العلماء: سبب ذلك أنها كلمة استسلام وتفويض إلى الله تعالى، واعتراف بالإذعان له، وأنه لا صانع غيره، ولا راد لأمره، وأن العبد لا يملك شيئاً من الأمر^(٢)، وعليه فلا حل إلا بالاعتصام بالله والإيمان بالله، فهو القوة الحقيقية في النفس البشرية وما دون ذلك فهو ضعف وهوان وإن كان ظاهره القوة، وعلى المسلم أن يكرس قوته ويسخرها وينتهاز لحظات القوة ليؤدي واجب الطاعة والعبادة للخالق الذي أمدّه بالقوة ووهبه العقل والفكر والبصيرة^(٣).

١- أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر ١٥٤١/٤ برقم: ٣٩٦٨، ومسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب خفض الصوت بالذكر ٢٠٧٦/٤ برقم: ٢٧٠٤. واللفظ لمسلم.
٢- شرح النووي على مسلم ٢٦/١٧.
٣- انظر: وخلق الإنسان ضعيفا لمحمد السقا عيد على الرابط: (http://quran-m.com).

المطلب الثالث: ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها

من خلال الدراسة التفسيرية والعلمية يتلخص ما يلي:

* اختلف المفسرون في المراد (بالضعف) في قوله ﷻ: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾، ولهم أقوال سبعة أرجحها القول الأخير وهو أنه في كل شيء؛ وذلك لشموله، فالضعف في الإنسان يتضمن كثير من جوانب حياته: النفسية، والبدنية، والجنسية، والعقلية، فجميع الأقوال داخلة فيه.

* قوله ﷻ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ﴾ يحتتمل معنيين، وكلاهما صحيح، ولكل واحد منهما ما يدل عليه، وهما: الأول: خلقكم من أصل ضعيف هو النطفة، والماء المهين. والثاني: ابتدأكم ضعفاء، وجعل الضعف أساس أمركم.

* هذا الترديد في الأحوال المختلفة ضعف ثم قوة ثم ضعف، والتغيير من هيئة إلى هيئة، وصفة إلى صفة، أظهر دليل وأعدل شاهد على الصانع العليم القادر ﷻ.

* من مظاهر ضعف الإنسان علمياً وواقعياً:

- التقدم العلمي الكبير مازال محدوداً إلى يومنا هذا.
- مجالات علوم الإنسان طرقها متشعبة ملتوية.
- يزداد ظهور ضعف الإنسان حين يدخل في صراع بين عقله ومشاعره.
- أن الإنسان لا يستطيع أن يجزم بشيء مقطوع من حوادث المستقبل.
- إن الإنسان جسد ضعيف محدود القدرات والإمكانات، وحواسه مقيدة محدودة.

- القدرات العجيبة لكثير من الطيور والحشرات والحيوانات على الاتصال والحركة والهجرة والاستدلال على المواطن، مما تعجز قوى الإنسان عنه.
- ضعف الرجل أمام المرأة، وضعف المرأة أيضاً أمام الرجل.

- أكثر ما يظن فيه عجز الإنسان وضعفه هو الإمكانيات التي يمتلكها لفهم الواقع المعاش بكلياته وجزئياته ومشكلاته وخبائاه.

* الضعف الإنساني سمة تلازم الإنسان من لحظة البداية في خلقه إلى نهاية حياته، فمن جنين ووليد وطفل رضيع ففطيم فحضانة وكلها ضعف، إلى مراهقة وشباب تتميز بالنمو البدني السريع وتقله من الطفولة إلى الرجولة، لتزداد القدرات البدنية والعقلية والنفسية بالتدرج حتي تصل إلى قمته، وتستمر بهذا الزخم إلى سن الـ ٤٥ مرحلة الرجولة الكاملة، ثم يبدأ منحى الجسد في التدهور، ليدخل في دور الكهولة ثم الشيخوخة والتي من مظاهرها: شيب شعر الرأس، وانكماش الجلد وتجعده، وضعف الحواس التدريجي، ووهن العظام، وضعف العضلات، والقلب، والجهاز الدوري، والجهاز التنفسي، والجهاز الهضمي، والجهاز البولي، والتناسلي، وجهاز المناعة، والتدهور التدريجي للجهاز العصبي، فجعل مشوار حياة الإنسان يبدأ بالضعف وينتهي به، حتى وإن كان في ريعان شبابه وقمة عنفوانه فهو ضعيف.

- الحل الذي يجبر به الإنسان وضعفه هو الاعتصام بالله والإيمان بالله، وعلى المسلم تسخير قوته للطاعة والعبادة للخالق الذي أمده بالقوة.

ومن خلال ما سبق يظهر لي الآثار التالية:

* قوت الجوانب الواقعية والعلمية قول المفسرين القائلين إن الضعف في كل شيء، ويشمل كل جوانب حياة الإنسان، كما زادتنا الجوانب العلمية تفصيلاً موسعاً ودقيقاً عن ضعف الإنسان يشمل ظاهره وباطنه.

* ظهور المعجزة، وذلك بوصف القرآن لخلق الإنسان بالضعف، وأطلق اللفظ ليعم، وهو ما تؤكد الجوانب الواقعية والعلمية، كذلك نجد أن القرآن الكريم ميز

ضعف التعمير والانتكاس عن الضعف الأول وهو ضعف الخلق والتسوية والتعديل والنشأة والابتداء والنماء، بأن قرن الضعف الأخير بالشيب، ومع أن هذه مظاهر يعيشها الإنسان إلا أن وصف القرآن الكريم لها بهذه الدقة العلمية والترتيب المنطقي الرشيد لما يشهد لهذا الكتاب الخالد بالريانية الخالصة، ويشهد للرسول الخاتم الذي تلقاه بالنبوة وبالرسالة^(١).

* ظهور بلاغة القرآن الكريم؛ إذا وصف خلق الإنسان بكلمة **﴿ضَوْيفًا﴾** لكن معناها يملأ الأسطر والصفحات من البيان والإيضاح.

* الرد على الطاعنين والمشككين فيما ورد في القرآن عن خلق الإنسان، فالإنسان مبتدأه ومنتهاه ضعف، ولا يفارقه الضعف حتى في كمال ريعان شبابه.

* يتوقع أن تحمل الدراسة على الاعتصام بالله القوي؛ سداً للضعف البشري.

١- انظر: تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم لزغلول النجار ٤٧٨/٢.

المبحث الثالث

خلق الإنسان في كبد

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول:

خلق الإنسان في كبد في القرآن الكريم.

المطلب الثاني:

خلق الإنسان في كبد في ضوء المعطيات الواقعية

والمكتشفات العلمية.

المطلب الثالث:

ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها.

المطلب الأول: خلق الإنسان في كبد في القرآن الكريم

الآيات الواردة

قال الله ﷻ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾^(١).

أقوال المفسرين

قوله ﷻ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾^(٢)، اختلف المفسرون في المراد بـ﴿الْإِنْسَانَ﴾

في هذه الآية على أقوال:

القول الأول: آدم عليه السلام^(٣).

القول الثاني: الجنس، أي جميع الناس، وهذا ما عليه أكثر المفسرين^(٤).

القول الثالث: الكافر يكابد شبهات^(٥) (الكفر)^(٦)، أو خصوص أهل الشرك؛

لأن قوله ﷻ: ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾^(٧)، إلى آخر الآيات لا يليق إلا بأحوال

غير المؤمنين، فالعموم عموم عرفي، أي: الإنسان في عرف الناس يومئذ، ولم

١- سورة البلد: الآية ٤.

٢- سورة البلد: الآية ٤.

٣- نقله كل من: الثعلبي في الكشف والبيان عن تفسير القرآن ٢٠٧/١٠، وابن جزري في التسهيل لعلوم التنزيل ٤٨٤/٢، وابن عادل في اللباب في علوم الكتاب ٣٤٣/٢٠، وغيرهم.

٤- انظر: جامع البيان للطبري ٤٣٥/٢٤، وتفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ٣٤٣٣/١٠، والوجيز للواحد ص ١٢٠٣، والمحزر الوجيز لابن عطية ٤٥٥/٥، ومفاتيح الغيب للرازي ١٦٦/٣١، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٦٢/٢٠، وأنوار التنزيل للبيضاوي ٤٩٢/٥، والتسهيل لعلوم التنزيل لابن جزري ٤٨٣/٢، والبحر المحيط لأبي حيان ٤٧٠/٨، وتفسير ابن كثير ٦٢٢/٤، والجواهر الحسان للثعالبي ٤١٥/٤، وتفسير الجلالين ص ٨٠٨، وتفسير أبي السعود ١٦١/٩، والبحر المديد لابن عجيبة ٤٦٨/٨.

٥- انظر: النكت والعيون للماوردي ٢٧٦/٦.

٦- انظر: تفسير القرآن (اختصار النكت والعيون للماوردي) لعز الدين عبد العزيز بن عبد السلام ٤٥٤/٣.

٧- سورة البلد: الآية ٥.

يكن المسلمون إلا نفرًا قليلاً، ولذلك كثر في القرآن إطلاق الإنسان مراداً به الكافرون من الناس^(١).

القول الرابع: المراد إنسان معين، وهو الذي وصفناه بالقوة^(٢)، فالتعريف تعريف العهد^(٣)، واختلفوا فيه:

أ- ف قيل: أبو الأشدين الجمحي^(٤).

ب- وقيل: أبو جهل^(٥).

ج- وقيل: الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف^(٦).

د- وقيل: الوليد بن المغيرة^(٧).

هـ- وقيل: عمرو بن عبد ود العامري^(٨).

المنافشة:

أجيب عن القول الأول القائل إن الإنسان آدم عليه السلام: بأنه قول ضعيف^(٩).

١- انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور ٣٠/٣٠٩.

٢- انظر: مفاتيح الغيب للرازي ٣١/١٦٦.

٣- انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور ٣٠/٣٠٩.

٤- كان معروفاً بالقوة والشدة، يجعل الأديم العكاظي تحت قدميه، فيقول: من أزالني فله كذا، فيجذبه عشرة

رجال حتى يمزق الأديم ولا تزول قدماءه، وكان شديد الكفر والعداوة للنبي ﷺ، فنزل فيه ﴿أَبْحَسُّبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ

أَحَدٌ﴾ [البلد: ٥]. انظر: معالم التنزيل للبغوي ٥/٢٥٥، ولباب التأويل للخازن ٧/٢٤٨.

٥- انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور ٣٠/٣١٠.

٦- أذنب فاستفتى النبي ﷺ فأمره بالكفارة، فقال لقد: أهلكت مالا في الكفارات والنفقات مذ تبعت محمداً، وكان

قد ادعى أنه انفق مالا كثيراً على إفساد أمر النبي ﷺ، أو في الكفارات على ما تقدم. انظر: بحر العلوم

للسمرقندي ٣/٥٥٩، والمحزر الوجيز لابن عطية ٥/٤٥٥.

٧- انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور ٣٠/٣١٠.

٨- انظر: المحزر الوجيز لابن عطية ٥/٤٥٥.

٩- انظر: المحزر الوجيز لابن عطية ٥/٤٥٥، والتسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ٢/٤٨٤.

وأجيب عن القول الرابع القائل المراد إنسان معين: بأنه وإن ورد عند فعل فعله شخص معين، فإنه عام يدخل فيه كل أحد^(١)، فوقف القرآن على جهة التوبيخ للمذكور، وعلى جهة التوبيخ لاسم الجنس كله^(٢)، وأما تحديد هذا المعين بأحد الأشخاص المذكورين في القول الرابع فليس لهذه الأقوال شاهد من النقل الصحيح، ولا يلائمها القسَم، ولا السياق^(٣).

والراجع: هو القول الثاني الذي عليه أكثر المفسرين، وهو أن المراد جنس الإنسان؛ لأن الكبد صفة يشترك فيها جنس الإنسان، وبذلك معنى الكبد في اللغة، وكذلك الواقع، ولا يمنع حمله على العموم ما بعده من آيات؛ لأن السياق إن صح أنه في المشركين، أو شخص بعينه من الكفار، فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

وفي قوله ﴿فِي كَبِدٍ﴾ عدة أقوال للمفسرين:

القول الأول: خُلِقَ منتصباً، أو في انتصاب في بطن أمّه وبعد ولادته، خص الإنسان بذلك تشريفاً، ولم يخلق غيره من الحيوان منتصباً.

ومعتدل القامة أو في اعتدال، لما بيّنه بعد من قوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ﴾^(٤) (٥).

١- انظر: مفاتيح الغيب للرازي ١٦٦/٣١.

٢- انظر: المحرر الوجيز لابن عطية ٤٥٥/٥.

٣- انظر: التحرير والتنوير ٣١٠/٣٠.

٤- سورة البلد: الآية ٨.

٥- انظر: بحر العلوم للسمرقندي ٥٥٩/٣، زالهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب ٨٢٧٥/١٢، والنكت والعيون للماوردي ٢٧٥/٦، والوجيز للواحي ص ١٢٠٣، ومعالم التنزيل للبخاري ٢٥٥/٥، ومفاتيح الغيب للرازي ١٦٥/٣١، والدر المنثور للسيوطي ٥٢٠/٨.

وأصل الكبد الاستواء والاستقامة^(١)، ومعنى هذا القول: لقد خلقناه سوياً مستقيماً^(٢).

القول الثاني: يعني من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة، يتكبد في الخلق مأخوذ من تكبد الدم وهو غلظه، ومنه أخذ اسم الكبد؛ لأنه دم قد غلظ^(٣).

القول الثالث: في ظلمة وجهل^(٤).

القول الرابع: خلق آدم في كبد السماء^(٥).

القول الخامس: جريء القلب، غليظ الكبد، مع ضعف خلقته، ومهانة مادته^(٦).

القول السادس: ذو نفور وحمية، مأخوذ من قولهم لفلان كبد، إذا كان شديد النفور والحمية^(٧).

القول السابع: في قوة وشدة خلقه، نزلت في أبي الأشدين أو غيره ممن كان شديداً قوياً^(٨).

القول الثامن: مضيعاً ما يعنيه، مشتغلاً بما لا يعنيه^(٩).

١- معالم التنزيل في تفسير القرآن للبغوي ٢٥٥/٥. قال المنذري: «سمعت أبا طالب يقول: الكبدُ الاستواء والاستقامة». لسان العرب ٣/٣٧٤.

٢- انظر: تفسير القرآن العظيم ابن كثير ٤/٦٢٢.

٣- انظر: بحر العلوم ٣/٥٥٩، والنكت والعيون ٦/٢٧٦، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/٦٢٣.

٤- انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٠/٦٣.

٥- انظر: جامع البيان في تأويل القرآن الطبري ٢٤/٤٣٥، والهداية إلى بلوغ النهاية لمكي ابن أبي طالب ١٢/٨٢٧٦، والنكت والعيون للماوردي ٦/٢٧٦، والمحرم الوجيز لابن عطية ٥/٤٥٥.

٦- انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٠/٦٣.

٧- انظر: النكت والعيون للماوردي ٦/٢٧٦.

٨- انظر: معالم التنزيل في تفسير القرآن للبغوي ٥/٢٥٥، ومفاتيح الغيب للرازي ٣١/١٦٥، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٠/٦٣، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل ٢٠/٣٤٤.

٩- انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٠/٦٣.

القول التاسع: الكبد في الدين يكابد الشكر على السراء والصبر على الضراء؛ لأنه لا يخلو من أحدهما، ويكابد المحن في أداء العبادات^(١)

القول العاشر: في شدة ومشقة وعناء ونصب يكابد الأمور ويُعالجها^(٢)؛ لأن ذلك هو المعروف في كلام العرب من معاني الكبد^(٣)، وكما في قوله ﷺ: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدًّا فَمَلِّقِيهِ﴾^(٤)، وفي قوله ﷺ: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كَرْهًا وَوَضَعَتْهُ كَرْهًا﴾^(٥)، قال بعض السلف: يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة^{(٦)(٧)}.

-
- ١- انظر: النكت والعيون ٢٧٦/٦، ومفاتيح الغيب للرازي ١٦٥/٣١، والبحر المحيط لأبي حيان ٤٧٠/٨.
- ٢- انظر: جامع البيان للطبري ٤٣٣/٢٤، ٤٣٥، وتفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ٣٤٣٣/١٠، وبحر العلوم للسمرقندي ٥٥٩/٣، والهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب ٨٢٧٥/١٢، والنكت والعيون للماوردي ٢٧٦/٦، ومعالم التنزيل للبغوي ٢٥٤/٥، ٢٥٥، ومفاتيح الغيب للرازي ١٦٥/٣١، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٦٢/٢٠، والبحر المحيط لأبي حيان ٤٧٠/٨، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل ٣٤٢/٢٠، والدر المنثور للسيوطي ٥١٩/٨.
- ٣- قال ابن فارس: «كبد: الكاف والباء والداد أصلٌ صحيح يدلُّ على شِدَّةٍ في شيء وقُوَّةٍ، من ذلك الكَبْدُ، وهي المشقَّة، يقال: لَقِيَ فلانٌ من هذا الأمر كَبْدًا، أي مشقَّةً... وكابدتُ الأمر: قاسيته في مشقَّةٍ، ومن الباب الكَيْدُ، وهي معروفة، سمَّيت كَبِدًا لتكْبِيدِها» معجم مقاييس اللغة ١٥٣/٥، وقال الفيومي: «والكَبْدُ -بفتحين-: المشقَّة، من المُكَابِدَةِ للشَّيء، وهي تحمل المشاق في فعله» المصباح المنير ٥٢٣/٢، وقال الجوهري: «والكبد: الشدة... وكابدت الأمر: إذا قاسيت شدته» الصحاح ٩٢/٣.
- ٤- سورة الانشقاق: الآية ٦.
- ٥- سورة الأحقاف: الآية ١٥.
- ٦- انظر: جامع البيان للطبري ٤٣٤/٢٤، وتفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ٣٤٣٣/١٠، وبحر العلوم للسمرقندي ٥٥٩/٣، والوجيز للواحي ص ١٢٠٣، ومعالم التنزيل في تفسير القرآن للبغوي ٢٥٤/٥، والبحر المحيط في التفسير لأبي حيان ٤٧٠/٨، والدر المنثور للسيوطي ٥٢٠/٨.
- ٧- شدائد الآخرة: الموت، ومساءلة الملك، وظلمة القبر، ثم البعث، والعرض على الله، إلى أن يستقر به القرار إما في الجنة وإما في النار. انظر: مفاتيح الغيب للرازي ١٦٥/٣١.

الناقشة:

قال أبو حيان بعد ذكره للأقوال: الأول، والرابع، والتاسع: «وهذه الأقوال ضعيفة»، ثم رجح أول قول ذكره هو، وهو القول الذي ذكرته أخيراً^(١). وضعف ابن جزى القولين الأول والرابع كذلك^(٢).

والقول الراجح: هو القول الأخير أن معنى ﴿فِي كَبَدٍ﴾، أي في شدة وعناء ونصب ومكابدة؛ فهو اللائق بالآية^(٣)، ويشهد لصحته الواقع المشاهد، يقول البيضاوي: «والإنسان لا يزال في شدائد مبدؤها ظلمة الرحم ومضيقه، ومنتهائها الموت وما بعده»^(٤)، ويقول أبو السعود: «أي: تعب ومشقة، فانه لا يزال يقاسي فنون الشدائد من وقت نفخ الروح إلى نزعها وما وراءه»^(٥). وقيل: لم يخلق الله خلقاً يكابد ما يكابد ابن آدم^(٦).

قال بعض العلماء: أول ما يكابد قطع سرتة، ثم إذا قمت قماطاً، وشد رباطاً، يكابد الضيق والتعب، ثم يكابد الارتضاع، ولو فاته لضاع، ثم يكابد نبت أسنانه، وتحرك لسانه، ثم يكابد الفطام الذي هو أشد من اللطام، ثم يكابد الختان، والأوجاع والأحزان، ثم يكابد المعلم وصولته، والمؤدب وسياسته، والأستاذ وهيبته، ثم يكابد شغل الترويح، ثم يكابد شغل الأولاد، والأجناد، ثم يكابد شغل الدور، وبناء القصور، ثم الكبر والهرم، وضعف الركبة والقدم، في مصائب يكثر تعدادها

١- البحر المحيط في التفسير لأبي حيان ٨/٤٧٠.

٢- انظر: التسهيل لعلوم التنزيل ٢/٤٨٣، ٤٨٤.

٣- مفاتيح الغيب للرازي ٣١/١٦٥.

٤- أنوار التنزيل وأسرار التأويل البيضاوي ٥/٤٩٢.

٥- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود ٩/١٦١.

٦- انظر: الكشف والبيان للثعلبي ١٠/٢٠٧، والهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب ١٢/٨٢٧٥.

ونوائب يطول إيرادها، من صداع الرأس، ووجع الأضراس، ورمد العين، وغم الدَّين، ووجع السن، وألم الأذن، ويكابد مَحَنًا في المال، والنفس، مثل الضرب والحبس، ولا يمر عليه يوم إلا يقاسي فيه شدة، ثم يكابد بعد ذلك مشقة الموت، ثم بعد ذلك مساءلة الملك، وضغطة القبر وظلمته، ثم البعث، والعرض على الله، إلى أن يستقر به القرار، إما في الجنة أو في النار، فلو كان الأمر إليه، ما اختار هذه الشدائد، ودل هذا على أن له خالقاً دبره، وقضى عليه بهذه الأحوال، فليتمثل أمره^(١).

والقول قبل الأخير قريب منه؛ لأن من ضمن ما يكابده الإنسان في حياته أمور العبادات والتكليف، لأنه لا بد له من حمل النفس عليها، ولذا سمي التكليف بالتكليف، لأن فيه كلفة ومشقة وإن كانت معتادة للمكلف.

وقد ذكر الرازي أنه يظهر من هذه الآية - ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾^(٢) - أنه لا بد للإنسان من البعث والقيامة؛ لأن الإنسان خلق في هذه الدنيا في كبد ومشقة ومحنة، فإذا لا بد بعد هذه الدار من دار أخرى لتكون تلك الدار دار السعادات واللذات والكرامات^(٣).

١- انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٦٣/٢٠، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل ٣٤٣/٢٠.

٢- سورة البلد: الآية ٤.

٣- انظر: مفاتيح الغيب ١٦٥/٣١.

المطلب الثاني: خلق الإنسان في كبد في ضوء المعطيات الواقعية والمكتشفات العلمية

إن الكبد طبيعة الحياة الدنيا، والإنسان إذا نظر متأملاً في نفسه وواقعه ومن حوله من أبناء جنسه، تيقن من ثبوت هذه الحقيقة، فإن الإنسان لا يزال في نصب ومكابدة وشدائد منذ البداية في تكوينه إلى منتهائها بالموت وما بعده، فالنطفة الأمشاج -البذرة الأولى للجنين- لا تستقر في الرحم حتى تبدأ في الكبد والكبد والنصب، لتوفر لنفسها الظروف الملائمة للحياة والغذاء بإذن ربها، فحالمًا تتكون النطفة الأمشاج من الحيوان المنوي والبويضة، تبدأ بالعمل الجاد، وتبدأ بالانشطار، الخلية تصبح خليتين، والخليتان أربع، وهكذا دواليك، حتى تتكون مئات الخلايا على هيئة ثمرة التوت وعندئذ تسمى التوتة، فإذا ما كبرت الكرة قليلاً صار ما بداخلها مجوفاً وبه سائل رقيق وعندئذ تدعى بالتكور الجرثومي، وفي هذه الأثناء لا تكف البويضة الملقحة أو النطفة الأمشاج عن الحركة -بواسطة شعيرات قناة الرحم وتقلصات جداره- وإن كانت حركة بطيئة، فهي تنتقل من الثلث الوحشي لقناة الرحم (قناة فالوب) حيث تم التلقيح، وتتجه عبر القناة الرحمية حتى تقترب من الرحم، وفي خلال خمسة أيام أو أسبوع على الأكثر تكون قد وصلت إلى الرحم وهناك تنتظر أين تتوسد وتتغرز، وما تزال كذلك في كبد وكبد ونصب تنتقل من طور إلى طور، فمن نطفة إلى علقة إلى مضغة فعظام فلحم، ثم تنشأ خلقاً آخر يكون فيه التعديل والتصوير ونفخ الروح، وكل ذلك قد سبق الوقوف عليه^(١)، حتى تنتهي إلى المخرج، فتذوق من المخاض إلى جانب ما تذوقه الوالدة ما تذوق، وما يكاد الجنين يرى النور حتى يكون قد ضغط ودفع حتى كاد يخنثق

١- انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب ٦/ ٣٩٠٩، وخلق الإنسان بين الطب والقرآن للبار ص ١٩٨-٢٠٠.

في مخرجه من الرحم، ومنذ هذه اللحظة يبدأ الجهد الأشق والكبد الأمر، يبدأ ليتنفس هذا الهواء الذي لا عهد له به، ويفتح فمه ورئتيه لأول مرة ليشهق ويزفر في صراخ يشي بمشقة البداية، وتبدأ دورته الهضمية ودورته الدموية في العمل على غير عادة، ويعاني في إخراج الفضلات حتى يروض أمعائه على هذا العمل الجديد، وكل خطوة وكل حركة بعد ذلك كبد، فعندما يهيم بالحبو، وعندما يهيم بالمشي، يبذل من الجهد والمشقة الكثير للقيام بها، وعند بروز الأسنان، وعند انتصاب القامة، وعند الخطو الثابت، وعند التعلم، وعند التفكير، وفي كل تجربة جديدة كبد، ثم تفرق الطرق، وتتنوع المشاق، هذا يكدح بعضلاته، وهذا يكدح بفكره، وهذا يكدح بروحه، وهذا يكدح للقامة العيش وخرقة الكساء، وهذا يكدح لينمي ماله، وهذا يكدح لملك أو جاه، وهذا يكدح في سبيل الله، وهذا يكدح لشهوة ونزوة، وهذا يكدح لعقيدة ودعوة، وهذا يكدح إلى النار، وهذا يكدح إلى الجنة، والكل يحمل حمله ويصعد الطريق كادحاً إلى ربه فيلقاه، وهناك يكون الكبد الأكبر للأشقياء، وتكون الراحة الكبرى للسعداء، إنه الكبد طبيعة الحياة الدنيا، تختلف أشكاله وأسبابه؛ ولكنه هو الكبد في النهاية، فأخسر الخاسرين هو من يعاني كبد الحياة الدنيا لينتهي إلى الكبد الأشق الأمر في الأخرى، وأفلح الفالحين من يكدح في الطريق إلى ربه ليلقاه بمؤهلات تنهي عنه كبد الحياة، وتنتهي به إلى الراحة الكبرى في ظلال الله^(١).

ولو غُصنا في أعماق جسم الإنسان لوجدنا العناء والنصب والمكابدة:

فَالخَلايا في جسم الإنسان ألف مليون مليون خلية تنتظم انتظاماً دقيقاً لتؤلف أجهزة البدن المختلفة، وكل خلية بحسب موقعها في الجسم اختصاصاً أو عملاً

١- في ظلال القرآن لسيد قطب ٦ / ٣٩٠٩، ٣٩١٠.

تقوم به على أتم ما يكون، وتتعاون مع الخلايا المجاورة لتؤدي عملها ضمن الجهاز التي هي فيه، فخلية الجلد تتعاون مع جاراتها لحماية البدن من العوامل الخارجية، وخلايا العضلات تتعاون فيما بينها ضمن الليف العضلي، وتتعاون الألياف مع بعضها للقيام بعملية التقلص العضلي الذي يؤمن الحركة والقفز وحمل الأشياء وثني المفاصل وبسطها، وخلايا الدم بعضها مختص بنقل الأوكسجين للخلايا وهي الكريات الحمر، وبعضها مختص بالحماية والدفاع عن الجسم من الأجسام الغازية وهي الكريات البيضاء، وفي مصل الدم تحل آلاف المواد المغذية والواقية للبدن، ويدور الدم في جميع البدن ليؤدي رسالته إلى كل جهاز وخلية، وجميع خلايا البدن تنقسم وتتبدل وتموت باستثناء خلايا الجهاز العصبي، إذ يستهلك الجسم من خلاياه (١٢٥) مليون خلية في الثانية الواحدة، أي بمعدل (٧٥٠٠) مليون خلية في الدقيقة الواحدة، وبنفس الوقت يتشكل ويتركب نفس العدد من الخلايا تقريباً، ولو علمنا بناء وهندسة وفيزيولوجية الخلية الواحدة لخر كل واحد منا على الأرض ساجداً من عجب صنع الله رب العالمين^(١)، فجسم الإنسان وكل خلية فيه في عناء ونصب ومكابدة تؤدي دوراً في حياة الإنسان.

ولو نظرنا إلى أي جهاز في جسم الإنسان لوجدنا النصب والكدح والمكابدة:
فمثلاً يقوم الجهاز الدوري بعمليات النقل المختلفة في الجسم مستعيناً بالدم واللمف، وهما سائلان يدوران في شبكة من الأوعية تنتشر في الجسم وتتخلل الأنسجة، ويوصل السائلان الأوكسجين والغذاء المهضوم والهرمونات إلى الأنسجة وينقلان منها المواد التي يراد التخلص منها إلى أعضاء الإخراج، وتجري كل كرية

١- انظر: الفلك والطب أمام عظمة القرآن لأكرم أحمد إدريس ص ١٢٧، ١٢٨، ومع الطب في القرآن الكريم لعبد الحميد دياب وأحمد قرقوز ص ٤٠.

حمراء (١٥٠٠) دورة دموية بشكل وسطي كل يوم، تقطع خلالها (١١٥٠) كم في عروق البدن^(١)، فهو في دوران مستمر يكدح ويكابد لا يتوقف.

والجهاز التنفسي الذي يعمل على استيراد الأوكسجين من الهواء الخارجي إلى داخل الرئتين، حيث يدخل إلى الدم، ومنه إلى الخلايا ليقوم بحرق الأغذية خصوصاً السكريات؛ لإنتاج الطاقة اللازمة لدوام الحياة وفعاليتها المختلفة، ويقوم كذلك بطرح غاز ثاني أكسيد الكربون، والإنسان يتنفس كل لحظة من ليل أو نهار، ولو توقف هذا الجهاز لبضع دقائق لأدى إلى موت الإنسان، وفي كل يوم يتنفس الإنسان (٢٥) ألف مرة، يسحب فيها ١٨٠ متراً مكعباً من الهواء، يتسرب منها (٥، ٦) متر مكعب من الأوكسجين للدم^(٢)، فهو يكدح طوال حياة الإنسان ويكابد.

وأما الحواس والتي هي نافذة الإنسان إلى العالم الخارجي، فلكل حاسة منها مركز في المخ ينظم عملها، وبفعل ما أودعه الخالق الحكيم من أجزاء في كل حاسة، وأجزاء عصبية أخرى تربطها بمركز تنظيم العمل في المخ، تؤدي دورها ووظيفتها التي أنيطت بها^(٣):

١- انظر: الأطلس العلمي (فيزيولوجيا جسم الإنسان) لزهير الكرمي ومحمد صباريني وسهام العقاد ص ٤٦، ومع الطب في القرآن الكريم لعبد الحميد دياب وأحمد قرقوز ص ٤٠.

٢- انظر: الفلك والطب أمام عظمة القرآن ص ١٦٣، ١٦٤، ومع الطب في القرآن الكريم ص ٤١.

٣- ففي العين الواحدة حوالي (١٤٠) مليون مستقبل حساس للضوء، وهي تسمى بالمخاريط والعصي، وطبقة المخاريط والعصي هذه هي واحدة من الطبقات العشرة التي تشكل شبكية العين، والتي تبلغ ثخانتها بطبقاتها العشرة (٤، ٥) مم، ويخرج من العين نصف مليون ليف عصبي ينقل الصورة بشكل ملون.

وأما الاذن ففي عضو كورتي الذي يمثل شبكية الأذن يوجد (٣٠، ٥٠٠٠) خلية سمعية لنقل كافة أنواع الأصوات بمختلف اهتزازاتها وشدتها بحساسية عظيمة، وفي الأذن الباطنة يوجد قسم يسمى التيه؛ لأن =

فبفعل النهايات العصبية المنتشرة في الجلد والتي تتأثر بمجرد وقوع ضغط بسيط عليها بإمكان الإنسان الإحساس باللمس.

وينتشر في الأنف أطراف العصب الشمي، وبانتشار المادة الطيارة في الجو من الأجسام ذات الروائح وذوبان هذه المادة الطيارة في السائل الذي يغطي الغشاء المخاطي في الجزء العلوي من تجويف الأنف، يؤثر المحلول المتكون على النهايات العصبية للعصب الشمي المنتشرة في هذه المنطقة، وينقل العصب الشمي هذا الأثر إلى مركز الشم في المخ، فيتم الإحساس بالرائحة.

ويغطي اللسان غشاء مخاطي يفرز سائلاً مخاطياً وتنتشر على سطحه حلقات أو بروز التذوق التي تكثر فيها الخلايا الحسية، وهذه تتأثر بطعم المواد، ويتم الإحساس بالتذوق بذوبان المادة ذات الطعم في المحلول الناتج على الحلقات التي تنبه أطراف الأعصاب فيها، وتقوم هذه الأعصاب بنقل التأثير إلى مركز التذوق بالمخ. وعند سقوط الأشعة الضوئية الصادرة من الجسم أو المنعكسة منه على العين تنفذ خلال القرنية، ثم الحجرة الأمامية، ثم العدسة البلورية، فتتكسر متجمعة بحيث تتكون صورة حقيقة للجسم مقلوبة على الشبكية، وتعمل عضلات القزحية على توسيع البؤبؤ وتضييقه حسب اللازم، وينقل العصب البصري صورة الجسم المقلوبة إلى مركز الإبصار في المخ ليتم إدراك الصورة بشكلها الطبيعي، ويتم ذلك بإحداث تغيرات كيميائية في بعض خلايا الشبكية.

ويجمع الصيوان موجات الصوت المنقولة في الهواء، وتتمر موجات الصوت في القناة السمعية، وتقوم الشعيرات والصملاخ الذي تفرزه الغدد الشمعية بحجز ما يعلق

=الباحث يكاد يتيه من أشكال الدهاليز والممرات والجدر والحفر والغرف والفوهات والاتصالات وشبكة التنظيم والعلاقات الموجودة داخل هذا القسم! انظر: مع الطب في القرآن الكريم ص ٤١.

من غبار بموجات الصوت، وينتقل الاهتزاز إلى العظيماة السمعية الالاء، ويعمل تجويف الأذن الوسطى على تقويته، ويصل الصوت إلى الكوة البيضية (غشاء غضروفي يمد على فاحة في عظمة الأذن الداخلية)، ومنها إلى الدهليز فالقوقة، حيث ينقل عبر اللف الداخلي، وتتأثر الألياف العصبية المنتشرة في الدهليز والقوقة بها، وينقل العصب السمعى الصوت إلى المخ حيث يتم إدراك معنى الصوت^(١). فكل عمليات الحواس التي تجعل الإنسان متصلاً بالعالم الخارجي تمر في كل لحظة وحين من حياتنا عبر عدة عمليات سريعة ومكررة ومستمرة ولا تتوقف وإلا اختلت الحاسة، وبالتالي فكل الحواس في كدح ونصب ومكابدة طوال فترة الحياة. ولو نظرنا في آلية الكتابة لوجدناها بحد ذاتها ملكة عظيمة، وآليتها غاية في التعقيد، فهناك مراكز معينة تقرأ الكلمة وتفهمها مراكز الإدراك البصرية، ومن ثم تستودعها في خزاناتها، وعندما تطلب تلك المعلومات فإن الذاكرة تستخرج تلك الكنوز من مخابئها، ويتولى مركز الكتابة تحويلها وبأمر إرادي محض إلى أوامر حركية تنتقل إلى نهايات الأصابع لتكتب ما أراد الدماغ لها كتابته.

كذلك الكلام من العمليات الشديدة التعقيد، تحتاج أولاً للذاكرة، ثم إلى ترابط المعلومات، ثم يأمر مركز النطق بعد اتساق الجملة والكلمات العصب الحنجري واللساني فيخرج الكلام، وآلية النطق تبدأ من الحبال الصوتية بعد ورود أمر النطق فتتقلص وتمتد وفق اللزوم وتشاركها في ذلك غضاريف الحنجرة وعضلات اللسان وعضلات الخدين، وأخيراً الشفتين، وتقوم الجيوب الأنفية أثناء ذلك بإعطاء الصوت رننه الخاصة به والتي تختلف من شخص لآخر (الهوية الصوتية)^(٢).

١- انظر: الأطلس العلمى (فيزيولوجيا جسم الإنسان) ص ٤١-٤٥.

٢- انظر: الفلك والطب أمام عظمة القرآن ص ١٥٠، ١٥١.

فألية النطق والكتابة تتم بعمليات معقدة، تترايط في أدائها عدة أجزاء، وهي عمليات متكررة مستمرة؛ إذ إن الإنسان يتكلم عدة مرات يومياً، وكذلك الكتابة، وهذا يعني أن هناك نصب وكبد داخليين، وقد يحس الإنسان أحياناً بهذا النصب والتعب فيظهر عليه، فلو ألقى الإنسان محاضرة أو درساً أو تحدث طويلاً يجد بؤادر الإعياء تظهر عليه، وهذا شيء محسوس.

ولو نظرنا إلى بعض الأعضاء كذلك لوجدنا ذلك الكدح والعناء والنصب:
فالكلية الواحدة تحوي مليون وحدة وظيفية لتصفية الدم تسمى النفرونات^(١)،
وتقوم الكليتان بعملية غاية في التعقيد، إذ تأخذان من الدم المواد السكرية والمعادن والبروتينات وتطرحها في الوريد الخارج منها بنسب نظامية، وما زاد من سكريات على حاجة الدم فيطرح في البول، ويدخل الدم إلى الكليتين ستاً وثلاثين مرة في اليوم الواحد لتصفيته، فهو عمل مستمر ونصب دائم ودون أن يشعر به الإنسان، ولو أراد الإنسان معرفة قدر التعب الذي تقوم به الكلية فلينظر إلى من يذهب إلى تصفية دمه في كلية صناعية كم يعاني من ألم ومشقة، وفوق هذا فقد اكتشف العلماء أن الكليتين غدتان ذواتا إفراز داخلي، وأنهما تفرزان هرمونات تضبط ضغط الدم^(٢).

والقلب مثلاً ذلك العضو العضلي الأجوف الذي يعمل كمضخة ماصة كابسة،
يأخذ الدم من بعض الأوعية ويدفعه في أوعية أخرى، هو مضخة الحياة التي تكدح وتكابذ ولا تكل عن العمل، عدد ضرباته ٦٠-٨٠ ضربة في الدقيقة الواحدة، وينبض يومياً ما يزيد على مئة ألف مرة، يضخ خلالها ٨٠٠٠ ليتر من الدم،

١- انظر: مع الطب في القرآن الكريم لعبد الحميد دياب وأحمد قرقوز ص ٤٢.

٢- انظر: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة (آيات الله في الإنسان) لمحمد راتب النابلسي ص ٣١٨، ٣١٩.

وحوالي ٥٦ مليون جالون على مدى حياة إنسان وسطياً، ترى هل يستطيع محرك آخر القيام بمثل هذا العمل الشاق لمثل تلك الفترة الطويلة دون حاجة لإصلاح^(١)!

أوجه التشابه بين الكبد والكبد

الكبد بكسر الباء، هو العضو المعروف في جسم الإنسان، وهناك علاقة قوية جداً، بل وأسرار بين الكبد والكبد، ستظهر لنا بعد الحديث عن الكبد هذا العضو الذي له وظائف كثيرة، وهو في عمل متواصل لا يتوقف، ويبدل من الجهد مثلما يبذله الإنسان في حياته.

فالكبد: أكبر عُدة في جسم الإنسان، وتعدّ من أكثر الأعضاء البشرية تعقيداً، وتعمل بمثابة مصنع كيميائي رئيسي في الجسم، وواحد من مخازنه الكبيرة للغذاء، وهي كتلة بُنية مُحمرّة تزن نحو كيلو جرام ونصف، أو ٢كجم، تقع في أعلى الجانب الأيمن من البطن تحت الحجاب الحاجز مباشرة، وفوق المعدة والأمعاء، وتؤدي وظائف ضرورية عديدة، ومن أهمها:

* مساعدة الجسم على هضم الطعام، وتخزين الغذاء أيضاً، ويسري الغذاء المهضوم من الأمعاء الدقيقة إلى الكبد بوساطة الدم، حيث يخزن، وعندما يحتاج الجسم إلى الغذاء في (الصيام، المجاعة، الجوع) فإن الكبد يطلقه في الدم، ويحوّل الكبد بعض الغذاء المهضوم إلى مركبات تحتاج إليها خلايا الجسم.

* ويصنع الصفراء^(٢)، التي لها دور مهم في هضم الدهون وامتصاصها، وتفرزها باستمرار حتى ولو كانت الأمعاء الدقيقة لا تهضم الطعام، ويتم تخزين

١- انظر: الأطلس العلمي (فيزيولوجيا جسم الإنسان) ص ٤٩، ٥١، ومع الطب في القرآن الكريم لعبد الحميد دياب وأحمد قرقوز ص ٤٠.

٢- الصفراء أو المرارة: سائل قلوي مر الطعم، يعمل على تجزئة الدهون، وتحويلها إلى مستحلب دهني، يسهل تأثير العصارات الهاضمة عليه. انظر: الأطلس العلمي (فيزيولوجيا جسم الإنسان) ص ١٩.

مادة الصفراء الزائدة في المرارة إلى حين الحاجة إليها، وتسري الصفراء من الكبد وكيس المرارة إلى الأمعاء الدقيقة من خلال القناة الصفراوية المشتركة^(١).

* يقوم الكبد بوظيفة التعيير، حيث يدخل السكر إلى الكبد بنسب عالية جداً، ولا سيما إذا تناول الإنسان طعاماً سكرياً، ويخرج الدم من الكبد ونسبة السكر فيه قليلة، لقيام الكبد بتعبيره وموازنته، كما يقوم بتعيير الدسم، وكذلك المواد، كما يفرز الكبد بروتيناً يعير ويحدد نسبة الماء في الجسم، ومن التهاب كبده أصيب بالاستسقاء، أي أن الجسم يخزن ماءً كثيراً يفوق حاجته^(٢).

* تنقية الدم، إذ تقوم خلايا الكبد بترشيح المواد الضارة من الدم^(٣).

* يرشح الكبد السموم والنفايات من الجسم، كما أن بعض المواد التي يصنعها الكبد تساعد الجسم على مكافحة المرض، ويساعد بعضها الآخر على تخثر الدم، فهو يقوم بصنع البولة التي تساق إلى الكلى لطرحتها خارج البدن، ويقوم الكبد بصنع عوامل التخثر التي توقف أي نزف طارئ في الجسم، وعوامل التميع التي تمنع توحد الدم في الشرايين.

١- انظر: الموسوعة العربية العالمية ص ١٩/١٠٦، والأطلس العلمي (فيزيولوجيا جسم الإنسان) ص ١٩، وأسرار خلق الإنسان لداود السعدي ص ١٦٢، والإعجاز الإلهي في خلق الإنسان للنشواني ص ١٨٥، ١٨٦، والفلك والطب أمام عظمة القرآن لأكرم أحمد إدريس ص ١٧٦.

٢- انظر: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة (آيات الله في الإنسان) لمحمد راتب النابلسي ص ٢٩٨، ٢٩٩.

٣- وتشمل هذه المواد المبيدات الحشرية، والعقاقير، والمضافات الغذائية، والمواد الكيميائية الصناعية، وتقوم الإنزيمات في خلايا الكبد بتحويل بعض هذه المواد إلى مركبات تذوب في الماء، ثم يحمل الدم هذه المواد إلى الكلى التي تطردها في البول، وتفرز الكبد المواد الضارة الأخرى في الصفراء، كما ترشح من الدم أيضاً كثيراً من البكتيريا والفيروسات والكائنات الدقيقة الأخرى، وتحيط خلايا خاصة في الكبد بهذه الكائنات الدقيقة وتهضمها بطريقة كيميائية، انظر: الموسوعة العربية العالمية ص ١٩/١٠٧.

* يستقبل الكبد كالأعضاء الأخرى، دماً يحتوي على الأكسجين من القلب، ويدخل هذا الدم إلى الكبد من خلال الشريان الكبدي، وكذلك يستقبل الكبد الدم الممتلئ بالمغذيات أو حبيبات الطعام المهضوم في الأمعاء الدقيقة، ويدخل هذا الدم في الكبد من خلال الوريد البابي، ويتفرع الشريان الكبدي والوريد البابي في الكبد إلى شبكة من الأوعية الدموية الدقيقة التي تصب في الجيبانيات (أشباه الجيوب)، وتمتص خلايا الكبد المواد الغذائية والأكسجين من الدم عندما يسري خلال الجيبانيات، كما ترشح النفايات والسموم، وفي نفس الوقت تفرز خلايا الكبد السكر والفيتامينات والمعادن والمواد الأخرى في الدم، وتصب الجيبانيات في الأوردة المركزية التي تتجمع وتكوّن الوريد الكبدي، ويخرج الدم من الكبد خلال الوريد الكبدي.

* يُنظم الكبد الكميات التي تتلقاها خلايا الجسم من مغذيات معينة، ويفكك الأنزيمات الهاضمة البروتينات إلى حموض أمينية في الأمعاء، ويفكك المواد الكربوهيدراتية إلى سكريّات بسيطة في مقدمتها الجلوكوز، ويحمل الدم هذه المواد الغذائية، وكذلك الفيتامينات والمعادن والأحماض الدهنية والجليسيرول إلى الكبد، ويستبعد الجلوكوز الزائد من الدم، ويخزنه في صورة مركب شبيه بالنشا يسمّى (الجليكوجين)، ويعمل الجلوكوز بمثابة وقود رئيسي لخلايا الجسم، ويحوّل الجليكوجين إلى سكر يطلقه في الدم عندما يحتاج الجسم إلى طاقة، ويحول الحموض الدهنية والحموض الأمينية إلى جلوكوز عندما ينخفض مخزونها من الجليكوجين، وبهذه الطريقة يساعد الكبد خلايا الجسم على ضمان حصولها على مدد دائم من الوقود^(١).

١- انظر: الموسوعة العربية العالمية ١٩/١٠٦، ١٠٧، وأسرار خلق الإنسان لداود السعدي ص ١٥٨، والإعجاز الإلهي في خلق الإنسان للنشوان ص ١٩٠، ١٩٤، والفلك والطب أمام عظمة القرآن ص ١٧٦.

- * يؤدي دوراً أساسياً في اختزان فيتامينات معينة، حيث يختزن فيتامين (أ)، وكذلك فيتامينات (د)، (هـ)، (ك)، بالإضافة إلى مجموعة فيتامينات (ب) المركب، كما يختزن الحديد والمعادن الأخرى.
- * يلعب دوراً هاماً في مناعة الجسم ضد الأمراض.
- * يصنع الكبد بروتينات الدم المختلفة، وتشمل: الألبومين (الزلال) والجلوبولينات والفيبيرينوجين^(١)، كما يقوم باستقلاب السكريات، واستقلاب الدهون.
- * يفرز الكبد الكولسترول أيضاً؛ وهو مادة دهنية يستخدمها الجسم في بناء أغشية الخلايا وصناعة هورمونات معينة مثل الهورمونات الجنسية، والهورمونات مواد كيميائية تؤثر على وظائف الجسم المتعددة، وتستخدم خلايا الكبد الكولسترول في صناعة أملاح الصفراء.
- * لكثرة الوظائف التي يقوم بها الكبد وتنوعها، ولكثرة الأعباء الملقاة عليه، ولقابليته العظيمة على التحمل، والاحتياطي الكبير في وظائفه، فلا غرابة أن الطبيب يضطر إلى إجراء فحوص عديدة للتحري عن وظائفه^(٢).
- * يحول الكبد الغذاء الذي نتناوله بشهية إلى مواد حسب احتياجات جسدنا ويخزن الباقي، لذا فإن بلايين الخلايا الموجودة في الكبد تعمل بنفس الوعي والعلم دون الوقوع في أخطاء منذ بداية الخليفة إلى يومنا هذا^(٣).

١- يساعد الألبومين على منع البلازما، وهي الجزء السائل من الدم -من التسرب خارج جدران الأوعية الدموية، وتساعد الجلوبولينات الجسم على مكافحة المرض، ويمكن الفيبيرينوجين الدم من تكوين جَلْطَة لسد الأوعية الدموية المصابة. انظر: الموسوعة العربية العالمية ١٩/١٠٧.

٢- انظر: الموسوعة العربية العالمية ١٩/١٠٧، وأسرار خلق الإنسان لداود السعدي ص ١٥٩ - ١٦٤، والإعجاز الإلهي في خلق الإنسان للنشواني ص ١٩٠، ١٩١، ١٩٥.

٣- انظر: السلوك الواعي لدى الخلية لهارون يحيى ص ٢٧.

* أما أمراض الكبد فيكون لها عواقب خطيرة؛ لأن الكبد يؤدي وظائف حيوية كثيرة جداً، وتحدث الوفاة إذا توقفت وظائف الكبد، ومن نعم الله ﷻ أن لدى الكبد قدرة كبيرة على تعويض معظمه من مرض أو استئصال، عن طريق بناء خلايا جديدة لتعويض الخلايا المريضة أو التالفة، وبصورة كاملة وسريعة، ويستطيع الجراحون أن يستبدلوا كبداً سليماً من متبرع ميّت دماغياً بكبد المريض الفاشلة أو تلك التي تعاني من مرض الكبد في حالته المتقدمة، وهذه رحمة من الرحيم ﷻ الذي يعلم حاجة الإنسان إلى هذا العضو البالغ الأهمية؛ لكثرة الوظائف التي يقوم بها وتتوعها، وكثرة الأعباء الملقاة عليه، مع قابليته العظيمة لتحملها.

مما سبق تظهر لنا حكمة تسمية الكبد كبدًا، وذلك من كثرة ما ينهض به من أعباء، يكابد الليل والنهار، وأخبرنا الله ﷻ أنه خلق الإنسان في كبد لما يكابده ويعانيه في هذه الحياة، فالإنسان مثل الكبد، كلاهما مكابد، بل إن هذا هو بعض من ذلك، وإنه لمن دواعي الحكمة أن يسمى الكبد بهذا الاسم^(١).

فهذا جسم الإنسان، كل خليه فيه، وكل نسيج فيه، وكل عضو فيه، وكل جهاز فيه، يعمل بصمت، وبشكل مستمر، ويكدح وينصب في كل وقت وحين، بلا توقف، تعمل جميعها وقت الاستيقاظ أو النوم، وحال الصحة والمرض، وفي القيام والعود والاضطجاع، وهو يمشي ومتوقف، وهو يعمل (يكتب ويدرس ويبيع ويشترى)^(٢)، وهذا الإنسان نفسه في مكابدة طوال حياته حتى تأتيه منيته، ولهذا المعنى يقول حبينا ﷺ: **"وَأَحَبُّ الْأَسْمَاءِ إِلَى اللَّهِ عَبْدُ اللَّهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ وَأَصْدَقُهَا"**

١- انظر: أسرار خلق الإنسان لداود السعدي ص ١٦٤، ١٦٥، والفلك والطب أمام عظمة القرآن لأكرم أحمد ص ١٧٥.

٢- انظر: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة (آيات الله في الإنسان) لمحمد راتب النابلسي ص ٣١٨.

حَارِثٌ وَهَمَامٌ^(١)، وإنما كان حارث وهمام أصدق الأسماء؛ لأن الحارث هو الكاسب، والهمام هو الذي يهمل مرة بعد أخرى، وكل إنسان لا ينفك عن هذين^(٢)، والهم والكسب جزء من الكبد الذي يعيشه الإنسان في هذه الحياة الدنيا.

١- انظر: أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب في تغيير الأسماء ٧٠٥/٢ برقم: ٤٩٥٠، وهو حسن لغيره.
انظر: صحيح الترغيب والترهيب للألباني ٢/٢٠٦. قال البوصيري: «هذا إسناد رواه ثقات». اتحاف الخيرة
المهرة بزوائد المسانيد العشرة للبوصيري ٥/١٢٣.
٢- الترغيب والترهيب للمنذري ٣/٤٨.

المطلب الثالث: ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها

من خلال الدراسة التفسيرية والعلمية يتلخص ما يلي:

* قوله ﷻ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾، اختلف المفسرون في المراد (بالإنسان) في هذه الآية على أقوال، والراجح هو القول الثاني أنه الجنس، أي جميع الناس، وهذا ما عليه أكثر المفسرين.

* وفي قوله ﷻ: ﴿فِي كَبَدٍ﴾ عدة أقوال للمفسرين، والقول الراجح: هو القول إن معنى في كبد، أي في شدة وعناء ونصب، ومكابدة؛ فهو اللائق بالآية، ويشهد لصحته الواقع المشاهد.

* إن الكبد طبيعة الحياة الدنيا، والإنسان إذا نظر متأملاً في نفسه وواقعه ومن حوله من أبناء جنسه، تيقن من ثبوت هذه الحقيقة، فإن الإنسان لا يزال في نصب ومكابدة وشدائد منذ البداية في تكوينه إلى منتهاها بالموت وما بعده.

* هناك عدة دلائل علمية تشهد لخلق الإنسان في كبد:

فالنطفة الأمشاج لا تستقر في الرحم حتى تبدأ في الكبد والكبد والنصب، لتوفر لنفسها الظروف الملائمة للحياة والغذاء بإذن ربها.

الخلايا في جسم الإنسان تنتظم انتظاماً دقيقاً لتؤلف أجهزة البدن المختلفة، ولكل خلية بحسب موقعها في الجسم اختصاصاً أو عملاً تقوم به على أتم ما يكون، طوال حياتها، فكل خلية في عناء ونصب ومكابدة تؤدي دوراً في حياة الإنسان.

أجهزة جسم الإنسان في نصب وكبد ومكابدة، فالدم في دوران مستمر يكابد لا يتوقف في الجهاز الدوري، والجهاز التنفسي يكبد طوال الحياة ويكابد دون توقف. كل عمليات الحواس التي تجعل الإنسان متصلاً بالعالم الخارجي تمر في كل لحظة وحين من حياتنا عبر عدة عمليات سريعة ومتكررة ومستمرة ولا تتوقف.

آلية النطق والكتابة تتم بعمليات معقدة، تترايط في أدائها عدة أجزاء، وهي عمليات متكررة مستمرة، وهذا يعني أن هناك نصب وكبد داخليين، وقد يحس الإنسان أحياناً بهذا النصب والتعب فيظهر عليه، فلو ألقى الإنسان محاضرة أو درساً أو تحدث طويلاً يجد بوادر الإعياء تظهر عليه، وهذا شيء محسوس.

أعضاء الإنسان في كدح وعناء ونصب، فالكلية مصفاة للدم في عمل مستمر ونصب دائم ودون أن يشعر به الإنسان، وهي ذات إفراز داخلي، تفرز هرمونات تضبط ضغط الدم، والقلب مضخة الحياة التي تكدح وتكابد ولا تكل عن العمل.

هناك أوجه تشابه بين الكبد والكبد، وعلاقة قوية جداً، بل وأسرار بين الكبد والكبد، فهذا العضو له وظائف كثيرة، وهو في عمل متواصل لا يتوقف، كمعمل كيميائي، ويبذل من الجهد مثلما يبذله الإنسان في حياته، فهو كالإنسان في كبد، بل إن هذا هو بعض من ذلك، وأوجه الشبه بينهما يُظهر حكمة الخالق ﷻ.

ومن خلال ما سبق يظهر لي الآثار التالية:

* المعطيات الواقعية والجوانب العلمية تدل على صحة ما ذهب إليه المفسرون الذي حملوا الكبد على الشدة والعناء والنصب والمكابدة.

* ظهور الإعجاز البياني للقرآن الكريم، إذ وصف حال الإنسان منذ مبدأ تكوينه، فمروره بأطوار الجنين، فالولادة، فالرضاعة، فالحضانة، فالتميز، فالمرحلة ، فالشباب، فالرجولة، فاكتمال الأشد، فالشيخوخة، إلى موته، ثم ما يكون بعد ذلك، وما يدور داخل الجسم من عمليات تقوم بها الخلايا والأعضاء والأجهزة، بصفة واحدة (كبد) جامعة لكل ما يقاسيه من مكابدة ونصب وشدائد في رحلة الحياة إلى أن يلقي ربه.

* أن هذا التصميم البديع الذي جعله الله ﷻ في كل خلية ونسيج وعضو وجهاز في جسم الإنسان، تنصب وتكدح وتكابد جميعاً طوال الحياة وفق نظام دقيق محكم، لهو شاهد على وجود الخالق الحكيم العليم جل في علاه، وهذا الإبداع والإحكام هو رد وإبطال لما يزعمه الماديون والملحدون وأنصار الداروينية من أن المعمل المتكامل الذي يوجد داخل كل خلية وعضو وجهاز وليد المصادفة، ويدل على أن الداروينية باطلة لا تقوم على أساس من العلم والصحة.

* أن تحمل هذه الدراسة كل مسلم على شحذ الهمة والجد والاجتهاد والتشمير في الطاعات؛ لأن الحياة كبد ونصب في كل مراحلها وأطوارها، فكما يكدح وينصب كل عضو في جسده للقيام بمهمته الموكلة إليه، فإن عليه أن يكدح وتنصب ليحقق الهدف الذي وجد من أجله ألا وهو تحقيق العبودية لله رب العالمين.

المبحث الرابع

خلق الإنسان من عَجَلٍ وهلوعا

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول:

خلق الإنسان من عَجَلٍ وهلوعا في القرآن الكريم.

المطلب الثاني:

خلق الإنسان من عَجَلٍ وهلوعا في ضوء المعطيات الواقعية

والاكتشافات العلمية.

المطلب الثالث:

ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها.

المطلب الأول: خلق الإنسان من عَجَلٍ وهلوعا في ضوء كلام المفسرين

الآيات الواردة

قال الله ﷻ: ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَجَلٍ مَّا أَوْرِيكُمْ ءَابَاقِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾^(١).

وقال ﷻ: ﴿ إِنَّا الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾^(٢).

أقوال المفسرين

اختلف المفسرون في المراد بالـ﴿الْإِنْسَانُ﴾ في قوله ﷻ: ﴿ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾:

عَجَلٍ:

القول الأول: جنس الإنسان ونوعه^(٣)، بدليل قوله ﷻ: ﴿ وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ ۗ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴾^(٤)، وقوله ﷻ: ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ ۖ بِالْخَيْرِ لَقَضَىٰ إِلَيْهِمْ أَجْلَهُمْ ﴾^(٥).

القول الثاني: آدم عليه السلام^(٦)؛ لما نفخ فيه الروح إلى ركبتيه ذهب لينهض، فقال الله ﷻ: ﴿ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾^(٧).

١- سورة الأنبياء: الآية ٣٧.

٢- سورة المعارج: الآيات ١٩-٢١.

٣- انظر: الكشاف للزمخشري ١١٨/٣، والمحزر الوجيز لابن عطية ٩٩/٤، والتسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ٢٢/٢، وغرائب القرآن ورغائب الفرقان ٢١/٥، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل ٤٩٩/١٣، وإرشاد العقل السليم لأبي السعود ٦٧/٦، وروح البيان لحقي ٣٦٨/٥، والبحر المديد لابن عجيبة ٥١٣/٤، وفتح القدير للشوكاني ٤٨١/٣، والتحرير والتنوير لابن عاشور ٥٠/١٧، وأضواء البيان للشنقيطي ١٥٠/٤.

٤- سورة الإسراء: الآية ١١.

٥- سورة يونس: الآية ١١.

٦- انظر: تفسير الثوري ص ٢٠١، وجامع البيان في تأويل القرآن للطبري ٤٤١/١٨.

٧- الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي ابن أبي طالب ٤٧٥٥/٧.

القول الثالث: المراد بالإنسان النصر بن الحارث^(١)^(٢)، وهو القائل: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمِّطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(٣).

القول الرابع: المراد كفار قريش؛ لأنهم استعجلوا العذاب^(٤)، كما قال الله ﷻ عنهم: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٥).

والراجع: هو القول الأول؛ لآيات المذكورة فيه، ولأن القول به يعم غيره، ولأن الاستعجال موجود في عموم الناس بدليل قول النبي ﷺ لما طلب منه أن يطلب النصر من الله: "وَاللَّهِ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرُ حَتَّى يَسِيرَ الرَّكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتِ، لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، وَالذَّنْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ"^(٦)، واستعجال العذاب كان في الأمم السابقة غير كفار قريش، قال الله ﷻ عن قوم صالح: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحُ آتِنَا بِمَا تَعَدَّانَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾^(٧)، يقول الرازي وابن عادل: «القول الأول أولى؛ لأن الغرض ذم القوم، وذلك لا يحصل إلا إذا حملنا لفظ الإنسان على النوع»^(٨).

١- كان أشد قريش في تكذيب النبي والأذى له ولأصحابه، وكان ينظر في كتب الفرس ويخالط اليهود والنصارى.

٢- بحر العلوم للسمرقندي ٤٢٦/٢، واللباب في علوم الكتاب ٤٩٩/١٣، وفتح القدير للشوكاني ٤٨١/٣.

٣- سورة الأنفال: الآية ٣٢.

٤- انظر: فتح القدير للشوكاني ٤٨١/٣.

٥- سورة الأنبياء: الآية ٣٨.

٦- أخرجه البخاري، كتاب الإكراه، باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر ٢٥٤٦/٦ برقم: ٦٥٤٤. والحديث عن خباب بن الأرت قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، قلنا له: "ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا؟ قال: "قَدْ كَانَ مِنْ قَبْلِكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ، فَيُخْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهَا، فَيَجَاءُ بِالْمُنْشَارِ، فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ، فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، وَيُمَشَّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ..." الحديث.

٧- سورة الأعراف: الآية ٧٧.

٨- مفاتيح الغيب للرازي ١٤٨/٢٢، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل ٥٠٠/١٣.

واختلف المفسرون في المراد بـ ﴿مِنْ عَجَلٍ﴾ في الآية الكريمة، على أقوال: القول الأول: أي خلق عجباً، وذلك على المبالغة، كما يقال للرجل الذكي هو نار تشتعل، والعرب قد تسمي المرء بما يكثر منه، فنقول ما أنت إلا أكل ونوم، وما هو إلا إقبال وإدبار، وهذا متأكد بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾^(١)، أي: من شأنه العجلة في الأمور^(٢)، جُعِلَ لفرط استعجاله وقلة صبره وثباته في أحواله كأنه خلق من العجلة، والعرب تقول لمن يكثر منه الشيء: خُلِقَ مِنْهُ، كقولهم لمن يكثر منه الكرم: خُلِقَ مِنَ الْكِرْمِ^(٣)، أي أن هذا الوصف تمكن من جبلة الإنسانية^(٤)^(٥).

القول الثاني: خلق الإنسان على حُب العجلة^(٦).

القول الثالث: المراد من ضعف^(٧).

القول الرابع: المراد خُلِقَ الإنسان من عجل في خلقه أي: على عجل وسرعة في ذلك، أو معجل؛ لأنه بُودِرَ بخلقهِ قبل غروب الشمس في آخر ساعة من نهار

١- سورة الإسراء: الآية ١١.

٢- انظر: تفسير القرآن لعبد الرزاق الصنعاني ٢٤/٣، والنكت والعيون للماوردي ٤٤٧/٣، ومفاتيح الغيب للرازي ١٤٨/٢٢، والبحر المحيط لأبي حيان ٢٢٨/٦، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢١٩/٣، والجواهر الحسان للثعالبي ٥٤/٣، والبحر المديد لابن عجيبة ٥١٣/٤، وتيسير الكريم الرحمن للسعدي ص ٥٢٣.

٣- انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي ٩٣/٤، وتفسير الجلالين ص ٤٢٤، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبي السعود ٦٧/٦، والبحر المديد لابن عجيبة ٥١٣/٤، وفتح القدير للشوكاني ٤٨١/٣.

٤- التحرير والتنوير لابن عاشور ٥٠/١٧.

٥- قال القرطبي: «ركب على العجلة، فخلق عجباً» الجامع لأحكام القرآن ٢٨٨/١١. وقال الفراء: «كأنك قلت: بنيتَه وخلقتَه من العجلة وعلى العجلة». معاني القرآن ١٩٨/٢. وقيل: إن بنيتَه وخلقتَه من العجلة وعليها طُبِعَ. انظر: الكشف والبيان للثعلبي ٢٧٥/٦، والوجيز للواحي ص ٦١٧، ومعالم التنزيل للبخاري ٢٨٨/٣، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل ٤٩٩/١٣.

٦- النكت والعيون للماوردي ٤٤٧/٣.

٧- نقل عن الحسن. انظر: مفاتيح الغيب للرازي ١٤٩/٢٢.

يوم الجمعة، وهو آخر الأيام الستة، وفي ذلك الوقت نفخ فيه الروح؛ وبدلالة قوله تعالى: ﴿سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾^(١) على ذلك^(٢).

القول الخامس: بسرعة وتعجيل، من غير ترتيب خلق سائر الأدميين، من النطفة، ثم العلقة، ثم المضغة، ثم العظام، ثم النشأة خلقاً آخر^(٣)، والمراد آدم عليه السلام.

القول السادس: أن آدم عليه السلام سأل ربه بعد إكمال صورته ونفخ الروح في عينيه ولسانه، أن يعجل إتمام خلقه وإجراء الروح في جميع جسده، فورث أولاده العجلة^(٤).

القول السابع: أن معنى ﴿مِنْ عَجَلٍ﴾^(٥)، أي: من طين، وهذا بلغة حمير يقولون: ينبت النخل بين الماء والعجل^(٥).

القول الثامن: من تعجيل من الأمر وهو قوله كن فكان^(٦).

القول التاسع: في الكلام تقديم وتأخير من باب القلب، والمعنى خلق العجل من الإنسان، يعني العجلة، كقوله ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾^(٧) أي: تعرض النار عليهم، وإنما كلم القوم بما يعقلون، وذلك مثل قولهم: استوت العود على الحرياء: أي استوت الحرياء على العود^(٨).

١- سورة الأنبياء: الآية ٣٧.

٢- انظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري ١٨/٤٤٣، والنكت والعيون للماوردي ٣/٤٤٧.

٣- انظر: معالم التنزيل للبغوي ٣/٢٨٩، وتفسير السراج المنير للشربيني ٢/٣٩٦.

٤- انظر: تفسير مجاهد ١/٤١٠، النكت والعيون للماوردي ٣/٤٤٧، ومفاتيح الغيب للرازي ٢٢/١٤٨.

٥- انظر: النكت والعيون للماوردي ٣/٤٤٧، ومعالم التنزيل في تفسير القرآن للبغوي ٣/٢٨٩، ومفاتيح الغيب للرازي ٢٢/١٤٨.

٦- انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب ٧/٤٧٥٧.

٧- سورة الأحقاف: الآيتان ٢٠، ٣٤.

٨- انظر: تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص ١٢٥، وجامع البيان للطبري ١٨/٤٤٣، والكشف والبيان للثعلبي ٦/٢٧٥، ومفاتيح الغيب للرازي ٢٢/١٤٩. وتأول ابن عطية هذا القول «على معنى أنه جعل طبيعة من=

المناقشة:

نوقش القول الأخير بأنه قول بعيد؛ لأنه إذا أمكن حمل الكلام على معنى صحيح وهو على ترتيبه فهو أولى من أن يحمل على أنه مقلوب، وأيضاً فإن قولهم: خلقت العجلة من الإنسان، فيه وجوه من المجاز، فما الفائدة في تغيير النظم إلى ما يجري مجراه في المجاز^(١)، بل يقول الطبري: «وفي إجماع أهل التأويل على خلاف هذا القول، الكفاية المغنية عن الاستشهاد على فساده بغيره»^(٢)، ويقول القرطبي: «وهذا القول لا ينبغي أن يجاب به في كتاب الله؛ لأن القلب إنما يقع في الشعر اضطراراً»^(٣).

ونوقش الثامن: بضعفه؛ لأن فيه تخصيص الإنسان بشيء كل مخلوق يشاركه فيه^(٤)، لقوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٥).

ونوقش القول السابع بأنه ضعيف؛ لوجود القرينة التي تثبت عدم صحته في نفس الآية، وهي قوله ﷻ: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُون﴾، وقرينة أخرى في الآية التي تليها في قوله ﷻ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٦)، مما يدل على أن

=طبائعه وجزء من أخلاقه، وهذا التأويل ليس فيه مبالغة، وإنما هو إخبار مجرد، وإنما حمل قائله عليه عدمهم وجه التجوز والاستعارة في أن يبقى الكلام على ترتيبه». المحرر الوجيز ١٠٠/٤. وهو بهذا يقترب من الأول، إلا أن إبطال ابن جرير والرازي والقرطبي لهذا القول -كما سيأتي في مناقشة الأقوال- يجعل تأويل ابن عطية بعيداً.

١- انظر: مفاتيح الغيب للرازي ١٤٩/٢٢.

٢- جامع البيان في تأويل القرآن ٤٤٣/١٨.

٣- الجامع لأحكام القرآن ٢٨٩/١١.

٤- انظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ١٠٠/٤.

٥- سورة يس: الآية ٨٢. وبالتالي فليس لذكر الإنسان في الآية فائدة أو خصوصية.

٦- سورة الأنبياء: الآية ٣٨.

جنس الإنسان من طبعه العجلة التي هي خلاف التأني والتثبت^(١)، يقول ابن عاشور: «وأما من فسر العجل بالطين، وزعم أنها كلمة حميرية فقد أبعد وما أسعد»^(٢).

ونوقش السادس بأن الظاهر أنه ونحوه من الإسرائيليات^(٣). أما القول الخامس والرابع - ومثلهما السادس والسابع والثامن - فإنما تصح باعتبار أن ﴿الْإِنْسَانُ﴾ في قوله ﷻ: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ يراد به آدم ﷺ، وقد سبق أن الراجح العموم في نوع وجنس الإنسان. وأما القول الثالث - من ضعف -، فلا يصح؛ لأن خلق الإنسان ضعيفا قد بينته آيات أخر، لكن يصح القول إن العجل يدخل في جملة الضعف الذي خلق منه الإنسان.

وأما القول الأول فاعترض عليه: بأن خلق الإنسان عجولاً يناسب كونه معذوراً فيه، فلم نهاهم عن الاستعجال في قوله ﷻ: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾؟ فأجابوا: بأنه تعالى نبه بهذا على أن ترك الاستعجال حالة شريفة، وخصلة عزيزة، وحالة مرغوب فيها، كما ركب فيه من الشهوة، وأمره أن يغلبها؛ لأنه أعطاه القدرة التي يستطيع بها قمع الشهوة وترك العجلة^(٤)، فالدنيا دار امتحان وابتلاء، بالإضافة إلى أن فيه إظهار قهره ﷻ لكل مخلوق، وعجزهم عن الخروج عن ملكه وسلطانه ﷻ^(٥).

١- انظر: التسهيل لعلوم التنزيل ي ٢٢/٢، والتحرير والتنوير ٥٠/١٧، وأضواء البيان ١٤٩/٤.

٢- التحرير والتنوير ٥٠/١٧.

٣- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي ١٥٠/٤.

٤- الكشاف للزمخشري ٣/١١٨، وغرائب القرآن وרגائب الفرقان ٢١/٥، واللباب في علوم الكتاب ٤٩٩/١٣.

٥- انظر: البحر المديد لابن عطية ٥١٣/٤.

فالراجح: هو القول الأول؛ لأنه الأقرب إلى الصواب^(١)؛ إذ ليس في الأقوال ما يصح معناه ويلتئم مع الآية إلا هو^(٢).

ولوجود القرائن الكثيرة عليه، فهناك قرينة متصلة في نفس الآية تدل عليه، وهي

قوله ﷻ: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوا﴾، وقرينة في الآية التالية لها، وهي قوله ﴿وَيَقُولُونَ

مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدَانِ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٣)، وقرائن في آيات أخرى كقوله ﷻ: ﴿وَيَدْعُ

الْإِنْسَانَ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾^(٤) أي من عجلته دعائه على نفسه أو

ولده أو ماله بالشر عند الغضب، ويبادر بذلك الدعاء كما يبادر بالدعاء في

الخير، ولكن الله -بلطفه- يستجيب له في الخير، ولا يستجيب له بالشر^(٥)، كما

قال ﷻ: ﴿وَلَوْ يَعْجَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْجَلَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾^(٦).

وجاءت آيات تحت الإنسان على التاني والتنثب وعدم العجلة، كقوله ﷻ:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَ كُرْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِمَجْهَلَةٍ فَتُصِيبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ

نَدِيمِينَ﴾^(٧).

١- انظر: مفاتيح الغيب للرازي ١٤٩/٢٢.

٢- انظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ١٠٠/٤.

٣- سورة الأنبياء: الآية ٣٨.

٤- سورة الإسراء: الآية ١١.

٥- انظر: تيسير الكريم الرحمن للسعدي ص ٤٥٤، وأضواء البيان للشنقيطي ٤ / ١٤٩، ١٥٠.

٦- سورة يونس: الآية ١١.

٧- سورة الحجرات: الآية ٦. وكذلك قوله ﷻ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَ كُرْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا سَبِيلَ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ

أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتغُونَ عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَائِرُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ

مِن قَبْلُ فَمَنْ بَرَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنْ بَرَّ اللَّهُ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ٩٤].

وقد سبق قول النبي ﷺ للذي طلب منه أن يطلب النصر من الله: **«وَلَكُمْ مَنَاصِبٌ مِّمَّا كَسَبْتُمْ»** (١)، والواقع الذي نعيشه يزخر بكثير مما يشهد على ذلك.

يقول ابن عاشور: «شبهت شدة ملازمة الوصف بكونه مادة لتكوين موصوفه؛ لأن ضعف صفة الصبر في الإنسان من مقتضى التفكير في المحبة والكرهية، فإذا فكر العقل في شيء محبوب استعجل حصوله بداعي المحبة، وإذا فكر في شيء مكروه استعجل إزالته بداعي الكراهية، ولا تخلو أحوال الإنسان عن هذين، فلا جرم كان الإنسان عجولاً بالطبع، فكأنه مخلوق من العجلة، ونحوه قوله تعالى: **﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾** (٣)، وقوله تعالى: **﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾** (٤)، ثم إن أفراد الناس متفاوتون في هذا الاستعجال على حسب تفاوتهم في غور النظر والكفر؛ ولكنهم مع ذلك لا يخلون عنه» (٥).

والحكمة في ذكر عجلة الإنسان ههنا أنه لما ذكر المستهزئين بالرسول ﷺ، وقع في النفوس سرعة الانتقام منهم واستعجلت ذلك، والله تعالى يملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، يؤجل ثم يعجل، وينظر ثم لا يؤخر، ولهذا قال ﷺ: **﴿سَأُورِيكُمْ آيَاتِي﴾** أي نقمي وحكمي واقتداري على من عصاني **﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾** (١).

١- أخرجه البخاري، كتاب الإكراه، باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر ٢٥٤٦/٦ برقم: ٦٥٤٤.
٢- وفي صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها ١٨٠/١ برقم: ١٩٣. بعد أن ساق حديث أنس في الشفاعة، ذكر الراوي أنهم ذهبوا إلى الحسن، فأخبروه بحديث أنس، فقال لهم: «قد حدثنا به منذ عشرين سنة وهو يومئذ جميع، ولقد ترك شيئاً ما أدري أنسي الشيخ، أو كره أن يحدثكم فتتكلوا، قلنا له حدثنا، فضحك وقال: **﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾** ما ذكرت لكم هذا إلا وأنا أريد أن أحدثكموه...».

٣- سورة الإسراء: الآية ١١.

٤- سورة المعارج: الآية ١٩.

٥- التحرير والتنوير لابن عاشور ٥٠/١٧.

٦- تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٢١٩/٣.

فالإنسان خلق عجولاً يبادر الأشياء، ويستعجل وقوعها، فالمؤمنون يستعجلون عقوبة الله للكافرين ويتباطئون بها، والكافرون يتولون ويستعجلون بالعذاب تكذيباً وعناداً^(١).

وهناك فرق بين العجلة والمسارعة:

فالعَجَلَةُ مذمومةٌ، والمُسَارَعَةُ محمودَةٌ.

المسارعة: البِدَارُ إلى الشيء في أول وقته، والعَجَلَةُ: استقباله قبل وقته.

العَجَلَةُ سمة وسوسة الشيطان، والمسارعة قضية التوفيق^(٢).

وأما قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾^(٣)، فقد اختلف المفسرون في المراد

ب﴿الْإِنْسَانَ﴾ في هذه الآية على ثلاثة أقوال:

القول الأول: المراد إنسان بعينة، قيل: أمية بن خلف الجمحي^(٤)، وقيل: أبو جهل ابن هشام^(٥)، وقيل: الأخنس بن شريق^(٦).

القول الثاني: المراد الكافر^(٧)، وذكر الشنقيطي بأنه يدل له تفسير الهلوع في الآية، واستثناء المصلين وما بعده منه؛ لأن تلك الصفات كلها من خصائص المؤمنين، ولذا عقب عليهم بقوله: ﴿أُولَئِكَ فِي جَنَّةٍ مَّكْرُومٍ﴾^(٨)، ومفهومه أن

١- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ٥٢٣.

٢- انظر: لطائف الإشارات للقشيري ٥٠٢/٢.

٣- سورة المعارج: الآية ١٩.

٤- انظر: تفسير مقاتل بن سليمان ٣٩٩/٣.

٥- انظر: الدر المنثور للسيوطي ٢٨٣/٨.

٦- انظر: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ٣٤/٢.

٧- انظر: تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ص ٤٨٥، وجامع البيان للطبري ٦١٠/٢٣، وتفسير القرآن

العزيز لابن أبي زمنين ٣٦/٥، والهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب ٧٧١٢/١٢.

٨- سورة المعارج: الآية ٣٥.

المستثنى منه على خلاف ذلك، وبدل له كذلك قول النبي ﷺ: "عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ؛ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ"^(١)، فمفهومه أن غير المؤمنين بخلاف ذلك، وهو الذي ينطبق عليه الوصف المذكور في الآية أنه هلوع^(٢).

القول الثالث: عام (اسم جنس)، بدليل أنه استثنى منه ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾، فهو كقوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾^{(٣)(٤)}.

والقول الثاني وإن قواه دليله، إلا أنه لا مانع من إرادة العموم؛ وتحمل الصفات المذكورة في الآيات بعد الاستثناء والحديث كذلك على المؤمن الكامل الإيمان، وقد جاء في حديث أبي هريرة ؓ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "شَرُّ مَا فِي رَجُلٍ: شُحُّ هَالِعٍ، وَجِبْنٌ خَالِعٍ"^{(٥)(٦)}.

١- أخرجه مسلم، كتاب الزهد والرفائق، باب المؤمن أمره كله خير ٢٢٩٥/٤ برقم: ٢٩٩٩.

٢- انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٢٦٨/٨.

٣- سورة العصر: الآيتان ٢، ٣.

٤- انظر: الكشاف للزمخشري ٦١٤/٤، وغرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري ٣٥٨/٦، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل ٣٦٦/١٩، والإتقان في علوم القرآن ١٢٩/٣، والبحر المديد لابن عجيبة ٢٠٤/٨.

٥- أخرجه أبو داود، كتاب الجهاد، باب في الجرأة والجبن ٣٢٠/٢ برقم: ٢٥١٣، وأحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أبي هريرة ؓ ٣٨٥/١٣ برقم: ٨٠١٠، صححه الألباني في صحيح أبي داود ٢٧٢/٧.

والهالع هنا ذو الهلع، أي: يمنعه من إخراج الحق الواجب عليه، فإذا استخرج منه هلع وجزع منه، والجبن الخالع هو الشديد الذي يخلع فؤاده من شدته. انظر: معالم للخطابي ٢٤١/٢.

٦- وعن حميد الطويل قال سألت الحسن عن قوله عز و جل: ﴿خُلِقَ هَٰؤُلَاءِ﴾ قال: اقرأ ما بعدها، فقرأت:

﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ قال: هذا الهلوع، هكذا خلق الإنسان. تفسير مجاهد ٦٩٣/٢.

* والهلع في اللغة: الحرص، وقيل: الجزع، وقيل: قلة الصبر، والهلع الذي يفرغ ويجزع من الشر^(١)، قال الجوهري: «الهلع: أفحش الجزع، وقد هلع بالكسر، فهو هلع وهلوع»^(٢).

وفي المراد بـ﴿هَلُوعًا﴾ في قوله ﷺ: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾^(٣) أقوال:

القول الأول: أنه البخيل المنوع للخير^(٤).

القول الثاني: الحريص^(٥)، وقيل: الحريص على ما لا يحل له^(٦)، وقيل: الحريص على ما لا يجده^(٧).

القول الثالث: الضعيف^(٨).

القول الرابع: الضجور^(٩)، وقيل: ضيق القلب^(١٠).

القول الخامس: الشديد الجزع^(١١)^(١٢).

١- انظر: لسان العرب لابن منظور ٣٧٤/٨.

٢- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ٤٤٣/٤.

٣- سورة المعارج: الآية ١٩.

٤- انظر: النكت والعيون للماوردي ٩٤/٦.

٥- انظر: النكت والعيون للماوردي ٩٤/٦، والدر المنثور للسيوطي ٢٨٤/٨.

٦- انظر: الكشف والبيان للثعلبي ٣٩/١٠، ومعالم التنزيل في تفسير القرآن للبغوي ١٥٣/٥.

٧- انظر: البحر المديد في تفسير القرآن المجيد لابن عجيبة ٢٠٤/٨.

٨- انظر: النكت والعيون للماوردي ٩٤/٦، وتفسير القرآن للعز بن عبد السلام ٣٦٣/٣.

٩- انظر: معاني القرآن للفراء ١٨٥/٣، ومعالم التنزيل في تفسير القرآن للبغوي ١٥٣/٥.

١٠- انظر: لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن ١٥١/٧.

١١- انظر: بحر العلوم للسمرقندي ٤٧٣/٣، والنكت والعيون للماوردي ٩٤/٦.

١٢- ولد قيل: إن الهلع أعلى أمور أربعة متقاربة في معناها العام، إلا أنها مختلفة في الدرجة والكيفية، فأول ذلك الخوف، فإن زاد صاحبه اضطراب وانقباض صار فزعاً، فإذا زاد الفزع وأقعد صاحبه عن العمل وأورثه حزناً، أصبح جزعاً، فإن زاد الجزع صار هلعاً. [نصرة النعيم ٤٣٥٢/٩]. أما الجزع: فهو حزن يصرف الإنسان عما هو بصدده، ويقطعه عنه، فهو أبلغ من الحزن؛ لأن الحزن عام. [التعاريف للمناوي ص ٢٤٢].

القول السادس: الشره^(١).

القول السابع: عجولاً^(٢).

القول الثامن: متقلباً في حركات الشهوات واتباع الهوى^(٣).

القول التاسع: الذي لا يشبع^(٤)، وقيل: الذي لا يشبع من جمع المال^(٥).

القول العاشر: جهولاً^(٦).

القول الحادي عشر: عند المحنة يدعو، وعند النعمة ينسى ويسهو^(٧).

القول الثاني عشر: الذي يرضى عند الموجود ويسخط عند المفقود^(٨).

القول الثالث عشر: طموحاً يرضيه القليل من الدنيا ويسخطه مثلها^(٩).

القول الرابع عشر: حزوناً^(١٠).

القول الخامس عشر: فسره الله تعالى^(١١) بقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ

الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾^(١٢)، وهذا القول فيه أوجه:

- ١- انظر: الكشف والبيان للثعلبي ٣٩/١٠، والدر المنثور للسيوطي ٢٨٤/٨.
- ٢- انظر: الكشف والبيان للثعلبي ٣٩/١٠.
- ٣- انظر: تفسير سهل بن عبد الله التستري ص ١٧٧.
- ٤- انظر: الكشف والبيان للثعلبي ٣٩/١٠، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٩٠/١٨.
- ٥- انظر: الدر المنثور للسيوطي ٢٨٤/٨.
- ٦- انظر: الكشف والبيان للثعلبي ٣٩/١٠.
- ٧- انظر: لطائف الإشارات للقشيري ٦٣١/٣.
- ٨- انظر: الكشف والبيان للثعلبي ٣٩/١٠.
- ٩- انظر: الكشف والبيان للثعلبي ٣٩/١٠، ولطائف الإشارات للقشيري ٦٣١/٣.
- ١٠- انظر: الكشف والبيان للثعلبي ٣٩/١٠.
- ١١- انظر: تفسير مجاهد ٦٩٤/٢، والتسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ٤١١/٢، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥٠٨/٤، وتفسير الجلالين ص ٧٦٥، وفتح القدير للشوكاني ٣٥٠/٥.
- ١٢- سورة المعارج: الآية ٢٠، ٢١.

١- شديد الحرص، قليل الصبر^(١)، أو شدة الجزع مع شدة الحرص والضجر^(٢)، أو إذا مسه الخير لم يشكر، وإذا مسه الشر لم يصبر^(٣)، أو لا يصبر على خير ولا شر حتى يفعل فيهما ما لا ينبغي^(٤)، أو إذا افتقر جزع، وإذا أيسر منع^(٥)، أو سرعة الجزع والاضطراب عند مس المكروه، وسرعة المنع عند مس الخير، من قولهم: ناقة هلوع: سريعة السير^(٦)، أو إذا ناله شر أظهر شدة الجزع، وإذا ناله خير بخل ومنعه الناس^(٧)، أو إذا أصابه الفقر والحاجة أو المرض أو نحو ذلك فهو كثير الجزع، وإذا أصابه الخير من الغنى والخصب والسعة ونحو ذلك فهو كثير المنع والإمساك^(٨).

٢- إذا استغنى منع حق الله وشح، وإذا افتقر سأل وألح^(٩).

ومعاني الأقوال كلها تنافي الثبات والقوة والاجتماع والتماسك والصبر^(١٠).

قال ابن عاشور: «والذي استخلصته من تتبع استعمالات كلمة الهلع أن الهلع قلة إمساك النفس عند اعتراء ما يحزنها أو ما يسرها، أو عند توقع ذلك، والإشفاق منه، وأما الجزع فمن آثار الهلع، وقد فسر بعض أهل اللغة الهلع بالشرة، وبعضهم

-
- ١- انظر: مفاتيح الغيب للرازي ١١٤/٣٠، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ٣٨٩/٥، وغرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري ٣٥٨/٦، ومحاسن التأويل للقاسمي ٣١٨/٩.
- ٢- انظر: جامع البيان للطبري ٦١٠/٢٣.
- ٣- انظر: النكت والعيون للماوردي ٩٥/٦، وفتح القدير للشوكاني ٣٥٠/٥.
- ٤- انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٨٩/١٨، ٢٩٠، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل ٣٦٧/١٩.
- ٥- انظر: الكشف والبيان للثعلبي ٣٩/١٠.
- ٦- انظر: الكشف للزمخشري ٦١٤/٤، وإرشاد العقل السليم لأبي السعود ٣٢/٩، وروح المعاني ٦١/٢٩.
- ٧- انظر: مفاتيح الغيب للرازي ١١٤/٣٠، والبحر المديد لابن عجيبة ٢٠٤/٨، وفتح القدير ٣٥٠/٥.
- ٨- انظر: فتح القدير للشوكاني ٣٥٠/٥.
- ٩- انظر: النكت والعيون للماوردي ٩٤/٦، ٩٥.
- ١٠- انظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية ٢٣٤/١٧.

بالضجر، وبعضهم بالشح، وبعضهم بالجوع، وبعضهم بالجبن عند اللقاء، وما ذكرناه في ضبطه يجمع هذه المعاني، ويريك أنها آثار لصفة الهلع.

ومعنى ﴿خُلِقَ هَلُوعًا﴾: أن الهلع طبيعة كامنة فيه مع خَلْقِهِ، تظهر عند ابتداء شعوره بالنافع والضار، فهو من طباعه المخلوقة كغيرها من طباعه البشرية، إذ ليس في تعلق الحال بعاملها دلالة على قصر العامل عليها، ولا في اتصاف صاحب الحال بالحال دلالة على أنه لا صفة له غيرها، وقد تكون للشيء الحالة وضدها باختلاف الأزمان والدواعي، وبذلك يستقيم تعلق النهي عن حال مع تحقيق تمكن ضدها من المنهي؛ لأن عليه أن يروض نفسه على مقاومة النقائص وإزالتها عنه، وإذ ذكر الله الهلع هنا عقب مذمة الجمع والإيعاء، فقد أشعر بأن الإنسان يستطيع أن يكف عن هلعه إذا تدبر في العواقب فيكون في قوله: ﴿خُلِقَ هَلُوعًا﴾ كناية بالخلق عن تمكن ذلك الخلق منه وغلبته على نفسه، المعنى: أن من مقتضى تركيب الإدراك البشري أن يحدث فيه الهلع»^(١)(٢).

١- التحرير والتنوير ١٥٥/٢٩، ١٥٦.

٢- قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبراً عن الإنسان وما هو مجبول عليه من الأخلاق الدنيئة» تفسير القرآن العظيم ٥٠٨/٤، وقال السعدي: «وهذا الوصف للإنسان من حيث هو وصف طبيعته الأصلية» تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص ٨٨٧، وقال ملا حويش: «جنساً وجبلة طبع على الهلع» بيان المعاني ٤٠٩/٤. وذكر بعض المفسرين أن الهلع لفظ واقع على أمرين: أحدهما: الحالة النفسانية التي لأجلها يقدم الإنسان على إظهار الجزع والفرع، والثاني: تلك الأفعال الظاهرة من القول والفعل الدالة على تلك الحالة النفسانية، أما تلك الحالة النفسانية فلا شك أنها تحدث بخلق الله تعالى؛ لأن من خُلِقَتْ نفسه على تلك الحالة لا يُمكنه إزالة تلك الحالة من نفسه، أما الأفعال الظاهرة من القول والفعل يمكنه تركها والإقدام عليها فهي أمورٌ اختياريةٌ. انظر: مفاتيح الغيب للرازي ١١٤/٣٠، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل ٣٦٨/١٩، ٣٦٩.

فالهلع خصلة ركبت فيه كما ركبت الشهوة، وأمر أن يغلبها، وأعطى القدرة التي يستطيع بها قمعها والشهوة.

ويقول: «غير أن الله جعل للإنسان عقلاً وحكمةً إن هو أحسن استعمالها نَحَلت صفاته، وثَقَّت من قناته، ولم يُخَلِه من دعاة إلى الخير يصفون له كيف يَرِيضُ جامعَ نفسه، وكيف يوفق بين إدراكه وحسه، وهؤلاء هم الرسل والأنبياء والحكماء، فإذا أُخبر عن الإنسان بشدة تَلَبُّسه ببعض النقائص، وجعل ذلك في قالب أنه جُبِل عليه، فالمقصود من ذلك: إلقاء تبعه ذلك عليه؛ لأنه فَرَط في إرضاء نفسه على ما فيها من جِبَلَّة الخير، وأرعى لها العِنان إلى غاية الشر، وفَرَط في نصائح الشرائع والحكماء، وإذا أَسَدَّ ما يأتيه الإنسان من الخير إلى الله تعالى فالمقصود: التنبيه إلى نعمة الله عليه بخلق القوة الجالبة للخير فيه، ونعمة إرشاده وإيقاظه إلى الحق، كما أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ يَدَاكَ وَأنتَ سَرِينٌ﴾ (١) عقب قوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ (٢) «(٣)».

١- سورة النساء: الآية ٧٩.

٢- سورة النساء: الآية ٧٨.

٣- التحرير والتنوير ٢٩/١٥٦، ١٥٧.

المطلب الثاني: خلق الإنسان من عجل وهلوعا في ضوء المعطيات الواقعية والاكتشافات العلمية

إن الإنسان إذا نظر متأملاً في نفسه، وواقعه، وأعماله، وأحواله، ومجتمعه، والناس من حوله، لوجد أنه عجول فعلاً، يتعجل الأمور، والنتائج، ويتبع منطق عقله، ويحاول مجاراة عجلة الحياة التي تدور بسرعة، ويتأثر بالنظرة السطحية القصيرة إلى الأمور، دون عمق وشمول ونظر في تجارب الآخرين ممن حوله، ويغفل عن سنن الله في الكون وفي النفس وفي التشريع ومع المخالفين، والأمثلة الواقعية على عجلة الإنسان كثيرة جداً، فمثلاً في عصرنا نجد أن حوادث السير والمرور سببها في الغالب راجع إلى العجلة، وبالتالي كم من التوجيهات والإرشادات التي تدلي بها الجهات المختصة تركز على العجلة كسبب أول ورئيس في ذلك، كذلك نجد أن كثيراً من المشكلات الاجتماعية التي تترتب عليها آثار سيئة جداً قد تسبب انهيار أسر وتشقق مجتمعات ترجع إلى الشائعات الناجمة عن العجلة في نقل الأخبار والمعلومات دون تريث، وقد بين القرآن أن من عجلة الإنسان دعائه على نفسه أو ولده أو ماله بالشر عند الغضب، ويبادر بذلك الدعاء كما يبادر بالدعاء في الخير، ولما طُلب من النبي ﷺ أن يطلب نصر الله قال: **"وَلِكِنِّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ"**.

ومن أخطر ما توقعه العجلة في الإنسان خلال رحلته في هذه الحياة الدنيا أن يؤثر هذه الحياة العاجلة على الدار الآخرة، ولو انتهى حاله معها أو حصوله على ما يجب منها إلى شقائه وعذابه الأبدي، فتراه يعرض عن الآخرة ويذرهما، ولو كان عمله لها يجعله من أصحاب السعادة الأبدية، بشهادة واقع حاله في سلوكه الحياتي تجاه مطالبه القريبة الزمنية من الحياة الدنيا، كالمال، والولد، والمنصب، والدار، حتى أنه يدعو ربه بإلحاح، لتحقيق مطلوبه الدنيوي الذي تعلقت نفسه به،

متصوراً أنه سينال به السعادة، دون أن يضع في حسابه وتقديراته احتمال أن يكون فيه شر له، وسيجلب له التعاسة والشقاء والعذاب والخيبة، وهذا من عجلة وضعف الإنسان وشدة تعلق نفسه بالعاجلة وحبها^(١).

ولهذا ولما كانت العجلة شيئاً يكثر من الإنسان جاءت الأحكام الشرعية مراعية لذلك، فالطلاق مثلاً جعل بيد الرجل لأنه أضبط لنفسه من المرأة وأبعد عن التعجل فيه منها، ونظراً لأن الإنسان قد تقوده عجلته إلى إيقاع الطلاق دون تأمل وتريث، جعلت له فرصة بل فرصتان في الطلاق، يراجع نفسه بعد ذلك ويدفع تعجله، وفي البيع للإنسان اشتراط خيار رد المبيع، احتياط من التعجل في الشراء، وجعلت الشورى من أهم مبادئ الشريعة؛ وما ذلك إلا لتحجيم دائرة الخطأ الذي قد ينتج عن التعجل في الإقدام على الأمور، بل جاء الأمر القرآني بالثبوت من كل ما يصل إلى الإنسان والتأني وعدم العجلة في البناء عليه في قوله ﷺ: ﴿يَتَأْتِيهِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَ كُمْ فَاسِقٌ بِنِيٍّ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصِحُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾^(٢).

ولذا قيل: الشخص العجل يقول قبل أن يعلم، ويجيب قبل أن يفهم، ويحمد قبل أن يجرب، ويذم بعد ما يحمد، ويعزم قبل أن يفكر، ويمضي قبل أن يعزم، والعجل تصحبه الندامة، وتعتزله السلامة، وكانت العرب تكني العجلة، أم الندامات^(٣).

إن تركيب المدارك البشرية ركز بحكمة دقيقة، جعلها قادرة على الفعل والكف، وساعية إلى الملائم، ومعرضة عن المنافر، وجعلت فيها قوى متضادة الآثار يتصرف العقل والإدراك في استخدامها كما يجب في حدود المَقْدِرَةِ البدنية التي أعطها النوع والتي أعطها أفراد النوع، ثم جعل له إدراكاً يميز الفرق بين آثار

١- انظر: عجائب النظر والتأمل في عظمة الله ﷻ (آيات الله في الكون والإنسان) لأسامة الناعسة ص ٢٦١.

٢- سورة الحجرات: الآية ٦.

٣- انظر: روضة العقلاء ونزهة الفضلاء لمحمد بن حبان البستي أبو حاتم ص ٢١٦.

الموجودات، وآثار أفعالها بين النافع منها والضار، والذي لا نفع فيه ولا ضرر، وخلق فيه إلهاماً يحب النافع، ويكره الضار، غير أن اختلاط الوصفين في بعض الأفعال وبعض الذوات قد يريه الحال النافع منها ولا يريه الحال الضار، فيبتغي ما يظنه نافعاً غير شاعر بما في مطاويه من أضرار في العاجل والآجل، أو شاعراً بذلك ولكن شغفه بحصول النفع العاجل يرجح عنده تناوله الآن؛ لعدم صبره على تركه مقدراً معاذير أو حياً يقتحم بها ما فيه من ضرر آجل، وإن اختلاط القوى الباطنية مع حركات التفكير قد تستر عنه ضرر الضار ونفع النافع، فلا يهتدي إلى ما ينبغي سلوكه أو تجنبه، وقد لا تستر عنه ذلك ولكنها تحدث فيه إثارةً لاتباع الضار لملائمة فيه ولو في وقت أو عند عارض، إعراضاً عن اتباع النافع لكلفة في فعله أو منافرة لوجدانه، وذلك من اشتغال تركيب قواه الباعثة والصارفة وآلاتها التي بها تعمل وتدفع على شيء من التعاكس في أعمالها، فحدثت من هذا التركيب البديع صلاحيةً للوفاء بالتدبير الصالح المنوط بعهدة الإنسان، وصلاحيةً لإفساد ذلك أو بعثرته، وجعل للإنسان عقل وحكمة إن هو أحسن استعمالها نخلت صفاته، وثققت من قناته، وقد بين الشرع للإنسان ما يريضُ جامع نفسه، وكيف يوفق بين إدراكه وحسه^(١).

وعليه فدافع الإنسان للعجلة يرجع إلى:

- ١- أنه يحب شيئاً اغتراراً بما يتهيأ له منه، أو طلباً للذة عاجلة تحصل له منه، ولكنه قد يكون فيه شراً له.
- ٢- أنه يكره شيئاً نفوراً مما يتهيأ له فيه، أو تجافياً عن ألم عاجل يحصل له منه، ولكن قد يكون الشيء الذي كرهه خيراً عظيماً له، فلأجل هذين العاملين كان الإنسان كثير العجلة^(٢).

١- انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور ١٥٦/٢٩.

٢- انظر: عجائب النظر والتأمل في عظمة الله ﷻ (آيات الله في الكون والإنسان) ص ٢٦١.

وبالتالي فهذه العجلة منشؤها دافع نفسي بسبب الحرص على نيل المحبوب، والخوف من المكروه، وبالتالي كثرت العجلة في الإنسان حتى صار الاستعجال كالطبيعة المركوزة في فطرته، وبالتالي فعلى الإنسان أن يعمل على ضبط نفسه، وإجامها بلجام الشرع والعقل للتخفيف من غلوها في الاستعجال، بإمعان النظر في الآثار والعواقب المترتبة على الاستعجال، ودوام النظر في كتاب الله عز وجل، والمطالعة في السنة، والسيرة، والتاريخ، فإن ذلك مما يهدئ النفس، ويحمل على التريث والتأني، ويبصر بسنن الله في الكون وفي النفس وفي التشريع ومع العصاة والمكذبين، مع مجاهدة النفس على التأني والتريث^(١)، والاستعانة بالله بالاعتصام به والالتجاء إليه لجبر النقص وسد الخلل في النفس البشرية، ودعائه إذا رغب في شيء إن كان فيه خير أن يبسر له فيه، وإذا كان فيه شر أن يصرفه عنه، بل علم النبي ﷺ أصحابه الاستخارة، وما هي إلا خروجاً من حول الإنسان وقوته، وابتعاداً عن الاتكال على النفس البشرية التي تتعجل الأمور^(٢)^(٣)، وقد امتدح رسول ﷺ أشج عبد القيس بقوله ﷺ: **"إِنَّ فِيكَ لَخَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ الْحِلْمُ وَالْإِتَاءُ"**^(٤)، أما الحلم

١- انظر: آفات على الطريق لمحمد نوح ص ٣٢-٤٣، وخلق الإنسان من عجل لوليد خالد الربيع، بحث منشور في مجلة الفرقان على الرابط: (<http://www.al-forqan>).

٢- عن جابر ابن عبدالله قال: **"كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعَلِّمُنَا الْإِسْتِخَارَةَ فِي الْأُمُورِ كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ، يَقُولُ: إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالْأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكَعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ، ثُمَّ لِيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي، أَوْ قَالَ: عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ فَاقْدُرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي، أَوْ قَالَ فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْنِي عَنْهُ وَاقْدُرْ لِي الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ أَرْضِنِي، قَالَ: وَيُسَمِّي حَاجَتَهُ"**. أخرجه البخاري، كتاب أبواب التطوع، باب ما جاء في التطوع مثنى مثنى ١/٣٩١ رقم: ١١٠٩.

٣- عجائب النظر والتأمل ص ٢٦٢.

٤- أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ وشرائع الدين ١/٤٦ برقم: ١٧.

فهو العقل، وأما الأناة فهي التثبت وترك العجلة^(١)، فما أحوجنا إلى التأنى والروية والصبر في جميع أمورنا؛ لنظفر بالمقاصد والغايات، ونسلم من الندامة والخسران^(٢).
 وإذ تأملنا في الإنسان، وواقعه، وأحواله، لوجدنا قلة إمساك النفس عند اعتراء ما يحزنها أو ما يسرها، أو عند توقع ذلك، والإشفاق منه، وعند ضعف الإيمان أو عند خواء القلب منه، يظهر أثر ذلك الهلع عند مس الشر جزعاً و شحاً وضجراً، يتألم للذعته، ويحسب أنه دائم لا كاشف له، ويظن اللحظة الحاضرة سرمداً مضروباً عليه، ويحبس نفسه بأوهامه في فمقم^(٣) من هذه اللحظة وما فيها من الشر الواقع به، حتى يصل الحال بأناس إلى أن يتصور أحدهم أنه ليس هناك فرج، ولا يتوقع من الله تغييراً، ومن ثم يأكله ويمزقه الهلع؛ ذلك أنه لا يأوي إلى ركن ركين يشد من عزمه، ويعلق به رجاءه وأمله، منوعاً للخير ممسكاً إذا قدر عليه، يحسب أنه من كده وكسبه فيبخل به على غيره، ويحتجبه لشخصه، ويصبح أسير ما ملك منه، مستعبداً للحرص عليه! ذلك أنه لا يدرك حقيقة الرزق ودوره هو فيه، ولا يتطلع إلى خير منه عند ربه وهو منقطع عنه خاوي القلب من الشعور به، فهو هلوع في الحالتين، هلوع من الشر، هلوع على الخير، وهي صورة بانئة للإنسان، حين يضعف إيمانه أو يخلو قلبه من الإيمان^(٤)، ويقدر نقصان إيمانه يكون بؤسه.

وبواجه الإنسان مشاعر قلق وهلع في أوقات معينة خلال حياته، كاستجابة ورؤود فعل عندما يكون الإنسان في حالة خَطرة أو مسببة للكرب أو الشدة، ومن خلال مراجعة ما يتعلق بنوبات الهلع في مراجع الطب النفسي الحديث فقد لاحظ

١- شرح النووي على مسلم ١/١٨٩.

٢- انظر: خلق الإنسان من عجل لوليد خالد الربيع، على الرابط: (<http://www.al-forqan.net>).

٣- قمقم بضم القافين ما يسخن فيه الماء من نحاس وغيره ويكون ضيق الرأس، أو إناء صغير من نحاس أو فضة أو خزف صيني يجعل فيه ماء الورد. لسان العرب ١٢/٤٩٣، والمعجم الوسيط ٢/٧٦٠.

٤- انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب ٦/٣٦٩٨.

الأطباء مؤخراً زيادة كبيرة في المرضى الذين يعانون من حالات غامضة تتمثل في نوبات من القلق والرعب الهائل مدتها قصيرة نسبياً؛ لكنها مصحوبة بأعراض مرضية مزعجة تدفع المرضى إلى البحث عن العلاج في المستشفيات وأقسام الطوارئ وعيادات الأطباء من مختلف التخصصات، وأحياناً في غرف الرعاية المركزة، وظهر مصطلح اضطراب الهلع (Panic disorder)، ونوبات الهلع (Panic Attacks) في مراجع الطب النفسي الحديث مؤخراً لوصف حاله مرضية غامضة تصيب نسبة كبيرة من الناس من مختلف الأعمار، وتقدر نسبة الإصابة بنوبات الهلع بعد أن تزايد انتشارها مؤخراً بحوالي ١٢% من الناس من مختلف الأعمار، ويعني ذلك وجود ملايين المرضى الذين يعانون معظمهم في صمت ولا يدركون أن المشكلة تتمثل في الإصابة باضطراب نفسي قابل للعلاج^(١).

وما يذكر عن الهلع في الطب النفسي حالة نفسية مرضية، يعالجونها بالعقاقير، أو الجلسات الطبية، أو بهما معاً، والهلع المذكور في القرآن حالة في النفس تنافي الثبات والقوة والاجتماع والتماسك والصبر، ينتج عنها شدة الجزع^(٢) عند الشر، وشدة الحرص عند الخير، وقد أوضح القرآن الكريم أنها موجودة في الإنسان، ويظهر أثرها عند وقوع الشر أو الخير، واستثنى قوماً لا تظهر عليهم آثار هذا الهلع من شدة جزع وحرص؛ لأنهم اهتدوا بهدي ربهم، واستتاروا بنوره، فكان ما ذكره عنهم فيه علاج لهذه الأمور النفسية، وذلك بالصلاة والمداومة عليها بأدائها في أوقاتها^(٣)،

١- الإشارات النفسية في القرآن الكريم للطفي الشربيني، منشأة المعارف، الإسكندرية، ٢٠٠٨م، واضطراب الهلع، موقع موسوعة الملك عبدالله بن عبدالعزيز العربية للمحتوى الصحي، الرابط: (<http://www.kaahe.org/health>).

٢- الجزع: حزن يصرف الإنسان عما هو بصدده، ويقطعه عنه، فهو أبلغ من الحزن؛ لأن الحزن عام. التعاريف ص ٢٤٢.

٣- يقول ابن بطال: «المراد من الآيات الكريمة إثبات خلق الله تعالى للإنسان بأخلاقه من الهلع والصبر، والمنع والإعطاء، وقد استثنى الله المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون، لا يضجرون بتكررها عليهم».

فتح الباري لابن حجر ٥١١/١٣.

وفي السنة المطهّرة ما يفيد تأثير الصلاة في راحة القلب بها، ويدل على ذلك قوله ﷺ: **"يَا بَلَالُ أَقِمِ الصَّلَاةَ أَرْخَانَا بِهَا"**^(١)، و**"كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى"**^(٢)، والزكاة والصدقة المندوبة والمستحبة، والإيمان بالغيب والجزاء، ومن هذا حاله اطمأنت نفسه وارتاح قلبه، لأنه يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن عقابه إلى خير، وهم خائفون من التقصير في الطاعة ومن باب أولى الخوف من ارتكاب الظلم والمعصية، ويحفظون الفروج عما حرم الله، ويؤدون الأمانات، ويوفون بالعهود، ويؤدون الشهادة بصدق، وفوق ذلك يلزمون ذكر الله قال ﷺ: **﴿أَلَا**

بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾^(٣)، وتلاوة كتابه قال ﷺ: **﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾**^(٤)، ويرضون بقضاء الله، فإن الرضا بقضاء الله ﷻ، والتذرع بالصبر الجميل ممّا يساعد على التخلّص من هذه الأمور^(٥)، ونستطيع أن نجمل علاج الهلع بكلمة (التقوى)، التي هي جماع كل الخير، وفيها التزام المأمور وترك المحظور على نور من الله.

والموضوع بحاجة لدراسة نفسية متعمقة؛ لمعرفة حقيقة العجل والهلع وأثر كل منهما على سلوك الإنسان ونفسيته، وإن كان مما لا ريب فيه أنهما موجودان في طبيعة الإنسان بشهادة القرآن كلام الله خالق الإنسان.

١- أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب في صلاة العتمة ٧١٥/٢ برقم: ٤٩٨٥، صححه الألباني في صحيح الجامع الصغير ١٣٠٧/٢.

٢- أخرجه أبو داود، كتاب الصلاة، باب وقت قيام النبي ﷺ من الليل ٤٢٠/١ برقم: ١٣١٩. و**"حَزَبَهُ"**: نابه وألم به أمر شديد. انظر: شرح النووي لصحيح مسلم ٤٨/١٧.

٣- سورة الرعد: الآية ٢٨.

٤- سورة يونس: الآية ٥٧.

٥- انظر: نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ٤٣٥٢/٩.

المطلب الثالث: ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها

من خلال الدراسة التفسيرية والمعطيات الواقعية والعلمية يتلخص ما يلي:

* اختلف المفسرون في المراد بالـ ﴿الْإِنْسَانُ﴾ في قوله ﷻ: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾، والراجح أنه جنس الإنسان ونوعه.

* اختلف المفسرون في المراد بـ ﴿مِنْ عَجَلٍ﴾، والراجح أنه خلق عجولاً، من شأنه العجلة في الأمور، فجعل لفرط استعجاله وقلة صبره وثباته في أحواله كأنه خلق من العَجَلَة، على المبالغة، فهذا الوصف تمكن من جبلة الإنسانية. هناك فرق بين العجلة والمسارعة: فالعَجَلَة استقبال الشيء قبل وقته، وهي مذمومة، والمسارعة: البِدَارُ إلى الشيء في أول وقته، وهي محمودة.

* اختلف المفسرون في المراد بـ ﴿الْإِنْسَانُ﴾ في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾، ولا مانع من إرادة العموم.

* في المراد بـ ﴿هَلُوعًا﴾ أقوال، ومعاني الأقوال كلها تنافي الثبات والقوة والاجتماع والتماسك والصبر، واستخلص ابن عاشور من تتبع استعمال كلمة الهلع أنه قلة إمساك النفس عند اعتراء ما يحزنها أو ما يسرها، أو عند توقع ذلك، والإشفاق منه، وأما الجزع فمن آثار الهلع، وكذلك الشره والضجر والشح والجوع والجبن عند اللقاء كلها آثار لصفة الهلع، وأن الهلع طبيعة كامنة في الإنسان مع خَلْقِهِ، تظهر عند ابتداء شعوره بالنافع والضار.

* واقع الإنسان يدل على أنه عجول يتعجل الأمور والنتائج ويتبع منطق عقله، ويحاول مجازاة عجلة الحياة التي تدور بسرعة، ويتأثر بالنظرة السطحية إلى الأمور، ويغفل عن سنن الله في الكون والنفس والتشريع ومع المخالفين، والأمثلة الواقعية كثيرة، كحوادث السير والمرور، والشائعات الناجمة عن العجلة في نقل

الأخبار، ودعاء الإنسان على نفسه أو ولده أو ماله بالشر، وإيثار الحياة العاجلة على الدار الآخرة، ولما كانت العجلة تكثر من الإنسان حتى صارت كالتبيعة المركوزة في فطرته جاءت الأحكام الشرعية مراعية لذلك، كالطلاق، واشتراط خيار رد المبيع، والأمر بالنتبث من كل ما يصل إلى الإنسان والتأني قبل البناء عليه.

* العجلة منشؤها دافع نفسي بسبب الحرص على نيل المحبوب والخوف من المكروه، وعلى الإنسان أن يعمل على ضبط نفسه، وإجماعها بلجام الشرع والعقل للتخفيف من غلوها في الاستعجال.

* إذ تأمل الإنسان في واقعه ومن حوله وجد قلة إمساك النفس عند اعتراء ما يحزنها أو ما يسرها، أو عند توقع ذلك، والإشفاق منه، وعند ضعف الإيمان أو عند خواء القلب منه، يظهر أثر ذلك الهلع عند مس الشر جزعاً و شحاً وضجراً، ومنعاً للخير وإمساكاً إذا قدر عليه.

* لاحظ الأطباء مؤخراً زيادة كبيرة في المرضى الذين يعانون من حالات غامضة تتمثل في نوبات من القلق والرعب الهائل مدتها قصيرة نسبياً؛ ومصحوبة بأعراض مرضية مزعجة تدفع المرضى إلى البحث عن العلاج، وظهر مصطلح اضطراب الهلع، ونوبات الهلع في الطب النفسي لوصف حاله مرضية غامضة تصيب نسبة كبيرة من الناس من مختلف الأعمار، وتقدر نسبة الإصابة بنوبات الهلع بعد أن تزايد انتشارها مؤخراً بحوالي ١٢% من الناس من مختلف الأعمار.

* علاج الهلع ذلك بالصلاة، والزكاة والصدقة، والإيمان بالغيب والجزاء، وحفظ الفرج عما حرم الله، وأداء الأمانات، والوفاء بالعهود، والشهادة بصدق، وذكر الله، والرضا بقضاء الله، ويجمع كل ذلك كلمة (التقوى).

ومن خلال الدراسة التفسيرية والمعطيات الواقعية والعلمية تظهر الآثار التالية:

* معطيات الواقع تشهد بصحة القول إن الإنسان عجول من شأنه العجلة في الأمور، وإن هذا الوصف تمكن من جبلة الإنسانية.

* ظهور المعجزة القرآنية البلاغية، إذ استعمل القرآن الكريم وجوهاً عربية بلاغية في وصف الإنسان بعجول وهلوع.

* ما ذكر من جانب علمي في وصف القرآن للإنسان بالهلوع، وإن كان الموضوع لازال بحاجة إلى دراسة متعمقة من الناحية العلمية، وكذلك العجل في الإنسان، لكنني أرى أنه يمكن اعتبار ذلك جانباً من جوانب الإعجاز العلمي بشهادة المعطيات الواقعية، وبالتالي فهذه الآيات تمثل سبقاً قرآنياً لعلوم طب النفس الحديث، والمستقبل كفيل ببيان ذلك؛ لأن العلم الذي في القرآن نزل من عند الله الذي خلق الإنسان، ويطلع في كل وقت وأن على شيء من أسرار الكون بما فيه هذا الإنسان وما انطوى عليه من عجائب وأسرار تشهد بإعجاز القرآن، وأنه من عند الله الرحمن.

* إعجاز القرآن في وصف الدواء النافع للخلاص من الهلع وغيره من الحالات النفسية، إذ بين أن كل إنسان هلوع، ثم استثنى صنفاً من الناس يقيمون الصلاة والزكاة... وهذا إشارة إلى أن هؤلاء نجوا وسلموا من آثار الهلع، واستطاعوا صرفه والتغلب عليه بالأعمال المذكورة في الآيات، وبالتالي فهذه الأعمال علاج من هذا الداء وما يماثله، واليوم تعالج الأمراض النفسية بالجلسات الطبية، وأكدت الدراسات على الأثر الإيجابي للقرآن في علاج الحالات النفسية، ويؤكد هذا الإعجاز ازدياد حالات الأمراض النفسية من هلع وغيره أوساط المسلمين المفرطين في الالتزام

الحق بالتعاليم التي جاء بها الإسلام، والتفريط في شأن الصلاة والقرآن والذكر والصدقة وما ذكره الله من وقاية لهذه الأمراض^(١).

* رفع الالتباس والاشباه الذي قد يعلق في بعض الأذهان، إذ كيف خلق الإنسان عجولاً وهلوعاً، ونهي عن العجل، وذم الجزع والمنع الحاصل نتيجة الهلع، وذلك ببيان أن الله تعالى نبه على أن ترك الاستعجال وضبط النفس عند الهلع بكف آثاره السيئة من جزع وحرص وشرة، حالات مطلوبة، كما ركبت الشهوة في الإنسان، وأمر أن يغلبها؛ لأن الله أعطاه القدرة التي يستطيع بها قمع الشهوة وترك العجلة والصبر والتماسك لكف الهلع وآثاره، ولذا وجب عليه أن يروض نفسه على مقاومة النقائص وإزالتها عنه، بما جعل الله له من عقل وحكمة، وإلا فإنه يكون قد فرط في ترويض نفسه على ما فيها من جيلة الخير، وأرخص لها العنان إلى غاية الشر، وفرط في العمل بمقتضى الشرع والحكمة، والله سبحانه أعلم.

١- وتشير تقارير منظمة الصحة العالمية إلى أن ما يقرب من ثلث سكان العالم يعانون من اضطرابات نفسية، حيث تصيب حالات القلق النفسي ما يقرب من ٢٠% من الناس في بعض المجتمعات، ويعانى ١٢% من اضطرابات الهلع، وتصل نسبة الإصابة بالاكتئاب النفسي إلى (٧% حوالي ٤٥٠ مليون حالة اكتئاب تؤدي إلى الانتحار لحوالي مليون إنسان كل عام)، ويصيب الوسواس القهري ٣%، والفصام العقلي ١%، بالإضافة إلى الاضطرابات النفسية الناجمة عن الصدمات والحروب والإدمان وغير ذلك. انظر: وجه آخر للإعجاز العلمي للقرآن (الإشارات النفسية في القرآن الكريم) للطبيب النفسي لطفي الشربيني على الرابط: (<http://swmsa.net>).

المبحث الخامس

خلق الإنسان لا يعلم شيئاً وإمداده بوسائل العلم

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول:

خلق الإنسان لا يعلم شيئاً وإمداده بوسائل العلم في

القرآن الكريم.

المطلب الثاني:

خلق الإنسان لا يعلم شيئاً وإمداده بوسائل العلم في ضوء

الاكتشافات العلمية.

المطلب الثالث:

ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها.

المطلب الأول:

خلق الإنسان لا يعلم شيئاً وإمداده بوسائل العلم في القرآن الكريم

الآيات الواردة:

قال الله ﷻ: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْعِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(١).

أقوال المفسرين:

قوله ﷻ: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾، ذكر ﷻ أن من نعمه على عباده أن أخرجهم من بطون أمهاتهم إلى الحياة أطفالاً لا علم لهم بشيء^(٢)، ولا يعقلون شيئاً^(٣)، وجملة ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ في محل نصب على الحال^(٤)، وفي المقصود بقوله ﷻ: ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ خمسة أقوال:

القول الأول: العموم^(٥)؛ فهم خلقوا غير عالمين ولا عارفين شيئاً أصلاً^(٦)، فالإنسان خلق خالياً عن العلم والمعرفة لا يهتدي سبيلاً^(٧).

١- سورة النحل: الآية ٧٨.

٢- انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٠/١٥١، وفتح القدير للشوكاني ٣/٢١٨.

٣- انظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري ١٧/٢٦٥.

٤- انظر: الكشاف للزمخشري ٢/٥٨٣، والبحر المحيط في التفسير لأبي حيان ٥/٥٠٦، وتفسير الجلالين

ص ٣٥٧، وإرشاد العقل السليم لأبي السعود ٥/١٣١، وفتح القدير للشوكاني ٣/٢١٨.

٥- انظر: البحر المحيط في التفسير لأبي حيان ٥/٥٠٦، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي

السعود ٥/١٣١، وفتح القدير للشوكاني ٣/٢١٨، وروح المعاني للآلوسي ١٤/٢٠٠.

٦- انظر: إرشاد العقل السليم لأبي السعود ٥/١٣١، وروح المعاني للآلوسي ١٤/٢٠٠.

٧- انظر: لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٤/١٠٦.

القول الثاني: لا تعلمون شيئاً من حق المنعم الذي خلقكم في البطون، وسواكم، وصوركم، ثم أخرجكم من الضيق إلى السعة^(١).

القول الثالث: لا تعلمون شيئاً مما أخذ عليكم من الميثاق في أصلاب آبائكم.

القول الرابع: لا تعلمون شيئاً مما قضى عليكم من السعادة والشقاء.

القول الخامس: لا تعلمون شيئاً من منافعكم^(٢).

والراجح هو القول الأول؛ لأن التعميم يجعل الآية تشمل هذه الأمور وغيرها، واعتباراً بعموم اللفظ؛ فإن ﴿شَيْئاً﴾ لفظ عام، وهو نكرة واقعة في سياق النفي^(٣)، والنكرة في سياق النفي تعم^(٤)، ولا يوجد داعي إلى التخصيص^(٥).

وقوله ﷻ: ﴿وَجَعَلْ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾، فيها مسائل:

المسألة الأولى: ظاهر الآية يدل على أن جعل الحواس الثلاث بعد الإخراج من البطون، والأمر ليس كذلك؛ إذ إنه من المعلوم أن هذه الحواس خلقت للإنسان من جملة خلقه وهو في بطن أمه، وقد أوضح المفسرون المراد من ذلك كما يلي:

أ- ما قاله الطبري: «وقوله ﷻ: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً﴾ كلام متناه، ثم ابتدئ الخبر، فقيل: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾، وإنما قلنا ذلك كذلك؛ لأن الله تعالى ذكره جعل العباداة والسمع^(٦) والأبصار والأفئدة

١- انظر: الكشاف للزمخشري ٥٨٣/٢، وغرائب القرآن ورجائب الفرقان للنيسابوري ٢٩١/٤.

٢- هذه الأقوال الثلاثة نقلها كل من: القرطبي في الجامع لأحكام القرآن ١٥١/١٠، وأبو حيان في البحر المحيط ٥٠٦/٥، وابن عادل في اللباب ١٣٠/١٢، والشوكاني في فتح القدير ٢١٨/٣، والآلوسي في روح المعاني ٢٠٠/١٤.

٣- انظر: البحر المحيط في التفسير لأبي حيان ٥٠٦/٥، وفتح القدير للشوكاني ٢١٨/٣.

٤- شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب لشمس الدين للجوزي ٣٥٩/١.

٥- انظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للآلوسي ٢٠٠/١٤.

٦- لعل هذا خطأ في العبارة، والصواب (جعل لعباده السمع والأبصار..).

قبل أن يخرجهم من بطون أمهاتهم؛ وإنما أعطاهم العلم والعقل بعد ما أخرجهم من بطون أمهاتهم»^(١)، وقال الثعلبي: «﴿لَا تَقْلَمُونَ شَيْئًا﴾ هذا كلام تام، ثم ابتداء فقال: «﴿وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾؛ لأن الله تعالى جعل لعباده السمع والأبصار والأفئدة قبل إخراجهم من بطون أمهاتهم، وإنما أعطاهم العلم بعد ما أخرجهم منها»^(٢)، وقال البغوي: «﴿لَا تَقْلَمُونَ شَيْئًا﴾ تم الكلام، ثم ابتداء فقال جلّ وعلا، «﴿وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾؛ لأن الله تعالى جعل هذه الأشياء لهم قبل الخروج من بطون الأمهات؛ وإنما أعطاهم العلم بعد الخروج»^(٣).

ب- الواو في قوله: «﴿وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ لا تفيد الترتيب، قال مكي بن أبي طالب: «وهذا يدل على أن الواو لا توجب رتبة؛ لأنه ذكر جعله للسمع والبصر والفؤاد بعد الخروج من البطن، وذلك لم يكن إلا في البطن، فالواو لا توجب رتبة، بل ما بعدها يكون قبل ما قبلها، لا يجوز إلا هذا بهذه الآية... ويجوز أن يكون الباقي مبتدأ غير معطوف»^(٤).

وقال الرازي: «والجواب أن حرف الواو لا يوجب الترتيب»^(٥).

ج- أن العرب تقدم وتؤخر في بعض كلامها^(٦).

د- حمل آخرون السمع على الاستماع والأبصار على الرؤية^(٧).

١- انظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري ١٧/٢٦٥، ٢٦٦.

٢- الكشف والبيان عن تفسير القرآن ٦/٣٣.

٣- معالم التنزيل في تفسير القرآن ٣/٩٠.

٤- الهداية إلى بلوغ النهاية ٦/٤٠٥٦.

٥- مفاتيح الغيب ٢٠/٧٣.

٦- انظر: لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن ٤/١٠٧.

٧- انظر: مفاتيح الغيب ٢٠/٧٣، واللباب في علوم الكتاب ١٢/١٣٠، وتفسير السراج المنير ٢/١٩٨، والتحرير والتنوير ١٣/١٨٧.

هـ- قول الخازن: «لما كان الانتفاع بهذه الحواس بعد الخروج من البطن، فكأنما خلقت في ذلك الوقت الذي ينتفع بها فيه، وإن كانت قد خلقت قبل ذلك»^(١).

المسألة الثانية: معنى قوله ﷺ: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْعِدَةَ﴾، أي أن الله ﷻ إنما أعطاكم هذه الحواس لتنتقلوا بها من الجهل إلى العلم، فجعل لكم السمع لتسمعوا به نصوص الكتاب والسنة، وهي الدلائل السمعية لتستدلوا بها على ما يصلحكم في أمر دينكم، وجعل لكم الأبصار لتبصروا بها عجائب مصنوعاته، وغرائب مخلوقاته، فتستدلوا بها على وحدانيته، وجعل لكم الأفئدة لتعقلوا بها، وتفهموا معاني الأشياء التي جعلها دلائل وحدانيته^(٢).

وقيل معناه: وما ركب فيكم هذه الأشياء إلا آلات لإزالة الجهل الذي ولدتم عليه، واجتلاب العلم، والعمل به، من شكر المنعم وعبادته، والقيام بحقوقه، والترقي إلى ما يسعدكم به في الآخرة^(٣).

وقيل: لتسمعوا مواعد الله، وتبصروا ما أنعم الله به عليكم من إخراجكم من بطون أمهاتكم، إلى أن صرتم رجالاً، وتعقلوا عظمة الله^(٤).

ويقول الطبري: «والله تعالى أعلمكم ما لم تكونوا تعلمون من بعد ما أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعقلون شيئاً ولا تعلمون، فرزقكم عقولاً تفقهون بها، وتميزون بها الخير من الشرِّ وبصركم بها ما لم تكونوا تبصرون، وجعل لكم السمع الذي

١- انظر: لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن ١٠٧/٤.

٢- انظر: لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن ١٠٦/٤.

٣- انظر: الكشاف للزمخشري ٥٨٣/٢، ومدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي ٢٢٦/٢، وغرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري ٢٩١/٤، وفتح القدير للشوكاني ٢١٩/٣.

٤- انظر: مفاتيح الغيب للرازي ٧٣/٢٠، ولباب التأويل للخازن ١٠٦/٤، ١٠٧، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل ١٢٩/١٢، وروح المعاني للألوسي ٢٠١/١٤.

تسمعون به الأصوات، فيفقه بعضكم عن بعض ما تتحاورون به بينكم، والأبصار التي تبصرون بها الأشخاص فتتعارفون بها وتميزون بها بعضاً من بعض»^(١).
 أما ابن عاشور فيقول: «أوجد فيكم إدراك السمع والبصر والعقل، أي كونها في الناس حتى بلغت مبلغ كمالها الذي ينتهي بها إلى علم أشياء كثيرة، كما دلت عليه مقابله بقوله تعالى: ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾، أي فعلتم أشياء»^(٢).

﴿وَالْأَفْئِدَةَ﴾: جمع فؤاد، وقيل: هو القلب^(٣)، وقيل: هو وسط القلب، منزل منه بمنزلة القلب من الصدر^(٤)، وقيل: المراد به هنا العقل؛ لأنه يطلق عليه ذلك كثيراً، ولأنه مقر الإدراك كله، فهو الذي تنقل إليه الحواس مدركاتها^(٥)، وسمي القلب فؤاداً؛ لتفأوده: أي لتوقده^(٦)، وقيل: لأنه ينبوع الحرارة الغريزية، مأخوذ من المفتأد وهو موضع النار^(٧).

فلما ذكر الحق ﷻ مسألة الخلق ناسب أن يذكر السمع والأبصار والأفئدة؛ لأن الإنسان يولد من بطن أمه لا يعلم شيئاً، وبهذه الأعضاء والحواس يتعلم ويكتسب المعلومات والخبرات^(٨).

-
- ١- انظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري ٢٦٥/١٧، ٢٦٦، والكشف والبيان عن تفسير القرآن للثعلبي ٣٣/٦، الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي ابن أبي طالب ٤٠٥٦/٦.
 ٢- انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور ١٨٧/١٣.
 ٣- الهداية إلى بلوغ النهاية ٣٨٢٩/٥، والنكت والعيون للماوردي ٣٥٦/٤، وتفسير الجلالين ص ٣٥٧.
 ٤- انظر: إرشاد العقل السليم لأبي السعود ١٣٢/٥، وروح البيان لحقي ٤٨/٥، وفتح القدير للشوكاني ٢١٨/٣، وروح المعاني للآلوسي ٢٠٢/١٤.
 ٥- انظر: محاسن التأويل للقاسمي ٣٩٦/٦، والتحرير والتنوير لابن عاشور ١٨٧/١٣.
 ٦- انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب ٣٨٢٩/٥.
 ٧- انظر: النكت والعيون للماوردي ٣٥٦/٤.
 ٨- انظر: تفسير الشعراوي ١١٨٠٩/١٩.

وإنما ذكر الحق ﷺ هذه الوسائل الثلاث مع أن وسائل العلم ليست قاصرة عليها؛ لأنها الأساس والعمدة في ذلك، وأكثر ما يتحصل عليه الإنسان من العلوم والقدرات عن طريقها، ولأنها موضع الأفكار والاعتبار^(١).

المسألة الثالثة: علل المفسرون لتقديم الله ﷻ في القرآن نعمة السمع على البصر^(٢)؛ بأن السمع آلة لتلقي المعارف التي بها كمال العقل، وهو وسيلة بلوغ دعوة الأنبياء إلى أفهام الأمم على وجه أكمل من بلوغها بواسطة البصر لو فقد السمع، ولأن السمع ترد إليه الأصوات المسموعة من الجهات الست بدون توجه، بخلاف البصر فإنه يحتاج إلى التوجه بالالتفات إلى الجهات غير المقابلة، ولأن إدراك السمع أقدم من إدراك البصر^(٣)، فالسمع أنفع للقلب من البصر، وأشد تأثيراً فيه، وأعم نفعاً منه في الدين؛ إذ لو كان الناس كلهم صماً، ثم بُعثت الرسل، فمن أين يدخل عليهم الإيمان والعلم؟ وكيف يدركون آداب العبودية وأحكام الشرائع؟ إذ الإشارة تتعذر في كثير من الأحكام^(٤).

كما نجد تقديم السمع على البصر في سنة النبي ﷺ، ففي الحديث قال ﷺ: **"إِذَا مَرَّ بِالنُّطْفَةِ اثْنَانِ وَأَرْبَعُونَ لَيْلَةً، بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهَا مَلَكًا، فَصَوَّرَهَا، وَخَلَقَ سَمْعَهَا، وَبَصَرَهَا، وَجَلَدَهَا، وَلَحَمَهَا، وَعِظَامَهَا...**"^(٥)، وثبت عنه ﷺ أنه كان إذا سجد

١- انظر: النكت والعيون للماوردي ٣٥٦/٤.

٢- ولم يتقدم البصر على السمع إلا في آية واحدة هي قوله ﷺ: **"رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا"** [السجدة: ١٢]؛ لأنها تصور مشهداً من مشاهد القيامة، وفيه يفاجأ الكفار بأهوال القيامة، ويأخذهم المنظر قيل أن يسمعوا الصوت حين ينادي المنادي. انظر: تفسير الشعراوي ١١٨٠٨/١٩.

٣- انظر: إرشاد العقل السليم لأبي السعود ١٣٢/٥، وروح المعاني ١٣٦/١، والتحرير والتنوير ٢٥٤/١.

٤- انظر: البحر المديد في تفسير القرآن المجيد لابن عجيبة ٦٦/٤.

٥- أخرجه مسلم، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الأدمي في بطن أمه... ٢٠٣٧/٤ برقم: ٢٦٤٥.

قال: **"اللَّهُمَّ لَكَ سَجَدْتُ وَبِكَ آمَنْتُ وَلَكَ أَسَلْتُ سَجَدَ وَجْهِي لِلَّذِي خَلَقَهُ وَصَوَّرَهُ وَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَّرَهُ تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ"** (١).

المسألة الرابعة: ذكر المفسرون في حكمة إفراد السمع وجمع الأبصار (٢) التالي:
 أ- أن السمع أصله مصدر سمع سمعاً، والمصدر إذا جعل اسماً ذكر وأفرد (٣).
 ب- أن متعلق السمع الأصوات وهي حقيقة واحدة، ومتعلق البصر الألوان والأكوان وهي حقائق مختلفة، فأشار في كل منهما إلى متعلقه (٤)، يقول ابن عجيبة: «وانما أفرد جمع الأبصار والأفئدة؛ لأن متعلق السمع جنس واحد، وهي الأصوات، بخلاف متعلق البصر، فإنه يتعلق بالأجرام والألوان، والأنوار والظلمات، وسائر المحسوسات، وكذلك متعلق القلوب معاني ومحسوسات، فكانت دائرة متعلقهما أوسع مع متعلق السمع» (٥).

ج- أن السمع قوة واحدة، ولها محل واحد وهو الأذن، ولا اختيار لها فيه، فإن الصوت من أي جانب كان يصل إليها -الأذن- ولا قدرة لها على تخصيص السمع بإدراك البعض دون البعض، وأما الإبصار فمحلها العين ولها فيه اختيار، فإنها تتحرك إلى جانب المرئي دون غيره، وكذلك الفؤاد محل الإدراك وله نوع اختيار يلتفت إلى ما يريد دون غيره، فالسمع أصل دون محله -الأذن- لعدم الاختيار له، والعين كالأصل وقوة الإبصار آلتها، والفؤاد كذلك وقوة الفهم آتته، فذكر

١- أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح ٥٣٤/١ رقم: ٧٧١.

٢- لم يأت البصر مفرداً إلا في موضع واحد، هو قوله ﷺ: **﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾** [الإسراء: ٣٦]؛ لأن الآية تتكلم عن المسؤولية، والمسئولية واحدة ذاتية لا تتعدى، فلا بد أن يكون واحداً. انظر: تفسير الشعراوي ١١٨٠٩/١٩.

٣- الإتيان في علوم القرآن ٣٥٨/٢، وفتح القدير ٣١٥/٥، والتحرير والتنوير ٢٥٢/١، وأضواء البيان ٤١٩/٢.

٤- الإتيان في علوم القرآن للسيوطي ٣٥٨/٢.

٥- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد لابن عجيبة ٦٦/٤.

في السمع المصدر الذي هو القوة، وفي الإبصار والأفئدة الاسم الذي هو محلّ القوة؛ ولأن السمع قوة واحدة لها محل واحد، ولهذا لا يسمع الإنسان في زمان واحد كلامين على وجه يضبطها، ويرى في زمان واحد صورتين فأكثر ويستبينهما^(١).

د- قد يكون في أفراد السمع لطيفة روعيت من جملة بلاغة القرآن هي أن القلوب كانت متفاوتة، واشتغالها بالتفكر في أمر الإيمان والدين مختلف باختلاف وضوح الأدلة، وبالكثرة والقلة، وتتلقى أنواعاً كثيرة من الآيات، فلكل عقل حظه من الإدراك، وكانت الأبصار أيضاً متفاوتة التعلق بالمرئيات التي فيها دلائل الوجدانية في الآفاق، وفي الأنفس التي فيها دلالة، فلكل بصر حظه من الالتفات إلى الآيات المعجزات والعبير والمواعظ، فلما اختلفت أنواع ما تتعلقان به جمعت، وأما الأسماع فإنما كانت تتعلق بسماع ما يلقي إليها من القرآن فالجماعات إذا سمعوا القرآن سمعوه سماعاً متساوياً، وإنما يتفاوتون في تدبره، والتدبر من عمل العقول فلما اتحد تعلقها بالمسموعات جعلت سمعا واحداً^(٢).

هـ- ذكر الشعراوي أن عجائب الأداء البياني في القرآن أن كلمة أسمع يقابلها أبصار، لكن أفرد السمع وجمع الأبصار، والحكمة في ذلك أن الأذن ليس لها غطاء يحجب عنها الأصوات، كما أن للعين غطاءً يُسَدُّ عليه ويمنع عنها المرئيات، فإذن هو سمع واحد للجميع فالكل يسمع صوتاً واحداً، أما المرئيات فمتعددة، فما تراه أنت قد لا يراه غيرك^(٣).

المسألة الخامسة: ذكر الألوسي في الحكمة من تقديم السمع والأبصار على الأفئدة؛ تقدم الظاهر على الباطن، أو لأن لهما مدخلاً في إدراكه في الجملة، بل

١- انظر: مفاتيح الغيب ١٥٢/٢٥، واللباب في علوم الكتاب ٤٧٨/١٥، وتفسير السراج المنير ١٨٠/٣.

٢- انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور ٢٥٢/١.

٣- انظر: تفسير الشعراوي ١١٨٠٨/١٩.

هما من خدمه، والخدم تتقدم بين يدي السادة، وكثير من السنن أمر بتقديمه على فروض العبادة، أو لأن مدركاتهما أقل قليل بالنسبة إلى مدركاته الكثيرة^(١).

وأما قوله ﷺ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، فقال الخازن: «أي إنما أنعم عليكم بهذه الحواس لتستعملوها في شكر من أنعم بها عليكم»^(٢).

وقال القرطبي: «فيه تأويلان:

أحدهما: تشكرون نعمه.

الثاني: يعنى تبصرون آثار صنعته؛ لأن إبصارها يؤدي إلى الشكر»^(٣).

وقال الشوكاني: «لكي تصرفوا كل آلة فيما خلقت له، فعند ذلك تعرفون مقدار

ما أنعم الله به عليكم فتشكرونه، أو أن هذا الصرف هو نفس الشكر»^(٤).

وقال ابن عاشور: «والمعنى: أنه كما أخرجكم من عدم، وجعل فيكم الإدراك،

وما يتوقف عليه الإدراك من الحياة، فكذا ينشئكم يوم البعث بعد العدم، وإذ كان

هذا الصنع دليلاً على إمكان البعث، فهو أيضاً باعث على شكر الله بتوحيده ونبذ

الإشراك؛ فإن الإنعام يبعث العاقل على الشكر»^(٥).

فالحاصل: أن المراد شكر المنعم ﷻ على ما أنعم به من نعم عظيمة لا تحصى

ومنها نعمة هذه الحواس، وشكر النعم باستعمالها فيما خلقت له ومن أجله، ومنها

هذه الحواس، بأن تستعمل في وجوه الخير والبر والطاعة وفي كل ما من شأنه أن

يعين المخلوق على أداء حق الخالق ﷻ.

١- انظر: روح المعاني للألوسي ٢٠٢/١٤.

٢- لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن ١٠٧/٤.

٣- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٥١/١٠.

٤- فتح القدير ٢١٩/٣.

٥- التحرير والتنوير ١٨٦/١٣.

المطلب الثاني: خلق الإنسان لا يعلم شيئاً وإمداده بوسائل العلم في

ضوء الاكتشافات العلمية

لا توجد في جسم الجنين أية آليه تستطيع القيام والتحضير لموعد خروجه من الرحم، فالدماغ الذي يعد مركز السيطرة ليس إلا عضواً نامياً مع الجنين، وحتى لو كان الدماغ كاملاً، فلا يعني هذا شيئاً؛ لأن الجنين النامي حتى تلك اللحظة في بطن أمه يكون على جهل تام بالمحيط الخارجي، ولا يمكن أن يكون على علم إن كان بيئة مناسبة للمحيط الخارجي أم لا، كما أن الأم لا تعلم كذلك، لذلك قال ﷺ: **﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً﴾**^(١)^(٢)، فالله ﷻ هو الذي علم أن الوقت يناسب خروج هذا الإنسان، فهياً له عوامل الخروج ويسرها وأخرجه بقدرته ﷻ. ويولد هذا الإنسان بذاكرة ناصعة البياض، خالية من المعلومات، ثم بعد ذلك تبدأ هذه الذاكرة في تلقي المعلومات السمعية حتى الشهر الثالث بعد الميلاد حين تبدأ هذه الذاكرة في تلقي المؤثرات الضوئية التي لا تستطيع وعيها تماماً إلا في الشهر السادس بعد الميلاد^(٣).

ويخرج إلى الدنيا وليس لديه من المعرفة شيء؛ ولكنه يكتسب هذه المعرفة بواسطة الحواس الخمس، التي هي وسائل العلم^(٤)، وأهمها السمع والبصر، وهما

١- سورة النحل: الآية ٧٨.

٢- انظر: معجزة خلق الإنسان لهارون يحيى ص ١٤٧.

٣- انظر: خلق الإنسان في القرآن لزغول النجار ص ٥٣٢.

٤- مصادر المعرفة في الرؤية القرآنية تتجاوز ما يعرفه الماديون من ظاهر الحياة الدنيا، فمصادر المعرفة التي لا يعرف العالم المادي غيرها، وعليها قامت حضارته هي كما يعبر عنها تعريف اليونسكو: (كل معلوم بالحس والتجربة) أسقطت من معرفتها (الوحي وعالم الغيب)، وعليه فإن مصادر المعرفة عند الماديين لا تتجاوز الحس والتجربة، أما في المفهوم القرآني فلا إنكار للحس ولا التجربة ولا الخبرة=

أهم الوسائل التي بها يتعرف الإنسان على ما حوله، وتتشترك بعد ذلك بقية الحواس الخمس من اللمس والذوق والشم في إمدادنا بالمعلومات عن البيئة التي حولنا؛ ولكنها جميعاً لا ترقى إلى ما ندرك بواسطة السمع والبصر^(١).

وعلى الرغم من أن جميع مراكز الحس عند الجنين تبدأ في التخلق منذ المراحل الأولى لوجوده، إلا أنها لا تستخدم إلا بعد الميلاد، ولما كانت هذه وسائل العلم عند الإنسان قال ﷺ: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾.

فمن الثابت في دراسات الجنين البشري أن كلاً من قرص الأذن والحويصلة البصرية يتخلفان في مرحلة مبكرة، في اليومين الرابع والعشرين والخامس والعشرين من عمر الجنين، وطول الجنين في هذه المرحلة صغير جداً، وفي اليوم الـ(٢٦)، تظهر فتحتا الأذنين، وبعد ذلك بيومين إلى ثلاثة أيام أي في اليومين الـ(٢٨-٣٠) تتخلق حويصلتا الأذنين، كما يمكن تمييز قرصي عدستي العينين، وينمو قرصاهما، وبعد يومين إلى أربعة أيام أي بين اليومين الـ(٣٣، ٣٦) من عمر الجنين تتخلق حويصلتا عدستي العينين، وبعد ذلك بيوم واحد إلى سبعة أيام تتخلق الصبغة في شبكتي العينين، وتتمو برزتي الأذنين، وفي حوالي الأسبوع السادس من عمر الجنين، يتم بروز الأذنين بشكل يحدد ملامح صوان الأذن، وتبرز الحويصلات المخية، وبنهاية الشهر الخامس من عمر الجنين تكون أذناه الداخليتان قد تم تخلفهما بالكامل، وأصبحتا قادرتين على القيام بكل وظائف

=ولا المشاهدة بل إن القرآن ارتكز إليها ونص على ذلك كله فقال ﷺ: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]. انظر: القرآن الكريم هيمنته وخاتمته وعالميته وخلوده لأحمد علي الإمام، مجلة جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية، العدد الأول، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م، ص ٢٤.

١- انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن لمحمد البار ص ٣٣٥، ٣٣٦.

السمع، ومنها تلقي المؤثرات الصوتية وإرسالها إلى مراكز السمع في المخ لإدراكها بدون حاجة إلى كل زوجي الأذنين الوسطى والخارجية، واللذان يتم تخلفهما في الأسابيع من العاشر إلى العشرين من عمر الجنين حين ترتبطان بالأذنين الداخليتين، أما صيوان الأذن فيكتمل تخلفه في الأسبوع الثاني والثلاثين من عمر الجنين، وبعد الميلاد فإن بقايا الأنسجة الظهارية والسوائل التي كانت تملأ كلاً من الأذنين الخارجية والوسطى والجنين في بطن أمه سرعان ما تمتص بالكامل في خلال أيام قليلة يبدأ الوليد بعدها في سماع كل ما يدور حوله^(١).

وعلى ذلك فإن الحاسة الوحيدة التي تنشط والإنسان لا يزال جنيناً في بطن أمه هي حاسة السمع، ويبقى ذلك محدوداً بحدود سماع نبضات قلب أمه وصوت حركة كل من رئتيها وأمعائها، دون أدنى وعي حقيقي بذلك، خاصة أن السوائل المحيطة بالجنين، وهيكله العظمي -خصوصاً عظام الجمجمة- موصلة جيد للموجات الصوتية، فلا يسمع الجنين منها إلا طنيناً مضخماً لتلك الأصوات^(٢)^(٣).

أما حاسة الإبصار فمن الثابت علمياً أن طبقة الشبكية الحساسة بالعين لا تكتمل صبغتها بالصبغ اللازمة للرؤية إلا في الأسبوع الخامس والعشرين من عمر الجنين، الذي لا تشق جفون عينيه إلا بعد وصوله إلى الأسبوع السادس والعشرين من عمره، ولا تتمكن ألياف الأعصاب البصرية من توصيل النبضات العصبية للرؤية إلى مراكز الإبصار في المخ إلا بعد إحاطة كل مليون منها بغمد

١- انظر: خلق الإنسان في القرآن لزغلول النجار ص ٥٣٠، والإعجاز العلمي في تقدم السمع على البصر

لعادل الصعدي موقع جامعة الإيمان، على الرابط: (<http://www.jameataleman.org/main/articles>).

٢- انظر: خلق الإنسان في القرآن الكريم للنجار ص ٥٣١، وخلق الإنسان بين الطب والقرآن للبار ص ٣٣٦.

٣- وذكر الطبيبان عبد الحميد دياب وأحمد قرقوز أن العلماء أجروا بعض التجارب حيث أصدرت بعض الأصوات القوية بجانب امرأة حامل في آخر أيام حملها، فتحرك الجنين استجابة لتلك الأصوات. انظر: مع الطب في القرآن الكريم ص ٥٣.

خاص، ولا يتم ذلك إلا في الأسبوع العاشر بعد الولادة، ولذلك فإن حديثي الولادة لا يستطيعون التمييز بين الظلام والنور، ولا يدركون إلا صوراً مهزوزة للأشياء التي ينظرون إليها، وتتحرك عينا حديث الولادة دون أن يتمكن من تركيزها على شيء محدد، ولا يستطيع إدراك ما ينظر إليه أو يتبعه ببصره إلا في حدود الشهر الثالث بعد الميلاد، ولا يستطيع التعرف على ما ينظر إليه إلا في حدود الشهر السادس، وتستمر حاسة البصر في النمو حتى يصل الوليد إلى سن العاشرة بعد الميلاد^(١).

ومن الثابت علمياً في السمع والبصر ما يلي:

١- نعمة السمع أعظم وأهم من البصر، على الرغم من معرفتنا أهمية نعمة البصر، فالمولود يتعلم بواسطة السمع بأضعاف أضعاف ما يتعلمه بواسطة البصر.

٢- الأصم منذ الولادة لا يستطيع أن يتعلم اللغة والكلام أبداً فهو أبكم أيضاً، بينما المولود بدون نعمة البصر يستطيع أن يتعلم اللغة والكلام، وتستطيع أن تعد مئات بل آلاف العباقرة من فاقدتي نعمة البصر، ولكن من العسير أن تعد الآحاد من العباقرة الذين فقدوا نعمة السمع، وخاصة إذا كان فقد السمع منذ الولادة أو في الطفولة الباكرة، لذلك ربطت الآية القرآنية العلم بالسمع أولاً ثم بالبصر، وقدم ﷺ ذكر السمع على البصر في معرض سياق الطرق الأساسية التي بها يكتسب الإنسان المعرفة^(٢).

٣- حاسة السمع يتم تخلقها وعملها قبل حاسة الإبصار بفترة طويلة.

١- انظر: خلق الإنسان في القرآن الكريم لزغلول النجار ص ٥٣٢.

٢- انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن للطبيب محمد علي البار ص ٣٢٣، ٣٢٤، ومع الطب في القرآن الكريم للطبيبين عبد الحميد دياب وأحمد قرقوز ص ٥٣، ٥٤.

٤- ثبت بالتجربة أن الطفل يتعلم بالسمع قبل أن يستطيع القراءة بوقت طويل، وأن تعلمه بالسمع أيسر من تعلمه بالنظر والقراءة، وأن المعلومات السمعية أبقى في الذاكرة من المعلومات المقروءة والمنظورة.

٥- البصر هو أول ما يغيب عن الإنسان من حواسه عند النوم، وفي حالات الغيبوبة ونقص الأكسجين والتخدير، وآخر ما يغيب عنه من حواسه السمع، وحتى في الحركات الفجائية والخاطفة يفقد الإنسان البصر قبل السمع مرحلياً.

٦- يستطيع الإنسان تلقي الموجات الصوتية من جميع الاتجاهات والارتفاعات عبر (٣٦٠) درجة من حوله، بينما يتلقى الموجات الضوئية إذا ثبت رأسه في مستوى واحد عبر (١٨٠) درجة في المستوى الأفقي، و(١٤٥) درجة في الاتجاه العمودي فقط، وتقل قدرته على تمييز الألوان كلما اتسعت دائرة الرؤية، والموجات الضوئية لا تستطيع اختراق الأجسام المعتمة ولا الالتفاف حولها، بينما تتحرك الموجات الصوتية في كل الاتجاهات، وحول الزوايا والأركان، وعبر العديد من الغازات والسوائل والجوامد، تبعاً لشدة الصوت.

٧- تنمو وتتطور منطقة التفسير اللغوي في قشرة المخ، والتي تقع بالقرب من منطقة حس السمع، وترتبط معها ارتباطاً أقرب وأوثق من ارتباطها مع منطقة حس البصر، التي هي الأخرى تساهم في وظيفة الكلام والإدراك اللغوي عن طريق القراءة والكتابة، وهذا التقارب بين هاتين المنطقتين ناتج عن حقيقة تطور منطقة حس السمع ووظائفه في وقت مبكر وقبل نضوج منطقة ووظائف حس البصر.

٨- من الوجهة الوظيفية فإن حاسة السمع أهم من حاسة البصر في تنمية القدرات العقلية والشعورية عند الطفل، فمن الأسباب (٣٠% بحسب الإحصاءات)

للتخلف العقلي الخلقي والمكتسب تعطل آلة السمع عند المولود، أما فقدان البصر في الطفولة فنادرًا ما يصحبه تخلف عقلي^(١).

٩- وثبت بالتجربة أن المعلومات التي يتلقاها الإنسان عن طريق السمع تصل إلى مراكز الوعي في المخ، وإلى مراكز الذاكرة فيه بطريقة أفضل من المعلومات التي يتلقاها بالنظر، ومن هنا يحرص من يعلم القرآن قديماً وحديثاً على استخدام حاسة السمع في تعليمه وتحفيظه، أكثر من حرصه على استخدام البصر.

١٠- مركز السمع يقع في الفص الصدغي للمخ، بينما يقع مركز الإبصار في



الفص المؤخري في آخر المخ، أي أن مراكز السمع تتقدم على مراكز الإبصار.

١١- بالنسبة لتأثير إصابة الدماغ على

السمع والبصر، فمن المهم ملاحظة أن حس

السمع لكل أذن يتمثل في جهتي المخ، فإذا

أصيب أحد نصفي الدماغ بمرض ما، فإن الإنسان لا يفقد السمع من أي من الأذنين، أما في حالة البصر فيتمثل كل نصف من نصفي العين الواحدة على جهة المخ المعاكسة لها، فإذا ما أصيب الدماغ بمرض في أحد نصفيه فقد المصاب البصر في نصفي عينيه المعاكسين لجهة الإصابة، فتتأثر العينان كل بنسبة النصف^(٢).

١- انظر: خلق الإنسان في القرآن الكريم للنجار ص ٥٣٤-٥٣٦، وموسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة ليوسف الحاج ص ١٧٦-١٧٩، ١٨١، ١٨٢، ومن علم الطب القرآني للشيخ الشريف ص ٢٧٥، ٢٧٦، والإعجاز العلمي في آيات السمع والبصر في القرآن الكريم لصديق الهلالي وحسين اللبيدي ص ٢٤، ٢٥-٣١-٣٥، ومع الطب في القرآن لعبد الحميد دياب وأحمد قرقوز ص ٥٣.

٢- انظر: خلق الإنسان في القرآن الكريم لزغلول لنجار ص ٥٣٦، والإعجاز العلمي في آيات السمع والبصر في القرآن الكريم لصديق الهلالي وحسين اللبيدي ص ٣٣، ٤٩.

وجميع هذه النقاط المذكور تقدم لنا تفسيراً علمياً للحكمة من تقديم السمع على البصر في آيات القرآن الكريم ونصوص السنة.

ومن الثابت علمياً في السمع والبصر أيضاً ما يلي:

على الرغم من وجود منطقتين للسمع في المخ تقع كل منهما فوق الأذن المقابلة لها مباشرة، فإن ارتباط الأذنين بكل من المنطقتين يجعل الإنسان يسمع بأذنيه شيئاً واحداً في الوقت الواحد، وقد أجريت تجارب كثيرة بوضع سماعتين فوق أذني شخص واحد، ثم الانطلاق من هاتين السماعتين بكلمتين قريبتين الجرس في آن واحد، فلم يسمع إلا كلمة واحدة منهما.

وفي منطقة الإبصار في مؤخرة الدماغ يرتبط كل نصف عين من العينين بالنصف المعاكس له من منطقة الإبصار مما يُمكن العين الواحدة من رؤية الشيء الواحد والعديد من الأشياء في آن واحد^(١).

وهذا يقدم لنا تفسيراً علمياً للحكمة من الأفراد في السمع والجمع في الأبصار في آيات القرآن الكريم.

ومن خلال الحس والمشاهدة فإن استقبال الأذن للمسموع لا خيار للإنسان فيه؛ حيث لا حجاب يحجب وصول الصوت إلى طبلة الأذن، أما العين فلإنسان الخيار في أن يرى أو لا يرى، ولها جفون تساعد على ذلك^(٢).

أما عن تقديم السمع والبصر على الأفتدة

كان الأطباء يعتقدون إلى عهد قريب أن القلب مجرد مضخة تقوم بضخ الدم؛ ولكن القرآن قبل ١٤٠٠ عام يصف القلوب بأوصاف عديدة توحى بأن لها وظائف

١- انظر: خلق الإنسان في القرآن الكريم لزغلول النجار ص ٥٣٦.

٢- انظر: القرآن وإعجازه العلمي لمحمد اسماعيل إبراهيم ص ١١٠.

كبرى غير ضخ الدم^(١) تستوجب قدراً من الوعي، والذاكرة، والشعور، والانفعال، والتعبير، والعاطفة، والقدرة على اتخاذ القرار، والإدراك، والتمييز، وهو ما لم يستطع الأطباء فهمه من قبل، ثم جاءت الأبحاث الطبية في نهايات القرن العشرين، وبداية القرن الواحد والعشرين لتثبت أن كل جراحة بالقلب أفقدت صاحبه قدراً من الذاكرة، ثم جاءت عمليات نقل القلب لتؤكد حدوث تغيرات في شخصية كل فرد تمت له عملية زرع قلب اكتسبها من القلب المنقول إليه كما فصل ذلك (بول بيرسال) في كتابه (شيفرة القلب)، كما أشار (أندرو آرمور) في سنة ١٩٩١م إلى أن هناك عقلاً صغيراً في القلب، يتكون من شبكة من الخلايا العصبية والناقلات الكيميائية والبروتينات والخلايا الأخرى الدائمة، وأن هذا القلب الصغير (الفؤاد) يعمل باستقلالية عن خلايا المخ في التعلم والتذكر والإحساس، وعلى ذلك فإن الخلايا العصبية في القلب المنقول إلى شخص آخر، وكذلك المستقبلات في غشائه البروتيني (الصفاق) ترسل إشارات من ذاكرتها القديمة إلى مخ الشخص الذي تم نقل القلب إليه فتعطيه من الذاكرة والعواطف والمشاعر والأحاسيس والمواهب ما لم يكن عنده من قبل، ثم ظهر بعد ذلك سيل من الكتابات حول هذا الموضوع، وتحدثت عن أن القلب يرسل إلى المخ من الإشارات أكثر مما يتلقى منه، وذلك من خلال النبضات والناقلات العصبية، والهرمونات، وكل من المجال المغنطيسي والكهربي للقلب والالذازان يفوقان المجال الكهرومغنطيسي للمخ بعشرات

١- ومنها: الوصف بالسلامة، والإنابة، والاطمئنان، والخشوع، والإيمان، والهداية، واللين، والتقوى، والصفاء، والطهارة، والرأفة، والرحمة، والخير، والسكينة، والتعقل، والفهم، والفقہ، وتلقي الروح، والإلهام، كما يصفها بالقسوة، والإثم، والعمى، والزيغ، والغفلة، والمرض، والتقلب، والحسرة، والحمية، والنفاق، والرياء، والإنكار، والغيط، والرعب، والاشمئزاز، والخوف، والوجل، والتعبد، والإفقال، والختم أو الطبع عليها. انظر: خلق الإنسان في القرآن الكريم للنجار ص ٥٣٦، ٥٣٧.

المرات، وقد أثبتت هذه الدراسات أن المعلومات تنتقل بين القلب والعقل بانتظام مما يجعل من هذه الصلة ما يمكن التعبير به عن (الفؤاد) أو (قلب القلب)، وما يثبت جميع الأوصاف القرآنية التي أثبتتها لهذا القلب، ولما كانت هذه الأوصاف هي نتاج المعرفة التي من وسائلها كل من السمع والبصر جاء التقديم لها في قول الله ﷻ: ﴿وَجَعَلْ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ (١)(٢).

إذن الله سبحانه يذكر الفؤاد بعد السمع والبصر لمعنى علمي دقيق، وهو أن اكتساب العلم يحصل بعد الانتقال من مرحلة الإدراك الحسى بالسمع والبصر إلى مرحلة الإدراك التعقلي، وهذه هي طريقة تعلم المعارف والخبرات، وكلها تجيئ بحسب الترتيب الذى ذكره القرآن وهو الإدراك الحسى أولاً، ثم الادراك العقلي، ودليل ذلك واضح في أن الطفل يولد لا يعلم شيئاً، ثم تتوالى عليه المدركات الحسية وتتكاثر عن طريق السمع ثم البصر، فإذا ما صارت مجموعة المدركات الحسية كافية يأتي دور الفؤاد ليعقل ويعي ما أدركه الطفل منها بحواسه (٣).

وعليه فلا غرابة أن يكون القلب في جسم الإنسان أشبه بمحطة بث وإرسال رئيسية توزع على بقية الأعضاء وفي طليعتها الدماغ أنوار المعرفة والهداية (٤)، ولهذا يقول النبي ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ» (٥).

١- سورة النحل: الآية ٧٨.

٢- انظر: خلق الإنسان في القرآن الكريم للنجار ص ٥٣٦-٥٣٨.

٣- انظر: القرآن وإعجازه العلمي لمحمد إسماعيل ص ١١٠.

٤- انظر: من علم الطب القرآني الثوابت العلمية في القرآن الكريم لعبدنان الشريف ص ٣٢٣.

٥- أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه ٢٨/١ برقم: ٥٢، ومسلم، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات ١٢١٩/٣ برقم: ١٥٩٩.

تتمة:

أما بالنسبة لتقديم العين على الأذن فذلك لا يخالف تقديم السمع على الأبصار؛ لأن العين والأذن ما هي إلا أعضاء ظاهرة، أما السمع والبصر فيشيران إلى قوى إدراكية عاقلة، والعين والأذن مستقبليات وأدوات تستقبل موجات الضوء والصوت لتقوم بإرسالها عبر الأعصاب إلى مراكز السمع والبصر في الدماغ، وفي هذه المراكز يتم فهمها، والعين تتقدم على الأذن في رأس الإنسان، بينما يتقدم مركز السمع على مركز البصر في الدماغ^(١)(٢).

- ١- انظر: الإعجاز العلمي في آيات السمع والبصر في القرآن الكريم للهلالى والليبيدي ص ٤٩-٥٢.
- ٢- يقول النابلسي: «والآيات القليلة التي ورد فيها ذكر (البَصْر) قبل (السمع) هي تلك الآيات التي تنذر بالعقاب أو تصف الكافرين، وليس في أي منها إشارة لتخلق هذين الحسنيين، أو لوصف وظيفتهما أو تطورهما». ثم ذكر قوله ﷻ: ﴿وَلَمْ أَعْيُنْ لِأَيُّ صُرُونِهَا وَهَمْ أَدَانُ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وقوله ﷻ: ﴿أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يَصِيرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَدَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٩٥]، وقوله ﷻ: ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ [المائدة: ٧١]، وقوله ﷻ: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَٰ وَبِكَمَا وَصَمْنَا﴾ [الإسراء: ٩٧]. انظر: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة (آيات الله في الإنسان) ص ٢٣٩. ومع أن تعليقه جيد، إلا أن هذه الآيات لم تذكر السمع والإبصار مجرداً، إنما ذكرتهما مسبوقين بالعين والأذن، وبالتالي لا يعارض كلام الشعراوي المذكور في حاشية ص ٤٨١.

المطلب الثالث: ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها

من خلال الدراسة التفسيرية والعلمية يتلخص ما يلي:

* قوله ﷺ: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ على العموم، فهم خلقوا غير عالمين ولا عارفين شيئاً يخلون عن العلم والمعرفة ولا يهتدون سبيلاً.

* الحواس خلقت للإنسان وهو في بطن أمه، وقوله ﷺ: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ كلام تام، ثم ابتدئ: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾، أو أن الواو لا تفيد الترتيب، والعرب تقدم وتؤخر في بعض كلامها، وحمل آخرون السمع على الاستماع والأبصار على الرؤية، أو أنه لما كان الانتفاع بهذه الحواس بعد الخروج من البطن، فكأنما خلقت ذلك الوقت الذي ينتفع بها فيه.

* لما ذكر الحق ﷺ مسألة الخلق ناسب أن يذكر السمع والأبصار والأفئدة؛ لأن الإنسان يولد من بطن أمه لا يعلم شيئاً، وبهذه الأعضاء والحواس يتعلم ويكتسب المعلومات والخبرات.

* علل المفسرون لتقديم الله ﷻ السمع على البصر أن السمع آلة لتلقي المعارف التي بها كمال العقل، وهو وسيلة بلوغ دعوة الأنبياء إلى أفهام الأمم على وجه أكمل، والسمع ترد إليه الأصوات من الجهات الست دون توجه، وإدراك السمع أقدم من إدراك البصر، والسمع أنفع للقلب، وأشد تأثيراً فيه، وأعم نفعاً في الدين.

* ذكر المفسرون في حكمة أفراد السمع وجمع الأبصار التالي:

أ- السمع مصدر سمع سمعاً، والمصدر إذا جعل اسماً ذكر وأفرد.

ب- متعلق السمع الأصوات وهي حقيقة واحدة، ومتعلق البصر الألوان والأكوان وهي حقائق مختلفة.

ج- السمع قوة واحدة، ولها محل واحد، ولا اختيار لها فيه، وأما الإبصار فللعين فيه اختيار، كذلك الفؤاد محل الإدراك وله نوع اختيار يلتف إلى ما يريد.

د- الأذن ليس لها غطاء يحجب عنها الأصوات خلافاً للعين.

* تقديم السمع والأبصار على الأفتدة؛ لتقدم الظاهر على الباطن، أو لأن لهما مدخلاً في إدراكه في الجملة، أو لأن مدركاتهما أقل قليل بالنسبة إلى مدركاته الكثيرة.

وأما قوله ﷺ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، المراد شكر المنعم ﷻ على ما أنعم به من نعم عظيمة لا تحصى ومنها نعمة هذه الحواس، وشكر النعم باستعمالها فيما خلقت له ومن أجله، وفي كل ما من شأنه أن يعين المخلوق على أداء حق الخالق ﷻ.

* يولد الإنسان بذاكرة ناصعة البياض، خالية من المعلومات.

* على الرغم من أن جميع مراكز الحس عند الجنين تبدأ في التخلق منذ المراحل الأولى لوجوده، إلا أنها لا تستخدم إلا بعد الميلاد، غير أن السمع ينشط والإنسان لا يزال جنيناً في بطن أمه، ويبقى ذلك محدوداً بحدود سماع نبضات قلب أمه وصوت حركة كل من رئتيها وأمعائها، دون أدنى وعي حقيقي بذلك.

* ثبت علمياً ما يفسر حكمة تقديم السمع على البصر، ومن ذلك:

أ- أن المولود يتعلم بالسمع أضعاف ما يتعلمه بواسطة البصر.

ب- الأصم منذ الولادة لا يستطيع أن يتعلم اللغة والكلام أبداً فهو أبكم أيضاً، بينما المولود بدون نعمة البصر يستطيع أن يتعلم اللغة والكلام.

ج- حاسة السمع يتم تخلقها وعملها قبل حاسة الإبصار بفترة طويلة.

- د- ثبت بالتجربة أن الطفل يتعلم بالسمع قبل أن يستطيع القراءة بوقت طويل، وأن تعلمه بالسمع أيسر، وأن المعلومات السمعية أبقى في الذاكرة.
- هـ- يفقد الإنسان البصر قبل السمع عند النوم وفي حالات الغيبوبة.
- و- يستطيع الإنسان تلقي الموجات الصوتية من جميع الاتجاهات والارتفاعات عبر (٣٦٠)° من حوله، بينما يتلقى الموجات الضوئية إذا ثبت رأسه في مستوى واحد عبر (١٨٠)° أفقياً، و(١٤٥)° عمودياً، وتقل قدرته على تمييز الألوان كلما اتسعت دائرة الرؤية، والموجات الضوئية لا تستطيع اختراق الأجسام المعتمة ولا الالتفاف حولها، بينما تتحرك الموجات الصوتية في كل الاتجاهات، وحول الزوايا والأركان، وعبر العديد من الغازات والسوائل والجوامد، تبعاً لشدة الصوت.
- ز- مركز السمع يقع في الفص الصدغي للمخ، بينما يقع مركز الإبصار في الفص المؤخري في آخر المخ، أي أن مراكز السمع تتقدم على مراكز الإبصار.
- * ترتبط الأذنين بكل من منطقتين السمع في المخ مما يجعل الإنسان يسمع بأذنيه شيئاً واحداً في الوقت الواحد، وفي منطقة الإبصار يرتبط كل نصف عين من العينين بالنصف المعاكس له من منطقة الإبصار مما يُمكن العين الواحدة من رؤية الشيء الواحد والعديد من الأشياء في آن واحد، وهذا يقدم لنا تفسيراً علمياً للحكمة من الأفراد في السمع والجمع في الأبصار في آيات القرآن الكريم.
- * لما كانت الأوصاف التي وصف القرآن بها الفؤاد هي نتاج المعرفة التي من وسائلها كل من السمع والبصر جاء التقديم لها عليه، فاكتماب العلم يحصل بعد الانتقال من مرحلة الإدراك الحسى بالسمع والبصر إلى مرحلة الإدراك التعقلي.
- * من الوجهة الوظيفية فإن حاسة السمع أهم من حاسة البصر في تنمية القدرات العقلية والشعورية عند الطفل.

ومن خلال الدراسة التفسيرية والعلمية تظهر الآثار التالية:

- * الجوانب العلمية تقوي القول بالعموم في قوله ﷺ: ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾؛ إذ يولد الإنسان بذاكرة ناصعة البياض، خالية من المعلومات.
- * الإعجاز البياني في كتاب الله ﷻ، في الجمع والإفراد، والتقديم والتأخير، بألفاظ معبرة، وكلمات مناسبة.
- * أضافت الحقائق العلمية بعض الأسرار والحكم إلى جانب ما ذكره المفسرون عن تقديم ذكر السمع على البصر في غالب آيات القرآن الكريم، وعن جمع الأبصار والأفئدة وإفراد السمع، وعن تقديم السمع والبصر على الفؤاد.
- * اعتبر مجموعة من الكتاب في الإعجاز العلمي أن هذه الحقائق العلمية الناصعة المتعددة، والتي لم تكن معروفة قبل أربعة عشر قرناً، ولم يعرف الكثير منها إلا في العقود الأخيرة من القرن العشرين، على أيدي متخصصين بعد جهد وعمر طويلين، واستخدموا أحدث الوسائل العلمية وأدقها، تبين بوضوح الإعجاز العلمي في الآيات التي قدمت السمع على البصر؛ لأسبقيته في الخلق، والتطور العضوي والوظيفي، وللمميزات الكثيرة لحس السمع على حس البصر، ولتقدم مركز السمع على البصر في الدماغ^(١)، فيستحيل أن يكون التزام هذا التقديم محض صدفة أو صناعة بشرية.

١- انظر: الإعجاز العلمي في آيات السمع والبصر للهلالى والليبيدي ص٣٩، والإعجاز العلمي في تقدم السمع على البصر للصعدي، على الرابط: <http://www.jameataleman.org/main/articles>.

الفصل الخامس : مباحث متفرقة في خلق الإنسان

وفيه ستة مباحث:

المبحث الأول: القرار المكين، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: القرار المكين في القرآن الكريم.

المطلب الثاني: القرار المكين في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة.

المطلب الثالث: ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها.

المبحث الثاني: علم ما في الأرحام، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: علم ما في الأرحام في القرآن الكريم.

المطلب الثاني: علم ما في الأرحام في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة.

المطلب الثالث: ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها.

المبحث الثالث: الظلمات الثلاث، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الظلمات الثلاث في القرآن الكريم.

المطلب الثاني: الظلمات الثلاث في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة.

المطلب الثالث: ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها.

المبحث الرابع: تسوية البنان، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تسوية البنان في القرآن الكريم.

المطلب الثاني: تسوية البنان في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة.

المطلب الثالث: ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها.

المبحث الخامس: مدة الحمل، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: مدة الحمل في القرآن الكريم.

المطلب الثاني: مدة الحمل في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة.

المطلب الثالث: نتائج الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها.

المبحث السادس: تيسير السبيل، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تيسير السبيل في القرآن الكريم.

المطلب الثاني: تيسير السبيل في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة.

المطلب الثالث: ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها.

المبحث الأول

القرار المكين

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول:

القرار المكين في القرآن الكريم.

المطلب الثاني:

القرار المكين في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة.

المطلب الثالث:

ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها.

المطلب الأول: القرار المكين في القرآن الكريم

الآيات الواردة:

قال الله ﷻ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾^(١).

وقال ﷻ: ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾^(٢).

وقال ﷻ: ﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾^(٣).

أقوال المفسرين:

قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾، ﴿جَعَلْنَاهُ﴾ عائد إلى جنس الإنسان نسل آدم^(٤) وإن كان لم يذكر؛ لدلالة المقام عليه^(٥)، وشهرة الأمر، وأن المعنى لا يصلح إلا له^(٦)، باعتبار أنه من السلالة^(٧)، كما في قوله ﷻ: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾^(٨)، والمعنى: جعلنا السلالة في قرار مكين، أي وضعناها فيه؛ حفظاً لها، ولذلك غير في الآية التعبير عن فعل الخلق إلى فعل الجعل المتعدي بفي بمعنى الوضع^(٩)،

١- سورة المؤمنون: الآية ١٣.

٢- سورة الحج: الآية ٥.

٣- سورة المرسلات: الآية ٢١.

٤- انظر: جامع البيان للطبري ١٦/١٩، ومعالم التنزيل للبغوي ٣/٣٦١، وزاد المسير لابن الجوزي ٥/٤٦٢، ولباب التأويل للخازن ٥/٣٣، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/٢٩٥، وتفسير الجلالين ص ٤٤٦، وفتح القدير للشوكاني ٣/٥٦٤، وتيسير الكريم الرحمن للسعدي ص ٥٤٨، وأضواء البيان للشنقيطي ٥/٣٢٣.

٥- انظر: أضواء البيان للشنقيطي ٥/٣٢٣.

٦- انظر: البحر المحيط في التفسير لأبي حيان ٦/٣٦٨، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٢/١٠٩.

٧- انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور ١٨/٢٠.

٨- سورة السجدة: الآيتان ٧، ٨.

٩- انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور ١٨/٢٠.

والقرار في الأصل: مصدر (قَرَّ) إذا ثبت في مكانه^(١)، والقرار المستقر، وهو موضع الاستقرار، وقد سمي به هنا المكان نفسه الذي هو الرحم^(٢)، ووصفت الرحم بالمكين، وذكر المفسرون في سبب وصفها بذلك قولين:

القول الأول: لمكانتها في نفسها، فإنها مكنت حيث هي وأحزرت^(٣)، وهذا على الحقيقة، والمراد: الرحم معد لذلك مهياً له^(٤)، يقول الطبري: «ثم جعلنا الإنسان الذي جعلناه من سلالة من طين، نطفة في قرار مكين، هو حيث استقرت فيه نطفة الرجل من رحم المرأة، ووصفه بأنه مكين؛ لأنه مكن لذلك، وهياً له، ليستقر فيه إلى بلوغ أمره الذي جعله له قراراً»^(٥).

القول الثاني: على الإسناد المجازي باعتبار المستقر فيها، كقولك: طريق سائر^(٦)، يقول ابن جزي: «يعني رحم الأم، ومعنى **مَكِينٌ**: متمكن، وذلك في الحقيقة من صفة النطفة المستقرة، لا من صفة المحل المستقر فيه، ولكنه كقولك طريق سائر: أي يسير الناس فيه»^(٧)، ويقول ابن عاشور: «فمقتضى الظاهر أن

١- القرار في اللغة من قَرَّ الشيء (قَرّاً) من باب ضرب استقر بالمكان، والاسم (القَرَارُ)، ومنه قيل لليوم الأول من أيام التشريق (يوم القَرِّ)؛ لأن الناس (يَقْرُونَ) في منى للنحر، و(الاستِقْرَارُ) التمكن، و(قَرَارُ) الأرض المستقر الثابت. انظر: الصحاح للجوهري ٣/٣٥٢، ومفردات القرآن للراغب ص ٦٦٢، والمصباح المنير ٢/٤٩٦. يقول ابن قارس: «قَرَّ: القاف والراء أصلان صحيحان، يدل أحدهما على برد، والآخر على تمكّن... يقال قَرَّ واستقرَّ». معجم مقاييس اللغة ٥/٧.

٢- انظر: غرائب القرآن ورجائب الفرقان للنيسابوري ٥/١١٢، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل ١٤/١٧٨، والتحرير والتنوير لابن عاشور ١٨/٢٠.

٣- انظر: معالم التنزيل في تفسير القرآن ٣/٣٦١، وزاد المسير في علم التفسير ٥/٤٦٢.

٤- انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/٢٩٥.

٥- جامع البيان في تأويل القرآن للطبري ١٩/١٦.

٦- انظر: روح البيان لحقي ٦/٥٠، والبحر المديد لابن عجيبة ٥/٩.

٧- التسهيل لعلوم التنزيل ٢/٤٩.

يوصف بالمكين الشيء الحال في المكان الثابت فيه، وقد وقع هنا وصفاً لنفس المكان الذي استقرت فيه النطفة؛ على طريقة المجاز العقلي للمبالغة، وحقيقته مكين حاله»^(١). غير أن هناك من المفسرين من ذكر كلا القولين السابقين وعطف بينهما بحرف العطف (أو) والذي قد يحتمل إرادة كلا المعنيين إن كانت (أو) للإباحة التي يمكن فيها الجمع بين المتعاطفين^(٢)، يقول الزمخشري: «القرار: المستقر، والمراد الرحم، وصفت بالمكانة التي هي صفة المستقر فيها، كقولك طريق سائر، أو بمكانتها في نفسها؛ لأنها مكنت بحيث هي وأحرزت»^(٣)، وقال الرازي: «والمراد بالقرار: موضع القرار وهو المستقر، فسماه بالمصدر، ثم وصف الرحم بالمكانة التي هي صفة المستقر فيها كقولك طريق سائر، أو لمكانتها في نفسها لأنها تمكنت من حيث هي وأحرزت»^(٤)، وقال أبو حيان: «والمكين: المتمكن، وصف القرار به؛ لتمكنه في نفسه بحيث لا يعرض له اختلال، أو لتمكن من يحل فيه، فوصف بذلك على سبيل المجاز، كقوله طريق سائر لكونه يسار فيه»^(٥)(٦).

ويرد على هذا الأخير أن الأصل حمل الكلام على الحقيقة^(٧)، إلا أن يقال بإمكان الجمع بينهما كما ذهب إليه البعض^(٨)، أو يقال هذا الأصل عارضه ظاهر

١- التحرير والتنوير ٢٠/١٨.

٢- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ٣/٣٧٧.

٣- تفسير الكشاف ٣/١٨١.

٤- مفاتيح الغيب للرازي ٢٣/٧٤.

٥- البحر المحيط في التفسير ٦/٣٦٨.

٦- وانظر كذلك: غرائب القرآن و رغائب الفرقان للنيسابوري ٥/١١٢، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل

١٤/١٧٨، وإرشاد العقل السليم لأبي السعود ٦/١٢٦، وأضواء البيان للشنقيطي ٥/٣٢٤.

٧- انظر: المحصول للرازي ١/٣٤١، والأشباه والنظائر لابن نجيم ص ٥٩، والأشباه والنظائر للسيوطي

ص ٦٣، والوجيز في إيضاح قواعد الفقه الكلية ص ٣١٧.

٨- انظر: روضة الناظر وجنة المناظر ١/٥٠٢.

آخر كما قال ابن عاشور: «فمقتضى الظاهر أن يوصف بالمكين الشيء الحال في المكان الثابت فيه... وحقيقته مكين حاله»^(١)(٢).

أما قوله ﷺ: ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِنَّ أَحْلَى مُسَمًّى﴾^(٣)، أي ونبقي في الأرحام من نشاء حياته فلا يسقط، إلى وقت ولادته وخروجه من بطن أمه، فيخرج طفلاً^(٤)، يقول الطبري: «يقول تعالى ذكره: من كنا كتبنا له بقاء وحياة إلى أمد وغاية، فإننا نقره في رحم أمه إلى وقته الذي جعلنا له أن يمكث في رحمها، فلا تسقطه، ولا يخرج منها حتى يبلغ أجله، فإذا بلغ وقت خروجه من رحمها أذننا له بالخروج منها، فيخرج»^(٥)، ويقول البغوي: ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ﴾، فلا تمجه ولا تسقطه، ﴿إِنَّ أَحْلَى مُسَمًّى﴾، إلى وقت خروجها من الرحم تامة الخلق

١- التحرير والتنوير ٢٠/١٨.

٢- قال الإمام النووي: «ونكر جماعة من متأخري أصحابنا الخراسانيين أن كل مسألة تعارض فيها أصل وظاهر، أو أصلان، ففيها قولان... وهذا الإطلاق الذي ذكره ليس على ظاهره، ولم يريدوا حقيقة الإطلاق؛ فإن لنا مسائل يعمل فيها بالظن [الظاهر] بلا خلاف: كشهادة عدلين فإنها تقيد الظن ويعمل بها بالإجماع ولا ينظر إلى أصلى براءة الذمة... ومسائل يعمل فيها بالأصل بلا خلاف: كمن ظن أنه طلق أو أهدت أو أعتق أو صلى أربعاً لا ثلاثاً فإنه يعمل فيها كلها بالأصل وهو البقاء على الطهارة وعدم الطلاق والعتق والركعة الرابعة واشتباهاها، بل الصواب في الضابط ما حرره الشيخ أبو عمرو بن الصلاح فقال: إذا تعارض أصلان، أو أصل وظاهر، وجب النظر في الترجيح، كما في تعارض الدليلين، فإن تردد في الراجح فهي مسائل القولين، وإن ترجح دليل الظاهر حكم به كإخبار عدل بالنجاسة وكبول الظبية، وإن ترجح دليل الأصل حكم به بلا خلاف». المجموع شرح المذهب ٢٠٦/١.

٣- سورة الحج: الآية ٥.

٤- انظر: تفسير مقاتل بن سليمان ٣٧٦/٢، وبحر العلوم للسمرقندي ٤٤٩/٢، والهداية إلى بلوغ النهاية لمكي ابن أبي طالب ٤٨٤٦/٧، وزاد المسير لابن الجوزي ٤٠٧/٥، ومفاتيح الغيب للرازي ٩/٢٣.

٥- جامع البيان في تأويل القرآن للطبري ١٨ / ٥٦٩.

والمدة»^(١)، وقال السعدي: «﴿وَنَقَرْنَا﴾»، أي: نبقي في الأرحام من الحمل الذي لم تقذفه الأرحام، ما نشاء إبقاءه ﴿إِلَّا أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾، وهو مدة الحمل»^(٢).

وأما قوله ﷺ: «﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مُّكِينٍ﴾»^(٣)، أي في مكان حريز^(٤)، وهو الرحم^(٥)، يقول ابن كثير: «يعني جمعناه في الرحم وهو قرار الماء من الرجل والمرأة، والرحم معد لذلك حافظ لما أودع فيه من الماء»^(٦)، وقال الرازي: «﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مُّكِينٍ﴾» وهو الرحم؛ لأن ما يخلق منه الولد لا بد وأن يثبت في الرحم ويتمكن، بخلاف ما لا يخلق منه الولد»^(٧).

-
- ١- معالم التنزيل في تفسير القرآن للبغوي ٣/٣٢٥، ولباب التأويل في معاني التنزيل للخازن ٥/٤.
 - ٢- تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ٥٣٣.
 - ٣- سورة المرسلات: الآية ٢١.
 - ٤- الحريز: الحصين، يقال: حرز حريز: أي موضع حصين. انظر: مختار الصحاح للرازي ص ١٦٧، وتاج العروس للزبيدي ١٥/٩٩، والمعجم الوسيط ١/١٦٦.
 - ٥- انظر: تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ٢/١٢٢، الجامع لأحكام القرآن القرطبي ١٩/١٦٠، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل ٢٠/٧٣، وتفسير الجلالين ص ٧٨٥، وفتح القدير للشوكاني ٥/٤٣٢، وتفسير السراج المنير للشربيني ٤/٣٣٨، ومراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد للتتاري ٢/٥٩٢.
 - ٦- تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/٥٥٤.
 - ٧- مفاتيح الغيب للرازي ٣٠/٢٣٩، وانظر: غرائب القرآن و رغائب الفرقان للنيسابوري ٦/٤٢٣.

المطلب الثاني: القرار المكين في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة

الرحم عضو أجوف عضلي، ذو جدار ثخين ومتين، يقع في منتصف جسم المرأة^(١) فوق المثانة والجزء العلوي من المهبل، كمثري الشكل في ثلثيه العلويين، واسطواني في ثلثه الأسفل، ويضيق قليلاً عند نهايته السفلى التي تمتد إلى الجزء العلوي من فراغ المهبل، مما يساعد على تثبيت الرحم في موضعه، ويتكون جداره من ثلاث طبقات ثلاث: خارجية رقيقة من مادة البريتون، ووسطى سميكة مكونة من مواد عضلية في ثلاث طبقات من الألياف، وداخلية غشائية، ويحاط عنق الرحم والجزء العلوي من المهبل بنسيج خلوي ضام يربط الرحم بكل من الهبل والمثانة^(٢).

وإذا تلقت البويضة تبدء غدد غشاء الرحم المخاطي ازدياداً في فعاليتها الإفرازية، وتطلق منتجاتها من فتحاتها العديدة على سطح هذه الطبقة واللازمة لتغذية هذه الخلايا الجنينية، وتصبح الشرايين التي تروي الطبقتين الكثيفة والإسفنجية ملتوية، وتشكل فراشاً وعائياً كثيفاً، يتوضع تحت بشرة الرحم مباشرة، لذلك يصبح غشاء الرحم المخاطي شديد التوذم (التورم)، ومستعداً لاستقبال البويضة الملقحة، التي تصل إلى جوف الرحم تسبح في مفرزاته، ثم تتغرس وتعلق وتعشش في بطانة الرحم، ومن ثم تبدأ بإفراز هرمونات خاصة بها تدعى الهرمونات الجنينية ويطلق عليها: المنميات التناسلية الزغابية الإنسانية (H.C.G.T)، وهي تحافظ على الجسم الأصفر ليستمر في إفراز هرمونات

١- يقع في الوسط الهندسي تماماً من جسم المرأة، فلو أخذ خط منصف طولي، وخط منصف عرضي لكان موقع الرحم في تقاطع الخطين، انظر: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة للنابلسي ص ١٦٢.
٢- انظر: موسوعة جسم الإنسان الشاملة لأحمد الخطيب ويوسف سليمان ص ١٨٦، وخلق الإنسان بين الطب والقرآن للبار ص ٤١، ٤٢، وخلق الإنسان في القرآن الكريم للنجار ص ٢١٩.

المبيض (البروجسترون) و(الإستروجين) التي تؤدي إلى استمرار نمو وإفراز بطانة الرحم، وتبقيه في طور الإفراز؛ لذلك لا يحصل انقطاع هرموني عنها، وبالتالي تصبح بطانة الرحم مستقرة صالحة لتعشيش بذرة الجنين، وتدعى الطبقتان السطحية والإسفنجية من غشاء الرحم المخاطي بعد اكتمال تعشيش البويضة الملقحة باسم الغشاء الساقط -يسقط بسقوط الجنين أو ولادته^(١).

فوصف الرحم بالقرار المكين في القرآن بعد ذكر النطفة، فيه إشارة إلى معنى دقيق، فلولا أن الرحم قرار مكين، ما تمكنت النطفة من الانغراس فيه ثم التعلق به، وما أخذت بالتالي اسم العلقة، فالرحم كان قراراً مكيناً قبل أن تحل فيه النطفة، فلما حلت به تمكنت من الانغراس فيه ثم التعلق واكتساب الوصف الجديد، فالرحم يستكمل مقومات هذا الوصف بالاستعدادات التي تتم فيه قبل وصول البويضة الملقحة، حيث تضاف إلى ما زود به أصلاً في تركيبه، فكلمة (قرار) تشير إلى ما يوفر للنطفة الاستقرار، وأهم ما يوفر الاستقرار للنطفة جدار الرحم الداخلي^(٢).

ويشهد الرحم خلال فترة الحمل عدة تغيرات في تركيبه ووظيفته، ومنها:

١- يزداد في وزنه إلى حوالي الكيلو جرام بعدما كان لا يزيد عن خمسين جراماً قبل الحمل، أما محتوياته فتزن خمسة آلاف جرام، أي وزنه بمحتوياته يزيد أكثر من مائة مرة، ويزداد حجمه ليستوعب سرعة نمو الجنين، وعند الأسبوع (٢٠) يصل كل من الجنين والرحم مستوى السرة، وعند الأسبوع (٣٠) يصل المنطقة الشرسوفية (لبة القلب) وتتحرك أحشاء الأم من مكانها وتشهد عضلات وجلد جدار البطن الأمامي تمدداً كبيراً، ويتسع ليتلاءم مع نمو الجنين، وتوفر له هذه التغيرات

١- انظر: أثر بحوث الإعجاز العلمي في بعض القضايا الفقهية، ضمن بحوث المؤتمر الثامن للإعجاز

بالكويت، العلوم الطبية ٣٥/١، وطفلك من الحمل إلى الولادة لسبيرو فاخوري ص ١٥٢.

٢- انظر: دليل الأنفس بين القرآن الكريم والعلم الحديث لمحمد عز الدين توفيق ص ١٠٨، ١٠٩.

من الاتساع ما يكفل احتواء ٥ لترات، والرحم هو العضو الوحيد في جسم الانسان القابل للتغير السريع من حال إلى حال، وهو بذلك أسرع نمو يعرفه جسم الانسان. ٢- كلما اتسع الرحم في حجمه، ازداد سمك جداره، ولو كان يتمدد دون أن يزداد سمك جداره لرق الجدار وضعف، ولو كان غير قابل للاتساع لضاق بالجنين قبل اكتمال نموه.

٣- وفي سبيل إمداد الجنين باحتياجاته من الأكسجين، والمغذيات الأخرى، يزداد معدل سريان الدم في الرحم ليبلغ ٥٠٠ مليلتر/دقيقة، وربما وصل هذا إلى اللتر للدقيقة الواحدة في حالة الحمل بالتوائم.

٤- يؤثر هرمون الحمل (البروجسترون) على تقلصات عضلات الرحم، فيجعلها منتددة وقوية تفيد في تعديل وضعية الجنين داخل الرحم، بدلاً من تلك الحركات اللزقة التي يسببها هرمون الأنوثة (الايستروجين) ولا شك أن لهرمون الحمل (البروجسترون) تأثيراً هاماً في استقرار الرحم في فترة الحمل حتى لا يقذف الرحم بالجنين، وخاصة في أشهره الأولى^(١).

وكل هذه التغيرات في تركيبية ووظيفة الرحم؛ ليكون أكثر ملاءمة لاحتياجات الجنين الذي يحتويه^(٢).

١- انظر: علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة للزنداني وآخرين ص ٥٥، ٥٦، ودليل الأنفس لمحمد عز الدين ص ١٠٩، وخلق الإنسان بين العلم والقرآن للرقعي ص ٧٧، وخلق الإنسان بين الطب والقرآن للبار ص ٤١، ٦٧، ومع الطب في القرآن الكريم لدياب وقرقوز ص ٩٠.
٢- انظر: خلق الإنسان بين العلم والقرآن للرقعي ص ٧٧.

ويحاط الجنين بعدة طبقات بعد السائل الأمنيوسي، وهي: الغشاء الأمنيوسي المندمج بالمشيمة^(١)، وطبقة العضلات السميكة للرحم، ثم جدار البطن^(٢)، وكل هذا يمد الجنين بمكان مناسب للاستقرار وللنمو الجيد^(٣).

وهكذا فإن كلمة (قرار) قد استعملت في القرآن الكريم لكل هذه المعاني وغيرها، متضمنة وظائف الرحم باعتباره مكاناً مناسباً لاستقرار الجنين وتمكينه من مواصلة نموه، وقد جمع هذا اللفظ كل الحقائق التي اكتشفها العلم، لبيان مناسبة الرحم

١- يحيط بالجنين ثلاثة أغشية تمثل في مجموعها نسيجاً لحمياً منيعاً:

(أ) غشاء السلى أو الأمنيون: عبارة عن كيس غشائي رقيق ومقفل يحيط بالجنين إحاطة تامة، وبه سائل يزداد مع نمو الجنين، ويسمح له بالحركة الكاملة داخل الرحم، فيقلب وسط هذا السائل يمنة ويسرة ورأساً على عقب، ويمسك بالحبل السري وهو في أمان تام، وللسائل الأمنيوسي فوائد جمّة، هي: (تغذية الجنين بما يحتوي عليه من مواد زلالية وسكرية وأملاح غير عضوية يمتصها الجنين، وحماية الجنين ووقايته من الصدمات المفاجئة والحركات والسقطات التي تتعرض لها الأم، ويحتفظ للجنين بحرارة ثابتة تقريباً، فهو مكيف جيد بحيث لا تزيد الحرارة ولا تقل إلا في حدود ضئيلة جداً، ويمنع هذا السائل الغشاء الأمنيوسي من الالتصاق بالجنين؛ لأن هذا الالتصاق من العوامل الهامة في حدوث التشوهات الخلقية).

(ب) غشاء الكوريون (الغشاء المشيمي) الذي تصدر عنه الزغابات الكوريونية التي تنغرس في مخاطية الرحم، وعن طريقها ينتقل الغذاء والأكسجين من الأم إلى الجنين، وتخرج البولينا وثاني أكسيد الكربون إلى دم الأم.

(ج) الغشاء الساقط: مكون من الغشاء المخاطي المبطن للرحم، وسمي ذلك لأنه يسقط مع الجنين عند الولادة. انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن للبار ص ٤٢٣-٤٢٧، ومع الطب في القرآن الكريم لدياب وقرقوز ص ٨٧، رحلة الإيمان في جسم الإنسان، لحامد أحمد ص ٩٩.

٢- يحيط جدار الرحم بالأغشية الثلاثة السابقة في الحاشية (١)، ويتكون جدار الرحم كذلك من ثلاث طبقات: (الغشاء البريتوني، والطبقة العضلية، والطبقة المبطننة لغشاء الرحم)، ويحيط بالرحم عضلات جدار البطن الثلاث: (العضلة المائلة الداخلية، والخارجية، والعضلة المستعرضة). وذلك يوفر قراراً وأماناً للجنين. انظر: رحلة الإيمان في جسم الإنسان، لحامد أحمد ص ٩٩.

٣- انظر: علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة للزنداني وآخرين ص ٥٦.

لاستقرار الجنين، فهو لفظ معبر جامع، يشير إلى العلاقة بين الجنين والرحم، فالرحم مكان لاستقرار الجنين وسكنه طوال فترة الحمل، على الرغم من أن طبيعة الجسم أن يطرد أي جسم خارجي، إلا أن الرحم يأوي الجنين ويغذيه^(١).

أما مكين فتعني المثبت بقوة، وهذا يشير إلى علاقة الرحم بجسم الأم، وموقعه المثالي لتخلق ونمو كائن جديد، فهو يقع في وسط الجسم، وفي مركز الحوض^(٢)، وهناك بعض العوامل التي تحفظ الرحم في مكانه، وتجعله قراراً مكيناً، ومنها:

١- الحوض العظمي، إذ يتكون الحوض من مجموعة من العظام متصلة ببعضها البعض اتصالاً دقيقاً محكماً، تجلعه على متانة تحفظ في الأنثى أجهزتها التناسلية الهامة (الرحم-المبيض-قناتي الرحم-المهبل)، فالحوض العظمي يحفظ الرحم بداخله بحيث لا يصله شيء من الكدمات والهزات التي تتعرض لها المرأة، بل لو أصيبت المرأة في حادث أو سقطت من شاهق، فإننا نجد الرحم في أغلب الأحوال سليماً لم يمسه سوء، ومع متانة الحوض العظمي فإن له مفاصل أربعة يمكن من خلالها أن يتحرك قليلاً حتى يزداد اتساعه وخاصة عند الحمل والولادة، إذ يكون مستعداً لنمو الرحم نمواً هائلاً، كما أنه يتقبل إخراج الجنين ومتعلقاته كالمشيمة والأغشية إلى العالم الخارجي أثناء الولادة.

٢- عضلات الحوض والعجان، إذ تساهمان مساهمة فعالة في حفظ أعضاء الحوض، وأهمها الرحم ومتعلقاته، وهناك عضلات كثيرة متصلة بالحوض، إلا أن أهم العضلات المسؤولة عن حفظ الرحم والشرج والمثانة عضلة الرافعة للشرج، والعضلة العصصية، وهما يكونان الحجاب الحاجز للحوض بمساعدة الصفاقات،

١- انظر: علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة للزندان وآخرين ص ٥٥، ٥٦.

٢- انظر: علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة ص ٥٦، وموسوعة جسم الإنسان الشاملة لأحمد الخطيب ويوسف سليمان ص ١٨٦.

وتحفظان أعضاء الحوض في أماكنها المحدودة والمرسومة ضد العوامل المختلفة الطارئة والدائبة^(١).

٣- صفاقات الحوض، إذ يشتمل الحوض على نسيج ليفي غشائي يحيط بأعضاء الحوض وعضلاته وأوعيته، وتربط هذه الصفاقات أعضاء الحوض بعضها ببعض وتعرف بالأربطة الحقيقية ويتخللها نسيج عضلي غير إرادي، وتعرف الصفاقات التي تغطي الرحم والمثانة والمستقيم والقناة الشرجية بالصفاقات الحشوية؛ لأنها تغطي الأحشاء.

٤- توازن الضغط الموجود بتجويف البطن وتجويف الحوض، إذ يتولد ضغط في تجويف البطن نتيجة تقلصات عضلات الحجاب الحاجز وعضلات جدار البطن، ويدفع ذلك الضغط أعضاء الحوض، ومنها الرحم إلى أسفل، ويقابل ذلك الضغط من أعلى ضغط من أسفل نتيجة تقلص عضلات العجان مثل العضلات الرافعة للشرح فتدفع بالرحم إلى أعلى، ونتيجة لتوازن هذا الضغط يبقى الرحم في مكانه.

٥- عنق المهبل: يتصل الرحم بواسطة عنقه بالمهبل، ونتيجة لهذا الاتصال يبقى الرحم في مكانه.

٦- مساندة الأعضاء الأخرى في تجويف الحوض، فامتلاء الحوض بالأعضاء مثل المثانة ومتعلقاتها، ونهاية القناة الهضمية (المستقيم-القناة الشرجية) والأوعية الدموية واللمفاوية، والأعصاب، كلها تساهم في حفظ الرحم في مكانه^(٢).

١- انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن للبار ص ٥٧-٦٢، ومع الطب في القرآن لدياب وقرقرز ص ٨٩،

والهندسة الوراثية لمحمد محمود ص ٢٩٥، ٢٩٦، ٢٢٩، وخلق الإنسان في القرآن للنجار ص ٢١٩.

٢- انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن للطبيب محمد علي البار ص ٦٣-٦٦.

٧- أربطة الرحم: للرحم مجموعة أربطة يساند بعضها البعض لحفظ الرحم في موضعه الطبيعي، كما أنها في نفس الوقت تسمح له بالحركة الحقيقية، كما تسمح له بالنمو الهائل في فترة الحمل بحيث يتضاعف حجم الرحم آلاف المرات في نهاية الحمل عما كان عليه قبيل الحمل، وبحيث يملأ الرحم تجويف البطن حتى يصل إلى عظمة القص، ولكأنما الرحم جسر معلق تربطه مجموعة محكمة من الأربطة والأعمدة المتينة المحكمة^(١).

فلفظ (مكين) لفظ جامع معبر عن كل المعاني التي تبين تمكن الرحم وتثبيتته في جسم الأم^(٢)، ويشير هذا اللفظ إلى ما يوفر الحماية للجنين، وأهم ما يوفر له الحماية موقع الرحم العام داخل جسم المرأة^(٣).

وهكذا فإن كل وصف يتضمن العلاقة بين الجنين والرحم وبين الرحم وجسم الأم، قد أدخل في معنى الكلمتين (قرار) و(مكين) اللتين تعبران تعبيراً تاماً عن حقيقة الرحم ووظائفه الدقيقة، ولا يتفطن إلى أهمية هذين الوصفين إلا من له علم بحاجات نمو الجنين، وحاجات الرحم، لمواكبة هذا النمو حتى يخرج سليماً^(٤).

وذهب عدنان الشريف إلى أن للقرار المكين ثلاثة معان هي:

١- رحم الأم: حيث تستقر النطفة لمدة تسعة أشهر، شرط أن نفهم أن النطفة

في قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾^(٥)، والماء المهين في قوله ﷻ:

١- انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن للبار ص ٦٤، ومع الطب في القرآن لدياب وقرقوز ص ٨٩، وخلق

الإنسان في القرآن للنجار ص ٢١٩، والموسوعة العلمية في إجاز القرآن الكريم والسنة النبوية لمري ص ١٥٨.

٢- انظر: علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة للزنداني وآخرين ص ٥٦.

٣- انظر: دليل الأنفس بين القرآن الكريم والعلم الحديث لمحمد عز الدين توفيق ص ١٠٩.

٤- انظر: علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة للزنداني وآخرين ص ٥٦.

٥- سورة المؤمنون: الآية ١٣.

﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾^(١)، هو الطور الأول من تخلق الجنين الذي يمتد من بدء الحمل حتى اليوم السادس؛ لأن في الرحم لا يستقر ويحيا إلا البويضة الملقحة، أما الحيوانات المنوية أو البويضة غير الملقحة فسرعان ما تموت إذا لم تتلقح في أنبوب الرحم.

٢- مبيض المرأة: شرط أن نفهم معنى النطفة في الآيات (ماء المرأة)، فمن الوجهة العلمية يستقر ماء المرأة (نطفها) في المبيض منذ الشهر الرابع من حياتها، ثم تخرج دورياً من المبيض مرة في كل شهر بعد البلوغ، والمبيض يحوي ما يقرب من مليوني بويضة، لا يبقى منها إلا آلاف (٣٠ ألف تقريباً) عند بلوغها، ويخرج من المبيض أربعمئة بويضة تقريباً خلال فترة خصوبة المرأة.

٣- الحويصلة المنوية: شرط أن نفهم معنى النطفة في الآيات (ماء الرجل) فمن الوجهة العلمية، يستقر ماء الرجل الذي تفرزه الخصيتان بصورة دائمة منذ بلوغه سن البلوغ في الحويصلة المنوية.

فسواءً كان القرار المكين (الرحم، المبيضان، الحويصلة المنوية) فعلم التشريح يبين كيف أنها أعضاء في قرار مكين، أي: في الحوض، وهي في نفس الوقت قرار مكين آمن لاستقرار النطف التي تبقى في هذه الأعضاء لوقت معلوم محدد^(٢).

وذهب كريم حسنين إلى أن مدلول التعبير القرآني (قرار مكين) هو غدد التناسل في الإنسان (الخصيتان) في الذكر و(المبيضان) في الأنثى، على اعتبار أن غدد

١- سورة المرسلات: الآية ٢١.

٢- انظر: من علم الطب القرآني لعدنان الشريف ص ٤٠، ٤١.

التناسل هي مستقر النطف ومنبعها في جسد الإنسان، وأن الضمير في ﴿جَعَلْنَاهُ﴾ يعود على (الماء المهين)، وأن لفظة (قرار) لغوياً هو مستقر ومصدر للماء. ويجاب عن قولهما بالتالي:

١- ما قالاه يخالف الذي عليه جميع المفسرين كما مر في جانب التفسير، إذ جميعهم يذكر أن المراد بذلك الرحم.

٢- أن الضمير في قوله ﷻ: ﴿جَعَلْنَاهُ﴾ عائد على الإنسان، و﴿نُطْفَةٌ﴾ عائد على الأمشاج، وهي أول طور لتخلق الجنين البشري الذي يستقر في الرحم، وما قبل الأمشاج -نطفة الرجل وحدها ونطفة المرأة وحدها- لا يسمى جنيناً، وبالتالي لا يطلق عليه أنه إنسان.

٣- قول الله تعالى: ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ آجَلٍ مُّسَمًّى﴾^(١)، ذكر الله في هذه الآية أن القرار يكون مكانه في الرحم^(٢)، ولا يستقر في الرحم إلا النطفة الأمشاج (البويضة الملقحة)، أما الحيوان المنوي، أو البويضة بدون تلقيح فلا تستقر فيه.

وعليه فإن الراجح هو القول إن القرار المكين هو الرحم^(٣).

١- سورة الحج: الآية ٥.

٢- انظر: خلق الإنسان في القرآن الكريم لزغلول النجار ص ٢١٩.

٣- ويرى زغلول النجار إمكانية قبول ما ذهب إليه كريم حسنين [ومثله عدنان الشريف]، وإن كان خلاف الأولى بالاتباع؛ لأن خلق الله مقدر بدقة سواء في الرحم، أو في غدد التناسل، أو في غيرهما من جميع أجزاء جسم الإنسان. انظر: خلق الإنسان في القرآن الكريم لزغلول النجار ص ٢١٩.

المطلب الثالث: ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها

من خلال الدراسة التفسيرية والعلمية يتلخص ما يلي:

* ضمير ﴿جَعَلْنَاهُ﴾ في قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾، يرجع إلى جنس الإنسان، والمعنى: جعلنا السلالة في قرار مكين، ووضعناها فيه؛ حفظاً لها.
* ذكر المفسرون في سبب وصف الرحم بالمكين قولين: الأول: أنه على حقيقته وأنها لمكانتها في نفسها فإنها مكنت حيث هي وأحرزت، والثاني: على الإسناد المجازي باعتبار المستقر فيها، غير أن هناك من المفسرين من ذكر كلا القولين السابقين وعطف بينهما بحرف العطف (أو) والذي قد يحتمل إرادة كلا المعنيين إن كانت (أو) للإباحة التي يمكن فيها الجمع بين المتعاطفين.

* قوله ﷻ: ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ آجَلٍ مُّسَمًّى﴾، أي: ونبقي في الأرحام من نشاء حياته، فلا يسقط إلى وقت ولادته وخروجه من بطن أمه، فيخرج طفلاً.

* قوله ﷻ: ﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾، أي في مكان حريز حصين، وهو الرحم.
* الرحم عضو أجوف عضلي، ذو جدار ثخين، يقع في منتصف جسم المرأة، ويتكون جداره من ثلاث طبقات.

* إذا تلقت البويضة تبدء غدد غشاء الرحم المخاطي ازدياداً في فعاليتها الإفرازية، ليصبح هذا الغشاء شديد التوذم (التورم)، ومستعداً لاستقبال البويضة الملقحة التي تنغرس وتعلق وتعشش في بطانة الرحم، ومن ثم تبدأ بإفراز هرمونات خاصة لتحافظ على الجسم الأصفر ليستمر في إفراز هرمونات المبيض المؤدية إلى استمرار نمو وإفراز بطانة الرحم لتصبح مستقرة لتعشيش بذرة الجنين.

* خلال فترة الحمل تحدث عدة تغيرات في تركيبه ووظيفة الرحم ليكون أكثر ملاءمة لاحتياجات الجنين الذي يحتويه، ومنها: زيادة وزنه وحجمه ليستوعب

سرعة نمو الجنين، ومع اتساع حجمه يزداد سمك جداره، لئلا يرق جداره ويضعف، ويزداد معدل سريان الدم لإمداد الجنين باحتياجاته من أكسجين وغذاء، ولهرمون البروجسترون تأثيراً هاماً في استقرار الرحم في فترة الحمل، ويحاط الجنين بعدة طبقات بعد السائل الأمينوسي، وهي: الغشاء الأمينوسي المندمج بالمشيمة، وطبقة العضلات السمكية للرحم، ثم جدار البطن، وكلها يمد الجنين بمكان مناسب للاستقرار وللنمو الجيد، وعلى الرغم من أن طبيعة الجسم أن يطرد أي جسم خارجي، إلا أن الرحم يأوي الجنين ويغذيه.

* المكين المثبت بقوة، وهو يقع في وسط الجسم، وفي مركز الحوض، وهناك بعض العوامل التي تحفظ الرحم في مكانه، وتجعله قراراً مكيناً، ومنها: الحوض العظمي، وعضلات الحوض والعجان، وصفاقات الحوض، وتوازن الضغط الموجود بتجويف البطن وتجويف الحوض، وعنق المهبل، ومساندة الأعضاء الأخرى في تجويف الحوض، وأربطة الرحم.

* وصف القرآن الكريم المكان الذي تستقر فيه النطفة بوصفين جامعين معبرين (قرار) و(مكين)، فكلمة (قرار) في الآية الكريمة تشير إلى العلاقة بين الجنين والرحم، فالرحم (مكان لاستقرار الجنين)، أما (مكين) فتعني مثبت بقوة، وهذا يشير إلى علاقة الرحم بجسم الأم، وموقعه المثالي لتخلق ونمو كائن جديد^(١).

* الراجح هو القول إن القرار المكين هو الرحم، وعليه جميع المفسرين.

١- انظر: علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة للزنداني وآخرين ص ٥٥.

ومن خلال الدراسات التفسيرية والعلمية تظهر الآثار التالية:

* الحقائق العلمية تدل على ترجيح قول من قال من المفسرين: إن وصف الرحم بـ(مكين) على حقيقته، بالإضافة إلى أن ما أثبتته الحقائق العلمية من انغراس البويضة الملقحة في جدار الرحم بحيث تغور فيه وينطبق عليها حتى أنها فترة لا يعرف وجود الحمل فيها، ثم يتبع ذلك تعلقها بجدار الرحم بواسطة معاليق تدخل في جدار الرحم، يجعل من وصف الجنين في هذه الفترة بأنه مكين أمر ممكن، وبالتالي يصح المعنى المجازي إلى جوار المعنى الحقيقي، وهذا يشد من جانب قول من ذكر القولين من المفسرين عاطفاً بينهما بحرف (أو) الذي قد يفيد الإباحة التي يمكن فيها الجمع بين المتعاطفين، وهذا صنعه أكثر من ستة مفسرين.

* الإعجاز البياني، إذ استعملت كلمة (قرار) في القرآن الكريم متضمنة وظائف الرحم باعتباره مكاناً مناسباً لاستقرار الجنين وتمكينه من مواصلة نموه، كما جمع هذا اللفظ كل الحقائق التي اكتشفها العلم، لبيان مناسبة الرحم لاستقرار الجنين، فهو لفظ معبر جامع، كما استعملت كلمة (مكين) متضمنة لتمكن الرحم وتثبيته في جسم الأم، ليناسب الاستقرار والنمو الجيد للجنين، وأيضاً جمع هذا اللفظ كل الحقائق المكتشفة في تمكن الرحم وثبوته في جسم المرأة، فـ(قرار) و(مكين) كل منهما لفظ جامع شامل لمدلولات عدة وكثيرة كشفها العلم الحديث، وهذا من نوع الإعجاز البلاغي لألفاظ القرآن الكريم، لذا يقول مأمون شقفه: «أما وظيفة الرحم تجاه الحمل القادم إليها على شكل نطفة أمشاج (البويضة الملقحة) فيستحيل استحالة مطلقة وصفها بأبلغ من (القرار المكين)، فمهما استعرضنا الخدمات

المختلفة التي يقدمها الرحم للمخلوق الجديد، فإنها جميعها تتدرج تحت هاتين الكلمتين، ولن نجد شيئاً يقوم به الرحم خدمة للولد يخرج عن هذه العبارة»^(١).

* ظهور المعجزة العلمية: بمجئ هذا الوصف مناسباً وموضحاً للرحم من الناحيتين التشريحية والفسولوجية، وموافقاً بل وسابقاً لما توصل إليه علماء التشريح والأجنة، إذ يأخذ الرحم من الجسم موقعاً يجعله متمكناً وثابتاً بقوة، ويوفر من خلاله كامل الحماية للجنين، ويمده بكل ما يحتاج إليه بما هيأ عليه مما يجعله قراراً للجنين إلى موعد خروجه منه بإذن الله تعالى^(٢)، وكل هذا يدل على أن القرآن الكريم كلام رب البرية، أنزله معجزة لسيد البشرية، شاهداً على صدق الرسول والرسالة التي جاء بها؛ لهداية ونجاة وفلاح جميع البرية، يقول الطبيب مأمون شقفة عن وصف الرحم بالقرار المكين: «والله إن هذه العبارة وحدها كافية كدليل لا يرقى إليه الشك على أن القرآن الكريم من عند الله تعالى، وعلى أن قائلها هو نفسه الذي خلق الرحم، وأحاط بوظائفه جميعها علماً، بل إنه خلق الرحم وجعله قراراً وجعله مكيناً، وما وظائفه التي ندرسها في كتب الطب إلا تجسيد لهاتين الكلمتين»^(٣).

١- القرار المكين لمأمون شقفة ص ٤٩.

٢- انظر: خلق الإنسان بين العلم والقرآن للرقعي ص ٧٦، ٧٧.

٣- القرار المكين لمأمون شقفة ص ٤٩.

المبحث الثاني

علم ما في الأرحام

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول:

علم ما في الأرحام في القرآن الكريم.

المطلب الثاني:

علم ما في الأرحام في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة.

المطلب الثالث:

ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها.

المطلب الأول: علم ما في الأرحام في القرآن الكريم

الآيات الواردة

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^(١).

وقال ﷻ: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾^(٢).

وقال ﷻ: ﴿إِلَيْهِ يَرُدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ آيُنُ شُرَكَاءِي قَالُوا آذَنْتَكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾^(٣).

أقوال المفسرين

قوله ﷻ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾، الأرحام: جمع رحم، وهي: بيت منبت الولد، ووعاؤه في البطن^(٤)، وقد ذكر المفسرون أقوالاً كثيرة في المراد بعلم ما في الأرحام في الآية الكريمة، وهذه الأقوال هي:

القول الأول: أذكر أو أنثى^(٥)، ولهذا يسأل ملك الأرحام ربه: أذكر أم أنثى^(٦).

القول الثاني: أذكر أو أنثى، أحمر أو أسود، أو ما هو^(٧).

١- سورة لقمان: الآية: ٣٤.

٢- سورة الرعد: الآية: ٨.

٣- سورة فصلت: الآية: ٤٧.

٤- انظر: تهذيب اللغة ٣٤/٥، ولسان العرب ٢٣٠/١٢، والمعجم الوسيط ٣٣٥/١.

٥- انظر: بحر العلوم للسمرقندي ٢٩/٣، والوجيز في تفسير الكتاب العزيز للواحدى ص ٨٥١، وتفسير الجلالين ص ٥٤٤، وأيسر التفاسير للجزائري ٢١٨/٤.

٦- انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ٦٥٣.

٧- انظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري ١٦٠/٢٠، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥٥٠/٣.

- القول الثالث: أذكر أو أنثى، أبيض أو أسود^(١).
- القول الرابع: أذكر أو أنثى، أحمر أو أسود، أتام الخلقة أو ناقص^(٢).
- القول الخامس: أذكر أو أنثى، أتام أو ناقص^(٣).
- القول السادس: أذكر أو أنثى، أحي أو ميت، أتام أو ناقص^(٤).
- القول السابع: أذكر أو أنثى، أسليم أو سقيم^(٥).
- القول الثامن: أذكر أو أنثى، سوي أو غير سوي^(٦).
- القول التاسع: أذكر أو أنثى، أسعيد أو شقي^(٧).
- القول العاشر: ذكورها وإناثها، شقيها وسعيدها، وحسنها وقبيحها^(٨).
- الحادي عشر: أذكر أو أنثى، أتام أو غيره، أشقي أو سعيد^(٩).
- الثاني عشر: أذكر أو أنثى، أتام أو ناقص، أشقي أو سعيد، أحسن أو قبيح^(١٠).
- الثالث عشر: ما حملت من ذكر أو أنثى، أو حسن أو قبيح، أو شقي أو سعيد، أو طويل العمر أو قصيره^(١١).

- ١- انظر: زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ٣٣٠/٦.
- ٢- انظر: لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن ٢٢٠/٥.
- ٣- انظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ٣٥٣/٤، ومدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي ٢٢٩/٣، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود ٧٨/٧، ومراح لبيد للتناري ٢٤٠/٢.
- ٤- انظر: تفسير السراج المنير للشربيني ١٧٤/٣.
- ٥- انظر: النكت والعيون للماوردي ٣٤٩/٤.
- ٦- انظر: تفسير مقاتل بن سليمان ١٦٩/٢.
- ٧- انظر: محاسن التأويل للقاسمي ٣٦/٨.
- ٨- انظر: لطائف الإشارات للقشيري ١٣٧/٣.
- ٩- انظر: تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ص ٣٤٧.
- ١٠- انظر: البحر المديد لابن مديد ٥٧٦/٥.
- ١١- انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٦١١/٢.

القول الرابع عشر: من الذكور والإناث، والصلاح والفساد^(١).

القول الخامس عشر: من مؤمن وكافر، وشقي وسعيد^(٢).

القول السادس عشر: العموم، يعلم جميع أحواله وأطواره، يقول الزمخشري والآلوسي: «أذكر أم أنثى، أتم أم ناقص، وكذلك ما سوى ذلك من الأحوال»^(٣)، وقال البقاعي: «المفتاح الثالث: علم الأجنة، وهو الرتبة الثانية في الدلالة على البعث الكاشف عن تخطيطها وتصويرها، وتشكيلها وتقديرها، على وصفي الذكورة والأنوثة، مع الوضوح أو الإشكال، والوحدة أو الكثرة، والتمام أو النقص، إلى ما هناك من اختلاف المقادير والطبائع، والأخلاق والشمائل، والأكساب والصنائع، والتقلبات في مقدار العمر والرزق في الأوقات والأماكن، وغير ذلك من الأحوال التي لا يحصيها إلا باري النسم^(٤)، ومحیی الرمم، ولما كانت للخلق في ذلك لكثرة الملابس والمعالجات ظنون في وجود الحمل أولاً، ثم في كونه ذكراً أو أنثى ثانياً، ونحو ذلك بما ضرب عليه من الأمارات الناشئة عن طول التجارب، وكثرة الممارسة، عبر بالعلم فقال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ من ذكر أو أنثى، حي أو ميت، وغير ذلك، وصيغة المضارع لتجدد الأجنة شيئاً فشيئاً، وقتاً بعد وقت»^(٥)، وقال سيد قطب: «اختصاص بالعلم كالاختصاص في أمر (الساعة)، فهو ﴿يَعْلَمُ﴾ الذي يعلم وحده - علم يقين - ماذا في الأرحام، في كل لحظة، وفي كل طور، من فيض وغيض، ومن حمل، حتى حين لا يكون للحمل حجم ولا جرم، ونوع هذا الحمل

١- انظر: فتح القدير للشوكاني ٤/٢٨٢.

٢- انظر: النكت والعيون للماوردي ٤/٣٥٠.

٣- تفسير الكشاف ٣/٥١٢، وروح المعاني ٢١/١٠٩. وانظر: البحر المحيط لأبي حيان ٥/٣٦١.

٤- الله باري النَّسَم: أي خالق النفوس. انظر: المصباح المنير ٢/٦٠٤.

٥- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٦/٥٩.

ذكراً أم أنثى، حين لا يملك أحد أن يعرف عن ذلك شيئاً في اللحظة الأولى لاتحاد الخلية والبويضة، وملامح الجنين وخواصه وحالته واستعداداته، فكل أولئك مما يختص به علم الله تعالى»^(١)، وقال ابن عاشور: «ينفرد بعلم جميع أطواره، من نطفة، وعلقة، ومضغة، ثم من كونه ذكراً أو أنثى، وإبان وضعه، بالتدقيق، وجيء بالمضارع لإفادة تكرر العلم بتبدل تلك الأطوار والأحوال، والمعنى: ينفرد بعلم جميع تلك الأطوار التي لا يعلمها الناس»^(٢).

والراجع: هو الأخير؛ لعمومه، فعلم الله لما في الأرحام عام شامل مطلق، لجميع أحوالها، وأحوال ما فيها، ولجميع الأرحام، وهو علم يقيني لا يتطرق إليه أدنى شك أو يعتريه أي خطأ، وعبارات باقي المفسرين إنما اختلفت في التعبير عن هذا الغيب، وجميع ما قالوه صحيح؛ لدخوله في علم ما في الأرحام الشامل الكامل المطلق الذي يختص بعلم الله ﷻ، فجميعهم ذكر جزء من هذا العلم، وهذا لا يمنع دخول غيره فيه، وبالتالي فالخلاف خلاف تنوع لا تضاد.

وقد ثبت في الصحيح ما يدل على اختصاص المولى ﷺ بعلم الأمور الخمسة المذكور في الآية الكريمة والتي منها علم ما في الأرحام، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«... فِي خَمْسٍ مِنَ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾»**^(٣)^(٤).

١- في ظلال القرآن لسيد قطب ١٩/٦.

٢- التحرير والتنوير ١٣٦/٢١.

٣- سورة لقمان: الآية: ٣٤.

٤- أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله ﷻ ٤٠/١ برقم: ١٠.

قال الرازي: «لفظ (ما) في قوله: ﴿مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ إما أن تكون موصولة، وإما أن تكون مصدرية، فإن كانت موصولة، فالمعنى أنه يعلم ما تحمله من الولد أنه من أي الأقسام، أهو ذكر أم أنثى، وتام أو ناقص، وحسن أو قبيح، وطويل أو قصير، وغير ذلك من الأحوال الحاضرة والمترتبة فيه... أما إذا قلنا: إنها مصدرية فالمعنى: أنه تعالى يعلم حمل كل أنثى، ويعلم غيظ الأرحام وازديادها، لا يخفى عليه شيء من ذلك، ولا من أوقاته وأحواله»^(١).

أما قوله ﷺ: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾^(٢)، الغيظ في اللغة: النقص، والغور في الشيء، يقال: غاض الماء يغيض غيظاً ومغيضاً ومغاضاً وانغاض: قل، ونقص، ونضب، أو غار فذهب^(٣). فالغيض هو النقصان، ومنه قوله ﷺ: ﴿وَعِيضُ الْمَاءِ﴾^(٤)، و﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ أي: تأخذه زيادة، ومنه قوله ﷺ: ﴿وَأَزْدَادُوا تِسْعًا﴾^(٥)(٦)، قال ابن عطية: «معناه: ما تنقص، وذلك أنه من معنى قوله: ﴿وَعِيضُ الْمَاءِ﴾ وهو بمعنى النضوب، فهي هنا بمعنى زوال شيء عن الرحم وذهابه، فلما قابله قوله: ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾، فسر بمعنى النقصان»^(٧).

١- مفاتيح الغيب ١٣/١٩، ١٤.

٢- سورة الرعد: الآية: ٨.

٣- انظر: تهذيب اللغة ١٤٦/٨، والصحاح للجوهري ٢٣٣/٤، ولسان العرب ٢٠١/٧، والقاموس المحيط ٨٣٨/١.

٤- سورة هود: الآية ٤٤.

٥- سورة الكهف: الآية ٢٥.

٦- انظر: الكشاف للزمخشري ٤٨٥/٢، ومفاتيح الغيب للرازي ١٣/١٩.

٧- المحرر الوجيز لابن عطية ٣٠٣/٣.

وقد اختلف المفسرون في صورة الزيادة والنقصان على أقوال:

القول الأول: ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ﴾ وما تنقص الأرحام من حملها في الأشهر التسعة بإرسالها دم الحيض، ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ في حملها على الأشهر التسعة لتمام ما نقص من الحمل في الأشهر التسعة بإرسالها دم الحيض^(١)، أي أنه إذا غاضت الرحم بالدم يوماً، زادت في الحمل يوماً؛ حتى تستكمل الحمل تسعة أشهر طاهراً^(٢).

القول الثاني: ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ﴾ خروج الدم وإراقته في الحمل حتى يتضاءل^(٣) الولد، ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾، استمساكه في الحمل، إذا أمسكت الدم فيعظم الولد^(٤).

القول الثالث: ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ﴾ أن ترى الدم في حملها، ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾، في التسعة أشهر^(٥).

القول الرابع: ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ﴾ بانقطاع الحيض في الحمل، ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ بدم النفاس بعد الوضع^(٦).

القول الخامس: ما تنقص من تسعة أشهر في الحمل وما تزداد على التسعة^(٧).

١- انظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري ٣٥٨/١٦، ٣٥٩.

٢- انظر: الدر المنثور للسيوطي ٦٠٩/٤.

٣- تضاعل الشيء: إذا تقبض وانضم بعضه إلى بعض، وتضاعل الشيء إذا صار ضئيلاً وهو النحيف الدقيق. انظر: الفائق في غريب الحديث للزمخشري ٣٢٥/٢، وتاج العروس للزبيدي ٣٤٠/٢٩.

٤- انظر: تفسير مجاهد ٣٢٥/١، وزاد المسير في علم التفسير ٣٠٨/٤.

٥- انظر: جامع للطبري ٣٦٠/١٦، والدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي ٦٠٨/٤.

٦- انظر: النكت والعيون للماوردي ٩٦/٣، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٨٦/٩.

٧- انظر: بحر العلوم للسمرقندي ٢١٨/٢، وتفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين ٣٤٧/٢، والوجيز في تفسير الكتاب العزيز للواحد ص ٥٦٦.

القول السادس: ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ﴾ السقط، ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾، يقول: ما زادت في الحمل على ما غاضت حتى ولدته تماماً، وذلك أن من النساء من تحمل عشرة أشهر، ومنهن من تحمل تسعة أشهر، ومنهن من تزيد في الحمل ومنهن من تنقص، فذلك الغيض والزيادة التي ذكر الله تعالى، وكل ذلك بعلمه تعالى^(١).

القول السابع: الغيض والزيادة يرجعان إلى الولد، كنقصان إصبع وغيرها، وزيادة إصبع وغيرها^(٢)، وقد يكون مخدجاً^(٣)، وقد يكون تاماً^(٤).

القول الثامن: ﴿تَغِيضُ﴾، تشتمل على جنين واحد ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾، تشتمل على توأمين فأكثر^(٥).

القول التاسع: ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ﴾ أي: تنقص مما فيها، إما أن يهلك الحمل، أو يتضاعل، أو يضمحل^(٦) ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ الأرحام وتكبر الأجنة التي فيها^(٧).

وقد جمع بعض المفسرين بين كثير من الأقوال السابقة، يقول النسفي: «وما تغيضه الأرحام أي: ويعلم ما تنقصه، يقال: غاض الماء وغضته أنا، وما تزاده،

١- انظر: تفسير القرآن للصنعاني ٣٣٢/٢، وجامع البيان في تأويل القرآن للطبري ٣٥٩/١٦، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٦١١/٢، والدر المنثور للسيوطي ٦٠٩/٤، والبحر المديد لابن عجيبة ٤٤٤/٣.

٢- انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٨٦/٩.

٣- أصله من خَدَجَتِ الناقة إذا أَلْقَتْ ولدها قَبْلَ تَمَامِ الوَقْتِ، فَإِنْ أَلْقَتْهُ لَتَمَامِ وهو ناقص الخَلْقِ قيل أُخْدَجَتْ فهي مُخْدَجٌ، فالأول منه يقال: ناقة خادج، والولد خديج، والثاني: أُخْدَجَتْ فهي مُخْدَجٌ، والولد مُخْدَجٌ. انظر: غريب الحديث لابن قتيبة ٤٠٦/١، وجمهرة اللغة لابن دريد ٢١٥/١. وعليه فالمراد ناقص الخلق.

٤- انظر: مفاتيح الغيب للرازي ١٣/١٩.

٥- البحر المحيط لأبي حيان ٣٦١/٥، ومفاتيح الغيب للرازي ١٣/١٩، وأضواء البيان للشنقيطي ٢٢٦/٢.

٦- ذهب وأنحلَّ، أو ضعف وأنحل شيئاً فشيئاً حتى تلاشى. انظر: مختار الصحاح للرازي ٤٠٣/١، ولسان العرب لابن منظور ٣٩٦/١١، والقاموس المحيط ١٣٢٤/١، والمعجم الوسيط ٥٤٣/١.

٧- انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ٤١٤.

والمراد عدد الولد؛ فإنها تشتمل على واحد واثنين وثلاثاً وأربعة، أو جسد الولد؛ فإنه يكون تاماً ومخدجاً، أو مدة الولادة؛ فإنها تكون أقل من تسعة أشهر وأزيد عليها»^(١)، ويقول الزحيلي: «أي: والله يعلم ما تنقصه الأرحام وما تزداده من الجثة (سقطاً أو تاماً)، والمدة (أقل من تسعة أشهر أو تسعة أو أكثر إلى عشرة)، والعدد (واحداً أو متعدداً)، والدم (إراقة حتى يخسّ الولد، وعدم إراقة حتى يتم الولد ويعظم)^(٢).

أما الشنقيطي فقد جمع بين كل الأقوال السابقة بقوله: «مرجع هذه الأقوال كلها إلى شيء واحد، وهو أنه تعالى عالم بما تنقصه الأرحام وما تزيده؛ لأن معنى تغيض: تنقص، وتزداد، أي: تأخذه زائداً، فيشمل النقص المذكور: نقص العدد، ونقص العضو من الجنين، ونقص جسمه إذا حاضت عليه فنقلص، ونقص مدة الحمل بأن تسقطه قبل أمد حمله المعتاد، كما أن الازدياد يشمل: زيادة العضو، وزيادة العدد، وزيادة جسم الجنين إن لم تحض وهي حامل، وزيادة أمد الحمل عن القدر المعتاد، والله جل وعلا يعلم ذلك كله والآية تشمله كله»^(٣).

وما قاله الشنقيطي قول جيد؛ لأن الجمع أولى إن أمكن، غير أنه قد يشكل على هذا القول حيض الحامل؛ فهذه المسألة محل نزاع بين المتقدمين والمتأخرين، وكثير من أطباء العصر على عدمه، وذلك إن ثبت يقوي جمع النسفي، وإن أمكن حيضها تقوى قول الشنقيطي^(٤).

١- مدارك التنزيل وحقائق التأويل ٢/٢٠٢.

٢- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج ١٣/١١٩.

٣- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٢/٢٢٦.

٤- فقد ذهب فقهاء المالكية، والشافعية، وغيرهم إلى أن الدم الذي تراه الحامل دم حيض إن توافرت شروطه [الفواكه الدواني ١/١٢٠، ومغني المحتاج للشربيني ١/١١٨، وبداية المجتهد ١/٣٨، والتمهيد لابن =

أما قوله ﷺ: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُهُ﴾^(١)، وما تحمل من أنثى من حمل حين تحمله، ولا تضع ولدها إلا بعلم من الله، لا يخفى عليه شيء من ذلك^(٢)، و﴿مِنْ﴾، مزيدة لتأكيد الاستغراق، و﴿أُنْثَىٰ﴾ أي: من أي جنس كان إنساناً أو حيواناً، ﴿إِلَّا يَعْلَمُهُ﴾ استثناء مفرغ من أعم الاحوال، أي: وما يحدث شيء إلا بعلمه، فلا شيء يخفى عليه من جميع أمور خلقه، ولا يخرج شيء عن علمه وتدبيره^(٣). إذن علم ما تحمل كل أنثى، وعلم ما في الأرحام يختص بعلم الله ﷻ، وهذا ما عليه المفسرون، وعلماء الأمة؛ ولكننا نرى اليوم التقدم الهائل في الطب الذي

=عبد البر ١٦/٨٦-٨٨]. وذهب فقهاء الحنفية، والحنابلة، وابن حزم، وغيرهم إلى أن الحامل لا تحيض، وإنما هو دم فساد[المحيط البرهاني لابن مازة ١/٣٧١، وكشاف القناع ١/٢٠٢، والمحلّى ٢/١٩٠، وفتح الباري لابن حجر ١/٤١٩]. وسبب اختلافهم في ذلك عدم ورود نص صريح بذلك، وعسر الوقوف على ذلك بالتجربة، واختلاط الأمرين، مع اختلاف الآثار الواردة في ذلك [بداية المجتهد لابن رشد ١/٣٨]. أما أهل الطب فقد نفى أطباء قدامى حيض الحامل [تحفة المودود لابن القيم ١/٢٥٠]، واتجه أكثر أطباء العصر إلى عدم حيض الحامل؛ لأن حدوث الحيض وتوقفه يخضع لتأثيرات هرمونية، غاية في الترابط والدقة والإحكام، وهناك علاقة وطيدة بين المبيض والرحم، لها دور فعال في التحكم الهرموني المسيطر على عملية الحيض بمراحله المختلفة، وهناك تغيرات وتبدلات وظيفية تحدث في جسم الرحم بعد حدوث الحمل تمنع حدوث الحيض [أثر بحوث الإعجاز العلمي في بعض القضايا الفقهية لعبد الله المصلح وعبد الجواد الصاوي، بحث قدم للمؤتمر الثامن للإعجاز العلمي في الكويت، العلوم الطبية، ١/٣١، ٣٢]. وقد دلت الدراسات الطبية الحديثة على أن نزول الدم أثناء الحمل يعود إلى عدة أسباب، غير أن هذا الرأي معارض بأقوال أطباء آخرين يرون أن الحامل يمكن أن ينزل منها دم حيض في الأشهر الثلاثة الأولى [خلق الإنسان بين الطب والقرآن ص ٩٩، وأحكام المرأة الحامل وحملها لعبد الرشيد قاسم ص ٢٩].

١- سورة فصلت: الآية: ٤٧.

٢- جامع البيان في تأويل القرآن للطبري ٢١/٤٨٨.

٣- انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي ابن أبي طالب ١٠/٦٥٤٣، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود ٨/١٧، وفتح القدير للشوكاني ٤/٣٩٢، والتفسير الوسيط لسيد طنطاوي ١/٣٧٤٨، أيسر التفاسير للجزائري ٤/٥٨٧.

يكشف لنا بعض أسرار الأجنة، ك(ذكر أو أنثى)، واحد أو توأم، مشوه أو غير مشوه، صحته جيدة، وغير ذلك، فهل يوجد تعارض في ذلك؟
أجاب العلماء على ذلك بما يلي:

أولاً: قوله ﷺ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾^(١)، ﴿مَا﴾ اسم موصول يفيد العموم، وتعلق العلم بهذا العام هو تعلق عام أيضاً، فعلم ما في الأرحام لا يقتصر على علم كونه ذكراً، أو أنثى، واحداً أم متعدداً، بل علم ما في الأرحام أشمل من ذلك، فهو يشمل كونه ذكراً أو أنثى، وكونه واحداً أو متعدداً، ويخرج حياً أو يخرج ميتاً، وهل سيبقى مدة طويلة في الدنيا أو مدة قصيرة، وهل هذا الجنين سيكون ذا مال كثير أو فقير مدقع، ويشمل أيضاً كون الجنين عالماً أو جاهلاً، فكل ما يتعلق بهذا الجنين يدخل في قوله ﷺ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾، فهو شامل عام خاص بالله ﷻ، فلا يوجد تعارض بين القرآن والطب؛ لأن الأطباء لا يعلمون أنه ذكر أو أنثى إلا بعد أن يكون ذكراً أو أنثى، أما قبل ذلك فلا يستطيعون العلم بذلك، وإذا كان ذكراً أو أنثى وخلق ذكراً أو خلق أنثى فإنه يكون من عالم الغيب عند أكثر الناس، ويكون من عالم الشهادة عند من يحصل له العلم بذلك، فالملك مثلاً يرسله الله تعالى إلى الرحم، ويعلمه أنه ذكر أو أنثى بعد سؤاله: يا رب ذكر أو أنثى؟ فيأمره الله ﷻ بما أراد، فصار هذا علم شهادة بالنسبة للملك، وقبل أن يكون ذكراً أو أنثى فهو علم غيب حتى بالنسبة للملائكة، إذن كونه يكون علم شهادة بواسطة تقدم الطب لا يعارض الآية الكريمة^(٢).

١- سورة لقمان: الآية: ٣٤.

٢- انظر: مجموع فتاوى ورسائل لمحمد بن صالح العثيمين ٥/٢٧٣، ٢٧٤.

ثانياً: معنى حصر مفاتيح الغيب في هذه الخمسة: أنها هي الأمور المغيبة المتعلقة بأحوال الناس في هذا العالم، وأن التعبير عنها بالمفاتيح أنها تكون مجهولة للناس، فإذا وقعت فكأن وقوعها فتح لما كان مغلقاً، وأما بقية أحوال الناس فخفاؤها عنهم متفاوت، ويمكن لبعضهم تعيينها، مثل تعيين يوم كذا للزفاف، ويوم كذا للغزو، وهكذا مواقيت العبادات والأعياد، وكذلك مقارنات الأزمنة مثل: يوم كذا مدخل الربيع؛ فلا تجد مغيبات لا قبل لأحد بمعرفة وقوعها من أحوال الناس في هذا العالم غير هذه الخمسة، فأما في العوالم الأخرى وفي الحياة الآخرة فالمغيبات عن علم الناس كثيرة وليست لها مفاتيح علم في هذا العالم^(١).

ثالثاً: لا يتنافى علم البشر بنوع الجنين في بطن أمه مع علم الله بما في الأرحام، وذلك لأربعة أمور:

١- أن الله يعلم ذلك قبل أن يتخلق الجنين، أي قبل أن تتلقح بويضة الأنثى بماء الذكر، إلى أن يولد، بل قبل أن يكون هناك الزواج بين الرجل والمرأة، والطب لا يعرف ذلك إلا بعد إخصاب البويضة بزمن يمكنهم فيه الفحص والاستدلال، وما يقال: إنهم يعرفون ذلك قبل الإخصاب بفحص ماء الرجل ومعرفة الكروموسومات الغالبة فيه، فإن هناك عوامل أخرى لا يستطيع العلم التحكم فيها، وكلها تحت إرادة الله ﷻ، وما يستنبطونه مقدماً فهو لا يعدو مرحلة الظن والتخمين.

٢- أن علم الله بنوع الجنين علم حقيقي لا يتخلف، وعلم العلماء بذلك علم ظني قد يتخلف، وبخاصة في الأيام الأولى للحمل.

٣- أن علم الله بالجنين علم شامل لنوعه ورزقه وأجله وسعادته وشقائه، وذلك غير مستطاع إلا لله سبحانه وتعالى، الذي قدر كل شيء قبل أن يخلقه.

١- انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور ٢١/١٣٧.

٤- أن علم الله لا يسبقه جهل، وعلم غيره مسبق بالجهل.
وبهذه الأمور وغيرها يظل علم الله ﷻ في قدسيته وشموله وصدقه لا يدانيه فيه مخلوق من مخلوقاته^(١).

رابعاً: يقول ابن كثير في تفسير قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^(٢)، «هذه مفاتيح الغيب التي استأثر الله تعالى بعلمها، فلا يعلمها أحد إلا بعد إعلامه تعالى بها»^(٣).

فعلم الله أزلي سابق لأي علم لغيره، سواء أكان المعلوم من عالم الغيب أم عالم الشهادة، وهو الذي منح شيئاً من علمه لعباده، أما علم الإنسان فهو مكتسب يتعلمه تعلماً، ومعلوماته منها ما هو من عالم الشهادة يدركها عن طريق الحواس، ومنها ما يكتسبه بالاستدلال العقلي، ومنها ما يكتسبه من تعليم غيره، ولكن مبدؤها وتطورها ونموها مكتسب أيضاً عن طريق الحواس والتفكير والوسائل والاختبار، ومنها ما يتعلمها من رسالة الله إلى البشر.

فعلم الإنسان للغيب النسبي (أي المتعلق بعالم الشهادة وماديته) هو علم مكتسب، ومنه العلم بما في الأرحام، وعلمه المكتسب لا يتنافى مع اختصاص الله تعالى بالعلم الأزلي بكل مخلوقاته، وخاصة بما يغيب عن مدارك البشر، وما يكتشفونه مع تقدمهم الذي شاءه الله تعالى^(٤).

١- انظر: فتاوى دار الإفتاء المصرية ٧/٤٠٤، على الرابط: (<http://www.islamic-council.com>).

٢- سورة لقمان: الآية: ٣٤.

٣- تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/٥٤٨.

٤- انظر: الطب النبوي والعلم الحديث للنسيمي ص ٣٦٣.

خامساً: نجد في النصوص الواردة في (علم ما في الأرحام) أن آية سورة الرعد تخصصه بمرحلة معينة من مراحل الرحم هي مرحلة (الغيض)، دون مرحلة الزيادة، قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزِدَّادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾^(١)، فالرحم يمر بمرحلتين هما: مرحلة الغيض، ومرحلة الزيادة، والمقصود بقوله ﷺ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾، هي مرحلة الغيض، ودليل ذلك ما جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ: لَا يَعْلَمُ مَا فِي عَدِ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا يَعْلَمُ مَتَى يَأْتِي الْمَطَرُ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ، وَلَا يَعْلَمُ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا اللَّهُ»^(٢)، فنفهم من هذا الحديث أن غيب ما في الأرحام خاص بـ(الغيض)، وأما ما بعد مرحلة الغيض وهي الزيادة فقد جاءت أحاديث تبين إطلاع الله تعالى للملك الموكل بالرحم على بعض التفاصيل التي يمر بها الجنين، كما جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ وَكَلَّ بِالرَّحِمِ مَلَكًا يَقُولُ: يَا رَبِّ نُطْفَةٌ، يَا رَبِّ عَلَقَةٌ، يَا رَبِّ مُضْغَةٌ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَقْضِيَ خَلْقَهُ قَالَ: أَذْكَرٌ أَمْ أُنْثَىٰ، شَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ، فَمَا الرِّزْقُ وَالْأَجَلُ، فَيَكْتُبُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ»^(٣)، وفي حديث آخر قال ﷺ: «إِذَا مَرَّ بِالنُّطْفَةِ ثِنْتَانِ وَأَرْبَعُونَ لَيْلَةً بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهَا مَلَكًا، فَصَوَّرَهَا، وَخَلَقَ سَمْعَهَا وَبَصَرَهَا، وَجَلَدَهَا وَلَحْمَهَا وَعِظَامَهَا، ثُمَّ قَالَ: يَا رَبِّ أَذْكَرٌ أَمْ أُنْثَىٰ، فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا شَاءَ، وَيَكْتُبُ الْمَلِكُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ أَجَلُهُ، فَيَقُولُ رَبُّكَ مَا شَاءَ وَيَكْتُبُ الْمَلِكُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ رِزْقُهُ، فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا شَاءَ وَيَكْتُبُ الْمَلِكُ، ثُمَّ يَخْرُجُ الْمَلِكُ بِالصَّحِيفَةِ فِي يَدِهِ، فَلَا يَزِيدُ عَلَىٰ مَا أُمِرَ وَلَا يَنْقُصُ»^(٤).

١- سورة الرعد: الآية: ٨.

٢- أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الرعد ١٧٣٣/٤ برقم: ٤٤٢٠.

٣- أخرجه البخاري، كتاب الحيض، باب مخلقة وغير مخلقة ١٢١/١ برقم: ٣١٢.

٤- أخرجه مسلم، كتاب القدر، باب كيفية خلق الأدمي في بطن أمه وكتابة رزقه... ٢٠٣٧/٤ برقم: ٢٦٤٥.

ولا شك أن ما يعلمه الملك هو خارج عن مرحلة الغيظ التي اختص الله بعلمها، فيكون ذلك في مرحلة الزيادة كما يُفهم من النصوص السابقة.

فإذا كان الملك الموكل بالرحم قد أعلمه الله بما سيكون عليه الجنين من الذكورة أو الأنوثة ليكتب الملك ذلك، فلا يستبعد أن يعلم البشر ذلك بحسب ما مكن الله

لهم من وسائل العلم، ثم إن دلالة (ما) في قوله ﷻ: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ

وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾^(١)، هي نفس دلالة (ما) في

قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾، فعلم الله تعالى بما تحمل كل أنثى كعلم الله بما

في الأرحام، من حيث دلالة (ما) الموصولة في كلتا الآيتين، والتي تدل على

العموم، فالعلم فيهما عام شامل لكل ما يتعلق بعالم الغيب والشهادة في الحمل،

وهذا المعنى العام والمجمل، فُصِّلَ بقوله ﷻ: ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾، أي:

أن الله ﷻ يعلم ما تغيض الأرحام وما تزداد، فالعلم المتعلق بغيب الأرحام هو

من الغيب المقصور علمه على الله تعالى، والعلم المتعلق بازدياد الأرحام بالأجنة،

هو علم شهادة، وعلم الله فيه علم إحاطة وشمول.

وجيء بالمضارع ﴿تَحْمِلُ﴾ لإفادة تكرر العلم^(٢)، ودل على أن كل أنثى متى

خلقها الله أنثى كان ﷻ عالماً بأنها ستحمل طول حياتها مرة واحدة، أو مرات قليلة

أو كثيرة، كما يعلم أنواع أجنثها ذكوراً أو إناثاً، أو مختلطين، وأنهم توأم أو مفردين،

وهؤلاء جميعاً مشمولون بعلم الله في كل شئونهم رزقاً وأجلاً وشقاوة وسعادة^(٣).

١- سورة الرعد: الآية: ٨.

٢- انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور ٢١/١٣٦.

٣- انظر: موسوعة حقائق الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية في مواجهة الشبهات، من إصدارات الهيئة العالمية للإعجاز، رابطة العالم الإسلامي (شبهات حول الإعجاز العلمي في الإنسان) ٤٨/٣.

سادساً: بسطان العلم يعلم الأطباء ما في الأرحام بعد أن تكوّن، وتكون قد وضحت معالمه، واكتملت خَلْقَتَهُ، أما الخالق ﷻ فيعلم ما في الأرحام قبل أن تحمل الأم به، ألم يُبشّر الله تعالى نبيه زكريا ﷺ بولده يحيى قبل أن تحمل فيه أمه؟ ونحن لا نعلم هذا الغيب بذواتنا، إنما بما علّمنا الله، فالطبيب الذي يُخبرك بنوع الجنين لا يعلم الغيب، إنما مُعلّم غيب، والله ﷻ يكشف لبعض الخلق بعض الغيبات، ثم إن الطبيب يعلم الآن نوع الجنين، إما من صورة الأشعة أو التحاليل التي يُجريها على عينة الجنين، وهذا لا يُعتبر علماً للغيب، والعلم أن تجلس المرأة الحامل أمامك وتقول لها: أنت إن شاء الله ستلدن كذا أو كذا، وهذا لا يحدث أبداً^(١).

سابعاً: أن العلم بما في الأرحام شامل لكل أنثى من إنسان وحيوان وطيور وغير ذلك من المخلوقات؛ لأن الآية جاءت على وجه العموم مختص بالله لا قدرة للبشر على الإحاطة بذلك^(٢).

ثامناً: أن علم الله ﷻ بما في الأرحام كعلمه بكل شيء لا يحتاج إلى واسطة، بينما يطرق المخلوق الأسباب والوسائط عبر تجارب طويلة، لكي يصل إلى بعض ما يريد، مثلما توصل إليه اليوم من (بزل السائل الامنيوسي) أو غيره.

فهل هذا التعرف المبني على الوسائط الحسية يقارن بعلم الخالق ﷻ بالغيبات؟ بل إن طرق هذه الوسائل الحسية هو انتقال من علم الغيب إلى عالم الشهادة، كما أن علم الخالق ﷻ لا يتعرض للخطأ أو السهو فهو (علم قطعي)، بينما يتعرض علم المخلوق للخطأ والسهو وسوء التقدير، فعند بزل السائل الامنيوسي أو غيره من المحاولات، لا يأتي حتماً بخلايا الجنين، فقد يأتي بخلايا الأم وتكون النتيجة

١- انظر: تفسير الشعراوي ١١٧٦٩/١٩.

٢- انظر: اختيار جنس الجنين لعبد الرشيد قاسم ص ٤٥، ٤٦.

خطأ، وقد يسهو ويلتبس عليه الأمر في التدقيق بالصبغيات الجنسية فيخطئ، وهذا ما يحدث فعلاً في المخابر أثناء تلك المحاولات، فإن وقع المخلوق من ذلك على شيء من الصواب، فبتعليم الله ﷻ له، قال ﷺ: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾^{(١)(٢)}.

١- سورة العلق: الآية ٥.

٢- انظر: مع الطب في القرآن الكريم لعبد الحميد دياب وأحمد قرقوز ص ٥٠.

المطلب الثاني: علم ما في الأرحام في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة

توصل العلم الحديث في النصف الأول من القرن العشرين إلى معرفة جنس الجنين وهو في رحم أمه أذكر هو أم أنثى؟ وذلك باختبار يجرى على بول الحامل^(١)، وفي تقرير لأحد الأطباء أن النتائج كانت صحيحة في ٢٧ حادثة من أصل ٢٩ أي بنسبة ٩٣%، والنتائج بهذا الاختبار في الحمل التوأمي تدل دوماً على أن محصول الحمل ذكر إذا كان أحد التوأمين ذكراً والآخر أنثى، وتشتترط هذه الطريقة أن يكون بول الحامل خالياً من الزلال والمواد الغريبة، ثم توصل العلم بواسطة الوسائل المخبرية المتطورة إلى معرفة ذلك بشكل أدق بدراسة الخلايا الجنينية الموجودة في السائل (الأمنيوسي) المحيط بالجنين، والذي يسبح فيه داخل الرحم، المبزول بواسطة حقنة خاصة عبر جدار بطن الأم، وتحري جسيم الصبغين، ولهذه المعرفة فائدة في تشخيص بعض الأمراض الوراثية المرتبطة بالجنس، وأمكن في السنوات الأخيرة من زراعة خلايا الجنين المأخوذة أيضاً من السائل السلي، ودراسة صبغياتها لمعرفة جنس الجنين، ولمعرفة بعض التنازلات التي تتصف بشذوذات في الصبغيات الجنسية وغير ذلك، كما تم دراسة السائل السلوي بالمطياف الضوئي، وهو يمكّن من تشخيص الداء الانحلالي لدى الجنين (انحلال الدم)، ويكشف التصوير الإشعاعي -والذي يصور الرحم والأجزاء المحيطة به- وجود الجنين في الرحم، ومعرفة بعض أوصافه كجنسه، وهناك تنظير الجنين (البالفيتوسكوب)، وتتم هذه الطريقة باستعمال المنظار الداخلي للرحم، وجميع هذه المعلومات المستفادة من المخابر والأشعة تخص الجنين وهو

١- الأساس الذي تقوم عليه معظم اختبارات الحمل هو أن الحامل تفرز في البول مواد كيميائية خاصة، انظر: الموسوعة الصحية الحمل والولادة لمحمد رفعت وآخرين ص ٢٣.

في رحم أمه^(١)، ويمكن من خلال التقنية الطبية الحديثة التعرف على عدد الحمل من خلال التصوير الإشعاعي -دوبلر- للموجات فوق الصوتية، بل يمكن للطبيب الوقوف على حياة الجنين في رحم أمه، بل سماع دقات قلبه^(٢).

إن الأطباء قد توصلوا بواسطة العلم إلى كشف ومعرفة الكثير من أسرار الأجنة؛ ولكنهم مع ذلك وقفوا ولا يزالوا عاجزين عن معرفة كل التفاصيل الدقيقة المتعلقة بالجنين في الرحم، من طول وقصر، ومن صفات وملامح، ومن طبائع موروثه وأخرى ستكتب فيما يقبل من الأيام، وتلك التفاصيل الهائلة: سقط أم تمام، مشوه الخلق أم سليمها، ناقص الأطراف -مبتورها- أم كاملها، بعين واحدة أم بعينين، بشفة مبتورة شرماء أم كاملة، سقف حنكه تام أم ناقص، قلبه سليم التكوين أم به عيوب خلقية، جهازه العصبي، ودماعه وأعصابه مساراتها المختلفة، وعضلاته وأسرارها، جلده وما يحمله، شرايينه وأوردته ومجاريها، غدده المختلفة، حتى الجسيمات الملونة وما تحمله كل خلية من أسرار الوراثة، وأسرار البروتينات، وأسرار التكوين، ثم بعد ذلك أسرار الروح، وأسرار النفخة الكريمة التي اختص بها الإنسان، فلا يعلم كل هذه التفاصيل وغيرها إلا الله العليم الذي أحاط بكل شيء علماً^(٣).

ومما يدل على ذلك أن معرفة الأطباء لجنس الجنين معرفة ناقصة مبتورة احتمال الوقوع في الخطأ؛ إذ يمكن أن تكون الأعضاء الظاهرة لأنثى بينما الغدة

١- انظر: الطب النبوي والعلم الحديث لمحمود ناظم النسيمي ص ٣٥٠ - ٣٥٢، وموسوعة المرأة الطبية

لسبيرو فاخوري ص ١٢٨، ١٢٩، وطفلك من الحمل إلى الولادة لسبيرو فاخوري ص ١٩٣.

٢- انظر: طفلك من الحمل إلى الولادة ص ١٨٦، ٢٠٦، وموسوعة المرأة الطبية ص ١٢٨، ودور الحقائق

العلمية المعاصرة في ضبط ميراث الحمل لمازن إسماعيل هنية، مجلة الجامعة الإسلامي -سلسلة الدراسات

الشرعية- المجلد ١٣، العدد ١، ص ٧٤، يناير، ٢٠٠٥م.

٣- انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن لمحمد البار ص ٣٠٧، والقرار المكين للطبيب لشقفة ص ١١٥.

التناسلية لذكر، والعكس، ويحتاج الطفل بعد ولادته لعملية لإرجاعه إلى جنسه الحقيقي، فلا يعلم ذلك إلا بعد الولادة، وبعد فحوص طويلة، وقد يكون الأمر أعقد وأغرب، وهو خنثى حقيقية تحمل صفات الذكورة وصفات الأنوثة، تحمل الخصية والمبيض معاً، فالإنسان لا يدرك ذلك إلا بعد إجراء فحوص وعمليات بعد الولادة بفترة من الزمان، وهذا يعني أن علم الإنسان بما في الأرحام ظني لا يقيني، يشبه علم التنبؤات الجوية، التي تصدق حيناً وتخطئ أخرى، وقد يغلب الصواب فيها بناء على الخبرة والمعرفة والعلوم الحديثة، واستخدام الوسائل التقنية البارعة، ولكن ذلك كله لا يخرجها إلى علم اليقين المطلق، فتظل كما هي في حدود البشرية قابلة للخطأ، والنقص، والتبديل، وكذلك علم ما في الأرحام^(١).

بالإضافة إلى أن الجنين يمر خلال مرحلة التخليق بتحولات خطيرة وكبيرة ومعقدة للغاية، وما زالت جوانب كثيرة من هذه التحولات تشكل لغزاً محيراً للعلماء كالانقسام السريع للخلايا الجنينية وتمايزها إلى خلايا وأعضاء مختلفة التركيب والوظيفة، وتحدث خلال هذه الفترة الحرجة تغيرات مفاجئة قد ينجم عنها خلل في الصبغيات أو الجينات تؤدي إلى الهلاك المبكر للجنين بنسبة قد تتجاوز (٦٠%) من مجموع الإسقاط التلقائي المبكر عند كل النساء، وهذه التغيرات المفاجئة والمميتة مازالت خارج نطاق العلم القطعي بحدوثها؛ لأن معظم أسبابها مجهولة، ويصعب جداً، بل يستحيل في كثير من الأحيان الكشف عنها سابقاً أو حتى توقع حدوثها، ومن ناحية أخرى فإننا إذا نظرنا إلى الأسباب التي تؤدي إلى هلاك الأجنة المبكر وحدث الإسقاط التلقائي لها، نجد أنها مسببات عديدة ومتداخلة، ويستحيل التنبؤ بحدوث معظمها، كالنمو غير الطبيعي للبويضة الملقحة، والخلل

١- انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن للطبيب محمد علي البار ص ٣٠٧، ٣٠٨.

التركيبية للصبغيات، والخلل في آليات الغرس للبويضة الملقحة في بطانة الرحم، كالتحكم الهرموني المتخصص في الانقباضات، والحركة الدودية للرحم وأبواقه، والعوامل الهرمونية العديدة ذات الصلة بنضج بطانة الرحم، وتكوّن الغشاء الساقط، والإشارة الصحيحة أو المناسبة للانغراس، واستجابة النطفة الأمشاج له، والعلاقة الخلوية بين الخلايا المغذية وبطانة الرحم، فهذه العوامل يجب أن تتكامل، وتتوحد بدقة فائقة، حتى يتم تعشيش البويضة الملقحة، فإذا فشلت إحدى هذه الآليات، فإن حياة البويضة الملقحة تكون معرضة لخطر الهلاك وحدث الإسقاط^(١).

كما أن تمايز الخلايا ونمو الجنين يتأثران بعوامل مختلفة، اكتشف منها حتى الآن أكثر من مائة عامل؛ بالإضافة إلى العوامل الجينية، وكثير من الهرمونات، والخلل في هذه العوامل يؤدي إلى موت الجنين وحدث الإسقاط، وهناك عوامل عديدة تؤثر على البيئة الداخلية للرحم والجنين، كالإشعاع، والفيروسات، والمواد الكيميائية، ويمكن أن يحدث بسببها تشوهات خلقية، فيهلك الجنين ويحدث الإسقاط، وهناك أيضاً عوامل أمومية يمكن أن تسبب الإسقاط، كخلل الصبغيات- التركيبية والعددي- في بويضة الأم، والذي يزداد باضطراب مع كبر سنها، وأنواع مختلفة من الأمراض الإبتنائية كالجدي، والخلل الهرموني الذي يمكن أن يتسبب في هلاك الجنين، والنواقص الغذائية، وتناول الكحول والتبغ، والعوامل المناعية العديدة، ومعظم أسباب هذه العوامل مجهولة، حتى الصدمات النفسية والعضوية يمكن أن تؤدي للإسقاط، فبمجرد وَهْم الأم واعتقادها بأن حملها سوف يسقط، يمكن أن يكون سبباً في حدوث الإسقاط، فإذا نظرنا إلى هذه العوامل العديدة

١- انظر: موسوعة حقائق الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية في مواجهة الشبهات (شبهات حول الإعجاز العلمي في الإنسان) ٤١/٣-٤٣.

والمتداخلة، البسيطة منها والمركبة من أكثر من عامل، وقدّرنا حدوث أحدها وفق قانون الاحتمالات، فإننا نستنتج بيقين أن التوصل للعلم القطعي بمستقبل هلاك الأجنة في أي طور من أطوار تخليقها الأولى وحدث الإسقاط التلقائي لها يعتبر ضرباً من الخيال، فالخلل في الصبغيات يحدث بطريقة عشوائية ومتفرقة، ولا يمكن العلم بحدوثه قبل أن يحدث، والاضطرابات في العوامل الجينية العديدة والمسؤولة عن تمايز الخلايا ونموها، وما يمكن أن يتعرض له الجنين من العوامل الماسخة من الإشعاع والفيروسات والمواد الكيميائية، وما يمكن أن يتعرض له الأم من الصدمات النفسية أو العصبية أو الأمراض المختلفة في المستقبل، كل هذه العوامل لا يستطيع أحد من البشر أن يجزم بحدوثها أو عدم حدوثها، وبالتالي فما يبني عليها من حدوث الإسقاط التلقائي يظل مجهولاً لا يعلمه أحد، وبناء على هذا، فإنه يستحيل على العلماء الآن -وفي المستقبل- معرفة مصير أي طور من أطوار الجنين قبل اكتمال تخليقه ونفخ الروح فيه، هل سيتخلق إلى الطور الذي يليه أم سيهلك وتغيض به الأرحام^(١).

وقد ثبت علمياً أن النطفة الأمشاج بعد أن تصل إلى الرحم تغور في جداره حتى تغيب عن أنظار الأطباء، ولو تتبعوها بأحدث الأجهزة، وكأن جدار الرحم بينلوعها إلى داخله، وعند ذلك تدخل النطفة في مرحلة لا يمكن لأي مختص معرفة هل تحقق الحمل في المرأة أم لا، وعند إجراء الفحوص الطبية على بول المرأة لا تظهر أي نتيجة للحمل، بل لا تشعر المرأة نفسها بأي عرض من أعراض الحمل، وتستمر هذه المرحلة الغيبية إلى اليوم الخامس عشر في الغالب، وربما يظهر

١- انظر: موسوعة حقائق الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية في مواجهة الشبهات (شبهات حول الإعجاز العلمي في الإنسان) ٤٣/٣-٤٥، ومفاتيح الغيب وعلم ما في الأرحام لعبد الجواد الصاوي، منشور في مجلة الإعجاز العلمي الصادرة عن الهيئة العالمية للإعجاز، العدد ٢٨، ١٤٢٨هـ، ص ٣٥.

الحمل في بعض الأحيان في اليوم الحادي عشر، وأما قبل ذلك فيستحيل معرفة أي شيء من علامات الحمل، فغور النطفة في الرحم هي مرحلة الغيض التي لا يعلمها إلا الله وحده ويعجز البشر جميعاً عن معرفة أي شيء عنها^(١).
ويذكر الزندانى أنه التقى بـ(مرشال جونسون) من كبار المختصين بعلم الوراثة والدارسين لعلم (الكروموزومات) في أمريكا، ودار بينهما الحوار التالي:
الزندانى: هل حاولتم أن تعرفوا صفات الإنسان التي ستكون في المستقبل في مرحلة الغيض هذه؟

مرشال جونسون: نعم حاولت، لقد قمت بتجربة على بعض كروموزومات -يعنى حاملات الوراثة- واستمر بحثى عليها عشر سنوات، وأنا أحاول أن أفهم كيف سينشأ مخلوق من هذا؟! وماذا سينشأ من هذا الجزء الذى بين يدي في المستقبل؟!
الزندانى: ماذا كانت النتيجة؟

مرشال جونسون: بكيت!!

الزندانى: لماذا؟

مرشال جونسون: لأنى فشلت، ولم أستطع أن أعرف شيئاً.
الزندانى: أحسنت!! هذا عندنا موجود، إنك لن تستطيع أن تعرف، وإن هذه المرحلة لا تستطيع أن تعلم عنها شيئاً، ولا تستطيع أن تفهم عنها شيئاً.
إذن مفتاح الغيب هو (الغيض)، والأطباء يعلمون عن الجنين في مرحلة الازدياد ما يسر الله لهم أن يعلموه، فمرحلة الازدياد ليست من مفاتيح الغيب، فالذي قال لنا: لا يعلم ما في الأرحام إلا الله، قال لنا إن الملائكة تعلم الرزق، والأجل والشقاء والسعادة، وجمعاً بين الأحاديث نقول: إن العلم الذي لا يعلمه إلا الله قبل

١- انظر: أثر الحقائق العلمية في ترجيح أقوال المفسرين لرياض عيروس ص ٢٣٠، ٢٣١.

كتابة الملك، فما كان قبل الكتابة فهو الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، فإذا علمت الملائكة كان ذلك تخصيصاً للعام وتفسيراً لما كان مطلقاً^(١).

إن في الأرحام من الأسرار والغيوب ما لا يعلمه إلا الله، وأن من هذه الغيوب ما هو مرحلي يمكن للإنسان بتطور الأجهزة والمعارف المكتسبة أن يصل إلى شيء منه في يوم من الأيام، ومنها ما هو مطلق لا سبيل للإنسان في الوصول إليه، إلا ببيان من الخالق ﷻ؛ لأن الله قد حجبه عن خلقه، ومن الغيوب المرحلية التي تم الكشف عنها مؤخراً أن كثيراً من النساء يحملن ثم يفقدن حملهن في الأسابيع الأولى من الحمل دون أدنى دراية منهن، وتعرف هذه الظاهرة بـ(السقوط التلقائي) للحمل، وتطلق هذه الظاهرة على كل حالة يسقط فيها الحمل تلقائياً قبل الأسبوع العشرين من عمره، أو عندما يكون وزن الجنين أقل من ٥٠٠ جم، ومعظم حالات الإسقاط التلقائي تحدث خلال الأسابيع الثمانية الأولى من الحمل، وهي ظاهرة شائعة الحدوث، ونسبة حدوثه كبيرة، وغالباً يحدث بدون دراية من الأم بالحمل، والغالب أن كل امرأة تتأخر لديها الدورة الشهرية مدة أسبوع أو أسبوعين أو تأتي لها الدورة بغزارة غير طبيعية تعتبر في حالة إسقاط تلقائي مبكر، وتكون نسبتها عالية جداً قبل أربعة أسابيع، إذ تتراوح بين (٤٠%)، (٦٠%) قبل الأسبوع الرابع من تاريخ الإخصاب، وبعد ذلك تتناقص إلى ما بين (١٥%)، (٢٠%)، ولم يدرك الأطباء ذلك إلا مؤخراً، وفي حالات السقوط التلقائي للحمل قد ينزل الجنين وهو في حدود (واحد ونصف مم) إلى (٥ مم) في الطول مع الدورة الشهرية مصاحباً بكم من الدم الغزيرة، وفي حالات أخرى يتحلل الجنين ويمتصه جدار الرحم بالكامل، وتتبع هذه الحالة فيما يعرف بـ(ظاهرة التوائم المتلاشية)، وقد لا يسقط

١- انظر: الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية لأحمد مصطفى متولي ص ٢٨٦، والإعجاز العلمي بين الحقيقة والوهم لأحمد محمد فتحي ص ٤٩، ٥٠.

كيس الحمل الفارغ بعد موت الجنين تلقائياً، بل يبقى لفترة طويلة داخل الرحم، وتعرف هذه الحالة بـ(السقط أو الإجهاض المخفي)، ويتغير فيه حجم الرحم فيأخذ في الصغر والجمود؛ نظراً لامتنعاص السائل الأمنيوسي وحدث تهتك في الجنين، والنسبة الغالبة من هذا الإجهاض المخفي مآلها إلى الإسقاط التلقائي، لكن في بعض الحالات يغور ويختفي الجنين تماماً من كيس الحمل، وهذه مجرد واحدة من الأحداث والدورات العديدة التي تقع داخل الرحم، ولا تعلم بها المرأة نفسها، وتشمل كلاً من الأجنة التي يلفظها الرحم دمماً، والتي تتحلل بداخله وتغور مادتها في جداره كما يغور الماء في الأرض، أما باقي صفات الجنين من رزق وأجل وعمل وأثر وشقاء وسعادة، وبأي أرض سيموت، فمن الغيوب التي اختص بها الله ﷻ وحجبها عن البشر^{(١)(٢)}.

١- انظر: خلق الإنسان في القرآن للنجار ص ٥١٣-٥١٥، والإعجاز العلمي للقرآن والسنة في دلالة غيض الأرحام للصاوي، مجلة الإعجاز الصادرة عن هيئة الإعجاز ص ٣٠، ٣١، العدد: ٥، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

٢- ويذكر عبد الجواد الصاوي أدلة علمية على أن المراد السقط المبكر وليس السقط في المراحل المتأخرة، وهي:

- خلال الأسابيع الثمانية الأولى من عمر الجنين لا يزداد الرحم عن حجمه الطبيعي زيادة ملحوظة تذكر؛ والتغيرات التي تطرأ عليه هي تبدلات وظيفية في أنسجته، وتحدث تحت تأثير هرمونات الحمل، لكن الازدياد الحقيقي للرحم يبدأ بعد مرحلة التخليق في بداية الأسبوع التاسع، فالغيض المطابق للازدياد يكون بعد مرحلة التخليق.

- لا تغور الأجنة ولا تنضب إلا في مرحلة التخليق - توافق دلالات الغيض اللغوية وظاهرة الإسقاط التلقائي المبكر بحالتها: الأجنة التي تلفظها الأرحام، والأجنة المندثرة فيها.

- دلالة الغيض على الغور والذهاب والنضوب تتوافق مع ما يحدث لبعض الأجنة، من التحلل والاختفاء تماماً من أو مع حويصلة الحمل، حيث لا يبقى للجنين أي أثر داخل الرحم كما في: البيضة المعيبة أو كيس الحمل الفارغ إذ لا يكون له أثر داخل كيس الحمل، وكما في التوائم المتلاشية إذ يغور وينضب ويختفي أحد التوأمين تماماً من داخل الرحم في الفترة المبكرة من الحمل، وكما في الإجهاض المخفي إذ=

المطلب الثالث: ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها

من خلال الدراسة التفسيرية والعلمية يتلخص ما يلي:

- * ذكر المفسرون أقوالاً كثيرة في المراد بعلم ما في الأرحام في قوله ﷻ:
- ﴿وَيَعَلِّمَانِي الْأَرْحَامَ﴾، والراجح أنه يعم، فعلم الله لما في الأرحام عام شامل مطلق، لجميع أحوالها، وأحوال ما فيها، ولجميع الأرحام، وعبارات المفسرين إنما اختلفت في التعبير عن هذا الغيب، وجميع ما قالوه صحيح؛ فجميعهم ذكر جزء من هذا العلم، وهذا لا يمنع دخول غيره فيه، وبالتالي فالخلاف خلاف تنوع لا تضاد.
- * اختلف المفسرون في غيظ وزيادة الأرحام على أقوال، جمعها قول من قال: إن مرجعها كلها إلى شيء واحد، وهو أنه تعالى عالم بما تتقصد الأرحام وما

=يغور الجنين ويرتشف، ولا يكون له أي أثر داخل كيس الحمل، كالماء الذي حبسته الأرض وابتلعتة، وهي إحدى دلالات الغيظ اللغوية، لذا لا يوجد لهذه الحالات إسقاط مشاهد، ولا يمكن وصفه بدقة وشمول إلا بمسمى الغيظ.

- دلالة الغيظ على النضوب والذهاب: تتوافق أيضاً مع ما يحدث في التجاوبف العديدة الممتلئة بالسوائل والدماء التي تحيط بالجنين، والتي تجعل الجنين يحيا في محيط مائي، أشبه بالبرك أو البحيرات المقلقة، حيث يحدث عند هلاك الجنين توقف التحكم الهرموني لبطانة الرحم، وما فيه من أوعية دموية وغدد وأنسجة، فتتضرب إفرازات الغدد، وتثقل الأوعية الدموية للأم، وتتخثر الدماء في الفجوات وبين الزغابات، فتجف وتذهب وتتضرب هذه البحيرات داخل بطانة الرحم وفي تجويفه حول الجنين، وبهذا يكون إسناد الغيظ للأرحام إسناداً حقيقياً.

- دلالة الغيظ على الاحتباس مع النقص: تتوافق مع ما يحدث لبعض الأجنة حين تهلك ولا تسقط بل تحبس داخل بطانة الرحم، وقد تمكث فترة طويلة ينكمش فيها الجنين ويتهتك، وبهذا يكون تعبير الغيظ أشمل وأدق دلالة من معنى السقط، إذ يشمل الدلالة على الجنين الذي يغور وتختفي آثاره من داخل الرحم، والدلالة على سقوط الجنين الذي يلفظه الرحم، وعلى الأحداث التي تصاحبه؛ مما يؤكد أيضاً أن إسناد الغيظ للأرحام إسناد حقيقي. انظر: الإعجاز العلمي للقرآن والسنة في دلالة غيظ الأرحام للساوي، مجلة الإعجاز العلمي ص ٣١-٣٣.

تزيده؛ لأن معنى تغيض: تنقص، وتزداد، أي: تأخذه زائداً، فيشمل النقص المذكور: نقص العدد، ونقص العضو من الجنين، ونقص جسمه إذا حاضت عليه فتقلص، ونقص مدة الحمل بأن تسقطه قبل أمد حمله المعتاد، كما أن الازدياد يشمل: زيادة العضو، وزيادة العدد، وزيادة جسم الجنين إن لم تحض وهي حامل، وزيادة أمد الحمل عن القدر المعتاد، والله تعالى يعلم ذلك كله، والآية تشملته كله، وهو جمع جيد؛ لأن الجمع أولى إن أمكن، غير أنه قد يشكل عليه حيض الحامل.

* علم ما في الأرحام يختص بعلم الله ﷻ، ولا يعارض ذلك ما يكشفه لنا الطب من أسرار الأجنة، لما يلي:

- علم الله غيبي أزلي ولا يحتاج إلى واسطة، أما البشر فعلمهم مسبوق بالجهل؛ إذ لا يعلمون بالشيء إلا بعد حصوله، وبواسطة وسائل العلم المتطورة أصبح علم الغيب علم شهادة عندهم وفتح ما كان مغلقاً.

- علم الله عام كامل، شامل لكل أنثى من المخلوقات، وشامل لنوعه وورقه وأجله وسعادته وشقائه، وعلم البشر مخصوص بشيء معين وجزئي وناقص.

- تخصيص ذلك بمرحلة معينة من مراحل الرحم هي مرحلة (الغيض)، بدليل قول رسول الله ﷺ: **"وَلَا يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ إِلَّا اللَّهُ"**، أما العلم المتعلق بازدياد الأرحام بالأجنة، فهو علم شهادة، وعلم الله فيه علم إحاطة وشمول.

- علم الله حقيقي قطعي لا يتخلف ولا يتعرض للخطأ أو السهو، وعلم البشر ظني قد يتخلف، ويتعرض للخطأ والسهو وسوء التقدير.

* تمكن الأطباء من كشف ومعرفة الكثير من أسرار الأجنة، بواسطة وسائل العلم الحديث: كاختبار بول الحامل، ودراسة الخلايا الجنينية الموجودة في السائل (الأمنيوسي)، ودراسة السائل السلوي بالمطياف الضوئي، والتصوير الإشعاعي،

وتنظير الجنين (البالفيتوسكوب)، ومع ذلك فلا زالوا عاجزين عن معرفة التفاصيل الدقيقة المتعلقة بالجنين في الرحم، فمعرفة ناقصة بدليل وقوعهم في الخطأ.

* يمر الجنين خلال مرحلة التخليق (الثمانية الأسابيع الأولى) بتحولات خطيرة وكبيرة ومعقدة للغاية، وما زالت جوانب كثيرة منها تشكل لغزاً محيراً للعلماء؛ لأن معظم أسبابها مجهولة، يصعب بل يستحيل في كثير من الأحيان الكشف عنها سابقاً أو حتى توقع حدوثها.

* إذا نظرنا إلى الأسباب التي تؤدي إلى هلاك الأجنة المبكر وحدث الإسقاط التلقائي لها، نجد أنها مسببات عديدة ومتداخلة، ويستحيل التنبؤ بحدوث معظمها.

* يتأثر تمايز الخلايا ونمو الجنين بعوامل مختلفة، والخلل في هذه العوامل يؤدي إلى موت الجنين وحدث الإسقاط، وكل هذه العوامل لا يستطيع أحد من البشر أن يجزم بحدوثها أو عدم حدوثها، وبالتالي فما ينبني عليها من حدوث الإسقاط التلقائي يظل مجهولاً لا يعلمه أحد.

* تغور النطفة الأمشاج بعد أن تصل الرحم في جداره حتى تغيب عن أنظار الأطباء وأجهزتهم، ويعتبرها غورها هذا من مرحلة الغيض التي لا يعلمها إلا الله.

* من الغيوب المرحلية المكتشفة مؤخراً أن كثيراً من النساء يحملن ثم يفقدن حملهن في الأسابيع الأولى دون أدنى دراية، وتعرف هذه الظاهرة بـ(السقوط التلقائي) للحمل، وفي بعض الحالات يغور ويختفي الجنين تماماً من كيس الحمل.

ومن خلال الدراسة التفسيرية والعلمية تظهر الآثار التالية:

- * رجحت المكتشفات العلمية القول الأخير القائل بعموم علم ما في الأرحام، لأن العلم البشري قد توصل إلى معرفة شيء من أسرار الأجنة، لكنه لم يحط بها علماً، وما زال عاجزاً عن معرفة التفاصيل الدقيقة المتعلقة بالجنين في الرحم.
- * أثبتت المكتشفات العلمية أن للرحم حالة تغيض فيها الأجنة وتغور بداخله حتى تتلاشى تماماً، وأن النطفة تغور في جدار الرحم وتختفي عن أنظار الأطباء، وهو ما يمكن تفسيره بمرحلة غيض الأرحام التي يستحيل على البشر معرفة تفاصيلها، وبالتالي فإن العلم قد أضاف لنا بعض المعاني لغيض الأرحام.
- * دمع الشبهة القائلة إن علم البشر يبطل خصوصية علم ما في الأرحام بالله تعالى؛ إذ أظهرت المكتشفات العلمية أن معرفة الأطباء تكون في مراحل معينة للحمل، ومع هذا يستحيل الجزم بها، بل نفس الحمل يمر بمرحلة لا يعلمها أحد.
- * أكدت المكتشفات العلمية أن العلم البشري يظل قاصراً عن معرفة كل أحوال الجنين في الرحم، وما يعلمه الأطباء هو علم ظني لا يقيني يحتمل الخطأ.
- * أثبتت المكتشفات العلمية أن في قوله ﷺ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ معجزة عظيمة من معجزات القرآن الكريم التي تحدى بها البشرية، وسيظل هذا التحدي مستمراً مهما تقدمت البشرية في علومها، بل يظل هذا التحدي قائماً إلى يوم القيامة^(١)، فكلما اكتشف الإنسان سراً في علم الأجنة حار في أسرار، وما ذلك إلا ليعلمه الخالق الجبار الذي أحاط بكل شيء علماً عجزه -أي الإنسان- عن الإحاطة حتى بعلم ما في هذه الأرحام، فأنى له أن يحيط بشيء من غيب السماوات؟! وغيب الآخرة؟! وإن هذا التحدي المعجز، يحمل في طياته رسالة

١- انظر: أثر الحقائق العلمية في ترجيح أقوال المفسرين لرياض عيدروس ص ٢٣٢.

لل بشرية أنه لا سبيل إلى الإحاطة بعلم الغيب، فمن عجز عن إدراك أسرارهِ، وأسرار أعضائه أنى له الإحاطة بما هو أعظم من ذلك؟! وفي ذلك إرشاد للعباد بأن عليهم الخضوع لله ولرسوله ﷺ بالانقياد لكل ما أخبر الله به وأخبر به نبيه؛ لأن النجاة فيهما؛ لصدور ذلك عن رب العزة الذي يعلم الغيب، والسر وأخفى، فوضع للبشر هدياً ومنهجاً وشريعة غراء، فيها صلاحهم وصلاح أحوالهم، وفيها النجاة لهم في الدارين، فالحمد لله على نعمة الإسلام، وعلى نعمة القرآن التي نزلت على نبينا العذنان ﷺ.

المبحث الثالث

الظلمات الثلاث

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول:

الظلمات الثلاث في القرآن الكريم.

المطلب الثاني:

الظلمات الثلاث في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة.

المطلب الثالث:

ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها.

المطلب الأول: الظلمات الثلاث في القرآن الكريم

الآيات الواردة

قال الله ﷻ: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنْ الْأَنْعَامِ ثَمِينَةً
أَزْوَاجًا يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ
الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾^(١).

أقوال المفسرين

الظُّلُمَاتُ جمع ظُلْمَةٌ، وهي خلاف الضياء والنور، والظَّلَامُ: اسم الظلمة^(٢).

اختلف المفسرون في المراد بالظلمات الثلاث في قوله ﷻ: ﴿يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ
أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾، على أقوال:

القول الأول: ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة، وهذا ما عليه أكثر

المفسرين^(٣)، والدليل هو قوله ﷻ: ﴿يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾.

القول الثاني: ظلمة صلب الرجل، وظلمة بطن الأم، وظلمة الرحم^(٤).

١- سورة الزمر: الآية ٦.

٢- انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٣/٣٦٦، ٣٦٧، والمصباح المنير للفيومي ٢/٣٨٦.

٣- انظر: تفسير مجاهد ٢/٥٥٦، وتفسير الثوري ١/٢٦٢، وجامع البيان في تأويل القرآن للطبري ٢١/٢٥٨،
وتفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ١٢/١٤٧، والهداية إلى بلوغ النهاية ١٠/٦٣٠١، وبحر العلوم
للسمرقندي ٣/١٧٠، والكشف والبيان للثعلبي ٨/٢٢٢، والوجيز في تفسير الكتاب العزيز للواحدى ص ٩٢٩،
ومعالم التنزيل في تفسير القرآن للبعوي ٤/٨٠، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٥/٢٣٦، والتسهيل لعلوم
التنزيل لابن جزي ٢/٢١٧، والدر المنثور للسيوطي ٧/٢١٢، وتفسير الجلالين ص ٦٠٦، وتيسير الكريم
الرحمن للسعدي ص ٧١٩، والتحرير والتنوير لابن عاشور ٢٤/٢٥، وأيسر التفاسير للجزائري ٤/٤٦٨.

٤- انظر: مجاز القرآن لأبي عبيدة البصري ٢/١٨٨، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ٥/٥٩، وإرشاد
العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود ٧/٢٤٣، والبحر المديد لابن عجيبة ٦/٣٦٨.

القول الثالث: ظلمة المشيمة، وظلمة الرحم، وظلمة الليل^(١).

القول الرابع: الحوايا^(٢)، والأحشاء^(٣)، والرحم^(٤).

القول الخامس: ظلمة النطفة، ثم العلقة، ثم المضغة، فإذا صار عظاماً مكسوة لحمًا عرف هل هو ذكر أو أنثى، فزالته عنه ظلمات الجهل، وصار آخر^(٥).

القول السادس: ذهب الشعراوي في تفسيره إلى أن الظلمات الثلاث في الرحم وليس منها ظلمة البطن، وهي عبارة عن عوازل وأغشية تحمي الطفل وكلها داخل الرحم؛ لأن الحق سبحانه يحدثنا عن القرار المكين الخاص بالجنين فيقول: ﴿فِي بَطْنٍ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ بيان للظرف العام الذي يقع فيه الظرف الخاص بالجنين وهو الرحم، فالبطن ظرف كبير يحوي الرحم والأمعاء والمعدة والكبد والطحال والبنكرياس... لذلك حدد الظرف الخاص بالجنين فقال بعدها: ﴿فِي ظُلْمَتٍ تَلَدَّتْ﴾^(٦).

١- انظر: النكت والعيون للماوردي ١١٦/٥، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٣٦/١٥، وفتح القدير للشوكاني ٥١٧/٤.

٢- جمع حَوِيَّةٍ وهي في اللغة الأمعاء، وقيل: ما تحوى من البطن يعنى استدار. [الصحاح للجوهري ٢١٨/٢، ومعجم مقاييس اللغة ٩٠/٢، ولسان العرب ٢٠٦/١٤]. ونقل الماوردي أربعة أقوال للمفسرين فيها: (أ) المباعر، (ب) وبنات اللبن، (ج) والأمعاء التي عليها الشحم من داخلها، (د) وكل ما تحوى في البطن واجتمع واستدار. [النكت والعيون ١٨٤/٢]، وسردها الطبري جميعاً بقوله: «(الحوايا) جمع، واحدها حاوية، وحاوية، وحَوِيَّةٌ، وهي ما تحوى من البطن فاجتمع واستدار، وهي بنات اللبن، وهي المباعر، وتسمى المرابض، وفيها الأمعاء. [جامع البيان ٢٠٣/١٢].

٣- جمع حشا وهو ما دون الحجاب مما يلي البطن كله من الكبد والطحال والكرش وما تبع ذلك، والحشا: ظاهر البطن وهو الحضن، وقيل: هو ما بين ضلع الخلف التي في آخر الجنب إلى الورك، والحشا: الرئو. انظر: المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده ٤١٥/٣، ولسان العرب ١٧٨/١٤، والمعجم الوسيط ١٧٧/١.

٤- انظر: التبيان في تفسير غريب القرآن لابن الهائم ص ٢٨٣.

٥- انظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ٤٢٢/٦.

٦- انظر: تفسير الشعراوي ١٣٠٤١/٢١.

والراجع: هو القول الأول، أن الظلمات هي: ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة، وجميعها متعلقة بالأم، بدليل قول الله ﷻ: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾^(١)، فالظلمات تكون للجنين في البطن، ولم يذكر الصلب^(٢)، فلا يقوى القول الثاني، كذلك الثالث؛ لأن ظلمة الليل يعقبها ضياء النهار، وهذا يعني أنه يكون ليلاً في ثلاث ظلمات، ونهاراً في ظلمتين فقط، وهذا خلاف ظاهر الآية، على أن ظلمة الليل يزيلها استعمال المصاييح، والآية الكريمة تتحدث عن ظلمات في بطون الأمهات، أما القول الخامس فإنه يجعل من هذه الظلمات ظلمات معنوية لا حسية حقيقة، وهذا ينافي ظاهر الآية الكريمة، ومعلوم من لغة العرب أن الظلمة ضد الضياء والنور، مما يعني أنها ظلمات حقيقة حسية^(٣)، وأما القول الأخير فقد أجيب عنه بجوابين:

الأول: أن الله تعالى قال: ﴿فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ ولم يقل (في أرحام أمهاتكم)؛ للدلالة على أن الظلمات غير محصورة في الرحم فقط، ولكن هي في الرحم وخارجه. الثاني: أنه بعيد؛ لأن الأغشية التي داخل الرحم لا يشكل كل واحد منها بمفرده ظلمة حسب التعبير القرآني لكلمة ظلمة^(٤).

١- سورة الزمر: الآية ٦.

٢- انظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى ٢١٧/٢.

٣- وهذه الظلمة مع أنها ظلمة حسية في خلق الإنسان فقد تدل على ظلمة معنوية أيضاً، قال النبي ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظُلْمَةٍ، فَأَلْقَى عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ، فَمَنْ أَصَابَهُ مِنْ ذَلِكَ النُّورِ اهْتَدَى، وَمَنْ أَخْطَأَهُ ضَلَّ، فَلِذَلِكَ أَقُولُ: جَفَّ الْقَلَمُ عَلَى عِلْمِ اللَّهِ". أخرجه الترمذي، كتاب الإيمان، باب ما جاء في افتراق الأمة ٢٦/٥ برقم: ٢٦٤٢. وقال الترمذي: «هذا حديث حسن». وانظر: موسوعة حقائق الإعجاز العلمي في مواجهة الشبهات ٧٩/٣.

٤- انظر: موسوعة حقائق الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية في مواجهة الشبهات (شبهات حول الإعجاز العلمي في الإنسان) ٨٣/٣، ٨٤.

بالإضافة إلى أنه على خلاف ما عليه جمهور المفسرين، بل لم يقل به أحد من المفسرين المتقدمين، وسيأتي في الجوانب العلمية ذكر هذه الأدلة بمناقشتها. يقول ابن عاشور في الحكمة من ذكر هذه الظلمات: «وفي ذكر هذه الظلمات تنبيه على إحاطة علم الله تعالى بالأشياء، ونفوذ قدرته إليها في أشد ما تكون فيه من الخفاء»^(١).

ويقول الشعراوي: «وكلمة الظلمة نفهم منها عدة أمور: أولاً: الظلمة تعني عدم وجود النور، وهي مرتبطة بالليل. ثانياً: الليل دائماً رطب عن النهار؛ لأن النهار فيه حرارة الشمس، وحرارة الأنفاس الناشئة عن الحركة، أما الأنفاس في الليل فهادئة؛ لأنها لمجرد استبقاء الحياة، وليست ناشئة عن حركة العمل والجهد المبذول. ثالثاً: كذلك في الظلمة سكون، وهدهد لا يتوفر في النهار. إذن في الظلمة عدم نور، وفيها برودة، وفيها سكون، وهذه الأمور الثلاثة، ضرورية لنمو الجنين، وتكون أعضائه في بطن أمه؛ لأنه في بطن أمه خلق ضعيف غير مكتمل الأعضاء والجوارح، لا يقوى على تحمل الحرارة، ولا تحمل الضوء، ولا تحمل الأصوات المزعجة، لذلك جعل له الخالق سبحانه عوازل تقيه هذه الأشياء، لذلك قال سبحانه: ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾»^(٢).

ويقول الشنقيطي: «فقد ركب تعالى عظام الإنسان بعضها ببعض، وكساها اللحم، وجعل فيها العروق والعصب، وفتح مجاري البول والغائط، وفتح العيون والأذان والأفواه، وفرق الأصابع، وشد رعوسها بالأظفار، إلى غير ذلك من غرائب

١- التحرير والتنوير لابن عاشور ٢٤/٢٥.

٢- تفسير الشعراوي ٢١/١٣٠٤١.

صنعه وعجائبه، وكل هذا في تلك الظلمات الثلاث، لم يحتج إلى شق بطن أمه وإزالة تلك الظلمات سبحانه جل وعلا ما أعظم شأنه وما أكمل قدرته»^(١).

ويقول: «فتأمل معنى قوله: ﴿فَأَنَّى تُصِرُّونَ﴾، أي: عن هذه العجائب والغرائب، التي فعلها فيكم ربكم ومعبودكم»^(٢).

ويقول القرطبي: «﴿فَأَنَّى تُصِرُّونَ﴾، أي: كيف تتقلبون وتتصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره»^(٣).

١- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٤/٢٧٠، ٢٧١.

٢- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٥/٣٢٣.

٣- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٥/٢٣٦.

المطلب الثاني: الظلمات الثلاث في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة

يمر الجنين خلال تخلقه وتكوينه بمراحل وأطوار، ينتقل من مرحلة إلى أخرى في ظلمات ثلاث داخل بطن الأم، والباعث عليها والمسبب لها -الظلمات- ثلاثة أشياء هي: جدار البطن، وجدار الرحم، وأغشية المشيمة، وهي بمثابة الأغشية الحاجبة للضوء^(١)، يقول موريس بوكاي: «إن الظلمات الثلاث هي الحواجز الثلاثة التي تفصل الجنين عن العالم الخارجي، فالجنين يعيش داخل المشيمة، التي توجد داخل الرحم، الذي يوجد بدورة داخل بطن الأنثى، وعلى هذا فالظلمات الثلاث يمكن تفسيرها بأنها ظلمة غشاء المشيمة، وظلمة الرحم، ثم ظلمة جدار البطن»^(٢).

فمن حكمة الله الخالق ﷻ أن خلق الجنين في جو مظلم، وقد ثبت علمياً أن هذا لا بد منه؛ لكي يتم الخلق كاملاً قوياً دون تشوه؛ فالخلايا الابتدائية لا تعيش في النور (الشمس) بل تجف، أو تتشوه، أو تموت^(٣)، لذلك يحذر الأطباء الأم الحامل في شهورها الأولى خاصة من الأشعة بأنواعها، ويقول علماء الأجنة إن وجود الجنين داخل الرحم في وسط مظلم هو أمر هام جداً لنموه، ويؤكد هؤلاء العلماء أنه لو لم يتوفر له هذا الوسط المظلم لما ولد الجنين في صورة سليمة، وكان مصاباً بعاهاث خلقية^(٤)، فالضوء عامة يؤدي الجنين، فقد يتسبب في إتلاف شبكية العين قبل اكتمال نموها، كما أن الضوء قد يؤدي خلايا الجنين، وقد يكون

١- انظر: موسوعة حقائق الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية في مواجهة الشبهات (شبهات

حول الإعجاز العلمي في الإنسان) إصدار الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة ٣/٧٥، ٧٨.

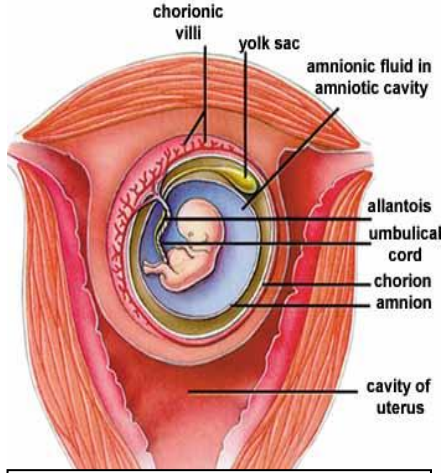
٢- موسوعة الإعجاز العلمي لعبد الرحيم مارديني ص٢٧٨، ٢٧٩.

٣- انظر: عجائب النظر والتأمل لأسامه الناعسه ص١٩٧.

٤- انظر: خلق الإنسان بين العلم والقرآن للرقعي ص٧٨.

فتاكاً بالنسبة إلى البويضة، بالإضافة إلى أن تخلق الجنين يعتمد على استساخ الخلايا، فإذا تأذت الخلايا الأولى تولدت الخلايا المنسوخة مع الأذى الذي لحق بالأولى^(١)، ولذلك ذكر (كيث إل مور) بأنه يحمي الجنين في رحم الأم ثلاثة أحجبه أو طبقات هي: الجدار البطني، والجدار الرحمي، والأغشية المشيمية^(٢).

ويوضح ما سبق أن الجنين يحاط في داخل الرحم بمجموعة من الأغشية هي من الداخل إلى الخارج كما يلي: (غشاء السلي أو الرهل، والغشاء المشيمي،



الحواجز المحيطة بالجنين من الأغشية
وجدار الرحم والبطن

والغشاء الساقط)، وهذه الأغشية الثلاثة تحيط بالجنين إحاطة كاملة فتجعله في ظلمة شاملة هي الظلمة الأولى.

ويحيط بأغشية الجنين جدار الرحم، وهو جدار سميك يتكون من ثلاث طبقات تحدث الظلمة الثانية حول الجنين وأغشيته، والرحم المحتوي على الجنين وأغشيته في ظلمتين متتاليتين يقع في وسط الحوض، ويحاط إحاطة

كاملة بالبدن المكون من كل من البطن والظهر، وكلاهما يحدث الظلمة الثالثة^(٣).

وهناك أقوال أخرى لبعض المعاصرين في تفسير الظلمات الثلاث، وهي:

القول الأول: إنها ظلمات الأغشية الثلاثة المحيطة بالجنين؛ لأن الآية الكريمة تحصر الظلمات الثلاث على أنها داخل البطن، فلا يعتبر البطن من الظلمات^(٤).

١- انظر: موسوعة حقائق الإعجاز في مواجهة الشبهات (شبهات حول الإعجاز في الإنسان) ٧٦/٣.

٢- انظر: كتاب إنه الحق للزنداني ص ٣٨.

٣- خلق الإنسان في القرآن الكريم للنجار ص ١٢٥-١٢٨، وإنه الحق للزنداني ص ٣٧.

٤- انظر: مع الطب في القرآن ص ٨٦، والموسوعة العلمية في إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية لمرعي ص ١٥٦.

القول الثاني: ظلمة الخصية، وظلمة المبيض، وظلمة الرحم^(١).

القول الثالث: ظلمة المبيضين، وظلمة الرحم^(٢).

القول الرابع: ظلمة تجويف أنبوب الرحم حيث تلقح البويضة، وظلمة تجويف الرحم حيث تعلق البويضة بغشاء الرحم وتخفي وراءه، وظلمة الأغشية والسائل الأمنيوسي المحيطة بالجنين؛ لأن تخلق الجنين في الآية كما ذكر الله ﷻ يبدأ في بطون الأمهات، فالظلمات يجب أن تكون في البطن وليس في الرحم فقط، ولأن قول الله ﴿خَلَقْنَا مِنْ بَعْدِ خَلْقِ﴾ تضعنا في صورة تطويرية ديناميكية متحركة للمراحل التي يمر فيها الجنين داخل الظلمات الثلاث، بمعنى أنه ينتقل من ظلمة إلى ظلمة خلال تطوره، وعلى هذا فإن تفسير الظلمات بجدار البطن والرحم والمشيمة يعطي تفسيراً غير دقيق من الوجهة التشريحية، والقول بأنها الأغشية التي تحيط بالجنين داخل الرحم يحمل النص القرآني ما لم ينص عليه، فلقد حددت الآية أن تخلق الجنين يمر في ظلمات ثلاث في بطون أمهاتنا، وليس في أرحام أمهاتنا، والرحم جزء من البطن وليس البطن كله، كما أن الأغشية المحيطة بالجنين تُحدث ظلمة واحدة وليس ظلمات ثلاث^(٣).

مناقشة الأقوال:

أما القول الأول فقد سبق أن أجيب عنه بأن الله ﷻ قال: ﴿فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ ولم يقل (في أرحام أمهاتكم)؛ للدلالة على أن الظلمات غير محصورة في الرحم فقط، ولكن هي في الرحم وخارجه.

١- انظر: مع الطب في القرآن لعبد الحميد دياب وأحمد قرقوز ص ٨٧.

٢- انظر: موسوعة حقائق الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية في مواجهة الشبهات (شبهات حول الإعجاز العلمي في الإنسان) ٨٣/٣.

٣- انظر: من علم الطب القرآني الثابت العلمية في القرآن الكريم لعبدنان الشريف ص ٨٢-٨٤.

غير أن هذا الجواب قد نوقش بأن الرحم جزء من البطن، وقد يعبر بالكل ويراد الجزء، كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾^(٢)، فالبطن في الآيتين جزء منها وهو الرحم، وإذا كانت الظلمات تحيط بالجنين داخل الرحم فيصح القول إنه محاط بالظلمات داخل البطن^(٣).

أجاب الأولون عن هذه المناقشة بأن كل غشاء من أغشية المشيمة المحيطة بالجنين داخل الرحم لا يشكل بمفرده ظلمة حسب التعبير القرآني لكلمة ظلمة، بل جميعها يشكل ظلمة واحدة فقط^{(٤)(٥)}.

رد الآخرون عن هذا الجواب: بأن كل غشاء منها يحدث نسبة من الظلمة، وكون كل منها محيطاً بالجنين على التتابع، فالجنين محاط بما يحدث ظلمات



الجنين داخل المشيمة تحيط به أغشيتها

ثلاث، ومعلوم أن الظلمة ذات نسب بعضها أشد من بعض، وكلما زادت الحجب زادت نسبة الظلمة في مكان تراه الأبصار بسبب ضوء أو نور يظهره^(٦)، ولو كانت هذه الأغشية كل

١- سورة النحل: الآية ٧٨.

٢- سورة النجم: الآية ٣٢.

٣- انظر: أثر الحقائق العلمية في ترجيح أقوال المفسرين لرياض عيدروس ص ٢١٤.

٤- انظر: موسوعة حقائق الإعجاز في مواجهة الشبهات (شبهات حول الإعجاز في الإنسان) ٨٣/٣، ٨٤.

٥- يقول مأمون شقفة: «تقف عند الأغشية، وخاصة (الكوريوني) فهو معتم، أما الساقط فهو بقايا تافهة حول العلقة، وأما الأمنيوسي فهو شاف، ولا يكون قد ملأ جوف البيضة بالكامل، وما يزال بعيداً عن الغشاء الكوريوني»، القرار المكين لمأمون شقفة ص ٢٧٦.

٦- انظر: عجائب النظر والتأمل لأسامه الناعسه ص ١٩٧.

واحد منها له شفافية تامة فلا يمكنها إحداث ظلمة واحدة، أما أن كل واحد منها قد حجب جزءاً من الضوء، فيكون لكل غشاء ظلمة ولو كانت يسيره، كما هو الحال في السحب التي تمتص جزء من أشعة الشمس وتشتت جزء آخر، وتسمح بنفاذ بقية الأشعة، وبالتالي تحجب جزءاً من أشعة الشمس عن البحر، كما تعالى: ﴿أَزْكَرُ كَظُلْمَتٍ فِي بَحْرِ لَيْلِي يَفْشَهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلْمَتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾^(١)، ولم تُحدث ظلمةً كاملةً، ومع هذا اعتبر الباحثون في الإعجاز العلمي ذلك حائلاً نسبياً لأشعة الشمس^(٢)، مما يجعل السحب أحد الحوائل المسببة للظلمات الموجودة في أعماق البحار، فكما اعتبرت ظلمة في السحب كذلك في غشاء الجنين^(٣).

ومع هذه المناقشات التي تقوي جانب هذا القول -الظلمات: أغشية المشيمة المحيطة بالجنين-، إلا أنه على خلاف ما عليه جمهور المفسرين، بل لم يقل به أحد من المفسرين المتقدمين^(٤)، كما أن ما ذهب إليه جمهور المفسرين -من أنها ظلمة البطن والرحم والمشيمة- أيده كثير من المعاصرين من أطباء وباحثين^(٥)، وهو ما يقويه ويرجح على غيره.

١- سورة النور: الآية ٤٠.

٢- انظر: الإعجاز العلمي في القرآن والسنة (منهج التدريس الجامعي) لعبد الله المصلح وعبد الجواد الصاوي وآخرون ص ٢٢٥، من إصدارات الهيئة العالمية للإعجاز العلمي، دار جواد، ط ١: ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.

٣- انظر: أثر الحقائق العلمية في ترجيح أقوال المفسرين لرياض عيروس ص ٢١٣، ٢١٤.

٤- كذلك باقي الأقوال -الثاني والثالث والرابع- لم تذكر عن أحد من المفسرين.

٥- انظر: تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم لزغلول النجار ٢٠٨/٣، ٢٠٩، وكتاب إنه الحق للزنداني ص ٣٨، وموسوعة الإعجاز العلمي لعبد الرحيم مارديني ص ٢٧٨، ٢٧٩، والقرار المكين لمأمون شقفة ص ٢٧٦، وموسوعة حقائق الإعجاز في مواجهة الشبهات (شبهات حول الإعجاز في الإنسان) ٨٢/٣.

وأما القول الثاني فضعيف؛ ويدل على ضعفه أن الآية تتحدث عن ظلمات ثلاث في بطون الأمهات، ولا شأن للخصية بذلك، فأين الخصية من بطون الأمهات^(١). وكذلك القول الثالث؛ إذ لا يقوم على أساس علمي، والمبيضان لا يتدخلان معاً في عملية تخلق البويضة، فهي تأتي من مبيض واحد ولا دور للآخر في ذلك، كما أن خروج البويضة من المبيض ليس في مرحلة تخلق الجنين^(٢).

ونوقش القول الرابع بأن الظلمات التي ذكرها ليست في مكان واحد، بل واحدة في قناة الرحم، والثانية في تجويف الرحم، والثالثة داخل الغشاء المشيمي، فليس بعضها فوق بعض، ولا تحيط كل ظلمة بالأخرى، كما في لو حملناها على ظلمة البطن والرحم والمشيمة، بالإضافة إلى أن استدلاله بقوله تعالى: ﴿خَلَقْنَا مِنْ بَعْدِ خَلْقِ﴾ على أنها تضعنا في صورة تطويرية ديناميكية متحركة للمراحل التي يمر بها الجنين داخل الظلمات الثلاث، بمعنى أنه ينتقل من ظلمة إلى ظلمة خلال تطوره، يردده أن تطور مراحل الجنين من نطفة ثم علقة ثم مضغة فعظام وكساء باللحم، حالاً من بعد حال، وطوراً من بعد آخر، هو أيضاً تنقل من مرحلة إلى أخرى، وهو خلق من بعد خلق حتى لو كان الجنين في موضعه^(٣).

وعليه فإن أقرب الأقوال إلى الصواب ما عليه جمهور المفسرين والمتأخرين، أن الظلمات الثلاث: (ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة أغشية المشيمة)، طالما أنه قد صح علمياً ما يرجحه، لأن الجنين كما قال كيث مور -وهو من أشهر علماء الأجنة- يحميه في رحم الأم ثلاثة أحجبه أو طبقات، وكل واحد يسبب ظلمة مستقلة.

١- انظر: موسوعة حقائق الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية في مواجهة الشبهات (شبهات حول الإعجاز العلمي في الإنسان) ٨٣/٣.

٢- انظر: المصدر نفسه.

٣- انظر: أثر الحقائق العلمية في ترجيح أقوال المفسرين من خلال التلث الأخير للقرآن ص ٢١٥.

المطلب الثالث: ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها

من خلال الدراسة التفسيرية والعلمية يتلخص ما يلي:

- * اختلف المفسرون في المراد بالظلمات الثلاث في قوله ﷻ: ﴿يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾، على أقوال، والذي عليه أكثر المفسرين أنها ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة، وهو الراجح.
- * في ذكر هذه الظلمات تنبيه على إحاطة علم الله بالأشياء، ونفوذ قدرته إليها في أشد ما تكون فيه من خفاء، وقد جعل الخالق هذه الظلمات عوازل تقي الجنين.
- * في هذه الظلمات من غرائب صنع الله وعجائبه ما يدل على عظمة شأن الخالق وكمال قدرته، مما يدعو إلى التعجب من الذين ينصرفون عن عبادته.
- * يمر الجنين خلال تخلقه وتكوينه بمراحل وأطوار، ينتقل من مرحلة إلى أخرى في ظلمات ثلاث داخل بطن الأم، والباعث عليها والمسبب لها -الظلمات- ثلاثة أشياء هي: جدار البطن، وجدار الرحم، وأغشية المشيمة، وقد ثبت علمياً أن وجود الجنين في وسط مظلم أمر هام جداً لنموه وسلامته.
- * يحاط الجنين داخل الرحم بمجموعة من الأغشية هي من الداخل إلى الخارج كما يلي: (غشاء السلي، والغشاء المشيمي، والغشاء الساقط)، وتجعله في ظلمة شاملة هي الظلمة الأولى، ويحيط بأغشية الجنين جدار الرحم الذي يتكون من ثلاث طبقات تحدث الظلمة الثانية، ويحاط الجنين إحاطة كاملة بالبدن المكون من كل من البطن والظهر، وكلاهما يحدث الظلمة الثالثة.
- * هناك أقوال للمعاصرين في تفسير الظلمات الثلاث، وجميعها وردت عليها مناقشات واعتراضات، وأقربها من القول الراجح أنها أغشية المشيمة المحيطة بالجنين، أما القول الراجح فالذي عليه جمهور المفسرين والمتأخرين، أن الظلمات

الثلاث: (ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة أغشية المشيمة)، طالما أنه قد صح علمياً ما يرجحه، لأن الجنين كما قال كيث مور -وهو من أشهر علماء الأجنة- يحميه في رحم الأم ثلاثة أحجبه أو طبقات، وكل واحد يسبب ظلمة مستقلة.

ومن خلال الدراسة التفسيرية والعلمية تظهر الآثار التالية:

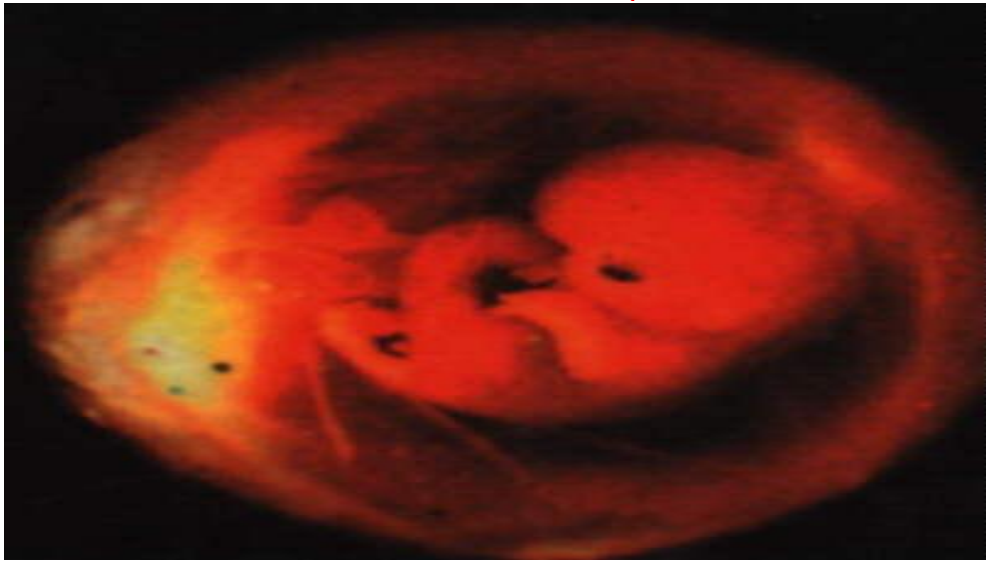
* بينت المكتشفات العلمية صحة ما ذهب إليه جمهور المفسرين في تفسيرهم للظلمات الثلاث: بظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة، فهي عوازل تقي الجنين، وتحجب عنه الضياء، ووضحت المكتشفات العلمية أن أغشية المشيمة المحيطة بالجنين لا تحدث إلا ظلمة واحدة، فلا يقوى إنزال الظلمات عليها.

* أظهرت المكتشفات العلمية وبينت سراً عظيماً من أسرار الخلق، وهو خلق الله ﷻ للجنين في ظلمات، وبينت الحكمة منه، فمن علم محمداً ﷺ هذا، ولم يكن عالماً بالتشريح والأجنة، إنه علم الله الذي أودعه في كتابه الكريم، معجزة دالة على صدق الرسول والرسالة.

* دمع شبهة المنكرين لإعجاز القرآن في إخباره عن خلق الجنين في ظلمات ثلاث^(١)؛ إذ أكدت الأبحاث العلمية الحديثة أن الجنين لا يكتمل خلقه بصورة كاملة سليمة إلا بوجود ظلام حالك في مراحل خلقه وتكوينه؛ حفاظاً على خلاياه وأعضائه، وإلا لخرج الجنين مشوهاً، أو لفسدت البويضة الملقحة ابتداءً بفعل

١- زاعمين أن قصارى ما تفيد الآية أن الجنين يعيش في ظلام داخل الأرحام، وقد تكون هذه الظلمة ظلمة مادية، أو معنوية روحية، ولا معنى لحصرها في ظلمات ثلاث، كما يجعلون من الاختلاف الواقع بين العلماء المعاصرين حول تحديد مصادر هذه الظلمات الثلاث مسوغاً لنفي الإعجاز عن الآية الكريمة، كما يطعنون في جعل المشيمة بأغشيتها إحدى هذه الظلمات الثلاث، زاعمين أنها لا تحيط بالجنين من جميع أطرافه، وأنها جسم شفاف يسمح بمرور الضوء إلى داخله، وبهذا فكيف يمكن اعتبارها إحدى هذه الظلمات الثلاث؟! وهم يخلصون بهذا إلى أن الآية الكريمة السابقة لا علاقة لها بالإعجاز العلمي القرآني في خلق الأجنة.

الضوء، وقد ذهب معظم علماء الإعجاز العلمي إلى أن الباعث على هذا الظلام ثلاثة أشياء تمثل ظلمات ثلاث، وهي: المشيمة بأغشيتها، ثم جدار الرحم، ثم جدار البطن أو بدن الإنسان، وهذا ما ذهب إليه جل المفسرين من قبل، وأثبت العلم الحديث أن الجنين يحاط بمجموعة من الأغشية داخل الرحم، هي بمثابة مركز الغذاء والحماية للجنين، وذلك بما تحويه من سوائل، وبروتينات، وأوعية دموية، وخلايا متنوعة، وهرمونات منشطة، وهذه الأغشية مجتمعة يطلق عليها المشيمة، وأكد العلماء أن هذه الأغشية بما تحويه من هذه الخلايا والهرمونات والأوعية الدموية تمثل ظلمة حالكة حول الجنين، وهي تحيط بالجنين إحاطة تامة من جميع جوانبه، وهي مجتمعة تمثل الظلمة الأولى على الجنين في مراحل تخلقه المختلفة في بطن أمه، مصداقاً لما جاء في قوله ﷺ: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلْمَةٍ ثَلَاثٍ﴾^(١).



الجنين في ظلمات

١- انظر للشبهة والرد عليها: موسوعة حقائق الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية في مواجهة الشبهات (شبهات حول الإعجاز العلمي في الإنسان) ٣/٧٥، ٧٦.

المبحث الرابع

تسوية البنان

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول:

تسوية البنان في القرآن الكريم.

المطلب الثاني:

تسوية البنان في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة.

المطلب الثالث:

ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها.

المطلب الأول: تسوية البنان في القرآن الكريم

الآيات الواردة:

قال الله ﷻ: ﴿يَلْقَى الْقَدِيرِينَ عَلَىٰ أَنْ تُسَوَّىٰ بِنَانِهِ﴾^(١).

أقوال المفسرين:

التسوية في اللغة تأتي بمعنى المماثلة والمعادلة، وتدل على استقامة واعتدال بين شيئين، يقال: ساوى الشيء الشيء إذا عادله، وسوى الشيء قومه وعدله وجعله سوية^(٢).

والبنان في اللغة: أطراف الأصابع من اليدين والرجلين، واحدته بنانة، وقيل: الأصابع أو أطرافها، ومعناه في قوله ﷻ: ﴿وَأَصْرِيئُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾^(٣)، الأصابع وغيرها من جميع الأعضاء^(٤).

وسميت البنان بذلك؛ لأن بها إصلاح الأحوال التي تمكّن الإنسان أن يُبَيِّنَ فيما يريد أي: يقيم^(٥).

وللمفسرين في تفسير قوله ﷻ: ﴿يَلْقَى الْقَدِيرِينَ عَلَىٰ أَنْ تُسَوَّىٰ بِنَانِهِ﴾، أقوال، وهي:

١- سورة القيامة: الآية ٤.

٢- انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٣/٨٥، ومختار الصحاح للرازي ص ٣٢٦، ولسان العرب لابن منظور ١٤/٤٠٨، ١٥/٤١٥، وتاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي ٣٨/٣٢٥، ٣٢٩، والمعجم الوسيط لإبراهيم مصطفى وآخرين ١/٤٦٦.

٣- سورة الأنفال: الآية ١٢.

٤- انظر: تهذيب اللغة للأزهري ١٥/٣٣٧، ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس ١/١٨٨، ولسان العرب لابن منظور ١٣/٥٩، والقاموس المحيط ص ١١٨١.

٥- انظر: المفردات في غريب القرآن للراغب ص ١٤٧، وبصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز لمحمد بن يعقوب الفيروزآبادي ٢/٢٧٦.

القول الأول: بلى قادرين على أن نجعلها شئناً واحداً كخف البعير، أو حافر الحمار^(١)، فلا يأخذ ما يأكل إلا بفيه كسائر البهائم؛ ولكنه فرق أصابع يديه يأخذ بها، ويتناول ويقبض إذا شاء ويبسط، وينتفع بها، فحسن خلقه^(٢)، وهو قول أكثر المفسرين^(٣)، وعليه فهو من باب التهديد والتوعد لهم في الدنيا^(٤).

القول الثاني: نقدر أن نعيد الإنسان في هيئة البهائم، فكيف في صورته التي كان عليها^(٥)، وهو كقول الله تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوبِينَ * عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٦)، أي عند البعث؛ للدلالة على قدرة الله.

القول الثالث: بلى قادرين على أن نسوي أطراف أصابعه وسلامياته^(٧)، يعني أن نجعل ما صغر منه ونؤلف بينه، ونعيد السلاميات على صغرهما، ولطافتها بعضها إلى بعض كما كانت أولاً من غير نقصان ولا تفاوت، فكيف بكبار العظام،

-
- ١- انظر: تنوير المقباس لابن عباس ١١٧/٢، وتفسير مقاتل بن سليمان ٤٢١/٣، وتفسير القرآن لعبد الرزاق الصنعاني ٣٣٣/٣، وجامع البيان في تأويل القرآن الطبري ٥٠/٢٤، وتفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ٣٥١/١٢، والوجيز في تفسير الكتاب العزيز للواحد ص ١١٥٣.
 - ٢- انظر: تفسير مقاتل بن سليمان ٤٢١/٣، وجامع البيان في تأويل القرآن الطبري ٥٠/٢٤، وتفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ٣٥١/١٢، والوجيز للواحد ص ١١٥٣.
 - ٣- انظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن للثعلبي ٨٣/١٠، والمحزر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية ٣٧٤/٥، وزاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ٤١٧/٨، وفتح القدير للشوكاني ٤٠٤/٥.
 - ٤- انظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ٤٣٢/٢، وتفسير البحر المحيط لأبي حيان ٣٧٦/٨.
 - ٥- نقل هذا القول: القرطبي في الجامع لأحكام القرآن ٩٤/١٩، وابن عادل في اللباب في علوم الكتاب ١٩/٥٤٧، والشرييني في السراج المنير ٣٢٠/٤، والشوكاني في فتح القدير ٤٧١/٥.
 - ٦- سورة الواقعة: الآيتان ٦٠، ٦١.
 - ٧- هي العظام التي بين كل مفصلين من مفاصل الأصابع، والواحدة سلامى. انظر: الكنز اللغوي في اللسن العربي لابن السكيت ص ٢٠٨، والمخصص لابن سيده ١٤٧/١.

فمن قدر على جمع هذا، فهو على جمع كبار العظام أقدر^(١)، وهذا عند البعث^(٢)، فهو إخبار بالقدرة على البعث^(٣).

وقد اختار القرطبي وابن جزري وابن عادل هذا القول؛ معللين بأنه أليق وأشبه بسياق الكلام^(٤)، وعلل أبو حيان والثعالبي لاختياره؛ بأنه الظاهر والمقصود من رصف الكلام^(٥)، وذلك أن السياق في إنكار البعث واستبعاده^(٦).

بالإضافة إلى مجيء نظير ذلك في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾^(٧)، والذي يرشد إلى أن الله سبحانه قادر بعد موت العبد وتلاشيه في التراب وتحول عظامه رميماً على أن يعيده تماماً، كما أنشأه أول مرة، ومن ضمن تلك الإعادة أن يسوي بنانه، أي: يعدلها وينشئها كما كانت أول مرة، وهذا أبلغ في القدرة، وفي الإلزام يوم القيامة^(٨).

وعليه فالمراد بتسوية البنان إعادة خلقها مقومة متقنة سوية^(٩)؛ لأن التسوية تقويم الشيء، وإتقان الخلق^(١٠).

- ١- انظر: تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص ٢٠٦، ومعاني القرآن وإعراجه للزجاج ٢٥١/٥، ومفاتيح الغيب للرازي ١٩٢/٣٠، ولباب التأويل في معاني التنزيل للخازن ١٨٣/٧، وفتح القدير للشوكاني ٤٠٤/٥.
- ٢- انظر: البحر المحيط في التفسير لأبي حيان ٣٧٦/٨، والجواهر الحسان للثعالبي ٣٦٥/٤.
- ٣- انظر: التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزري ٤٣٢/٢.
- ٤- انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٩٤/١٩، والتسهيل لعلوم التنزيل لابن جزري ٤٣٢/٢، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل ٥٤٧/١٩.
- ٥- انظر: البحر المحيط في التفسير لأبي حيان ٣٧٦/٨، والجواهر الحسان للثعالبي ٣٦٥/٤.
- ٦- انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٣٧٢/٨.
- ٧- سورة يس: الآية ٧٨.
- ٨- انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٣٧٢/٨.
- ٩- المحرر الوجيز لابن عطية ٣٧٤/٥، والجواهر الحسان للثعالبي ٣٦٥/٤، والتحرير والتنوير ٣١٦/٢٩.
- ١٠- انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور ٣١٦/٢٩.

وخص البنان بالذكر؛ لصغر ودقة عظامها وضعفها وتفرقها، وللتنبية بها على بقية الأعضاء^(١)، فكأن الكفار لما استبعدوا جمع العظام بعد الفناء والإرمام، قيل لهم: إنما تجمع ويسوى أكثرها تفرقاً وأدقها أجزاء وهي عظام الأنامل ومفاصلها^(٢). وقيل: إنما خص البنان بالذكر؛ لأنها آخر ما يتم خلقه فيتم به الخلق^(٣).

والظاهر والله أعلم أن القول الثالث هو أقوى الأقوال بالنظر إلى سياق الآية في السورة، فالسياق الذي وردت فيه الآية يترجح معه القول الثالث، بينما لا توجد مناسبة واضحة بينه وبين القول الأول، فالمقام كما رأينا مقام إثبات البعث والذي يناسبه بيان القدرة الإلهية على إعادة الخلق على صورته الأولى، لا فرق في ذلك بين ما دق منه وما عظم، أما جعل اليد كخف البعير، فالمقام الذي يناسبه هو مقام الامتتان على الإنسان بأن خلقه في أحسن تقويم، من ذلك أنه فرّق بين أصابعه ولم يخلقها مجتمعة؛ لأن ذلك يحول دونه ودون تحصيل مصالحه^(٤).

ولوجود نظير لها في آيات أخرى من كتاب الله الكريم مما يقوي حملها على ذلك، إلا أنه لا يوجد ما يمنع من صحة غيره؛ لما في جميعها من الدلالة على قدرة الله وعجز العبد.

-
- ١- انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٩٤/١٩، والتسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ٤٣٢/٢، والبحر المحيط لأبي حيان ٣٧٦/٨، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل ٥٤٧/١٩، وفتح القدير للشوكاني ٤٠٤/٥.
 - ٢- انظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية ٣٧٤/٥.
 - ٣- انظر: مفاتيح الغيب للرازي ١٩٢/٣٠، ولباب التأويل في معاني التنزيل للخازن ١٨٣/٧.
 - ٤- انظر: التفسير العلمي للقرآن الكريم بين النظريات والتطبيقات لهند شلبي ص ١٢٧، ١٢٨.

بالإضافة إلى أنه قد ورد في سبب نزولها الرد على منكري البعث^(١)، ومعرفة سبب النزول يعين على فهم الآية^(٢)، ومعين على اختيار المعنى المناسب^(٣).

١- قيل إنها نزلت في عدي بن أبي ربيعة قال للنبي ﷺ: حدثني عن يوم القيامة متى تكون، وكيف أمرها وحالها؟ فأخبره النبي ﷺ بذلك، فقال: لو عاينت ذلك اليوم لم أصدقك يا محمد، ولم أؤمن به، أو يجمع الله العظام؟! وقيل: إنها نزلت في عدو الله أبي جهل حين أنكر البعث بعد الموت. انظر: أسباب نزول القرآن للواحي ص ٤٦٩، والكشاف للزمخشري ٤/٦٦٠، ومفاتيح الغيب للرازي ٣٠/١٩٢، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٩/٩٣.

قلت: والآية وإن نزلت في إحداهما فإنها تشمل عموم الإنسان المكذب بالبعث؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، على أن جمع من الأصوليين قالوا: إن المراد بالإنسان المكذب بالبعث على الإطلاق. انظر: مفاتيح الغيب للرازي ٣٠/١٩٢.

٢- انظر: الإتيان في علوم القرآن للسيوطي ١/١٠٨.

٣- انظر: التفسير العلمي للقرآن الكريم بين النظريات والتطبيق لهند شلبي ص ١٢٤.

المطلب الثاني: تسوية البنان في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة

في عام ١٨٢٣م اكتشف عالم التشريح التشيكي (بركنجي) حقيقة البصمات، ووجد أن الخطوط الدقيقة الموجودة في رؤوس الأصابع (البنان) تختلف من شخص لآخر، ووجد ثلاثة أنواع من هذه الخطوط: (أقواس، أو دوائر، أو عقد، أو على شكل رابع يدعى المركبات)، لتركيبها من أشكال متعددة، وفي عام ١٨٥٨م، أشار العالم الإنجليزي (وليم هرشل) إلى اختلاف البصمات باختلاف أصحابها، مما يجعلها دليلاً مميزاً لكل شخص، وفي عام ١٨٧٧م اخترع (هنري فولدرز) طريقة وضع البصمة على الورق باستخدام حبر المطابع^(١).

وفي عام ١٨٩٢م أثبت (فرانسييس جالتون) أن صورة البصمة لأي إصبع تعيش مع صاحبها طوال حياته، فلا تتغير رغم كل الطوارئ التي قد تصيبه، وقد وجد العلماء أن إحدى المومياء^(٢) المصرية المحنطة احتفظت ببصماتها واضحة جلية، وأثبت (جالتون) أنه لا يوجد شخصان في العالم لهما نفس التعرجات الدقيقة، وقد أكد أن هذه التعرجات تظهر على أصابع الجنين وهو في بطن أمه.

وفي عام ١٨٩٣م أسس مفوض اسكتلند يارد (إدوارد هنري) نظاماً سهلاً لتصنيف وتجميع البصمات، إذ اعتبر أن بصمة أي إصبع يمكن تصنيفها إلى واحدة من ثمانية أنواع رئيسية، واعتبر أن أصابع اليدين العشر هي وحدة كاملة في تصنيف هوية الشخص، وأدخلت في نفس العام البصمات كدليل قوي في

١- انظر: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة ليوסף الحاج أحمد ص ١٦٩، ١٧٠، ودلائل الإعجاز العلمي لسيف الدين الكاتب ص ٦٧٤، ٦٧٥، والإعجاز العلمي في القرآن والسنة لعماد زكي البارودي ص ١٢٣، ١٢٤، المكتبة التوقيفية، القاهرة.

٢- المومياء: الجثة المحنطة، وجمعها مومياءات، ومومياءات. انظر: المورد (قاموس عربي إنجليزي) لروحي البعلبكي ص ١١٤٣، ومعجم اللغة العربية المعاصرة لأحمد مختار بمساعدة فريق عمل ٢٠١٤٠/٣.

دوائر الشرطة في اسكتلند يارد، ثم أخذ العلماء منذ اكتشاف البصمات بإجراء دراسات على أعداد كبيرة من الناس من مختلف الأجناس، فلم يعثر على مجموعتين متطابقتين أبداً^(١).

والبصمة تتكون من خطوط بارزة في بشرة الجلد تجاورها منخفضات، وتعلو الخطوط البارزة فتحات المسام العرقية، تتماهى هذه الخطوط وتتلقى، وتتفرع عنها تغصنات وفروع، لتأخذ في النهاية وفي كل شخص شكلاً مميزاً^(٢).

وتبين للعلماء بالفحص والتصوير والتكبير أن خطوط البصمات تتألف من أقواس ومنحنيات، ومنحدرات، وزوايا، وتفرعات، وهذه الخطوط قد تلتحم، وقد تتفرع، والأقواس قد تكون صغيرة أو واسعة ملتحمة أو منفصلة، والخطوط قد تشكل دوائر أو منحنيات، وقد تمكنا من وضع صفات لهذه الخطوط كدليل لدراستها، وهي الصفات التالية: (الميل، الانحناء، الالتحام، الاستدارة، التمرکز، التعرج، التفرع، الطول، السماكة، انتهاء الخطوط، والتحامها)، فإذا تطابقت هذه الصفات لبصمتين فهما لنفس الشخص حتماً^(٣).

ومن الثابت علمياً أن هذه الخطوط الدقيقة البارعة -بصمات البنان- قد خطت ورسمت بعناية فائقة عندما كان الإنسان جنيناً في رحم أمه في شهره الثالث أو الرابع، ثم تتكامل تماماً عند ولادته، وتظل ثابتة ومميزة طوال حياته^(٤).

١- انظر: موسوعة الإعجاز العلمي ليوسف الحاج أحمد ص ١٧٠، ودلائل الإعجاز العلمي لسيف الدين

الكاتب ص ٦٧٥، والإعجاز العلمي في القرآن والسنة للبارودي ص ١٢٤.

٢- انظر: مع الطب في القرآن الكريم للطبيبين عبد الحميد دياب وأحمد قرقوز ص ٢٣.

٣- انظر: الفلك والطب أمام عظمة القرآن لأكرم أحمد إدريس ص ١٨٠.

٤- خلق الإنسان بين الطب والقرآن للبار ص ٢٦٣، وموسوعة الإعجاز العلمي ليوسف الحاج ص ١٧٠.

وثبت علمياً أن البصمات تختلف من شخص لآخر، فلا تتطابق أبداً بين شخصين على ظهر هذه الأرض، ولذلك أصبحت بصمات الأصابع دليلاً هي الوسيلة المثلى لتحديد هوية الأشخاص^(١)، فهي من أهم وسائل الاستعراف، وأقوى الدعائم التي بني عليها تحقيق الشخصية، ونظراً لخاصية عدم تغيرها وبقائها على حالتها، فقد اعتبرت وسيلة ثابتة مؤكدة لتحقيق الشخصية، وتميز أي فرد من غيره، وتعتبر دليلاً قاطعاً في الإثبات أمام القضاء إذا توفرت الخبرة في التعامل معها، ولو لم تدعمها أدلة أخرى، ولا تقبل النقص والطعن؛ إذ لم يعثر على بصمتين متطابقتين منذ سنة ١٨٢٣م، وقد أثبت علماء البصمة بطرق علمية استحالة تطابق بصمتين لشخصين مختلفين -حتى في التوائم المتماثلة التي أصلها من بويضة واحدة- أو لأصبعين مختلفين لشخص واحد، وذلك لأن احتمال التطابق عندهم لا يحصل إلا في ملايين أضعاف عدد سكان الكرة الأرضية^(٢).

ومن الثابت أن بصمة الإنسان تزداد في الحجم مع نمو الجسم؛ ولكنها تظل محتفظة برسمها وشكلها وتفاصيلها المميزة لشخصه طيلة حياته، مما يجعلها دليلاً قاطعاً عليه، وميزة ثابتة له؛ لأنه حتى لو تقاربت في الشكل بصمتا بنائين مختلفين، فإنه لا يمكن لهما أن تتطابقا تطابقاً كاملاً في التفاصيل أبداً^(٣).

١- انظر: خلق الإنسان للبار ص ٢٦٣، وموسوعة الإعجاز العلمي ليويسف الحاج أحمد ص ١٧٠، ومع

الطب في القرآن لدياب وقرقوز ص ٢٣، والفلك والطب أمام عظمة القرآن لأكرم أحمد إدريس ص ١٨٠.

٢- انظر: أثر الطب الشرعي في إثبات الحقوق والجرائم لطارق صالح ص ١٦٦-١٦٩، والطب الشرعي وأدلته الفنية ودوره الفني في البحث عن الجريمة لعبد الحميد المنشاوي ص ٥٠، ٥١، ومع الطب في القرآن الكريم للطبيين عبد الحميد دياب وأحمد قرقوز ص ٢٣.

٣- انظر: تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم للنجار ٤/٢٣٤، ومع الطب في القرآن الكريم ص ٢٣.

فخطوط البصمة تمثل ختماً خاصاً لكل فرد من أفراد الجنس البشري أعطاه الله تعالى إياه، وخص الإنسان به دون سائر المخلوقات، وهذا الختم الإلهي لا يمكن تقليده، وقد أعطاه الله القدرة على الثبات وعدم التغير، وعلى إعادة التشكيل بالهيئة نفسها عند تعرضه لأيّة مؤثرات خارجية كالحرق، أو القطع، أو بعض الأمراض الجلدية، أو بعض ممارسة المهن الشاقة^(١)، وتبقى هذه الخطوط بأشكالها، وتفرعاتها، ومواضع اتصالها أو انفصالها ثابتة لا تتغير أبداً، حتى تبقى هوية ربانية دائمة لكل واحد من بني الإنسان، إلا إذا تم تشويه الأنامل تشويهاً كاملاً، ووصل هذا التشويه إلى الطبقة السفلى من الجلد، وهي الطبقة المعوضة للبصمة فلا تعوض، ويتم التهام الجلد ليبقى علامة مميزة أخرى بما يحمل من آثار مشوهة^(٢). فإذا حاول الإنسان تغيير البصمة بكل الطرق فإنها لا تتغير، وتعاود سيرتها الأولى وشكلها الأول^(٣)، إلا إذا أحدث الإنسان بها إتلافاً كاملاً وتشويهاً يحوها، ويحل محلها نُدبة، وتكون هذه الندبات والتليفات التي حلت محل البصمة لإخفائها دليلاً آخر من دلائل محاولة إخفاء شخصيته التي تتم وتكشف عنها بصمته^(٤).

١- وهذا ما أكدته البحوث والدراسات التي قام بها (فرانسيس غالتون) ١٨٩٢م، ومن جاء بعده، حيث قررت ثبات البصمات الموجودة على أطراف الأصابع رغم كل الطوارئ. انظر: موسوعة الإعجاز العلمي ليوسف الحاج أحمد ص ١٧١.

٢- انظر: تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم للنجار ٤/٢٣٥، ٢٣٦.

٣- وقد حدث أن بعض المجرمين بمدينة (شيكاغو) الأمريكية تصوروا أنهم قادرون على تغيير بصماتهم فقاموا بنزع جلد أصابعهم واستبدلوها بقطع لحمية جديدة من مواضع أخرى من أجسامهم، إلا أنهم أصيبوا بخيبة الأمل عندما اكتشفوا أن قطع الجلد المزروعة قد نمت واكتسبت نفس البصمات الخاصة بكل شخص منهم. انظر: موسوعة الإعجاز العلمي ليوسف الحاج أحمد ص ١٧٢.

٤- انظر: الكون والإنسان بين العلم والقرآن لبسام دِفَضَع ص ٢٢٥.

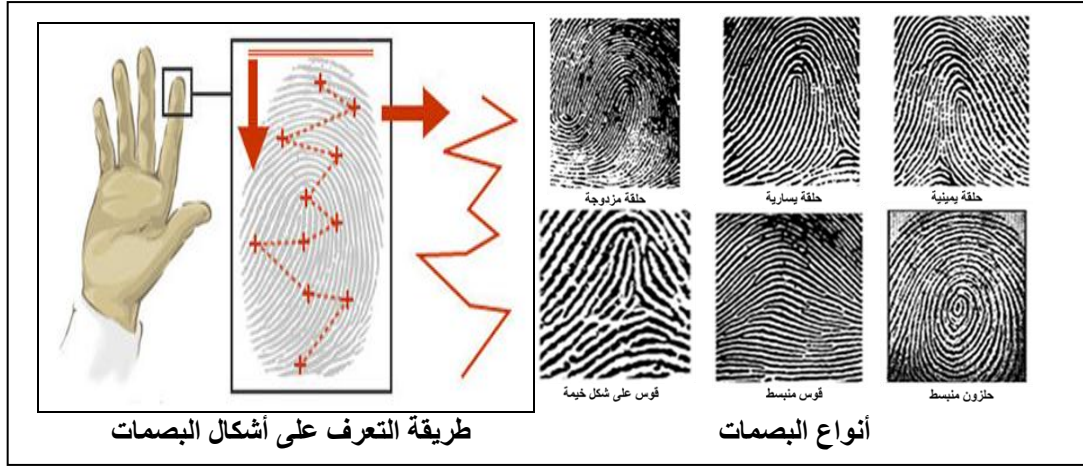
ومن الثابت علمياً أن البصمات هي صفات فردية محضة لا تورث، ولا تتأثر بعامل النسب، ومن هنا كانت أهميتها في مجال تحقيق الشخصية، ويمكن استخدامها كذلك في التعرف على شيء من صفات الشخص من مثل الجنس، والعمر، والحالة الصحية، والحجم (وذلك لتناسب حجم البصمة مع حجم الجسم) وغير ذلك، والبصمات تترك آثارها على كل جسم تلمسه^(١)، وبها يتم تتبع العديد من المجرمين، ومعرفة تفاصيل حدوث الجريمة^(٢).

لقد قام الأطباء بدراسات تشريحية عميقة على أعداد كثيرة من الناس من مختلف الأجناس والأعمار، حتى وقفوا أمام الحقيقة العلمية ورؤوسهم منحنية ولسان حالهم يقول: «لا أحد قادر على التسوية بين البصمات المنتشرة على كامل الكرة الأرضية ولو بين شخصين فقط»، وهذا ما جعل كل بلدان العالم تستخدمه كدليل قاطع للتعرف على الأشخاص، ولا تزال (البصمات) إلى اليوم أمضى سلاح يشهر في وجه المجرمين^(٣).

١- يعثر على وجود البصمات غالباً على الأشياء التي لامسها الجاني، كزجاج النافذة، أو مقبض الباب، أو الدولاب، أو الخزانة التي فتحها، أو على الآلات التي كان يحملها وتركها في موقع الحادث، وتحتاج معرفتها إلى خبراء متخصصين؛ لمعاينة مكان الجريمة؛ لرفع آثار البصمات، ويؤخذ في الاعتبار اختلاف هذه الآثار من حيث الوضوح وعدمه، ويتم إظهار البصمات الخفية بإحدى طرق ثلاث: (١) بواسطة مساحيق لها قدرة على الالتصاق على موضع الفحص إذا كان مستوياً لا نتوءات فيه، (٢) والأشعة فوق البنفسجية، إذا كان السطح ذا ألوان بعد رشه بمادة تلتصق بمادة الأثر، وتُظهر خطوطه، ويتم تصويرها بعد ذلك، (٣) والطرق الكيميائية، خاصة إذا مضى على البصمات زمن طويل، وغالباً تكون للأسطح نصف مسامية كالورق، والمستندات. انظر: القضاء بالقرائن المعاصرة لإبراهيم بن ناصر ص ٦، والطب الشرعي وأدلته الفنية ص ٥١.

٢- انظر: تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم للنجار ٤/٢٣٥، ٢٣٦.

٣- موسوعة الإعجاز العلمي ليويسف الحاج أحمد ص ١٧٢.



ولهذا يرى معاصرون من أطباء وباحثين في الإعجاز العلمي أنه قد يكون هذا هو السر الذي خصص الله تبارك وتعالى من أجله البنان، أي ليلفتنا إلى عظيم قدرته حيث أودع سرّاً عجيباً في أطراف الأصابع، وهو ما نسميه بالبصمة^(١)، ويريد أن يبين للإنسان ولو بعد قرون من نزول هذه الآية الكريمة أن الله قادر على أن يعيد بناء ما يميزه عن باقي بني البشر الذين مروا على هذه الحياة^(٢)، لتؤكد إعادة بصمة كل بنان مع بعث كل ميت^(٣)، وفي هذا بيان كاف لأن يؤمن الإنسان بأن البعث حق، كما أن الموت حق^(٤).

إلا أن هذا التفسير العلمي اعترض عليه بأن الاكتشافات العلمية أتت بقول جديد في التفسير، إلا أنه مرجوح؛ للتالي:

- ١- انظر: البصمات إعجاز وتحدي لعبد الله محمد اليوسف، بحث قدم في المؤتمر العالمي السابع للإعجاز العلمي بدولة الإمارات- دبي، العلوم الطبية، وظائف الأعضاء، الجلسة الثالثة، ٢٠٠٤م، ص٢.
- ٢- انظر: مع الطب في القرآن الكريم للطبيبين عبد الحميد دياب وأحمد قرقوز ص٢٤، وموسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة ليوسف الحاج أحمد ص١٧٣.
- ٣- انظر: تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم للنجار ٢٣٦/٤.
- ٤- انظر: مع الطب في القرآن الكريم ص٢٤.

١- لأن في ذلك خروجاً عن المعنى اللغوي للبنان؛ لأن البنان في اللغة الأصابع، أو أطراف الأصابع، فحمل ذلك على البصمة دون غيرها لا يصح، إلا إن قيل: أن نسوي بنانه بما فيها من بصمة وغيرها فهذا أمر آخر.

٢- لأن التسوية قد تأتي بمعنى التقويم والإتقان والخلق، وقد تأتي بمعنى جعلها سواء، فلا يستفاد منها، والمعنى الأول يعترض عليه بما سبق، أما إذا قلنا بالثاني فإن الأولى ما ذهب إليه المفسرون، أي: نجعلها شيئاً واحداً كخف البعير، ولا يمكن أن يكون المراد: إننا قادرين على أن نسوي البنان الدقيقة العجيبة (وهي البصمة) لتكون متساوية متطابقة مع بعضها، وذلك أن عظمة الإعجاز تكمن في اختلاف هذه البصمات، وليس في جعلها شيئاً واحداً متساوياً، فإبراز القدرة إنما تكون فيما هو أصعب وأكثر غرابة من الموجود وليس فيما هو أسهل^(١).

غير أن هذا الاعتراض لم يسلم من الطعن فيه؛ للتالي:

أ- لأنه سواء فسر لفظ البنان بالأصابع الصغيرة اللطيفة المشتملة على المفاصل والأظافر والعروق اللطاف والعظام الدقاق^(٢)، أو فسر بأطراف الأصابع وما فيها من غرابة الوضع ودقة الصنع^(٣)، فإن المعنى اللغوي للفظه يؤدي هذه المعاني كلها على وجه الحقيقة، لا المجاز؛ لأن لفظة البنان في اللغة لها مدلول قد يضيق وقد يتسع، فهي تعني الأصابع، أو أطرافها، كما يراد بها الأيدي والأرجل، أو جميع أعضاء البدن^(٤).

١- انظر: أثر الاكتشافات العلمية في تفسير القرآن الكريم لصالح صواب، منشور في مجلة معهد الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية، العدد الخامس، جماد الآخرة ١٤٢٩هـ، ص ٥٢، ٥٣، والتفسير العلمي للقرآن الكريم بين النظريات والتطبيق لهند شلبي ص ١٢١.

٢- انظر: فتح القدير للشوكاني ٤٠٤/٥.

٣- انظر: صفوة التفاسير للصابوني ٤٣٣/٣.

٤- انظر: لسان العرب ٥٩/١٣، والتفسير العلمي للقرآن الكريم بين النظريات والتطبيق ص ١٢٨-١٣٠.

كذلك من المعاصرين من بنى اعتراضه على فهم خاطئ؛ إذ فهم من تفسير الطبري أن المقصود بالتسوية هو جعل طول الأصابع متساوية، وهذا لم يقله الطبري ولا غيره، وإنما قصدوا بالتسوية جعلها شيئاً واحداً كخف البعير أو حافر الحمار^(١).

ب- أن المعاصرين ركزوا في فهم الآية على لفظة البنان لا من حيث دلالتها اللغوية؛ فإنهم يكادون يتفقون، إنما اتجهوا إلى بيان الحكمة من ذكر إعادة خلق البنان في الآية دون غيرها من أجزاء جسم الإنسان كناية على صدق البعث، ومهما اختلف تعبير الباحثين في التفسير العلمي عن مرادهم بمصطلح (البصمة) إلا أنهم يقصدون بذلك الخطوط والتجاويف التي تحملها أطراف الأصابع والتي تميز شخصية الإنسان، وهي بلا شك جزء من الأصابع، فعندما يستشهدون بالتفسير العلمي يريدون من ذلك أن الله حدثنا عن قدرته في إعادة كل أجزاء ومفاصل الإنسان ومن ذلك إعادة هذه الخطوط والرسوم المميزة لشخصية كل إنسان^{(٢)(٣)}.

١- انظر: التفسير العلمي للقرآن الكريم بين النظريات والتطبيقات ص ١٢٨.

٢- انظر: التفسير العلمي للقرآن الكريم بين النظريات والتطبيقات لهند شلبي ص ١٣١، وأثر الحقائق العلمية في ترجيح أقوال المفسرين من خلال الثلث الأخير للقرآن الكريم لرياض عيدروس ص ٢٨٤.

٣- يقول الصابوني: «أي: بلى نجمعها ونحن قادرون على أن نعيد أطراف أصابعه، التي هي أصغر أعضائه، وأدقها أجزاءً وأطفها التماماً، فكيف بكبار العظام؟ وإنما ذكر تعالى البنان، وهي رعوس الأصابع؛ لما فيها من غرابة الوضع، ودقة الصنع؛ لأن الخطوط والتجاويف الدقيقة التي في أطراف أصابع إنسان، لا تماثلها خطوط أخرى في أصابع شخص آخر على وجه الأرض، ولذلك يعتمدون على بصمات الأصابع في تحقيق شخصية الإنسان في هذا العصر». صفوة التفاسير ٣/٤٦٠.

ج- أما مصطلح البصمة فإن العائد إلى المعاجم اللغوية القديمة يلاحظ عدم ورودها فيها لفظاً ومعنى^(١)(٢)، وإنما ذكر في المعاجم المعاصرة أن البصمة: أثر الإصبع في شيء ما، وأثر الختم بالإصبع، أو علامة تُرسم على قماش أو ورق ونحوهما^(٣)، والإشكال في تفسير بعض المعاصرين إنزالهم المعنى على البصمة كدلالة مطابقة^(٤)، فكأن المراد من قوله تعالى: ﴿سُئِيَ بِنَاتِهِ﴾، إعادة هذه البصمة كما كانت في الدنيا، والصحيح أن يكون ذلك دلالة تضمن^(٥)، بحيث يقال: إن الله قادر على إعادة البنان وهي الأصابع أو أطراف الأصابع إلى حالتها، ومما يتضمن هذه الإعادة ما تحويه هذه الأصابع من خطوط ورسوم تسمى بـ(البصمة)، فكأن في الآية إشارة إلى سر من أسرار الخلق موجود في أطراف هذه البنان^(٦).

والله أعلم

- ١- انظر: التفسير العلمي للقرآن الكريم بين النظريات والتطبيقات لهند شلبي ص ١٣٢.
- ٢- إنما ورد مصطلح (بُصْم) بالضم، وهو ما بين طرف الخنصر إلى طرف البنصر، ورجل أو ثوب ذو بصم: غليظ، وثوب له بصم: إذا كان كثيفاً كثير الغزل. لسان العرب ٥١/١٢، والقاموس المحيط ص ١٠٨٠.
- ٣- انظر: المعجم الوسيط ٦٠/١، ومعجم اللغة العربية المعاصرة ٢١٤/١.
- ٤- دلالة اللفظ على تمام المعنى الموضوع له اللفظ. انظر: الإبهاج في شرح المنهاج للسبكي ٢٠٥/١.
- ٥- دلالة اللفظ على جزء مسماه. انظر: نهاية السؤل شرح منهاج الوصول للإسوي ص ٨٦.
- ٦- انظر: أثر الحقائق العلمية في ترجيح أقوال المفسرين لرياض عيروس ص ٢٨٤، ٢٨٥.

المطلب الثالث: ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها

من خلال الدراسة التفسيرية والعلمية يتلخص ما يلي:

- * التسوية في اللغة تأتي بمعنى المماثلة والمعادلة، وبمعنى التقويم والتعديل. والبنان في اللغة: الأصابع أو أطرافها، الأصابع أو غيرها من جميع الأعضاء.
- * للمفسرين في تفسير قوله ﷺ: ﴿بَلْ قَدَرِينَا عَلَّٰمٌ أَنْ تُسَوَّىٰ بَنَانُهُ﴾، أقوال: أولها: نجعلها شيئاً واحداً كخف البعير أو حافر الحمار، من باب التهديد والتوعد لهم في الدنيا.

الثاني: إعادة الإنسان في هيئة البهائم، فكيف في صورته التي كان عليها. الثالث: تسوية أطراف أصابعه وسلامياته، بجمع ما صغر والتأليف بينه وإعادة بعضها إلى بعض كما كانت أولاً، فكيف بكبار العظام، وهذا عند البعث، وقد اختاره القرطبي وابن جزري وابن عادل؛ لأنه أليق وأشبه بسياق الكلام، وأبو حيان والثعالبي؛ لأنه الظاهر والمقصود من رصف الكلام؛ لأن السياق في إنكار البعث واستبعاده، والمراد إعادة خلقها مقومة متقنة سوية، وخص البنان بالذكر؛ لصغر ودقة عظامها وضعفها وتفرقها، وللتنبية بها على بقية الأعضاء، وقيل: لأنها آخر ما يتم خلقه فيتم به الخلق.

- * الظاهر أن القول الثالث هو أقوى الأقوال؛ لسياق الآية في السورة، المتحدث عن إثبات البعث، ولوجود نظير لها في آيات أخرى من كتاب الله الكريم كما في سورة (يس)، بالإضافة إلى أنه قد ورد في سبب نزولها الرد على منكري البعث.
- * البصمة تتكون من خطوط بارزة في بشرة الجلد تجاورها منخفضات، وتعلو الخطوط البارزة فتحات المسام العرقية، تتماهى هذه الخطوط وتتلقى، وتتفرع عنها تغصنات وفروع، لتأخذ في النهاية وفي كل شخص شكلاً مميزاً، وقد وضع العلماء

عدة صفات لهذه الخطوط كدليل لدراستها، وإذا تطابقت اثنتي عشرة صفة لبصمتين فهما لنفس الشخص حتماً، ومن الثابت أن هذه الخطوط قد خُطت والإنسان جنين، ثم تتكامل تماماً عند ولادته، وتظل ثابتة ومميزة طوال حياته.

* ثبت علمياً أن البصمات تختلف من شخص لآخر، فلا تتطابق أبداً بين شخصين حتى في التوائم المتماثلة التي أصلها من بويضة واحدة، ولا حتى بين أصبعين مختلفين لشخص واحد، ولذلك أصبحت بصمات الأصابع دليلاً هي الوسيلة المثلى لتحديد هوية الأشخاص.

* من الثابت أن بصمة الإنسان تزداد في الحجم مع نمو الجسم؛ ولكنها تظل محتفظة برسمها وشكلها وتفصيلها المميزة لشخصه طيلة حياته، ولا تتغير، ولها قدرة على إعادة التشكيل بالهيئة نفسها عند التعرض لأيّة مؤثرات خارجية كالحرق، أو القطع، إلا إذا وصل هذا التشويه إلى الطبقة السفلى من الجلد المعوضة للبصمة، فلا تعوض، ويتم التهام الجلد ليبقى علامة مميزة أخرى بما يحمل من آثار مشوهة.

* من الثابت علمياً أن البصمات صفات فردية محضة لا تورث، ولا تتأثر بعامل النسب، ويمكن استخدامها كذلك في التعرف على شيء من صفات الشخص كالجنس، والعمر، وغير ذلك، والبصمات تترك آثارها على كل جسم تلمسه.

* يرى معاصرون من أطباء وباحثين في الإعجاز العلمي أن السر في تخصيص البنان بالذكر لفتنا إلى عظيم قدرته تعالى حيث أودع سرّاً عجيباً في أطراف الأصابع (البصمة)، وليبين للإنسان قدرته على أن يعيد بناء ما يميزه عن باقي بني البشر، وتؤكد الآية إعادة بصمة كل بنان مع بعث كل ميت.

* هذا التفسير العلمي اعترض عليه بخروجه عن المعنى اللغوي للبنان، ولا يمكن أن يكون المراد: إننا قادرون على أن نسوي البنان الدقيقة العجيبة (وهي البصمة) لتكون متساوية متطابقة مع بعضها؛ لأن عظمة الإعجاز تكمن في اختلاف هذه البصمات، وليس في جعلها شيئاً واحداً متساوياً، فإبراز القدرة إنما تكون فيما هو أصعب وأكثر غرابة من الموجود وليس فيما هو أسهل.

غير أن هذا الاعتراض لم يسلم من الطعن فيه؛ لأن المعنى اللغوي للفظه البنان يصدق حقيقة على ما ذكره المعاصرون؛ لأن لفظة البنان في اللغة لها مدلول قد يضيق وقد يتسع ليشمل جميع أعضاء البدن، ولأن المعاصرين ركزوا في فهم الآية على لفظة البنان لا من حيث دلالتها اللغوية، فإنهم يكادون يتفقون، إنما اتجهوا إلى بيان الحكمة من ذكر إعادة خلق البنان في الآية دون غيرها من أجزاء جسم الإنسان كناية على صدق البعث، فعندما يستشهدون بالتفسير العلمي يريدون من ذلك أن الله حدثنا عن قدرته في إعادة كل أجزاء ومفاصل الإنسان ومن ذلك إعادة هذه الخطوط والرسوم المميزة لشخصية كل إنسان، وحقيقة الإشكال في إنزال بعض المعاصرين المعنى على البصمة كدلالة مطابقة، والصحيح أن يكون ذلك دلالة تضمن، فالله قادر على إعادة البنان كما بدأها ومن ضمن ذلك ما تحويه هذه الأصابع من خطوط ورسوم تسمى بـ(البصمة).

ومن خلال الدراسة التفسيرية والعلمية تظهر الآثار التالية:

* أظهرت الحقائق العلمية كشافاً جديداً وسراً من أسرار البنان، وفي هذا إشارة إلى أهمية التحدي بهذه الأعضاء الدقيقة في إعادة خلق الإنسان وبعثه يوم القيامة، إذ من قدر على إعادة البنان وما تحويه من رسوم وخطوط، فهو أقدر على جمع وإعادة العظام الأخرى لبدن الإنسان^(١).

* المكتشفات العلمية تقوي القول الثالث للمفسرين، وتشهد له بالرجحان، شأنها شأن باقي الأدلة التي استدل بها المفسرون في تقوية هذا القول من الاستشهاد بسياق الآية، وسبب نزولها، ووجود نظير لها في سورة يس.

* المكتشفات العلمية عمقت من فهمنا لمقصود الآية الكريمة.

* الإعجاز البياني للقرآن الكريم، بتعدد دلالات ألفاظه؛ فلفظة (البنان) قد يضيق ويتسع معناها، ويشمل عدة تعبيرات، وكلها تحتلها اللغة، وتحتل ما ذكره المفسرون، والكشف العلمي يؤيد ذلك، فالبصمة التي تشتملها البنان تختلف من شخص لآخر سواء في أصابع اليدين أو الرجلين، بل في الشخص نفسه، بل هناك بصمات لكثير من أعضاء ومنافع الجسد، وهذا الأمر يبين لنا دقة تعبير القرآن الكريم عن هذا الأمر بهذه اللفظة.

* سبق القرآن الكريم لجميع المعارف المكتسبة، وذلك بذكر القدرة الإلهية على إعادة تسوية البنان كما بدأت في معرض الرد على من كفر بالبعث، وذلك يشمل إعادة تسوية ما أودع فيها من سر عجيب في أطرافها، وكأن الآية الكريمة تشير إلى هذا السر العجيب، مما يدل على استحالة كون القرآن صناعة بشرية.

١- انظر: أثر الحقائق العلمية في ترجيح أقوال المفسرين لرياض عيدروس ص ٢٨٥.

المبحث الخامس

مدة الحمل

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول:

مدة الحمل في القرآن الكريم.

المطلب الثاني:

مدة الحمل في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة.

المطلب الثالث:

ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها.

المطلب الأول: مدة الحمل في القرآن الكريم

الآيات الواردة:

قال الله ﷻ: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَمِّمَ الرِّضَاعَةَ﴾^(١).

وقال ﷻ: ﴿وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾^(٢).

وقال ﷻ: ﴿وَفِصْلُهُ فِي عَامَيْنِ﴾^(٣).

أقوال المفسرين:

أولاً: أقل مدة الحمل

أجمع المفسرون على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر^(٤)؛ لما روي عن عمر ﷻ أنه أتت امرأة قد ولدت لستة أشهر، فهم برجمها، فبلغ ذلك علياً ﷻ فقال: ليس عليها رجم، فبلغ ذلك عمر ﷻ، فأرسل إليه فسأله؟ فقال: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَمِّمَ الرِّضَاعَةَ﴾^(٥)، وقال: ﴿وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾^(٦)، فستة أشهر حمله حولين تمام، لا حد عليها، أو قال: لا رجم عليها، قال: فخلى عنها،

١- سورة البقرة: الآية ٢٣٣.

٢- سورة الأحقاف: الآية ١٥.

٣- سورة لقمان: الآية ١٤.

٤- انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي ابن أبي طالب ٣٦٨٠/٥، وبحر العلوم للسمرقندي ٢٧٣/٣، والوجيز في تفسير الكتاب العزيز للواحد ص ٩٩٥، والكشاف للزمخشري ٣٠٦/٤، ومفاتيح الغيب للرازي ١٤/٢٨، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٩٤/١٦، وأنوار التنزيل للبيضاوي ١٨٠/٥، والتسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ٢٧٦/٢، ولباب التأويل للخازن ١٥٩/٦، وتفسير البحر المحيط لأبي حيان ٦١/٨، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ١٩١/٤، والجواهر الحسان للثعالبي ١٥١/٤، وتفسير الجلالين ص ٦٦٨، وتيسير الكريم الرحمن للسعدي ص ١٠٤، وأضواء البيان للشنقيطي ٢٢٣/٧، وصفوة التفاسير للصابوني ٢١٦/٣.

٥- سورة البقرة: الآية ٢٣٣.

٦- سورة الأحقاف: الآية ١٥.

ثم ولدت^(١)، وروي أن عثمان رضي الله عنه أتى بامرأة وضعت لسته أشهر، فأمر عثمان برجمها، فقال له ابن عباس: إن خاصمتكم بكتاب الله فخصمتكم، قال الله تعالى: ﴿وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾^(٢)، فالحمل ستة أشهر، والرضاع سنتان، قال: فدرأ عنها^(٣).

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾: «وقد استدل علي رضي الله عنه بهذه الآية مع التي في لقمان ﴿وَفِصْلُهُ فِي عَامَيْنِ﴾^(٤)، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَمِّمَ الرِّضَاعَةَ﴾^(٥) على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، وهو استنباط قوي وصحيح، ووافقه عليه عثمان وجماعة من الصحابة رضي الله عنهم»^(٦).

وقال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾، هذه الآية الكريمة ليس فيها بانفرادها تعرض لبيان أقل مدة الحمل، ولكنها بضميمة بعض الآيات الأخرى إليها يعلم أقل أمد الحمل؛ لأن هذه الآية الكريمة من سورة الأحقاف صرحت بأن أمد الحمل والفصال معاً -ثلاثون شهراً، وقوله تعالى في لقمان: ﴿وَفِصْلُهُ فِي عَامَيْنِ﴾، وقوله في البقرة: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ﴾ يبين أن أمد الفصال عامان، وهما أربعة وعشرون شهراً، فإذا طرحتها من الثلاثين

١- أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب العِدِّد، باب ما جاء في أقل الحمل ٤٤٢/٧ رقم: ١٥٣٢٦، وسعيد بن منصور في سننه، كتاب الطلاق، باب المرأة تلد لسته أشهر ٩٣/٢ رقم: ٢٠٧٤، وعبد الرزاق في مصنفه، كتاب الطلاق، باب التي تضع لسته أشهر ٣٥٠/٧ برقم: ١٣٤٤٤.

٢- سورة الأحقاف: الآية ١٥.

٣- أخرجه عبد الرزاق في مصنفه، كتاب الطلاق، باب التي تضع لسته أشهر ٣٥١/٧ برقم: ١٣٤٤٧.

٤- سورة لقمان: الآية ١٤.

٥- سورة البقرة: الآية ٢٣٣.

٦- تفسير القرآن العظيم ١٩١/٤.

بقيت ستة أشهر، فتعين كونها أمداً للحمل، وهي أقله، ولا خلاف في ذلك بين العلماء»^(١).

فقوله ﷻ: ﴿وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾، حددت الآية مدة الحمل والفصال -أي الفطام- بثلاثين شهراً، والآية الأخرى ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾، وقوله ﷻ: ﴿وَفِصْلُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ أيضاً تدلان على أن مدة الفطام عامان، فبقي لمدة الحمل ستة أشهر، فالمرأة لا تلد لدون ستة أشهر، إلا أن يكون سقطاً، وهذا أمر تلقاه العلماء عن الصحابة رضي الله عنهم، فإذا ولدت المرأة لأكثر من ستة أشهر من حين دخل بها ولو بلحظة، لحقه الولد ولو لم يستلحقه، فكيف إذا استلحقه وأقر به^(٢).

ثانياً: أكثر مدة الحمل

اختلف العلماء في تحديد أكثر مدة الحمل، ولهم في المسألة عدة أقوال:
القول الأول: أكثر الحمل تسعة أشهر^(٣)، واستدلوا بما يلي:

١- بقوله تعالى: ﴿وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾^(٤)، وقوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْمِ الرِّضَاعَةَ﴾^(٥)، فمن ادعى أن حملاً وفصلاً يكون في أكثر من ثلاثين شهراً، فقد قال الباطل والمحال، ورد كلام الله جهاًراً.

١- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٢٢٣/٧.

٢- انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية ٦٨٤١/١١، ومفاتيح الغيب ١٤/٢٨، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٦٢/٥، والتحرير والتنوير لابن عاشور ٢٦/٢٦. وانظر: بدائع الصنائع للكاساني ٢١١/٣، ومنح الجليل شرح خليل لمحمد عيش ١٧٥/١، والإقناع للشربيني ٦٦٣/٢، ومنار السبيل في شرح الدليل لابن ضويان ٢٤٦/٢، ومجموع الفتاوى لابن تيمية ١٠/٣٤، وتحفة المودود ص ٢٦٥، والموسوعة الكويتية ١٤٣/١٨.

٣- انظر: المحرر الوجيز لابن عطية ٣/٣٠٤، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٨٧/٩، والتفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج ١٢٥/١٣. وقال به من الفقهاء ابن حزم الظاهري انظر: المحلى ٣١٦/١٠.

٤- سورة الأحقاف: الآية ١٥.

٥- سورة البقرة: الآية ٢٣٣.

يناقش: بأن الله جعل تمام الرضاعة عامين كاملين - ٢٤ شهرا-، ويبقى من الثلاثين شهراً ستة أشهر، هي أقل الحمل لا أقصاه، بالتالي لا يستقيم هذا الاستدلال.

٢- بقول عمر رضي الله عنه: «أيما امرأة طلقت فحاضت حيضة أو حيضتين، ثم رفعتها حيضتها، فإنها تنتظر تسعة أشهر، فإن بان بها حمل فذلك، وإلا اعتدت بعد التسعة الأشهر ثلاثة أشهر، ثم حلت»^(١)، الدال على أن عمر رضي الله عنه لا يرى الحمل أكثر من تسعة أشهر.

يناقش: بقول عمر رضي الله عنه: «أيما امرأة فقدت زوجها فلم تدر أين هو؛ فإنها تنتظر أربع سنين، ثم تنتظر أربعة أشهر وعشرا»^(٢)، والذي يفهم منه أنها أكثر مدة الحمل عنده.

القول الثاني: أكثر الحمل سنتان^(٣)^(٤)، قال الضحاك: «وضعتني أمي وقد حملت بي في بطنها سنتين، فولدتني وقد خرجت سني»^(٥)، واستدلوا بما يلي:

- ١- أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الطلاق، باب جامع عدة الطلاق ٥٨٢/٢ برقم: ١٢١٢، والبيهقي في السنن الكبرى، كتاب العدد، باب عدة من تباعد حيضها ٤١٩/٧ برقم: ١٥١٨٩، وابن أبي شيبة في المصنف، كتاب الطلاق، ما قالوا في الرجل يطلق امرأته فترتفع حيضتها ١٦٧/٤ برقم: ١٨٩٩٧، وعبد الرزاق في مصنفه، كتاب الطلاق، باب المرأة يحسبون أن يكون الحيض قد أدبر عنها ٣٣٩/٦ برقم: ١١٠٩٦.
- ٢- أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الطلاق، باب عدة التي تفقد زوجها ٥٧٥/٢ برقم: ١١٩٥، والبيهقي في السنن الكبرى، كتاب العدد، باب من قال تنتظر أربع سنين ثم أربعة أشهر وعشرا ثم تحل ٤٤٥/٧ برقم: ١٥٣٤٣، وعبد الرزاق في مصنفه، كتاب الطلاق، باب التي لا تعلم مهلك زوجها، ٨٥/٧ برقم: ١٢٣١٧، وسعيد بن منصور في سننه، كتاب الطلاق، باب الحكم في امرأة المفقود ٤٤٩/١ برقم: ١٧٥٢، قال ابن الملقن: «هذا الأثر صحيح» البدر المنير ٢٢٨/٨.
- ٣- انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي ابن أبي طالب ٣٦٨١/٥، الكشف والبيان للثعلبي ٥/ ٢٧٣، معالم التنزيل للبعوي ٨/٣، المحرر الوجيز لابن عطية ٣/٣٠٤، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٩/٢٨٧.
- ٤- وروي عن عائشة، والثوري، والمزني، وهو قول الحنفية، ورواية عن أحمد من الفقهاء. حاشية ابن عابدين ٣/٥٤٠، وشرح فتح القدير ٤/٣٦٢، والحاوي الكبير للماودي ١١/٢٠٥، والمغني لابن قدامة ٨/٩٨.
- ٥- تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ٧/ ٢٢٢٦.

- ١- بقوله تعالى: ﴿وَحَمَلُهُ وَفَصَلُّهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾، فجعل مدة الحمل والرضاع مقصورة على المدتين، فلم يجز أن تكون إحداهما أكثر منهما، ولأن هاتين المدتين مجمع عليهما، فلم يجز الانتقال عنهما إلا بإجماع أو دليل.
- ٢- بقول عائشة رضي الله عنها: «ما تزيد المرأة في الحمل على سنتين، ولا قدر ما يتحول ظل عود المغزل»^(١)، وفي لفظ: «لا يكون الحمل أكثر من سنتين»^(٢)، وذلك لا يعرف إلا توقيفاً، إذ ليس للعقل فيه مجال، فكأنها روته عن النبي ﷺ، غير أنه نوقش: بأنه أثر في سنه امرأة مجهولة^(٣).
- ٣- جاء رجل إلى عمر رضي الله عنه فقال: إني غبت عن امرأتي سنتين، فجنبت وهي حبلى، فشاور عمر ناساً في رجمها، فقال معاذ رضي الله عنه: إن كان لك عليها سبيل، فليس لك على ما في بطنها سبيل، فاتركها حتى تضع، فتركها فولدت غلاماً قد خرجت ثناياه، فعرف الرجل الشبه فيه، فقال: ابني ورب الكعبة، فقال عمر: عجزت النساء أن يلدن مثل معاذ، لولا معاذ لهلك عمر^(٤)، فقد وضعته لأكثر من سنتين، ثم أثبت عمر نسبه من الزوج^(٥).

١- أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب العدد، باب ما جاء في أكثر الحمل ٤٤٣/٧ برقم: ١٥٣٢٩، والدارقطني، كتاب النكاح، باب المهر ٣٢١/٣ برقم: ٢٧٩، قال ابن الملقن: «جميلة بنت سعد مجهولة لا يدري من هي» البدر المنير ٢٢٧/٨، ويقول الذهبي: «وما علمت في النساء من اتهمت، ولا من تركوها»، ميزان الاعتدال في نقد الرجال للذهبي ٤٦٥/٧.

٢- أخرجه الدارقطني في سننه، كتاب النكاح، باب المهر ٣٢٢/٣ برقم: ٢٨٠.

٣- انظر: المحلى لابن حزم ٣١٦/١٠.

٤- أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب العدد، باب ما جاء في أكثر الحمل ٤٤٣/٧ برقم: ١٥٣٣٥، والدارقطني، كتاب النكاح، باب المهر ٣٢٢/٣ برقم: ٢٨٠، وابن أبي شيبة، كتاب الحدود، باب من قال إذا فجرت وهي حامل انتظر بها... ٥٤٣/٥ برقم: ٢٨٨١٢.

٥- انظر: المبسوط للسرخسي ٤٥/٦، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٨٨/٩، وأصواء البيان ٢٢٨/٢.

نوقش: بأن سنده ضعيف، روي عن أشياخ، وهم مجهولون^(١).

القول الثالث: أكثره أربع سنين^(٢)^(٣)، للآتي:

١- لقول مالك: «هذه جارتنا امرأة محمد بن عجلان امرأة صدق، وزوجها رجل صدق، حملت ثلاثة أبطن في اثنتي عشرة سنة، كل بطن في أربع سنين»^(٤).
نوقش: بأنه خبر راجع إلى من لا يصدق ولا يعرف، ولا يجوز الحكم في دين الله بمثل هذا^(٥).

٢- بأن عمر ضرب لامرأة المفقود أربع سنين، بقوله: «أيما امرأة فقدت زوجها فلم تدر أين هو؛ فإنها تنتظر أربع سنين، ثم تنتظر أربعة أشهر وعشرا»^(٦)، ولم يكن ذلك إلا لأنه غاية الحمل، وقد روي ذلك عن عثمان وعلي وغيرهما، غير أن المخالف قد أجاب عنه بالآتي:

- ١- المحلى لابن حزم ٣١٦/١٠.
- ٢- الهداية إلى بلوغ النهاية ٣٦٨١/٥، والكشف والبيان للثعلبي ٢٧٣ /٥، ومعالم التنزيل للبيهقي ٨/٣، والمحرم الوجيز لابن عطية ٣٠٤/٣، وتفسير القرطبي ٢٨٧/٩، والسراج المنير للشربيني ٤٨٣/٣.
- ٣- وهو قول عند المالكية، وقول الشافعية، وظاهر مذهب الحنابلة. حاشية الدسوقي ٤٠١/٣، وبداية المجتهد لابن رشد ٧٠/٢، وإعانة الطالبين للبكري ٥٠/٤، ومغني المحتاج ٣٩٠/٣، ومغني ابن قدامة ٩٨/٨.
- ٤- أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب العدد، باب ما جاء في أكثر الحمل ٤٤٣/٧ برقم: ١٥٣٣٠، وفي السنن الصغرى، كتاب العدد، باب في أقل الحمل وأكثره ٤٧٩/٦ برقم: ٢٨٣٦، والدارقطني، كتاب النكاح، باب المهر ٣٢٢/٣ برقم: ٢٨٢، قال الألباني: «وهذا إسناد صحيح إلى مالك، رجاله كلهم ثقات، وأبو العباس هذا وثقه الخطيب في تاريخ بغداد»، إرواء الغليل ١٨٩/٧ برقم: ٢١٠٧.
- ٥- المحلى لابن حزم ٣١٧/١٠.
- ٦- أخرجه مالك في الموطأ، كتاب الطلاق، باب عدة التي تفقد زوجها ٥٧٥/٢ برقم: ١١٩٥، والبيهقي في السنن الكبرى، كتاب العدد، باب من قال تنتظر أربع سنين ثم أربعة أشهر وعشرا ثم تحل ٤٤٥/٧ برقم: ١٥٣٤٣، وعبد الرزاق في مصنفه، كتاب الطلاق، باب التي لا تعلم مهلك زوجها، ٨٥/٧ برقم: ١٢٣١٧، وسعيد بن منصور في سننه، كتاب الطلاق، باب الحكم في امرأة المفقود ٤٤٩/١ برقم: ١٧٥٢، قال ابن الملقن: «هذا الأثر صحيح» البدر المنير ٢٢٨/٨.

أ- بأن الأثر فيه بيان أن هذه المدة جعلت لانتظار المفقود لا لبراءة الرحم.
 ب- بقول عمر رضي الله عنه: «أيا امرأة طلقت فحاضت حيضة أو حيضتين، ثم رفعتها
 حيضتها، فإنها تنتظر تسعة أشهر، فإن بان بها حمل فذلك، وإلا اعتدت بعد التسعة
 الأشهر ثلاثة أشهر، ثم حلت»، الدال على أن عمر لا يرى الحمل أكثر من تسعة أشهر^(١).
 ٣- بأن ما ليس فيه نص يرجع فيه إلى الوجود، وإذا تقرر وجوده وجب الحكم
 به، ولا يزداد عليه؛ لأنه ما -الذي- وجد، أي الزائد^(٢).

القول الرابع: ليس لأقصاه وقت يوقف عليه؛ قالوا: لأننا وجدنا لأدنى الحمل
 أصلاً في تأويل القرآن، وهو الأشهر الستة، فنحن نقول به ونتبعه، ولم نجد لآخره
 وقتاً، فلا يجوز في هذا الباب التحديد والتوقيت بالرأي؛ لأن كل تحديد بزمن معين
 لا أصل له، ولا دليل عليه بمستند صحيح، لا يخفى سقوطه^(٣).

١- المحلى لابن حزم ٣١٧/١٠.

٢- روي عن مالك بن دينار أنه جاءه رجل فقال: يا أبا يحيى، ادع لامرأة حبلى منذ أربع سنين، قد أصبحت
 في كرب شديد، فغضب مالك وأطبق المصحف، ثم قال: ما يرى هؤلاء القوم إلا أنا أنبياء، ثم دعا، ثم قال:
 اللهم هذه المرأة إن كان في بطنها ريح فأخرجها عنها الساعة، وإن كان في بطنها جارية فأبدلها بها غلاماً
 فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب، ثم رفع مالك يده، ورفع الناس أيديهم، وجاء الرسول إلى
 الرجل، فقال: أدرك امرأتك، فذهب الرجل، فما حظ مالك يده حتى طلع الرجل من باب المسجد على رقبته
 غلام جعد قطط ابن أربع سنين، قد استوت أسنانه، ما قطعت أسنانه، ما قطعت أسنانه [أخرجه البيهقي في السنن الكبرى،
 كتاب العدد، باب ما جاء في أكثر الحمل ٤٤٣/٧ برقم: ١٥٣٣٤، والدار قطني في سننه، كتب النكاح،
 باب المهر ٣٢٢/٣ برقم: ٢٨٤]، وحكى أبو الخطاب أن محمد بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي
 بقي في بطن أمه أربع سنين، وهكذا إبراهيم ابن نجيح العقيلي [شرح الزركشي على الخري ٥٣٨/٢]، وعن
 عباد بن العوام قال: «ولدت جارة لنا لأربع سنين، غلاماً شعره إلى منكبيه، فمر به طير فقال له:
 كش» [الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٨٨/٩]، وقال حماد بن سلمة: «إنما سمي هرم بن حيان هرماً؛ لأنه
 بقي في بطن أمه أربع سنين» [الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٨٨/٩].

٣- انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٨٨/٩، واللباب لابن عادل ٣٩٤/١٧، وأضواء البيان للشنقيطي
 ٢٢٨/٢. وهو قول أبي عبيد القاسم بن سلام. انظر: مغني ابن قدامة ١١٧/٩، وتحفة المودود ص ٢٦٩.

القول الخامس: أقصاه ثلاث سنين^(١)؛ لما روي عن مالك أن أمه حملت به ثلاث سنين^(٢)، وأن نساء بني العجلان ولدن لثلاثين شهراً، وأن مولاة لعمر بن عبد العزيز^(٣) حملت ثلاث سنين^(٤).

القول السادس: أكثر الحمل سنة قمرية - ٣٥٤ يوماً^(٥).

القول السابع: أكثر مدة الحمل خمس سنوات^(٦).

القول الثامن: قد تحمل المرأة ست سنين وسبع سنين، مروى عن الزهري^(٧).

وقال مالك: قد سمعت أن امرأة حملت سبع سنين^(٨).

وكأن هؤلاء - أصحاب القول السادس والسابع والثامن - قد وقفوا على وقائع في ذلك، ومن المعلوم أن ما ليس فيه نص يرجع فيه إلى الوجود، وإذا تقرر وجوده وجب أن يحكم به.

-
- ١- انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي ابن أبي طالب ٣٦٨١/٥، والمحرم الوجيز لابن عطية ٣٠٤/٣، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٨٧/٩، وهو قول الليث، انظر: المغني لابن قدامة ٩٨/٨.
- ٢- أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب العدد، باب ما جاء في أكثر الحمل ٤٤٣/٧ برقم: ١٥٣٣٣.
- ٣- عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص الأموي أمير المؤمنين، ولي إمرة المدينة للوليد، وكان مع سليمان كالوزير، وولي الخلافة بعده سنتان ونصف، فعد مع الخلفاء الراشدين، مات في رجب سنة ١٠١هـ. انظر: تقريب التهذيب لابن حجر ص ٤١٥.
- ٤- انظر: المحلى ٣١٧/١٠، ويقال: إن محمد بن عجلان مكث في بطن أمه ثلاث سنين، فماتت به وهو يضطرب اضطراباً شديداً، فشق بطنها وأخرج. انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٨٨/٩.
- ٥- وهو قول محمد بن عبد الحكم من فقهاء المالكية، انظر: بداية المجتهد لابن رشد ٢٦٨/٢، والتفسير المنير للزحيلي ١٢٠/١٣.
- ٦- انظر: المحرم الوجيز لابن عطية ٣٠٤/٣، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٢٨٧/٩.
- ٧- انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية لمكي ابن أبي طالب ٥ / ٣٦٨٢، والمحرم الوجيز لابن عطية ٣٠٤/٣، والمغني ٩٨/٨، وتحفة المودود بأحكام المولود لابن القيم ص ٢٦٩.
- ٨- مختصر اختلاف العلماء للطحاوي ٤٠٥/٢.

نوقشت: بأنه لا يعلم لهذه الأقوال متعلق أصلاً، وما نقل لها من أخبار فراجعة إلى من لا يصدق ولا يعرف من هو، ولا يجوز الحكم في دين الله تعالى بمثل هذا^(١). يقول ابن رشد: «وهذه المسألة مرجوع فيها إلى العادة والتجربة»^(٢)، ثم ذكر أن الأقرب إلى المعتاد القول إن أكثر الحمل تسعة أشهر أو سنة، والحكم يكون بالمعتاد لا بالنادر أو المستحيل.

ويقول ابن عبد البر: «هذه مسألة لا أصل لها إلا الاجتهاد، والرد إلى ما عرف من أمر النساء»^(٣).

ويقول الشنقيطي: «أما أكثر أمد الحمل، فلم يرد في تحديده شيء من كتاب ولا سنة، والعلماء مختلفون فيه؛ وكلهم يقول بحسب ما ظهر له من أحوال النساء»^(٤).

١- المحلى لابن حزم ٣١٧/١٠.

٢- بداية المجتهد لابن رشد ٢٦٨/٢.

٣- الاستنكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار لابن عبد البر ١٧٩/٢٢.

٤- أضواء البيان للشنقيطي ٢٢٧/٢.

المطلب الثاني: مدة الحمل في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة

أقل الحمل: يقرر الطب أن أقل الحمل الذي يمكن العيش بعده هو ستة أشهر؛ إذ تبدأ تهيئة الجنين للحياة خارج الرحم في الأسبوع الثاني والعشرين، وتنتهي في الأسبوع السادس والعشرين عندما يصبح الجهاز التنفسي مؤهلاً للقيام بوظائفه، ويصبح الجهاز العصبي مؤهلاً لضبط حرارة جسم الجنين، والأسابيع الستة والعشرون تعادل تقريباً ستة أشهر قمرية، وبذلك تكون مدة الحمل اللازمة ليصبح قابلاً للحياة هي ستة أشهر قمرية^(١).

وقد سجلت حالة حمل واحدة لمدة (١٧٤ يوماً) أي (٥ أشهر + ٢٤ يوماً)، واعترف بها القانون الإنجليزي، إلا أن جمعاً من الأطباء يشككون في صحة هذه الحالة، ويقولون: إن هناك خطأ في حساب أول الحمل^(٢). والولادة قبل الستة الأشهر تسمى إسقاطاً والجنين فيها غير قابل للبقاء حياً، والولادة بعدها -الستة الأشهر- وقبل تمام الحمل تسمى خداجاً، أو ولادة مبكرة، والخديج قابل للبقاء حياً لكن الطب يوصي بعناية خاصة به^(٣).

١- انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن للطبيب محمد البار ص ٤٥١، والموسوعة الطبية الفقهية لأحمد محمد كنعان ص ٣٧٥، وعلم الأجنة في ضوء القرآن والسنة للزنداني وآخرين ص ٢١١.

٢- انظر: الموسوعة الطبية الفقهية لكنعان ص ٣٧٥.

وينقل عن بعض طبيبات النساء والولادة أن أقل مدة الحمل هي ولادة الطفل بعد الأسبوع العشرين من أول يوم بالدورة الشهرية أي بعد (١٣٩ يوماً) أو حسب الوزن إذا لم يعلم موعد آخر دورة شهرية، إذا كان وزنه (٥٠٠ جم) أو أكثر، انظر: أثر التقنية الحديثة في الخلاف الفقهي لهشام آل الشيخ ص ٦٢٩.

٣- انظر: مع الطب في القرآن الكريم للطبيين عبد الحميد دياب وأحمد قرقوز ص ٢٥. وقالوا: «وهذه المدة هي المعتمدة قانونياً في محاكم معظم الدول العالمية» المصدر نفسه ص ٢٦.

أكثر الحمل: يرى الأطباء أن مدة الحمل الطبيعية هي ٢٨٠ يوماً، وتحسب من آخر حيضة حاضتها المرأة^(١)، وبما أن الحمل يحدث عادة في اليوم الرابع عشر من بدء الحيض تقريباً، وأن مدة الحمل ٢٨٠ يوماً يحط منها أربعة عشر يوماً التي هي الفترة الفاصلة بين الحيض وإمكان الحمل، فتصبح فترة الحمل بعد إسقاط هذه المدة هي ٢٦٦ يوماً^(٢)، وهي تساوي تسعة أشهر تقريباً.

ويرى الأطباء أن الحمل لا يتأخر عن مواعده المعتاد إلا فترة وجيزة لا تزيد عن أسبوعين أو ثلاثة في الغالب، حتى لو وصل التأخر لمدة شهر على أنها أطول زيادة في الأوضاع الطبيعية للحمل^(٣)، كما أن الولادات التي تحصل بين الأسبوعين (٣٩) و(٤١) تتمتع بأفضل نسبة سلامة للأجنة، فإذا تأخرت عن الأسبوع (٤٢) نقصت وأصبح الجنين في خطر حقيقي، كما هو الحال لو حصلت الولادة مبكرة عن وقتها نقصت نسبة السلامة، فهي في الأسبوع ٣٧ أقل منها في تمام الحمل، وهي قبل الأسبوع ٣٥ أقل بوضوح، والوليد الذي يولد قبل ذلك يحتاج

١- تنطلق بويضة المرأة من المبيض في منتصف الدورة الشهرية غالباً، أو قبل ١٤ يوماً من بداية الحيض التالي، ويمكن أن تبقى حية في القنوات التناسلية للمرأة يوماً أو يومين قبل تلقيحها بنطفة الرجل، ومن ثم يتعذر تحديد اليوم الذي وقع فيه التلقيح، أو البداية الفعلية للحمل، لهذا اتخذ الأطباء اليوم الأول من آخر حيض رأتها المرأة تاريخاً اعتبارياً لتحديد بداية الحمل، وعليه فإن الأطباء يقدرّون مدة الحمل وسطيّاً بأربعين أسبوعاً أي بما يساوي ٢٨٠ يوماً، وقد تخطئ المرأة في حساب عمر حملها إن كانت عاداتها الشهرية غير منتظمة، ويتراوح هذا الخطأ ما بين أسبوعين زيادة أو نقصاً، وقد تكون مدة الحمل الفعلية في بعض الحالات أقل من ٢٦٦ يوماً أو أكثر. انظر: الموسوعة الطبية الفقهية لكنعان ص ٣٧٤.

٢- خلق الإنسان بين الطب والقرآن للبار ص ٤٥.

٣- على اعتبار أن أكثر الحمل لا يزيد عن شهر بعد مواعده، وإلامات في بطن أمه. انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن للطبيب البار ص ٥٢.

إلى عناية خاصة للمحافظة على حياته^(١)، والسبب في عدم إمكان بقاء الجنين في البطن أكثر من الوقت المعتاد أن الجنين يعتمد على المشيمة في غذائه، فإذا بلغ الحمل نهايته المعتادة (٩ أشهر) ضعفت المشيمة، ولم تعد قادرة على إمداد الجنين بالغذاء الذي يحتاجه لاستمرار حياته، وبالتالي فتأخر الولادة قد يسبب نقصاً في الغذاء، والذي يعبر عنه الأطباء بالمجاعة (Famine)، فإن طالّت مدة الحمل ولم تحصل الولادة، مات الجنين داخل الرحم^(٢)، ومن النادر أن ينجو جنين من الموت بقي في البطن (٤٥ أسبوعاً)، ولاستيعاب النادر والشاذ مددوا هذه المدة أسبوعين آخرين؛ لتصبح (٣٣٠) يوماً، ولم يعرف أن مشيمة قدرت أن تمد الجنين بعناصر الحياة لهذه المدة^(٣).

وجاء في توصيات ندوة الرؤية الإسلامية لبعض الممارسات الطبية: «والاعتبار أن مدة الحمل -بوجه التقريب- مائتان وثمانون يوماً، تبدأ من أول أيام الحيضة السوية السابقة للحمل، فإذا تأخر الميلاد عن ذلك ففي المشيمة بقية رصيد يخدم الجنين بكفاءة لمدة أسبوعين آخرين، ثم يعاني الجنين المجاعة من بعد ذلك، لدرجة ترفع نسبة وفاة الجنين في الأسبوع الثالث والأربعين، والرابع والأربعين، ومن النادر أن ينجو من الموت جنين بقي في الرحم خمسة وأربعين أسبوعاً، ولاستيعاب

١- وتذكر الإحصائيات أن وفاة المواليد تزداد وتتضاعف بازدياد مدة الحمل عن الأسبوع الثاني والأربعين بسبب تليف المشيمة. انظر: أحكام المرأة الحامل وحملها لعبد الرشيد قاسم ص ١١٨.

٢- وتذكر المراجع الطبية أنه في الأسبوع (٤٣) لا بد من تقرير الولادة بأسلوب مناسب، مع أخذ العوامل الأخرى بعين الاعتبار، مع إمكان زيادة الوفيات والمرضاة ما حول الولادة، وبنهاية الأسبوع (٤٣) تكون مدة الحمل بالأيام (٣٠١) وهي عشرة أشهر تقريباً. انظر: مدة الحمل بين الفقه والطب وبعض قوانين الأحوال الشخصية المعاصرة لمحمد سليمان النور ص ٣١.

٣- انظر: الموسوعة الطبية الفقهية لكنعان ص ٣٧٥، ٣٧٦.

النادر والشاذ تمد هذه المدة اعتباراً من أسبوعين آخرين لتصبح ثلاثمائة وثلاثين يوماً، ولم يعرف أن مشيمة قدرت أن تمد الجنين بعناصر الحياة لهذه المدة»^(١). أما أهل القانون فقد توسعوا في الاحتياط مستندين إلى بعض الآراء الفقهية بجانب الرأي العلمي، فجعلوا أقصى مدة للحمل سنة واحدة^(٢)، وإن كان القانون الإنجليزي لم يعترف بمدة للحمل تزيد عن (٣٤١ يوماً) أي (١١ شهراً و (١١ يوماً، وهناك روايات عن حمل دام ٤١٣ يوماً، ولكن الوقائع الموثقة في هذا قليلة؛ لاستعمال حبوب منع الحمل، والتي قد تسبب لبساً في حساب مدة الحمل، مع أنها روايات صحفية لا يمكن الاعتماد عليها، وهي راجعة في الغالب إلى توهم المرأة بالحمل^(٣).

أسباب الوهم بالحمل عند النساء

ويذكر الأطباء أن هناك عدة أسباب لتوهم المرأة بأنها حامل، ومنها:
أ- الخطأ في الحساب من بعض الحوامل، كحساب مدة انقطاع الدورة الشهرية ضمن مدة الحمل، كأن تكون مرضعة فتقطع الدورة الشهرية فترات طويلة جداً بسبب وجود هرمون الحليب، وقد يحدث في أثناء ذلك أن تحمل المرأة، وتلد في أقصى مدة الحمل، فتظن انقطاع الدورة جزءاً من حملها، وليس الأمر كذلك، وربما

- ١- انظر: أحكام المرأة الحامل في الشريعة الإسلامية ليحيى الخطيب ص ١٠٨، ١٠٩.
- وقد ذكر البعض أن هناك حالات نادرة ومشهورة تأخر فيها الحمل إلى ٣٣١ يوماً، بل وإلى ٣٤٩ يوماً أي قرابة السنة. انظر: تطور العلوم الطبية في تقدير مدة الحمل وأثره في القضاء الشرعي، السيد محمود عبدالرحيم مهران، ضمن بحوث ندوة القضاء الشرعي في العصر الحاضر والماقبل، ٢٣/٢٨.
- ٢- والذي جعل رجال القضاء يجعلون أقصى مدة الحمل سنة شمسية هو نوع من الاحتياط لحقوق الجنين من إثبات نسبه، وعدم ضياعه، أو ضياع الحقوق، انظر: الموسوعة الفقهية للأجنة والاستساخ البشري لسعيد موفعة ٤٤١/١، ومع الطب في القرآن الكريم لعبد الحميد دياب وأحمد قرقوز ص ٢٦.
- ٣- انظر: الموسوعة الطبية الفقهية لكنعان ص ٣٧٦.

أن المرأة التي حملت وتأكّدت من حملها، حينما ينزل عليها دم، وربما بغزارة بعد تأخر دورتها الشهرية، فربما تظن أن حيضتها أتتها على حملها، فتبقى معتقدة أنها حامل، وخصوصاً أنها لا ترى في الدم أثراً لجنين ميت، حيث لا يرى الجنين بالعين المجردة وسط الدماء في هذه الفترة؛ لأن حجمه (02جم) في نهاية الشهر الأول، ثم تحمل مرة أخرى بعد شهر أو أكثر، ويحدث لها ما حدث في المرة الأولى، فتحسب عمر حملها الأخير منذ الحمل الأول، والحقيقة أنها حملت ثم أسقطت مراراً من غير أن تدري بالحمل أو السقط، لأن حجمه قد لا يتجاوز الأنملة، ومثله قد لا يرى في الدم.

ب- إصابة المرأة بما يعرف علمياً بالحمل الكاذب (Molar Pregnancy) قد يكون أساساً لهذا الوهم، وهو حالة تصيب النساء اللاتي يبحثن عن الإنجاب دون أن ينجبن، حيث يكبر حجم الرحم، وينتفخ بطن المرأة بالغازات، وتتوقف العادة الشهرية، وتظهر منغصات بداية الحمل البسيطة، والتي تشمل تغيب الحيض، وتضخماً في الثديين، وكذلك الغثيان، والاستقراغ، ثم ازدياد الوزن، فتعتقد المرأة جازمة أنها حامل هي ومن حولها، ثم قد تزول هذه الأعراض التي يمكن أن تستمر شهوراً عدة، ويأتيها حيض طبيعي، ثم تحمل بعد ذلك حملاً حقيقياً فتحسبه منذ بدء حملها الكاذب^(١)، وتتوافر بعض البراهين العلمية المشيرة إلى أن السبب وراء هذه الحالة هو اضطراب هرموني مؤقت يسبب كل أعراض الحمل الكاذب، كما تحس المرأة وكأن هناك حركة جنين في بطنها، وهي ليست إلا حركة الأمعاء

١- وقد ذكر الطبيب محمد البار أن مثل هذه الحكايات رائجة، حيث عمل في عيادة طبية له، وكانت بعض النسوة يترددن عليه في العيادة ويدعين الحمل منذ سنين، وبالفحص يتبين غير ذلك، وإنما كان ذلك نتيجة لما يعرف بالحمل الكاذب. انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن ص ٤٥٣.

داخل البطن، والإحساس بتقلصات عضلات جدار البطن، وعند الميعاد المحسوب للولادة تحس المرأة بآلام الولادة^(١)، وليس ذلك إلا حالة نفسية عصبية.

ج- بعض حالات الإجهاض المخفي؛ ينقطع الدم ولا تأتي للمرأة دورة شهرية لعدة أشهر أو لعدة سنوات، وأحياناً لعدة عقود، وذكر صاحب المرجع الطبي ١ أنه رأى شخصياً حالات لدى بعض النساء حدث لديهن انقطاع للدورة الشهرية لمدة ٣٨ شهراً، وبناء على هذه الاحتمالات؛ يمكن أن يقع الخطأ في التقدير والحساب عند النساء والمحيطين بهن، ونقل هذا الخطأ إلى العلماء عن طريقهن، فأفتوا بجواز تأخر الجنين في بطن أمه.

د- موت الحمل في بطن أمه مع بقاءه فيها مدة طويلة، فالمرأة قد تحمل حملاً حقيقياً ثم يموت الجنين في بطنها دون أن ينزل، وبمرور الوقت يتكلس^(٢) الجنين، ويبقى في بطنها مدة طويلة إلى أن يحصل تدخل طبي، ولكن في مثل هذه الحالة ينزل الجنين ميتاً، وقد يقذفه الرحم على فترات متقطعة^(٣).

١- يقول كمال الدين السيواسي الفقيه الحنفي: «ولقد أخبرنا عن امرأة أنها وجدت ذلك مدة تسعة أشهر من الحركة وانقطاع الدم وكبر البطن وإدراك الطلق، فحين جلست القابلة تحتها أخذت في الطلق، فكما طلقت اعتصرت ماء، هكذا شيئاً فشيئاً إلى أن انضمر بطنها، وقامت عن قابلتها عن غير ولادة» شرح فتح القدير ٣٦٢/٤.

٢- تترسب فيه أملاح الكالسيوم فيصبح مثل الجير. خلق الإنسان بين الطب والقرآن للبار ص ٤٥٣.

٣- قال ابن حزم: «قد يموت في بطن أمه، فيتمادى بلا غاية حتى تلقيه منقطعاً في سنين، فإن صح هذا فإنه حمل صحيح لا تنقضي عدتها إلا بوضعه كله، إلا أنه لا يوقف له ميراث، ولا يلحق أصلاً؛ لأنه لا سبيل إلى أن يولد حياً، ولو سعت عند تيقن ذلك في إسقاطه بدواء لكان مباحاً؛ لأنه ميت بلا شك» المحلى ٣١٧/١٠.

هـ- ظهور أسنان عند بعض المواليد، فإن كانت أعراض الحمل الكاذب قد ظهرت على المرأة قبل ذلك، ثم حملت حملاً حقيقياً، تعزز الاعتقاد بأن مدة الحمل كانت سنتين أو ثلاثاً، وهذا لا يعد ذلك صحيحاً من الناحية الطبية.

و- إذا كانت العادة الشهرية غير منتظمة فإن بعض الأمهات يتحدثن عن فترات حمل طويلة؛ نظراً لعدم انتظام العادة الشهرية، لا لطول مدة الحمل^(١).

ومن خلال الرصد والإحصاء العلمي لكثير من الحالات، فإن الأطباء لم تسجل لديهم حالات حمل مديد طبيعياً دامت لسنة واحدة، ولم يذكر أي مرجع طبي حالة واحدة سجل فيها الحمل لمدة سنة كاملة مثلاً، فضلاً عن أكثر من ذلك^(٢).

يقول وهبة الزحيلي: «فالإحصاء العلمي دل على أن الجنين لا يزيد بقاؤه في بطن أمه عن ٣٠٥ أو ٣٠٨ أيام، وهناك رأي في المذهب المالكي أن عدة المطلقة سنة قمرية (٣٥٤ يوماً)، وأما ما يذكر في المذاهب لأقصى مدة الحمل، فمستنده الاستقراء وأخبار الناس، والناس قد يخطئون أو يتوهمون وجود الحمل في فترة زمنية ما، وليس في ذلك أي نص شرعي ثابت»^(٣).

فيتبين مما سبق أن أقصى مدة يمكن أن يمكثها الحمل في بطن أمه ثم يولد حياً - عند الأطباء - أقل ما قيل فيها هو: عشرة أشهر، وأكثر ما قيل فيها: أحد عشر

١- انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن للبار ص٤٤٧، الموسوعة الطبية الفقهية لكنعان ص٣٧٦، وأثر بحوث الإعجاز العلمي في بعض القضايا الفقهية لعبدالله المصلح وعبد الجواد الصاوي، بحث قدم للمؤتمر العالمي الثامن للإعجاز العلمي في القرآن والسنة في الكويت، العلوم الطبية، ٣٠/١، ومدة الحمل بين الفقه والطب وبعض قوانين الأحوال الشخصية المعاصرة لمحمد سليمان النور ص٣٢-٣٤.

٢- انظر: الموسوعة الطبية الفقهية لكنعان ص٣٧٧، وأثر بحوث الإعجاز العلمي في بعض القضايا الفقهية، منشور ضمن بحوث المؤتمر الثامن للإعجاز العلمي، العلوم الطبية، ٣١/١، ومنشور ضمن مجلة الإعجاز العلمي، العدد ٢٩، ١٤٢٩هـ، ص ٣٩.

٣- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج لوهاب الزحيلي ١٢٠/١٣، ١٢١.

شهرًا، وهذه الآراء متقاربة، والقول: بأن هذه المدة (٣٣٠) مبناه على الاحتياط؛ لكونه يستوعب جميع الحالات الشاذة والنادرة^(١).

ومع التطور المشهود في علم الطب، أصبح من الممكن متابعة الحامل بصورة دورية، وبالتالي أصبح من الممكن التأكد من عمر الحمل بدقة، ويمكن للمرأة التي تظن طول الحمل الذهاب إلى الطبيبة المختصة لعمل الفحوصات الخاصة بالكشف عن الحمل، بل من الممكن اختبار وجود الحمل بأنواع متعددة مختلفة ومنتشرة في الصيدليات، غير أن نتائجه غير قطعية في الغالب، وتصل نسبة الخطأ فيه إلى ٦%، فلا بد من عمل تحليل مخبري للدم، وقياس نسبة هرمون الحمل (B HCG)، والذي لا يظهر في دم المرأة إلا عند حدوث الحمل، ويظهر هذا الهرمون في الدم حتى قبل انقطاع الدورة الشهرية وشعور المرأة بعلامات الحمل، وهو فحص مؤكد وسهل من الناحية الطبية، ويجرى عادة بعد تأخر الدورة بيومين أو ثلاثة، بينما فحص البول للحامل لا يجرى إلا بعد مرور أكثر من عشرة أيام على انقطاع الحيض، فإن لم تبيّن هذه التحاليل وجود الحمل فيمكن عمل تصوير إشعاعي ملون ثلاثي الأبعاد بجهاز دوبلر للموجات فوق الصوتية، والذي يصور الرحم والأجزاء المحيطة به^(٢)، إضافة إلى البصمة الوراثية والتي تحدد الأبوين بنسبة ٩٩%^(٣).

١- مدّة الحمل بين الفقه والطب وبعض قوانين الأحوال الشخصية المعاصرة لمحمد سليمان ص ٣٢.

٢- انظر: الموسوعة الطبية الفقهية ص ٣٧٧، وأثر التقنية الحديثة في الخلاف الفقهي ص ٦٣٣، ٦٣٤، وأحكام المرأة الحامل وحملها لعبد الرشيد قاسم ص ١٢٣.

٣- انظر: أحكام المرأة الحامل وحملها لعبد الرشيد قاسم ص ١٢٣.

المطلب الثالث: ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها

من خلال الدراسة التفسيرية والعلمية يتلخص ما يلي:

* أجمع المفسرون على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، وذلك مروى عن الصحابة رضي الله عنهم، وذلك علموه بالاستتباط من قوله ﷺ: ﴿وَحَمَلُهُ وَفَصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾^(١)، والتي حددت مدة الحمل والفصال بثلاثين شهراً، وقوله ﷺ: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾^(٢)، وقوله ﷺ: ﴿وَفَصْلُهُ فِي عَامَيْنِ﴾^(٣) تدلان على أن مدة الفطام عامان، فبقي لمدة الحمل ستة أشهر، فالمرأة لا تلد لدون ستة أشهر.

* اختلف العلماء في تحديد أكثر مدة الحمل، ولهم في المسألة عدة أقوال؛ لأن أكثر أمد الحمل لم يرد في تحديده شيء من كتاب ولا سنة، والعلماء قالوا بحسب ما ظهر لهم من أحوال النساء.

* يتفق الطب مع الشرع في أن أقل الحمل الذي يمكن العيش بعده هو ستة أشهر، إذ تبدأ تهيئة الجنين للحياة خارج الرحم في الأسبوع الثاني والعشرين، وتنتهي في الأسبوع السادس والعشرين عندما يصبح الجهاز التنفسي مؤهلاً للقيام بوظائفه، ويصبح الجهاز العصبي مؤهلاً لضبط حرارة جسم الجنين، والأسابيع الستة والعشرون تعادل تقريباً ستة أشهر قمرية، والولادة قبل ذلك تسمى إسقاطاً.

* يرى الأطباء أن مدة الحمل الطبيعية ٢٨٠ يوماً، وتحسب من آخر حيضة حاضتها المرأة، ويرون أن الحمل لا يتأخر عن مواعده المعتاد إلا فترة وجيزة لا تزيد عن أسبوعين أو ثلاثة في الغالب، حتى لو وصل التأخر لمدة شهر كأطول

١- سورة الأحقاف: الآية ١٥.

٢- سورة البقرة: الآية ٢٣٣.

٣- سورة لقمان: الآية ١٤.

زيادة في الأوضاع الطبيعية؛ لأن المشيمة تضعف، ولا تعود قادرة على إمداد الجنين بالغذاء الذي يحتاجه لاستمرار حياته، ومن النادر أن ينجو جنين من الموت بقي في البطن ٤٥ أسبوعاً، ولاستيعاب النادر والشاذ مددوا هذه المدة أسبوعين، لتصبح (٣٣٠) يوماً، ولم يعرف أن مشيمة قدرت أن تمد الجنين بعناصر الحياة لهذه المدة.

* أهل القانون توسعوا في الاحتياط فجعلوا أقصى مدة للحمل سنة واحدة.

* أسباب الوهم بالحمل عند النساء عديدة، كالخطأ في الحساب، والحمل الكاذب، والإجهاض المخفي، وموت الحمل في بطن أمه مع بقائه فيها مدة طويلة.

* من خلال الرصد والإحصاء العلمي لكثير من الحالات، فإن الأطباء لم تسجل لديهم حالات حمل مديد طبيعية دامت لسنة واحدة.

* ومع التطور المشهود في علم الطب، أصبح من الممكن متابعة الحامل بصورة دورية، والتأكد من عمره بدقة، ويمكن الفحص للكشف عن الحمل بطرق أقواها تحليل الدم مخبرياً لقياس نسبة هرمون الحمل، وعمل تصوير إشعاعي ملون ثلاثي الأبعاد بجهاز دوبلر للموجات فوق الصوتية الذي يصور الرحم وما يحيط به، إضافة إلى البصمة الوراثية والتي تحدد الأبوين بنسبة ٩٩%.

ومن خلال الدراسة التفسيرية والعلمية تظهر الآثار التالية:

* سبق القرآن الكريم للطب بتقريره أن أقل مدة للحمل ستة أشهر قمرية، فيستحل صدور ذلك من صناعة بشرية، إنما هو العلم المودع في كلام رب البرية، معجزة شاهدة في عصر نهضة العلوم البشرية، على صدق الرسول وما بعث به من رسالة هداية عالمية لكل الأجناس البشرية.

* ظهور فقه الصحابة الكرام رضي الله عنهم أجمعين، إذ استنبطوا مدة أقل الحمل، بالجمع بين الآيات، وهذا الاستنباط يقوم على عملية حسابية، يصعب على من عاش في بيئة أمية الاهتداء إليه إلا عن فقه مع توفيق وتسديد من الله ﷻ، وهذا يدل على توفيق الله لصحابة نبيه، ورضاه عنهم، ونعوذ بالله من البهتان العظيم المتمثل بالطعن فيهم.

* أثرت هذه الدراسات في وقوع الخلاف بين الباحثين المعاصرين في أكثر مدة الحمل بناء على مكتشفات العلوم الطبية وما قاله المفسرون والفقهاء:
الفريق الأول: يرى الرجوع إلى المختصين والاعتداد بكلامهم، والأخذ بما أظهرته المكتشفات العلمية الطبية؛ لآتي:

١، ٢- لأنه لا نص في المسألة من كتاب ولا سنة صحيحة، ولإطباق الأطباء على ذلك، وهم أهل الذكر في الموضوع، وأبحاثهم ومراجعهم تؤكد أن مدة الحمل لا تزيد عن واحد وأربعين أسبوعاً من بدء التلقيح، وإن زادت عن ذلك فالجنين معرض لخطر الموت؛ وذلك لتدهور كفاءة المشيمة والرحم في إمداده بالغذاء اللازم؛ فيصاب بتلف في المخ ويهلك، فلا يمكن مثلاً أن يستمر الحمل خمسين أسبوعاً؛ لأن الحمل والولادة تتم وفق سنن ثابتة لا تتغير.

٣- لدليل الاستقراء المفيد للقطع، فإننا في هذه العصور المتأخرة التي تطورت فيها وسائل العلم والاستكشاف، ووسائل الإعلام، لم نسمع بحمل استمر أكثر من سنة، ولو حصل لاشتهر ونقل إلينا إعلامياً، حتى ولو كان في عالم الحيوانات.

٤- ما اكتشفه الأطباء أقرب إلى المعتاد، والحكم إنما يكون بالمعتاد لا النادر، والذي قد يكون مستحيلاً، إذ أكد الطبيب البار أن الحمل الطويل مستحيل الحدوث، وأنه نتيجة وهم عند النساء، ومن اختراع القصاص وأساطيرهم، ونصح

دارسي العلوم الشرعية التنبه لدراسة المسألة بعناية، ولا يصدقوا حصول الحمل الطويل^(١).

مع عذر الفقهاء الأجلاء لأسباب، ومنها:

أ- عدم توفر نص صحيح في المسألة، باستثناء ما نقل عن عائشة، ولعله من اجتهاداتها الخاصة؛ لعلمها بحالات النساء وعاداتهن، ولم ترفعه إلى الرسول ﷺ، هذا إن سلمنا بصحته، وإلا فإنه قد طعن في صحته.

ب- تصديقهم لروايات وصلتهم من ثقات كما روي عن مالك، وأصحاب الأخبار بتوا كلامهم على وجود قرائن تفيد بحمل المرأة كانقطاع حيضتها، وانتفاخ بطنها، ولا يعلمون أن مثل هذا يمكن أن يحدث دون أن يكون هناك حمل حقيقي.

ج- الاحتياط منهم لحقوق الجنين من حيث النسب وبقية الحقوق، وكذلك حقوق والدته من عدة ونحوها، ولأن هذه الأمور مبنية على الاحتياط والتوسع.

د- انعدام الوسائل الطبية الحديثة الموجودة في عصرهم والتي تبين لهم أقصى مدة يمكن أن تحمل فيها المرأة، فهم معذورون مأجورون على اجتهادهم جميعاً^(٢).

الفريق الثاني: يرى أن الخلاف بين العلماء السابقين -من مفسرين وفقهاء- في

المسألة لا يزال معتبراً لم تأثر فيه التقنية الطبية الحديثة؛ للآتي:

١- لأن العلماء لم ينظروا إلى الوقائع فحسب، بل احتاطوا للأنساب، فوجب أن

لا نخفل جانب النسب في هذه المسألة، وأن يكون له الجانب الأكبر من الاهتمام.

١- انظر: الموسوعة الفقهية للأجنة والاستنساخ البشري لسعيد موفعة ١/٤٤٠، ٤٤١، وأثر بحوث الإعجاز العلمي في بعض القضايا الفقهية، منشور ضمن بحوث المؤتمر الثامن للإعجاز العلمي، ١/٣٠، ٣١، ومنشور ضمن مجلة الإعجاز العلمي، عدد ٢٩، ١٤٢٩هـ، ص ٤٠، والتفسير المنير لوهبة الزحيلي ١٢٠/١٣، ١٢١.

٢- انظر: الموسوعة الفقهية للأجنة والاستنساخ البشري لسعيد موفعة ١/٤٤١، ٤٤٢.

٢- لأن النزول على قول الظاهرية لأجل ما توصلت إليه المستجدات الطبية يكاد يكون من الصعوبة بمكان؛ لأن الأطباء غاية ما توصلوا إليه عدم العلم بالوقوع، وعدم العلم ليس علماً بالعدم كما يقرر ذلك علماء الأصول، وهناك عدم جزم من الأطباء بقول فصل فيها، وإنما هو الظن المبني على عدم الوجود^(١).

الفريق الثالث: يرى الأخذ بالجانب الطبي والعمل به، مع عدم القطع بنفي وقوع حمل امتد طويلاً، وإن كان ذلك نادراً جداً؛ وعليه فأقصى مدة الحمل التي تبنى عليها الأحكام الشرعية هي المدة المعهودة تسعة أشهر والتي قد تزيد أسابيع محدودة كما هو الواقع، أما المدد الطويلة فهي نادرة، والاحتمالات النادرة لا يلتفت إليها؛ لأن العبرة بالغالب والنادر لا حكم له، والواقع المعاصر يبدد وهم القائلين بامتداد الحمل لسنوات؛ لأنه يولد في العام ملايين البشر، ولو وجد أمثال هذا الحمل لتناقضت وسائل الإعلام والأطباء، لاهتمامهم بنقل مثل هذا الحدث، ومع هذا فإن هذا لا يعني القطع بنفي وقوع حمل امتد طويلاً مع ندرته؛ وذلك للأمر التالية:

١- أن عامة الباحثين المعاصرين لم يتطرقوا لخبر ابن صياد^(٢)، والذي ثبت أنه ولد لسنة^(٣)، وذلك بناء على قول عامة العلماء على أنه غير الدجال، فقد دخل

١- انظر: أثر التقنية الحديثة في الخلاف الفقهي لهشام آل الشيخ ص ٦٣٥. ورجح أن مدة الحمل أربع سنوات.
٢- ابن صياد وابن الصياد وابن صائد الذي كان يظن أنه الدجال، قيل: اسمه عبد الله، وقيل: صياف، وقيل: صاف، وهو يهودي من يهود المدينة، وقيل: هو دخيل فيهم، وكان حاله في صغره حال الكهان، يصدق مرة ويكذب مراراً، ثم أسلم لما كبر، وظهرت منه علامات من الحج والجهاد مع المسلمين، ثم ظهرت منه أحوال وسمعت منه أقوال تشعر بأنه الدجال، وقيل: إنه تاب ومات بالمدينة، وقيل: بل فقد يوم الحرة. مرقاة المفاتيح ١٠/١٤٩، وشرح النووي على مسلم ٤٦/١٨.

٣- أخرجه أحمد في المسند ١٤٨/٥ برقم: ٢١٣٥٧، عن أبي ذر رضي الله عنه قال: **"لأنَّ أُخْلِفَ عَشْرَ مِرَارٍ أن بن صائِدٍ هو الدَّجَالُ أَحَبُّ إِلَيَّ من أن أُخْلِفَ مرَّةً وَّاحِدَةً أنه ليس به، قال وكان رسول الله ﷺ بعثني إلى أمه، قال: سلها كم حملت؟ قال: فأتيتهُ فسألتهُ، فقالت: حملتُ به اثني عشرَ شهراً، قال: ثمَّ أرسلني إليها =**

مكة والمدينة، وله ابن من التابعين الأجلء الذي روى بعض الأحاديث، وإنما كان النبي ﷺ وبعض الصحابة يشكون في أمره، وكان فيه شيء من تلبس الجان.

٢- ذكرت صحيفة المحقق الطبي الأمريكية في ٢٧ ديسمبر ١٨٨٤م امرأة دام حملها ١٥ شهراً و ٢٠ يوماً، وورد في مجلة تاريخ الأكاديمية الفرنسية ذكر حمل دام ٣٦ شهراً أي ثلاث سنين^(١)، وهي أخبار منقولة عن مجلة طبية من جهة طبيب معاصر^(٢)، وقد سئل طبيب عالمي مختص في علم الأجنة بكندا عن امتداد فترة الحمل لسنين، فذكر الطبيب أن هذا التأخر يرجع إلى مدى استعداد جهاز المناعة للطفل، ولم يرفض مبدأ تأخر الحمل^(٣).

=قال: سئَلَهَا عَن صَيِّحَتِهِ حِينَ وَقَعَ؟ قَالَ: فَرَجَعْتُ إِلَيْهَا فَسَأَلْتُهَا؟ فَقَالَتْ: صَاحَ صَيِّحَةُ الصَّبِيِّ ابْنَ شَهْرٍ، قَالَ الْهَيْثَمِيُّ: «وَرَجَالَ أَحْمَدَ رَجَالَ الصَّحِيحِ غَيْرِ الْحَارِثِ بِنِ حَصِيرَةَ وَهُوَ ثَقَّةٌ» مَجْمَعُ الزَّوَانِدِ ٣/٨، وَقَالَ الْعَقِيلِيُّ: «وَلَا يَتَابَعُ الْحَارِثُ بِنِ حَصِيرَةَ عَلَى هَذَا، وَلَهُ غَيْرُ حَدِيثٍ مُنْكَرٍ... وَأَمَّا حَدِيثُ ابْنِ صِيَادٍ لِيُرِيدَ أَسْلَ الْحَدِيثِ] فَقَدْ رَوَاهُ جَمَاعَةٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْهُ بِأَسَانِيدِ صَاحِ «الضَّعْفَاءِ الْكَبِيرِ لِأَبِي جَعْفَرِ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرِو الْعَقِيلِيِّ ٢١٦/١».

١- انظر: الموسوعة الطبية الفقهية لکنعان ص ٣٧٦.

٢- غير أن هذا الكلام لم يسلم من المعارضة بأن هذه المعلومة ليست في مصدر طبي معتمد بل منقولة عن موسوعة الأرقام القياسية غينيس، إضافة إلى أن الخبر الأول مضى عليه أكثر من قرن، ولم تكن عندهم الوسائل والمختبرات الدقيقة التي تؤكد صحة الخبر. انظر: أحكام المرأة الحامل وحملها ص ١٢١.

٣- وقد نشرت بعض المجلات العلمية (الإنجليزية)، لطبيب إنجليزي دراسة في العصر الحديث تقول نتائجها: إن الحمل قد يطول بقاءه في بطن أمه سنين، وعلل ذلك بأن الحمل إذا كان في ظروف طبيعية ينزل في موعده الطبيعي، وإذا لم تكن ظروفه طبيعية وكان في حالة سيئة لا تعين على الحياة فإنه يموت، أما إذا كانت الحالة بين بين، فإن الطفل ينام في بطن أمه ويبقى نائماً حتى يوقظه الله، وقد عرفت هذه الظاهرة في العلم الحديث بظاهرة السبات. انظر: تطور العلوم الطبية في تقدير مدة الحمل وأثره في القضاء الشرعي، السيد محمود عبدالرحيم مهران، ضمن بحوث ندوة القضاء الشرعي في العصر الحاضر ٢٥/٢٨.

٣- وجود الشواذ في الخلق مقطوع به، فقد ثبت ولادة سبعة توأم في بطن واحد بخلاف المعهود، ووجود أطفال ولدوا برأسين، وغير ذلك كثير مما هو نادر وواقع، ولا يمتنع أن توجد على جهة الشذوذ مشيمة لها قدرة على إمداد الطفل لفترة طويلة على غير المعهود، كما هو حال المعمرين في هذا الزمان والذين تجاوز أعمار البعض قرناً ونصف القرن من الزمان.

٤- ذكر بكر أبو زيد أنه ثبت لديه حين كان قاضياً بالمدينة حمل دام أربع سنين، وأن ابن باز ثبت لديه حمل دام سبع سنين حين كان يشغل منصب القضاء، وحين أورد الشيخ ابن بارز ذلك على الأطباء في مناقشات مجمع الفقه الإسلامي للرابطة حاروا في الجواب^(١)، وبإضافة هذه الأخبار المعاصرة لما ورد في كتب الفقه والتاريخ من وجود نساء حملن لمدد طويلة، أفادت وجود هذا النوع من الحمل، وإن كان شاذاً ونادراً.

قالوا: وبناء على ذلك لو ادعت المرأة وجود حمل تجاوز المدة المعهودة، يلزم أن تثبت ذلك بالبينة الموجبة لتصديق قولها، كأن تشهد النساء بوجود هذا الحمل، وظهور علاماته الواضحة التي لا تلتبس مع الحمل الكاذب، كحركة الجنين، أو تثبت ذلك عن طريق تحليل البول، أو الدم، أو الموجات الصوتية -السونار- أو غير ذلك مما يقطع بوجود الحمل من عدمه؛ لأن الأصل عدم امتداد الحمل عن المدة المعهودة، ولقطع باب الادعاء، ولكون هذا الحمل ينبني عليه أحكام كثيرة، ويمكن للقضاة في هذا الزمان الاعتماد على الأجهزة الطبية الحديثة التي تحدد

١- ونقل عن قاضي مكة مصطفى عبد القادر علوي أنه حكم لامرأة طلقت في ٢٩ جماد أولى ١٣٦٢هـ بأن الولد الذي أنجبته بعد التاريخ المذكور بأربع سنين هو ابن الرجل الذي طلقها، كما حكم لأختها التي ولدت بعد مرور خمس سنين من وفاة زوجها بأن ذلك الولد ابن زوجها المتوفى. انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن للبار ص ٤٤٨.

عمر الجنين بدقة، إضافة إلى البصمة الوراثية والتي تحدد الأبوين بنسبة ٩٩%^(١).

والباحثة ترجح الثالث؛ لما عللوا به، بالإضافة إلى أن ما ذكره الأطباء من أسباب الوهم بالحمل عند النساء مع وقوعه، فإنه متصور عند ذوات الأزواج، فقد تتوهم الحمل فترة ثم تحمل حقيقة بعد ذلك، فتحسب الجميع من فترة الحمل، فتطول هذه الفترة، ولكن تبقى المشكلة قائمة في حق المرأة المطلقة والمتوفى عنها زوجها؛ لأن أسباب الوهم التي ذكرها الأطباء غير متصورة الوقوع بالنسبة لهما، باستثناء موت الحمل في بطن أمه مع بقاءه فيها مدة طويلة إلى أن يحصل تدخل طبي، وفي مثل هذه الحالة ينزل الجنين ميتاً، وقد يقذفه الرحم على فترات متقطعة، كما قرر ذلك الأطباء، وعليه لا يتصور ولادته حياً في هذه الحالة^(٢).

والله سبحانه أعلم

١- أحكام المرأة الحامل وحملها لعبد الرشيد قاسم ص ١٢٠-١٢٣.

٢- انظر: مستجدات العلوم الطبية وأثرها في الاختلافات الفقهية (دراسة مقارنة) لمحمد البعداني ص ٤٢٤، اطروحة دكتوراه في جامعة أم درمان الإسلامية، السودان، ١٤٣٣هـ-٢٠١٢م.

المبحث السادس

تيسير السبيل

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول:

تيسير السبيل في القرآن الكريم.

المطلب الثاني:

تيسير السبيل في ضوء الاكتشافات العلمية.

المطلب الثالث:

ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها.

المطلب الأول: تيسير السبيل في القرآن الكريم

الآيات الواردة:

قال الله ﷻ: ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ﴾^(١).

أقوال المفسرين:

السَّبِيلُ في الأصل: الطريق وما وضح منه (يذكر ويؤنث).

والسَّبِيلُ: السبب والوصلة، قال ﷻ: ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾^(٢)، أي سبباً ووصلة.

والسبيل: الحرج، يقال: ليس علي في كذا سبيل.

والسبيل: الحجة، يقال: ليس لك علي سبيل.

والسبيل: الحيلة.

والجمع سبل وأسبلة، وسبيل الله: طريق الهدى الذي دعا إليه، وسبيل الله الجهاد، والحج، وطلب العلم، وكل ما أمر الله به من الخير، واستعماله في الجهاد أكثر، وابن السبيل المسافر المنقطع به وهو يريد الرجوع إلى بلده ولا يجد ما يتبلغ به^(٣).

اختلف المفسرون في المراد بقول الله ﷻ: ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ﴾، على أقوال:

القول الأول: هو خروج الجنين من بطن أمه؛ لأنه الأشبه بظاهر الآية، فالآية قبلها وبعدها تذكر خلقه من نطفة، وانتقاله وتدبير جسمه وأحواله، فناسب أن يكون

١- سورة عبس: الآية ٢٠.

٢- سورة الفرقان: الآية ٢٧.

٣- انظر: لسان العرب لابن منظور ٣١٩/١١، والمصباح المنير للفيومي ٢٦٥/١، والقاموس المحيط ص ١٠١٢، والمعجم الوسيط لإبراهيم مصطفى ٤١٥/١.

تيسير السبيل هنا تسهيل طريق خروج الجنين من بطن الأم^(١)، وقد رجح هذا القول الطبراني وعلل الترجيح بقوله: «لأنه أشبههما بظاهر الآية، وذلك أن الخبر من الله قبلها وبعدها عن صفته خلقه وتدبيره جسمه، وتصريفه إياه في الأحوال، فالأولى أن يكون أوسط ذلك نظير ما قبله وما بعد»^(٢)، ويقول الرازي: «ومما يؤكد هذا التأويل أن خروجه حياً من ذلك المنفذ الضيق من أعجب العجائب»^(٣)، ونسب هذا القول إلى أكثر المفسرين^(٤).

القول الثاني: يسره لطريق الخير والشر، أو طريق الحق والباطل، أي بين له

ذلك وسهل له العمل به^(٥)، دليله قوله ﷻ: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾^(٦)، وقوله ﷻ: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾^(٧).

يقول الشنقيطي: «ولعل ما رجحه ابن كثير هو الأرجح؛ لأن تيسير الولادة أمر عام في كل حيوان، وهو مشاهد ملموس، فلا مزية للإنسان فيه على غيره، كما أن ما قبله دال عليه أو على مدلوله وهو القدرة في قوله تعالى: ﴿مِنْ نُّطْفَةٍ خَلَقْتُهُ فَقَدَرْتُهُ﴾^(٨)،

١- انظر: تفسير مقاتل بن سليمان ٤٥٣/٣، وجامع البيان في تأويل القرآن للطبري ٢٢٤/٢٤، وتفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين ٩٥/٥، والوجيز في تفسير الكتاب العزيز للواحدي ص ١١٧٥، وتفسير القرآن للسمعاني ١٥٩/٦، ومفاتيح الغيب للرازي ٥٥/٣١، وصفوة التفاسير للصابوني ٤٥٩/٣.

٢- انظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري ٢٢٤/٢٤.

٣- مفاتيح الغيب للرازي ٥٥/٣١.

٤- انظر: تفسير القرآن للسمعاني ١٥٩/٦.

٥- انظر: تفسير مجاهد ٧٣٠/٢، ومعاني القرآن للفراء ٢٣٧/٣، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥٧٠/٤، وفتح القدير للشوكاني ٤٦٥/٥.

٦- سورة الإنسان: الآية ٣.

٧- سورة البلد: الآية ١٠.

٨- سورة عبس: الآية ١٩.

وقد يكون تيسير الولادة داخلا تحت قوله: ﴿فَقَدَرَهُ﴾، أي: قدر تخلقه وزمن وجوده وزمن خروجه، وتقديرات جسمه وقدر حياته، وقدر مماته، كما هو معلوم، أما تيسير سبيل الدين، فهو الخاص بالإنسان، وهو المطلوب التوجه إليه، وهو الذي يتعلق بغيره ما بين تخلقه من نطفة وتقديره، وبين إمامته وإقباره، أي: فترة حياته في الدنيا، أي: خلقه من نطفة وقدر مجيئه إلى الدنيا، ويسر له الدين في التكاليف، ثم أماته ليرى ماذا عمل: ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ﴾^(١)، ولذا جاء في النهاية بقوله: ﴿كَلَّا لَمَّا يُفِضْ مَا أَمَرَهُ﴾^(٢)، وليس هنا ما يدل على الأمر إلا السبيل يسره»^(٣).

القول الثالث: يسّر على كل أحد ما خلقه له وقدر عليه^(٤)، دليله قوله ﷻ: **"اعْمَلُوا فَعَلَّ مَيْسَرًا لِمَا خُلِقَ لَهُ"**^(٥).

القول الرابع: سبيل السعادة والشقاوة^(٦).

القول الخامس: سبيل منفعه ومضاره^(٧).

١- سورة عبس: الآية ٢٢.

٢- سورة عبس: الآية ٢٣.

٣- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي ٤٣٥/٨.

٤- ذكر هذا القول في: الكشف والبيان للثعلبي ١٠/١٣٢.

٥- أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله ﷻ: ﴿فَسَنِّيَرُهُ لِلْمُصْرَى﴾ [الليل: ١٠] ٤/١٨٩١ برقم: ٤٦٦٦، ومسلم، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته ٤/٢٠٣٩ برقم: ٢٦٤٧.

٦- نقله عن مجاهد: عبد الرزاق الصنعاني في تفسير القرآن ٣/٣٤٨، ومكي ابن أبي طالب في الهداية إلى بلوغ النهاية ١٢/٨٠٦١، والماوردي في النكت والعيون ٦/٢٠٦، والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن ١٩/٢١٩.

٧- ذكر هذا القول في: النكت والعيون للماوردي ٦/٢٠٦.

القول السادس: السبيل هي سبيل النظر القويم المؤدي إلى الإيمان، وتيسره له هو هبة العقل وتمكينه من النظر^(١).

القول السابع: يسر له الأسباب الدينية والدنيوية، وهداه السبيل، وبينه وامتحنه بالأمر والنهي^(٢).

والراجح أن أقوال المفسرين لا تعارض بينها، وأنه يمكن الجمع بينها، فخرج الجنين من بطن أمه هو تيسير طريق خروجه إلى الدنيا وهذا هو المعنى الحقيقي لكلمة السبيل (الطريق)، ولا يتنافى مع بقية الأقوال إذ إن تيسير سبيل الحق والباطل أيضاً هو تيسير سبيل، وتيسير سبيل السعادة والشقاء داخل ضمن القول الثاني إذ لا سعادة دون سلوك سبيل الخير والحق، والشقاء هو سلوك سبيل الشر والباطل، أما القول الخامس والسابع فهما أقوال عامه، يدخل فيها كل ما سبق من الأقوال، فالله ﷻ يسر للإنسان كل سبيل منفعه ومضاره، ويسر له الأسباب الدينية والدنيوية، ومن ذلك تيسير الطريق لخروج الجنين من بطن أمه، والله أعلم.

ويصف بعض المفسرين كيف يكون تيسير طريق خروج الجنين بقوله: «ولا شك أن خروجه حياً من أضيق المسالك من أعجب العجائب، يقال: إنه كان رأسه في بطن أنه من فوق، ورجلاه من تحت، فإذا جاء وقت الخروج انقلب، فمن الذي أعطاه ذلك الإلهام»^(٣).

١- ذكر هذا القول في: المحرر الوجيز لابن عطية ٤١١/٥، وتفسير البحر المحيط لأبي حيان ٤٢٠/٨،

والجواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي ٣٨٨/٤، وروح المعاني للآلوسي ٤٤/٣٠.

٢- انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ٩١١.

٣- مفاتيح الغيب للرازي ٥٥/٣١، واللباب في علوم الكتاب لابن عادل ١٦١/٢٠، والسراج المنير للشربيني

ويقول الآلوسي واصفاً قدرة الخالق في تيسير سبيل الجنين: «بأن فتح فم الرحم، ومدد الأعصاب في طريقه، ونكس رأسه لأسفل بعد أن كان في جهة العلو»^(١).
ويصف ابن القيم وضع الجنين في بطن أمه وعند ولادته قائلاً: «هو معتمد بوجهه على رجله، وبراحتىه على ركبتيه، ورجلاه مضمومتان إلى قدميه، ووجهه إلى ظهر أمه، وهذا من العناية الإلهية أن أجلسه هذه الجلسة في المكان الضيق في الرحم على هذا الشكل... ولأنه عند محاولة الخروج إذا انقلب أعانته على الخروج، فإنه إذا خرج أول ما يخرج منه رأسه؛ لأن الرأس إذا خرج أولاً كان خروج سائر الأعضاء بعده سهلاً، ولو خرج على غير هذا الوجه لكان فيه تعويق وعسر، فإن الرجلين لو خرجتا أولاً انعاق خروج الباقي، وإن خرجت الرجل الواحدة أولاً انعاق عند الثانية، وإن خرجتا معاً انعاق عند اليدين، وإن خرجت الرجلان واليدين انعاق عند الرأس، فكان يلتوي إلى خلف وتلتوي السرة إلى العنق، فيألم الرحم، ويصعب الخروج، ويؤدي إلى مرضه أو تلفه»^{(٢)(٣)}.

فاستعمل مصطلح العسر في حال أشكل خروج الجنين، واليوم يسمى ذلك بعسر الولادة، ويلجأ المختصون إلى الجراحة الطبية من خلال التوسعة أو عمليات شق البطن، والعسر يقابله اليسر، فحقاً إن تسهيل خروج الجنين تيسير له وعليه وعلى أمه.

١- روح المعاني للآلوسي ٤٤/٣٠.

٢- انظر: التبيان في أقسام القرآن ص ٣٥٧، ٣٥٨.

٣- يقول الطبيب البار عقب نقله لكلام ابن القيم المذكور: «ولن تجد حتى في كتب فن الولادة أصدق وأدق وأبرع من هذه العبارة، فهي تمثل الولادة الطبيعية بنزول الرأس أولاً.. (وقبوة الرأس على وجه الخصوص).. ووجه الجنين إلى ظهر أمه.. ثم يتعرض للولادات المختلفة من نزول المقعدة أو الرجل أو الرجلين أو دوران الوجه إلى الأمام.. أو التواء السرة.. ويصف ذلك وصفاً دقيقاً بارعاً كأنه طبيب مولد وليس فقيهاً عاش في القرن الثامن الهجري». خلق الإنسان بين الطب والقرآن ص ٤٥٥.

المطلب الثاني: تيسير السبيل في ضوء الاكتشافات العلمية

الولادة عملية فسيولوجية، ينفصل بها الجنين عن جسم أمه؛ ليخرج إلى الدنيا، وتسمى المخاض^(١)، وتبدو قناة الولادة في وضعها الطبيعي ممراً يصعب مرور الجنين منه، إلا أن هناك عوامل كثيرة تسهل الولادة، واستناداً إلى المعلومات العلمية المتوفرة فإننا ندرك الآن الدور الذي تؤديه تلك العوامل التي تتضافر جميعاً لتيسر للجنين سبيل خروجه إلى الدنيا^(٢)، وذلك من خلال مرورها بالمراحل التالية:

١- **مرحلة توسع وتمدد عنق الرحم:** وهي المرحلة الأولى من العملية، حيث يبدأ المخاض بالتقلصات الخفيفة المتباعدة^(٣)، التي تعمل على اتساع عنق الرحم شيئاً فشيئاً، ويلاحظ أن الغشاء المخاطي المبطن للرحم والمشيمة يدفعان في قناة الرحم مما يسهل عملية تمدده^(٤)، ويؤدي هرمون ريلاكسين الذي يفرزه المبيضان والمشيمة إلى تراخي أربطة مفاصل الحوض، وتليين عنق الرحم، وتنتهي هذه

١- انظر: الموسوعة العربية العالمية ٢٧/٤٧١.

٢- انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن للبار ص ٤٦٠، وعلم الأجنة للزنداني وآخرين ص ١٣٠.

٣- يقول مأمون شقفة: «لو بدأ المخاض شديداً لتمزق عنق الرحم، الذي لا يجد وقتاً كافياً للاتساع، أو لانفجر الرحم أمام عائق العنق، ولو خلق الله العنق قابلاً للاتساع الفجائي السريع لما استطاع أن يحمل ثقل الحمل منذ انتهاء طور العلقة وحتى الولادة، وكذلك لو بدأ المخاض شديداً لتعب الجنين، وتعبت الماخض، ولم يمكن استمرار المخاض حتى نهايته، إذن لا بد من أن يبدأ المخاض خفيفاً، ولكنه يجب أن يشتد بالتدريج». القرار المكين ص ٨٤.

٤- يتبع كل تقلص بارتخاء، ولو استمر على التقلص لمات الجنين من انقطاع الوارد الأوكسجيني عنه، فمن المعلوم أن التقلص يغلق العروق التي تأتي بدم الأم إلى المشيمة وتعود به منها، والجنين لا يتحمل نقص الأوكسجين أكثر من بضع دقائق، ودماغ الجنين من أكثر أعضائه حساسية لنقص الأوكسجين الذي يتسبب بتأخر النمو العقلي في المستقبل إن لم يقتل الجنين في الحال، ولذلك لا بد للرحم من أن يتبع كل تقلص بارتخاء يسمح للجنين ودماغه بالاستراحة من أثر التقلص. القرار المكين ص ٨٥، ٨٧.

المرحلة عندما يتسع عنق الرحم بالكامل إلى قطر ١٠ سنتيمترات تقريباً، وهذه المرحلة هي الأطول زمناً^(١).

٢- **مرحلة خروج الجنين:** والتي تبدأ بالتوسع الكامل لعنق الرحم وتنتهي بمرور الجنين عبر قناة الرحم والمهبل إلى الخارج، ويساعده على ذلك ما يلي:

- **تقلصات الرحم:** التي تبدأ في الجزء العلوي من الرحم، الذي يتكون من نسيج العضلات المتقلصة المتحركة النشطة، الذي يؤمن القوة اللازمة لدفع الوليد خلال الجزء السفلي الساكن الرقيق من الرحم، فأتثناء التقلص هذا ينقبض الرحم على محتواه من كل الاتجاهات انقباضاً حصيلاً قوة تتجه باتجاه عنق الرحم.

- **أغشية السلى:** وهي عبارة عن كيس الماء الأمنيوسي الذي يحيط بالجنين ويسهل انزلاقه، وتبرز هذه الأغشية الممتلئة بالسائل المخاطي على شكل كيس مائي من خلال عنق الرحم مع كل تقلص من تقلصاته، وتعمل على تسهيل تمدده، وتؤمن هذه الأغشية - بعد أن تتمزق - سطحاً لزجاً ناعماً ينزلق الجنين عليه^(٢).

وهذا السائل الذي يكون جيب المياه الذي يوسع عنق الرحم، يعمل في نفس الوقت ليقى الجنين من أن ينحشر وينضغط بين جدران عنق الرحم أثناء الولادة وما يكون فيها من ضغط عالٍ جداً، ولولا لطف الله ﷻ ثم جيب المياه هذا لتهشم رأس الجنين أثناء الولادة، ولا يكتفي السائل الأمنيوسي بكل هذا، ولكنه يقوم بتمهيد وتعقيم الطريق للجنين عندما ينفجر جيب المياه فيقتل الميكروبات الموجودة في

١- انظر: الموسوعة العربية العالمية ١٠١/٧، موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة لعبد الرحيم مارديني ص ٢٦٦، وعلم الأجنة للزنداني وآخرين ص ١٣٠، وموسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة ليوسف الحاج أحمد ص ١١١، والقرار المكين لمأمون شقفة ص ٨٥.

٢- انظر: الموسوعة العربية العالمية ١٠١/٧، وموسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة لمارديني ص ٢٦٧، وعلم الأجنة للزنداني وآخرين ص ١٣٠، وموسوعة الإعجاز العلمي ليوسف أحمد ص ١١١.

المهبل قبيل الولادة مباشرة حتى يضمن للجنين طريقاً ممهداً ومعقماً في نفس الوقت^(١).

- **تنفرج الزوايا؛** لتجعل ما بين الرحم وعنقه طريقاً واحداً وسبيلاً واحداً ليس فيه أي اعوجاج، حيث يكون الرحم مائلاً إلى الأمام بزاوية درجتها تسعين تقريباً - ليتم التسهيل لخروج الجنين-، وفي الحمل يكون وضع الرحم مع عنقه في خط واحد في آخر الحمل بدون زوايا^(٢).

- **الجمجمة:** حجم جمجمة الطفل أكبر من فتحة عظم حوض الأم التي يخرج منها؛ ولكن عظام جمجمة المولود لينة، ويوجد بينها فجوات لينة، لم تلتحم مع بعضها، بعكس عظام جمجمة الإنسان البالغ، ويفضل ذلك تتمطط -تمتد وتتضغظ- مقداراً معيناً أثناء الولادة، وهذا التتمطط يشكل فراغات بين العظام تمنع تخريب الجمجمة، وتسهل خروج رأس الجنين، لذلك يولد الجنين ولادة صحيحة دون تضرر في الجمجمة والدماغ، وهذه الفراغات تسمى (اليوافيخ)^(٣)، تسد بتلاقي العظام واندماجها في الشهر الثامن عشر بعد الولادة^(٤).

- كما أن هناك جزءاً من مفاصل حوض الأم تتحرك إلى الخلف بفعل إنزيم خاص يفرز^(٥).

١- انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن البار ص ٤٢٤، ٤٢٥، وموسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة للنابلسي ص ١٦٨.

٢- انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن البار ص ٤٦٠.

٣- اليافوخ: فجوة مغطاة بغشاء تكون عند تلاقي عظام الجمجمة، وهما يافوخان: يافوخ أمامي، ويافوخ خلفي، انظر: المعجم الوسيط ٢١/١.

٤- انظر: علم الإيمان للزنداني بمساعدة مجموعة الإيمان ١/١٣٢، وموسوعة جسم الإنسان الشاملة لأحمد الخطيب ويوسف سليمان ص ٢١٢.

٥- انظر: علم الإيمان للزنداني بمساعدة مجموعة الإيمان ١/١٣٢.

- آلية (هندسة) المخاض: إذ يتغير وضع الجنين عند مروره عبر تجويف الحوض الذي له شكل غير منتظم، وهذه التغيرات التي تطرأ على الوضع العكسي، هي على سبيل المثال: النزول، والانتشاء، والدوران الداخلي، والتمدد^(١)، واسترجاع الوضع الطبيعي، والدوران الخارجي، وتساهم العناصر المذكورة آنفاً بسبل شتى في تسهيل مرور الجنين عبر قناة الولادة^(٢).

- إخراج الجنين وقذفه إلى الخارج خلال القناة التناسلية في زمن قصير جداً، وتساهم كل من العضلات الرافعة للشرح والعضلات العصبية في زيادة الضغط في تجويف الحوض والرحم بانقباضهما المتتالي مما يساعد مساعدة فعالة في إخراج الجنين وقذفه إلى الخارج^(٣).

٣- مرحلة خروج المشيمة: تبدأ هذه المرحلة بعد ولادة الطفل، وتنتهي بطرد المشيمة عن طريق استمرار عضلات الرحم في النقلص حتى تنفصل المشيمة عن الرحم، ويطلق عليها في هذه الحال (الخلاص)، وتستغرق هذه المرحلة تقريباً ٣٠

١- اجتياز رأس الجنين لمدخل الحوض من الأعلى (المضيق العلوي) لا يحصل إلا إذا تقدم الرأس بالعرض؛ لأن أقطار المضيق العلوي الطويلة عرضانية، ولو استمر التقدم بالعرض لما أمكنت الولادة؛ لأن رأس الجنين لا بد أن يتخلص من الحوض بخروجه من المضيق السفلي وأقطاره طولانية، ولذلك لا بد من أن يدور رأس الجنين وهو في الحوض بحيث تتناسب أقطاره الطويلة مع أقطار المضيق السفلي الطويلة، ثم يتخلص منه، عملية الدوران محسوبة بدقة، وقد جعل الله من أجلها القناة الحوضية أشبهه باسطوانة ملساء متساوية الأقطار، وجعل في أذناها شوكين عظميين بارزين للداخل (الشوكين الوركين)، فإذا استمرت تقلصات الرحم تدفع رأس الجنين شيئاً فشيئاً إلى الأسفل فإنه يصطدم بالشوكين المذكورين اللذين يوجهانه بحيث يدور وتتطابق أقطاره مع أقطار المضيق السفلي، ثم يتخلص ويخرج، انظر: القرار المكين لمأمون شفقة ص ٧٦، ٧٩.

٢- انظر: علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة للزنداني وآخرين ص ١٣٢.

٣- انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن للبار ص ٦٢، وخلق الإنسان بين العلم والقرآن للرقعي ص ٧٧.

دقيقة، وبعد دقائق من الولادة يُشد الحبل السري بإحكام ويُقطع، ومن ثم تفصل عن الرحم وتمرّر خارج المهبل^(١).

٤- مرحلة انقباض الرحم: لتخفيف النزف الدموي بعد انتهاء عملية الولادة^(٢).

يقول الطبيب محمد البار: «ولا يقتصر معنى تيسير السبيل على هذا، وإنما يستمر ذلك التيسير بعد الولادة، حيث يسر للرضيع لبن أمه وحنانها، ثم يسر له عطف الوالدين وحبهم^(٣)، ثم يستمر التيسير لسبل المعاش من لحظة الولادة إلى لحظة الممات، فله الحمد على هذه النعم والآلاء التي لا تحصى ولا تعد»^(٤).

تتمة:

ومن الأمور المعينة على تسهيل الولادة: (الرطب، والحالة النفسية المستقرة)؛ فقد أظهرت العلوم الحديثة أن للرطب خاصة فوائدها عديدة في حالة المخاض، منها:

- أن الرطب يحتوي على مادة مقبضة للرحم، فتقبض العضلات الرحمية مما يساعد على إتمام الولادة، ومنع النزيف بعدها، فيكون دم النفاس قليلاً^(٥)، فالرطب بذلك يساعد مساعدة قوية على تسهيل الولادة، وعلى منع المضاعفات بعدها من

١- انظر: الموسوعة العربية العالمية ١٠١/٧، ١٠٢، وموسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة ليويسف الحاج أحمد ص ١١١.

٢- انظر: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة ليويسف الحاج أحمد ص ١١١.

٣- انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن ص ٤٦٠.

٤- هكذا في النسخة المنقول منها، ولعل الصواب: وحبهم أو وحنانهم. والله أعلم.

٥- ومن المعلوم أن لولا رحمة الله التي جعلت الرحم ينقبض انقباضاً شديداً بعد الولادة حتى يصير مثل الكرة، لنزفت النفساء حتى الموت، ذلك لأن فوهات دموية عديدة تفتح بعد نزول المشيمة، وتبقى الأوعية الدموية التي كانت تصل ما بين الرحم والمشيمة مفتحة ولكأنها الجداول والأنهار، ولولا هذه الانقباضات الرحمية الشديدة لجرت الدماء من النفساء جريان الجداول والأنهار. انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن للبار ص ٤٥٨.

نزيف يؤدي إلى الموت ومن حمى النفاس؛ لأن الرحم التي لا تنقبض انقباضاً شديداً تكون أشد عرضة لهجوم الميكروبات.

- يحوي الرطب أنواعاً من السكر، مثل الفركتوز، والجلوكوز، والمعادن والبروتين، فإذا أخذتها المرأة في المخاض كان ذلك من أحسن الأغذية لها، ذلك أن عملية الولادة عملية شاقة وتستهلك كمية كبيرة من الطاقة، والرطب يعطي المرأة في حالة المخاض هذه الطاقة الكبيرة بصورة جاهزة للامتصاص ولا تحتاج إلى وقت لهضمها.

- يحتوي الرطب مواد مسهلة تنظف الأمعاء، وذلك مما يساعد على الولادة؛ لأن الأمعاء الغليظة والمستقيم الممتلئ بالنفايات يعيق حركة الرحم وانقباضه^(١).

- الرطب يخفض ضغط الدم عند الحامل لمدة بسيطة ثم يعود لطبيعته، وذلك ليققل كمية نرف الدم.

- تحتاج المرأة في حالة المخاض أيضاً إلى السوائل، لحاجة الجسم وخاصة أثناء بذل مجهود شاق مثل الولادة إلى السوائل، ولكون الماء مذيباً للمواد الموجودة في الرطب فيسهل، امتصاصها من الأمعاء الدقيقة.

- أن تأثير الحالة النفسية على الولادة أمر بالغ الأهمية، إذ إن الخوف والقلق من أهم أسباب تعسر الولادة، والرضا والاطمئنان من أهم أسباب تيسر الولادة^(٢).

١- ولذا يحرص أطباء التوليد والموليدات على إعطاء الأم عند بداية المخاض حقنة شرجية لتنظيف المستقيم والأمعاء الغليظة. انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن للبار ص ٤٥٩.

٢- انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن للطبيب محمد علي البار ص ٤٥٨، ٤٥٩، ومع الطب في القرآن الكريم للطبيبين عبد الحميد دياب وأحمد قرقوز ص ٢٨، ٢٩، والإعجاز العلمي في القرآن والسنة لنايف فارس ص ٣٩٠.

ولعل هذه الأمور تبين لنا الحكمة في إرشاد مريم -عليها السلام- وقت مخاضها إلى تناول الرطب والشرب من الماء، وإلى أن تفر عينها ولا تحزن، وذلك في قوله ﷺ: ﴿فَكَلِمَةٌ أَشْرَى وَقَرْيَ عَيْنًا﴾^(١)، فقوله ﷺ: ﴿فَكَلِمَةٌ أَشْرَى﴾ أي: يا مريم من الرطب ﴿وَأَشْرَى﴾ من ماء النهر، ﴿وَقَرْيَ عَيْنًا﴾ أي: طيبي نفسك^(٢).

وقد اختلف المفسرون في المنادي لها في قوله ﷺ: ﴿فَنَادَتْهَا مِنْ تَحْتِهَا﴾^(٣): فقيل: إن المنادي لها جبريل عليه السلام^(٤)؛ إذ لم يتكلم عيسى عليه السلام حتى أتت به قومها^(٦)، وعليه يمكن حمل إرشاده لها بالأكل من الرطب والشرب من الماء على تسهيل أمر الولادة، فيكون في ذلك إعجازاً علمياً، وسبقاً للقرآن في بيان فوائد الرطب والماء معها في تيسير الولادة، وكذلك حثها على أن تفر عينها وتطيب نفسها، لتكون في حالة نفسية جيدة تسهل لها ولادتها.

١- سورة مريم: الآية ٢٦.

٢- انظر: الكشف والبيان للثعلبي ٢١٢/٦، ومعالم التنزيل للبغوي ٢٣٠/٣، ولباب التأويل للخازن ٢٤٤/٤.

٣- تمام الآية وما بعدها: ﴿فَنَادَتْهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبِّي خَتَمَكَ سَرِيًّا * وَهَرَىٰ إِلَيْكَ بِجَنَاحِ النَّخْلَةِ تَسْقُطُ عَلَيْكَ رَطْبًا حِينًا * فَكَلِمَةٌ أَشْرَى وَقَرْيَ عَيْنًا فِيمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقَوْلِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ [مريم: ٢٤، ٢٥، ٢٦].

٤- انظر: النكت والعيون للماوردي ٣٦٤/٣، ومعالم التنزيل للبغوي ٢٢٩/٣، والكشاف للزمخشري ١٤/٣، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٩٣/١١، وتفسير الجلالين ص ٣٩٨.

٥- وعلى هذا فمعنى قوله ﷺ: ﴿فَنَادَتْهَا مِنْ تَحْتِهَا﴾ يحتمل أوجهها:

الأول: من مكان أبعد منها قيل إنه ناداها من أقصى الوادي.

والثاني: أن يكون موضع أحدهما أعلى من موضع الآخر، قيل إنها كانت حين ولدت على مثل رابية [ما ارتفع من الأرض] المعجم الوسيط ٣٢٦/١.

الثالث: أن جبريل عليه السلام ناداها من تحت النخلة. انظر: مفاتيح الغيب للرازي ١٧٥/٢١.

٦- انظر: تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم ٢٥٥/٩.

وقيل: إن الذي ناداها ابنها عيسى عليه السلام (١)(٢)، ولا يمنع ذلك من حمل إرشاده لها بالأكل من الرطب والشرب من الماء على تسهيل الولادة؛ لأنه وإن خرج عيسى عليه السلام من بطنها إلا أن الولادة لم تكتمل بمجرد خروجه، إذ بقي خروج المشيمة وانقباض الرحم لمنع النزف، والرطب مع الماء والاستقرار النفسي عوامل مساعدة في ذلك، بالإضافة إلى تعويض ذلك لما فقدته المرأة من دم وطاقة جراء عملية الولادة الشاقة.

-
- ١- انظر: جامع البيان للطبري ١٧٤/١٨، ومفاتيح الغيب للرازي ١٧٤/٢١، والبحر المحيط لأبي حيان ١٧٣/٦، والجواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي ٦/٣، وأضواء البيان للشنقيطي ٣/٣٩٤.
- ٢- رجحه الطبري والرازي والشنقيطي؛ لأن الضمير يرجع إلى أقرب مذكور إلا بدليل صارف عن ذلك يجب الرجوع إليه، وأقرب مذكور في الآية هو عيسى لا جبريل؛ لأن الله قال: ﴿فَحَمَلَتْهُ﴾، يعني عيسى، ﴿فَأَنْبَذَتْ بِهِ﴾ أي بعيسى، ثم قال بعده: ﴿فَنَادَتْهَا﴾ فالذي يظهر ويتبادر من السياق أنه عيسى، بالإضافة إلى أنها لما جاءت به قومها تحمله، وقالوا لها ما قالوا، أشارت إلى عيسى ليكلموه، وإشارتها إليه ليكلموه قرينة على أنها عرفت قبل ذلك أنه يتكلم على سبيل خرق العادة، لندائه لها عندما وضعته. انظر: جامع البيان ١٧٤/١٨، ومفاتيح الغيب ١٧٤/٢١، وأضواء البيان ٣/٣٩٤.

المطلب الثالث: ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها

من خلال الدراسة التفسيرية والعلمية يتلخص ما يلي:

* السَّبِيل في الأصل الطريق وما وضح منه، والسَّبِيل: السبب والوصلة، والسبيل: الحرج، والسبيل: الحجة.

* اختلف المفسرون في قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ﴾^(١)، على أقوال، والراجح: أنه لا يوجد تعارض بين أقوال المفسرين، وأنه يمكن الجمع بينها، فخرج الجنين من بطن أمه هو تيسير طريق خروجه إلى الدنيا وهذا هو المعنى الحقيقي لكلمة السبيل(الطريق)، ولا يتنافى مع بقية الأقوال إذ إن تيسير سبيل الحق والباطل أيضاً هو تيسير سبيل، وتيسير سبيل السعادة والشقاء داخل ضمن القول الثاني إذ لا سعادة دون سلوك سبيل الخير والحق، والشقاء هو سلوك سبيل الشر والباطل، أما القول الخامس والسابع فهما أقوال عامه، يدخل فيهما كل ما سبق من الأقوال.

* وصف بعض المفسرين كيفية تيسير طريق خروج الجنين وذلك بخروجه حياً من أضيق المسالك، وفتح فم الرحم ومد الأعصاب في طريقه، وتتكيس رأسه لأسفل بعد أن كان في جهة العلو.

* تبدو قناة الولادة في وضعها الطبيعي ممراً يصعب مرور الجنين منه، إلا أن هناك عوامل كثيرة تسهل عملية الولادة، وتمر هذه العوامل بالمراحل التالية:

١- مرحلة توسع وتمدد عنق الرحم التي تبدأ بتقلصات خفيفة متباعدة تعمل على اتساع عنق الرحم شيئاً فشيئاً، ويؤدي هرمون ريلاكسين إلى تراخي أربطة مفاصل الحوض، وتليين عنق الرحم، وتنتهي باتساع عنق الرحم بالكامل.

١- سورة عبس: الآية ٢٠.

٢- مرحلة خروج الجنين: ويساعده على ذلك ما يلي: تقلصات الرحم، وأغشية السلى التي تسهل انزلاق الجنين، وانفراج الزوايا لجعل ما بين الرحم وعنقه طريقاً واحداً، وليونة عظام جمجمة المولود بحيث تمتد وتتضغظ مقداراً معيناً يسهل خروج رأس الجنين، كما أن هناك جزءاً من مفاصل حوض الأم تتحرك إلى الخلف بفعل إنزيم خاص يفرز، وتغير وضع الجنين عند مروره عبر تجويف الحوض الذي له شكل غير منتظم، وتساهم كل من العضلات الرافعة للشرح والعضلات العصبية بانقباضهما المتتالي في قذف الجنين إلى الخارج.

٣- مرحلة خروج المشيمة عن طريق استمرار عضلات الرحم في التقلص حتى تنفصل المشيمة عن الرحم.

٤- مرحلة انقباض الرحم: لتخفيف النزف الدموي بعد انتهاء عملية الولادة.

* يستمر تيسير السبيل بعد الولادة، حيث يسر للرضيع لبن أمه وحنانها، وعطف الوالدين وحبهم، وسبل المعاش من لحظة الولادة إلى لحظة الممات.

* أظهرت العلوم الحديثة أن للرطب فوائد عديدة في حالة المخاض، فهو يساعد على تسهيل الولادة، ومنع المضاعفات بعدها كالنزيف، ويعطي المرأة الماخض طاقة كبيرة بصورة جاهزة للامتصاص، ويخفض ضغط الدم لمدة بسيطة ثم يعود لطبيعته ليقبل كمية نرف الدم، ومما تحتاجه المرأة حال المخاض أيضاً السوائل، والحالة النفسية المستقرة، وهذا يظهر لنا الحكمة في إرشاد مريم -عليها السلام- وقت مخاضها إلى تناول الرطب والشرب من الماء، وإلى أن تقر عينها ولا تحزن.

ومن خلال الدراسة التفسيرية والعلمية تظهر الآثار التالية:

* ذكر فريق من المفسرين أن المراد بقوله ﷻ: ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ﴾^(١)، هو تيسر طريق خروج الجنين من بطن أمه، وجاءت المكتشفات العلمية تبين لنا كثيراً من العوامل التي تساعد في تيسير طريق خروج الجنين من بطن أمه، وأعطتنا تفاصيل علمية كثيرة ودقيقة توضح لنا هذا التيسير، وتؤكد صحة هذا القول، وانطباق ما تمر به المرأة حال مخاضها من مراحل خلال عوامل مساعدة تيسر طريق خروج الجنين على عملية الولادة، وتبين أنه لولا لطف الله وتهيئته لتلك العوامل لتعسرت الولادة وقد يهلك المولود أو أمه، وبالتالي فتفسير تيسير السبيل بالولادة صحيح، ولا يلزم من ذلك رد باقي الأقوال؛ لإمكان دخولها في معنى الآية.

* الإعجاز البياني، فالآية بينت إعجازاً كاملاً؛ لأنها وضحت أهم ما وصل إليه الطب في علم الولادة وبأسلوب بليغ رفيع، ومع ذلك يفهمه كل إنسان سواء كان بدوياً أم حضرياً عالماً أم جاهلاً، وسواء عاش في القرن الأول للميلاد أو القرن العشرين^(٢).

* الإعجاز الغيبي للقرآن الكريم؛ إذ إن إرشاد مريم عليها السلام إلى الأكل من الرطب والقرار النفسي وذكر ذلك في القرآن إعجاز غيبي لم يكن أحد يعلمه، مما يدل على أن القرآن وحي نزل من السماء، قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُنْفِقِينَ﴾^(٣).

١- سورة عبس: الآية ٢٠.

٢- انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن لمحمد البار ص ٤٥٩.

٣- سورة هود: الآية ٤٩.

* إن هذا التناسق والتناغم العجيب الذي تتم به عملية الولادة دليل على الخالق سبحانه وتعالى وعلى أسمائه الحسنی وصفاته العلی؛ إذ لا يمكن أن يكون كل ذلك مجرد عملية ميكانيكية حدثت بصورة تلقائية نتيجة تغيرات فسيولوجية، إنما هي عملية مدبرة محكمة، دبرها خالق عليم حكيم خبير سبحانه، وقدر لها أن تتم بهذه الصورة دون سواها، ويسر لها كل هذه السنن^(١)، فتبارك الخالق الحكيم سبحانه الذي أمد الجنين بكل عناية حتى اكتمل خلقه، ثم يسر له سبيل الخروج إلى الدنيا، وصدق الله القائل: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾^(٢)، ففي كل شأن من شؤون البشر آيات ودلائل وعبر، لمن تأمل ونظر، واتعظ واعتبر، والله در القائل:

أَلَا إِنَّنَا كُنَّا بِأَنْدُ	وَأَيِّ بَنِي آدَمِ خَالِدٌ؟
وَبَدُوهُمْ كَانَ مِنْ رَبِّهِمْ	وَكُلٌّ إِلَى رَبِّهِ عَائِدٌ
فِيَا عَجَبًا كَيْفَ يَعْصِي الْإِلَهَ	أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الْجَاهِدُ
وَلِلَّهِ فِي كُلِّ تَحْرِيكَةٍ	وَفِي كُلِّ تَسْكِينَةٍ شَاهِدٌ
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ	تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ الْوَاحِدُ ^(٣)

١- انظر: خلق الإنسان بين العلم والقرآن لحمد الرقعي ص ٨١.

٢- سورة الذاريات: الآية ٢١.

٣- ديوان أبي العتاهية (إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان) ص ١٢٢.

فإن من تأمل في المخلوقات كلها واختلاف أشكالها وألوانها وطباعها ومنافعها ووضعها في مواضع النفع بها محكمة، علم قدرة خالقها وحكمته وعلمه وإتقانه وعظيم سلطانه، كما قال بعض الأعراب وقد سئل: ما الدليل على وجود الرب تعالى؟ فقال: يا سبحان الله! إن البعرة لتدل على البعير، وإن أثر الأقدام لتدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج؟ ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير؟

وحكى فخر الدين عن الإمام مالك أن الرشيد سأله عن ذلك فاستدل باختلاف اللغات والأصوات والنغمات، وعن أبي حنيفة أن بعض الزنادقة سألوه عن وجود الباري تعالى، فقال لهم: دعوني فإنني =

=مفكر في أمر قد أخبرت عنه ذكروا لي أن سفينة في البحر موقرة فيها أنواع من المتاجر وليس بها أحد يحرسها ولا يسوقها، وهي مع ذلك تذهب وتجيء وتسير بنفسها وتخترق الأمواج العظام حتى تتخلص منها، وتسير حيث شاءت بنفسها من غير أن يسوقها أحد، فقالوا: هذا شيء لا يقوله عاقل، فقال: ويحكم هذه الموجودات بما فيها من العالم العلوي والسفلي وما اشتملت عليه من الأشياء المحكمة ليس لها صانع!! فبهت القوم ورجعوا إلى الحق وأسلموا على يديه.

وعن الشافعي: أنه سئل عن وجود الصانع، فقال: هذا ورق التوت طعمه واحد تأكله الدود فيخرج منه الإبريسم، وتأكله النحل فيخرج منه العسل، وتأكله الشاة والبعير والأنعام فتلقبه بعراً وروثاً، وتأكله الطباء فيخرج منها المسك وهو شيء واحد.

وعن الإمام أحمد بن حنبل أنه سئل عن ذلك فقال: ها هنا حصن حصين أملس، ليس له باب ولا منفذ، ظاهره كالفضة البيضاء، وباطنه كالذهب الإبريز، فبينما هو كذلك إذ انصدع جداره فخرج منه حيوان سميع بصير ذو شكل حسن وصوت مليح، يعني بذلك البيضة إذا خرج منها الدجاجة، وسئل أبو نواس عن ذلك فأنشد:

تأمل في نبات الأرض وانظر
إلى آثار ما صنع المليك
غيون من لجين شاخصات
بأحداق هي الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات
بأن الله ليس له شريك

وقال آخرون: من تأمل هذه السماوات في ارتفاعها واتساعها وما فيها من الكواكب الكبار والصغار المنيرة من السيارة ومن الثوابت، وشاهدها كيف تدور مع الفلك العظيم في كل يوم وليلة دويرة ولها في أنفسها سير يخصها، ونظر إلى البحار الملتفة للأرض من كل جانب، والجبال الموضوعة في الأرض لتقر ويسكن ساكنوها مع اختلاف أشكالها وألوانها كما قال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ

مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَعَرَبِيُّ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالذَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ

مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ. كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٧﴾ [فاطر: ٢٧، ٢٨] وكذلك هذه

الأنهار السارحة من قطر إلى قطر لمنافع العباد، وما ذراً في الأرض من الحيوانات المتنوعة والنبات المختلف الطعوم والأرييح والأشكال والألوان مع اتحاد طبيعة التربة والماء، علم وجود الصانع وقدرته العظيمة وحكمته ورحمته بخلقه ولطفه بهم وإحسانه إليهم وبره بهم لا إله غيره ولا رب سواه، عليه توكلت وإليه أنيب، والآيات في القرآن الدالة على هذا المقام كثيرة جداً.

انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/٧٧، ٧٨.

الخاتمة

بعد أن تم بحمد الله ﷻ وتوفيقه، وعونه وسداده، ومنه وكرمه، الانتهاء من هذه الرسالة، فإنني والله الحمد والمنة أسطر أهم النتائج فيها والتوصيات في التالي:

أولاً: أهم النتائج:

* خلق آدم ﷺ في مراحل عدة هي: التراب، ثم الطين، ثم السلالة من الطين، ثم الطين اللزب، ثم الحمأ المسنون، ثم صلصال كالفخار، ثم سواه ﷻ ونفخ فيه الروح، وقد أثبت التحليل الكيميائي لجسم الإنسان أنه يحوي من العناصر ما تحويه الأرض، وإن اختلفت نسبتها بين الإنسان والتراب، أو في إنسان عن آخر.

* المراد بالخلق من نفس واحدة آدم ﷺ، وزوجه هي حواء، خلقها الله ﷻ من ضلع من أضلاع آدم ﷺ، وقد أثبت علم الوراثة انتقال الصفات الوراثية من الآباء إلى الأبناء، فالناس جميعاً يلتقون في شفرة وراثية واحدة كانت في صلب آدم ﷺ، وذكرت دراسات علم الأحياء الجزيئي إمكان تتبع نسب جميع الإناث إلى أم واحدة.

* نظرية النشوء والتطور باطلة بالأدلة القاطعة من الشرع والعلوم الحديثة.

* الخلق من ذكر وأنثى يشمل آدم وحواء، ويشمل جنس الذكر والأنثى، ومن الثابت علمياً أهمية كل من الحيوان المنوي والبويضة في عملية التخلق البشري.

* الفوارق بين الذكر والأنثى على نوعين: كونية قدرية، وشرعية، وذكر المفسرون أن زيادة درجة الرجل: بخلقته، وعقله، وصلاحه للقوامة على البيت، والإمارة، وبيده، وشهادته، ومنصب النبوة، والقضاء... وثبت علمياً اختلاف الرجل عن المرأة في كثير من النواحي، فالمساواة المطلقة بين الذكر والأنثى مفسدة عظيمة.

* ماء الرجل وماء المرأة دافقان بذاتهما، ومدفوقان بصاحبهما، و(دافق) لفظ معبر جامع لكل الحقائق التي اكتشفها العلم الحديث، ولم تعط المكتشفات العلمية فهماً قاطعاً يصر إليه في كيفية خروج الماء الدافق من بين الصلب والترائب.

* خلق الله الإنسان في أطوار جنينية، هي النطفة والعلقة، والمضغة، فالعظام وكسائه باللحم، ثم النشأة خلقاً آخر.

* يبدأ مصطلح النطفة من المنوي والبويضة، وينتهي بطور الحرث، وتمر النطفة خلال تكونها بمراحل: أولها: الماء الدافق، وثانيها: السلالة، وثالثها النطفة الأمشاج، وينتج عن تكون النطفة الأمشاج: الخلق، والتقدير، وتحديد الجنس، والحرث، ومع ما يحدث للنطفة الملقحة من انقسامات، إلا أن طبيعتها ومظهرها لا يتغيران عن النطفة.

* ما قاله المفسرون في معنى العلقه يرجع إلى الدم، وإنما تعددت عباراتهم في وصفها؛ لتعدد معناها اللغوي، وطور العلقه يبدأ بعد مرحلة الحرث، ويتسع اسم علقه فيشمل وصف الهيئة العامة للجنين كدودة عالقة، كما يشمل الأحداث الداخلية كتكون الدماء والأوعية المقفلة، كما يدل لفظ علقه على تعلق الجنين بالمشيمة.

* المضغة عند كثير من المفسرين في قدر وحجم ما يمكن مضغه، و﴿مُخَلَّقَةٌ﴾
و﴿غَيْرُ مُخَلَّقَةٍ﴾ صفة لمضغة؛ فإنها في أول أمرها تكون غير مخلقة ثم تكون مخلقة، وتتخلق أجهزة الجنين على هيئة براعم في طور المضغة، وتنمو لاحقاً.

* لا يبدأ تكون العظام على نحو موحد في الجسم كله، وتظهر الأنسجة العظمية بالتعاقب، لكن الأسبوع السابع يشهد مرحلة انتشار الهيكل العظمي في الجنين، وجعل الله ﷻ على كل عظم لحماً على المقدار الذي يليق به ويناسبه، وشدها بالأعصاب والعروق، وكساء العظام باللحم تمثل نهاية لمرحلة من مراحل نمو الجنين.

* الظاهر أنه يدخل في طور النشأة ما يمر به الجنين من تخلق بعد الكساء باللحم بمدة زمنية، ومن ذلك نفخ الروح، والذكورة والأنوثة، ونبات الشعر، والنشأة تبدأ في الأسبوع التاسع، ومن خصائصها: التطور للأعضاء والأجهزة، والتغيرات في مقاييس الجسم، واكتساب الصورة الشخصية، وظهور الأعضاء التناسلية الخارجية..

* أكدت الحقائق العلمية صحة ما ذهب إليه المفسرون في تفسيرهم لبعض هذه الأطوار كالنطفة الأمشاج، والسلالة، والعلقه، والمضغة، وعدم التضاد بين ما قالوه، وكشفت هذه الحقائق عن أسرار عدة، ومعانٍ جديدة تستوعبها هذه المسميات القرآنية.

* لم يرد تحديد زمن نفخ الروح بوقت معين في نصوص الشرع، ولم يصل إلى معرفة ذلك أهل الطب على وجه اليقين والقطع، ومن الثابت علمياً أن الأطوار الأولى للجنين -النطفة والعلقه والمضغة- تتم خلال الأربعين يوماً الأولى.

* خلق جنس الإنسان في أحسن تقويم، وذلك شامل لخلق الإنسان حساً ومعنى، ومما يؤكد بوضوح أن الله تعالى خلق الإنسان في أحسن تقويم المقارنة بين بناء جسم الإنسان وبناء جسم أي مخلوق آخر من المخلوقات.

* الضعف في الإنسان يتضمن كثير من جوانب حياته: النفسية، والبدنية، والجنسية، والعقلية، وهو سمة تلازم الإنسان من لحظة البداية في خلقه إلى نهاية حياته، والحل الذي يجبر به الإنسان ضعفه هو الاعتصام بالله والإيمان بالله.

* خلق الإنسان في كبد أي شدة وعناء ونصب، ومكابدة؛ فالكبد طبيعة الحياة الدنيا؛ والإنسان لا يزال في نصب ومكابدة وشدائد منذ البداية في تكوينه إلى منتهاها بالموت وما بعده، وهناك عدة دلائل علمية تشهد لذلك، فجميع أجهزة جسم الإنسان في نصب وكدح ومكابدة، وهناك أوجه تشابه بين الكبد والكبد، فهو في عمل متواصل لا يتوقف، يبذل من الجهد مثلما يبذله الإنسان في حياته.

* خلق الإنسان عجولاً، من شأنه العجلة في الأمور، وهذا الوصف تمكن من جبلة الإنسانية، وفي المراد بـ﴿هَلُوعًا﴾ أقوال، ومعانيها كلها تنافي الثبات والقوة والاجتماع والتماسك والصبر، وواقع الإنسان يدل على أنه عجول يتعجل الأمور والنتائج ويتبع منطق عقله، ويدل على قلة إمساك النفس عند اعتراء ما يحزنها أو ما يسرها، أو عند توقع ذلك، وعند ضعف الإيمان يظهر أثر ذلك الهلع عند مس الشر جزعاً و شحاً وضجرًا، ومنعاً للخير وإمساكاً إذا قدر عليه.

* الحواس خلقت للإنسان وهو في بطن أمه، مع ذلك يولد لا يعلم شيئاً، ثم يبدأ بواسطة هذه الحواس يتعلم ويكتسب المعلومات والخبرات، وقدم الله ﷻ السمع على البصر؛ لأنه آلة لتلقي المعارف التي بها كمال العقل، كما أن حاسة السمع يتم تخلقها وعملها قبل حاسة الإبصار.

* وضع الله السلالة في الرحم ووصفه بـ(القرار)؛ حفظاً لها، وقد ثبت علمياً أن الرحم مستقر للجنين، ووصف الرحم أيضاً بـ(المكين) وهو وصف على الحقيقة، فهو مثبت بقوة، ويوجد بعض العوامل التي تحفظه في مكانه، وتجعله قراراً مكيناً.

* علم الله لما في الأرحام عام شامل مطلق غيبي أزلي لا يحتاج إلى واسطة، حقيقي قطعي يشمل جميع أحوالها، وأحوال ما فيها، وجميع الأرحام، وهو ﷻ عالم بما تنقصه الأرحام وما تزيده؛ لأن معنى تغيض: تنقص، وذلك يشمل نقص العدد، والعضو، والجسم، ومدة الحمل، والازدياد يشمل: زيادة العضو، والعدد، والجسم، وأمد الحمل عن القدر المعتاد، والله تعالى يعلم ذلك كله، فالآية شاملة.

* المراد بالظلمات الثلاث: ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة، وهذه الظلمات تنبيه على إحاطة علم الله بالأشياء، ونفوذ قدرته إليها في أشد ما تكون

فيه من خفاء، وقد جعل الخالق هذه الظلمات عوازل تقي الجنين، فقد ثبت علمياً أن وجود الجنين في وسط مظلم أمر هام جداً لنموه وسلامته.

* قوله ﷺ: ﴿بَلَّ قَدِيرِينَ عَلَىٰ أَنْ تُسَوَّىٰ بِنَانِهِ﴾^(١) نسوي أطراف أصابعه وسلامياته، بجمع ما صغر منها، والتأليف بينها وإعادة بعضها إلى بعض كما كانت أولاً، فكيف بكبار العظام، وهذا عند البعث، وفي هذه الآية إشارة إلى البصمات التي ثبت علمياً أنها تختلف من شخص لآخر، فلا تتطابق أبداً بين شخصين حتى في التوائم المتماثلة، وفي هذا إشارة إلى أهمية التحدي بهذه الأعضاء الدقيقة في إعادة خلق الإنسان وبعثه يوم القيامة، إذ من قدر على إعادة البنان وما تحويه من رسوم وخطوط، فهو أقدر على جمع وإعادة العظام الأخرى لبدن الإنسان.

* أقل مدة الحمل ستة أشهر، واختلف في أكثرها؛ حيث لم يرد في تحديده شيء من كتاب الله ﷻ، ولا من سنة رسوله ﷺ، والدراسات العلمية أثرت كذلك في وقوع الخلاف بين الباحثين المعاصرين في أكثر مدة الحمل بناء على مكتشفات العلوم الطبية وما قاله المفسرون والفقهاء، والصحيح الأخذ بالجانب الطبي والعمل به، والذي يرى أن المدة تسعة أشهر وقد تزيد أسابيع محدودة كما هو الواقع، مع عدم القطع بنفي وقوع حمل امتد طويلاً، وإن كان نادراً، ويمكن الرجوع في هذا النادر وما يترتب عليه إلى القضاء.

* قوله ﷺ: ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ﴾^(٢)، من معانيها تيسير طريق خروج الجنين من بطن أمه إلى الدنيا، وهذا هو المعنى الحقيقي لكلمة السبيل أي (الطريق)، وقناة الولادة تبدو في وضعها الطبيعي ممراً يصعب مرور الجنين منه، إلا أن الله اللطيف الرحيم هياً عوامل كثيرة تسهل وتيسر عملية الولادة.

١- سورة القيامة: الآية ٤.

٢- سورة عبس: الآية ٢٠.

* الدراسات التفسيرية والعلمية أدت إلى دمج الشبهات الواردة على حديث القرآن عن خلق الإنسان، ومن الأمثلة على ذلك:

- شبهة القائلين إن القرآن عندما تحدث عن خلق آدم تجده مرة يذكر التراب، وأخرى الماء، وثالثة الطين، وغيرها الطين اللزب، والحقيقة أن هذه هي المراحل التي مرت بها المادة الواحدة التي خلق الله ﷻ منها آدم ﷺ.

- شبهة المنكرين لإعجاز القرآن في إخباره عن خلق الجنين في ظلمات ثلاث، فقد أكدت الأبحاث العلمية الحديثة أن الجنين لا يكتمل خلقه بصورة كاملة سليمة إلا بوجود ظلام حالك في مراحل خلقه وتكوينه؛ حفاظاً على خلاياه وأعضائه، وإلا لخرج الجنين مشوهاً، أو لفسدت البويضة الملقحة ابتداءً بفعل الضوء، وقد ذهب معظم علماء الإعجاز العلمي إلى أن الباعث على هذا الظلام ثلاثة أشياء تمثل ظلمات ثلاث، وهي: المشيمة بأغشيتها، ثم جدار الرحم، ثم جدار البطن.

* ظهور المعجزة القرآنية بأنواعها، كما يلي:

أ- المعجزة البيانية، ومن أمثلة ذلك:

- أعطى القرآن أسماء لمراحل خلق الإنسان تناسب الشكل الخارجي والشكل الداخلي لكل مرحلة، كما أنه يصف العمليات الداخلية للجنين أثناء خلقه وتطوره.

- استعملت كلمة (قرار) في القرآن متضمنة وظائف الرحم باعتباره مكاناً مناسباً لاستقرار الجنين وتمكينه من مواصلة نموه، كما جمع هذا اللفظ كل الحقائق التي اكتشفها العلم، لبيان مناسبة الرحم لاستقرار الجنين، فهو لفظ معبر جامع، كما استعملت كلمة (مكين) متضمنة لتمكن الرحم وتثبيته في جسم الأم، ليناسب الاستقرار والنمو الجيد للجنين، وأيضاً جمع هذا اللفظ كل الحقائق المكتشفة في تمكّن الرحم وثبوته في جسم المرأة، ف(قرار) و(مكين) كل منهما جامع لمدلولات عدة وكثيرة.

ب- المعجزة العلمية، ومن أمثلة ذلك:

- إخبار نصوص القرآن أن الإنسان يخلق من امتشاج واختلاط ماء الرجل والمرأة، والبشر لم يعرفوا ذلك إلا في القرون الأخيرة.

- وصف (القرار والمكين) جاء مناسباً وموضحاً للرحم من الناحيتين التشريحية والفيولوجية، وموافقاً بل وسابقاً لما توصل إليه علم التشريح والأجنة.

- وصف مراحل تخلق الجنين بدقة فائقة قبل (١٤٠٠) سنة، وهي مراحل متناهية الضآلة في الحجم، حتى أن تقسيم القرآن لهذه المراحل ووصفه لها أدق من تقسيم المراجع الطبية، كما أكد ذلك عالم الأجنة (كيث مور)، بل إنه اعتمد في كتبه التي تدرس في جامعات عالمية على تقسيم القرآن، وذلك من أوضح جوانب الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، وبيان سبقه للعلوم المكتسبة؛ لأنه كلام الله الذي خلق الإنسان وهو أعلم بتفاصيل خلقه، ويستحل صدور ذلك من صناعة بشرية.

ج- الإعجاز الغيبي والتاريخي، ومن أمثلة ذلك:

- إخبار القرآن الكريم عن خلق آدم عليه السلام، ومعلوم أن النبي ﷺ كان نبياً أمياً، وقد عاش في بيئة أمية، وقد مر زمن طويل على خلق آدم، فسرد القرآن لهذه القصة يشهد بأنه كلام الله، أنزله على محمد ﷺ شاهد بصدق رسالته.

- إرشاد مريم عليها السلام إلى الأكل من الرطب والقرار النفسي، وذكر ذلك في سياق قصتها الطويلة التي ذكرها القرآن، وتفاصيل هذه القصة، بما فيها خلق عيسى، وولادته، أمر لم يكن أحد يعلمه، مما يدل على أن القرآن وحي الله لنبيه.

د- المعجزة التشريعية من خلال ممايزة التشريع الإلهي بين الذكر والأنثى في مجموعة من الأحكام، مراعيًا للفوارق الخلقية الطبيعية بين الجنسين، والواقع اليوم يشهد أن الأنظمة البشرية قبل الإسلام وفي العصر الحديث في تخبط من هذا الأمر.

* الدراسات التفسيرية والعلمية أثبتت استحالة وقوع تعارض بين قطعي من الشرع مع قطعي من العلم، وبالتالي فإن الشبهات الواردة حول خلق الإنسان في القرآن لا تستند على حقائق، وإنما الظن والتخمين، أو الضعف والقصور في الفهم للنص أو الجوانب العلمية.

* المكتشفات العلمية قد تكون آثارها في ظهور سر من أسرار الخلق، يجلي المعنى بشدة ويزيده وضوحاً، كموضوع تسوية البنان، وتيسير السبيل، والظلمات الثلاث، وقد يكون لها أثر في تأييد قول من الأقوال كتأييدها صحة القول إن المنى دافق ومدفق، مدفوق بالنظر إلى صاحبه، ودافق بالنظر إلى ذاته.

ثانياً: التوصيات

* أوصي الباحثين والدارسين للتفسير وعلوم القرآن -والعلوم الشرعية عموماً- الاهتمام بالحقائق العلمية وربطها بدراساتهم، واستنباط آثار ونتائج هذا الربط.

* أن تعنتي مراكز البحث العلمي، والهيئات العلمية والعالمية، والمختصون من أهل العلوم التطبيقية بالمواضيع التي لا زالت بحاجة لدراسة علمية متعمقة في خلق الإنسان، والتي أشارت إليها الباحثة في مظانها من الفصل الرابع؛ للخروج بشيء يزيد أمرها جلاءً، وإظهار عظمة القرآن وإعجازه، وتقديم علم ينتفع به.

* أوصي الجامعات التي توجد فيها كليات للعلوم التطبيقية، أن تولي اهتماماً بالعلوم والدراسات الشرعية التي تحتاج إلى ربط مع العلوم التطبيقية، ومن ذلك تشكيل فريق بحث متخصص في ذلك، ويمكن تشكيل فريق عمل مشترك يجمع بين مختصين شرعيين وآخرين من أهل العلوم التطبيقية، لتناول المواضيع بدراسة متعمقة، من الناحيتين الشرعية والعلمية، ويمكن وضع الدراسات مع نتائجها في موسوعات علمية أو مجلات.

* العناية بدراسة خلق الإنسان في السنة؛ وربط ذلك بالجوانب العلمية، والعناية بدراسة خلق الإنسان دراسة مقارنة بين خلقه في الإسلام وعند باقي الأديان. وفي الختام أسأل المولى ﷺ أن يبارك هذا العمل، ويتقبله مني، ويجعله صالحاً وخالصاً لوجهه الكريم، وأن يعلمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علمنا، ويرزقنا العمل به، وأن ينفع به أمة محمد ﷺ، ويبلغه ما بلغ الليل والنهار، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وأذكر القارئ الكريم أن هذا جهد بشري، لا تتفك عنه صفات البشر من نقص، وعدم كمال، فما كان فيه من صواب فهو من فضل الله ونعمته، وما كان فيه من خلل فالله ورسوله منه بريئان، والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم^(١).

وصلى الله وسلم على نبيه الكريم المبعوث برسالة الإسلام والسلام رحمة للعالمين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى رأسهم أزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين، وعلى صحابته الغر الميامين أجمعين، وعلى من ترضى عنهم وتبعهم بإحسان إلى يوم الدين والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

١- كتب القاضي عبد الرحيم البياني إلى العماد الأصفهاني معتزلاً عن كلام استدركه عليه قائلاً: «إنه قد وقع لي شيء، وما أدري أوقع لك أم لا؟ وما أنا أخبرك به، وذلك أنني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتابه في يومه إلا قال في غده: لو غير هذا لكان أحسن، ولو زيد لكان يستحسن، ولو قدم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جلة البشر».

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
٦	المقدمة
٨	الفصل الأول: أصل خلق الإنسان والرد على نظرية التطور
٩	المبحث الأول: الخلق من الأرض ومراحل خلق آدم ﷺ
١٠	المطلب الأول: الخلق من الأرض ومراحل خلق آدم في القرآن الكريم
١٨	مراحل خلق آدم عليه الصلاة والسلام
٣٦	المطلب الثاني: الخلق من الأرض في ضوء المكتشفات العلمية الحديثة
٤٤	المطلب الثالث: ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها
٤٩	المبحث الثاني: الخلق من نفس واحدة وخلق زوجها
٥٠	المطلب الأول: الخلق من نفس واحدة وخلق زوجها في القرآن الكريم
٦٤	المطلب الثاني: الخلق من نفس واحدة وخلق زوجها في ضوء المكتشفات العلمية الحديثة
٧٠	المطلب الثالث: ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها
٧٤	المبحث الثالث: نظرية النشوء والتطور
٧٥	المطلب الأول: التعريف بنظرية النشوء والتطور وآثارها
٨٦	المطلب الثاني: تنفيذ نظرية النشوء والتطور في الشرع
٨٧	أولاً: تنفيذ نظرية النشوء والتطور من القرآن الكريم
٩١	ثانياً: تنفيذ نظرية النشوء والتطور من السنة النبوية
٩٤	ثالثاً: تنفيذ النظرية من كلام المفسرين
٩٧	موقف العلماء المعاصرين من نظرية النشوء والتطور
٩٨	المطلب الثالث: موقف علماء الغرب من نظرية النشوء والتطور
١٠٥	المطلب الرابع: تنفيذ نظرية النشوء والتطور عقلياً وعلمياً
١٠٧	تنفيذ أسس وفرضيات النظرية
١٢١	التطورية الحديثة

١٢٣	المطلب الخامس: ملخص الدراسة وأثرها
١٢٧	الفصل الثاني: خلق بني آدم
١٢٨	المبحث الأول: الخلق من ذكر وأنثى
١٢٩	المطلب الأول: الخلق من ذكر وأنثى في القرآن الكريم
١٣٢	نسبة الماء الذي يخلق منه الولد
١٣٦	خلق عيسى عليه الصلاة والسلام
١٤٠	المطلب الثاني: الخلق من ذكر وأنثى في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة
١٤٩	المطلب الثالث: ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها
١٥٤	المبحث الثاني: الفرق بين الذكر والأنثى
١٥٥	المطلب الأول: الفرق بين الذكر والأنثى في القرآن الكريم
١٧١	المطلب الثاني: الفرق بين خلق الذكر والأنثى في ضوء الاكتشافات العلمية
١٨٧	المطلب الثالث: ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها
١٩١	المبحث الثالث: صفة الماء الذي يخلق منه الإنسان
١٩٢	المطلب الأول: صفة الماء الذي يخلق منه الإنسان في القرآن الكريم
١٩٧	المطلب الثاني: صفة الماء الذي يخلق منه الإنسان في الاكتشافات العلمية
٢٠٠	المطلب الثالث: ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها
٢٠٣	المبحث الرابع: الصلب والترائب
٢٠٤	المطلب الأول: الصلب والترائب في القرآن الكريم
٢١٦	المطلب الثاني: الصلب والترائب في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة
١٨٤	رأي الأطباء في تفسير كيفية خروج الماء الدافق من بين الصلب والترائب
٢٣٠	المطلب الثالث: ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها
٢٣٤	الفصل الثالث: أطوار خلق الإنسان
٢٣٥	المبحث الأول: خلق الإنسان في أطوار
٢٣٦	المطلب الأول: خلق الإنسان في أطوار في القرآن الكريم
٢٤٣	المطلب الثاني: خلق الإنسان في أطوار في ضوء الاكتشافات العلمية

٢٥٢	المطلب الثالث: ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها
٢٥٦	المبحث الثاني: طور النطفة
٢٥٧	المطلب الأول: طور النطفة في القرآن الكريم
٢٦٨	المطلب الثاني: النطفة في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة
٢٧٥	المطلب الثالث: ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها
٢٨٠	المبحث الثالث: طور العلقة
٢٨١	المطلب الأول: طور العلقة في القرآن الكريم
٢٨٨	المطلب الثاني: طور العلقة في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة
٢٩٥	المطلب الثالث: ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها
٢٩٩	المبحث الرابع: طور المضغة
٣٠٠	المطلب الأول: طور المضغة في القرآن الكريم
٣٠٧	المطلب الثاني: طور المضغة في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة
٣١٦	المطلب الثالث: ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها
٣٢١	المبحث الخامس: خلق العظام وكساؤه باللحم
٣٢٢	المطلب الأول: خلق العظام وكساؤه باللحم في القرآن الكريم
٣٢٨	المطلب الثاني: خلق العظام وكساؤه باللحم في ضوء الاكتشافات العلمية
٣٣٩	المطلب الثالث: ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها
٣٤٤	المبحث السادس: طور النشأة خلقاً آخر
٣٤٥	المطلب الأول: طور النشأة خلقاً آخر في القرآن الكريم
٣٥٠	زمن نفخ الروح في الجنين
٣٥٩	المطلب الثاني: طور النشأة خلقاً آخر في ضوء الاكتشافات العلمية
٣٦٥	زمن نفخ الروح في الجنين عند المعاصرين
٣٧٤	المطلب الثالث: ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها
٣٧٨	الفصل الرابع: صفة وحال خلق الإنسان
٣٧٩	المبحث الأول: خلق الإنسان في أحسن تقويم

٣٨٠	المطلب الأول: خلق الإنسان في أحسن تقويم في القرآن الكريم
٣٨٩	المطلب الثاني: خلق الإنسان في أحسن تقويم وتعديل خلقه في ضوء الاكتشافات العلمية
٣٩٦	المطلب الثالث: ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها
٣٩٩	المبحث الثاني: خلق الإنسان ضعيفا
٤٠٠	المطلب الأول: خلق الإنسان ضعيفا في القرآن الكريم
٤٠٨	المطلب الثاني: خلق الإنسان ضعيفا في ضوء المعطيات الواقعية والمكتشفات العلمية
٤٢٣	المطلب الثالث: ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها
٤٢٦	المبحث الثالث: خلق الإنسان في كبد
٤٢٧	المطلب الأول: خلق الإنسان في كبد في القرآن الكريم
٤٣٤	المطلب الثاني: خلق الإنسان في كبد في ضوء المعطيات الواقعية والمكتشفات العلمية
٤٤٧	المطلب الثالث: ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها
٤٥٠	المبحث الرابع: خلق الإنسان من عَجَلٍ وهلوعا
٤٥١	المطلب الأول: خلق الإنسان من عَجَلٍ وهلوعا في القرآن الكريم
٤٦٦	المطلب الثاني: خلق الإنسان من عَجَلٍ وهلوعا في ضوء المعطيات الواقعية والاكتشافات العلمية
٤٧٣	المطلب الثالث: ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها
٤٧٧	المبحث الخامس: خلق الإنسان لا يعلم شيئا وإمداده بوسائل العلم
٤٧٨	المطلب الأول: خلق الإنسان لا يعلم شيئا وإمداده بوسائل العلم في القرآن الكريم
٤٨٧	المطلب الثاني: خلق الإنسان لا يعلم شيئا وإمداده بوسائل العلم في ضوء الاكتشافات العلمية
٤٩٧	المطلب الثالث: ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها
٥٠١	الفصل الخامس: مباحث متفرقة في خلق الإنسان
٥٠٢	المبحث الأول: القرار المكين
٥٠٣	المطلب الأول: القرار المكين في القرآن الكريم
٥٠٨	المطلب الثاني: القرار المكين في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة
٥١٧	المطلب الثالث: ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها

٥٢١	المبحث الثاني: علم ما في الأرحام
٥٢٢	المطلب الأول: علم ما في الأرحام في القرآن الكريم
٥٢٦	ما تغيض الأرحام وما تزداد
٥٣١	دمغ شبهة معارضة كشف الطب لبعض أسرار الأجنة باختصاص الله بعلم ما في الأرحام
٥٣٨	المطلب الثاني: علم ما في الأرحام في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة
٥٤٦	المطلب الثالث: ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها
٥٥١	المبحث الثالث: الظلمات الثلاث
٥٥٢	المطلب الأول: الظلمات الثلاث في القرآن الكريم
٥٥٧	المطلب الثاني: الظلمات الثلاث في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة
٥٦٣	المطلب الثالث: ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها
٥٦٦	المبحث الرابع: تسوية البنان
٥٦٧	المطلب الأول: تسوية البنان في القرآن الكريم
٥٧٢	المطلب الثاني: تسوية البنان في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة
٥٨١	المطلب الثالث: ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها
٥٨٥	المبحث الخامس: مدة الحمل
٥٨٦	المطلب الأول: مدة الحمل في القرآن الكريم
٥٩٥	المطلب الثاني: مدة الحمل في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة
٦٠٣	المطلب الثالث: ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها
٦١١	المبحث السادس: تيسير السبيل
٦١٢	المطلب الأول: تيسير السبيل في القرآن الكريم
٦١٧	المطلب الثاني: تيسير السبيل في ضوء الاكتشافات العلمية
٦٢٥	المطلب الثالث: ملخص الدراسات التفسيرية والعلمية وأثرها
٦٣٠	الخاتمة
٦٣٩	فهرس الموضوعات